

مسلمو الاندلس

القبائل

كأن المؤلف يريد أن يقول ان المسلمين لا يرتسبون عن دينهم من أنفسهم ويعطلق اختيارهم والا فلما ثبت تاريخياً ان مئات ألوف من مسلمي الاندلس قد تنصروا وان كثيرين من الأسبانيول اليوم لا سيما سكان جنوبي أسبانية هم من سلالة العرب وتجدهم يحفظون أنسابهم ومنهم من عندهم شجرات النسب ومنهم من يدل بقرني الى بعض المسلمين في أفريقية .

وان كثيراً من الأسم النبيلة الأسبانيولية ينسب الى أصل عربي ولا يزال يحمل الى يوم الناس هذا أسماء عربية فتجد في اشبيلية مثلاً بنى أمية - وأحياناً يلفظها الأسبان خية - وتجد بنى عباد و بنى عمرو و بنى الفخار وغيرهم . وقد ناولني المستشرق الأسباني الفرناطي السنيور « ايزيدورو دولاس كاخيكاس » Isidoro de las Kajikas قنصل أسبانية في تطاون جدولا فيه أسماء عائلات اسبانيولية نبيلة متحدرة من أصل عربي مثل « عائلة البدوق البرقوقي » في طريف والأسبانيول يقولون Alburquerque وحدثني صديقي الحاج عبدالسلام بنونه الذي هو من أعلام المغرب وانجده الطالعة بأن في « انجرة » من جبال الريف عائلة البرقوقي أي أنه يوجد البرقوقي في طريف وفي العدة المغربية المقابلة للريف . ومثل عائلة « القلعة » Alkala ومنها المركيز « الداما » ومنها عائلة « الكدية » Alkudia في « انارقي » ومنها عائلة « المازان » Almazan في « بنالو » ومنها عائلة « المناره » Almenara في « بناميج » ومنها عائلة « المدور » Almodavar في « كبريس » وهم منسوبون الى قلعة المدور عند قرطبة ويوجد في طنجة وتطاون بنو المدور . ومنها عائلة « بيانه » Baena نسبة الى بلدة بهذا الاسم . ومنها بنو « دانية » Dénia في « وادي اليازان » ويوجد بنو

دانية (تلفظ بالامالة) في الرباط وهم عائلات كثيرة. ومنها بنو «غرناطة ديفا» Granada De Bija . ومنها بنو «جريك» والأسبان يقولون «خريكا» ومنها «بنو مدينة سالي» Medinaeeli وهكذا يلفظ الأسبانول مدينة سالم على القطع بل يلفظون السين من سالم ثاءً ويقولون «مدينة ثالي» ومنهم الكونت «دوكافيا» . ومنها بنو «مدينة شنونيه» Medina Sidonia . ومن هؤلاء الفيكونت «دولا البوراده» ومنها بنو «ناجره» Najra . ومنها بنو «سويقو» Suco . ومنها عائلة المرکيز «دو ابراده» De Abrada في «دلا مازان» ومنها عائلة البانان Albalan . ومنها عائلة البلوطي Albolote لعلمها عائلة القاضي منسرين سعيد البلوطي الشهير قاضي الجماعة بقرطبة لعهد الناصر وكان ينسب الى خص البلوط . ومنها عائلة «الفصير» Alcocévar في بلدة «قزازه» ومنها عائلة «البروسس» Albarroces في «كائيشي» ومنها عائلة «التمراس» Alfarras في «قمارش» Camares . ومنها عائلة «دولا الغاب» De la Algaba في «ديلار» . ومنها عائلة «الغار» Algara في بلدة «الش» . ومنها عائلة «دولا غرفه» Algofra في «وادي المينا» . ومنها عائلة «الحه» Alhama في «ابرياني» ومنها عائلة «الهندين» Alhendin في «مرشلينه» ومنها عائلة «المنصوره» Almozora في «تامريت» . ومنها عائلة «المرسي» Almarza في «تاراسينه» . ومنها عائلة «القبة» Alkibla في «الزهرا» Zahra . ومنها عائلة «آرمونيه» Armunia في «صفرا» ومنها عائلة «باشرس» Baeres في «زويه» ومنها عائلة «بيدس» Bades

ويقال ان رئيس جمهورية أسبانيا الحالي «القلعه سموره» Alkala Zamora هو من أصل عربي . ويقال أيضاً ان رئيس الوزارة الحالي Azania الذي يغلب أن يكون «السانيه» هو أيضاً من أصل عربي . وكذلك ناظر المعارف الحالي في أسبانية De los Rios هو حسبما يروي من أصل عربي . وقد تألفت في أثناء تجديد هذا الكتاب جمعية أسبانيوية اسلامية في مجريط عاصمة أسبانيا مقصدها التقريب بين المسلمين والأسبان رئيسها السنيور «خوشي فرانشي» نائب مجريط وخليفته الرئيس محرر هذه الأسطر والسنويو «اميليو بيانديو» وفيها بضعة عشر شخصاً من نواب المجلس الأسباني ومن أدباء أسبانيا وساستها . وفيها من المسلمين عدا هذا الفقير الى ربه الأخ احسان بك الجابري زميلي في الوفد السوري الفلسطيني والحاج عبد السلام بنونه عين أعيان تطوان والسادة محمد القاسمي وأحمد

بلافريج وعبدالحق الطوريس ومحمد الداود ومحمد بن الحسن الوزاني وهؤلاء هم نخبة شبان المغرب علماً ونجاةً وتحصيلاً وسراوة . وفي هذه الجمعية السيد خليل بن أمية من صحافي اشبيلية والسيد « أنريكي دورافولس » وهو أيضاً من أصل عربي يقول ان أصل اسمهم رجال ولما كان الأسبانيون كثيراً ما يقبلون الحاء ، فأء فقد جعلوها « رفال » كما قالوا في البحيرة « البقرة » في بلنسية وبعد أن صار اسمهم « رفال » جعلوه « رفولس » فهو عربي المحدث بحسب قوله . ومن هذا النمط بنو سراج المشهورون في الأندلس من أعقابهم أناس بمالقة يقال لهم « بنو سراخ » على عادة الأسبانيول في قلب الجيم خاء . وفي مدينة جنيف بسويسرة شارع « أبو زيت » Abouzil وهو منسوب الى المسيو « أبو زيد » الذي كان أعلم علماء زمانه وكان عربياً مشهوراً أصله من « تولوز » وأصل سلفه من جالية الأندلس الى جنوبي فرنسة كانوا أطباء وتنصروا على مذهب البروتستانت فيمن تنصر من تلك الجالية . ثم لما صدر أمر لويس الرابع عشر بتبع المذهب البروتستانتى من فرنسة جلا كثير من البروتستانت الى سائر البلدان مثل ألمانيا وهولاندة وسويسرة وجاء أبو زيد هذا الى جنيف وكان معاصراً لفولتير ولروسو ولنيوطن وللينيتز وكان جميعهم يعجبون بسعة معارفه وكان فولتير يستفتيه في عويص المسائل ويقول له « صديقنا العربي » . وفي سويسرة أكثر من اسم عربي وأما في فرنسة فهو كثير لاسمها في الجنوب ومن هذا القبيل المسيو « موروجافرى » المحامى نائب كورسيكا Moro Jafari وهو المغربي الجعفري كما لا يخفى وتحرير هذه المسألة أنه لما غلب فرديناند وازابلا على آخر مملكة اسلامية في أسبانية وهى دولة بنى الأحمر من سلالة الخزرج الذين كان كرسيمهم غرناطة واستولوا على هذه البلدة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهدة ليس هنا محل تفصيلها وإنما نأخذها حسبما جاء في نصح الطبيب : تأمين السكير والصغير فى النفس والأهل والمال وإبقاء الناس فى أما كتبهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك . وأن لا يدخل النصرارى دار مسلم ولا يفتسبوا أحداً . وأن لا يولئى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل . وأن يفتك جميع من أسر فى غرناطة من حيث كانوا وخصوصاً أعياناً نص عليهم . ومن عرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لسواه

والسلطان يدفع ثمنه مائة الف دينار . ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في
مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر ما لهم والكراء .
وأن لا يؤخذ أحد بدين غيره وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم . وأن
من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من
النصارى فإن أبى الرجوع الى الاسلام تهادى على ما أراد . ولا يعاقب من قتل نصرانياً أيام
الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة . ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد
النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة . وترفع عنهم جميع
المظالم والمغارم المحدثه ، ولا يطلع نصراني للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ولا يدخل
مسجداً من مساجدهم ويسير المسلم في بلاد النصارى أمناً في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة
كما يجعل اليهود وأهل اللجن ولا يمنع من ، ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه
ومن ضحك منهم يعاقب . ويتركون من المغارم سنين معلومة وأن يوافق على كل الشروط
صاحب رومة (أي البابا) انتهى

ولقد أوردت تلخيص هذه المعاهدة في كتابي « آخر بني سراج » الذي ذكته
بتاريخ الأندلس المطبوع أول مرة سنة ١٨٩٧ مسيحية فقلت : انها محس وخسبون مادة
تضمن من تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق وفي طيها من عهد المحاسنة والملاطفة والمراعاة
والمحافظة على أعراض القوم وعقائدهم ودياناتهم وأموالهم وكراماتهم ورجالهم ما لا يبي به
الا نصه ، وقد تكرر في المادة الخامسة العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين
ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة وبعدم التعرض لأموالهم الشرعية بل إعادة ذلك إلى
فقهاءهم وبالمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملاصبتهم وأن يبقى هذا العهد معمولاً به في
الأعقاب وأعقاب الأعقاب

وفي المادة السادسة عدم سلب أسلحة المسلمين ولا مراكبهم ولا مواشيهم الا
الاسلحة النارية فتقرر أخذها . وفي المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة
بأمواله وأمنته وفيها بعدها اجازته على نفقة دولة قشتالة من أي مرسى أراد . وتسهيل
تعاملات بيع الفقل لمن شاء الرجوع واذا لم يتهيأ البيع ووكل صاحب الملك وكيلاً تعتبر
وكالته ويساعد على استيفاء حاصلاته وإيصالها إليه بمكانه من وراء البحر . وورد في المادة

الحادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى جامعاً بدون رخصة من الفقهاء .
 وورد في المادة الخامسة عشرة اعفاء السلطان أبي عبد الله وسائر أمراء المسلمين وقوادحهم
 وفقهائهم من الضرائب والرسوم واقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا العهد ملوكهم وان
 تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعاً . وورد في المادة السادسة عشرة والتي بعدها ما
 يتضمن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين ولا المالك ولا الملكة ومن خالف
 ذلك يجازى بشدة . وفي المادة الخامسة والعشرين اذا فر أحد من أسرى المسلمين المعتقلين
 في سائر الممالك ، ووصل الى غرناطة فقد نجا ولم يكن لشرطة غرناطة أن تمسكه لكن هذا
 الامتياز خاص بعرب الأندلس لا يتناول أسرى المغرب . وفي المادة الثلاثين أن من أسلم من
 النصارى قبل هذه الكائنة فلا يعامل الا بالحسنى ولا يلقي أقل تحقير ومن حالف ذلك ينال
 من الجزاء شدة . وفي المادة الواحدة والثلاثين لا يجبر مسلم ولا مسلمة على قبول الدين المسيحي
 وفي المادة الثانية والثلاثين اذا كان المسلم متزوجاً بنصرانية وأسامت لا تجبر على الرجوع الى
 دينها الأصلي والذين يتولدون من هذا الزواج يعدون مسلمين ولو ارتدت الزوجة عن اسلامها
 وفي المادة الخامسة والثلاثين لا يرد المسامون شيئاً مما غنموه أثناء الوقائع التي جرت الى يوم
 تسليم البلد وفيما بعدها لا يعاقبون على شيء مما مضى من تحقير الاسرى أو اجاتهم . وفي المادة
 الثانية والاربعين تفصل الخصومات بين المسلمين والنصارى في مجلس مؤلف من قائدين أحدهما
 مسلم والآخر مسيحي . وفي الثالثة والاربعين تعاد جميع اسرى المسلمين في مدة ثمانية أشهر من
 أى بلدة وجدوا فيها من اسبانية وفي مدة خمسة أشهر ان كانوا في بلاد الاندلس . وفي التي
 تليها ذكر اضلاق سبيل ابن الدرامي الأسور عند غونزالف هرنانديز وعثمان اسير كوند
 تانديله ورضوان اسير صاحب قبره واعادة الفقيه ابن يحيى الدين ورفاقه الذين غابوا على أثر
 حادثة ابراهيم بن سراج اينما وجدوا . وفي السادسة والاربعين تسهيل حركات سفن المغاربة
 في مراسي الأندلس واعفاؤها تلك المدة من دفع رسوم بشرط عدم نقلها اسرى من
 النصارى . وفي النانية والحسين عدم استخدام شرطة من النصارى لمراقبة شؤون المسلمين
 بل تكون شرطتهم من أنفسهم

وفي آخر هذه المعاهدة تعهد الملك فرديناند وامرأته ايزابلا صاحبا ممالك قشتالة واراغون
 وليون وصقلية بان يحافظا على نص شروطها حرفاً بحرف ويجريا جميع أحكامها من خاص

وعام وكلمى وجزئى بكمال التدقيق وبدون ادنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الاسباب وان تبقى على شكلها وهيتها ولا يتغير ولا يتبدل حرف منها الى الأبد . ولا يمكن أحداً من خلفاء الملوكين النصارى اليهما ولا خلفاء خلفائهم ولا حفيدتهما ولا أولادهم الى ما شاء الله ان ينقضوا أقل حكم من أحكامها أو يبدلوا حركة من حركاتها . وأعطى الأمر بها الى الامراء والوزراء والقواد والأجناد والرهبان والرعية من حاضر وغائب وقاص ودان وكبير وصغير واعلن أن من يجرؤ على الخلل بشئ مما تضمنته هذه المعاهدة يجرى جزاء من أقدم على افساد البراءات الملوكية أو تقليد الحجج والسندات وذلك بدون أدنى تأخير

وأقسم الملك فرديناند والملكة ايزابلا وسائر من أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم برعايتها الى الأبد على الصورة الميئة وكتبت على رق غزال محلى ومطرز نحريراً فى ثلاثين من ديسمبر سنة احدى وتسعين واربعمائة والقب من الميلاد

وحررها « فرناندو صفره » بأمر الملكين وامضاها الملك فرديناند والملكة ايزابلا وأولادهما الدون جان والدونة ايزابلا والدونة حنة والدونة ماريانة والدونة كاتالينه ورئيس أساقفة اشبيلية الدون دياغو هرتادو ورئيس اساقفة صانثيا غو الدون الفونس وكبير فرسان صانثيا غو المسعى بالدون الفونس أيضاً والدون جان كبير فرسان القنطرة والدون الثارو زعيم رهايين ماريوحنا والدون بيرو غونزالس كرينال اسبانية ورئيس اساقفة المملكة والدون هنرى كبير حكومة اراغون ومن ابناء عم الملك والدون الفونس من أبناء عمه أيضاً والدون الفارو مدير دائرة الملكين والدون بترو فرناندز رئيس جند قشتاله ويلبهم نحو من أربعين دوناً كلهم من أبناء السلالة المالكة واساقفة البلاد وأمراءها وأعيانها وقوادها

وكتب ايضا معاهدة اخرى لسطان غرناطة أبى عبد الله بن أبى الحسن متضمنة أربع عشرة مادة فيها تملكه الاقطاعات والاراضى والبلدان التى وهبه اياها الملكان معينا كل منها بذاته والتعهد باعطائه اربعة عشر مليوناً وخمسةائة قطعة من السكة المعروفة بالمرابيد وذلك عند دخولها قلعة الجراء واقرار ملكيته لجميع العقار الموروث واعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم وأداء المكوس عما يجلب من الأمتعة برسمه وانه فى أى وقت شاء يبيع هذه الأراضى والأمالك يشترىها كلها الملكان بقيمتها العادلة وان لم يشأ يبيعها وأراد النقلة الى المغرب

فلو كسل الذي يعينه عليها يستوفى له حاصلاتها ويوردها عليه في أية جهة كان بما وراء البحر . وفي أية وقت عوّل على الاجازة تنقله مع رجاله وعباله وأمواله سفن دولة قشتالة مجاناً . ولا يطلب بشيء ولا يكون مسؤولاً عن شيء مما حصل الى حين عقد الصلح ولا يسترد شيء مما غنمه . وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقه تجرى أيضاً في حق والدته وشقائقه وزوجته وزوجة مولاي أبي نصر . والمعاهدة الثانية مؤرخة في يوم تاريخ الاولى الا اني وجدت أكثر المؤرخين يؤرخون امضاء هذه المعاهدات في ٢٥ ديسمبر وفق ٢٢ محرم سنة ٨٩٧ ولما كان الاسبانيون قد أعطوا المسلمين مهلة سبعة يوماً لأجل التسليم بناء على أمل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ازداد الطاغية تيقظاً وسهرراً وجعل الجيوش محيطة بغرناطة السوار بالمعصم وجع الأساطيل وبشها في مراسي الأندلس وفي فرصة المجاز منعاً لكل مدد وارد فلم يطل أحد (ذلك أمة قد دخلت) وان أطل فلم يقن شيئاً لأن سلاطين الاسلام كانوا في ذلك الحين متشاغلين بفتنهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضاً فضلاً عن ان الذي أصبح مقررأ في أذهان عامة المسلمين ان لا أمل بحفظ مملكة الأندلس وتجديد دولة الاسلام فيما وراء البحر الى جهة العدو الاسبانية وان الجهاد في هذه السبيل عبث وهذا الأمر كائن لا محالة فتركوا الأمور وشأنها وأهل غرناطة يعلنون أنفسهم بلعل وعسى . ولكن ابتداء الجوع بعضهم بأنيابه فرأى أبو عبد الله ان انتظار آخر للمدة مما لا يكون له نتيجة سوى زيادة الضيق والجماعة ولا رجاء في ورود أقل مدد ولو كان في قيد الحياة نفس . فتناور الرؤساء فأشاروا بالتسليم قبل انقضاء الأجل المضروب . وفي العشرين من ديسمبر أرسل وزيره يوسف بن كاشة مع الرهائن الى الملك فرديناند وأصحبه بفرسين كريمين وسيف عتيق على سبيل الهدية فبثه مقصده وعزم الجماعة على تسليم البلاد قبل مضي الأمد . وفي اليوم التالي ظهر درويش اسمه حامد بن زارة فأخذ يطوف الأسواق منادياً بالجهاد مستنقراً العامة الى الدفاع قائلاً لهم انه سيرد اليهم نجدة من البشرات ومن بر العدو وان الأمل عظيم بالفرج لكن الملك أبا عبد الله والرؤساء خائفون وكثر القليل والقتال في البلد وصبوا اللعنات على أبي عبد الله ورموه بالخيانة وبيع الدين والوطن فنار نحو من عشرين الفا من أهل غرناطة وتقلدوا أسلحتهم وخرجوا في الأسواق بضوضاء ملأت الفضاء عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو فاستمروا يوماً كاملاً وقسموا من الليل

في هذه الحركة وإذا باعصار شديد قد عصفت بشدة فالزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بسبب العاصف وفي اليوم التالي خرج أبو عبد الله من الجراء محفوفاً برؤساء البلد وخطب الأمة قائلاً لهم : « لا ذنب الاذنبى . أنا الذى عققته والذى وجلبت الأعداء على المملكة لكن الله قد أخذنى بجراثرى وأزىل النعمة كلها على رأسى وها أناذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لأجلكم يا قومى ضناً بدمكم أن يراق سدى وبأطفالكم أن يموتوا جوعاً وبسائكم وذرائعكم أن تنزل فيهن معرات الحرب وحفظاً لأموالكم وأملاككم وحريةكم وشريعتكم وديانتكم فى ظل ملوك أسعد طالعاً من أبى عبد الله المشؤوم » فأثرت رقة كلامه فى خواطر القوم وسكنت سورة حقدهم واستلت نعومة خطابه ماخشن فى صدورهم فأنفضوا الى أمكتهم .

وفى الحال أرسل أبو عبد الله الى الملكين يعرض عليهما التسليم فى اليوم التالى حذراً من تجدد الحوادث فرضياً بذلك وتأهباً لدخول الجراء كما ان أباً عبد الله وأسرته وحشمه أحيوا الليل فى التأهب للخروج وقد غسلوا إبهاء الجراء بدموعهم وملاً وانواحياً بنواحهم وزموا حقائبهم بما فيها من السائر والاعلاق وحلواها البغال . وقبل أن تبلج الفجر انساب حريم أبى عبد الله وأهل القصر من أحد الأبواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المسلمين الذين بقوا متمسكين بعروة سلطانهم الى الآخر وساروا من أحد الأحياء المعزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية . أما عائشة الحرة والدة أبو عبد الله فكانت متجلدة متجملة .

وأما امرأته وسائر جوارى القصر فقد قرح البكاء ما قيهن وخدد الدمع خدودهن . ولما وصل الموكب الى احدى القرى التى على طريق البشرات وقف ينتظر وصول أبى عبد الله وعند مطلع الشمس جاءت فرقة من الخيالة والمشاة يصحبها « هرناندو دولا تافيره » مطران افيليا ودخلت من أحد أبواب المدينة حسبما كان وقع عليه الاتفاق فالتقاهما السلطان ابو عبد الله وقال للطران المذكور : « امض وتسلم هذه الحصون التى صيرها الله الى يدك عقاباً للمسلمين على اعمالهم » ثم تقدم للاقاة الملكين وتقدمت العساكر فدخلت الجراء وكان فرديناند وايزابلا ينتظران رؤية اعلام اسبانية فوق أبراجها ففضت مدة وأنظارهما شاخصة فلم يرا شيئاً غشياً وقوع حادث لكن لم يكن الا قليل بعد ذلك حتى خفقت راية الصليب فوق أبراج الجراء وبجانبيها راية مار يعقوب وعلاهتاف العساكر فلما رأى الملكان ذلك بكاتهما على ضفة الشنيل خيراً جائبين على ركبهما واقتدى بهما جميع الأمراء

والقواد والجند شكراً لله تعالى على ما من به . وبعد انتهاء الصلوات استأنفوا السير حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الشقي (١) فلما وقعت العين على العين أراد السلطان التبرجل لجلال الملكين فنعاه من ذلك فهوى على يد الطاغية ليقبلها فلم يتمكن فرديناند من ذلك . وقيل إن الملكة أيضاً أبت أن ترسل له يدها وإنما أحسنت تعزيبه وسامته ابنه الذي كان مرهوناً عندها فضمه إلى صدره وأخذ يقبله كأن الشفاء زاد من تعنى أحدهما بالآخر . ثم سلم أبو عبد الله مفاتيح البلد إلى الملك قائلاً له « هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في أسبانية خذها فقد أصبح لك ملكنا ومتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى فتقبلها بالرأفة التي وعدت بها والتي نتظرها منك » فأجاب فرديناند : « لاشك في إجراء ما وعدنا به وعسى أن يكون لك من صحبتنا الحظ الذي لم يكن لك من عداوتنا » ثم دفع فرديناند المفاتيح إلى الملكة فدفعتها إلى ابنهما البرنس جويان وهذا أعطاها إلى الكونت تنديله الذي كان قد عين قائداً لقرنطة

ثم انفصل أبو عبد الله عن الملكين قاصداً المقر الذي كان قد عين له في وادي ريشانة وسار الطاغية وامرأته نحو المدينة وأصوات الموسيقى مسموعة إلى بعيد ولم يدخلها يوم تسليمها خوفاً من العذر وانتظرا أن تنبأها جميع العساكر لما كان يرعبيهما من اسم قرنطة . أما سلطان قرنطة السابق فلما وصل إلى مرقب عال على مسافة مرحلتين من المدينة يشرف عليها وقف يودع مدينته فلم تكن في عينه أجل منها في تلك الساعة فأخذ يتأمل في أبراجها وقلاعها ومناظرها الضاربة في السماء ومرجها النضير المنقطع النظير وقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم ينفصلوا عنه وهم يتأملون - كونا قدأ بكمهم الحزن وأخرسهم الهم وإذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة ودوى صوت المدافع ايذاناً بأن المدينة دخلت في حوزة الأسبانيول وانقطعت منها دولة الاسلام فعندها خفق فؤاد أبي عبد الله ولم يملك نفسه من البكاء فصاح « الله أكبر » وفسح مجال الدمع واستمطرماء العيون فجادت بالشكيب فقالت له أمه عائشة الحرة المشهورة بالشدة « عليك أن تبكي بكاء النساء ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال » وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ . واجتهاد وزيره

(١) في أثناء رحلتي الأندلسية سنة ١٩٣٠ واقام خمسة عشر يوماً بقرنطة مرت بهذا المكان الذي سلم فيه أبو عبدالله مفاتيح عاصمة ملكة الأخير إلى فرديناند ودلوني على مكان الجامع

يوسف بن كاشنة في تعزيبه فلم يقبل قلبه العزاء و بقيت شؤون عينيه قائمه وزفرانه متصاعدة وهو يقول: « أي شقاء مثل شقائي » وقد سمي الأسبانيون تلك الهضبة التي وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكي المنزل والحبيب « بأخر حسرات المغربي »^(١) ولما وقف فرديناند عن دخول البلد خوف القبيلة الى أن تكون عساكره احتلت المواقع جميعها أرسل مركيز « فيلنه » وكونت « تسديله » بثلاثة آلاف فارس وجيش من المشاة مصحوبين بالأمير سيدي يحيى الذي سماه النصارى بعد نصره بالدون « بسرو دو غرناطة » وعين للنظر في أمور المغاربة وبابنه الذي أطلقوا عليه اسم الدون « الوزودو غرناطة » وكان أميراً للاسطول فتبوأوا جميع الأبراج ونشروا فوقها الاعلام الأسبانية

ولم يدخل الملكان المدينة الا في سادس يناير وكان الاحتفال بدخولها باهراً وظلاماً سائرين الى مسجد غرناطة الأعظم فحوالده كنيسة^(٢) وأقيمت الصلاة شكراً لله تعالى على هذا الفتح المبين وأقبل الأمراء والقواد وعظماء الأسبانيون على الملكين يقبلون أيديهما ويهنئونهما على هذه النعمة التي اختصها الله بها وكرمها باحرازها . وبعد الخروج من الكنيسة سارا الى الجراء الموصوفة فألفياها فوق ما كانا يتصوران من اتقان الصنعة ونفاعة البنيان ورحابة الساحات واطافة الرسوم والنقوش وأعجبا بما فيها من الزخرفة التي تقطع دونها الأيدي والتألق البالغ حده سواء في الابهاء أو المقاصير أو النوافر والصحاريج أو المداخل والتعاريج اذ يتعجب الناظر ما بين مرمر منون وعسجد مصون وسوار كأنها مفرغة في أحسن القوالب وسقوف كأنها السماء زينت بالكواكب . فاتخذ الملكان لها عرشاً فيها وجلسا للتهنئة حيث جاء أهل غرناطة والبشرات يقدمون لها واجب الاجلال ويقبلون أيديهما صاغرين . ووجد في غرناطة يوم دخول الملكين اليها خمسمائة أسير من الأسبانيون

هكذا انتهت تلك الحرب التي استمرت عشر سنين لم تفتر فيها الوقائع ولا نشفت

(١) وهذا المكان قد مررت به أيضاً في سياحتي الى جبال البصرات

(٢) وقد دخلت هذه الكنيسة وشاهدتها في أثناء زيارتي لغرناطة سنة ١٩٣٠ وشاهدت مدفن فرديناند وازابلا قرب هذه الكنيسة ورأيت صوراً كثيرة على الجدران منها صورة جماعة من مسلمي الأندلس من رجال ونساء يتصرفون بين أيدي أخبار الأسبانيون وعلى وجوههم غيرة الموت

فيها الدماء ولا انقطعت المصارع وبنهايتها انصرف حبل الاسلام من بلاد الأندلس بعد ان استتببت دولته فيها سبعمئة وثمانيا وسبعين سنة منذ انهزم لذريق على صفاف الوادي الكبير الى تسليم غرناطة والله وارث الأرض ومن عليها

ثم نقلنا ماجاء في نفع الطيب عن هذه الكائنة العظيمة مما يقدر أن يراجعه من شاء اما في كتابنا « آخر بني سراج » المذيل بتاريخ الأندلس واما في نفع الطيب نفسه كما أنه يتمكن أن يراجع وصف هذه الكائنة في كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » لمؤلف لم يذكر اسمه يظهر من نسق روايته أنه كان حياً في ذلك الوقت وانه شاهد الوقائع بنفسه وهذا الكتاب مطبوع أيضاً ذيلاً لآخر بني سراج . ثم قلنا :

« وبعد أن دخلت غرناطة في حوزة الأسبانيول انقطع السلطان أبو عبد الله بن الأحمر في أرضه بوادي برشانة حيث وفر له الطاغية الاقطاعات وكذلك لوزيره يوسف بن كاشة الذي لزم بابه فأقام مدة هناك ذاق أثناءها طعم الراحة وانتفض من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط . ولكن الأمر لم يطل به حتى عاد يذكر ماضى ملكه وعلياته ويحس الى غابر حراره فتشور فيه الأشجان ويستنهر فؤاده الأحزان . وفي هاتيك المدة لم يدع الملكان وسيلة الا استعمالها لأجل صباه عن دين آباءه وادخاله في النصرانية فأخفت ساعيهما وتيق باهلها مشغولاً من جهته اذ لم يزل وجوده هناك محلاً للخوف من انتقاض مسلمي الأندلس تحت رايته والتفافهم حوالبه ففي سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كاشة سراً في ابتياع أراضي مولاه بثمانية آلاف دوكان من الذهب فتمت الصفقة وانعقد البيع بدون علم أبي عبد الله وبدون أن يعنى فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكالة بل تقدمه المال فتم له البغال وسار الى البشرات فلما وصل بين يدي مولاه ثر الدنانير أمامه قائلاًه :

« رأيت يامولاي أن بقاءك هنا معرض للخطر فان المغاربة أهل اقدام وثار ومهلة أونار ولا يبعد أن يشوروا مرة رافعين رايته وتغري نورتهم اليك فتقع في المقيم المقعد . وما دمت في هذه البلاد يخطر في بالك أنك كنت أميرها على حين لا أمل في رجوع هذه الامارة لك . لذلك رأيت الأنجح في حقك بيع أراضيك وقبضت ثمنها وها هو اديك بإمكانك أن تمتلك به أراضي واسعة جداً وراء البحر »

« فلما سمع أبو عبد الله هذه الكلمات استشاط غضباً واخترب سيفه وكاد يضرب به رأس وزيره فأمرع هذا إلى الفرار من حضرته وبقى أبو عبد الله وحده يتأمل في هذه المسألة ويقلب من وجوها فلم يلبث أن ذهب ما به وعاد إليه سكونه واستدل على أن هذه الصفة لم تكن لتجرى لولا رغبة فرديناند في زياله من هناك وأن الحق قد يكون مع وزيره يوسف بن كاشة فأجمع الرحلة وشد حقايبه . وجع أمواله وكنوزه وتحمل إلى أحد الثغور^(١) حيث شيعة كثير من قومه داعين له بالنسيب^(٢) . فلما ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غرناطة انهملت منها العبرات وتضاعفت من صدره الزفرات ونزل بمليلاً ومنها سار إلى فاس زليلاً على سلطانها متلهفاً على ماسلف . وفي بعض تواريخ الأفرنج أنه توفي قتيلاً في إحدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦ أي بعد ٤٤ حولاً من فراقه أسبانية ولذلك قال فيه أحد المؤرخين انه قتل في سبيل الدفاع عن مملكة سواه بعد أن جبن عن أن يقتل في الدفاع عن حوض مملكته »

وأما النضج فيقول في نهاية أمره ما يأتي :

« ثم احتال (أي الطاغية) في ارتحاله (أي أبي عبد الله) لبر العدو وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور فكتب لصاحب المرية : انه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدو ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له . فأنصرف في الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر ونزل بمليلة واستوطن فاساً وكان قبل طلب الجواز لتأخيه مرا كس فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء و بلاء »

ويقول بعد ذلك : « والسلطان المذكور الذي اخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقضت بدولته مملكة الاسلام بالأندلس وحيث رسومها ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله واسطة عقدهم ومشيدهم مبانيهم الاثنية و السلطان دولتهم على الحقيقة وهو المخالوع الوافد على الأصقاع

(١) وقد مهدت بعضى في سنة ١٩٣٠ بالرسى الذي أفلح منه أبو عبد الله بن الأحمر من الأندلس

فاصدا المغرب

(٢) وقرأت أنه هاجر معه نحو من ألف نسمة من مسلمي الأندلس

المرينية بفاس العائد منها للملكه في أرفع الصنائع الرجانية العاطرة الانفاس — وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب — ابن السلطان ابي الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطرؤه بمرج غرناطة ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الانصارى الخزرى رحيم الله تعالى جميعا . وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بعيلة الى مدينة فاس باهله وأولاده معتزاً عما أسلفه متلفاً على ما خلفه وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس رأيتها ودخلتها وتو في رحه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين أحدهما اسمه يوسف والآخر أحمد . وعقب هذا السلطان الى الآن بفاس وعهدى بذريته بفاس الى الآن سنة ١٠٣٧ . يأخون من أوقاف الفقراء والمساكين ويعدون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . انتهى

قلت : وقد قرأت في بعض كتب الافرنج انه كان للسلطان ابي عبد الله اخوة صغار من غير امه لبثوا في غرناطة بعد أخذ الاسبانيول اياها وتصوروا وتحولوا اسبانيولاً ولكنى لم أطلع على خبر اسبانيول في الوقت الحاضر ينسبون الى بنى الأحر . ولقد سمعت من الأخ الكريم الحاج عبد السلام بن العربى بنونه من عيون أعيان تطاون بل من عيون أعيان المغرب كله ان ببلدهم اسرة تنسب الى بنى الأحر الى يومنا هذا . وقيل لى انه لا يزال منهم بفاس أيضاً

ثم انى أقول فى ذيل « آخر بنى سراج » ما بلى :

« ولندكر حالة بقية مسامى الأندلس بعد ذهاب ملكهم فنقول : ورد فى تاريخ

« الاسلام فى اسبانية » تاليف « ستانلى لانبول » ما محصله :

« ان آخر أنفاس ابنى عبد الله على تلك الربوة لم يكن بأخرحر أنفاس المسلمين فى

تلك الديار بل بداية أنفاس يرسلونها الصعاء وافتتاح عهد انتقام وابتلاء وان اسقف غرناطة

الأول « هرناندو دوتالافيره » كان رجلاً حليماً . عادلاً أحسن معاملة المغاربة وأبى للجور

عليهم وتعلم العربى وكان يصلى به وعلى يده ارتد ألوف من المغاربة الى النصرانية قبيل ان

ثلاثة آلاف تنصروا فى يوم واحد . الا أن الكردينال « كسيميناس » الذى كان من

الضم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعترف السبيل ومال الى العنف والاكراه وأساء

معاملة المسلمين وحمل الملكة ايزابلا على ما بقى نقطة دهماً في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم واكراههم على التنصر فأتار ذلك ساكنهم وأخرج كل منهم وفي إحدى المرات حبست امرأة في البيازين لشأن من هذا القبيل فنار سكان البيازين وتحصنوا وحلوا السلاح وكلدوا يفتكون بالجند وأوشك الدم أن يسيل بحدة الكردينال كسيميناس إلا أن المطران هرناندو الموصوف بالوداعة دخل روض البيازين بالسكينة والأنس مع نفر قليل من حاشيته بدون سلاح وسأل القوم عن شكواهم وتقبلها منهم بالاستماع والاحتفال وهدأ روعهم واعد طائر الأمن الى وكره وحجب الدماء يومئذ . اما كسيميناس المشهور فلم يزل يعوى الملكة حتى أصدرت أمرها باكرام المسلمين على إحدى الخطتين الجلاء أو النصرانية وذلك بانهم كانوا يذكرون المسلمين بانهم من سلالة النصارى في الأصل فاقفلت المساجد وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزبدة الحقب^(١) وأذيق المسلمون العذاب اشكلاً والواناً ففضل عامتهم فراق دينهم على فراق أوطانهم إلا أن شعلة من الحية الاسلامية بقيت تلمع في جبال البشرا حيث حنهم أوعارهم من مضطهديهم

« وأول جيش أرسل اليهم كان تحت قيادة الدون «ألوزودو اغيلار» البطل المشهور انهزم هزيمة شنعاء وذلك سنة ١٥٠١ وقتل الدون المذكور وقيل انه الدون الخامس المقتول من تلك العشرة في حرب المسلمين فازداد انتقام الاسبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت «طنديله» على «فوجار» وهدم كونت «سرين» جامعاً على جماعة التجأوا اليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم . وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال فن بقى حياً من الثوار فر الى مراكش ومصر والبلاد العثمانية وانتهت الثورة الأولى في الجبال

«ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب والمسامون المنتصرون يعمدون أولادهم ظاهراً فاذا انصرف القسيس مسحوا عن الولد ماء المعمودية واذا تزوج أحد الموريسك^(٢) أجرى القسيس عقد الاكاييل ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الاسلامية

(١) ذكر في بعض كتب الاسبانيول أنه أحرق في غرناطة في يوم واحد مليون مجلد وقيل بل مائة ألف مجلد وقرأت في بعض كتبهم أنهم أحرقوا كل الكتب الا التأليف المتعلقة بالطب والرياضيات
(٢) لقب المنتصرة من المغاربة

«وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونونهم على اختطاف أولاد النصرى ويأتون غير ذلك من الأعمال انتقاماً فلو كانت ثمة حكومة عاقلة قومية ترعى عهودها لثبتي وافقت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق ولكن حكام الاسبانيول لم يكونوا أهل عقل ولا أهل عدل وكانوا يزدادون بتدادى الأيام شرّاً ولم تلبث الأوامر ان صدرت باكره المسامحين على ترك ألبستهم الخاصة بهم وإبس البرنيطة والسراويلات الاسبانيوية وحظر عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداءً بغالبهم في احتمال الاقدار^(١) ثم منعوهم من التكلم بالعربية وصدر الأمر بان لا يتكلموا بغير الاسبانيولي وبن يغيروا اسماءهم ويسيروا سيرة اسبانيوية ويسموا أنفسهم اسبانيولاً . وكان تصديق الامبراطور شرلكان هذا الأمر النطع في سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر منه اعتماده على اجرائه بالفعل لكن عماله اتخذوه ذريعة لاستنزاف أموال المومسين من الموريسك وصار ديوان التفتيش يحترف ويتجر بهذه المسئلة . ولما صار الأمر الى فيليب الثاني شدد في انفاذ الأوامر بحق الموريسك وسنة ١٥٦٧ عزز الأمر الصادر بشأن تغيير الزى واللغة باستيثاق غريب لأجل منع النظافة التي هي من سنن الاسلام وذلك بانه أخذ يهدم حمامات الجراء البديعة . فالطرق التي أخذوا بها انشكبر أحوال تلك الأمة البائسة كانت أشد من أن يتحملها أي قبيل دعسلانل المذصور وعبدالرحمن وابناء سراج ولذلك لم يطل الزمن حتى استطار الشر واشتعلت الفتنة وتار فرج بن فرج من نسل بني سراج بجماعة من ذوى الحجية من غرناطة قاصداً الجبال قبل ان يكتت الحامية من تعقبهم ونودي « بهرناندو دوفلور » من نسل خلفاء قرطبة ملكاً على لأندلس تحت اسم محمد بن أمية وعمت الثورة في اسبوع واحد جميع جبال البشريات ووقع ذلك في ١٥٦٨ ولما كانت هذه الجبال من اصعب تضاريس الارض مرتقى وأوعرها مسلكاً كان تدويح سكانها من اصعب الأمور منالاً وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى فاستمرت هذه المرة حولين كاملين حافلاً تاريخها بحوادث لا تحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاحتيال وذلك من الجانبين لامن جانب واحد سكنه حافل ايضاً بوقائع يندر في تاريخ الفروسية وكتب الحاسة الظفر بامثالها وتبقى على صفحات السير ظراً للقرون والأمم . وكان

(١) كان من عادة الشعوب اللاتينية التفريز من الطهارة والاستحمام وكانوا يذرون السلم بقولهم « الذي يدخل الحمام » وكان الاسبانيول يهدمون الحمامات بالثمرة التي يهدمون بها الجوامع.

المغاربة هناك في موطنهم الاخير والموقف الذي يحولون فيه أدراك الثأر عن نحو من مائة سنة قضوها في الهلاء العظيم والهون الذي ليس له نظير فهبوا جميعاً منادين باخذ الثأر واقتضاء الاوتار قرية بعد قرية وهدموا الكنائس واهانوا ما فيها وفتكوا بالمسيحين وعذبوا النصارى الذين وقعوا في ايديهم واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والابراج ودافعوا دفاعاً شديداً . وكان مركز « مونتجارية » قائداً في غرناطة فعمد الى المسئلة واخذ بالملاينة وكادت الوقدة تنطق لولا ما اعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء من المغاربة في حبس البيازين قيل ان ذبحهم وقع بغير علم المركز لكن الموريسك لم يقبلوا العذر ونشروا لواء الثورة وصار ابن امية اميراً بالتمعل على جميع جهات البشرات الا انه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بعض اعوانه وقتلوه وبويغ لرجل آخر موصوف بالنجدة والحاسة اسمه عبدالله بن أبوه

« فأرسلت دولة اسبانية لتسويج النوار الدون «جون الاوسرى» أبا الملك وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر فباشر القتال في شتاء ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ وأنى من الفظائع ما بخلت بانداه كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال امام عينيه وأحرق المساكن ودمر البلاد وكانت علامته « لا هوادة » وانتهى الأمر باذعان الموريسك لكنه لم يطل واستأنف مولاى عبدالله بن أبوه الكرة فاحتال الأسبانيول حتى قتلوه غيلة وبقي رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة ثلاثين سنة . وأغس الاسبانيول في قع الثورة بما أقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان حتى أهلكوا من بقية العرب خلفاً كثيراً وخنع الذين نجوا من الموت لكنهم وقعوا في الرق وسيقوا بماليك وعبدانا ونفى منهم جملة فأخذ عددهم يتناقص . ولما كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين ألفاً والذين أخذوا منهم في معمة الفتنة صاروا الى الاستعباد وأخرج الباقون من البلاد مخفورين فمات كثير منهم على الطرق تعباً ومنهم من أجاز الى بر العدو وطافوا هناك سائلين لأجل قوتهم الضرورى . ومنهم من لجأ الى بلاد فرنسة حيث استقبلوهم برّاً وترحيباً واحتاج اليهم هنرى الرابع لأجل دسائسه في مملكة اسبانيا (١) ولم ينته اخراجهم تماماً الى سنة ١٦٦٠ اذ وقع الجلاء

(١) الحقيقة ان هنرى الرابع أصدر أمراً بقبولهم في فرنسة لكن على شرط أن يتحولوا كاثوليكين وقد نفذ الأمر وأجبروا على النصر الى أن طلب السلطان ابن عثمان اخراجهم من فرنسة الى بلاد الاسلام

الأخير ولم يبق في تلك البلاد مسلم واحد بعد أن وليها الإسلام ثمانية قرن . ويقال ان عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غرناطة الى السنة العاشرة بعد الألف والستائة يبلغ ثلاثة ملايين وان الذين خرجوا الآخر مرة يبلغ نصف مليون

«وأما الاسبانيول الساكنين فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا فهموا أنهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة الذين اسبانية كانت بهم مركز المدينة ومبعث أشعة العلم قرونا . ولما استفادت بقعة أوربية من حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد . فلما غادرها الاسلام انكسفت شمسها ونسلط نجسها وان فضل مساهم الاندلس ليظهر في همجية هؤلاء القوم وتأخرهم في الحضارة وسقوط هذه الأمة في مكائنها الاجتماعية بعد ان خلت ديارها من الاسلام». انتهى كلام ستانلي لامبول ملخصا

وأستشهد في حاشية هذه الجلة بنقل يمثل لك درجة هذه الحقيقة وهو ان لالك حول مدينة غرناطة ضياعاً واسعة ومزارع اضطروا الى بيعها سنة ١٥٩١ بسبب أنهم كانوا يخسرون عليها أكثر من غلتها مع ان هذه البقاع كانت لعهد العرب حدائق غناء وغياضاً وارفة الأفياء وموارد ثروة ورخاء . ومن أراد أن يعرف ما كانت عليه تلك المزارع من الخصب والبناء في زمان العرب فما عليه الا أن يقرأ الاحاطة في أخبار غرناطة تأليف وزير غرناطة الشهير لسان الدين بن الخطيب فال من جلة ما ذكر من وصف بسائنها :

« وتنف صيرة هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى البساتين العريضة المستخلصة والأدواح الملتفة فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرائه . (الى أن يقول) :

وخرج أكثرهم وبن منهم من اختار الإقامة بفرنسة مع النصرانية ولما ظهر مذهب البروتستانت وكان منهم من اختار هذا المذهب وصدر أمر لوديس الرابع عشر باخراج البروتستانت كما لا يخفى هاجر قسم من هؤلاء الى سويسرة وبينهم العالم العلامة الشهر « أبو زيد » Abouzyt الذي كان من أعلم علماء عصره في كل فن وكان صديقاً لقلوب وروسو ووطن ولاينيتر وكان قولته يقول عنه « صديقنا العربي » وطالما كان قولته يستغني في عويس المسائل وكانت بيته وبين روسو مراسلات كثيرة جمها أحدم في كتاب . وفي جنيف الآن شارع باسم ابوزيد تحديداً لذكر هذا العبقري العربي العظيم وكان أبو زيد من عائلة أطباء عربية ساكنة في تولوز بجنوبي فرنسا

« فليس تعرفون من جنباته عن الكروم والجنان جهة الامالا عبرة به مقدار غلوة
 أما ما حازه السفلى من حومته فهي عظيمة الخطر متناهية القيم يضيق جدم من عدا أهل
 الملك عن الوفاء بأتمناها منها ما يقل في السنة الواحدة نحو الألف من الذهب قد غصت منها
 الدكاكين بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة والثمرة المدخرة يختص منها بمستخاص السلطان
 المدور طوقاً على ترائب بلده ما يناهز مائة منها الجنة المعروفة بعد أن الميسة والجنة المعروفة
 بعد أن عصام^(١) والجنة المعروفة بالعروى والجنة المنسوبة الى قداح بن سخنوق والجنة
 المنسوبة لابن المؤذن والجنة المنسوبة لابن كامل وجنة النخلة العليا وجنة النخلة السفلى
 وجنة بن عمران والجنة التي الى نافع والجرف الذي ينسب الى مقبل وجنة العرض وجنة
 الحفرة وجنة الجرف ومدرج نجد ومدرج السبك وجنة العريف^(٢) كلها لانظير لها في احسن
 والريع وطيب التربة وغرقد السقيا والتفاف الأشجار واستجادة الأجناس الى ما يجاورها
 ويتخللها مما يختص بالأحباس الموقفة والجنان المتملكة وما يتصل بها بوادي سحل ما يقبذ
 الطرف ويمجز الوصف قد مثلت منها على الأنهار المتدافعة العباب المتارة القباب واختصت
 من أشجار العاريات ذات العمير الثاني بهذا السقع ما قصرت عنه الأقطار الخ » اقتصرنا
 على هذه الجبل من وصف طويل

ولا شك أن جنان السلطان الموصوفة هذا الوصف كله والتي كانت ندر بالاموال
 والأرزاق أيام العرب هي التي آلت بعد فتح الاسبانيول لغرناطة الى ملك الاسبانيول
 وعادت لعهدهم لا تعطى من الغلة ما يفي بالنفقات اللازمة لها
 وقال واشنطنون ارثين في تاريخه الشهير لفتح غرناطة ما ملخصه :

« انه بعد دخول هذه البلدة في حوزة الاسبانيول بقيت الحال غير مستتية تماما مدة
 سنوات الى أن وقع من اجتهاد رؤساء المذهب الكاثوليكي في حمل المسلمين هناك على

(١) الدنان بفتح أوله وتشديد ثانيه وقد يكسر أوله هو زمن السوء وعهده وهو يقال لدور أصحاب
 المياه في سقيا البساتين وهذه اللفظة مستتلة في الثام بهذا المعنى وقد سرت الى الاندلس الذين أكثر
 عربيا كانوا شاميين

(٢) هذه التي بنول لها الاغرنج Généralic

النصرانية^(١) ما أبأس مغاربة الجبال المتشددين في دينهم فثاروا برؤساء الدين الكاثوليكي وقبضوا على اثنين منهم وعرضوا عليهما الاسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل ان النساء والأولاد قتلوهما فعصاً بالعصى وشدخاً بالحجارة وأحرقوا جثثيهما فاتنقم النصارى من هذه الفعلة بأن اجتمع منهم نحو من ثمانمائة فارس وساروا الى قرى المغاربة بخربون ويعيشون فاعتصم المغاربة بالجبال وانتشرت الفتنة في الجبال كلها لكن وسطها كان في جبل « برميجه » المصاف للبحر^(٢) فلما اتصل الخبر بالملك فرديناند أصدر أوامره بنقل المسلمين الساكنين في جهات الثورة الى قشتالة وأعطى الأمر سراً بأن من يدخل منهم في النصرانية يبقى في وطنه ثم رمى تلك الأمة بالقائد المشهور « الوزودواغيلار » ومعه جيش وهو الذي قضى معظم شبابه في قتال المغاربة فما اقترب من بلادهم حتى هرع جلة وافرة منهم الى رندة للدخول في النصرانية^(٣) وجرم الباقون منهم تحت قيادة فارس منهم اسمه الفهرى الى

(١) قد وقع في تلويح الاسلام أن بعض ملوكه عززوا الاسلام وأحبوا نصره بطرق سلمية ولكنه لم يقع ولا مرة أن المسلمين أكرهوا النصارى أو اليهود على قبول دينهم

(٢) لقد طغت يوم ذهابي الى اسبانية بهذه الجبال ورأيها مندلية الى البحر مع علوها الشاق وفهمت ما كان من السهولة على المسلمين من الثورة فيها والاتصال بالمسلمين الذين كانوا يجردونهم الفينة بعد الفينة من وراء البحر

(٣) عندما كنت في رندة سنة ١٩٣٠ وشاهدت آثار العرب الباقية فيها كالحمام والجسر والأبراج التي عند الباب وحنية المساء المجرورة اليها ولا سيما القصر الذي منه درج تحت الأرض منحوتة في الصخر تبلغ ٣٦٠ درجة نزولاً من القصر الى النهر وغير ذلك من الآثار قلت لما كنت هناك أحبيت أن أستعلم عن منزل أبي البقاء صالح بن شريف الرندي فلم أقف له على أثر وقيل لي ان محلياً اسمه « لوزاو » هو أخبر الناس بخطورة رندة وله تأليف في تاريخها فجاء وأظلمنا على كثير من آثارها وأخبارها وسألته عما اذا كان معلوماً محل بيت صالح بن شريف الرندي الشاعر المشهور فلجاب بالثبي . ثم سأله عما اذا كان باقياً هناك عائلات عربية معروفة فقال انه كان في رندة أسرة عربية اسمها venega تحريف Benega تعرضت وانه كانت عائلة اسمها الزغرزي وانه بقرب رندة في تلك الجبال قرية اسمها venadali لعلها معرفة عن « بني عدالي » أو ما أشبه ذلك معروف أن أصل أهلها عرب وقرية أخرى اسمها ben arrabat أو « بني الرباط » وقرية أخرى اسمها ben aluriah وهذه يرجع أنها محرفة عن « بني رباح » وهؤلاء من أشهر قبائل العرب بالمغرب . وذكر لي اسم قرية اسمها Zura أظنها محرفة عن « صخرة » وقال لي انه توجد في قرية « خورريكه » أسماء عربية كثيرة

حيث يشعر السلوك من تلك الأوغار رابطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول قتلاقي الجلعان أمام بلدة « مونارده » وانتشب القتال فيقال ان الدون « الوزو » مع ابنه الدون « بطره » وثلاثمائة من شجعانه صدقوا الحلة على المغاربة فأزاحوهم وتلاحقوا في الهزيمة فقتبهم الجند يغمون وينهبون ولما امتلأت أيديهم بالغانم كره عليهم الفهري بجماعة من أبطاله وعلت الصرخة فارتجت لها جوانب الأودية وذعر الاسبانيول فتداعوا الى الفرار وثبت الوزو في مكانه يحرضهم ويضم من شذبت شملهم فصر معه جماعة وولى الأكرتون ودخل الظلام وخيم الفسق واشتد الخناق بالاسبانيول وجرح بطره بن الوزو فأمره أبوه بالرجوع فأصر على البقاء بجانب أبيه فأمر أتباعه بحمله الى معسكر كونت « أورينه » فاحتلوه متخفاً جراحاً ولبت الدون بمائتين من رجاله يناضلون الى أن فنوا عن آخرهم

« وتحصن الدون بين صخرين يتقى بهما فبصر به الفهري فقصده واستحرق الصراع وألح الفهري وطمع في قرنه وكانا متماثلين في ثبات الجنان مع قوة الاضلاع وتوثق الخلق فصاح الوزو بخصمه : « لا تحسبن نفسك وقعت على صيد هين فأنا الدون الوزو دواغيلار » فأجابه المغربي : « ان كنت أنت الدون الوزو فاعلم أني أنا الفهري » ثم كوره صريعاً ومات بموته مثال الفراسة الاسبانية والنموذج الغشمشمية في الأندلس . واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانيول ولم ينكفوا حتى لاح الصباح فأجلى المعترك عن قتل الدون « فرانسيسكو دوراميز » المجرى الذي كان قائد المدفعية الأكبر وكانت له المواقف المشكورة في حصار غرناطة لكن مصرع الدون الوزو دواغيلار أنسى الأحران جميعها . وعند وصول خبر هذه الفاجعة الى الملك زحف بالجيش الى جبال رنده فسكنت بحضوره التائرة واشترى بعض المغاربة أرواحهم بجازوا الى افريقية واحتفى آخرون بالنصرانية . وأما أهل البلد الذي قتل فيه فرسان الاسبانيول فسلكوا في سلسلة العبودية وبحت الملك عن جثة الدون فوجدوها بين مائتي جثة فيها أجساد عدد من الأمراء والكبراء وحلت تجاليد الدون الوزو الى قرطبة في مشهد حافل بين مدامع كالسحاب الهواطل ودفن في كنيسة مارهيوبائتو ونديه الاسبانيول دهرأ طويلاً . انتهى كلامه مجملأ

وذكر المؤرخ الشهير الفرنسي فيكتور دروي Victor Duray في تاريخه ما يأتي ملخصاً :

« ان اسبانية تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم احنة شديدة ربتها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب . وكان لذلك سكان الجزيرة اخلاطاً من مسلمين ونصارى ويهود فعول فرديناند على توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تعزيزاً للدولة فأنشأ ديواناً جديداً للتفتيش وكان الملك هو الذى يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم . وكان هؤلاء في البداية من النصارى اليهوديين والمسلمين المنتصرين ظاهراً الباقين باطناً امناً لمحمد ﷺ ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كما شملت أهل البدع الدينية . وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد أن سلبوهم أموالهم . وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الحادثة عدد من خرج منهم بنائحاته الف (١) والقسم الأكبر منهم هلكوا وعذبوا بما لم يعذبه احد من العالمين سنة ١٤٩٩ صدر الأمر بلب المسلمين حريتهم الدينية التي تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالى سنة ١٦٠٩ وهكذا فازت اسبانية بوحدها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود اهم عاملها اه

وذكر مرة عند كلامه على شربلكان انه اكل مقصد فرديناند فآكره مسلمى بلنسية على التنصر وأهل غرناطة على ترك زيهم والتسكلم بغير لغتهم . وقال في عرض الكلام على فيليب الثانى انه اضطهد المغاربة وضيق عليهم حتى اضطروا للثورة سنة ١٥٦٨ وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال ايذاناً بالخروج وكان يكتنهم بما امسكوه من مخائق جبالهم الثبات طويلاً لو امتدت اليهم يد معونة من اخوانهم في افريقية . ففرق فيليب شملهم وبددهم في مقاطعاته ولم تحض سنون عشر حتى صاروا كلهم ارقاء

(١) منهم جماعة وافرة في أزمير وأقوام في الاستانة وسلاطيك هاجروا اليها في تلك الكاثية ومنذ خمس سنوات — وقد صارت المدة الآن ٣٥ سنة أى انها كانت خمس سنوات يوم طبعنا تأليفنا آخر بنى سراج مع ذيله في تاريخ الأندلس الطبعة الأولى — احتفلوا بيده مضى الأربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العثمانية أكثروا فيه من الدماء لسلطنة آل عثمان التي هي كهف الطرودين

ثم لنذكر بحسب عادتنا في المقابلة بين تواريخ الافرنج وتواريخ العرب كلام المقرئ
 عن هذه الوقائع الأخيرة مع بعض تصرف . قال : « ثم ان النصارى نكثوا العهود ونقضوا
 الشروط عروة عروة الى ان آل الحلال لحلمهم المسلمين على التنصّر سنة أربع وتسعمائة بعد
 أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا على جميع من كان اسلم
 من النصارى أن يرجعوا قهراً الى النصرانية ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا قوة لهم . ثم
 تعدوا الى امر آخر وهو ان يقولوا للمسلم ان جدك كان نصرانياً فأسلم فلترجع انت نصرانياً .
 ولما خش هذا الأمر قام أهل البيغازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصّر :
 قالوا ان الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس الا الموت الا ان يتنصّر .
 وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة . وامتنع قوم من التنصّر واعتزلوا النصارى
 فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى واما كن كذلك منها بلفيق واندرش^(١) وغيرها فجمع لهم
 العدو الجوع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسيباً الا ما كان من جبل بلنقة فان الله تعالى
 أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة^(٢) وأخرجوا على
 الامان الى فاس بعيالهم وماخف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كان من أظهر التنصّر
 من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم احرقوا
 منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوه من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد .
 وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً الى ان كان
 اخراج النصارى اياهم بهذا العصر القريب عام سبعة عشر والرب خرجت الوف بفاس والوف
 آخر بتلمسان من وهران وجهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله
 تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا بلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المصرة
 «وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم طنادا العهد عمروا قراها الخالية
 وبلادها وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم
 عسكرياً جريراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن وحصنوا قلعة
 سلا وبنوا بها القصور والحمامات وهم الآن بهذا الحلال ووصل منهم جماعة الى القسطنطينية

(١) هي البلدة التي ذهب اليها أمير عبد الله بعد أن أخذت من غرناطة

(٢) هو الوثرود اغيلاز

العظمى الى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام وهم لهذا العهد على ما وصف والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » انتهى ثم قلت في ذيل آخر بنى سراج :

« ثم ان الأندلسيين الطروديين النازلين ببر العدو اتقموا من الاسبانيون ومن طوائف الفرنج عما أذاقوهم آياه من العذاب وذلك بجهاد البحر الذي اشار اليه المقرئ حيث انهم انتظموا في سلك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد المغرب ايام كان اهلها يلقبون بملوك البحر وكانت دول أوربة بأسرها تدفع لهم الجزية وتواصل الى والى الجزائر الهدايا دفعاً لعائلة السفن المغربية عن سفنها فكان من قطع المغاربة خصوصاً الأندلسيين منهم السبل البحرية على بحارة الاسبانيول وغيرهم من السبي والاسر والعبث على شواطئ أوربة لاسيا اسبانية ما ألفاه الاور بيون تواريخ خاصة به وهو يدل على استحكام الاحن في صدورهم . وفي الواقع لا ترى عداوة طال امرها وتوقدت جرها كالعداوة التي بين المغاربة والاسبانيول

« وقد اتفق الكتاب على ان الأندلسيين الجائين عن بلادهم الى البر العدو احتملوا معهم على أيديهم صناعة الأندلس وفي صدورهم هم اهلها ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة الى حيث القوا عصا نسيارهم . فأخذت عنهم فنون وشاعت بواسطتهم صنائع وانتشرت بسببهم فوائد وكانوا مع رثانة حالهم وتشريدهم من بلادهم صفر الايدي الامن زهيد المتاع يمتلئون حينئذ حيا حلوا قطعة من الأندلس ولا يزال على يثاتهم وأنواع معايشهم وسائر شؤونهم وما أخذهم مسحة اندلسية تماز بالذوق وتدل على الاصاله في التمدن حتى ان الكاتب الافرنسي «فيليكس دوبوا» الذي ساح في أواسط افريقية في العام المنصرم (أي سنة ١٨٩٦) عثر على قبيل في جوار تنبكتو يقال لهم الأندلوز حقق بما أخذ من اخبار اصول تلك القبائل انهم من جالية الأندلس كما يدل عليه اسمهم . وذكر انهم مع فقرهم تجدهم اسمى ذوقاً وأعلى طبقة في المدنية من القبائل المجاورة لهم وان لهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة والنقش وغير ذلك والظاهر انهم مترامون الى السودان عن مراكن وسبحان من بيده نصارى الأمور . انتهى ماقلته في ذيل آخر بنى سراج

ثم نعود الى موضوع تحويل الاسبانيول لعرب الأندلس من الاسلام الى النصرانية فنقول ان أهم ما عثرنا عليه في هذا الباب وأدقه هو ما جاء في كتاب « الأنوار النبوية في

آباء خير البرية « للعالم النسابة سيدى محمد بن عبد الرفيح الأندلسى المتوفى فى رجب عام اثنين وخسين وألف (١) وهو كتاب خطى عزيز الوجود نقل عنه العالم المؤرخ الشيخ أبو عبد الله محمد أبو جندار فضلاً بتمامه جليل الخطر فى هذا الموضوع وذلك فى كتابه « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » رعباً لكون جل انساب أهل الرباط اندلسية وأن البيونات النبيلة فيها كلها أو جلها من بقايا جالية الأندلس واليك ما يقوله محمد بن عبد الرفيح :

« قد كثر الانكار علينا معشر أشرف أهل الأندلس من كثيرين من اخواننا فى الله بهذه الديار الافريقية من التونسيين وغيرهم حفظهم الله تعالى بقولهم : من أين لهم الشرف وقد كانوا يبلد الكفار دمرهم الله ولم يموتون من السنين كذا وكذا ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الاسلام وقد اختلطوا مع النصرى أبعدهم الله . الى غير ذلك من الكلام الذى لانظيل به ولا أذكره هنا صوتاً لعرضهم ولحجى فيهم فأقول وبالله التوفيق وهو الهادى الى اقوم طريق : مع انى صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالاسلام وأهلها بجاه النبي المختار ﷺ فقد أطلعنى الله على دين الاسلام بواسطة والذى رحمة الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل مع انى كنت اذ ذاك أروح الى مكتب النصرى لأقرأ دينهم ثم أرجع الى بيتي فيعلمنى والذى دين الاسلام فكنت أعلم فيهما معاً وسنى حين جئت الى مكتبهم أربعة أعوام : فأخذ والذى لوحاً من عود الجوز كأنى أنظر الآن اليه مملساً من غير طقل ولا غيره فكتب لى فيه حروف الهجاء وهو يأتى حرفاً حرفاً عن حروف النصرى تدريجاً وتقريباً فاذا سميت له حرفاً أعجيباً كتب لى حرفاً عربياً فيقول لى هكذا حروفنا حتى استوفى لى جميع حروف الهجاء فى كرتين . فلما فرغ من الكرة الأولى أوصانى أن أكتب ذلك حتى عن والذى وعمى وأخى وجميع قرابتنا وأمرنى أن لا أخبر أحداً من الخلق ثم شدد على الوصية وصار يرسل والذى الى فتسلى ما الذى يعلمك والذى فأقول لها : لاشئ* . فتقول : اخبرنى بذلك ولا تخف لأنى عندى الخبر بما يعلمك : فأقول لها : أبداً ما هو يعلمنى شيئاً . وكذلك كان يفعل عمى وأنا أنكر أشد الانكار . ثم أروح الى مكتب النصرى وآتى الدار فيعلمنى والذى الى أن مضت مدة فأرسل الى من اخوانه فى الله الأصدقاء فلم أقر لأحد قط بشئ* مع أنه رحمة الله تعالى قد أتى نفسه

للهلك لا يمكن أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة . لكن أيّدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين» اهـ

قلت فهمنا من هنا أن هؤلاء الجماعة كانوا أجبروا على النصرانية طراً وإنما كانوا باقين في الغالب على الاسلام سراً وكانوا مضطرين أن يرسلوا أطفالهم حتى من سن أربع سنوات الى مكاتب النصارى ولم يكن يباح لهم أن يعلموا أولادهم شيئاً عن الاسلام ومن كان يقدم على ذلك وكانت الحكومة تعلم به كان يحرق بالنار . ورغم هذا كله كان بعضهم حرصاً على تعليم أولاده عقيدته الاسلامية ولغته العربية فكان يعلمهم ذلك مع أشد الاحتياط والامتحان خشية أن السلطة تأخذ سر الأمر من الأولاد فتحرق أولئك الوالدين بالنار كما هو قرار ديوان التفتيش الكاثوليكي . ولكننا لا نظن ان عدد الوالدين الذين كانوا يعلمون أولادهم الاسلام والعربية سراً كان كبيراً وذلك لأن كثيراً من العوام كانوا اميين لا يعرفون الكتاب فلا يمكنهم التعليم ثم لأن كثيراً من المسلمين كانوا يخشون أن تطلع السلطة على السر بواسطة الأولاد فيقعوا في الهلاك . ولذلك كانوا يجتنبون بدون شك التعرض لهذه المهلكة . وقد نشأ أولادهم في النصرانية باطنياً ظاهراً وهم لا يعلمون أن آباءهم كانوا مسلمين وان قلوبهم كانت مطمئنة بالايمان وذلك نظراً لشدة كتمان الوالدين وخنزهم اطلاع السلطة على حقيقة حالتهم ولكون شعائر الاسلام كانت كلها ملغاة وكان هؤلاء المسلمون المحمولون على النصرانية كرهاً والذين يقال لهم الموريسك مضطرين اذا ولد لهم ولد أن يستدعوا القسيس ليعمده واذا تزوج منهم متزوج أن يستدعوه لعقد الاكليل واذا مات منهم ميت أن يستدعوه للصلاة على الجنازة وكانوا جميعاً يلتزمون الذهاب الى الكنيسة نهار الأحد فعلى هذه الحالة نشأ أولادهم في النصرانية وكان من الاسبانيول اليوم ملايين أصلهم من المسلمين بهذا السبب . ثم يقول :

« وقد كان والدي رحمه الله تعالى يعلمني حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتي للاصنام وذلك أنه قال لي : اذا أتيت الى كنائسهم ورأيت الاصنام فاقرأ في نفسك سراً قوله تعالى : «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون» الى آخرها وغير ذلك من الآيات الكريمة وقوله تعالى :

وبكفرهم وقولهم على مرهم بهتاناً عظيماً وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . فلما تحقق والدي رحمه الله تعالى اني اكنتم أمور دين الاسلام عن الأقراب فضلاً عن الاجانب أمرني أن أنكلم بافشاءه لوالدتي وعمي وبعض أصحابه الاصدقاء فقط . وكانوا يأتون الى بيتنا فيتحدثون في أمر الدين وانا أسمع فلما رأى حزبي مع صفر سني فرح غاية الفرح وعرفني بأصدقائه وأحبائه واخوانه في دين الاسلام فأجتمعت بهم واحداً واحداً اه

قلت ان الاسلام في الأندلس حسبما يظهر من هذا الوصف كان أصبح شبيهاً بجمعية سرية تكتم أمرها أشد الكتمان ولا يقدر الواحد من المسلمين أن ييوح باسلامه الا لمن يكون قد ابتلى أمانته وامتنحن صدقه فكانوا يجتمعون سرراً اذا كان بعضهم واثقاً ببعض وينكلمون في أمر الدين في أشد الخفية . ثم يقول :

« وسافرت الاسفار لأجتمع بالمسلمين الاخيار من جيان مدينة ابن ملك (١) الى غرناطة والى قرطبة واشبيلية وطليلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للإسلام فتلخص لي من معرفتهم أي ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يتحدثونني بأمر غرناطة وما كان بها في الاسلام حينئذ وبما أقوله بعد وقتله قبل فسندى عال لكونه ماتم الا بواسطة واحدة بيني وبين الاسلام بها اه

ان من عرف كون ابن عبد الرفيق توفي عام ١٠٥٢ لا يتخفى عنه أنه كان شاباً في أول سني الالف للهجرة أي منذ نيف وثلاثة سنة . ويظهر له أنه منذ نيف وثلاثة سنة كان في جيان وقرطبة واشبيلية وقرطبة أناس يدينون بالاسلام سرراً وهم في الظاهر نصارى . وأعرب من هذا وجود مثل هؤلاء في طليطلة المصاقبة لجرى والثي كان مضي على استرجاع الاسبانيول لها يوم زارها ابن عبد الرفيق أكثر من خمسمائة سنة . أي انه بقي أناس مسلمون في الباطن في طليطلة من بعد أن زال عنها حكم الاسلام بخمسمائة عام . ولقد عاصت من كتب الاوربيين أن اللغة العربية بقيت هي لغة الثقافة عند الاسبانيول ولغة المعاملات والأخذ والعطاء وبها تكتب الصكوك والعقود الى سنة ١٥٨٠ أي الى العهد الذي

كان فيه ابن عبد الرفيح الأندلسي شاباً فعند ذلك صدر الأمر من الدولة الاسبانية بمنع الكتابة والكلام بالعربي . ولقد سمعت ما هو أغرب من هذا وهو أنه بقيت قرى الى أوائل القرن التاسع عشر في نواحي بلنسية يتكلم أهلها بالعربي . أما تحجب النساء في بعض قرى بلنسية وفي بعض قرى الجنوب مثل طريف فباقي الى يومنا هذا . هذا ولدى مجموع وثائق كبير عدة أجزاء طبعه « انجيل عوزا لزلنسية » من أسانيد الآداب في جامعة مجريط اسمه « المستعربون في طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر »

Los mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII

وهو يتضمن صكوك بيع وشراء نقلت عن خطها العربي الأصلي بالزنكوغرافيا وجعلت

بازائها ترجمتها بالاسبانيولى

نذكر مثلاً من هذه الصكوك وهو هذا :

« اشترى ربي يواسحق بن نعميش اليهودي من جيلة بنت فرج زوج البليوثى البناً جميع خصها وهو النصف من الكرم المعروف بالقوجوال بحومة قرية جلنكش من قرى مدينة طليطلة وعلى الاشاعة فيه مع من يشركها بسايره وحده في القبلة الطريق وفي الجوف جبل لابن برطال وفي الشرق كرم ابن فرنجيل وفي الغرب الطريق وفيه بابة بثمان عده ثلاث مائة مثقال من الصروف الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ بما فيه عشر درهما بمثقال على سنة المسلمين في ... (هنا كلمة لم تمكن قرائتها) بيوعهم في رمضان المعظم عام خمسة وتسعين وأربعمائة (١) ومن أشهده على بن البليوثى باجازته له وامضائه له وقراره ألا حق له في شئ من المبيع المذكور و بوجه من الوجوه ولا سبب من الأسباب وانه كان لوالدته جيلة الى أن باعته حيث وصف . ابراهيم على بن سعيد بن أبو الفتح اللحنى ، ابراهيم بن وهب بن أبى .. و ... بن يوسف بن الربابى . ومحمد بن أحمد بن سعد ... وعبد الرحمن بن أحمد بن عفيف الفهرى . وأحمد بن محمد ... ومحمد بن عبد الله بن مظاهر الانصرى . وأحمد بن يوسف الانصارى و ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ... وسلمة بن يوسف الانصرى ويحيى بن عبد الله ... الغافقى واليك مثلاً آخر :

« اشترى عبيد الله بن أسد من خلف بن عبد الله جميع الكرم الذى له في أول منزل

(١) أى بعد سقوط طليطلة بيد الاسبان بعشرين سنة

رزين حده في القبلة نهر تاجه وفي الجوف كرم يشته الحريري وفي الشرق كرم لأبي خالد
وفي الغرب غروسات السلطان أيده الله بثمان عدته ستون ديناراً من البريزات الجارية
بطليطة حين هذا التاريخ، وفي شهر نونبر الكاين في سنة ثلاثين ومائة وألف من
تاريخ الصفر

«وما وجب الحاقه الى المدخل للكروم الموصوف فوق هذا على باب الكروم الذي
لرد ريقه قيس السلطان . . الذي هو من ليون والباب المذكور مشترك بينهما اذ كان
الكروم في القرع واحد وعلى ذلك كله يقع الاشهاد

«عبد الرحمن بن زكريا . يوان بن خلف شاهد . سلم بن زكريا وكتب عنه . سليمان
ابن عمر شاهد وكتب عنه . وعلى بن الحرير . عبد العزيز بن خير . ولبر فيم وعبدالله
ابتوال . وسليمان بن المجاله . اليان بن سعيد . وعبد الملك بن عبد الملك وكتب عنه وعليه
شهد عندي . وبخط عجمي جليانث بيترس تشنا . وبخط عجمي سيكاه بن مشارك شاهد
وعلى كل اسم من العجمي معلم شهد عندي وبالعربي خالد بن اصتر»
واليك مثلاً ثالثاً :

« اشترى خير بن ركوى من يحيى بن عبد السلام جميع الدار التي له بحومة رحبة
القشالي حد الدار في الشرق دار خلف بن جواد وفي الغرب دار جلبرت الفرنجي وفي القبلة
دار أبي الحسن بن زكريا وفي الجوف دار مفرج بن عثمان بثمان عدته أربعون ديناراً
من الدينرات الجارية بطليطة حين هذا التاريخ في شهر ابريل الكاين في سنة واحد
وثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر

«وشهود الأصل فيه وفرج بن عبد الله . ومسعود زرقون شهد وكتب . عبد الرحمن
ابن يحيى شاهد على ذلك . وعيسى بن الحسن شاهد وكتب عنه بأمره . وعيشون بن يحيى
شاهد . هذيل بن حكم شاهد وكتب . زكريا بن عثمان شاهد وكتب عنه . وبالاعجمي
يشنش فليش بطره تشنش صحت هذه النسخة (الخ) في العشر الأوسط من شهر شتبر
سنة ثلاثين ومائتين وألف للصفر . يوان بن يليان السقلى شهد . ويوانث بن مقابل بن
عبد العزيز المشاري . وباطره بن عمز بن غالب بن الفلاس»

وهذه المجموعة تشتمل على ١١٥١ صكاً يفهم الناظر منها أن التعامل كان في طليطة

بعد استيلاء الاسبان عليها^(١) لا يزال باللغة العربية وأن أكثر أهلها كانوا عرباً أو مستعربين وأن زراً منهم كانوا غير مستعربين وكانوا لا يعرفون أن يوقعوا أسماءهم بالعربي فكان يكتب أنهم وقعوا « بالعجمي » وما يدل على أن العروبة قد كانت هي السائدة انه ان كان ثمة شاهد أو بائع أو مشتر افرنجي جرى تعريفه بلفظة « الافرنجى » ويرى الناظر في هذه المجموعة أن أناساً أسماؤهم مسيحية وأسماء آبائهم أو أجدادهم اسلامية مما يدل على كونهم نصرورا . ثم انه كان الطقس الكنسى في طليطلة بالعربي rite mozarabe وكان يختلف عن الطقس اللاتينى في ثلاث عشرة نقطة .

واند اطلعت في جزيرة ميورقة على صك مقاسمة الاسبانول لأملاكها وأراضيها بعد أن استولوا عليها سنة ٦٢٨ وهو محرر بالعربي أيضاً مع أنه صك تقاسم بين جماعة لسانهم غير اللسان العربي . وهذا الصك محفوظ في خزنة البلدية في « بالميا » على أنه لا يستغرب كل هذا أيام كان العهد بالعرب والعربية حديثاً . واسكن اللسان العربي نبي لسان أهل طليطلة الى سنة ١٥٨٠ وفي ذلك العهد كان يذهب اليها ابن عبد الرفيح فيجد اخواناً له باقين على الاسلام في الخفية . وقيل لى ان أحد المغاربة وقع في هذه الأيام الأخيرة ببعض قرى طليطلة فوجدهم يذبحون الأكباش يوم عيد النحر عندنا ويقولون انها عادة توارثوها عن آبائهم

ثم نعود الى كلام ابن عبد الرفيح الأندلسى فهو يقول :

« فباجتماعي بهم حصل لى خير كثير والله المنة وقد قرأوا كلهم رحمة الله على شيخ من مشايخ غرناطة أعادها الله للاسلام يقال له الفقيه اللوطورى رحمة الله تعالى ونفعنا به فانه كان رجلاً صالحاً وإياً الله فاضلاً زاهداً ورعاً عارفاً سالكاً ذا مناقب ظاهرة مشهورة وكرامات زاهرة مأثورة قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الاسلام بغرناطة قبل استيلاء العدو عليها وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلاء حسب الامكان لأن الوقت ضاق في السر والاعلان لشدة القتال والحصر الذى كان عليهم مع صغر سنه . ثم بعد مدة يسيرة انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا وقد أذن العدو فى ركوب البحر والخروج منها لمن أرادوه وبيع ما عنده واتيانه لهذه الديار الاسلامية أبقاها الله تعالى عامرةً بالاسلام الى

(١) سنة ١٤٧٥ هجرية و١٠٨٥ مسيحية

يوم الدين وذلك في مدة ثلاثة أعوام . ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل بعد شروط
اشترطوها والزامات كتبها عدو الدين على أهل الاسلام . فلما تحركوا لذلك أجدادنا وعزموا
على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم وجزا الى هذه الديار
التونسية والحضرة الخضراء بفتح من جاء اليها حينئذٍ ودخلوا في زقاق الأندلس المعروف
بهذا الاسم وذلك سنة اثنتين وتسعمائة وكذلك للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها
ورأى العدو العزم فيهم لذلك نقض العهد فردهم رغم أنوفهم من سواحل البحر الى
ديارهم ومنعهم قهراً عن الخروج واللحوق باخوانهم وقرابتهم لديار الاسلام . وقد كان
العدو يظهر شيئاً ويفعل بهم آخر مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً ملوك الاسلام
كلك فاس ومصر حينئذٍ فلم يقع من أحدهما الا بعض مراسلات ليفضى الله أمراً كان
مفعولاً اهـ

قلت الذي يظهر من خبر الشيخ الصالح اللوطوري رحمه الله أنه نشأ وشب تحت حكم
الاسبانيول لكنه كان يعلم فرائض الاسلام سراً بقدر طاقته بعد أن ألغى الاسبانيول
شعائر الاسلام من كل الأندلس وأنه هو الذي أقرأ الأشخاص السبعة الذين ميزهم ابن
عبد الرفيح ممن كان يجتمع بهم ويتحدث معهم في النجوى بأمر الاسلام . وأما مسألة اذن
العدو للمسلمين بالرحيل ثم منعه اياهم بعد الاذن فقد جاء هذا في التواريخ وربما كان العدو
توجس خيفة أنه ان خلت الأندلس من المسلمين وصاروا كلهم في بر العدو انقضوا على
السواحل الاسبانية وأنزلوا بها المصائب أخذوا بالنار هذا فضلاً عن أن خروجهم جميعاً يحسر
الأندلس من جهة المال والجبايات ويخرب البلاد . ثم انه كان في نية فرديناك وازابلا
كراههم جميعاً على ترك الاسلام فلم يكن الاسبانيول بعد هذا يخشون بقاء أناس على
الاسلام في اسبانية . وأما استنجد الأندلسيين بملوك الاسلام وعدم اجابتهم الا بالكلام فان
هذه النازلة وقعت في عصر كانت فيه دول العرب بانحطاط لا تكاد تسد الفتوق التي عندها
في داخل بلادها فضلاً عن أن تسد الثغور البعيدة . وأما دولة الترك فكانت لا تزال قوية
الا أنها كانت في الجهاد الدائم مع الدول الأوربية كما لا يخفى فلم يكن من السهل عليها
التفرغ لأمر الأندلس . وبرغم هذا قد ثبت أن خير الدين بروس وغيره من ولاة الجزائر
طالما أرسلوا نهجات بالمال والرجال الى مسلمي جبال البشترات المشرفة على البحر .

ثم قال :

« ثم بقي العدو يحتال بالكفر عليهم غصياً فابتدأ يزيل لهم اللباس الاسلامي والجماعات والجماعات والمعاملات الاسلامية شيئاً فشيئاً مع سادة امتناعهم والقيام عليه مراراً وقتالهم اياه الى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق في علمه فبقينا بين أظهرهم وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه أمانة الاسلام ويعذبه بأنواع العذاب فكم أحرقوا وكم عذبوا وكم نفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم فانا لله وانا اليه راجعون حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه وتعالى وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف لهجرته ﷺ » اهـ

قلت من أدل الدلائل على وجوب تمسك المسلمين بأزيائهم ومشخصاتهم القومية وعدم استخفافهم بهذا الأمر ان أعداءهم عندما يحاولون اخراجهم من الاسلام يبدأون باجبارهم على تغيير أزيائهم وأوضاعهم التي نشأوا عليها . وذلك كما فعل الاسبانيول من اكراه مسلمي الأندلس على نبد اللباس الاسلامي وترك الذهاب الى الحمامات وما أشبه ذلك فالعمل الذي عملته حكومة أنقرة بمسلي تركيا في هذا العصر من اكراههم على لبس البرنيطة ودق عنق من لم يلبسها أو من انتقد لبسها ان هو الامرحلة من مراحل خروج المسلمين الأتراك من الدين الاسلامي وعمل مشابه لما فعله الطاغيتان فرديناند وايزابلا بمسلي الأندلس بين يدي حملهم على النصرانية . نعم ان اللباس لا يتعلق بالدين والدين لا يتعلق باللباس ولكن لكل أمة مشخصات قومية ظاهرة ذات تأثير كبير في أحوالها الروحية الباطنة ومن ينكر ذلك يكن مكابراً ، ولو لا هذا التأثير ما كان الاسبانيول لتسهيل خروج مسلمي الأندلس من الاسلام يادروا باجبارهم على تغيير ملابسهم وعاداتهم وإيم الله لو لا سانة الأمة التركية وشدة اعتصامها بحبل الاسلام لكان تأثير الأوضاع الجديدة التي حملتها عليها أنقرة عميقاً جداً ولا أزال أقول انه ان استمرت هذه الحالة مدة طويلة في تركيا كان على اسلام الترك خطر عظيم لاسيما بعد الغاء أنقرة كل تعليم ديني اسلامي من مكاتب الحكومة .

ثم قال :

« نخرج بعض أحبائنا واخواننا وهو الفقيه الاجل المدرس الشريف لامة أبو العباس أحد الخنفي المعروف بعبد العزيز القرشي ومعه أحد اخواله رحمهم الله تعالى الى

مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية العظمى فالتقى بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد ابن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم فأخبراه بما حل باخواننا الأندلسيين من الشدة بفرانسة وغيرها فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله بإعلام السلطان نصره الله بأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين الأندلسيين وخدام آل عثمان ويوجههم اليه في سفن من عنده مع ما يحتاجون اليه »

قلت طالما ذكر المبعوضون للدولة العثمانية تقصيرها في نجدة مسلمي الأندلس الذين حل بهم كل ما حل وانزعت من أيديهم مملكة غرناطة أيام كانت هي في عزها وعنجبية أمرها. وأنا لأبرئ الدولة العثمانية من تبعة هذا التقصير وأقول انها برغم ما كانت عليه من الحروب في البلقان ومن مجاهداتها يومئذٍ للالمان والمجر والبولونيين والبنادقة وغيرهم كان في استطاعتها أن تجرد جيشاً يزل في سواحل غرناطة ويفرج عمن هناك من المسلمين ولكن قدر الله أن لا تفعل ذلك وكان أمر الله قسراً مقدوراً ولكن بما لا يجوز إنكاره أن أتراك الجزائر سواء لعهد بربروس أو من بعده كانوا لا يفتأون ينجسون ثوار المسلمين في جبال البشيرات المتدلية الى البحر

ثم يقول :

« فلما قرئ الأمر السلطاني في ديوان الفرنسيس فسمعه من كان عنده مرسلان من قبيل صاحب الجزيرة الخضراء وهو اللعين فيليبو الثالث فأرسل لسيده وهو يخبره بالواقع . وأن السلطان أحمد نجل آل عثمان أرسل أمره الى فرانسا وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنده من الأندلس فقبل كلامه وأمر باخراج المسلمين وأذن لمن جاء من الأندلس بأن لا بأس عليهم وان يركبوا عنده في سواحله مراكبه ويبلغهم الى حيث شاءوا من بلاد المسلمين » اهـ

قلت ان السلطان أحمد نجل آل عثمان الذي ذكره ابن عبد الرفيغ الأندلسي هو السلطان أحمد الأول ابن السلطان محمد الثالث العثماني وهو السلطان الرابع عشر من سلسلة آل عثمان ولد سنة ٩٩٨ للهجرة (١٥٨٩) وتولى السلطنة وهو ابن أربع عشرة سنة وبق فيها ١٤ سنة اذ توفى في ٢٢ نوفمبر سنة ١٦١٧ وهو ابن ٢٨ سنة لا غير . وله في استانبول جامع السلطان أحمد العظيم وسبيل الماء الذي في الطوبخانه .

« وفي أيامه عصى أهل البغدان وقمع ثورتهم ونشبت الحرب مع العجم وعقد معهم الصلح وتغلب اسطوله على اسطول فرسان مالطة وذلك في بحر قبرص ودمره وكان مراد باشا صديراً أعظم في أيامه فأخضع الثوار الذين كانوا عصوا الدولة وهو الذي بواسطته أصدر السلطان أحمد أمره بانقاذ الأندلسيين . وأما ملك فرانسة الذي في أيامه التجأ الى فرانسة الموريسك (أى مساعو الأندلس) الذين أكرهوا على التنصر فهو هنرى الرابع المتوفى سنة ١٦١٢ وكان هذا الملك قد قبلهم في بلاده على شرط أن يقبلوا الدين الكاثوليكي . فلما أرسل اليه السلطان أحمد العثماني ياركابهم البحر الى بلاد الاسلام لم يسعه الا الاجابة وأركبهم البحر الى البلاد التي أرادوها من بلاد الاسلام وبقيت منهم بقايا في فرانسة اندجوا في أهلها » ثم يقول :

« فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب اسبانية دخله الرعب والخوف الشديد وأمر حينئذ بجمع أكبر القسيسين والرهبان والبطارقة وطلب منهم الرأي وما يكون عليه العمل في شأن المسلمين الذين هم في بلاده كافة فبدأ الشأن في أهل بلنسية فأخذوا الرأي وأجمعوا كلهم على اخراج المسلمين كافة من مملكته وأعطاهم السفن وكتب أوامر وشروطاً في شأنهم وفي كيفية اخراجهم وشدد على عماله بالوصية والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها وترجمتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله في أوامره التي كتبها في شأن اخواننا الأندلسيين حين اخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من أمرهم وتعلم بعض الاسباب التي أخرجوا من أجلها على التحقيق لا كما يزعم بعض الحاسدين ويؤيد ذلك ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحمد المنصور بانته نجل آل عثمان نصرهم الله آمين ونكمل الفائدة وثلاثاً يساء الظن بنا معشر الأندلسيين فأقول وبالله التوفيق : قال الملك الكافر أبعده الله تعالى ونزلته آمين : « لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لاجراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية في مملكتها التي تعيش عيشاً رغداً صالحاً والتجربة أظهرت لنا عياناً أن الاندلسيين الذين هم متوائمون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى بشيائهم علينا وقتلهم أكبر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وتزييفهم أعضاءهم وتعذيبهم ايهم بأنواع العذاب الذي لم يسمع فيما تقدم مثله مع عدم توبتهم مما

فعلوه وعدم رجوعهم رجوعاً صالحاً عن قلوبهم لدين النصرانية وانه لم ينفع فيهم وصايانا ورأينا عياناً أن كثيراً منهم قد أحرقوا بالنار لاستمرارهم على دين المسلمين وظهر منهم العناد بعينهم فيه خفية واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا وظهر لي أن بينهم وبينه مراسلات اسلامية ومعاملات دينية وقد تبقت ذلك من اخبارات صادقة وصلت الي ومع هذا ان أحداً منهم لم يأت الينا ليخبرنا بما هم يدبرونه في هذه المدة بينهم وفيما سبق من السنين بل كتموه بينهم علمت بذلك ان كلهم قد اتفقوا على رأي واحد ودين واحد وبيتهم واحدة وظهر لي أيضا ولا ريب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعهم لهذا الأمر واستشرت ان من ابقائهم بيننا ينشأ فساد كبير وهول شديد بسطلتنا وأن باخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشئ من ابقائهم بمملكتي فاردت اخراجهم من سلطتنا جلة ليزول بذلك الكدر الواقع والمتوقع للنصارى الذين هم رعيتنا طائعين لأوامرنا وديننا ورميتهم الى بلاد المسلمين أمثالهم لكونهم مسلمين « انتهى قلت ظهر من هنا جليا انهم كانوا نصر وهم كرها والمملك معترف بذلك ومعترف بأكثر من ذلك وهو أنهم كانوا يحرقون بالنار من يلحظون عليه انه كان باقيا مسالما في السر . وهذا أفظع عمل عرفه البشر في التاريخ . والمملك يعجب أيضا من كونهم راسلوا السلطان ابن عثمان سراً كسلمين يلتمسون نجده مع ان ملك اسبانية كان يظن انهم بعد ان أكرهوا على النصرانية ومضت عليهم هذه المدة الطويلة نحو من مائة سنة وترى أبنائهم وأحفادهم في مدارس النصارى قد آمنوا بالدين المسيحي ايماناً خالصاً وزال كل أثر للإسلام من قلوبهم فإراع الملك الا والأخبار تأتيه بأن هؤلاء القوم لا يرحون على دين آبائهم في دخال نفوسهم وانهم يدبرون أموراً فيما بينهم ولا يوجد منهم من يأتي ويخبر حكومة الاسبانيول بتدابيرهم الخفية مما يدل على كونهم بأجمعهم لا يزالون مسلمين فلماذا أجمع في الآخر طردهم

ثم يقول ابن عبد الرفيح :

« ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودققها فانظر رحلك الله كيف شهد عدو الدين الملك الكافر بأنهم مسلمون واعترف أنه لم يقدر على ازالة دينهم من قلوبهم وانهم متمسكون كلهم به مع انه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ثم وصفهم بالعناد لرؤيته

فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم فأى علامة أكبر من صبرهم على النار لأجل دين الحق ومن استنجداهم ملك دين الاسلام المؤيد لحماية الدين أمير المسلمين السلطان أحمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التي قال فيها شيخنا الأستاذ القطب القوث سيدى أبو الغيث القشاش نفعنا الله تعالى به دنيا وأخرى في بعض مكانيه التي كان يكاتبني بها في بعض شأنهم حين قدمهم الى هذه الديار أدامها الله للاسلام فقال لي : « وسلم لي على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار فانه لا يحبكم الا مؤمن ولا يبغضكم الا منافق » انتهى بلفظه . ويؤيد كلام الأستاذ رحمه الله تعالى الأحاديث الشريفة السابقة في أول هذا الكتاب في الفصل الأول منه في النوع الثالث منها كحديث سلمان الفارسي رضى الله عنه وحديث على رضى الله عنه وهو قوله عليه السلام : لا يبغض العرب الا منافق وغيرهما وكما جاء في شأن قريش ثبوت نسب أكثرهم منهم ومن الأنصار الخزرج والاوز وغيرهما تغليباً فضلاً عن هو منهم من الأشراف من ذرية الحسن والحسين والعباس وغيرهم رضى الله عنهم من بنى هاشم كما سيأتى ذكرهم ان شاء الله تعالى مع ما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم و به التوفيق فخرجوا كلهم سنة تسع عشرة وألف (١) ووجد في دفتار السلطان الكافر أبعد الله تعالى أن جملة من أخرج من أهل الاندلس كافة نيف وستمائة ألف نسمة كبيراً وصغيراً فكانت هذه الواقعة منقبة عظيمة وفضيلة عجيبة لجماعتنا الاندلسيين زادهم الله شرفاً بمنه وأمر أيضاً بأخراج من كان مسجوناً في كافة مملكته وكل من كان أمر باحراقه فأخرجه وعفا عنه وزوده وأرسله الى بلاد الاسلام سالماً اه

قلت قد حرص الحق وظهر أن آل عثمان لم يهملوا تماماً مسلمي الاندلس وأن خلاص هذه الستمائة ألف الاخيرة من نفوسهم انما كان على يد السلطان أحمد الاول رحمه الله وكان مشهوراً بالتقوى والورع والحمة الدينية

هذا ولما كنا شارعين في تأليف كتاب اسمه « الحلة السندسية في الرحلة الاندلسية » يتضمن رحلتنا منذ سنتين الى اسبانية وما شاهدناه فيها من آثار العرب وعلمناه من تاريخهم فقد تركنا استقصاء أخبار الموريسك لذلك التأليف وانما نحب أن نلحق بهذا

(١) رواية فتح الطيب أن الخروج الأخير كان سنة سبع عشرة وألف فيجوز أن يكون وقع تحريف في اللفظة لا بين تسع وسبع من التسابة

المبحث فصلاً جديداً عثرنا عليه في جريدة « آربايتزمايتونغ » Arbeiterzeitung جريدة العمالة النمساوية الصادرة في فيينا عندها المؤرخ في ٣ يناير سنة ١٩٣٣ قد أتى فيه بمناسبة الكلام عن ثورات أهل العمل على خير موريسك بنسبة في أوائل القرن السادس عشر فقال :

« سنة ١٥١٩ نار الاهالي في مملكة بلنسية من بلاد أسبانيا وصادف ذلك زمان ثورة « الكومونيروس » في قشتالة وثورة الفلاحين في ألمانيا . وبدأت ثورة بلنسية هذه بانتفاض أهل العمل . ولم يكن انتفاضهم على الملك نفسه بل على النبلاء أصحاب الاراضي . وكانت خلاصة مطالبهم المساواة في الحقوق مع الطبقات العليا وكان يتقدمهم يوان لورازو قائداً وما زالوا حتى أدخلوا اثنين من زعمائهم أعضاء في الهيئة الحاكمة في بلنسية . ولما كانت بلنسية تحت خطر غارات القرصان دائماً كان جميع الاهلين يحملون السلاح بدون حرج فساعد ذلك على نجاح الثورة كما أن العنف الذي كان يجري من الحكومة في قمها قد زادها اشتعالا وانتهى الامر بأن الاهالي تغلبوا على الحكومة والنبلاء وطردوهم من بلنسية . ولما كان الموريسك يومئذ مستعبدين يعملون في أراضي النبلاء كانوا هم في الجهة المعارضة لهذه الثورة ولما كانت هذه الأمة مختلفة عن الثائرين في الجنس والدين وكانت تقاوم الثائرين بالسلاح نشأ عن ذلك مذاهج تشعشع منها الأبدان وانفجر بركان التعصب الديني بصورة هائلة كما لا يخفى

« ولقد كان العرب فتحوا بلنسية سنة ٧١٥ مسيحية و بقيت من جلة ولايات قرطبة مركز الخلافة . وفي أيام ملوك الطوائف استقلت بنفسها وذلك سنة ١٠٣١ ثم افتتحتها مملكة اراغون سنة ١٣١٩ و بقيت في يدها و بنى العرب في الأراضي مزارعين بعد ان كانوا مالكيين وصار الملك للنبلاء . وكان هؤلاء العرب ذوى مقام عند الاسبانيول بسبب حسن قيامهم على الاملاك ومعرفتهم التامة بالزراعة وكانوا يؤدون ضرائب فادحة ولا يتكادهم ذلك لنشاطهم في العمل . ومن هناك جاء النسل الاسبانيولى : حيث لا عرب لا فائدة

Mi entras mas moros , nuar ganancia

« فكان النبلاء أصحاب الاملاك يكرهون سياسة الكنيسة التي كانت تعمل دائماً لتحويل العرب الى النصرانية لأن تنصر العرب كان يحرمهم فوائد جزيلة وسنة ١٥١٥

أمكنهم بشدة إلحاحهم الحصول على أمر من شريكان بأن لا يجبر أحد من العرب على التنصر وأن لا يطرد أحد منهم في كل أرض بلنسية . وهذا العصد الذي عضده النبلاء للعرب في أمر حريتهم الدينية جعل هؤلاء ينتصرون لهم بالسلاح عند مآثر بهم حزب العملة

« فتحوّلت المصارعة بين العملة والنبلاء الى مصارعة بين المسيحيين والمسلمين بهذا السبب وفي وقعة « غانديا » في يوليو ١٥٢١ بين الحكومة والثأرين كان ثلث العسكر من العرب . ولهذا لأجل أن ينتقم الثأرون من النبلاء تعمدوا تعبيد المسلمين بالقوة القاهرة لأن المسلمين المنتصرين كانوا يحصلون على حقوق المسيحيين أنفسهم ويعودون مالكيين بعد ان كانوا مزارعين وترفع عنهم ضريبة الجاهم الخاصة بالمسلمين . فصار الثوار يجوبون البلاد وينصرون أي مسلم صادفوه بالاكراه وينهبون مزارع النبلاء . وقد ازداد ذلك بعد وقعة « غانديا » التي كان الظفر فيها للثوار تحت زعامة « فيسنتي بيريس » فكان حزب العملة يزحفون ويجمعون المسلمين بالقوة ويأتي القسيسون فيرشونهم بماء المعمودية وما زال الأمر كذلك حتى تغلبت الحكومة على الثوار وذلك بعد وقعة شاطبة التي دافع فيها الثوار عن تلك البلدة دفاع الليوث وقتل فيها « بيريس » زعيمهم . وقد كان المأمول ان يحصل الفرج للمسلمين بتغلب الحكومة فحصل العكس وذلك بأن المسلمين بعد تصيرهم كرهاً صاروا تحت نظر ديوان التفتيش الذي تأسس سنة ١٤٨٠ وكانت مهنة هذا الديوان حرق من لم تثبت نصرانيته بالنار . والحال أن جميع أولئك المسلمين الذين تنصروا بالقوة لم يكونوا يملكون من النصرانية قليلاً ولا كثيراً . فكان وقوعهم في الائم في نظر ديوان التفتيش من أسهل الأمور . وبدأ اضطهاد هؤلاء المساكين بشكل لم يسبق له مثيل . وكان النبلاء يحاولون الدفاع عن مزارعهم المسلمين فيسترضيهم رجال ديوان التفتيش بأصناف المنح حتى لا يعارضوهم في عملهم الوحشي بحق المسلمين . وبعد ان كان المنتصرون متمتعين بحقوق النصارى الاصليين عادت الحكومة فسلبتهم هذه الحقوق وصاروا يؤدون الضريبة الخاصة بهم مثل ذي قبل ولم يعودوا أحراراً في منازلهم . وما برحت هذه الأعمال الوحشية تتفاقم بحق المسلمين حتى أخذت الرأفة بعض الاساقفة فراجعوا البابا ساثلين اياه اذا كان التنصر تحت التهديد بالحرق جائزاً . وكان البابا بونيفاس الثامن فأجابهم: « بأن التهديد

بالموت لا يعد اكرهاً يبطل مشروعية التنصر^(١) وأن الاكراه لا يكون اكرهاً الا اذا سبق المسلم الى العمودية ويدها موثقتان ورجلاه مقيدتان وكان يصيح بأعلى صوته محتججاً على هذا العمل « وكان البابا يعلم جيداً أن المسلم الذي كان يحتج على تصيره بهذه الصورة لم يكن يرفع صوته حتى يسقط صريعاً

«ففي هذه السنين التي وقعت فيها هذه الفظائع فرخسة وعشرون الفاً من مسلمي بلنسية الى افريقية فلحق الضرر بالنبله في مزارعهم وراجعوا الامبراطور شارل كان بشدة فاصدر امره بتأليف لجنة لحل هذه المشكلة . فبعد مذاكرات طويلة قررت هذه اللجنة قراراً غريباً جداً وهو ان تعمد المسلم بالقوة ذنب يعاقب فاعلمه الا انه لا ينبغي ان يزول به اثر التعميد . والمسلم المعمد بالقوة يجب ان يبقى نصرانياً^(٢) وان الله هكذا يكون جعل من الشر خيراً وبالاختصار رجع المسلمون الى نظر ديوان التفتيش وهم يجهلون اسط قواعد المسيحية

«فأخذ هذا الديوان ينقب وينقر عن السكايه والجزئية من اعمال المسلمين ومنع جمع شعائرهم الدينية بل منع جميع عاداتهم ومذاهبهم في الحياة ولو لم يكن لها تعلق بالدين وعاقب على ذلك . وكان يعاقب أشد العقاب من علم عنه انه لا يأكل لحم الخنزير أو الميتة أو عرف عنه انه لا يشرب الخمر أو فيل انه ادرج ميتته في كفن نظيف . وكانت النظافة في ذاتها ذنباً يعاقب عليه . وفي سنة ١٥٩٧ وجد في طليطلة المسحي « موريسكو بارتولوم شانجه » فلحظ عليه القوم انه شديد التطهر فعذبوه عذاباً شديداً ومازالوا يعذبونه حتى اقر بان يتطهر عن عقيدة فكتموا عليه بالسجن المؤبد وبضطجيع املاكه . ووجدوا قرآناً عند عجوز اسمها « ايزابلا زاسيم »^(٣) فقات انها لاتقدر ان تقرأه فلم ينفعها هذا القول وعذبوها ولكن لما كان عمرها نعين سنة اكتنفوا من اهانتها بحملها على حمار والطواف بها في الشوارع وعليها غطاء مكتوب عليه اسمها وأنها ... ثم زجوها في السجن و بقيت فيه الى ان علموها قواعد المسيحية . وقد عزيت نساء كثيرات على اطعامهن لحم الميتة للكلاب

(١) لبأمل القارى في صدق هذا البابا وحرية وجدانه ...

(٢) لبأمل القارى في هذا الرثاء وهذا التليل القارح ونحمد الله على ان تاريخ الاسلام خال من الضمات التي تلوث بها غيره في باب الحرية الدينية

(٣) لعلها محرفة عن قاسم أو جام

بدلاً من الكهنة له . وكان من جملة الذنوب تخضيب الاظافر بالحناء . وكان اشد شيء على الموريسك ما كانوا يكرهونهم عليه من دفن موتاهم في وسط الكنائس ودينهم بأمرهم باضجاعهم تحت التراب . وكانوا يعاقبونهم بالغرامات الثقيلة وابتزاع املاكهم منهم واذا تكررت التهمة فبالحرق بالنار . وكان الذي ينجو منهم من الموت يحلّف يمينا مؤكدة بأن لا يخبر أبداً بما جرى معه . وكان ديوان التفتيش يعمل العمليين بالمسلمين سراً وكان منهم من يخفي اشهرأ . وكان منهم من يخفي سنين ولا يعلم احد به وكثيراً ما كان يؤتى بالرجل فيجد امرأته بعد ان كان فقدها ويؤتى بالاب فيجد اولاده بعد ان كان فقدهم وذلك التلاق بينهم عند محل الحريق . وقد حدث ان ابنة عمرها ١٩ سنة سعت بوالديها واهلها لدى ديوان التفتيش فاتوا بالاب فلم يقر بشيء فاحرقوه واما الام فاقترت فحكّموا عليها بالسجن المؤبد . وكانت ضحايا وشاية هذه البنت ٢٥ شخصا منهم أربعة ماتوا حرقاً بالنار والباقيون حكم عليهم بالسجن وأما املاكهم فقد ضبطت بأجمعها

« ولقد انتهت هذه الفظائع الوحشية باجلاء جميع الموريسك عن اسبانية وقد كانت ثورة العملة في بلنسية هي السبب في اكرامهم على التنصر جوعاً وتمسك ديوان التفتيش بذلك لأجل اتمام عمله الشنيع » انتهى

قلت ان مبدأ « الغاية تبرر الوسطة » معروف عند هؤلاء الجماعة وليس منحصرأ في رهبانية الجزويت وحدهم . وتحريره أن الدخول في الدين الكاثوليكي هو خير محض وخلص من عذاب جهنم . وعليه فإذا ساءت الوسائل المستعملة لادخال غير الكاثوليك في الكتلكة فلا بأس لأن الغاية حسنة ... وهكذا أجازوا لأنفسهم ان يعملوا ما عملوه في اسبانية بالمسلمين واليهود وفي جنوبي فرنسا وفي بلاد اخرى بالبتدعيين الذين يسمونهم بالهرطقة . وكل هذا جرى بأمر الباباوات ورؤساء الكنيسة وقلماً نازع فيه منازع منهم . ولهذا لما جرت في السنة الماضية مناقشة بين حزب الفاشيست في ايطاليا والفاثيكان من أجل قول موسوليني رئيس الفاشيست ورئيس الحكومة : انه يجب على الفاشيست ان يكرهوا أعداءهم وقول جريدة الفاثيكان ان هذا مخالف لمبادئ المسيحية اضطر موسوليني أن ينشر رداً تحت امضاء أحد أعوانه ذكر فيه مبادئ الكنيسة بشأن أعدائها وعدد أسماء الباباوات الذين أصدروا الأوامر بانتل العام والحرق بالنار وأجازوا كل ألوان العذاب لأجل مجد

الرب... من هؤلاء البهاوات يوليوس وأينوشنيوس وغريفوريوس واسكندر بورجيا وغيرهم

ومن طالع تاريخ هؤلاء وبخاصة تاريخ البابا اسكندر بورجيا واولاده وعلم ما كان يجري من الفظائع بامرءه في نفس رومة لم يعجب مما جرى بامرءه وأمر اخوانه على مسلمي الأندلس . ولا جدال في صحة هذه التواريخ لأن رواياتها متواترة وقد اجع عليها المؤرخون حتى من انفس الكاثوليك

ثم اتنا نعود الى موضوع مسلمي الأندلس فتقول انه بما لامرية فيه أنه لما خرجوا من اسبانية خروجهم الأخير سنة ١٠١٩ أو ١٠١٧ وكانوا ستائة الف نسمة لم يكونوا هم جميع المسلمين الباقين بالأندلس بل بقيت منهم بقايا كثيرة في كثير من المدن والقرى انتهى أمرهم بأن اندمجوا في الاسبانيول وصاروا نصارى فعلاً . ويقال ان رئيس جمهورية اسبانيا الحالي « السنيور القلمة زمورة » Atcala Zamora هو من سلالة العرب . ويقال ان رئيس نظارها الحالي « السانية » Azania هو أيضا من أصل عربي وان اناساً من اسبانيول شاطبة ينتسبون الى الامام الشاطبي صاحب القراءات. وقد شاهدت اناساً من بلنسية قالوا لي ان اصلهم عربي . وشاهدت من غرناطة رجلاً اسمه « الفخارو » قيل لي ان اصله عربي أي « الفخار » وهذه اسرة معروفة في الأندلس وقيل لي انه يوجد في مالقة من ذرية بني سراج . والاسبانيول يقولون لهم « سراج » على عاداتهم في قلب الجيم خاء . ولقد وجدت ذكر اعقاب السراجيين هؤلاء في كتاب رحلة الوزير النساني الى اسبانية في أيام السلطان الكبير مولاي اسماعيل صاحب المغرب . وكنت قرأت ترجمة هذه الرحلة باللغة الافرنسية وأعجبتني جداً على كوني لم اطالع أصلها العربي . ثم اتصل بعلم المؤرخ الكبير العلامة التحرير الشريف الانيل الاثير مولاي عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية العلوية بالمغرب أدام الله عزها ووفقها لخيمة الاسلام والمسلمين اتى ببحث عن رحلة الوزير النساني الأندلسي الكاتب الذي سافر لعهد مولاي اسماعيل الى اسبانية ففضل بكرم اخلاقه بان أمر باستنساخ نسخة من هذه الرحلة بنصها العربي الأصلي واهداني اياها في جلد محلى بالذهب أطال الله بقاءه ونفع به وعلمت ان الوزير النساني المذكور توفي في فاس سنة تسع عشرة ومائة والف . ولما سمع رحلته فهو « رحلة الوزير في افتكالك الاسير » وقد عثرت فيها على ذكر بني سراج عند

ذكر مدينة « اندوخر » من عمل قرطبة قال :

« وهي مدينة قديمة أثرها أثر الحضارة وهي على ضفة الوادي الكبير أيضاً وعلى هذا الوادي بقرب المدينة فنطرة من عهد الاسلام وبفحص هذه المدينة من الزياتين والغروس والبساتين وأراضى الحراثة مالا يحصى . وأهلها أهل حراثة وفلاحة والغالب على عمالها أنهم من بقايا الأندلس وجاهم من أولاد السراج الذين كانوا تنصروا على عهد السلطان أبي الحسن آخر ملوك غرناطة . وذلك فيما يزعمونه النصرى وينقلونه في تواريخهم ان بعض أولاد ابن زكري الغرناطيين كان وشى الى الملك بأحد أولاد السراج وذكر عنه أن له كلاماً مع زوجة ابن الملك ومخالطة . فخلق الملك على أولاد السراج الذين معه بغرناطة فقتل منهم جماعة أعيان وكان أولاد السراج لذلك العهد هم أقوى جيش المسلمين وبلادهم « اندوخر » بيدهم باقية بعد تغلب الكفرة على قرطبة واحوازها بحاربون عليها ويذبون عنها حينها بلغهم خبر من قتل من اخوانهم بغرناطة جلتهم الحية والأنفة والخنق والغيظ على أن ركبوا من ساعتهم وقصدوا طاغية الوقت فنصروا على يده وخرجوا من عنده قاصدين غرناطة فأغاروا وحضروا بعد ذلك مع الطاغية في حروب غرناطة واحوازها نعوذ بالله من الضلال بعد الرشاد ومن الغواية بعد الهداية . وجل بقية هؤلاء المنتصرين الذين باندوخر يعد من أكابر أهل البلد غير أنه لا يعد عند النصرى مثل ما لهم من الكبرة التي يتوارثها النصرى خلقاً عن سلف مثل الدوك والقند وشبههما . وأكثراً يحصل لهم اليوم من الكبرة أن من يكون من نسل هؤلاء القوم الذين تنصروا أن يرث عمل الصليب على كتفه رقة في ثوبه المتدثر به فتلك هي علامة الأكارب منهم . والخطط التي يتولونها بقايا هذا الجنس المذكور هي الكتابة وحكومة البلدان والشرطة وغيرها مما ليست بجاهة كبيرة وولاية سنية مثل التصرف في المجال^(١) أو الولاية للأقاليم الكبيرة والمدن القواعد مثل اشيلية وما شاكلها . وعلى كل حال فهم في هذه النواحي كثير ولا يحصون فمنهم من ينسب ومنهم من لا ينسب ومنهم من ينفر من ساجع الإلتساب ذاك . والذين هم من هذه النسبة ويتأني عنها ينسب الى جبال نبارة وهي جبال يعصبة من قشتالة^(٢) كان انحاز اليها من بقى من النصرى ساعة تغلب المسلمين على الهدوتو يتفاخرون

(١) جمع عملة أى مركز قيادة الجيش

(٢) لعله يعنى نائاره

بالانتساب إلى تلك الجبال وما والاها . والذين بيدهم ولاية أو خبطة من الخطط
المخزنية (١) من أهل هذا الجنس لا ينفرون من الانتساب فلقد لقيت يوماً بمدينة مدريد (٢)
رجلاً أنسيتُ اسمه الآن راكباً ومعه جماعة من النساء صغاراً وكباراً لهم حسب وجمال
خوفق وسلم سلماً كثيراً وأظهر هر ومن معه من النساء بشراً وترحيباً فقابلناه بما يجب
وحيث أراد الانصراف عرف نفسه بأن قال : نحن من جنس المسلمين من نسل أولاد
السراج . فسأت عنه بعد ذلك فقيل لي انه من كتّاب الديوان وهو الذي يقرأ ما يحصل
بالديوان من رقايع وعروض حال وشبهه . وكذلك أيضاً كانت جماعة من أهل غرناطة لهم
بغرناطة ولاية وأحكام وسكناهم بمدينة مدريد ترد علينا صحبة ضون (٣) « الوصل » الذي
هو من عقب ملك غرناطة (٤) وينتسبون إلى الجنس الذي كان بغرناطة وغلب عليهم
الشقاء والعباد بآته . ولقد كانوا يسألون عن دين الاسلام وعن أشياء منه فحين يسمعون
ما نحببهم به عنه من البيانات وأحكام الطهارة التي أنبى الاسلام عليها وغير ذلك يعجبهم
ما يسمعون منه وينصتون إليه ويشكرونه بمحضر انصارى ولا يعبأون بمن حضر . ولم
يزالوا مدة مقامنا بمدريد يكثر التردد لدينا ويردون علينا المرة بعد المرة ويظهرون
من المحبة والتحنن شيئاً كثيراً . فسأل الله أن يهديهم إلى الصراط المستقيم ويرشدهم إلى
الدين القويم « انتهى »

ثم اننا ننقل من رحلة الفاضل الوزير الغساني ما ذكره عن مدن أخرى أنس فيها
رائحة الاسلام ولا عجب فإن بين جلاء المدجنين الأخير وبين عهد هذه الرحلة نحواً من
مائة سنة لا أكثر

قال عند ذكر مدينة « لينارش » : « وبها من بغايا الأندلس التزم من سكانها »
وقال عند ذكر مدينة اسمها « مورا » هكذا : « ومعناها المساعة وسبب تسميتها بذلك
والله أعلم انها بما تأخرت عن جيرانها من المدة بشيء ما التصر »

(١) نسبة إلى المخزن ومعناه في المغرب والأندلس ما يقال له الحكومة اليوم في الشرق

(٢) والغرب قديماً كانوا يقولون مجربط

(٣) أي الدون وهو من الغاب الصرف عندم

(٤) بحسب هذه الرواية يكون من عقب أبي الحسن علي بن الأحمر من تنصر وتحول أسبانيولياً وهذا
يطابق ما قرأته من أن اخوة أبي عبد الله الصغار مذ سقوط غرناطة تحولوا أسبانيولين

وقال عند ذكر مدينة « شريش » ما يلي :

« ومدينة شريش هذه تلقب بشريش الغرنظيرة ومعناها المقابلة ويعنون بها المقابلة لبرّ الاسلام أعزه الله وجل أهلها من أهل الأندلس وأعيانهم لأنهم نصرروا وهم أهل حراة وفلاحة »

وذكر مدينة في جهات شريش اسمها « البربيجة » فقال : « وأزلونا داراً لبعض أكارهم وجعلوا يتناون علينا للسلام وفيها من انتسب لنا الى الأندلس بإشارة خفية لم يقدر على التصريح بغير كلام خفي . والغالب على جل سكانها انهم من بقايا الأندلس الا أن العهد طال عليهم وربوا في بحبوحة الكفر فغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله »

ثم ذكر مدينة « اطريرة » فقال من جملة كلام : « وجل أهلها من بقايا الأندلس » ثم قال : « وأهلها ذوات عظام والغالب عليهم الحسن رجالاً ونساء ولقد شاهدنا ابنين احدهما بنت حاكم البلد والأخرى بنت القاضي في غاية من الحسن والجمال والكمال لم تر عيني في جميع ما رأيت من بلاد أصبانيا على سعتها أجل منهما وهما من بنات الأندلس ومن دم ملك غرناطة الأخير الذي غلب عليها وهو الملك المعروف عندهم « بالرى الشيكو » ومعناه السلطان الصغير . ولقد أخبرني بمدينة مادريد رجل يسمى « ضرن الونص » حفيد موسى أخي السلطان حسن^(١) المتغلب عليه بغرناطة ان البنتين اللتين باطريرة من دمه . وضرن الونص هذا رجل حسن الأخلاق حسن الشباب له قوة وشجاعة معروفة عند النصاري وهو معبود من فرسانهم وشجعانهم ومع هذا فهو مائل الى من يلقاه من أهل الاسلام ويذكر نسبته ويعجبه ما يسمعه من الحديث عن الاسلام وأهله وانما حدثني عن أمه أنها حين حدثت به اشتدت أكل الكسكسون فقال لها أبوها : نعل هذا الجمل الذي في بطنك من صنّ المسامين يداعبها بذلك اذ كانوا لا ينفرون من نسبتهم لعلمهم أنهم من بيت الملك نعوذ بالله من الخذلان والغواية ونسأله التوفيق والهداية »

قلت انه بمناسبة الحسن والجمال قد لحظت وأنا في أسبانيا ان أهل الجنوب منها أي أهل البلاد التي يقال لها الأندلس أجل من أهل الشمال أي قشتالة ونار واراغون وبرشلونة . فلما كنت في غرناطة ذكرت هذه الملاحظة لأحد نبيها فأجابني على الفور :

« نعم لأتنا نحن عرب »

ثم ذكر الوزير النسائي مدينة « مرشينة » فقال : « وأهلها أهل بشاشة ومنهم من يتسب إلى الأندلس انساباً »

وذكر في موضع آخر من كتابه أن الذين تنصروا كانوا يعطون علامة الصليب برقونها على ثيابهم فقال : « الذين هم من جنس الأندلس وكانوا أكبر قومهم وتنصروا لأغراضهم فأعطوا تلك العلامة وهي دالة على عراقتهم مع الاصاله لعهد اسلامهم وعلامة على كبرتهم الخ »

فن هنا وأشباهه تعلم أن الموريثك - أو المدجنين كما كان يقال لهم عند العرب - كان يقي منهم قسم عظيم بالأندلس وأنهم تنصروا أولاً بالقوة ثم اندمجوا مع طول الزمان في التصلي ولكنهم لبثوا يتذكرون أصلهم ونراهم حتى هذه الساعة يذكرون ذلك وفي أخريات هذه الأيام بعد أن انقلبت الحكومة الأسبانية من الملكية إلى الجمهورية وانطلقت الحرية في أسبانية وجدنا كثيراً من أهل الأندلس يجاهرون بأن أصلهم من العرب وبطالبون الحكومة باعطائهم الأراضي التي هم مزارعون فيها قائلين ان هذه الأراضي كانت لأبائهم لما كانوا مسلمين وانه لما افتتح الاسبانول الأندلس وانزعوها من يد الاسلام أقطعوها النبلاء والكنائس وأبقوا العرب فيها كزراعين فلماذا هم يريدون إعادة هذه الأراضي اليهم . ولقد أجابت الحكومة الجمهورية طلبهم وسألت قانوناً بموجبه ترجع هذه الأراضي إلى الفلاحين . ولما كان النزاع على الأراضي قد اختلط مع تذكار النسب العربي القديم كنت نجد عند هذه الطبقات العامة بالأندلس من كراهية النبلاء وبخاصة من كراهية القسيسين والرهبان ما لا تجد عند غيرهم . وطالما أحرقوا بهاتين السنتين الأديار والكنائس ودور الأساقفة ولو لا محافظة الحكومة عليها لما كانوا أبقوا منها شيئاً فيما يليهم وليس هذا كله ناشئاً عن المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية كما يظن بل ثمة عرق عربي عظيم يفرغ في الأندلس بعد اعلان الحكم الجمهوري . وكان بعض نبهاء الأندلس قد هبوا بطالبون بالاحتلال الداخلي خاص بالولايات الأندلسية قرطبة واسبيلية وغرناطة ومالقة وقادس الخ وذلك حتى يمان تكلم اليه من منطقة الريف التي أهلها مسلمون بحجة أن بينهم وبينهم وحدة في الأصل والمبادئ والثقافة وكانت هذه الفئة تنزع إلى تجديد الثقافة العربية في

الاندلس واحياء ذكريات العرب وقد خاطبني بعض زعماء هذه الفئة من اشبيلية قائلين انهم يرون أن عظمة الاندلس كانت لعهد العرب وانه لما برحها العرب ابتداء سقوطها فلهاذا هم يريدون اعادة الثقافة العربية اليها ويفكرون في اعادة مسجد قرطبة الأعظم للاسلام وفي بناء جامع في اشبيلية . وقد حدثني الأخ الحاج عبد السلام بنونة من أعيان تطاون بأنهم خاطبوه فيما اذا كانوا سيقومون ببناء الجامع في اشبيلية هل يساعدهم المسلمون في الكلفة فأجابهم بأنهم يساعدون بنصف الكلفة . وقد كان من نتائج الحكم الجمهوري الحر في أسبانية أن سياسة التودد الى الاسلام قد ظهر لها أنصار كثيرون وكل من يقاوم الكتلنكة والحزب الملكي قد مال اليها . ويقال ان ستين نائباً في مجلس النواب بمجريط يميلون اليها . ولقد قدم أحد نواب مجريط طلباً يقترح فيه اعادة مسجد قرطبة الى الاسلام مع بقائه مسجداً أسبانياً وذلك لان الوفد المغربي الذي كان قد ذهب من تطاون الى مجريط سنة ١٩٣١ يطالب ببعض الحقوق الأهلية في منطقة الريف قد طلب أيضاً اعادة مسجد قرطبة مسجداً تقام فيه شعائر الاسلام كما كان . الا أن الحكومة خافت من هيجان حزب الكتلنكة ولم تعد الوفد المغربي بشيء من هذا الامر . وذهب بعضهم الى أنه يجوز جعل هذا المسجد أثراً تاريخياً لا تقام فيه شعائر الاسلام ولكن تخرج منه شعائر المسيحية وان كثيرين من الاسبانول يرون هذا الرأي . وما يدل على تقدم سياسة التودد الى الاسلام في أسبانية أن بعض النواب والمحققين والمفكرين في مجريط على رأسهم الشيور « ارجيلا » والشيور « فولس » أسسوا جمعية اسمها الجمعية الاسبانية الاسلامية *Asociation Hispano-Islamique* وانتدبوا الوفد السوري الفلسطيني محرر هذه السطور وزميله احسان بك الجابري للدخول فيها وقد وافقتهم على رغبتهم ودخلنا في هذه الجمعية وانتخبت أنا الفقير اليه تعالى نائب رئيس ودخل فيها زميلي وغيره من كبار الاسلام أعضاء . ومن دخل فيها عضواً من أعيان المغرب وأدياته ورجالاته الحاج عبد السلام بنونة والسيد محمد الداود والسيد عبد الخالق الطوريس من تطاون والسيد اجدريل فريرج والسيد مكي الناصري من الرباط والسيد محمد القاسي والشريف محمد بن الحسن العوزاني من فاس ولا تزال هذه الجمعية دائمة في نشر دعائيتها وتأسيس فروع لها وقد وقع السيد مكي الناصري لتأسيس فرع لها في غرناطة في هذه الايام الاخيرة كما أن أحد أعقاب بني أمية

من اشبيلية شارع بالاتفاق مع بعض أصحاب هذا المشرب هناك بتأسيس فرع في اشبيلية
 عود الى موضوع اختلاط الأمتين العربية والاسبانيولية : لما أُجلى بقايا المسلمين من
 الاندلس الى افريقية حسب تقدم الكلام عليه كان فيمن جلا من المسلمين من أصلهم
 عربي ومن أصلهم اسبانيولي . فكما أنه باق في اسبانية ملايين تجرى في عروقهم دماء
 عربية يوجد في افريقية مئات ألوف تجرى في عروقهم دماء اسبانيولية . ولا نقدر أن نحصى
 جميع العائلات الاندلسية التي ارتحلت الى فاس والرباط وتطوان وتامسان والجزائر وتونس
 وغيرها ولكننا نذكر بعضاً منهم على سبيل التمثيل

فمن هؤلاء آل مرينو ذكرهم صاحب كتاب مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح
 وعدد جماعة منهم تولوا المناصب العالية من قيادة وقضاء وحسبة . وآل شتيالك Santiago
 وآل ابن طوجا . وأولاد التونسي . وأولاد القرطبي . وأولاد الفصرى . وأولاد ابن عبدون .
 وأولاد اللدك . وأولاد الويتي . وآل أبي جندار . وآل اللوشي . وصيرون . واشكلانظ .
 وكلهم ممن تولوا المناصب واشتهر منهم رجال . ومنهم آل بركاش وهم بيت مجد قديم وحسب
 صميم لم تنقطع الرئاسة من بينهم ومنهم السيد عبد الرحمن بركاش باشا الرباط الخالي عرفته
 مرتين احدهما في باريس سنة ١٩٢٦ عند ما حضر مع المرحوم السلطان يوسف فاجتمعت
 معه بطريق المصادفة في فندق « ماجستيك » والثانية في قرطبة سنة ١٩٣١ وهذه أيضاً
 بطريق المصادفة وكان معه أحد أنجالة الأدياء وبعض من حاشيته وهو وأنجالة من سراة
 الاسلام وأوائل القطر المغربي سائرون على آثار سلفهم الكريم ومنهم آل الزبدي . وآل
 غنام . وآل الزهرا . وآل التازي . وآل السويبي . وآل مارسيل . وآل فرج . وآل
 بلا فرج الذين منهم الشاب الناهض النافع السيد احمد بلا فرج حرس الله مهجته وهو من
 نخبة فتيان الأمة المغربية بل الأمة العربية بهذا العصر ومنهم بنو العوفير . وأبي عزه .
 والباشا . وقد ترجم المؤرخ أبو جندار جميع هذه العائلات وذكر الذين اشتهروا منها وذكر
 أفراداً آخرين من الطائفة الأندلسية مثل الرئيس ابن عائشة الرباطي سفير السلطان اسماعيل
 الى لوز الرابح عشر والسيد طاهر بناني الرباطي سفير السلطان محمد بن عبد الله الى السلطان
 العثماني والحاج النهامى المدور سفيره الى بلاد السويد والرئيس العربي المستيري سفيره الى
 انكلترا والحاج الهاشمي المستيري والحاج العربي ملين والحاج العربي بناني والسيد محمد

فريون والحاج عبد القادر العمورى والحاج محمد الأزرق والسيد ابن عيسى بن مسعود طريدانو والسيد محمد بن العباس الزكى والسيد اخيلانى العدلانى وغيرهم ممن تولوا نظارة الرباط أو الحسبة أو غيرها من المناصب. ثم ذكر أبو جندار عدداً من أمراء البحر وقواد البحرية اشتهروا فى القديم من الأندلسيين الجالين الى المغرب منهم الرئيس مكى الشرفونى والرئيس على بريس والرئيس العربى المستبرى والرئيس العربى حكم والرئيس محمد السبيع والرئيس محمد العنقى والرئيس لبريس والرئيس عاشور والرئيس الهاشمى المستبرى والرئيس على التركى والرئيس ابن مبارك والرئيس لباريس والرئيس الحسن بنانى والرئيس بركاش والرئيس بريتطل والرئيس المعطى وغيرهم

وأما فى تطاون فقد كتب من أسماء العائلات الأندلسية التى فيها بنى قشتيليو وأصلها Castillio . وبنى بإصه أصلهم من بسطة بالأندلس . وبنى أراغون وهؤلاء يرفعون نسبهم الى الزبير بن العوام رضى الله عنه . وبنى سالس . وبنى القرطبي . وبنى الغرناطى . ويقال الغرناطى . وبنى الطوريس الذين منهم الشاب الأديب الفاضل السيد عبد الخالق الطوريس وأخوه الماجد وجدهم السيد محمد الطوريس كان الوزير الأول بالمغرب وأصل بنى الطوريس من جبال البشيرات بالأندلس وبنى قردناش . وبنى موراروش وبنى الخطيب أصلهم من شاطبة بشرق الأندلس . وبنى اللوقش من ذرية خلفاء بنى أمية . وبنى البديروكان يقال لهم أبناء الموس . وبنى زريق أصلهم من اشبيلية . وبنى الركينة منهم فى تطوان مسلمون ومنهم اسبانيول نصارى لأن فى تطوان جالية اسبانيولية . وعائلة الركينة كثيرة فى اسبانية ومنها من بنى ركينة المسامين أحد ركينة ناظر احباس طنجة وبنى مارين ومنهم مسلمون ونصارى على هذا الضرب . وبنى مارثيل . وبنى الصفار . وبنى زكرى . وبنى الداود الذين منهم الشاب الشهم الفاضل الناهض الأستاذ محمد الداود مؤسس المدرسة الاهلية بتطوان . وفقه الله وبنى طنانه . وبنى الأبار اقارب الخافظ ابن الأبار البلنسى القضاعى صاحب « ادرك بختيار خيل الله اندلسا » وبنى مدينه . وبنى مولتينه . وأصلهم من نجر المرية بالأندلس . وبنى اجزول . وبنى البولوى وبنى اللوشى من لوشة من مدن غرناطة . وبنى بالامينو وأصلها بالامينو . وبنى ضياغو . وبنى دينيه منهم فى تطوان ومنهم فى الرباط . وبنى مسطامسى . وبنى مولاطو ومنهم فى الرباط أيضا . وبنى كرسبو . وبنى سوباوا وأصلها رباباوا .

و بنى مندوسه وقد انقرضوا . وقد انقرض من أندلسية تطوان بنو غرسية . و بنو اشبليانو . ثم ان من الاسر الاندلسية الشريفة بنو رزين الذين منهم صديقنا الوحيد السيد محمد الرزيني وهؤلاء بحسب تاريخ البيان المغرب لابن عذارى أصلهم بربر وكانوا ملوك « شتمرية » الشرق بالاندلس

وذكر لي الاخ الحاج عبد السلام بنونه عائلات اندلسية في الرباط لم اجدها في «مقدمة الفتح» مثل عائلة قدره . وهذه العائلة هي التي منها المستشرق الاسبانيولى الشهير فرانسيكو كوديره Codera استاذ المستشرق الشهير الفيس آسين بالاسيوس . وعائلة فلورس وهي بالاسبانيولى Flores . وعائلة ميتجينوس واصلها بالاسبانيولى Montegenos وقال لي ان عائلة مارشيه معروفة في اسبانية ومنها نخذ مسلمون في تطوان وان من بنى مارتين اخذاً كثيرة في اسبانية وان منهم نخذاً مسلمين في تطوان . وان من بنى عباد اناساً في سرقطة في شمالي اسبانية واناساً في فاس . وقال لي الاخ المشار اليه ان جبال الريف ملائى بالاندلسيين

وفي فاس اندلسيون كثيرون أشهرهم آل القاسى وهم من بنى الجدة الفهريين الذين كانوا في قرطبة ثم في اشبيلية ثم في مالقة الى أن ارتحلوا الى فاس عندما لم يبق دار للاسلام في الاندلس . وفي كل من العدوتين حفظت هذه الاسرة مجدها وسراوتها ورئاستها . ومنها الشاب الناهض السيد علال القاسى والشاب الناهض القاضى المدقق السيد محمد القاسى وقفه الله وهو من نخبة شبان المغاربة وأنجم العرب الذين انما تحصيلهم في باريز . ولم يتسرى لي الى ساعة تحريره احصاء للعائلات الاندلسية في فاس ولا للعائلات الاندلسية في تلمسان والجزائر وتونس . فنى يتسرى ذلك أضمه الى المعلومات التي حررتها هنا وان فصح الله في الاجل نجعل ذلك في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب

ولقد بعت لي الاخ المفضل نبيل النضال الاستاذ السيد أحمد توفيق المدني التونسى مولداً الاندلسي أصلاً ببقيم الآن بمدينة الجزائر نفع الله به يقول لي في جواب على سؤال في هذا الموضوع مايلي :

العائلات الاندلسية في شمالي أفريقيا أكثرها بالمغرب الأقصى وتونس . ومنها قليل في تلمسان ومنها قليل ببقية البلاد الجزائرية . أما في نفس مدينة الجزائر فالعروف منها عائلة

الشيخ الجليل أحمد أنى الزكاتب وهو ابن عمنا متفرع من عائلة ابن عمر . وعائلة ابن عبد اللطيف

« وعائلة ابن الأمين . وعائلة ابن سوسان . وعائلة المرار التي كان منها الشيخ مصطفى المرار قاضي الجزائر عاش في أواسط القرن الماضي . وعائلة السبتي »
قال حفظه الله :

« وأما بالبلاد التونسية فالجاليات الأندلسية بقيت على حالها تقريباً ولها الى يومنا هذا بعض امتيازاتها حتى ان صناعة الناشية الأندلسية — الطربوش المغربي — لا يتولاها مبدئياً الا أعقاب العائلات الأندلسية ولا يمكن أحداً أن يباشر هذه الصناعة الا اذا كان عنده نيشان أحد أسلافه من الأندلس . وهذا النيشان هو نفس ما يسمى اليوم « ملركة مسجلة » ويسجل بالخيط الاسود على نفس الطربوش من الداخل ويطبع على الورقة الخارجية مع اسم صاحبه »
قال :

« وفي البلاد التونسية مدن ودساكر اسما الأندلس ولا يزال سكانها الى اليوم يعتبرون بأصلهم الأندلسي سواء كانوا من المسلمين أو من اليهود وأشهر هذه المدن مدينة تستور بالشمال التونسي »

وقرأت في بعض جرائد تونس أن الأندلسيين أتوا في تستور ما اثر تاريخية كثيرة منها مأذنة جامعها الكبير فهي على أسلوب هندسي بديع ولا نظير لها في العالم الاسلامي فان الناظر من أعلاها يرى قعرها لفراغ وسطها وكونه على شكل اسطوانة مع ضيقه وتضييقه

ونحتم هذا الفصل عن الأندلسيين الجالين الى افريقية والاندلسيين المدجنين الذين بقوا في اسبانية حتى اندمجوا في الاسبانية بذكر مكتوب من السلطان الكبير مولاي اسماعيل صاحب المغرب الى ملك اسبانية في عصره يذكره فيه بضمرة أسلافه بالمسلمين نشره السيد الشريف العلامة مولاي عبد الرحمن بن زيدان فصح الله في عمره وذلك في كتابه « انحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس » ولم يجتزئ بنشره بالحروف المطبوعة بل نشره بالفتوغرافيا في جانب المطبوع بالحروف ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم من عبد الله اسماعيل التوكل على الله المفوض أموره الى الله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسيني أيدته الله آمين (ثم الطابع الملوكي بداخله اسماعيل بن الشريف الحسيني أيدته الله ونصره . وبداثرته : انما يريد الله ليهذب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

« الى عظيم الروم وملك أقاليم أصبانية وبلاد الهند والتولى أمورها والتصرف في أقطارها (دون كارلوس) السلام على من اتبع الهدى أما بعد فقد بلغنا كتابكم صحة خديكم (دون منويل يردلون) وخديكم (دون ايبيل مسيح) وهو الكتاب الذي وجهتم لنا جواباً عن كتابنا الذي أصدرناه اليكم ووصلكم صحة الغرايل قبل هذا وبعد ان قرأناه وفهمنا لفظه ومعناه وألقى الينا خديكم (دون ايبيل مسيح) ما في خاطرهم وما طلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع الكلام قبل هذا رددنا اليكم جواب كتابكم ووجهناه مع خديم دارنا العلية بالله كاتبنا ومتولى الخط الأقرب من بساطنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير ولولا مزيتكم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ما سمحنا بفراق كاتبنا عن بساطنا لمهمات أمورنا واذا خدينا الأ كبير الأعز الأشهر أبى الحسن القنانه على بن عبد الله أن يبعث معه رجلا من أصحابه فوجه خدينا عبد السلام بن أحمد جسوس معاشراً له ومرافقاً وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الاسلام المظفر بالله على نصارى العرائش وفي عامه وعلى باله كل ما كان في ذلك من الكلام والاسباب وكيفية الخبر في ذلك فنقوا به وتعرفوا منه فانه حفظه ووعاه من أوله الى آخره ملازمته لبساطنا العلى بالله في سائر أوقاته ونحن بلا شك كنا أعطينا القول لهذه المائة من النصارى بالسراح ولكن وقع من النصارى ما اختلف به منهم من الاسباب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك فمنهم من كان ينادى بلفظ مينا على رؤوسهم ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك انلك القول وكاد يفتك بمن دخل اليهم من خدامنا الذين أوفدناهم عليهم وبعضهم ركب لحج البحر فأراً بنفسه حتى أدرك وقتل على الموج . وهاجنا مع هذا كله كبار ملتنا وعلماء شريعتنا وأئمة ديننا بأن قالوا لنا بأن المسلمين كانوا أشرفوا على الغنيمة ساعتئذ ووقع الغلب والمظفر ولم يبق للنصارى الا الموت بالسيف أو بالفرق فلا وجه لسراحهم في الشريعة رأساً . وكنا

في أثناء هذه نلدة كلها نتراد الكلام مع هؤلاء العاماء حفظهم الله وقالوا لنا : هؤلاء المائة يكونون أسارى ويسترقون من كل وجه كيف وقد أخذوا العرايش من أول وهلة بلا موجب بل أضغطوا الشيخ ابن السلطان الذهبي وقبضوا عليه حتى أنفقوا عليه أموالاً عديدة ومسكوا أولاده بسببها حتى أعطاهم العرايش على ضغط منه وعلى غير تأويل حقيقي في ذلك . وذكرنا في مسألة غدر أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم بما يزيد على الأربعمائة ألفاً بعد تعدد الشرط على ستين شرطاً ولم يوفوا لهم بواحد منها الى غير ذلك من القدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الأندلس في كل بلد وقرية بعد بلد وقرية فألفيناهم ما تكلموا الا بالحق (الى أن يقول) : وذلك أن تعطلونا في الحسين نصرانياً من هذه المائة خسة آلاف كتاب مائة كتاب عن كل نصراني من كتب الاسلام الصحيحة المختارة المنقفة في خزائهم باشبيلية وقرطبة وغرناطة وما والاها من المدن والقرى حسبما يختارها خديعنا المذكور من المصاحف وغيرها وتعطون نجسامة أسير من المسلمين في الحسين الأخرى عشرة أسارى لكل نصراني وان لم توجد الكتب التي هي مرادنا فأجعلوا عوضها من أسارى المسلمين وأعطوهم لنا من الاسارى الذين في الأغرربة وغيرهم وقبلنا منكم في العدد المذكور الرجل والمرأة والصبي الصغير والشيخ المسن من اياتنا وغيرها اذ مالنا قصد الا في الأجر والثواب في فكك اسرى المسلمين كيف ما كانوا ومن أى بلاد كانوا الخ »

فأنت ترى أنه كان مضي أكثر من مائة سنة على الغدر الفظيع الذي غدره ملوك الاسبانيول بحسبى غرناطة وسائر الأندلس . وكان المسلمون لا يزالون يتذكرونه ويتحرقون من أجله . ولم يقتصر مولاي اسماعيل في تفرير معاصريه من ملوك الافرنج على ملك اسبانية فقط بل تناول بالانقريع من أجل الخيس باليهود لويس الرابع عشر أعظم ملوك فرنسا وهاك ما ذكره مولاي عبد الرحمن بن زيدان حفيد مولاي اسماعيل في كتابه « اتخاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » في الصفحة ٥٤ من الجزء الثاني قال

حفظه الله

« ومن أكبر البراهين وأوضح الدلائل على ما كان بينه وبين عطاء ملوك أوروبا من العلاقات السياسية ما وقفت عليه في عدة كتب ومخابرات صدرت بينه وبينهم ألم بكثير منها مؤرخ فرنسا الماهر الشهير الرحالة القياسوف الخبير الكنت دو كاسترى في عدة من

كتبه وأليك نصوص بعضها وصورها الفوتوغرافية وقد خاطب فيها لويس الرابع عشر ملك فرنسا وجامس ملك الانكليز ودون كرلوس ملك ااسبانيا

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم من عبد الله تعالى الامام المظفر بالله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين انشريف الحسيني أيدته الله ونصره . (ثم الطابع) بداخله : اسماعيل بن الشريف الحسني الله وأبيه (وبدائثرته) : العز والاقبال » الى عظيم الروم بفرانصيص لويس الرابع عشر من هذا الاسم السلام على من اتبع الهدى وبعده طريق التي والردى أما بعد فاعلم أن الذي ظهر لنا انك ليس عندك قول صحيح ولا كلام رجيح ولا أظنك الا غلب عليك أهل ديوانك وصاروا يلعبون بك كيف شاءوا ولا بقي لك معهم ضرب ولا لقب ودليل ذلك اتنا ما زانا ماقبضنا منك صحة قول ولا أبرمت معنا شيئاً ففلامنك (أى مملكة هواندة) الذين ليس لهم رئيس وما عندهم الا الديوان تكلموا معنا كلمة وقبضناها عليهم ووفوا بها فحين ذهب خديمتنا ابلادهم لما ان طلبوا منا ذلك فرحوا به واكرموا به وبروا به وأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة وستة عشر مائة قنطار من البارود ومائة وسبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسر لوجوهنا وعمالوا من الخير ما عملوا مراعاة لنا ونبتوا في قولهم ووفوا بكلامهم . وأنت لا زال لم يصح منك قول ولا وفاء واولئك الذين كانوا قدموا اليك من هذه البلاد ليس هم من خدامنا ولا من أصحابنا ولا ممن لهم معرفة معنا فالحاج على معنيين حيث أسره ولده لاذ بالبعض من خدامنا واستحرم به وقدم اليكم على شان اولئك المسلمين وجزا على دار السباع ودار النعام وأتى اليكم بما أتى ولا شعرنا به ولا عرفنا ثم اخذ وقلنا انه ان وصلكم ولا بد تعملون له غرضه في اولئك المسلمين وتسرحونهم . فاذا به هو تحييل على ولده الى ان جاء به واتم ما عملتم صواباً في غيره ولا صدرتكم ما تراعون لاجله . ثم بعد ذلك قدم لعلنا مقامنا صاحبكم انبشدر وانا بشئ من الخرق مع فالصوالخير وهل نحن ممن يعجبه ذلك ويسره فنحن معشر العرب لانعرف الا الصحيح ولا يسرنا الا بما فيه مصلحة المسلمين كلهم ومع ذلك اعطينا لصاحبك عشرين نصرانياً سيفطناه بها وطننا انك ولا بد تراعى الخير وتبعت لنا ولوعشرين مسلماً تاجر بها خواطرننا وتكون هي الطريق للكلام الذي تريده منا . فاذا بك ما عملت شيئاً من هذا ولا جزيت باحسان . وثانياً قبضنا لك سفينة قبل ان يقع الكلام بيننا وبينك بثلاثة أيام أو أربعة على التحقيق وهي موسوقة

بالسكر وتبغة ونفغناها نحواً من ثلاث سنين بقصدك ولا تركنا احداً يديده فيها وقلنا انك تراعى خيرنا وتعمل لاولئك المسلمين طريقاً وتسرحهم وان كانوا ليس فيهم من هو خديماً ولا من هو محسوب من جيشنا ولا من هو معرفتنا فإهم الامن لاخلق لهم ولا يركب البحر عندنا الا أهل التميرين . ولو أطلقتمهم وان كانوا ليسوا بشيء فتكون عمات الخير بذلك وتقول انك عمات مسألة تراعى عليها . وأعظم من ذلك كله هو ان رئيساً من بلادنا اسمه التاج كان أعطاه صاحبك الذي اتانا خط يده على انه يشتري سفينة من الجزائر يسافر بها قرصان وما عليه فيمن لقيه من فرنيص فلما ان اشترها وسافر بها وغتم قطارمة موسوقة بالرخام والريال مع ما فيها من الحرير وغيره وبعثها مع أصحابه ستة وعشرين مسلماً وتعرضوا لها سفنكم واخذوها ونفقتها انت اياماً ثم بعد ذلك مزقتها والمسلمون الذين كانوا معها خدمتهم في الغراب . فلماذا لم تردّها أو نفقتها ثلاث سنين كما نفقنا نحن سفينتكم وهل هذه هي صحة القول فهذا مما يدل على عدم صحة كلامك وما يثبت الاخلال بقولك وقلة وفائك لحنى الآن فالذي ظهر لنا انه ما يليق بنا معك الا الشر واذا أردت تثبيت المهادة وابرام الكلام فيها وامضاء حاجتها فابعث لنا من عندك قونصو بالتفويض على الأمر ويجلس هنا في أحد مراسينا ويكون الأئمة معه في هذا كله وتبرم معه هذا الأمر ويكون من أهل الحل والربط عندكم والا بان ظهر لكم خلاف ذلك فاعلمنا وعرفنا بما عليه عملك وما اضرته طويتك والسلام على من اتبع الهدى وفي التاسع من شعبان المبارك سنة خمس وتسعين
والف « انتهى

ولقائل أن يقول كيف يكتب السلطان اسماعيل مثل هذا الكلام الجاسي الى لويس الرابع عشر أعظم ملوك اوربة في عصره بل الى هذا العصر ؟ والجواب أن السلطان اسماعيل لم يقل شيئاً غير صحيح وقد كان لويس الرابع عشر قليل المبالاة باليهود لا سيما مع المسلمين وقد كان يستبق اسرى المسلمين عنده سنين ملوالات لا يرضى بفكاكهم ولو أمكن أن يفك بهم بقدر عددهم من اسرى الفرنسيين . ولقد عابه بعض مؤرخي الافرنجة في ذلك واظهروا ما بينه وبين مولاي اسماعيل من الفرق وقالوا ان مولاي اسماعيل كان يبذل ما عز وهان في فكاك أسير مسلم أياً كان وطال ما فادى وهاذى لاجل استخلاص اسارى المسلمين الذين في بلاد الافرنج غير مهم بالاستفادة من اسرى النصارى الذين كانوا عنده

وربما بلغ عددهم ثلاثين ألف أسير . أما لويس الرابع عشر فكان يهمة أن يوفر على خزينة وان يشغل في سفن وأغرته اسارى المسلمين ولا يبالي أن يكون بقى في الاسر عند ملوك الاسلام اضاعاف عددهم . قرأت هذا الانتقاد في كتب من تواريخ الافرنج المعتبرة فهان على مولاي اسماعيل أن يقرعه ولم يكن اسماعيل بالذى يهاب لويس وقد كان عند اسماعيل جيوش جرارة منها مائة الف أسمرىقال لهم جيش البخارى وان كان لويس الرابع عشر قد تولى ملك فرنسا رأساً أربعا وستين سنة فان السلطان اسماعيل تولى ملك المغرب خسا وستين سنة حتى كان أهل المغرب يسمونه بالحقى الدائم

وليس لويس الرابع عشر أول من خاس باليهود بين ملوك اوربة بل أكثرهم كانوا لا يوفون بعهودهم ولا سيما مع من عاهدوا من المسلمين صدق فيهم قوله تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ) وهذه بينهم وبين المسلمين شئنة قديمة فن صدر الاسلام الى الآن للمسلمون يوفون معهم بعهودهم الا ما ندر وهم يغدرون بالمسلمين لمجرد البغض والشئان وبناء على ذلك المبدأ الجزوي بنى الشهير (الغاية تبرر الوسطة) . أما الشريعة الاسلامية فليس فيها (الغاية تبرر الوسطة) ولا (الشر الذى ينشأ عنه خير هو خير) بل فيها أن الشر شر بنفسه الا ما كان من قصاص أو نكال شرعى . وفيها أن العهد لا يد من القيام به ولا يجوز الخيس به ولو مع المشركين وفيها « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوْزِرُوا وَتُجْوهَكُمُ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا » الآية وفيها « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » وفيها « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُواكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِيَتِيمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » وفيها « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلغهُ مَأْمَنَهُ » وفيها « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ اللَّهَ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا » وغير ذلك من الآي السكرية والأجاديث الشريفة بما لا يكاد يحصى . وقد عمل بذلك ملوك الاسلام وأمراؤه الا ما ندر وكان تاريخ الاسلام من هذه الجهة ناصعا طاهرا بالنسبة الى تواريخ الأمم الأخرى

وقد بلغ من وفاء المسلمين بمهودهم أنهم كانوا يوفون بها لمن سبق منه الغدر أحيانا روى البلاذرى فى فتوح البلدان : ان الروم صالحت معاوية على أن يؤدى اليهم مائلاً وارتمين معاوية منهم رهنا فوضعهم فى بعلبك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من فى أيديهم من رهنهم وخالوا سبيلهم وقالوا : « وفاء بغدر خير من غدر بغدر » . وهو قول الأوزاعى وغيره .

وروى البلاذرى فى فتح قبرس أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان أجلى خلفا من أهل قبرس الى الشام لأمرهم به فأنكر الناس ذلك فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم وكان حيد بن معيوف الهمداني غزاهم فى خلافة الرشيد (وكان أمير البحر لعهد الرشيد) لحدث أحدثوه فأسر منهم بشراً ثم انهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسروا منهم فرؤوا . قال البلاذرى : وحدثنى بعض أهل العلم من الشاميين وأبو عبيد القاسم بن سلام قالوا : أحدث أهل قبرس حدثاً فى ولاية عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس فى التغور فأراد نقض صلحهم والفضاء متوافرون فكتب الى الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة وموسى بن أعين واسماعيل بن عياش ويحيى بن حزة وأبى اسحاق الفزارى ومحمد بن الحسين فى أمرهم فأجابوه وكان فيما كتب به الليث بن سعد ان أهل قبرس قوم لم نزل ستمهم بغش أهل الاسلام ومناجحة أعداء الله الروم وقد قال الله تعالى « وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِئْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ » ولم يقل لا تنبذ اليهم حتى تستيقن خيانتهم وانى أرى أن تنبذ اليهم ويُنظروا سنة ياتمرون فمن أحب منهم اللحاق ببلاد المسلمين على أن يكونوا ذمة يؤدى الخراج قبلت ذلك منه ومن أراد أن ينتحى الى بلاد الروم فعلى ومن أراد المقام بقبرس على الحرب أقام فكانوا عدواً يقاتلون ويُغزون فان فى انظار سنة قطعاً لحجبتهم ووفاء بمهدهم . وكان فيما كتب به مالك بن أنس : ان امان أهل قبرس كان قديماً متظاهراً من الولاة لهم وذلك لأنهم رأوا أن اقرارهم على حالهم ذل وصغار لهم وقوة للمسلمين عليهم بما يأخذون من جزيتهم ويصيبون به من الفرصة فى عدوهم ولم أجد أحداً من الولاة نقض صلحهم ولا أخرجهم عن بلدهم وأنا أرى أن لا تعجل بنقض عهدهم ومناذتهم حتى تتجه الحجة عليهم فان الله يقول : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ) فان هم لم يستقيموا بعد ذلك رددعوا عنهم

ورأيت أن العنبر ثابت منهم أوقعت بهم فكان ذلك بعد الاعتذار فرزقت النصر وكان بهم
الذل والخزي ان شاء الله تعالى »

وروى البلاذري أن قوماً بجبل لبنان خرجوا على عامل بعليك فوجه صالح بن علي
ابن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلهم واقترع من بقي منهم على دينهم واجلى قوماً من أهل
لبنان فحدث القاسم بن سلام عن محمد بن كثير أن الاوزاعي كتب الى صالح رسالة طويلة
حفظ منها : « وقد كان من اجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على
خروجه ممن قتل بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامة بذنوب
خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم . وحكم الله : أن لا تزر وازرة وزر أخرى وهو أحق
ما وقف عنده واقنتى به . وأحق الوصايا ان تحفظ وصية رسول الله ﷺ فإنه قال : من
ظلم معاهداً وكأفاه فوق طاقته فإنا حجيجبه »

فتمثل أيها القارئ في هذه الآثار وقابل بينها وبين أعمال ملوك الاسبانيول وسائر
ملوك الافرنج في المسلمين وتأمل في فتاوى الاوزاعي رضى الله عنه وأمثاله من الأئمة في
النصارى وقايس بينها وبين فتاوى الباباوات والكراذلة في أهل الاسلام : لاشك أن المسلم
له الحق بعد ذلك أن يهتف :

اولئك آباءى جئنى بمنلهم اذا جمعنا يا جرير الجامع

وانى لاحتم كلامى ببعض جل ذكرها المؤرخ المصرى الفاضل محمد لبيب البتوفى
في كتابه « رحلة الأندلس » وذلك انه بعد أن أتى على ذكر كل ما ارتكبه الاسبانيول من
الفظائع في مسلمى الأندلس قال : « كان الخلفاء وهم في قوتهم وعصيتهم الدينية يحترمون
عقائد شعوبهم وكانوا يحترمون المتدينين من أهل الذمة وكانوا يوظفونهم في حكومتهم
فكان منهم الاطباء والوزراء . وكان المتوكل العباسى على صلاحته في دينه يؤاخذ النصارى
على عدم تمسكهم بدينهم كما فعل مع طيبيه حين وكان بلغه انه تفل على صورة السيدة العنراء
خده وسجنه . وفي أيام المعتض بالله قامت العامة على رجل من النصارى اتهموه بأنه سب
النبي واحضروه بين يدى الوزير القاسم بن عبيد الله وطالبوه باقامة الحد عليه فصرفهم
لعدم تحققه صحة دعواهم . وقد صلب الخليفة الحكم بن الناصر أحد عماله لأنه بلغه انه ظلم
أحد أهل الذمة »

ثم قال : « ان الدول النصرانية كانت تلجأ الى سماحة الاسلام وعدالته فقد أرسلت دولة المجر الى السلطان أحمد الاول ترجوه أن يأخذ المجر تحت حمايته وقاية لها من ظلم التمساح المسيحية

« ولما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة اياد (وكانوا نصارى) الى بلاد الروم فكتب عمر الى هرقل بردها . فأخرجها هرقل من دياره وكان على الجزيرة الوليد بن عقبة فابى ان يقبل منهم الا الاسلام . فكتب اليه عمر : دعهم ان لا ينصروا وليدأ ولا يمنعوا أحداً من الاسلام . ثم عزل الوليد عنهم لشدة

« وفي مدة السلطان ابراهيم العثماني استولى الترك سنة ١٦٤٥ على خانية عاصمة جزيره كريد . وكان نصارى كريد يساعدون البنادقة على الأتراك فأراد السلطان ان يقتل نصارى كريد في مقابلة ذلك لكن المفتي أسعد زاده عارضه في هذا الأمر . معارضة شديدة قائلاً انه مخالف للشرع الاسلامي . فلم يقع سلطان العثمانيين في الشناعة التي وقع فيها ملوك الاسبان امام الله والتاريخ »

وتحرير ذلك انه لما غلب فرديناند ويزابلا على آخر مملكة اسلامية في اسبانية وهي دولة نبي الأحرار من سلالة الخزرج واستوليا على غرناطة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهدة تضمن لهم حقوقاً كثيرة ومن الجلة حرينهم الدينية التامة وفصل أمورهم الشخصية لدى قضائهم وغير ذلك من الشروط التي أمضاها فرديناند وامراته على أمل تسهيل الفتح وتقصير أجل المقاومة وهما ناويان باطلاً نقضها منذ أمضاها - كما جرى هذه المرة في معاهدات الحلفاء أثناء الحرب العامة مع ملك الحجاز أمضوها مؤقتاً على نية نقضها فيما بعد - فلم يمض على تسليم غرناطة عدة اشهر حتى ذهبت تلك المعاهدة كأن لم تكن أو كما قال صاحب نفع الطيب « نقضها الطاغية عروة عروة » وتأسس ديوان التفتيش الشهير مؤلفاً من الأساقفة وبأمر من البابا وصار يسيطر على عقائد الناس فحمل المسلمين واليهود على النصرانية أو بجلاوا عن البلاد فجلا أكثر المسلمين الى مراکش وتونس والجزائر ووصل منهم أناس الى مصر والشرق وجلا أكثر اليهود الى مملكة ابن عثمان فألقوا بالقسطنطينية وسلاويك وازمير وهم فيها الى يومنا هذا لغتهم الاسبانية ولقى عدد كبير عز عليهم فراق أوطانهم فتظاهروا بالنصرانية تخلصاً من الجلاء ولكنهم بقوا على عقائدهم

سراً فصار ديوان التفتيش يعمل عمله فيهم وارتكب تلك الفظائع التي يحفظها له التاريخ وقتل وصلب وأحرق بالنار كما هو مشهور . ومع هذا بقي أكثر المسلمين نحو ٢٠٠ سنة وهم يحفظون ديانتهم سراً ويتظاهرون بالكثلكة وقد يزداد عليهم الضغط فيلجأون الى الثورة ولاسيما في جبال البشترات التي اعتصموا بها لمنعها تجرت بينهم وبين الاسبانول وقائع عديدة الى ان انتهى أمرهم في زمان فيليب الثاني في أوائل القرن السابع عشر بجلاء البقية الباقية منهم الى افريقية . على انه مما لا شك فيه ان كثيرين من الآباء أجبروا على تعليم أولادهم الديانة المسيحية منذ الحداثة فنشأ هؤلاء مسيحيين و بطول الزمن صاروا اسبانولا وهؤلاء هم الذين اليوم ينتسبون الى العرب تدل على ذلك خلفتهم وسحتتهم وأسماؤهم وأماكنهم . وربما يقال ان مسلمي الأندلس أنفسهم لم يكن أصلهم كلهم عربا بل أسلم في الفتح العربي اسبانول كثيرون وهذا جائز وهو ما كان يدعيه ديوان التفتيش ويجعله مبرراً لأعماله وان كان تاريخ المدينة انكرها ولقد اعتادت الدنيا هذا المد والجزر في الحكومات والديانات فبهذا لو خفت حدة هذا التباغض بين الناس من جراء الفوارق الدينية لاسيا بين ارباب المذاهب التي تدعو جميعها الى عبادة الخلاق ومكلم الاخلاق

مسير الأندلسيين

للأستاذ الأكبر سيدي محمد الطاهر بن عاشور التونسي

وقد اطلعنا على محاضرة تحت عنوان « مسير الأندلسيين » بقلم الاستاذ الاكبر سيدي محمد الطاهر بن عاشور التونسي كبير أهل الفتيان من السادة المالكية بتونس جاء فيها خبر احتضار دولة الاسلام بالاندلس وفق ما جاء في النسخ وغيره ثم قال : قلنا ان عدداً من المسلمين اختاروا الخروج من الأندلس لما رأوا بوارق الفتن والحياة . ثم عزم أكثرهم على الخروج حين أرغموا على التنصر وضيق عليهم في أمور دينهم وقد قدمنا أنهم كانوا اشترطوا على الاسبان في عقد الصلح أن من رام من المسلمين الخروج يخرجونه الى بر العدو من غير دفع كراء ولا مغرم .

فلما طلب جميع المسلمين الخروج لم يحضروا لهم الا قليلا من الاجفان حتى انقوا عناء عظيما .

ولما صالحوا أهل جبل (بلقنة) على الخروج الى فاس أخرجوهم بهيأتهم وما خف من أموالهم دون الذخائر ثم لما أصدر فيليب الثالث أمره باخراج كل من اشبهه أمره من الموريسكو أمر بأن لا يخرجوا معهم نفود الذهب من المملكة وبذلك لم يجدوا فائدة في بيع أملاكهم فتركوا معظمها وأحضرهم قبيل من المراكب وكان الخارجون على التقدير الصحيح ثلاثمائة ألف ومن المؤرخين من يقول نحو المليون فسافر كثير منهم الى فاس وتطوان وسلا والرباط وتلمسان ووهران وتونس وعددهم يقرب من مائة وثلاثين ألفاً . ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والنهب وخرج منهم الى بلاد فرانساً بمقدار مائة ألف فاشترطت عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا ذلك فردوا من حيث أتوا فاحتاروا في أمرهم وفسدوا المراسي الفرنسية للسفر الى المغرب فات كثير في فرنسا ونجا قليل منهم وقد تسلط أعراب البوادي على كثير ممن خرجوا الى فاس وتلمسان في الطرقات ونهبوهم ولم يسلم من ذلك الا الذين خرجوا الى تونس

الأندلسيون في البلاد التونسية

علاقة الأندلس بتونس قديمة من وقت الدولة الحفصية فقد وفد منهم على تونس عدد كثير في مدة الحفصيين لاسيما في زمان السلطان المنتصر بالله الحفصي وكان لوفودهم على تونس أثر عظيم في انتقال حضارتها من البساطة الى الرقي والترف والرفقة قال ابن خلدون في ذكر المنتصر «ومدت اليه ثغور القاصية من العدوتين^(١) يد الاعتصام بما اجتمع بحضرته من اعلام الناس الوافدين على أبيه (أبي زكرياء) من شاعر مفلح وكاتب بليغ وعالم نحري وفي أيامه عظمت حضارة تونس وكثر ترف ساكنيها وتأنق الناس في المراكب والملابس والمباني والمعون والآنية» .

وكان بتونس في الدولة الحفصية جند من الأندلس خاصة وكان رجال شورى السلطان من الموحيدين ومن الأندلس قال ابن خلدون عند ذكر نزول الفرنسيين على قرطاجنة «وتفاوض السلطان (أى المنتصر) مع أهل الشورى من الأندلس والموسدين - ثم قال - وملئت سواحل رادس بالمرابطة من جند الأندلس والمتطوعة»

وأيضاً قد كان بين تونس والأندلس ارتباط بولاية أبي حفص الهنتاقي جد الحفصيين امارة اشبيلية من جهة عبد المؤمن بن علي ثم ابنه عبد الواحد ثم ابنه زكرياء لذلك لما انجلى المسلمون من الأندلس جلاءهم الأخير كانت البلاد التونسية من أول ما وقع نصب أعينهم في هجرتهم فركبوا إليها البحر ونزلوا بسطوطها والظاهر أن نزولهم كان بمرسى بنزرت وبمرسى المهدية ومن هذين المرسين قصدوا حضارة تونس ثم تفرقوا في البلاد فاقبلهم أهل المملكة بالترحاب ولم ينلهم في طريقهم نهب ولا ضرر كما قلنا آنفاً وقبل أن يفتدوا على الحضارة أرسلوا الى أهلها يستنبئون أيسمحون لهم بالدخول فوجدوا من أهل الحضارة رغبة في قدومهم وإكراماً لشواهم .

وقد وقفت على كتاب اسمه نور الأرماس في مناقب سيدي أبي الغيث الفشفاش ألقبه السيد المنتصر القفصي وكان من مریدی سيدي أبي الغيث وهذا الكتاب موجود بحزنة جامع الزيتونة تحت عدد ٣٨٨٣ قال في أول الفصل الثاني منه ما نصه «لما جاء الأندلس لتونس كنت أنا بتونس برسم الزيارة وكنت ذات يوم خارجاً من باب بشرقي جامع

(١) هي عدوة الأندلس لأنها أبعد عنا من عدوة المغرب

الزيتونة فلقيت كبراء الأندلس ومشائخهم وفي أيديهم ورقة كالغد وهم يفتشون على من يقرأها لهم فصادفوني فقالوا أنت تقرأ خط الشيخ سيدي أبي الفيث فقلت لهم نعم فأطلعوني على ورقة مكتوبة بالأخضر فيها مكتوب « الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله الى ساداتنا الاندلسية خصوصاً منهم سيدي فلان وسيدي فلان الى أن سمي من أكابرهم عشرة رجال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فلا مزيد بحمد الله تعالى إلا خيراً وأنا داعي لكم بخير وما ذكرتم لنا على أنني أستخبر الله تعالى لكم فاستخرتكم عند والدي والثاني ليلة عند أستاذي سيدي محمد حذيفة والثالث ليلة عند والدي فرأيت لكم خيراً والمهدية مشتقة من الهدى وأنتم كما قال الشاعر :

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنكم ببقاع الأرض أمطار

وذكر تكلمة الأربعة الأبيات والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته من العبد الفقير أبو الفيث ثم أخذوا الورقة من يدي وساروا فرحين مستبشرين بكلام الشيخ اه »

وهذه الحكاية صادرة من شاهد عيان وهي أجلى ما يمثل لنا جالية الأندلس ولا يعادها فقرات مثلها في كتب التاريخ ويستفاد منها أمور أحدها أن أهل الأندلس نزلوا بشاطئ المهدي انمول الشيخ لهم والمهدية مشتقة من الهدى فتفاعل لهم بذلك الثاني أنهم كانوا على حالة جهل حتى لم يستطيعوا قراءة كتاب الشيخ أبي الفيث الثالث ان اسناد رئاستهم الى عشرة كانت من الأمر المطرد فيهم في سائر أحوالهم ومنه كان رؤساء صناعة الشاشية - وهي من مآثر الجلاء الأندلسي - عشرة يلقبون عندنا الى اليوم «بالعشرة الكبار» الرابع أنهم كانوا أوجسوا خيفة من سوء القبول فوافدوا الى الشيخ من راجعه في شأنهم ولذلك استبشروا لما رأوا منه حسن القبول لأن الشيخ أبا الفيث في ذلك العصر هو معتقد أهل تونس من أمير وأمور

وكان وفود الأندلس الى تونس في سنة ١٠١٧ في ولاية عثمان داي قال ابن أبي دينار في المونس « وفي سنة ١٠١٧ والتي تليها جاءت الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب اسبانية وكانوا خلقاً كثيراً فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا فاشترى المناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن ومن بلدانهم المشهورة (سليمان ، ويلي ، ونيانو ، وقرنبايه .

وتركي . والجديدة . وزغوان . وطبرية . وقرينش الواد . ومجاز الباب . والسوقية . ونستور . وهي من أعظم بلدانهم وأحضرها والعالية . والقلعة - أي قلعة الأندلس - وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكرم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد « ولم يذكر ابن أبي دينار من استوطن منهم بمحاضرة تونس وبلد بنزرت فأما تونس فترها منهم أهل الصنائع والفنون فأهل الصنائع الدقيقة سكنوا المدينة وهم أهل الثروة منهم وبنوا لأنفسهم حومة تعرف بزقاق الأندلس قرب جامع القصر . وأما أهل الصنائع الأخرى وبعض الفلاحين من أهل الخواضر فسكنوا روض باب السويقة وهم أول من بنى هناك خارج السور فبنوا الحومة المعروفة بحومة الأندلس ولم يزل من بقاياهم هنالك عائلات منهم عائلة الأندلوس .

ولما نزلوا تونس احتق بهم أهل البلد قال السيد المنتصر في مناقب سيدي أبي الغيث القشاش « ولما أن جاء الأندلس الى تونس ضاقت بهم الحاجج والطرقات والأسواق والديار والمخازن والحوانيت وصاروا يأتون الى الشيخ والى ساطه ويجرى معهم الشيخ رضى الله عنه كل ربح المرسله في إطعام الطعام وكسوة العزيان حتى انى أحصيت ما يخرج لثؤوتهم اثنتى عشرة مائة خبزة من القمح وقفيزين من الدقيق والكسكسو شىء يابس وشىء مسقى وزوج أجمال من الخروب - نعلف الدواب - بخلاف اللبن واللحم رأسين بقر كل يوم هذا على حساب العام الكامل ضيقهم الشيخ ولما كثر الأندلس بتونس وعمروا اقليمها ودواثرها وعمروا الجزيرة وكثرت بلدانهم وكثر خيرهم وحرثهم وتأهلوا صاروا يأتون من كل بلد لهم لزيارة الشيخ سيدي أبي الغيث ويأخذون على يديه العهد من كل بلد حزبا وكل حزب يجعل له نقيباً والنقيب هو شيخ الفقراء ويعطيه علما - أى علما - أخضر ويوصيه بطاعة الله وكان الأندلس عمتلين لأمر الشيخ سامعين له مطيعين فى كل أمر وكان يحسن إليهم ويواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بنحو اطهرهم ويقضى حوائجهم فى كل ما يحتاجون إليه وكان أقربهم إليه سيدي محمد بن عبدالرفيع الأندلسى « اه

أما بلد بنزرت فقد سكنها الأندلس وبنوا بها حومة تعرف الآن بحومة الأندلس وأسسوا قريها قرية منزل جيل ومنزل عبدالرحمن والعالية وغار الملح وكذلك نزلوا منازل من الجزائر القبلية غير ما ذكره ابن أبي دينار مثل منزل أبي زلنى ومنزل تيم بالدخلة وقرية

الفهرى وقرية دار شعبان ونزل فريق منهم ببلد نابل
وقد نظم الأندلسيون لأنفسهم بهذه البلاد نظاما حفظ لهم عوائدهم وقوميتهم الأصلية
وأقاموا عليهم كبرا بلقب شيخ الأندلس فكانوا يحكمونه في فصل اختلاف بينهم ويرجعون
إليه في مهامهم ودام هذا الوظيف فيهم الى مدة الأمير محمد باشا وآخر من وليها الشيخ مصطفى
شلي بعد سنة ١٢٧١

الأندلس بالمغربين الأقصى والأوسط

انصال أهل الأندلس بالمغرب الأقصى قديم من عهد الدولة المتونبة ثم الموحدية ولما
استولى الاسبان على غرناطة قصد سلطانهم أبو عبد الله بلاد فارس وتبعه جمع عظيم منهم ثم
لما انجلى الأندلسيون الجلاء الأخير قصدت جوع عظيمة منهم بلاد المغرب واستوطن معظمهم
مدينة سلا ورابطها المعروف اليوم بالرابط أو بقلعة سلا وبنوا هنالك قصورا ودورا وحمامات
واتفح بهم ملوك المغرب في تعليم الصناعات وتدييج الحضارة وجندوا منهم جندا عظيما في
البر والبحر وبهم فتح الملك المنصور السعدى اقليم السودان فن أجبل ذلك لقب مسلو
السنغال عند الافرنج بلفظ مور^(١)

ويظهر أن جل أهل الثروة من الأندلسيين قصدوا المغرب الأقصى واستوطنوا فاسا
وبشوا هنالك الحضارة الأندلسية في جميع مظاهرها ولاسيما فنون البناء والنقش والتزويق
وأساليب المعيشة وبث العلم

وكذلك خاتمة علماء الأندلس فدا انتقل معظمهم الى فاس وبشوا هنالك العلوم فكان
دخولهم نهضة عامة في الحضارة العلمية والفنية بالمغرب الأقصى

وأما المغرب الأوسط فقد نزلوا منه بتلمسان وهران وانجاز الى تلمسان طائفة من
أهل العلم فظهرت هنالك أيضا نهضة في العلم والحضارة

والخلاصة أن مالحق مهاجري الأندلس من السعادة وال عمران قد حصل تقيضه فيأ أخلوه
من بلادهم التي سكنها الاسبان وما عمروها وعد المؤرخون إخراج الأندلسيين من وطنهم
أعظم خطيئة اخطأها فيليب الثالث على مملكته واشفى بها لأجل ذلك على الفقر والتأخر
وإذا نظرت الى البلاد وجدتها تشقى كما يشقى العباد وتسعد

(١) قلت وقد وجد في تبتكتو قوم يقال لهم الأندلس من بغايا هؤلاء

طرابلس الغرب وايطاليا

المؤلف

- (١) الكتب الواردة على السيد احمد الشريف السنوسي من لورد كفتنر والسير
مكاهون والجنرال مكسويل وهي ثلاثة .
(٢) ما سبق في التاريخ من استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب
(٣) عرب طرابلس الغرب لعبد الستار بك الباسل

قد جرى بعد طبع الجزء الأول^(١) من هذا الكتاب حوادث كثيرة في طرابلس
الغرب ان لم يسعنا شرحها كلها فلا مناص من الاشارة اليها ولو على وجه الاختصار لأنها
من آلم ما آلم^٢ بالمسلمين في هذا العصر
منذ استولى على ايطاليا حزب الفاشيست تحت رئاسة موسوليني بدأ الاسلام في
طرابلس وبرقة يؤول الى الانقراض التام

ومن المعلوم أن مبادئ الفاشيست هي الوصول الى أغراضهم بكل وسيلة وبدون
أدنى نظر الى ما يقال له « حقوق الأمم » و « حقوق الانسانية » وما أشبه ذلك مما انفقت
الأمم على مراعاته . بل يعلنون ويصرحون ولا يجمعون بأنهم لا يعرفون الحرية ولا
يقدمون للحقوق العامة عهداً وان كل شيء يرويه ضرورياً لأجل تعالي ايطاليا وبسطتها
في الأرض أو لأجل توطيد دولة الفاشيست فهو عندهم سائغ جائز طابق ذلك الحقوق
الانسانية والحقوق الدولية أو لم يطابق . ولموسوليني خطب كثيرة وكتابات بتوقيع تؤخذ
منها هذه المقاصد بدون اشكال فلماذا لم تنق في ايطاليا لا حرية قول ولا حرية كتابة وكل
شيء يصادم ارادة الفاشيست فهو ممنوع . ولما أراد البابا تأليف جمعيات كاثوليكية هب
الفاشيست في وجهه ومنعوه من تأليفها وأقفوا أما كن هذه الجمعيات لا عداوة للكثلكة
التي هم أنصارها الأشداء بل خشية أن يوجد في ايطاليا حزب خارج عن حزب الفاشيست

(١) راجع صفحة ٢٩٠ من الجزء الأول

ولقد احتج البابا على استبداد الفاشيست به واشتد الخلاف بينه وبين موسوليني ولكنه حاب في مسعاه وذهبت احتجاجاته مدعى وهذا بعد أن ألحق به الفاشيست اهانات كثيرة وبعد أن داسوا صورته بالأقدام علنا في أسواق رومة

فالخزب الكاثوليكي الذي يهين البابا نفسه والحزب الايطالي الذي لا يميز أن يكون في ايطالية حزب سواء ولا يقبل في تلك المملكة قانوناً غير الذي ينطبق على مبادئ الفاشيست لاشك أنه اذا تسلط على طرابلس الغرب كانت مبادئه أفضح وأشنع وأبعد في الظلم مدعى . فان الأمم الحرة الديموقراطية في أوروبا تحتهد مبلغ امكانها في العدل والمساواة في بلادها حتى اذا صارت بازاء المسلمين نسبت مبادئ العدل والمساواة وكالت بمحكيال للدور بين و بآخر للمسلمين وأوضح دايبل على ذلك حالة الادارة الافرنسية في الجزائر وتونس والمغرب وحالة الادارة الهندية في الجاوى وسومطرة ولا يستثنى من ذلك أيضاً حكم الانكليز في الهند . فاذا كان هذا دأب الأمم التي تقيم للعدل والمساواة والحرية وزناً فما ظنك بالقوم الذين لا يعرفونها من الأصل ولا يتقيدون بها تجاه أبناء جنسهم أنفسهم ومن يقولون انهم لا يدينون بشيء الا بالوصول الى عرضهم لا جرم أن المظالم التي أوقعها الظليان الفاشيست في طرابلس وبرقة هي مما لم يقع نظيره في هذا العصر . وقد يكون نادراً حتى في القرون الوسطى . وما أحسن مقاله الوطني المصري المشهور الاستاذ عبد الرحمن عزام في إحدى مقالاته البليغة وهو (ان الناس يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الأسبانيول بالمسلمين هناك .. وما لهم وللأندلس وأمور جرت في القرون الوسطى فأمام أعينهم طرابلس الغرب فليذهبوا ويشاهدوا بأعينهم في هذه الأيام فظانح لا تغل عما جرى بالأندلس)

فالفاشيست قرروا تحويل طرابلس وبرقة بلاداً لانيشية وأجمعوا انزال مليونين أو ثلاثة من الظليان بها بزعمهم أن ايطاليا ضاقت بأهلها . والحقيقة أن انزال نصف مليون ايطالي بطرابلس وبرقة قد تعجز عنه ايطاليا لما يتفاضاها ذلك من النفقات الوجيعة ولكون الأراضي الجيدة في تلك البلاد قليلة جداً وهي على كل حال لا تستحق الهجرة اليها ولا يعيش بها الا الفئوع . والفاشيست انما يقصدون في الحقيقة مجرد الافتخار والابتهار بأنهم فتحوا بلداناً واستعمروا أقطاراً لأنه لو كان المقصود مجرد استتجاع الأراضي ففي نفس ايطاليا أرضون مهمة هي أجود من أرض طرابلس وأقرب للظليان وجزيرة سرديانية من

من اخصب البقاع وأوسعها وهي تكاد تكون خالية

ومن شاء أن يعرف مايعترض إيطاليا من الموانع الاقتصادية في استعمار طرابلس الغرب وما يوجد في نفس إيطاليا من الأراضي التي هي أولى بالاستعمار منها فليطالع للسنيور « بنيتي » رئيس وزراء إيطاليا سابقاً ومن أعظم رجال السياسة والعلم في أوربة تأليفه الذي يبحث فيه عن الديموقراطية والفاشيستية والبلشفية فانه يزداد بمطالعة هذا الكتاب يقينا بأن استعمار طرابلس لم يكن الا لأجل مسابقة الدول الأخرى في ميدان الفتوحات والتمرينات العسكرية لا لأجل مقاصد اقتصادية كما يزعمون وأن طرابلس لم تكن ولن تكون بلداً تؤتي أكلها على أثر استعمار أو استتار

وخلاصة القول أن اخواننا الطرابلسيين لأمر يريد الله ابتلوا من الاستعمار الإيطالي الفاشيستي بالدهاية الدهماء والبلية الصماء التي مهما كثرت مصائب الاسلام في هذا العصر فلا نبي منها يشبهها

فقد حزر بعض الواقفين بعشرين الف نسمة عدد الذين شتقهم الطليان من أهالي طرابلس وبرقة منذ احتلالهم وكثيراً ما شتقوا اناسا بدون محاكمة بل بمجرد ارادة قائد أو بمجرد ارادة ضابط صغير . وقد وقع لهم انهم شتقوا نساء جردوهن من ثيابهن وأبقوهن مجردات عدة ايام . وقد وقع انهم كانوا يسلكون ستين أو سبعين شخصاً في سلسلة واحدة ويحبسونهم على هذه الصورة مدة الى أن يموتوا . وقدف البحر مرة عدة جثث الى ساحل السالوم مربوطاً بعضها ببعض فرجع الناس انها من جثث أهالي طرابلس لكثرة ما ربط الطليان من اولئك المساكين بالحبال ورموا بهم في البحر . وقضية النضام التي ارتكبتها العسكر الطلياني بأهل المنشية في أول نزولهم بطرابلس هذه قد اقنعت لها أبدان الاوربيين رغم انهم على وجه الاجمال لا يشعرون باكلام المسلمين . وقد حاول الطليان تبرير تلك الاعمال الوحشية بكون الطرابلسيين قد هاجوا العساكر الإيطالية من الورا بيناهم يحاربون الجيش العربي اذى امامهم ولكن ألوظا من الافعال الوحشية التي أقدموا عليها قد أقدموا عليها بدون موجب سوى حب الانتقام من المسلمين والعمل لاستئصال شأفتهم من طرابلس وبرقة إخلوا لاطليان الجوويها ويسكنوها آمنين

ولما كانت اراضي الجبل الاخضر من برقة هي أجود قطعة من بر طرابلس وفيها

المياه الجارية والعيون الصافية والغابات الملتفة والمروج المربعة توجهت انظار الطليان الى استعمار هذه القطعة قبل غيرها وأخذوا يفكرون في الطريقة التي تمكنهم من اسكان الجنس اللاتيني فيها بدون أن ينازعهم أحد عليها. فلم يجدوا طريقة سوى اجلاء القبائل العربية الساكنة في الجبل الاخضر وجواره عن أراضيهم وجعوا منهم ثمانين الف نسمة رجالاً ونساءً وأطفالاً وساقوهم الى صحراء « سرت » في الأراضي الواقعة بين برقة وطرابلس على مسافة عشرة أيام من أوطانهم الأصلية وأزلوهم في معاطش ومجادب لا يمكن أن يعيش بها بشر ولا بقرقات جانب كبير منهم جوعاً وعطشاً وماتت مواشيم بأسرها من فقد الكلاء والماء . وعند ذلك جعلت الحكومة الإيطالية لكل عائلة منهم فرنكين إيطاليين يومياً أشبه بما يسمونه « قوت لايوت » وارتفع صراخ هؤلاء الأهالي وراجعوا الحكومة الإيطالية وشكوا لها موت ذراريهم وموتان مواشيم فازادها ذلك الامتياز في عزيمتها ولكنها جاءت فأخذت منهم الرجال الذين من سن البلوغ الى الخامسة والأربعين وأدخلتهم في سن الجندي . ثم عمدت الى الاحداث من فوق أربع سنوات الى ١٢ سنة فأخذتهم قهراً من أحضان آبائهم وأمهاتهم في يوم تشيب من هوله الأطفال ودفعتهم الى إيطاليا لأجل تربيتهم وتنشئتهم في النصرانية . وهذا هو العمل الذي لم تقدم عليه حكومة بعد في هذا العصر والذي يشبه عمل الاسبانيول بمسعى الاندلس منذ أربعة قرون قد أعاده موسوايني في هذا القرن ولم يبال صراخ أولئك المساكين ولا بالى مخالفة ذلك للحقوق البشرية العامة التي تجعل الأب والأم أوصياء طبيعيين على أولادهم القاصرين . وقد زعمت الحكومة الإيطالية أمام الناس انها انما نقلت هؤلاء العرب من أوطانهم تعزلم عن عصابة الثوار الذين كان يقودهم عمر المختار رحمه الله . وهو كلام فارغ لا يقبله عقل ولا عدل اذ كيف تقدم حكومة على نقل ٨٠ ألف نسمة من مافطرووسها خشية أن يتصلوا بنحسائة تائرلا غير ثم ان الطليان تغلبوا على الثوار المذكورين وقبضوا على قائدهم عمر المختار الذي ما فتى يجاهدهم من عشرين سنة وشقوه بمحضر جم غفير من أبناء جلدته فمضى الى ربه شهيداً وبكاه العالم اسلامي بأجمعه وانطقت الثورة من كل برقة ومع هذا لم ترض الحكومة الإيطالية أن تعيد هؤلاء الاهالي الى بيوتهم وأوطانهم بل انتخبت من بقاياهم أربعة أو خمسة آلاف وأرجعتهم الى الجبل الاخضر يحرقون ويزرعون لا كالكين بل

كعملة في الأملاك التي نزعها الحكومة الإيطالية منهم وسلمتها الى المستعمرين الطليان .
 وبعبارة أخرى مثلت إيطاليا في هذه المسألة أيضاً دور الأندلس عندما انتزعت أراضي
 المسلمين وسلمتها الى كبار الاسبانيول والى الرهبان ثم جعلت المسلمين أصحابها القدماء
 اكرمة في نفس أراضيهم لحساب غيرهم . وهذا هو السبب الذي أثار فلاحى الأندلس اليوم
 وحلهم على مطالبة الحكومة الاسبانية بعد سقوط الملكية وتأسيس الجمهورية فيها باعادة
 هذه الاراضى ملكاً لهم بحجة أنها كانت لأبائهم الذين كانوا مسلمين في الأصل . ولقد
 قررت الحكومة الاسبانية الحاضرة تعليق فلاحى الأندلس هذه الاراضى ونزعت
 أبدى الرهبان ونبلاء الاسبانيول الذين كانوا يملكونها . فالتقشيت اقتفوا آثار
 فرديناند وازابلا في الأندلس من كل وجه . ثم لما تارت اعتراضات المسلمين على إيطاليا
 من أجل اجلاء الثمانين الق عرقي عن اراضيهم واغتمهاها ايها وتسلمها الى الطليان
 قامت إيطاليا بتمويه آخر لا يقل عن التمويه الاول سخفاً وهو ان تقول : ان كثيراً
 من الحكومات الاسلامية قد أجبرت القبائل الرُّحَّل من رعاياها على التحضر والعدول
 عن الهيام في البرارى وانها هي أى إيطاليا انما أرادت حل هؤلاء العرب على قبول
 الحضارة . كما فعلت الحكومات الاسلامية نفسها ولا نعلم لماذا يستلزم حلهم على ترك
 البداوة أن يجلبوا عن أملاكهم وأراضيهم ويصار بهم الى فلاة قاحلة لاماء فيها ولا كلاً
 تقريباً ؟ وهل كانت تعجز إيطاليا عن اجبارهم على ترك البداوة وهم في وسط أراضيهم
 الحصبة بالجبل الاخضر ؟ ان هذا التمويه لم يقنع أحداً وقد أشرنا اليه مراراً والى سائر
 فظائع إيطاليا بطرابلس في مجلتنا العربية المنهج الافرنسية الملهج المسماة « بالامة العربية »
 La Nation Arabe وزيد على ذلك قولاً نقوله عن علم وعن خبرة وهو اننا في أوائل
 غارة إيطاليا على طرابلس ذهبنا بنفسنا ومعنا بعض من أتباعنا وجاهدنا مدة ثمانية أشهر في
 درنه وبتغازى فاتح لنا أن نجوب الجبل الاخضر والاراضى التي تمتد من عقبة السلم الى
 سهل بنغازى من أولها الى آخرها وعرفنا السلم ودفنا وطبرق وغور الطنفة وسأرما
 يسمى بالطنين ثم الجبل الاخضر بما اشتمل عليه من أراضي قبيلة العبيدات في درنه وعين
 منصور ونعمامرة وترت وبشارة والقيص وشحات مدينة سيردا القديمة وأراضى قبيلة الحاسه
 فيها وبعد ذلك أراضي قبيلة البراعصة في قلب الجبل بجوار الزاوية البيضاء وبعد ذلك

أراضي قبيلة الدرسا وأراضي العرقا والعييد حول قصبة المرج الى أراضي العواقر والمغاربة بظاهر مدينة بنغازي . وقد تعرفنا الى كثير من رؤساء هذه القبائل ومن مشايخ الزوايا السنوسية التي منها لكل قبيلة زاوية أو زاويتان أو ثلاث بحسب عدد تلك القبيلة وقد زرنا أكثر تلك القبائل في نجوعها ولم نجد منها قبيلة واحدة يصح أن يقال فيها انها عريقة في البداوة بل جميعها أصحاب زراعات وبناتين ومنها من يسكن المضارب ومنها من يسكن المدر ولكن الجميع حراثون زراعون مستقرون لا يظنون الى أماكن بعيدة وأما يشتون ويصيفون في بلادهم على عادة الكثيرين من أتفلاحين وسكان الحجر في جميع الدنيا . ولنفرض جدلاً ان ايطاليا شاءت تحضيرهم كما تزعم أفلم يكن ذلك ممكناً مع ابقائهم في أراضيهم ؟ أكان من الضروري لأجل تحضيرهم اخراجهم من أراضيهم المريعة البديعة واسكانهم في فلاة قاحلة ليموتوا ؟ كل الادلة متظاهرة من اعمال ايطاليا في طرابلس وبرقة على ان مراد الفاشيست هو استئصال الشعب الاسلامي من ذلك القطر لاحتلال اللاتين محله . ولقد وصلت ايطاليا الى هذا الغرض ان لم يكن بتأمه فالى جانب كبير منه . فلقد كان أهالي طرابلس وبرقة قبل غارة ايطاليا عليهما مليوناً ونصف مليون من النسم فلم يبق منهم الآن بحسب الاحصاء الأخير سوى سبعمائة الف نسمة . فيكون قد تناقص عددهم الى النصف بالظلم والعسف والقتل وما نشأ عن ذلك من رحيل الأهلين منهم من قصد السودان ومنهم من دخل مصر ومنهم من تحول الى تونس ومنهم من وصل الى الجزائر . والطلبان مسرورون بان الجوب ذلك يخلو لهم مغرورون بان افريقية ألفت اليهم بقيادها بواسطة طرابلس . وكل هذا أوهام وأحلام ومستبدى لهم جهلهم الأيام . ولكنهم تركوا في قلوب المسلمين من جراء أعمالهم في طرابلس جراحات لاتوسى وحزازات لاتنسى ومن جهة أعمالهم فيها عداياتقدم ذكره انهم لما احتلوا واحدة الكفرة في ١٣ يناير من سنة ١٩٣١ الماضية استباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا من صادفوه من الأهالي . وكان من جهة القتلى بعض الشيوخ الأجلاء مثل السيد محمد بن عمر الفضيل والسيد حميد الفضيل والشيخ فضيل الديفار وغيرهم عن قتلوه صبراً غير داخل في ذلك من قتلوا في المعركة التي جرت بين الأهالي وجيش الحملة الطليانية وهم ٢٠٠ شخص . ثم ان الطليان انتشروا في القرى والبناتين ونهبوا كل ما وقع في أيديهم ولم يرحوا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء وصادفوا الشيخ مختار الغدامسى وهو

شيخ فان بالغ ثلاثا وتسعين سنة ومن جلة علماء السنوسية حُملوه مقيداً بالحبال على جبل ونفوه من الكفرة فأت في الطريق . ثم اغتصبوا النساء في أعراضهن وقتلوا منهم* كثيراً ممن دافعن الى الآخر عن أعراضهن . وكان نحو من ٢٠٠ امرأة من نساء الأشراف قد فررن الى الصحراء قبل وصول الجيش الإيطالي فأرسلوا قوة في أثرهن تتأثرهن حتى قبضوا عليهن* وسحبوهن الى الكفرة حيث خلاهن ضباط الجيش الطلياني واغتصبوهن* وهكذا أزلوا المعرات بسبعين أسرة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريبا لا ترى وجوههن من الصون والعفاف . وقد أشارت الصحف الطليانية الى هذه الحادثة وصرحت في باب الافتخار قائلة : « ان الجيش قبض على ٢٠٠ امرأة من نساء الزعماء » وقرأنا ذلك باعيننا ولحظنا ان مقصود البلاغ العسكري الإيطالي التبرجح بكون حلائل زعماء الكفرة صرن الى الضباط . الا اننا انتظرنا جلاء الاخبار من الجهة الثانية حتى نعلم ماذا جرى بعد التثبيت فامضى شهر حتى وردت الاخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بان هؤلاء السيدات المقصورات الناشئات في أكرم مهود الطهارة والصون قد قبضوا عليهن في الصحراء وصرن الى أوامك الفجرة الذين لا يعرفون لصيانة العرض معنى ولا يقيمون للشرف وزناً . وعلما ان بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات قد أمر القائد بقتلهم . ثم لما هاج هائج العالم الاسلامي من جراء هذا الخبر وأشباهه أذاعت الحكومة الإيطالية تمويهاً ظاهراً زعمت فيه أن الجيش تأثر النسوة المائتين المذكورات شفقةً عليهن* ولأجل أن يرجعهن الى بيوتهن آمنت وغير ذلك من الأقاويل التي قصدت إيطاليا بها تخدير أعصاب المسلمين الذين بلغهم ما كان جرى بالكفرة من هذه الفظائع من هتك أعراض محشرات المسلمين ومن استباحة الزاوية السنوسية المسماة « بالناج » وراقرة الخور فيها ودوس المصاحف الشريفة بالاقدام هذا منبضاً الى ما كان بلغهم من قبل من اجلاء ١٨ ألقاً من عرب الجبل الأخضر عن أوطانهم وامانتهم بالجوع والعطش وأخذ أطلقهم قهراً الى إيطاليا لأجل تصيرهم والى ما كان بلغهم من فظائع كثيرة مثل حل الشيخ سعد شيخ قبيلة « الفوائد » و ١٥ شيخاً من رفاقه بالمبارات وقذفهم بهم من الجوع على مشهد من أهلهم حتى اذا وصل أحدهم الى الأرض وتقطع ارباً صفق الطليان طرباً ونادوا العرب قائلين : « يا أيها محمد هذا نبيكم البدوي الذي أمركم بالجهاد وينقذكم من أيدينا » والى غير ذلك من

الأمر التي جرحت قلوب المسلمين فجرت مظاهرات في النمام وطرابلس الشام وبيروت وفلسطين وانعقدت اجتماعات في كل مكان للاحتجاج على أعمال إيطاليا في طرابلس وأبرق المسلمون بالاحتجاجات الشديدة الى جمعية الأمم بجنيف والى نفس موسويناى بالعبارة القاسية وقامت قيادة الجرائد العربية وحلت على توحش الفاشيست من كل جانب وامتلات جرائد مصر بالاحتجاج والطعن في إيطاليا الى أن عطلت الحكومة المصرية بعضها اجابة لطلب الحكومة الإيطالية ووصل الصريح الى الطند والجاوى وأضح المسلمون لهذه الأخبار وانعقد في الجاوى اجتماع كبير حضره ألوف مؤلفة من المسلمين وخطبوا خطبا شديدة ودعوا الى مقاطعة البضائع الإيطالية وتدخلت الحكومة الهولندية في الأمر واتصرت لايطاليا بمقتضى قاعدة التكافل الأوربي بوجه المسلمين وقاعدة التكافل الاستعماري بوجه الأمم المقهورة وأشاع فواصل إيطاليا ان كل هذه الاخبار عما حل بمسلمي طرابلس ملفقة لا أصل لها وبلغت بهم القحة انهم كانوا يخاطرون الناس مخاطرة على أن يذهبوا الى طرابلس بأنفسهم يشهدوا كذب هذه الأقاويل وبلغ بهم البهتان انهم أشاعوا أيضاً أن إيطاليا اقترحت على جمعية الأمم أن ترسل الى طرابلس لجنة من عندها للتحقيق عما ينسب الى رجالها من الأعمال الشنيعة التي هم أبرياء منها . وكل هذا اختلاق محض قصدت به ايطاليا التمويه وتخدير الاعصاب وصرف المسلمين عن مقاطعة بضائعها وقد سكن كثير من المسلمين الى هذه التكذيبات وهدأ بالهم والحق خلاف ذلك . وكل ما شاع من الاخبار عن أعمال الطليان لا سيما بعد مجي دولة الفاشيست هو دون الواقع . ولو تأمل المسلمون فيما يأتيه الفاشيست في نفس ايطاليا من الموبقات ومن اغتيال أعدائهم السياسيين ومن حجز كل حرية ومن منع تأليف كل حزب يخالف حزبهم ولو نظر والى اهانتهم للبايا نفسه ومنعهم إياه من تأليف الجمعيات الكاثوليكية بحجة ان الحزب الفاشيستى الذى هو كاثوليكي الصبغة يعنى عن تأليف أحزاب كاثوليكية أخرى لعلموا ان الذين يفعلون تلك الافاعيل بأبناء أمتهم وملتهم ووطنهم لا يقال انهم لا يفعلون اضعافها بالمسلمين الذين ينوون هم استئصال شأقتهم من طرابلس لنحويل تلك البلاد الى مملكة لا تينية كما كانت لعهد الرومان بزعمهم ولايطان ثلاثة ملايين ايطالى فيها . على أن الاعمال الوحشية التي أتوها في

طرابلس وبرقة منذ بدء احتلالهم الى الآن والمظالم المتوالية التي أجروها من قتل وتغريب وحبس وضبط أملاك وانتزاع أراض وغير ذلك قد أصبحت في حكم المتواتر الذي لا يصح فيه المراء لاتفاق عشرات الألوف من الأهلين على روايته فقد نزع عن طرابلس وبرقة نحو من مائتي ألف نسمة وقيل من ٣٠٠ ألف نسمة منهم ٢٠ ألفاً دخلوا تونس والجزائر ومنهم ٦٠ ألفاً دخلوا مصر ومنهم من شردوا الى السوادين ومنهم من تفرقوا في الصحارى وقد أطبقوا بأجمعهم على صحة هذه الأخبار ومشاهدتهم تلك الافعال بالعيان وانه ليستحيل اتفاق تلك الألوف المؤلفة على الكذب هذا فضلاً عن كون لسان الحال أقصح من لسان المقال فلولا كون هذه المظالم حقيقة راهنة ما كان هذا العدد الكبير من الاهالي يترك وطنه ويهيم على وجهه في البرارى أو يلتمس الرزق عاملاً في أرض غيره بعد ان كان سيداً في أرضه . ومن أغرب المتناقضات والتناقض من عادة كل كاذب أنه بينما يمشو ايطاليا في بلاد الاسلام يذيعون أن من شاء أن يذهب الى طرابلس بنفسه ليتحقق كذب تلك الاخبار عن فطائع الطليان فيها فإن أبواب طرابلس مفتوحة لمن شاء الذهاب الى هناك وبينما فنصلهم في بيروت يشيع ذلك في بيروت وبينما الحكومة الايطالية تقول هذا القول لشوكت على الزعيم المسلم الهندي إذ بقيت ايطاليا مدة طويلة بعد احتلال الكفرة وحوادثها المؤلمة تمنع كل دخول وخروج بين الحدود المصرية والحدود البرقاوية لئلا يقف أهل مصر على حقائق الاخبار فيزدادوا هياجاً . ولكن الحقائق لا بد أن تظهر ولا يمكن ايطاليا اخفاء كل ما تأتبه من الأعمال الوحشية في طرابلس وليس المسلمون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان وضجوا منها بل ثمة كثير من الافرنج شاهدوها وأنكروها ومن ذلك المستر « فرايزر ما كولا » الانكليزي الذي كان مرافقاً للجيش الايطالي في طرابلس عند الاحتلال وشاهد تلك الفطائع بعينه فقد قال :

« آيبت البقاء مع جيش لاهم له الا ارتكاب جرائم القتل وان ما رأيت من المذابح وترك النساء المريضات العرييات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق جعلني أكتب للجنرال « كانيفا » كتاباً شديداً للهجة قلت له : اني أرفض البقاء مع جيش لا أعدده جيشاً بل عصابة من قطاع الطرق والقتلة »

ومن ذلك شهادة الكاتب الالماني « فون غوتبرغ » الذي قال : « انه لم يفعل جيش

بعده من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان في طرابلس فقد كان الجنرال كانيقا يستهين بكل قانون حربي ويأمر بقتل جميع الاسرى سواء أقبض عليهم في الحرب أو في بيوتهم . وفي سيرا كوزه الآن كثير من الاسرى الذين لم يؤسر واحد منهم في الحرب وأكثرهم من الجنود الذين تركوا في مستشفى طرابلس »

وقد قبض الطليان على ألوف من أهل طرابلس في بيوتهم ونفوسهم بدون أدنى مسوغ الى جزر ايطاليا حيث مات أكثرهم من سوء المعاملة
واقراً ما قاله « هرمان رنول » المراسل النمساوي الحربي فقد وجد في الباخرة التي نقلت جانباً من هؤلاء الاسرى فوصف تلك الحالة فقال :

« في الساعة السادسة من مساء كل يوم تكبل هؤلاء المرضى بالحديد من اليد اليمنى والرجل اليسرى . حقاً ان موسيقى هذه السلاسل تتفق مع « المدينة » التي نقلتها ايطاليا الى افريقية . لا ريب أن الطليان قد أهانونا كثيراً فلم يكف أنهم أسقطوا منزلة أوروبا العسكرية في نظر افريقية حتى شوها اسم النصرانية أمام الاسلام » ثم قال :

« قد قتل الطليان في غير مدن الحرب كل عربي زاد عمره على ١٤ سنة ومنهم من اكتشفوا بنفيه . وأحرق الطليان في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١١ حياً خلف بنك روما بعد أن ذبحوا أكثر سكانه بينهم النساء والشيوخ والاطفال » . قال : « ورجوت طبيبين عسكريين من أطباء المستشفى أن ينقلوا بعض المرضى والمصابين المطروحين على الأرض تحت حرارة الشمس فلم يفعلوا . فلبجأت الى راهب من كبار جمعية الصليب الاحمر هو الأب « يوسف بافيلاكو » وعرضت عليه الأمر وأخبرت شاباً فرنسياً أيضاً لكن الأب « بافيلاكو » حول نظره عني ونصح للشباب بأن لا يزجج نفسه بشأن عربي في سمكات الموت وقال :
« دعه يموت ... »

قلت ليتأمل القارئ أن هذا الذي يقول هذا القول هو قسيس يزعم أنه ممثل المسيح على الأرض وأنه من رجال الصليب الأحمر أي الجمعية التي تزعم أنها تخدم الانسانية بلا استثناء !

ثم قال هذا المراسل النمساوي : « ورأيت على مسافة قريبة جندياً ايطالياً يرضخ جثة عربي برجله . وصباح اليوم التالي وجدت الجرحى والمرضى الذين رجوت الراهب من

أجلهم قد ماتوا . وقد رأى ذلك مى فون غونبرغ الألماني و بكى من تآثره « ثم قال :
 « رأينا طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها في قلب كل
 عربي تجده في طريقها قد نزع أكثرهم معافطهم ورفعوا الكمام قصاتهم كأنهم جزارون »
 وقال فون غونبرغ في إحدى رسائله : « خرجت عمابة من الجنود وراء البيوت
 فلما دنوا منا وجدنا بينهم خمسة من العرب غلّت أيديهم خلف ظهورهم . ثم سمعنا صراخاً
 وإذا ببعض الجنود خرجوا من منزل يجرون عربياً ضمّوه الى الحصة الأولين وقتلوهم رُمياً
 بالرصاص . فعلمنا أن ليس هناك محاكمة ولا عدالة عسكرية بل هناك مجزرة محضة . ولقد
 قيل لى ان الطليان قتلوا ٤٠٠ امرأة وولد في هذه الأيام الأخيرة وأربعة آلاف رجل .
 وكانوا يقتلون النساء ويقولون : ظنناهم رجلاً » قلت : وهذا لم يكن من الفاشيست بل من
 الطليان غير الفاشيست لأنه حصل في سنة ١٩١١ قبل أن يوجد الفاشيست

ثم قال : « في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١١ سرت في الطريق شمالى بئر « أبى مليانة »
 فأبصرت شابة عربية خرجت من بيتها ممككة يدها طفلها الصغير . ثم ما لبثت أن سمعت
 ثلاث طلقات نارية ثم رأيت المرأة سقطت على الأرض ميتة أما الطفل فولى هارباً مدعوراً
 فلتقيت حينئذ ضابطاً فقلت له : جنودك قتلوا الآن امرأة عند البئر . فقال : جنودنا
 لا يستطيعون التمييز بين الرجل والمرأة أول وهلة . فعلمت من هذا الجواب أن العرب
 مباح قتلهم سواء كانوا مجرمين أو أبرياء »

ثم قال « انه صادف ٥٠ جندياً يقودون ستة من العرب الى خرابة يستعملها الجنود
 لفضاء الحاجة ... ولما أدخلوهم اليها اشترك الضباط والجنود في قتلهم بالمسدسات والبنادق .
 قال : وما كنت أفر من هذا المشهد الهائل حتى رأيت ما هو أشد هولاً وهو طائفة من
 الجنود يسوقون ٥٠ عربياً بين رجال وأطفال . ضرب أحدهم بحربة بندقيته اثنين منهم
 ذات الواحد لوقته وسقط الآخر يتخبط في دمه فرفه أحد الجنود برجليه ثم أدخلوا الباقين
 الى مكان قد تهدم وبدأ الضباط يقتنصون هذا الصيد الكريه بمسدساتهم وبنادق جنودهم
 مدة عشرين دقيقة . وكلماسمعوا أنبناً من جثة أعادوا عليها النار الى ان انقطع الأنين »

وقال مراسل التامس يومئذ - قلت ولا يجوز أن ننسى أن غارة إيطاليا على طرابلس
 كانت بالاتفاق مع فرنسا وانكلترا استرضاءً لإيطاليا على أثر تقاسم انكلترا وفرنسا مصرأ

والمغرب - : « ان قسوة الانتقام التي استعملها الطليان في وقعة يوم الاثنين يليق أن يقال عنها انها أعمال قتل عام فقد فتكوا بكثير من الأبرياء وستبقى ذكرى هذا الانتقام زمناً طويلاً ... » قلت ان كان بقي عند العالم الاسلامي ذرة من الشرف فلا يجوز له أن ينسى هذه الاهدانات التي لحقت به مادام في الأرض شيء يقال له اسلام

وقالت جريدة « الداعي كرونكل » الانكليزية: « استمر الجيش الايطالي ثلاثة أيام يطلق الرصاص على كل من يلقاه من العرب فهلك عدد كبير من النساء والأطفال وبلغ مجموع القتلى بين الاثنين والجمعة أربعة آلاف عربي . وصدر الأمر بقتل كل من وجد خارج السور الى جهة « قرقارش »

وقال المسيو كوسيرا مراسل جريدة « اكيلسور » الباريزية :

« لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يحرق أمام مذبح من مذابح النصر الباهر . ومهدت بمائة جثة بجانب حائط قضى عليهم باشكال مختلفة . وما فررت من هذا المنظر حتى تمتلأ أمام عيني عائلة عربية قتلت عن آخرها وهي تستعد للطعام . ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها في صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها . ان الايطاليين فقدوا عقولهم وانسانيتهم من كل وجه »

وقد أشار الى الحوادث نفسها مراسلا « الداعي ميرور » المستر توماس كرانن والسيدة فرانك ماجي . وقال المستر راليس اشמיד برنلت مراسل شركة روتر في رسالة بعث بها من ماطة يصف فيها ما شاهدته بعينه هو والمستر كرانن مراسل الداعي ميرور والمستر دانيس مراسل المورنغ بوست وقد سجلت هذه الرسالة في دائرة رسمية انكليزية تحت توافيقهم : « صادفنا معجزة خروجنا من المدينة جماعة بين رجال واولاد لا يقل عددهم عن السبعين قتلوا بدون محاكمة . وكنا ن شاهد في طريقنا بعد كل بضع خطوات جثث القتلى في كل مكان قتل بعضهم برؤوس الحراب والبعض ضرباً وآخرون جرحوا وماتوا على أثر جراحهم . وأبصرنا على مسافة قريبة خمسين رجلاً وولداً هلكوا بالرصاص والسيوف وشاهدنا رؤوساً مهشمة . ومن المشاهد التي رأيناها :

١ - شيخ عربي عاجز بينما هو جالس بقرب مدرسة الزراعة اذ اتخذته طاقتة من الجنود

الإيطالي هدفاً لرصاص بنادقها فأت

٢ - سمعنا جفأة صوت عيار نارى فعلمنا أنه أطلق على رجل خرج من منزله فسقط
والدم يتدفق منه وخرجت زوجته ويدها اثناء فيه ماء - لعلمها تريد أن تسقيه أو تغسل
جراحه . فلما رأتنا نكصت على أعقابها خوفاً منا ...

٣ - التقينا في أحد الشوارع بثلة من الجنود اسكوا ثلاثة من العرب وصفوهم عند
حائط واخذوا يتلهون باطلاق النار عليهم «

وقال المستر بنيت بورلى مراسل « الدالى تلغراف » :

« قتل الطليان في ٧ نوفمبر (١٩١١) اربعة آلاف شخص بينهم ٤٠٠ امرأة ورأيت
رجلاً مقعداً قتله الجنود قريباً من قنصلية النمسا «
وقال مراسل « فرانكفورتر تسايتونج » :

« لقد رأيت بعضى فظائع هائلة لم تسمع أذن انسان بمنلها . ولقد بلغ الى الآن عدد
المدبوحين من الأهالى سبعة آلاف من رجال ونساء وأولاد اذ أبيع للجنود قتل كل من
بصادفونه «

قلت هذه اعمال جيش منظم هو جيش إيطاليا تحت قيادة قائد برتبة جنرال هو
الجنرال كانيغا يقود ذلك الجيش الى طرابلس الغرب بحجة انها بلاد متوحشة وان إيطاليا
تريد ان تمدنها وتدخل اليها مبادئ الانسانية ! ولذلك حاجتها بغيا وعدواناً وأوقعت باهلها
كما يعلم كل احد . ولماذا هذا الانتقام الذى تأبى الوحوش الضواري الاتيان بمنله بحق الاهالى
الوادعين المجردين من السلاح ؟ جواب ذلك ان المقاتلة من العرب دحروا الجيش الطليانى
عند المكان المسمى بالمنشية وان طائفة من المقاتلة جاءت الجيش الطليانى من الورا على غرة
منه فانكسر وتلف منه كثير . فاتبم الجنرال كانيغا لهزيمة جيشه هذه بذبح الاهالى الوادعين
المستقرين في بيوتهم رجالاً ونساء واطفالاً ولم يبال لاهو ولا حكومته شناعة هذه الأحداث
ولا مخالفة هذه الأعمال لقوانين الحرب الدولية وكيف يبالى وهو وغيره من الأور بين لاسيا
الجنس اللاتينى يعتقدون ان الاسلام خارج عن الدائرة التى يجب ان تراعى فيها الحقوق
الدوية وانه لانصيب له من ذلك وان كل مايعمل به وباهله جائز . وليس في هذا شئ من
المبالغة بل نحن أولاء نرى من الأور بين أنما اسمى مقاماً اجتماعياً من الطليان نستدل من

كثير من اقوالهم وافعالهم ومن صريح كتبهم الحقوقية انهم لا يقبلون مبدأ المساواة بين الأوربي والمسلم ولا يرون الحقوق العامة التي يدعيها الأوربي مما يجوز ان يدعيه المسلم في المواقف الدولية . فلهدا نجد جيوش هذه الأمم ترتكب في مستعمراتها لاسيا بالمسلمين ما يقرب من أعمال الجيش الايطالي في طرابلس ولا يمتاز عنه بكثير . ولقد ارتكب الفرنسيين في هذه السنة عند احتلال واحة تافيلالت بالمغرب افعالاً بعيدة جداً عن الحقوق الدولية وعن الحقوق وهم وان كانوا اخفوا خبرها عن الناس ولم تتصل بالجرائد فلم يمكن طمسها ولا نطمسها تماماً وهم بدون شك أعلى درجة في المدنية من الطليان . ومن غريب الأمراض التي ابتلى بها المجتمع الاسلامي في هذا العصر ان كثيراً من المغترين بزخارف الأقوال من المسلمين لا يصدقون بصدور هذه الافعال عن الأوربيين ويكذبون أخبارها ويكبرون فيها ويقولون ان أعمالاً كهذه يستحيل أن تصدر عن أمم متمدنة . وهذا من أعظم البلايا التي أصيب بها المسلمون في هذا القرن وقد تفوق هذه البلية في عمائتهم عن الحقائق بليتهم بفظائع الاستعمار الأوربي . ولكن هذا التصور العائى الذى كان لهم بالمدنية الأوربية والانسانية الأوربية والنزاهة والنبالة اللتين كانوا يعتقدونهما من اخلاق الأمم الغربية قد تناقص كثيراً بعد الحرب العامة عند ما احتل الجيش الافرنسي سورية وجزءاً من تركيا واحتل الانكليزي العراق وفلسطين واستانبول وظهر ما ظهر منهم بمصر واليمن وعند ما عمل الفرنسيين ما عملوه من تدمير دمشق وافضع الجميع ما ظهر من أعمال الطليان في طرابلس الغرب وبرقة عالم يسمع به احد الا في القرون الوسطى ونعود الى ذكر تلك الفظائع فنقول ان الجمعية لطرابلسية البرقاوية في الشام قد نشرت في هذا العام كتاباً عنوانه « الفظائع السود الحمر » أو التمدين بالحديد والنار هو الحلقة الأولى من سلسلة فظائع الطليان في ذلك البر . وقد نقلت اخبارها بالوثائق ونقلت من كلام مراسلى الجرائد الكبرى كالتايمس والطان ووستمبستر غازت وغيرها وعن كتاب « فظائع الطليان في طرابلس الغرب » المطبوع في الاستانة سنة ١٣٣٥

ولقد ورد في هذا الكتاب ذكر فظائع أعمال الطليان بالمتسلسل من بدء استلامهم الى الآن سنة فسنة كل سنة مع ذكر ما ارتكبوه فيها من الأعمال المنهجة الخارجة عن حدود الانسانية . وما جاء فيه اهانة الطليان للدين الاسلامي وتعرضهم أحياناً للمسلمين في مساجدهم

ودخول الجنود سكارى الى الجوامع يهزأون بعبادة المسلمين وما من وازع ولا رادع واجبارهم المسلم ولو كان في وسط صلاته أن يترك الصلاة ويحجى الضابط أو المأمور الايطالى أياً كان .
وان احتقار الطليان للمسلمين يظهر في الدقيق والجليل من معاملاتهم لهم حتى اننا قرأنا مرة برنامج مراسم أحد الأعياد الايطالية وكيفية الدخول على القائد الكبير في طرابلس فاذا به على هذا الترتيب : يدخل أولاً جالية الطليان وثانياً جالية الأوربيين من غير الطليان وثالثاً اليهود وأخيراً المسلمون . . .

ومن كان يهيمه الاطلاع على ما فعله الطليان في طرابلس - ويجب أن يهيم ذلك جميع المسلمين - فعليه بمطالعة هذا الكتاب من أوله الى آخره وهذا يغنيننا عن نقل كثير مما فيه على أننا نتقل منه بعض فقرات على سبيل التمثيل . ففي الصفحة ٥٩ نجد ما يلى :

« الحاج مفتاح مشلوف رجل طرابلسى ذهب الى الحج فأخذ معه من النقود نحواً من ألف جنيه لأنه رجل يجمل بمعاملة المصارف ولما عاد الى وطنه شعر الفاشيست بما معه من النقود فأبتكروا لمصادرتها حيلة سخيفة إذ ادعوا أنها اعانة جمعها للمجاهد السيد عمر المختار فرجا منهم أن يحققوا هذه الفرية فأبوا الا أن يقتصوا أمواله بلا تحقيق ولا محاكمة وقالوا له : احمد الله على أن الحكومة لم تقتلك

« لاقيمة لأعراض الناس عند الفاشيست فطلما هتكوا حرمتهم وتجاوزوا على أعراض نساء شريفات . فن ذلك أن ثلاثة ضباط ايطاليين طلبوا ثلاث بنات من أهالى قضاء « جالو » للاستمتاع بهن فأغتصبوا منهن اثنتين والثالثة فرها أبوها ونجهاها من برثن أولئك الوحوش المفترسة

« واحة جغبوب هي مركز السادة السنوسية وحصن عبادتهم الأمين والايطاليون شديدو الحرص على ابادته رجال الدين ومحو معالم الاسلام من تلك البلاد لذلك هاجوا هذا المركز وأجلوا عنه أهله وكان أكثرهم من العلماء وطلاب العلم مثل السيد حسين السنوسى شيخ زواية جغبوب والشيخ أحمد اليوسف والشيخ صالح المسارى والشيخ الفضيل الكيش والشيخ محمد أبى شهبه وغيرهم ونفوا معهم نساءهم وأطفالهم الى حيث لا يعلم أحد ويظهر أنهم أجبوا « الى بردى سليمان » وقد سقط من السيارة فى الطريق الشيخ صالح المسارى فلم يهتموا له وكان من خلف السيارة التى تحملها سيارة أخرى داسته وذهبت بحياته

« أصدرت حكومة الفاشيست في لواء بنغازي أمراً بسد جميع الكنائس التي تعلم الأطفال أمور دينهم وتحفظهم قرآتهم الكريم »
 « فاجأ الفاشيست رجلاً يدعى الشيخ يونس بن مصطفي البرعصي وهو معتكف في غار بزايوة القايدية بالجبل الأخضر فدعوه عليه وأحرقوه مع عائلته المؤلفة من تسعة أشخاص تأويلاً لاعتكافه بالتجسس عليهم »
 « تفنن الفاشيست في التنكيل بالكان حتى انهم أنشوا جماعة منهم الشيخ عبد الحبيب أبا عمران البرعصي والشيخ المكدن العبيدي وأحمد خليل السعيطي من طيارة من علو ٤٠٠ متر في المكان المعروف بجردس العبيد بالجبل الأخضر . ور بطوا الشيخ مفتاح يحيى العبيدي وابن عمه صالح على بين سيارتين دفعوهما الى اتجاهين مختلفين فتقطعت أجسامهما ارباً ارباً أمام فييلتهما المستلمة القاطنة بجوار المعسكر الفاشيستي في « تاكنس »
 هذا ما نقلناه عن صفحات ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ من هذا الكتاب . واليك أمثلة أخرى من صفحة ٦٣ :

« أسس الجنرال « غرسيانى » محكمة عرفية سيارة تقطع البلاد على متنون الطيارات وتحكم على الأهالي بالموت ومصادرة الأملاك لأقل شبهة فتمنحها لمرزقة الفاشيست الذين سدت في وجوههم أبواب المهاجرة الى أمريكا وغيرها . ومن أغرب ما يفعله الفاشيست أنهم يحكمون وينفذون ثم بعد ذلك يحققون . . . فقد أخبرهم أحد جواسيسهم أن احمد عبد الهادى يقتنى بندقية فحكموا عليه بالموت شنقاً وبعد أن نفذوا فيه الحكم فنشوا منزله فلم يجدوا فيه نوعاً من السلاح ثم ثبت لهم أن هذا الخبر مختلق فلم يعاقبوا الجاسوس وكثيراً ما أزهقت أرواح بمثل هذه التهم الباطلة »

قلت ان تقديهم التنفيذ على التحقيق هو ناشئ عن خوفهم من ظهور البراءة وعند ذلك تضيق عليهم فرصة ازهاق نفس مسلحة على حين أنهم يعتقدون أن كل مسلم يفارق هذه الدنيا في طرابلس يفسح مكاناً اطلليانى مستعمر . ففي قتل المسلم بأى وجه كان مصلحة لهم بزعمهم ولهذا يسارعون في تنفيذ حكمه بدون تحقيق
 ثم انه جاء في هذا الكتاب صفحة ٦٤ :

« نزلت محكمة الطيارات العرفية في هذا العام ^(١) على الأهالي المشوريين في عين

الغزاة حكمت فوراً على ستة أشخاص بالقتل وعلى عشرين شخصاً بالسجن - وأقل مدة السجن ٢٠ سنة - وكان بين المحكوم عليهم الشيخ الطلحي الموالى للطلليان المقيم معهم بطبرق . فلما تلى عليهم الحكم همس أحد المحكوم عليهم بالحبس ٢٠ سنة في أذن جاره قائلاً له : انهم ظلموا الطلحي بحكمهم هذا . فأحسن ذلك أحد الجواسيس فأبلغه للحاكم فأقسم بأن يكون صاحب هذا القول أول المقتولين وأعدموه الحياة فعلاً . ثم في ساعة تنفيذ الحكم طلب المحكوم عليهم أن ينفذ الحكم بحمهم خفية عن أهلهم وأطفالهم فلم يعف طلبهم »

ثم جاء في صفحة ٦٥ :

« انتزعت حكومة الفاشيست من أيدي الأهالي ٢٠٠ ألف هكتار من الأراضي بلا مقابل فأعطت مائة ألف للمستعمرين وأوعزت الى اخوانهم المقيمين في الأرجنتين أن يبيعوا أراضيهم فيها ويأتوا الى طرابلس وبرقة حيث يأخذون بدلها مجاناً وقد صرح بذلك البنيور موسوليني في عدة خطب له . وقال المارشال بادوليو والى طرابلس وبرقة في خطاب له : يجب على الذين تمنحهم الحكومة آلاف هكتارات أن يشمروا عن سواعدهم فاننا قد وفقنا الى استملاك الآلاف المؤلفة من الهكتارات ولم يحتاج أحد . . . »

لم يحتاج أحد طبعاً لأن الذي يحتاج جزاؤه الموت . الا أننا نقول : أفليست هجرة هؤلاء البؤساء احتجاجاً عملياً على هذا الظلم الفظيع ؟
وفي صفحة ٥٤ جاء ما يلي :

« في قضاء زواره أرض خصيبة وبساتين كثيرة فيها أنواع الفواكه وهي ملك لنبائل « النوائل » و « خويلد » و « السيفيات » اغتصبها الفاشيست وسلموها الى مستعمرهم وأجبروا أصحابها على تركها والجلء الى البادية »
وجاء في صفحة ٦٦ ما يلي :

« من فظائع الابداء والافناء التي قام بها الجنرال « غراسياني » انه حشر كافة سكان الجبل الاخضر في بقعة ضيقة من الارض على الساحل بين المكانين « طلمينه » و « بنينة » بعد أن زج زعماءهم في السجون وألحق بهم من الاهدانات ما لا يوصف وقتل من المشاهير رجلاً يدعى الشيخ سعيد الرقادي مع خمسة عشر شخصاً شرقتله وذلك بان أمر باركابهم

في الطائرات والقائم من عن علو ٤٠٠ متر على مشهد من أهلهم وكلما هوى منهم شخص صاح الضباط والجنود ساخرين منادين : « فليات نبيكم محمد البدوي الذي أغرامك بالجهاد وينقذكم من أيدينا » ثم عزم على ترحيل سكان برقة الغربية فصادر نفودهم ومواشيهم وساقهم محاطين بفرسان وسيارات مصفحة ولم يسمح لهم بالانحراف عن الطريق ولولا الاستقاء ومن كان يحاول ذلك أو يجنح للاستراحة يعاقب بالقتل فوراً لا فرق بين رجل وامرأة وطفل الى أن حشرهم بهذه الخلال المخرجة في صعيد ضيق على ساحل المكان المعروف بالمقطع . أما سكان برقة الشرقية (متصرفية طبرق) فلم يكن نصيبهم من الضرر باقل من نصيب اخوانهم حين نفوا مع نسائهم وأطفالهم الى إيطاليا . وهالك أسماء القبائل التي رحلت لافتائها عن بكرة ايها : العبيدات والحاسه والمنفه والحونه والشواعر وحبون .

« وقد كانت مخيمة في أرض خصبة واسعة يحدها شرقاً السوم والاراضي المصرية وغرباً وادي الثعبان وشمالاً البحر المتوسط وجنوباً الصحراء . ثم العواقر والمغاربة وعائلة المهشش وأولاد الشيخ والغريبات والسعيط والفواخره والشهباب وزوئه وجراره ومشيكات والزاوية . وهذه كانت مخيمة في الاراضي المحدودة شرقاً بمسوس وغرباً بالمقطع وعين الكبريت وخليج سرت وشمالاً بالبحر المتوسط وجنوباً بالصحراء . فهذه القبائل وغيرها البالغ عددها ٣٠ قبيلة وأنفسها ثمانين الفاً حشرت بأجمعها في بقاع « بينه » و « طليته » و « العقيلة » الضيقة القاحلة ومنعت عن التجول خارج الاسلاك الشائكة التي ضربت حولهم بعد أن سلبت الحكومة الفاشيستي حيواناتهم ومواشيهم

« جمع الجنرال غارسياني جميع مشايخ السنوسية ومتولي أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسدنة وسجنهم كلهم في مركز « بينه » وهو بناء قديم لاسقف له ذاقوا فيه أمر العذاب جرعاً وعطشاً وعذاباً ثم نقلوا الى سجون إيطاليا و بعد أن مكثوا فيها مدة أعيدها الى « بينه » حيث أفنوا بالجوع وغيره وهالك بعض أسماء الهاالكين : عمر السكوري شيخ زاوية المرج . السنوسي بن جلؤل شيخ زاوية البراعصة . السنوسي بن ميلود شيخ زاوية المرزايق . السنوسي الهاثي شيخ زاوية أمركبة . اندريس أبو فارس شيخ زاوية أم حفير . ولا ذنب لهؤلاء المساكين سوى أنهم يعاصون ابناء المسلمين ككتاب الله وسنة رسوله الكريم »

فلنا ان استئصال الدين الاسلامي من طرابلس واجنثا عروقه بمحو رجاله من هناك كان ولا يزال محور سياسة الفاشيست في ذلك القطر . وقد صرح قائد طبرق أمام جماعة من المسلمين انهم لا يمكنهم أن يصبروا نبي آدم ما دام هذا الكتاب الذي هو القرآن بين أيديهم

ثم جاء في كتاب « الفظائع السود الحر » ما يلي :

« أما الاخوان السنوسيون القاطنون في جقبوب فقد رحلواهم بعائلاتهم جميعاً مشياً على الأقدام الى قضاء « جالو » تحت رحمة الجنود الذين كانوا يسوقونهم سوق الانعام بقصد الحاقهم باخوانهم في سجون « بنينه » و « سلوق » وغيرهما . وقد مات أكثرهم جوعاً وتعذيباً . وكان منظر الأطنال الصغار على جانبي الطريق يفتت الأكباد زيادة على مناظر الموتى من الرجال والنساء

« حدثنا ثمة ان الثمانين الف مسلم الذين نزعنا من أيديهم بلاد الجبل الأخضر الحبيب وأرسلوا الى بادية « سرت » القاحلة التي تبعد مائة ١٥ يوماً عن الجبل المذكور في منطقة ضيقة لا ماء فيها ولا كلاً مات أكثرهم من الجوع والعطش والابنة وهلكت أكثر مواشيهم وصارت الحكومة بقية ما كان عندهم من مال واثاث وحلى وتركوهم يفتشون القبراء و يلتحقون السماء بصورة لم يسبق لها نظير حتى في أعظم عصور التاريخ . زد على ذلك انهم جندوا منهم من يتراوح عمره بين الـ ١٥ والـ ٤٠ سنة ليحاربوا بهم اخوانهم في الدين والوطن وأرسلوا أطفالهم الى إيطاليا لتصيرهم

« ضبطت الفاشيست أولاً زوايا السنوسية وعددها يزيد على المائة مع أوقافها واعتصموا أخيراً جميع أراضي القبائل المنتسبة الى الطريقة السنوسية ^(١) وهي قبائل الجبل الأخضر وبرقة العبيدات وفروعها والبراعة والحاسة والدرسة والعرفا والعييد والنفويد والمرابطين والعوافر والمغاربة وغيرهم ونفوس هذه القبائل يزيد على ٢٥٠ ألف نسمة وقد أصبحت أراضيها ملكاً للحكومة الفاشستية بموجب أمر ملك إيطاليا ^(٢) نشرته الصحف الأوروبية برقياً عن

(١) قلت وجميع قبائل برقة منتسبة الى الطريقة السنوسية

(٢) قلت وقد امرت هذا الأمر جرائد إيطاليا ونشرنا في مجلتنا الافرنسية الافة « لاناسيون آراب »

مقالة خاصة في أحد أعداد السنة الماضية عن فظاعة هذا العمل

روما . و اذا كان ملك ايطاليا وقعُ أمراً بانتزاع أراضي القبائل السنوسية واعترف المارشال « بادولبو » لمدوب جريدة « زيوني كولونياني » بأن الحكومة أعطت أكثر من ٢٠٠ ألف هكتار من الأرض لأربعمئة من المستعمرين الفاشيست الذين أتوا من تونس بقصد الاستملاك وأذاعت ايطاليا في بلاغاتها الرسمية أنها قد أسكنت في برقة بضعة عشر ألف فاشيستي مستعمر وأنها ستسكن خلال ٢٠ سنة في برقة . . . الفاشيستي وأعلنت على صفحات الجرائد بلسان أكبر رجالها أنها امتلكت أكثر من ٩٠٠ ألف هكتار وصرح موسوليني أنه سيسكن فيها من مليونين الى ثلاثة ملايين . اذا تم كل ذلك فمضى هذا كله أن حكومة الفاشيست انتزعت مع أراضي برقة والجبل الأخضر أراضي طرابلس ومصراطه ومسلاته وزهونه وزليطن وغريان وأورفة وسوكنة وغيرها حتى يبلغ العدد ستائة ألف هكتار كما جاء في بلاغاتها الرسمية الخ »

وجاء في هذا الكتاب صفحة ٨٢ ما يلي :

« وقد وقفوا للناحية الأولى حيث شردوا ثلث مليون من السكان وفتدوا الناحية الثانية حيث أفنوا ثلث مليون آخر ونيط تنفيذ الناحية الثالثة بالمدارس الطليانية ولم يتركوا في طول البلاد وعرضها مدرسة غير طليانية وهكذا الأخلاق الاسلامية قد ضمنت المدارس الطليانية القضاء عليها بوسائل التعليم الاجباري . وتكفلت دور القحش والدعارة بافساد أخلاق الشبان . وأما الناحية الرابعة وهي تنصير المسلمين ودفعم لاعتناق الكتلسكة فقد صرح أحد سفراء الدول للامير الجليل شكيب أرسلان بأنه تحدث مع أحد رجال حكومة ايطاليا فقال له : اننا نأمل كثيراً تنصير الجنس البربري من أهل طرابلس وبرقة »

نعم قد سمع محرر هذه السطور من سفير أوربي أعرفه من زمن طويل وأعرف أنه من الثقات في جميع أقواله

ان أرى في هذا النقل عن كتاب فظائع ايطاليا في طرابلس ما به مقنع وان كانت عقول بعض الناس لا تزال تستكف من قبول جميع هذه الروايات ونظنها من قبيل الغلو والاغراق في وصف مظالم الفاشيست . وما هي بغلو ولا اغراق بل هي بأجمعها وقائع قد جرت فعلاً

ولما حررت المقالة التي نشرتها عن فجائع طرابلس وبرقة سنة ١٩٣١ على أثر دخول

الطليان الى الكفرة وارتجف لها العالم الاسلامي غضبا وعلا الصراخ من كل جهة جاء في
من الشهيد الأكبر بطل الجبل الأخضر السيد عمر المختار الكتاب الآتي :

« انه من خادم المسلمين عمر المختار الى المجاهد الأمير الخطير أخينا في الله وزميلنا
في سبيل الله الأمير شكيب ارسلان حفظه الله

« بعد السلام الائم والرضوان الشامل الاعم ورحمة الله وبركاته قد فرأنا مادبجه يراعكم
السيال عن فظائع الطليان وما اقترفته الايدي الانيمة من الظلم والعدوان بهذه الديار فاني
وعجموم اخواني المجاهدين تقدم لاسمي مقامكم خالص الشكر وعظيم المنونية . كل ما ذكرتموه
عما اقترفته ايدي الايطاليين هو قليل من كثير وقد اقتصدتم واحتطتم كثيرا ولو يذكر
للعالم كل ما يقع من الايطاليين لا توجد اذن تصني لما يروى من استحالة وقوعه . والحقيقة
والله وملائكته شهود أنه صحيح وأتانا في الدفاع عن ديننا ووطننا صامدون وعلى الله في
نصرنا متوكلون وقد قال الله تعالى : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين وعليكم السلام ورحمة
الله وبركاته ، في ٢٠ ذى الحجة ١٣٤٩ » انتهى

وما لاحظه الشهيد المشار اليه هو عين الحقيقة فان الناس يصعب عليهم أن يصدقوا أن
جيلا على وجه الأرض يقدم على ارتكاب مثل الشناعات والدناءات والندالات التي أقدم
عليها الطليان في طرابلس ولا سيما الفاشيست منهم . وان الناس لا يزالون يتوقفون عن
تصديق هذه الروايات لغرابتها وفرط بعدها عن العقل بحيث كنا كثيراً ما نتمسك عن الخوض
في هذا الموضوع أمام بعض الأور بين خشية أن نتهم بالافتراء أو بالمبالغة والحقيقة ان كل
ما روينا عنهم وما رواه كتاب « الفظائع السود الحمر » هو قليل من كثير مما لا يمكن
استقصاره من اعمالهم في هذه العشرين سنة التي انصب فيها بلاؤهم على ذلك القطر الحزين .
وهذا مما يجبي دليلاً مؤكداً على ان الأور بين عموماً واللاتين خصوصاً اذا ظفروا بالمسلمين
لا يقربون فيهم إلاً ولاذمة ولا يعرفون شفقة ولا رجة

ولما اشتد غضب المسلمين على الطليان مما أنزلوه باخوانهم في طرابلس وتحدثوا في كل
ناد بوجود مقاطعة تجارتهم خشي الطليان عاقبة هذا الأمر وشرعوا يتوددون الى زعماء
المسلمين وينفون لديهم كل ماشاع من أخبار تلك الفظائع . وكانوا من قبل قد امتنعوا عن
الاعتراف باين سعود ملكاً على الحجاز وأخذوا يتر بصون به الدوائر ... وقيل انهم مدوا
أيديهم في الخفاء الى أعدائهم ليكنونوا يداً واحدة عليه فلما أرادوا التزلف الى المسلمين لينسوهم

أفاد عليهم باخوانهم في طرابلس أسرعوا الى عقد المعاهدة التي كانوا رفضوا عقدها مع الملك ابن سعود وكانوا تطلبوا لأجل ذلك شروطا نحن أدري بها لأن المذاكرة وقعت معنا في كل من سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ وبأمكن الاتفاق يومئذ بما اقترحوا من الصيغ التي لم نوافق على تحريرها في المعاهدة . ثم كانوا من أسرع الدول الى الاعتراف باستقلال العراق ومن أكثرهن مصانفة للملك فيصل بن الحسين . ولقد سمعنا أيضاً انهم خفّفوا من وطأتهم في طرابلس وشرعوا يتزلفون الى المسلمين عالم يسبق لهم من قبل وأخذوا من بعض مشايخهم شهادات بأنهم راضون شاكرون ! فأما الثمانون الف عربي الذين أجلاهم عن أوطانهم البديعة وأراضيهم المريعة في الجبل الأخضر فما أعادوا منهم سوى خمسة آلاف رجل يقال انهم انما أعادوهم اليها كعملة فيها لا كالكين . ولا بد أن ينجلي الغبار وتنكشف الأسرار ولو بعد حين . على أن الذي فعله الطليان بمسعى طرابلس لا يجوز للإمامة الاسلامية أن تنساه أبد الدهر اذا كانت تريد أن تبقى في الوجود والله در يزيد بن الطائرية القائل :

لا أتقى حرك الضغائن بالرقى فعل الذليل ولو بقيت وحيدا
لكن أجرد للضغائن مثلها حتى تموت وللحقود حقودا

ولما كنا قد دخلنا في بحث طرابلس وبرقة فقد رأينا أن تسم هذا الفصل بمعلومات احصائية وجغرافية عن تلك البلاد كما جمعناها في أثناء زيارتنا بنفسنا الى الجهاد في برقة سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ وأجمعنا ان نحررها في كتاب مستقل برأسه الا أن العوائق الكثيرة من توالي الاسفار وتحرير الاسفار وغير ذلك من الأشغال والمهمات لم تمنح لنا أن نبرز هذا الكتاب الى الوجود . فرأينا الآن أن نلخص هذه المعلومات هنا في هذه الطبعة من هذا الكتاب كما أننا كنا في الطبعة الأولى منه قد ذكرنا كثيراً منها في عرض البحث عن السادة السنوسية وزواياهم . وهكذا لا نكون أفقدنا هذه المعلومات من قيد التسجيل ثم يعرف المسلمون بواسطة هذا الكتاب ماذا كان يوجد من السكان المسلمين في طرابلس وبرقة وكيف كانت معاهد الطريقة السنوسية وغيرها في ذلك القطر يوم شن الطليان الغارة عليه بحيث اذا تغيرت المعالم وتبدلت الاوضاع نعرف مقدار الحق الذي ضاع وعدد العرب الذين خلت منهم تلك البقاع

فنقول ان أهالي برقة ينقسمون الى قسمين حضر وبادية فالحضرهم أهل بنغازي

ودرنه . والبادية هم أهل الجبل الأخضر وما يجاوره . وهم في الحقيقة نصف بادية ولهم أراضٍ كإراضى الحضرة يحرقونها وجنان وأشجار يحرسونها وإنما هم يعتمدون في الغالب على رعاية المواشى وعندهم المراعى التى ينزر مثلها في البلدان ويصرون الغنم والسمن والاقط الى الاسكندرية وغيرها .

والبلاد التى تسمى « برقة » بتدى من فم الفج من محل يسمى العصيدة على طريق سيدى عمر المشهش ممتدة الى غاية مقطع الكبريت من جهة عمل طرابلس . وثمة برقتان الحراء والبيضاء كاتاهما ضمن قضاء اجداية

ومن العصيدة الى غاية وادى أبى الضحاك الذى تنصب مياهه الى درنة هذا هو الجبل الأخضر

ومن وادى أبى الضحاك الى عين الغزالة شرقاً يقال له الحرمه

ومن عين الغزالة الى وادى بلوك باش الى الشرق مايسمى بالبطنان

ومن وادى بلوك باش الى مركز السلوم يسمى دفنة

ومن السلوم الى الشرق صارت الديار المصرية فالى حجاج العقيبه مايسمى بالعقبه

ومن رأس حجاج العقيبه الى المحل الذى يقال له سيدى عبدالرحمن مايسمى بالعقبه

ومن سيدى عبدالرحمن الى غاية خشم العيش يقال له المقطوعه

ومن خشم العيش الى الاسكندرية يقال له مريوط

وأما من البحر المتوسط الى الداخل فاذا مدت خطاً من البحر عند بنغازى الى

وادى الكفرة جنوباً فانها مسافة ٢٥ يوماً . وان مدت خطاً من « دفنه » الى الجنوب

مستقيماً وقع في واحة جفجوب

وعلى مسافة ثمانية من ساحل البحر الى الجنوب قضاء جالو وأوجه التابع لبنغازى

وأوله نحو من ستة آلاف نسمة يقال لهم المجاورة ثلثان منهم في جالو وثلث في أوجه

وفي الجبل الأخضر مياه جاربه عذبة كياه جبل لبنان فيها نهر درنة وهو من وادى

أبى الضحاك ويقال له أيضاً وادى المنحر . وهو يجري من عينين احدهما عين منصور .

وعلى مقربة منها بقى معسكر انور والمجاهدين مدة سنة فأكثر . وتدور على نهر درنة

الارحية وتكثر في درنة الساتين وكلها سقى . وفيها عدا النهر آبار عذبة . والى الغرب من

درنة نهر « ماره » يدير الرحى أيضاً فيه ٢٥ عيناً وماؤه عند رأس نبعه في غاية البرودة والعدو به تحاله نبع الصفا في لبنان وعليه بساتين ومزارع ومنه الى درنة مسافة خمس ساعات. ويوجد الى الغرب من درنة نهر « كرسه » على ساحل البحر. والى الغرب من كرسه وادى الآرون لقبيلة الشواعر. ثم وادى القليعة. ثم وادى رأس الهلال. ثم وادى سوسه وهي قرية كان فيها مهاجرون من مسلمي كريد. ثم عين شحات أى سيرنا القديمة تبعد عن البحر مسافة ساعتين ونصف ساعة. وشحات جبل مشرف على البحر أشبه بجبال غرب لبنان أو جبال مآن لبنان المناوحة للبحر والماء يتفجر منه من مغارة في أعلاها ينصب من هناك في شفير عال أمامه الفضاء التام الى البحر. وعلا هذا الشفير المقطوع نحو من ٣٠٠ متر. ومنظر شحات باشراف جبلها واقبالها على البحر وعلا شفيرها الذي تجرى خلاله عين شحات وعبون أخرى هو من أجمل مناظر الدنيا. وأرض شحات لقبيلة الحاسنة التي منها نفر في مرج بني عامر بفلسطين. وفيها زاوية كانت أجل زوايا السنوسية مبنية على حافة ذلك الشفير الشاهق بنا فيها ليلة يوم كنا في جهاد طرابلس سنة ١٩١١ وكان شيخها يومئذ سيدي الدردفي من كبار الطريقة السنوسية وكان لهذه الزاوية أحسن أراضي شحات. وشحات هذه أو « سيرنا » الشهيرة في القدم بناها التبريون من يونان سنة ٦٣٠ قبل المسيح وصارت مدينة عظيمة نضاهى قرطاجنة ونبع فيها فلاسفة وحكماء منهم اريستيب Arysstippe الذي نسبت اليه الفلسفة السبرينية وغيره. وقيل بناها اليونانيون سنة ٦٦١ قبل الميلاد وكان رئيس هؤلاء اسمه بانوس وبقيت دولتهم هناك ٢٠٠ سنة وخرج منها عشرون ملكاً أفضلهم بانوس الثاني. وهذا وغربي نهر ماره واد يقال له « الحيز » فيه عبون كثيرة منها عين اسكندر وعين الحى وعين القبة وعليها بناء قديم متين. وقد بتنا عندها ليلة في أثناء اختراقنا للجبل الأخضر من معسكر المجاهدين في درنة الى معسكر المجاهدين في بنغازى. ثم عين أم قديح وعين زاوية بشارة وهي زاوية سنوسية متايخها آل فركاش مررنا بها في تلك السياحة. ثم عين الجريولة وأبو شمال في محل يسمى الفرش. وأرض النرياس فيها عبون جارية منها عين القيقب وهناك قصر قديم فيه بقايا مدافع قديمة رأيت على بعضها تاريخ سنة ١٨٠٤ فيما أتذكر. وللعين ميزاب من داخل القلعة وميزاب وحوض من خارجها وماؤها بارد كما أحسن مياه لبنان. وقد بتنا عند قصر

القيقب هذا ليلة واحدة ونحن صادرون عن سهل بنغازي الى جبل درنة . وكان ذلك في شهر أغسطس أي ابان الحر ومع هذا فقد اضطررنا أن نشعل النار أمام خيامنا طول الليل اتقاء البرد . ثم عين لالي فعين القيدية فعين زوية فعين باطية وكلها غربي درنة على مسيرة يومين للفارس وعليها زرائع وجنان وبساتين . هذا وفي سهل « دفتة » معطن ماؤه ينبع من الأرض ^(١) ومعطن في بلوك باش ومعطن في مرسى طبرق ومعطن في العودة غربي طبرق ومعطن في عقيلة أبي حسنا وكلها في سيف البحر . وعلى ساحل البحر أيضاً عين الغزالة والى الغرب منها معطن اسمه الشقيق ثم سانية التميمي قبلي خليج مبرا والى الغرب منها عقيلة التميمي ثم أم ارزم ^(٢) وهي عين ماء نضاًخة عليها بستان عظيم وزاوية للسوسية بتنا فيها ليلة من ليالي رمضان منصرفنا من برقة في أوائل حرب البلقان . وجاعة هذه الزاوية عائلة مطرودة . ثم الخريبة غربي أم مرزم وغربها زاوية أم عفين بها زاوية للسوسية وعين جارية تبعد عن الأولى نصف ساعة . وكل هذه الأما كن متناوحة للبحر على مسافة ساعة ونصف منه . ثم وادي جنين فيه معطن قبلي ملاحه رأس التين يبعد عن البحر مسافة ساعة ونصف ساعة أيضاً . والى الغرب من وادي جنين معطن السوينية . والى الغرب من السوينية وادي الغرابي فيه معاطن عدة . والى الغرب من الغرابي عين مرطوبة غزيرة جارية عليها أشجار وزرائع وهناك زاوية عظيمة للسوسية بتنا عندها ليلة في طريقنا الى معسكر انور في عين منصور . وغربي مرطوبة وادي بلغراف فيه معطن وهذه الاما كن هي على مسافة ثلاث ساعات من البحر . وغربي بلغراف وادي بالضا والى الغرب منه عيون البقر حسة معاطن وثلاث آبار . وغربي عيون البقر وادي المنحر الذي فيه عين منصور الذي كان فوقها مخيم أنور أيام جهاد طرابلس سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ مسيحية وجميع هذه المياه هي في أراضي قبيلة العبيدات

وأما مدينة درنة على ساحل البحر فهي بلدة شامية في مياهها وفواكهها وزرائعها وفيها التين والزمان والعنب والتخيل والتفاح والكمثرى ورماتها موصوف بمجودته . والعنب أنواع كثيرة منه الزبيبي وبيض الحمام والتركي والبيوضي والسوادي وزرق

(١) المعطن في اللغة مناخ الابل حول الماء

(٢) والارزم الريح ويجوز أن يكون أم مرزم وهي بمعنى الريح أيضاً

الطبر وغيرها

هذه نبذة مما علمناه من المعلومات الجغرافية المتعلقة بالجبل الأخضر وما أخذناه من أقواء الثقات من أهل تلك البلاد . وأما طول هذا الجبل من الشرق الى الغرب فقد سرنا من أول الجبل مما يلي زاوية مرطوبة الى سهل مدينة بنغازى في ١٢ يوماً كل يوم كنا نسير من ست الى سبع ساعات . وقيل لنا ان عرضه من البحر الى الصحراء مسيرة يومين . وهو اسم طابق سماه اذ كيف توجهت وقع نظرك على مروج خضر كلزمرد وغاب اشب متلفاً عظيم السرح فينان الدوح يسير الراكب مساوف طوالاً بالأيام لا بالساعات وهو في ظل الشجر . وقيل لنا انه طالما شبت النيران في الغابات فبقيت تأكل منها أياماً ولم يشعر الناس أنه نقص منها شيء . ويروى عن سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه لما فتح مصر ومنها سار الى بركة وطرابلس وفتحهما لم يعجبه مكان كالجبل الأخضر وقال : لولا أموالى بالجهاز ما اخترت مكاناً للقامة الا الجبل الأخضر . وأكثر الشجر الذى هو في هذا الجبل هو من الأرز والصنوبر والعفص وفيه غابات عظيمة من الزيتون البرى وفيه أشجار بأسقة كثيرة متنوعة تعلو الشجرة منها نحواً من ٢٠ الى ٢٥ متراً . فلا عجب اذا توجهت رغبة الطليان الى استعمار هذا الجبل بنوع خاص وكانوا قد رأوا الوسيلة الوحيدة لانفرادهم بمحارته أن يجلاوا عنه جميع قبائل العرب التى تكفه . ويفضوا تلك الأراضى من أيديهم غصباً ويصير وهم الى قلاوات لا ماء ولا كلاً الا ما نذر ليكون مصيرهم الانقراض ولا يبقى على الطليان خوف من كفة العرب عليهم لاسترجاع أراضيمهم

وأما قبائل العرب التى هناك فكلمهم جاءوا من جزيرة العرب فى أيام الفاطميين كما سياتى . ولقد تبدلت أسماء الكثير من بطونهم وأغادهم بكرة و الأيام ونحن نذكر الآن أسماءهم وتقاسيمهم على حالتهم الحاضرة ثم نعقب ذلك بأسمائهم وتقاسيمهم فى الأعصر الماضية للقبالة بين الغابر والحاضر فنقول :

هؤلاء العرب ينقسمون الى قسمين الأول يقال له « السعدى » والثانى يقال له المرابطون . والفرق بينهما أن السعدى أشبه بالعلالات الممتازة أو الحاكمة وأن المرابطين أشبه بالاهالى الذين تحت الحكم . وتسمية القبائل الممتازة بالسعدى هى أن عقار قد ولد هذه القبائل من سعدى وهى امرأة هلالية فيكون بنو هلال الخوال السعدى

هكذا يروون . فالسعدى منهم القبائل التي يقال لها ولد على وكل هؤلاء في داخل الديار المصرية منتشرون من مربوط الى السلم . وهم ثلاث فرق أولاد على الأبيض وأولاد على الاحمر وأولاد على خروف . وهؤلاء أولاد على خروف من فروع أولاد على الأبيض . وأشهر بطون أولاد على الأبيض الصانقرة والمغاورة والموامنة والمعجامة والافراد . وأما أولاد على الاحمر فهم القبسات والحشيبات والكميلات وأبو سنية وهؤلاء ينقسمون الى أفاذ العراوة والقطيعة والمحافظ

وأولاد على مرابطون أي تبع كما للقبائل السعدى التي في برقة ومرابطو أولاد على هم العوامة والزعيرات والموالك وحبون والحوتة وسماؤوس والمنفة وكلهم في أرض مصر وأولاد على مع مرابطيهم يبلغون نحواً من مائة ألف نسمة وهم نحو من عشرين زاوية يديرها السادة السنوسية كل فرقة منهم تختص بزاوية

ثم من السعدى القبائل المسماة « بالخرابي » وهم ضمن حدود برقة وهؤلاء ينسبون الى حرب بن عفار من ولد سليم بن منصور من العرب العدنانية وهم عدة قبائل العبيدات والبراعصة والحاسة والدرسة وفائد

فالعبيدات ينقسمون الى بطون منها عائلة غيث ومنها عائلة مريم الذين في جوار طبرق كان منهم شيخ مشهور يقال له المبري استشهد في واقعة مع الطليان قبل وصولنا الى هناك بقليل . ومنهم البنين ومنهم العواكلة أي شاهين وعوكل وهذا البطنان يقال لها عائلة عبيد . ومنهم مسعودة وهم عدة عائلات عائلة منصور وعائلة قابس وعائلة أبي ضاوي وعائلة مباركة وعائلة أبي جازية وعائلة عبدالكريم وعائلة رفاد وعائلة المليط . ومن العبيدات أيضاً عائلة مزين (بضم ففتح) والعلافة والعدال والشرائع وعبيد

وعدد رجال غيث نحو من أربعة آلاف مسكنهم من القيقب في وسط الجبل الاخضر الى حد دفنه شرقاً . وعائلة مريم عددهم ١٥٠٠ رجل مسكنهم من طبرق الى دفنه . والعواكلة عددهم أربعة آلاف مسكنهم من القيقب الى دفنه . والشاهين ثلاثة آلاف منزلهم من الحيلة الى السلم . وعائلة منصور من درنة الى أم مرزم شرقاً وهم ثمانية آلاف والقرب منهم قابس وهم خمسة . وأبو ضاوي زهاء ألفين منزلهم غربي درنة بجوار زاوية بشارة . ومباركة عددهم ألف في ناحية القبة غربي أبي ضاوي . وأبو جازية شرقي درنة في ناحية خليج بما

عند زاوية مرطوبة وهم ١٥٠٠ ويليهم عبد الكريم وهم ألف وخمسة أيضاً . ويليهم
رفاد وهم كذلك ١٥٠٠ رجل . ويليهم الميظ وهم ٥٠٠ وكلهم في ناحية بجا

وأما عائلة مزين ففي سبخة رأس التين من بجا وعندهم زهاء ألفين . وأما العلائقة
فخمسة منهم فريق بالفرش غربى درنة وفريق من البطنان غربى طبرق . والعدال ألف
رجل وهم يتولون بقرب العلائقة

ومن العبيدات عدد غير قليل في الديار المصرية . فالشرائع منهم ثلاثة آلاف ويقال
أكثر في الفيوم . ومن عبيد وعائلة مريم نحو من ١٥٠٠ في الفيوم أيضاً . ويقال إن من
العبيدات نخذاً اسمهم الرزنا نحو من ١٥٠٠ في الفيوم أيضاً . ومن العواكلة في الفيوم
وفي كفر الزيات ١٥٠٠ رجل . ومن الشاهين فريق في الفيوم يقال لهم الثلقات . ومن
أبي جازية نحو ٥٠٠ في الديار المصرية . ومن رفاد زهاء ٦٠٠ في دمنهور ومن مزين ٥٠٠
في البحيرة ومن عائلة مريم ٥٠٠ في طنطا ومن العلائقة في العقبة والفيوم والبحيرة ألف
وخمسة رجل ومن العدال ألف رجل في الفيوم وفي مربوط

وبالجملة يبلغ عدد قبيلة العبيدات في الجبل الأخضر والديار المصرية من ٤٠ الى ٤٥
ألف مقاتل هذا بحسب الروايات التي تلقيتها من المرحوم صالح سركيوه من وجوه درنة ومن
غيره من العارفين بأحوال ذلك القطر لأنى حيث حلت كنت أسأل وأبحث
وقد روى الى أيضاً أن العبيدات ينقسمون الى ضنى بنينه وضنى واعرفن ضنى بنينه
العواكلة والشاهين . وإن العواكلة منهم عائلة بركات وعائلة خليل وعائلة سجيح وعائلة أبى
فيسخة وعائلة عبد الكريم وعائلة سعدى . ويقال إن أصل العواكلة من حرب من الحجاز .
وقيل لى إن العواكلة والحوته والجرارة والنراكى كلهم من سليم بن منصور
وأما الشاهين فعائلة المجاوم وعائلة غاضرات وعائلة حبيب

و بطون عائلة غيث عائلة الخادم وعائلة الفضيلة وعائلة حسين الفرخ وعائلة ابراهيم
الفرخ وعائلة الصغبر وعائلة أبى نظارة وعائلة جبر وعائلة عويضة وعائلة عبد الله وعائلة محمود
وعائلة ابن صيت وزاوية تبت - وكان شيخها يوم كنا هناك سيدى محمد الغزالى -
وقيل لى أنهم يناهزون عشرة آلاف رجل

وعائلة غيث هم من ضنى واعرف . وكذلك من ضنى واعرف مسعودة أبى عائلة منصور

ورفاقها ومن ضنى واعر عائلة حريم وعائلة مزين وعبيد . ويقال ان العلاقة والعدال لمساوا في الأصل من العبيدات وانما انضموا اليهم والتحقوا به .

والعبيدات مرابطون كما تقدم . وهم كثير والعند مثل العبيدات وربما أكثر منهم قبيلة القطعان وأولهم الرحامنه منهم ستة آلاف رجل بين دفنة والعقبة . ويليهم عائلة بريدان وهم ثلاثة آلاف رجل منهم الثلاثان في العقبة ودفنة والثالث في أبي حص مصر . ومن القطعان عائلة أبي سعيد وهم زهاء الفين في دفنة والبطنان ومنهم نحو الف في مريوط والبحيرة . ومن القطعان الرخامي منهم ٥٠٠ بناحية بما ونحو من الف نازلون بين العقبة ومريوط . ومن القطعان المعابدة منازلهم من العقبة الى مريوط وهم نحو من ثلاثة آلاف . ومن القطعان عائلة الفزار نحو من الفين في العقبة أيضاً . وما يرويه الناس هناك أن القطعان هم من ذرية كعب الأحمار

ومن مرابطى العبيدات المنفة وهم خمسة آلاف رجل منهم العلوم ومنهم مسيكة ومنازلهم من البطنان الى مصر . ومنهم عائلة الخائب زهاء خمسمائة في برقة ومنهم عائلة الحاج رجب المنفة في برقة وهم نحو من الف

ويقال ان اصل المنفة هؤلاء هم من بنى هلال الا عائلة المقورى فانهم أشرف هاشميون ومن مرابطى العبيدات الموالك منازلهم من دفنة الى مريوط ويقال انهم نحو من خمسة آلاف ومن مرابطى العبيدات عائلة عبدالواحد الجرارة مسكنهم بدفنة والعقبة وهم ١٥٠٠ رجل وعائلة عبدالسميع عددهم الف رجل بين دفنة والبطنان . ومنهم عائلة أبي حليمة زهاء ٩٠٠ في البطنان ودفنة . والسنينات زهاء الف هناك أيضاً ومنهم أناس في بر مصر .

ومن مرابطى العبيدات قبائل الحوتة منهم عائلة الديداني الف رجل بالجبل الأخضر ثم الجبيبات وعددهم أيضاً نحو الألف ومسكنهم بالقيقب في الجبل الأخضر . ثم الصوانع وعددهم ٥٠٠ رجل ثم الدقش وعددهم ٣٠٠ وهم أيضاً من سكان الجبل الأخضر . ثم الحوتة النفوفة أكثرهم في بر مصر ومنهم فرقة بالبطنان زهاء ٥٠٠ أما الذين في بر مصر فنزلهم من العقبة الى مريوط وهم يناهزون ستة آلاف رجل . ثم المرازقة وهم في البطنان نزل نحو من ٥٠٠ ولكن في أرض مصر يبلغون خمسة الى ستة آلاف . ثم الشرسات وهم زهاء الفين من العقبة الى البحيرة

ومن مرابطى العبيدات الشواعر منهم الغوالب عددهم ألف رجل وهؤلاء في دفنة
ومنهم ألف أخرى في داخل حدود مصر . ومنهم شواعر قطيشة وهم أيضاً في دفنة وعددهم
يبلغ الالف ومنهم ألف أخرى بين العقبة ومريوط . ومن الشواعر الوداس وهم زهاء ٢٠٠
في دفنة ومنهم ٥٠٠ من العقبة الى مريوط . ثم عائلة زائد الشواعر ٥٠٠ في وادى درنه و ٥٠٠
من العقبة الى مريوط . وقبيلة عمر الشواعر نحو من ألف في الجبل الأخضر ومنهم نزر في
مصر . ثم اللامنة بالجبل الأخضر وهم نحو من ألف والعسيرات وهم ٥٠٠ ومسكنهم في الجبل
الأخضر والطوارسة ومنهم ألف في دفنة والبطنان والالف أو أكثر من العقبة الى مريوط .
وكل هؤلاء هم الشواعر وهم جميعاً زهاء عشرة آلاف مقاتل .

ومن مرابطى العبيدات الزعيرات ومنهم ٢٠٠ في بمبا و ٨٠٠ في برمصر وعائلة القرى
مسكنهم بمبا وهم فيها ٥٠٠ ومنهم بمصر نحو من ألف

ومن مرابطى العبيدات الشلاوية ومنهم نحو ٢٥٠٠ داخل الجبل الأخضر و ٥٠٠ في
أرض بمبا ومنهم ألف في مديرية البحيرة بمصر . والترأكي وهم في الجبل الأخضر وعددهم
ألف رجل . وهناك قبيلة اسمها القبائل منهم بالجبل الأخضر الفان وحسانة ومنهم بأرض
مصر ٥٠٠ رجل . وجميع مرابطى العبيدات في الجبل الأخضر ومصر يناهزون سبعين
ألف مقاتل حسبما روى في الثقات وعليه يكون العبيدات مع مرابطيهم نحواً من مائة وعشرة
آلاف وأكثر أى يزيدون على أولاد على

وقيل لي في تقسيم العبيدات رواية أخرى تختلف عن الأولى وهي انهم من ثلاث
سلائل ضنى سعدى وضنى أبي امامة وضنى غيث . وقالوا : ان سعدى من بني هلال وزوجها
هو عبيد فالعبيدات أخواتهم بنو هلال . قالوا : وضنى سعدى منصور وقابس ومباركة وأبو
ضاوى وعبد الكريم وأبو جازية ورفاد . قالوا وضنى أبي امامة عائلة مريم ومزين وحبيده
ويوسف والعبیدی والنور وفاطمة وأبو جود وصالح . قالوا : وضنى غيث هم عائلة عبد الله
وهو أكبر ولد غيث ثم عائلة محمود ثم عائلة الرجا ثم عائلة أبي فضيلة ثم عائلة ماضى ثم عائلة
الخادم ثم عائلة جبر عويضة ثم عائلة جبر مطير يد ثم عائلة ابراهيم الفرخ ثم عائلة حسين الفرخ
ثم عائلة بصيص الفرخ ثم أبو نضارة

قالوا : والبنين هم العواكة والشاهين . فالعواكة هم عائلة بركت بلجا وعائلة سميع

وعائلة عبدالكريم ودادى والابيع ودادى وخليل ودادى والهييب ودادى وعائلة مريكب وعائلة
متعور الطافية والخالشة

والشاهين عائلة ذويب وعائلة المجوم وعائلة غاصرات وعائلة حبيب وعائلة جبيره وعائلة
الأعور وعائلة أبى قفة وعائلة أبى قوبة

هذا وقد سألتنا صديقنا على افندى العواكله قائم مقام قصبه المرج أيام جهاد طرابلس
عن نسبه فى العواكله فقال : على بن حامد بن سعيد بن صالح بن سميع بن فكير بن بن سعيد
ابن ادريس بن أبى عوكل بن عبيد بن حرب بن عقار من بنى سليم

وقيل لى فى مرابطى العبيدات انهم القطعان وهم الرحمانه وأبوسعيده والفزار والرخي
وزاغوت وأبو ترخى والمعابده وبريدان والتراكي وقبيلة اسمها القبائل والمامشه وعائلة عمر
الشواعر وعائلة زائد الشواعر وعائلة سليمان المرخى الشلاوية وعائلة على الشلاوية وعائلة
الخواجه وعائلة اسرافيل وعائلة بركات وقبيلة الصوانع وعائلة النعيمه والجهدى وقبيلة الحوته
منهم الجرارة والنفوفه والمرازقه والطيره والمقاعى والشرسات والعميره وعائلة بلبل والسينات
والديدانى وكل هؤلاء منى حويت . وأولاد منيف أو المنقا وهم مسيكة وعلوم فالسيه
الكحشات وعائلة سباقى والدبابسه وعائلة المصمود وعائلة أبى خديجه وعائلة المقورى
والجعيشات . وأما العلوم فعائلة رجب وعائلة الجزائر وعائلة الخائب وعائلة علوش والعرايات
والزقيوات وعائلة الغضارف وغيرها

هذا ما ذكره عن قبيلة العبيدات أكبر قبائل الجبل الأخضر ومرابطيها ونعود الى
القبائل الأخرى من الحرابى وتكلم عن الحاسه فنقول :

الحاسه ينقسمون الى قسامه وقلابطة . فالقسامه هم الشباركة والبخايت هم الذين
منهم عقيلة الحاسى الزعيم المشهور الذى كان فى مرج ابن عامر بفلسطين ولا تزال ذريته
فيها وهم الحمادة والمواسى . فالشباركة هم عائلة عبدالله وعائلة مغاثه ثم ان عائلة عبدالله هى
عبارة عن عائلات غزاة وعقيلة وأبى قفة وناتف والأعور وشريعه والميار وجبر وشدة وأبى
محجوبة وزلط وغوزى والمجدم وأبى الكسيرات .

وأما عائلة مغاثه فهى عبارة عن عائلات موسى الفيشى ومنى وسعيد والرقاعة وأبى

جطيلة وعالده

وأما البخايت فهم عائلة غرير والتوازة . فعائلة غرير هم عائلات عمر وأبي حناء
وأبي عيسى والنكاع والعيورة . وأما التوازة فعائلات الجماعة وعبد الصادق وبرعاص
والطويل وعبد الحاكم وأبي قتلة

وأما القلابطة فهم المحامدة وهؤلاء هم عائلة ابراهيم وعائلة المساطل فعائلة ابراهيم هم
عائلات المربط وهيبة وكش والفريد . وأما المساطل فهم أبو كفيفة والدويلى والسليخ
وعائلة بالربى وعائلة وانى

ثم ان القسم الثانى من القلابطة هم المواسى وهؤلاء فريقان عائلة تقو وعائلة الحرار
فعائلة تقو هم الرضادى وسعد وعائلة الحرار هم أبولوية وحويج وأبو سداة .

وأما الحاسه فكلمهم زهاء تسعة آلاف رجل منهم ثلاثة آلاف شباركة والفان بخايت
وأربعة آلاف قلابطة نصفهم محامدة والنصف الآخر مواسى . ومنازل الحاسه أجل منازل
الجبل الأخضر شحات وسوسة والدرباس غربى درة

وللحاسه مرابطون منهم مسامير الرزقة منهم فى الجبل الأخضر ومنهم فى بما شرقى
درنة وعدددهم الف وخمسة رجل . ومن مرابطهم اسماعيل المسامير بجوار شحات زهاء
خمسة رجل . ومنهم اسماعيل التراكى مائة رجل بجوار القيقب . ومنهم أبو ربيعة ٣٠٠
رجل بجوار القايدية

ومن أهم قبائل الحرابى قبيلة البراعمة

وهم قسمان احمد وجليد . جليد تزوج خضرا ومغبر بية . فولدت خضرا عائلة خضرا
الذين بالقيوم . ومغبر بية ولدت طامية الذين منهم حوث وجلفاف وزاند والجوينى وعبد
الرحن وعائلة عبد ودائحه وحليمة واليتامى والمساعد وعائلة عريف وعائلة خزاعل . ومن
بطون البراعمة أولاد أحمد وهم الطلوح والظوافر وقندول ونائل وبلدان ومنهم عائلة حسين
البراعمة . وعدد الجميع يتجاوز العشرين الف مقاتل وقيل لى ان البراعمة فيهم أناس من
بنى هجاز اشرف حسينية أصلهم من السوارقية بقرب المدينة المنورة وقيل لى ان أصل
البراعمة هو هكذا :

شريف اسمه حميد بالتشديد من ذرية سيدى عبدالسلام بن مشيش من أولاد نائل
من أهل النافية الحرا من المغرب الأقصى جاء قاصداً الحجاز للحج فخر على الجبل الأخضر

وكانت امرأتها مملأً فلم يتمكنها اكمال الطريق الى الحجاز فتركها في بيت أحد الحرابي من أهل الجبل الأخضر وذهب الى الحج وتوفي فيه وولدت امرأته بعده ولداً اسمه برعاص لأنه كان متحرراً جداً^(١) وهو طفل . فبرعاص ولد مسعوداً وحسيناً وعبد المولى ومخلب بن ذرية مسعود حلبيمة وطامية وجلفاف وحدوث ومنهم عائلة عريف واليتامي وعائلة خزاعل وذرية حسين وذرية عبد المولى وقد انقرضت ذرية مخلب . وأما ذرية أحد الحرابي فهم الطلوح والظراف وفندول

ولما كنت في معسكر أنور بعين منصور أردت السفر الى معسكر بنغازي وكانت لي معرفة بسیدی محمد العَلَمی شيخ زاوية البراعصة ومن أشهر السادة السنوسية وكبار رجال هذه الطريقة فنكلمت معه في أن يجد لي من عند جماعته ظهراً لنقل خيامي وأسبابي فاستأجر لي رجلاً من البراعصة اسمه علي بن محمد من عائلة حسين وحمل هذا أمتاننا على جاله وفي أثناء الطريق مال بنا على نجمه وسأته عن نسبهم في النجع الذي استرحنا فيه فقال لي : انه علي بن محمد بن علي بن يوسف بن أبي خسيم بن عبد بن القادر بن علي بن محمد بن حسين بن برعاص . فخررنا ان برعاص قد عاش في أواسط القرن الحادي عشر للهجرة . وللبراعصة صرابطون السعيط والعوامنة والحساننة والعلالوة وهم عدة آلاف

وأما الدرسة فيقال انهم أولاد ادريس ولد عقار بن حرب . ولقد خلف عائلة عادل وعائلة حامد والخشبات وعائلة مسعود وعائلة عبد وعائلة حسين أبي عوينه وعائلة السريريك وعائلة دغار وعائلة الشاهاني وعائلة دايمح وعائلة الحجازات . ويجمع الدرسة نحو عشرة آلاف مقاتل وقيل ١٥ الفاً ومتاز لهم عند زاوية القصرين والعرقوب ومنهم فريق الى جهة بنغازي ولهم تسع زوايا من الزوايا السنوسية كل نخذ منهم له زاوية وأما قائد من الحرابي فاته رجل لاغير وكانوا قبيلة كبيرة لكن على أثر عداوة بينهم وبين العواقر جلا أكثرهم الى مصر وهناك قبيلة البراغيث وهم برغوث الكبير والعبيد والسرابطنة ويقال لهم البراغيث

الحمر والبذور والعبادلة وهم يتجاوزون عشرة آلاف
وبين مساكن البراعصة من جهة الغرب وبين قصبه المرج قبيلة يقال لها المسامر
مستقلة بذاتها يقال أصلها من الاشراف

(١) تبرعوا اضطرب وتحرك تحكك وقيل التبرع هو اضطراب الضو المقطوع

عنه تقاسيم قبائل الحرابي ومرابطيهم بقدر ما وصل اليه علمنا . وهناك فريق آخر من عرب برقة يقال له الجبارنة أي أولاد جبرين وهم العواقير والمغاربة والعرفا والعبيد والعريبات ووطنهم بلاد بنغازي

فالعواقير ثلاث فرق : السديدي و ابراهيم ومطاوع . فالسديدي أربعة عشر بطنا : عائلة سليمان وعائلة العبار وعائلة هويدي والقوارس والهارنة والحداة وعائلة ماضي وعائلة رايح والتواجير وعائلة غريبيل وعائلة دينال وعائلة الاديرع والقطارة وسعيط وعائلة ابراهيم هم عائلة اللواتي وعائلة القمق وعائلة النمر وعائلة هذيلة وعائلة الحلاق وعائلة قنفوذ وعائلة عازة وعائلة مشري والبراشنة والبذور وعائلة الغزالي وسعيط الشمول وأما مطاوع فهم عائلة صالح والعشيبات والسكواديك وعائلة الوزري والخفيفات وعائلة صالح ودرمام وعائلة زيد وعائلة على والفصيات والعبادلة وعائلة درقة وعائلة فرانس وعائلة القططانية وعائلة الخشمي وعائلة السويري والعامرة ومبيديل والشويطرة وعائلة معيوف وأما المغاربة فهم الرعيضات وعائلة على وعائلة عليوه وعائلة صبح والعقارب وعائلة الاسود وعائلة الباسل والقبايل والمنشيطات والعريبات

وأما العرفا فهم السلطنة والطرش . وأما العبيد فهم عائلة شعوه واليتامي وعائلة الدخاني وعائلة أبي شلوفة وعائلة حاد

والعواقير من أكبر القبائل يناهز عددها ثلاثين ألفا مقاتل فأكثر وأكثرها عدداً السديدي ثم عائلة ابراهيم ثم مطاوع ومنزلهم من مدينة بنغازي الى مسوس جنوبا وهي مسافة ٢٤ ساعة ومن الشرق الى الغرب مسافة ٣٠ ساعة . وأما المغاربة فيقال انهم ٢٥ ألف مقاتل ومنزلهم من اجدايية الى عمالة سرت ومنهم كثير في نفس سرت ويسير الانسان في أراضيهم خمسة أيام من الشرق الى الغرب وأما العرفا فعددهم ألف وخمسة ومحلهم المرج . وأما العبيد فهم ثلاثة آلاف ينزلون قبلي المرج

وللعواقير قبائل تابعة او مرابطون فالسديدي مرابطوهم الشهبيات وعائلة ابراهيم مرابطوهم الفواخر . ويقال ان الشهبيات هم من ذرية الصحابي سيدنا عكاشة . ويقال ان الفواخر هم من عرب اليمامة . ومن مرابطي عائلة ابراهيم الجرارة ومن مرابطي عائلة صالح من مطاوع بعض من المنفة . ومجموع مرابطي العواقير ٢٠ الف مقاتل

ومن عرب برقة الجلالات وهي قبيلة مستقلة بذاتها نحو من ٤٠٠ رجل
ولتذكر الآن قبائل عرب برقة حسبما كانت في القديم لنعلم مراجع أنسابها ونقابل
القديم بالحاضر فنقول :

جاء في كتاب « نهاية الارب في معرفة قبائل العرب للقلقشندي » مايلي :

« بنو أحد بطن من بنى هيب من سليم من العدنانية مساكنهم مع قومهم هيب في
أطراف برقة بمابلي الغرب . قال ابن سعيد : ولهم اجداوية وجهاتها وهم يعرفهم حجاج المغرب »
قلت : لا يبعد أن يكون بنو أحد هؤلاء هم أصل القبيلة التي نسى اليوم المغاربة
والتي لها اجدايوية وجهاتها . ثم ان من البراعة فرقة يقال لها بنو أحد هم أصل قبيلة البراعة
كما تقدم الكلام عليه . ويوجد في ترهونة من عمل طرابلس قوم يقال لهم بنو أحد
لا ندرى هل هم منهم أم لا ؟

قال : « وأولاد سلام بطن من لييد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن في برقة الحراء عائلة سلام

قال : « أولاد محمد بطن من صبيح من فزارة من العدنانية ومنازلهم بلاد برقة وهم
فرق كثيرة » قلت : يوجد اليوم قوم اسمهم الصبيحات في الغوارشة في الطرف الغربي من
مدينة بنى غازي ويخرج منهم هناك ستائة مقاتل

قال : « البركات بطن من لييد من سليم من العدنانية ومساكنهم مع قومهم لييد
بلاد برقة »

قلت : يوجد الآن البركات في أطراف كينس غربي بنغازي على مسافة عشر ساعات
منها . ثم ان في ترهونة وفي مصرطة أقواماً اسمهم البركات وأهم بادية مصرطة منهم وكذلك
منهم أناس في سرت

قال : « البشره بطن من لييد أيضاً ومنازلهم مع قومهم برقة أيضاً »

قلت : لا نعلم هل الناحية المسماة « بشارة » في الجبل الأخضر في أرض العبيدات
منسوبة اليهم أم لا ؟ فيجوز أن تكون « بشارة » ممدودة من « بشرة »

قال : « الهلايش بطن من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة »

ثم قال : « الجواشنة بطن من لييد من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة وهم غير

الجواشنة الذين مساكنهم الحوف من الشرقية بالديار المصرية لأن الجواشنة هؤلاء (أى الذين بمصر) هم بطن من الجيديين من هلبا سويد من جذام من العرب الفحطانية»
قلت : يوجد الآن فرقة من قبيلة المغاربة المارة الذكر يقال لها عائلة أوى خادة منهم قوم اسمهم الجواشنة

قال : « الحدادة (بتشديد الدال الثانية) بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة »
قلت : يوجد الآن الحدادة من العواقر ويوجد حدادة في نفس بنغازى ويوجد حدادة في مصرطة

قال : « الحسانة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم برقة »
قلت : يوجد الآن حسانة في جهات اجدابية

قال : « الفحوص بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم بلاد برقة »
قلت : موجودة الآن عشيرة اسمها « الفحاصى » غربي بنغازى لعلمهم هؤلاء
قال : « الدروع بطن من لبيد من سليم من العدنانية مساكنهم بلاد برقة مع قومهم »

قلت : موجود الآن عائلة الاديرع من فرقة السديدى من العواقر . وما لا يجوز أن نفساه أن أسماء العائلات والتبائل تغير وقد تتحرف عن أصلها . ثم ما لا يجوز أن نفساه ان القبيلة كثيراً ما يدخل فيها أقوام ليسوا منها في الأصل ثم يندمجون فيها تماماً
قال : « الرقيعات بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد بلاد برقة »

قلت : في الحاسة اليوم عائلة الرقاعة

ثم قال : « الزراير بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « السبوت بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « السوالم بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن عشيرة اسمها السوالم في عائلة مطاوع من العواقر منهم بأرض بنغازى ومنهم بمصرطة

- قال : « الشبله بطن من لبيد من سليم من العدنانية بلادهم برقة »
 قلت : يوجد الآن جماعة اسمهم « الشبله في قبيلة المغاربة باجدابية »
 قال : « الشواعية بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »
 قلت : في قبيلة المغاربة عائلة اسمها الشعيبات
 قال : « الشعوب بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم برقة »
 قلت : في الدرسة الآن عائلة شعيب وفي المغاربة الشعيبات فلا نعلم هل الشعوب هم هؤلاء أم أولئك أم هو تشابه أسماء ؟
 قال : « الشنفة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »
 قلت : لا نعلم هل هي بنون فعين أم بنون فعين أم محرفة وأصلها « شععة » لأنه سيأتي ان من فزارة بطننا اسمهم الشععة
 ثم قال : « الصريرات بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »
 ثم قال : « العقيبات بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »
 قلت : في غربي بنغازي اليوم قوم يقال لهم العقيب.
 قال : « العوامي بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »
 قلت : من العوامي اليوم في نفس بنغازي وفي ترونة
 قال : « العواكلة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد برقة »
 قلت : قد تقدم ان العواكلة فرقة من العبيدات يسكنون القيقب وسط الجبل الأخضر ومنهم الجبالية بكفر الزيات بمصر
 قال : « العلاوة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد برقة »
 قلت : بلغني أنه يوجد علاوة في ناحية غريان بطرابلس ثم انه تقدم كون العلاوة من سرايطي البراغصة في الجبل الأخضر
 قال : « العيلاوي بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح برقة »

قلت : وفي العواقر عائلة « عليوه » فربما كان العلوي هم هذه العائلة
ثم قال : « الغشامة بطن من صبيح من فزارة منازلهم مع قومهم صبيح برقة »
قلت : ويقول القلقشندی نفسه في صبح الاعشى : « ان فزارة هو ابن ذبيان قال
في العبر : وكانت فزارة بنجد و وادي القرى ولم يبق منهم بنجد أحد ونزل جيرانهم من طيبي
مكائهم وذكر بأن بأرض برقة الى طرابلس الغرب منهم قبائل راحة هيب وفزارة قال :
وبافريقية والمغرب منهم الآن أحياء كثيرة اختلطوا مع أهله (الى أن يقول) : ومنهم مع
سليم بافريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الليل من كعوب بنى سليم يستظهرون بهم
في مواقف الحرب ويقومونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . (ثم يقول) : وفي برقة ببلاد
هيب جماعة منهم نازلون بها ومنهم طائفة بصحراء المغرب »

قلت : لم أجد اسم « هيب » الآن الا اسم فرقة من العواكفة يقال لها « الهيب » يغلب
على الظن انه بقية الاسم القديم الذي كان أعم وأشهر . والأسماء كالمسيات تنشق وتنعقد
ثم قال : « القيوس بطن من صبيح من فزارة من العدنانية ما كنهم مع قومهم
بلاد برقة »

قلت : وفي أولاد علي مرء بنا اسم فرقة يقال لها القيسات إلا أن تكون مصحفة
ثم قال : « اللواحق بطن من صبيح من فزارة من العدنانية ما كنهم مع قومهم
بلاد برقة »

ثم قال : « المسورة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية ما كنهم مع قومهم
بلاد برقة »

قلت : من المسورة الآن في نفس درنة وفي مصراطه
ثم قال : « المسامير بطن من صبيح من فزارة من العدنانية ما كنهم مع قومهم
بلاد برقة »

قلت : تقدم ذكر قبيلة مستقلة بنفسها اسمها المسامير تنزل الجبل الأخضر ويظن
أن أصلها من الأشراف . فان كانت هي البطن الذي ذكره بحسب هذه الرواية لبست من
الأشراف الفاطميين الا أن يكون دخل فيها بيت منهم كما يجرى كثيراً بين القبائل . ثم من
مرايطي الحاسة قوم اسمهم المسامير . فأى المسامير هم الذين أشار القلقشندی الى انهم بطن
من صبيح ؟ الجواب عنه متعذر

ثم قال : « المواعدة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم بلاد برقة »

ثم قال : « المقادمة بطن من سليم مساكنهم الحيزة من الديار المصرية ومنهم برقة والامرة فيهم الآن لأولاد التركية من بني فائد »

قلت : يوجد اليوم في العواقر عائلة اسمها « المقادمة » وأما « التراكي » فهي قبيلة من قبائل الجبل الأخضر تُعد من مرابطي العبيدات . وللحاسة مرابطون يقال لهم بنو اسماعيل التراكي

ثم قال : « والمواسى بطن من صبيح المقدم ذكرهم مساكنهم برقة »

قلت : اليوم من الحاسة فرقة كبيرة اسمها المواسى . وفي المغرب الأقصى قبيلة اسمها المواسى

ثم قال : « الموالى بطن من لييد من سليم من العدنانية مع قومهم لييد برقة »

ثم قال : « النبله بطن من لييد من سليم من العدنانية مع قومهم لييد برقة »

ثم قال : « النحاحسة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مع قومهم برقة »

قلت : النحاحسة وقد يلفظونها النعاعسة قبيلة معروفة اليوم في تاجورة بطرابلس

قال : « التوافلة بطن من لييد من سليم من العدنانية مساكنهم برقة »

قلت : في جهات اجنادية وسرت قوم اسمهم التوافلة

ثم قال : « بنو بعجة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة . قال ابن سعيد : منازلهم

بين مصر وأفريقية »

قلت : سمعت أنه يوجد اليوم بنفس بنغازى عائلة بهذا الاسم

ثم قال : « بنو ذياب من سليم من العدنانية . قال في مسالك الأبصار : منازلهم من

فاس الى طرابلس من بلاد المغرب . وذكر في العبر أن منازلهم ما بين فاس وبرقة »

قلت : سمعت أن منهم الآن في زوارة بطرابلس وجنوبي يفرن

ثم قال : « بنو زغب بطن من سليم من العدنانية ذكر ابن سعيد ان ديارهم كانت بين

الحرمين ثم انتقلوا الى الغرب فسكنوا بأفريقية بجوار اخوتهم بنو ذياب بن مالك ثم صاروا

في جوار بني هيب »

قلت : يوجد الآن قوم اسمهم الزغيبات في مدينة بنغازي
ثم قال : « بنو زنارة بطن من لواتة من البربر . قال في مسالك الأبصار : مساكنهم
فيما بين الاسكندرية والعقبة الكبيرة وبرقة »

قلت : ويقول القلقشندي نفسه في صبح الاعشى عند ذكر نسب البربر : ومن لواتة
هؤلاء زنارة (بضم الزاي وتشديد النون والفتحة ثم راء مهملة مفتوحة وهاء الآخر) وهم ولد
زنارة من ولد بر بن قيذار بن اسماعيل عليه السلام . وقال انه اخو هوارة وأكثر زنارة
ببلاد المغرب ومنهم جماعة بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدّ الجداني من بطونهم بالبحيرة
بنو مزديش وهم مزداشة وبنو صالح وبنو سام وورديفة وجرهان ولقالا . وزاد بعضهم
بنو حيون وواكدد وفرطيطة وجرجومه وطازوله ونفات وناطوره وبنو السعوية وبنو أبي
سعيد . وهم عرب بدر بن سلام . ومن لواتة أيضاً مزاتة (بضم الميم وفتح الزاي والتاء المثناة
فوق وهاء في الآخر) وهم بنو مزاتة بن لواتة الأصغر ومنزلهم من البحيرة الى العقبة
الكبيرة برقة »

قلت : وقبيلة حيون في دفنة وبنو سعيدة هم في تلك الجهات . ومن العواقر فرقة
يقال لها عائلة اللواتي

ثم قال : « وبنو سناك بطن من العرب عدهم الجداني في عرب البحيرة وبرقة والعقبة
الكبيرة ولم ينسبهم في قبيلة »

ثم قال : « بنو شياخ بطن من هيب من سليم من العدنانية قال ابن سعيد : منازلهم
بالمحصب من بلاد برقة مثل المرج وطلميشة »

قلت : في قبيلة المغاربة اليوم عائلة الشامخ لا نعلم هل الشياخ والشامخ واحد أم هو
تشابه اسماء ؟

ثم قال : « وبنو عوف بطن من بهتة قال الجداني : ومنهم بالصعيد والفيوم والبحيرة
أناس كثيرة وفي برقة الى الغرب مالا يحصى »

ثم قال : « بنو فزارة بطن من ذيبان من العدنانية ومن بطونهم الآن أولاد محمد
والجماعات والدمالي والشعوب والشعفة والعقبان والعواسي والعلالوي والغاشمة والقيوس
والساورة والمسامر والمقامة والمواحدة والمواسي والنحاحسة . قال في العبر : وكانت فزارة

في نجد و وادي القرى ولم يبق بنجد منهم أحد ونزل جيرانهم من طيبي مكانهم وذكر ابن أروض
برقة الى طرابلس منهم قبائل «

قلت : يوجد الآن في برقة أولاد محمد ويوجد « الجماعات » في سرت ويوجد في الحاسنة
عائلة الجماعة بالتشديد ويوجد « الجمعات » في اورفلة من عمل طرابلس وكذلك في أولاد
سليمان من العواقر . وأما العواسي فقد تقدم أن منهم اليوم في بنغازي وفي ترهونة . وقد
تقدم أن في درنة اليوم قوماً اسمهم المساورة . وكذلك يوجد اليوم في الجبل الأخضر قبيلتان
باسم المسامير . وأما القيوس ففي أولاد علي الذين بين الاسكندرية والعقبة فرقة اسمها
القيسات . وأما المقادمة فيوجد الآن في العواقر بطن اسمهم المقادمة . وأما اللواسي ففرقة
من الحاسنة كما تقدم . وأما النحاحسة فيوجد اليوم في تاجورة من طرابلس من يحمل هذا
الاسم كما سبق القول عليه

ثم قال : « بنو قطاب بطن من لبيد من العدنانية مساكنهم مع قومهم برقة »
قلت : يوجد اليوم بنو خطاب في الفواخر في برقة ولانعلم هل هو الاسم نفسه محرفاً
أم اسم آخر ؟

ثم قال : « بنو لبيد بطن من سليم من العدنانية مساكنهم برقة وهم خلق كثير
لا يكادون يحصون منهم أولاد سالم والحواشبة وقطاب و بطون أخرى متسعة »
ثم قال : « بنو محارب من سليم من العدنانية ذكرهم في العبر ولم يرفع نسبهم وقال :
ديارهم برقة في الشرق عن بني أحد المجاورين لبلاد المغرب الى العقبة الكبيرة والصغيرة »
قلت : يشبه أن يكون قاصداً بيني محارب القبائل التي يقال لها اليوم الحراي .

ثم قال : « بنو قرة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية وذكرهم الجداني
في عرب الديار المصرية وقال : بلادهم اخيم من صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد في عرب
برقة وقال : منازلهم فيما بين مصر و افريقية . قال في العبر : وكانت منازلهم برقة وكانت
رتاستهم أيام الحاكم العبيدي لماضى بن مقرب . ولما بايعوا الأبي ركوة من بني أمية بالأندلس
وقتل الحاكم سلب عليهم الحبوش والعرب فأفناهم وانتقل من بقى منهم الى الغرب الأقصى
فهم مع بني جشم هناك »

وذكر القلقشندي بنى هلال في صبح الأعشى فقال : « هم بنو هلال بن عامر بن

صعصعة قال الحداني : وكان لهم بلاد صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد في عرب بركة وقال : منازلهم فيما بين مصر وأفريقية . ثم ذكر ماورد في العبر عما جرى عليهم في أيام الحاكم العبيدي وقال ان بحلب طائفة منهم وانه صار لهم بلاد اسوان وما تحتها ولم يخص منهم بني قرة الا عند قوله : وياخيم منهم بنو قرة الى عيذاب وبساقية «قلته» منهم بنو عمرو ويطونهم وهم بنو رقاعة وبنو بجير وبنو عزيز وياصفون واسنه منهم بنو عقبة وبنو جيله »

وذكر القلقشندي نسب سليم الذي منه أكثر قبائل بركة فقال : «هو سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان قال الحداني : وسليم أكبر قبائل قيس . قال في العبر : وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر . ثم قال : ويافريقية منهم حى عظيم قال الحداني : مساكنهم بركة عمالي الغرب وعمالي مصر وفيهم الأبطال الأتجاد والخيال الجياد . قال في العبر : وقد استولوا على إقليم طويل منسح الأطراف » . قات : وقد ذكر في صح الأعتشى انه كان لسليم من الولد بهته (بضم الباء الموحدة في أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ومنه جميع أولاده . وقد اتفقت الروايات على انه كان بنو سليم بن منصور بن عكرمة وبنو عقيل ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وبنو تغاب بن وائل بن جديلة كلهم في البحرين وكانوا أعظم القبائل هناك وكان أظهرهم بالكثرة والغاب بنو تغاب . ثم اجتمع بنو عقيل وبنو تغلب على بنى سليم فأخرجوهم من البحرين وآل أمرهم الى أن نزلوا بصعيد مصر ثم تقدموا الى بركة واستولوا عليها واتجمعوا جباها الأخصر ولم يتركوا بها ولاية ولا امرة الا لمشايجهم . قال القلقشندي : «قال والدي رحمه الله : وقد عدت الى بعض عرب بركة من بطونهم أولاد سلام وأولاد سليمان الركاب والبشرة والبلايش والجواشنة والحدادة والحوثة والدرع والرقيعات والزازير والبيوت والسوالم والشبلة والشواعبة والصريرات والعواكاة والعلامة والقنوة والنوافلة انتهى »

قلت : تقدم أن من العوافير عائلة سليمان والحدادة والرقيعات وتقدم أن الحوثة قبيلة من العرب المرابطين وتقدم ان العواكاة هم من فرق العبيدات . وتقدم ان بنى سلام منهم ماجدانية وأما سائر الأسماء فمنا ما تغير بمرور الأيام وربما بقي ولكن لم يتصل اليها لأنه لا تقدر أن تقول ان الذين قد أعطونا هذه المعلومات قد أحاطوا بكل سكان بركة وطرابلس علما

قال المقرئ في « البيان والاعراب » عن نزل بأرض مصر من الاعراب : « فاما بنو هلال فانهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ويقال قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وقال المقرئ : و بأرض مصر عوف بن سليم بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان وهم نخذ . و بنو عوف بن بهر بن امرئ القيس بن بهته نخذ . و بنو عوف بن فالح بن ذكوان بن ثعلبة بن بهته نخذ . وعوف هؤلاء في بلاد الصعيد وفي الفيوم وفي البحيرة وفي برقة الى بلاد المغرب منهم أم لا تحصر كثيرة »

وقال المقرئ : « ومن سليم بنو عوف بن بهته ما بين قابس و بلد العناب بالمغرب و بنو هيب بن بهته اخوة عوف بن هيب ما بين السدرة من برقة الى حدود اسكندرية و بنو أحد لم عدد و يرجعون الى شماخ ولها العز في هيب . ومن هيب سبال و محارب و رئاستهما في عزاز . ولهم في سليم عزة لاستيلائها على اقليم طويل خربت مدنه وصارت ولايته لأشياخهم و تحت أيديهم خلق كبير من البربر وفيهم طائفة الأبطال الانجاد والامارة فيهم في أولاد عزاز بن مقدم »

قلت يغلب على الظن أن يكون « المقادمة » الذين هم من العواقير يرجعون الى اسم مقدم هذا وأن يكون « العازة » يرجعون الى عزاز : ثم ظهر من كلام المقرئ هذا انه كان في برقة بربر كثيرون وأن بعض القبائل العربية الآن مثل حبون مثلا أصلها بربر ثم قال المقرئ :

« وفيما بين الاسكندرية والعقبة الكبرى جماعة فائدة وزنارة ومزانه وخفاجه وهواره وسمال ولبيد جماعة سلام وفزارة ومحارب والعلانة وقطاب والزعافية والبشرة والجواشنة والبعاجنة والقبايص وأولاد سليمان والقصاص ومنازلهم من العقبة الكبرى الى سوسة . ثم جماعة جعفر بن عمر وهم الثانية والياشنة وعمره وعظيمه والعكمه والمزابل والمعزة ومن المعزة الجعافرة جماعة ابن عمر ومنهم البداري أيضاً ومنهم السهاونة والجلده . وأولاد أحد . ومنازلهم من سوسة الى يبر السدرة وهي آخر حدود ديار مصر مسافتها من الاسكندرية نحو شهر بسير القوافل »

قلنا : جماعة فائدة منهم نزر اليوم بالجيل الأخضر وجماعة في الينار المصرية . ولقد

مرّ بنا أن زنارة هم بربر وهم أصل قبائل عدة مستعربة الآن مثل حبون . وأما خفاجة في اجدانية . وأما الهوارة فقبيلة شهيرة أصلها بربر . وأما فزارة فقد تقدم ذكرهم بطن من ذيبان واما محارب في هذا الزمان لا نعلم قبلا في برقة وطرابلس اسمهم محارب الا ان كان المراد بهم الحرابي . والعلاوة قد مرّ أنهم موجودون الآن كما ان الجعافرة مشهورون في بلاد أورفة من طرابلس ومشهور انهم من بني سليم بن منصور . وأما القصاص في أورفة وهون عائلة أبي قصيمة . أفترأهم هؤلاء ؟ الجواب لا بعد ذلك . وأما البداري فربما كانوا هم البسور الذين من العواقر . وأما أولاد أحد والجلده فقد تقدم ان قبيلة البراعصة أصلها أحد وجليد فيظهر ان المقصود بهذين الاسمين البراعصة لأن النسبة الى برعاص ابن الشريف المغربي غلبت عليهم . واما بنو سلام فمنهم في بنغازي

ثم قال : « وفي برقة احياء لبني جعفر وكان شيخهم أبو ذؤيب وأخوه حامد بن كحيل وهم ينسبون في العرب تارة في بني كعب بن سليم وتارة في فزارة والصحيح انهم ينسبون الى مصراطه أحد بطون هوارة . وفيها بين برقة والعقبة أولاد سالم . وما بين العقبة الكبيرة والاسكندرية أولاد مقدم وهم بطنان أولاد التركية وأولاد قائد مقدم وسلام معاً وهم ينسبون الى لييد بن علي بن هبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر . وقال في آخر الكتاب : قال العلامة الشيخ حسن العطار . ما ذكر في هذه الرسالة من القبائل اختلط حالهم الآن فالبعض لا وجود له والبعض صار معدوداً من جهة فلاحي مصر الا قبائل باقية على عدم اختلاطها بغيرها » انتهى

قلت : هذا ما أمكننا أن نردّه من أسماء القبائل الحالية الى الأصول المعروفة في الكتب ولا شك انه قد فأننا منها كثير الا اننا نظن ان الذي ذكرناه من هذا الباب هو أوفى

ما ورد في كتاب مطبوع

ولندكر الآن توابع برقة الى الجنوب داخل الصحراء فنقول :

ان أهم ملحقات برقة جغبوب وفيها زاوية سنوسية كانت هي مركز السادة وفيها مدرسة وفيها مدفن سيدي محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة رضي الله عنه . وقد علمنا أن الطليان بعد احتلالهم جغبوب أغلقوا المدرسة فحلت جغبوب من الشيوخ والمرابدين والطلاب وأقترنت تلك الواحة . وقد استولى الطليان على جميع الزوايا السنوسية التي في

برقة وطرابلس مع أوقافها ثم جالو وأوجلة وقد تقدم ذكرهما

ثم واحة الكفرة الشهيرة وفيها زاوية التاج السنوسية مركز السادة وفيها أودية
وجنان ومزارع كثيرة وسكانها أكثرهم من قبيلة « زوية » ويبلغ عددهم أربعة آلاف
مقاتل ومن أودية الكفرة « الهواري » و « الهوبيري » و « الجوف » و « والزرق »
و « الطلاب » و « الطليليب » و « ناهيده » و « بزيمه » و « ربيانه » وفيها كلها النخل
والتين والعنب والزمان وقصب السكر ومن مزرعاتها الحنطة والشعير وعندهم عيون جارية
وأبكر وسوان

ثم « نزيو » على مسافة خمسة أيام من الكفرة وأهلها زوية أيضاً

ثم « ون » وهي بلاد منها « بلتو » و « اهدة » و « درية » و « الزواية » وفيها
أربعة آلاف من السكان

ثم « قرو » وهي واحة فيها ألف نسمة

ثم « عين كلك » محركة وهي واحة شهيرة فيها زاوية سنوسية كان الفرنسي قد
جاءها بقوة من بلاد كاتم وقاومهم السنوسيون وجرت بين الفريقين معارك قرأت تفاصيلها
في كتاب لأحد ضباط الفرنسي عن شهداء المعارك وبعد ذلك تغلبت فرنسا على عين كلك.
وفي عين كلك وجوارها نحو من سبعة آلاف نسمة من السكان

واحة « قوري » وهي على ثلاثة أيام من قرو وفيها ألف وخمسة مائة نسمة وواحة
« أرضى » على مسافة يوم من قوري ويقال ان فيها أربعة آلاف ثم هناك « الوجنقات »
فالوجنقة الأولى على مسافة ١٢ يوماً من الكفرة الى الجنوب . والوجنقة الثانية على
مسافة يوم من الأولى وفيهما ألفاً نسمة

ثم « فرم » على مسافة نصف يوم من « أرضى » الى الغرب وفيها ٥٠٠ نسمة ثم
« بودو » على مسافة يوم من « أرضى » الى الجنوب ويقال ان أهلها سبعة آلاف
و « العميان » على مقربة من عين كلك وأهلها ألفان

والى الشرق من كلك « عمية » وفيها ١٥٠٠ نسمة

و « البور » وأهلها من قبيلة ذوية نحو من ألبي نسمة وهي عن كلك على مسافة
أربعة أيام الى الجنوب وعلى مسافة ١٦ يوماً من مملكة واداي و ١٤ يوماً من دارفور

السودان المصري وستة أيام من الوجنقات وستة أيام من قرو
ثم « وادي الاكلور » تابع كلك وهو من الوجنقات الى الجنوب وأهله عرب بادية
زهراء ثلاثة آلاف

و « ويته » بين الدور والوجنقات أهلها من جبل يقال لهم القرعان سودان فيهم
جبال وهم هناك من ثلاثة الى أربعة آلاف

و « باكيه » من « ويته » الى الجنوب على مسافة يوم واحد وكلها مراعي وأهلها
قرعان نحو من ألفين

و « وادي ندو » على مسافة يوم من « باكيه » الى الشمال وهي مراعي أيضاً وأهلها
قرعان زهراء ألفين وهم يأكلون الخنظل يصلحونه حتى يقدروا على أكله

و « رشي » على مسافة يوم ونصف من باكيه الى القبلة كلها مراعي وفيها ثلاثة آلاف
قرعان وعندهم نبت اسمه الكريب له حب

و « بسكري » الى الشرق من « رشي » على مسيرة يومين وهي مراعي أيضاً وفيها
نبت الكريب أيضاً وأهلها ثلاثة آلاف قرعان

وكل أهل هذه الواحات اخوان سنوسية تابعون لزاوية كلك

ثم « أم جرس » على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من كلك أهلها سودان يقال لهم
البدييات وهم خمسة آلاف

والى الشرق من أم جرس على مسيرة ثلاثة أيام « باو » وكلها مراعي وفيها المواشي
بكثرة وأهلها بدييات عددهم ستة آلاف

و « جبل مردى » بين أم جرس وياو ووادي الاكلور فيه ١٢ ألف مقاتل كلهم
قرعان يقال لهم المرادوي وعندهم مواش بكثرة

وأما « التيبو » فهم جليل من السودان الى الغرب وهم أعداد كثيرة وكانوا من
الجهل في أقصى ما يتخيل العقل فهدمهم السنوسية وعلموهم الصلاة والدين وحفظوهم القرآن

وأما اعراب كانم فبعد ان احتل الفرنسيين كانم انكفأوا الى كلك والدور . وجبال
الدور وعرة جداً وفيها مراعي ومياه غزيرة وعندهم نخيل وأشجار واللحم عندهم كثير

ولهم من الخيل والابل وسائر المواشي ما يذكر . وأهل الدور من زوية وهم أشد أهالي تلك

الجهات بأسأ . وكان شيخ الدور يوم أخذت هذه المعلومات منذ عشرين سنة صالح أبو كرم الزويبي وأما شيخ الجميع في تلك الاقطار فقد كان شيخ زاوية عين كلك وكان وكيل الحضرة السنوسية وكان عنده خمسمائة مقاتل بمعاشات مرتبة ضمن الزاوية وكان للدولة العثمانية عسكر في كلك

ووجدت في كئناشاتي في مكان آخر ان « ون » تبعد عن مملكة واداي مسافة ٢٠ يوماً وفيها زاوية سنوسية وزهاء التي مقاتل ١٥٥ شيخاً سنوسياً . ومزروعاتها القمح والشعير والقطن وعندهم عيون جارية وآبار . وكان الفرنسيس جاءوها ثم رجعوا عنها . ومن ون الى كلك مسيرة يومين . وفي كلك رباط نحو ٢٠٠ مقاتل من رجال السنوسى .

ومن كلك الى قرو مسافة سبعة ايام وفيها ١٥ وادياً جميع سكانها عرب . وفي قرو زاوية سنوسية يتبعها ٥٠٠ مقاتل . ومن قرو الى الكفرة الى الشرق مسيرة ٢٠ يوماً . وفي الطريق مياه استنبطها السيد السنوسى من عمق ٣٠ قامه

ومن كلك الى واداي ٢٠ يوماً . ومن كلك الى ون شمالاً يوم . ومن كلك الى قرو شمالاً خمسة ايام . ومن قرو الى الوجنقات ثلاثة ايام . ومن الوجنقات الى الكفرة ٢٠ يوماً . ومن الكفرة الى جالو ١٥ يوماً . ومن جالو الى بنغازى ثمانية ايام

ولما اتفق الفرنسيس والانكليز على تقسيم افريقية منذ سنة ١٩٠٢ وقعت واحدة الكفرة ضمن الحدود الانكليزية وجعلوا من الكفرة الى جهة واداي التابعة لفرنسة مسافة ٤٤٠ كيلو متراً وجعلوا جميع الصحارى التي الى الغرب من جالو واولجه ضمن المنطقة الانكليزية وعدوا جالو واولجه آخر حدود المملكة العثمانية الى الغرب . ومثل ذلك انهم جعلوا الحدود العثمانية من مرزوق قصبه فزان الى الجنوب ٣٥٠ كيلو متراً فقط على حين كانت أحكام المملكة العثمانية جارية على مسافة ٨٠٠ كيلو متر الى الجنوب من الكفرة وكان العلم العثماني يخفق في كلك وون وقرو فضلاً عن الكفرة وتزرو ومقيد في كئناشاتي الاحياء الآتى :

كيلومتر	من	كيلومتر	الى
١٠٠	من جنس الى طرابلس	٢٥٠	من اسكندرية الى الحجاج
١١٠	من طرابلس الى زواره	٣٠٠	من الحجاج الى السلم
٦٠	من زواره الى تخوم تونس	٥٠	من السلم الى دفنه بئر الشيخ رسلان
٥٠٠	من حدود تونس الى غدامس في الداخل	٩٠	من دفنه الى طبرق
٨٣٠	من طرابلس الى مرزوق	٦٢	من طبرق الى عين الغزال
٨٧٦	من درنة الى الكفرة خطأ مستقيماً	١٠٦	من عين الغزال الى درنه
٧٧	من الكفرة الى قرو	٢٥٠	من درنه الى بني غازي
٤١٠	من درنه الى اوجله	٩٢٠	من بني غازي الى طرابلس

هذا ولنختم كلامنا على برقة بما قاله المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم لعمرة

الأقاليم » :

« برقة قصة جليلة عامرة نفيسة كثيرة الفواكه والخيرات والأعسال مع يسار وهي ثغر قد أحاط به جبال عامرة ذات مزارع على نصف مرحلة من البحر في هوية قد أحاط بها تربة حراء^(١) شربهم من آبار وما يحوونه من أمطار في جباب وهي على جادة مصر يحسنون الى الزنبراء . أهل خبر وصلاح وأقل انقلاباً من غيرهم »
وذكر اجدادية فقال :

« عامرة بنيانهم حجارة على البحر وشربهم من الأمطار و « سرت » كذلك وطا بواير وشعاري . وأما المسافات فتأخذ من برقة الى الندامة مرحلة ثم الى تا كنت مرحلة . ثم الى المغار مرحلة . ثم الى حليان مرحلة . ثم مخيل مرحلة . ثم الى جب المنار مرحلة . ثم الى جناد الصغير مرحلة . ثم الى حي عبيد الله مرحلة . ثم الى مرج الشيخ مرحلة . ثم الى العقبة مرحلة ثم الى خرائب أبي حليلة مرحلة . ثم الى خربة القوم مرحلة . ثم الى قصر الشماس مرحلة . ثم الى سكة الحمام مرحلة . ثم الى جب العوسج مرحلة . ثم الى حنية الروم مرحلة . ثم الى ذات الحمام مرحلة . ثم الى بومنية مرحلة . ثم الى الاسكندرية مرحلة »

(١) أنه يقصد برقة هنا مدينة بنغازي لأن هذا الوصف ينطبق عليها والهوية هذه قد عرفناها الى

ولنذكر الآن شيئاً عن طرابلس أخت بركة والتي ينسب ذلك القطر إليها فنقول
طرابلس مدينة عامرة كانت مركز الولاية أيام الدولة العثمانية وهي الآن لعهد انطليان
مركز الولاية وكان يتبعها ثلاث اح جفارة وتاجورة وززور . ثم قضاء النواحي الأربع
وهي ناحية هاني وناحية المشية وناحية الساحل وناحية الرفيعات . ثم قضاء نجاد . ثم قضاء
غريان . ثم قضاء أورقانة . ثم قضاء رهونه . ثم قضاء الزاوية . ثم قضاء زوارة . ثم قضاء
العزيزية . ثم قضاء العجيلات . ثم لواء ابدو ويتبعه ناحية جس وناحية الساحل وناحية
تاورغه . ثم قضاء مصراطة . ثم قضاء زليطن . ثم قضاء مسلاتة . ثم قضاء سرت . ثم لواء
الجبل الغربي ويتبعه ناحية يقرين وناحية ككله وناحية الحوض وناحية مراده وناحية
زتان . ثم قضاء فساطو . ثم قضاء غدامس . ثم قضاء تلوت . ثم لواء قران يتبعه رأساً
ناحية مرزوق ثم الوادي الشرقي ثم الوادي الغربي ثم الحفرة الشرقية ثم سبن وسمنو ثم زارة
ثم قطرون ثم قضاء سوكنه . ثم قضاء الشاطي . ثم لواء غات مربوط به رأساً ناحية جانت
وناحية البركة وقضاء تيبورشاده الجلة أربعة الكوية و ٢٠ ناحية

وقد كان في الدولة العثمانية لواء بنغازي يتبع طرابلس أحياناً وينفصل أحياناً وكان
يتبعه أربع نواح ناحية البراعصة وناحية سلوك وناحية فيمنس وناحية برسيس ثم قضاء
درنة يتبعه ناحية السوم وناحية طبرق وناحية بمبا وناحية القبة وناحية الحاسة . ثم قضاء
المرج يتبعه ناحية الدرسة . ثم قضاء جالو وأوجله يتبعه ناحية بريقه . ثم قضاء أجدابية الى
الغرب من بنغازي . ثم قضاء الحفرة مع نواحيها السالفة المذكور

ومما وجدته في كشافاتي عن طرابلس ما يلي :

أول بلد من طرابلس الى الغرب من بركة سرت وهي مركز قضاء وهي سرت
البيضاء وسرت الحمراء . وبعد سرت عين تاورغا ووادي بن وايد ومصراطة وهي مركز قضاء
وزليطن قضاء أيضاً والخمس متصرفية . ومصراطة تمتد مسافة يوم الى الجنوب وآخرها من
الغرب زاوية محبوب عند مقام سيدي أبي رويه . وبأراضي مصراطة الزيتون والتخيل
والفلاح والزمان وجميع أهلها تقريباً خيالة لكثرة الخيل في بلادهم ويخرج منهم ألوف
مؤلفة من الفرسان وهم بغاية الشدة . وينقسمون الى فروغلية ورجعية . فالقروغلية تحريف
« قول أوغلي » وهم أولاد العساكر والمأمورين الأتراك والأرناؤوط والحركس والبشناق

وغيرهم من كانوا يخدمون في الجيش العثماني والحكومة في طرابلس . والرعية هم الأهالي الأصليون . ومن القروغلية في أكثر المدن كبنغازي ودرنة ومصراطة ومنهم يدتر ومنهم الزواني والشواهدة والهجرا كسة . وأما الرعية ففي مصراطة يقال لهم زمورة ومنهم أهل قصر حد وقزير وزاوية المحجوب وغيران والشتاونة وأولاد الشيخ والهرينات . وفي مصراطة عشيرة اسمها خدام الزروق وهم الرعيزات وسورجبار وبلائه والشويخات والحسرون والفرجان ومعدان وبركات . وكل قبيلة من هؤلاء لها قرية هي مستقلة بها وبعض خدام الزروق يسكنون في المضارب . وزعماء القروغلية عائلة الأدغم في نفس مصراطة وبنو المنتصر زعماء الآخرين ومزروعات مصراطة الخنطة والشعير والدخن وأرضها سهول وربال والحيل عندهم لا تحصى وماؤهم من الآبار والسواني ولكنه كثير

وأما سرت فأهلها أولاد سليمان وهم بدو وعشيرة يقال لها القبائل والقنادفة والفرجان وبركات ومعدان والحسون وزاوية . وكل هؤلاء منهم بدو ومنهم حضر وفي آخر سرت إلى الغرب بلد تاورغا أهلها حضر وهم سمر الألوان مثل السودان . وفي تاورغا أنهر جلرية وعين اسمها عين سمهود مأوها وفي تاورغا النخيل والقمح والشعير وكان أهل سرت يوم جعنا هذه المعلومات ازيد من ٢٠ ألف مقاتل أما الآن فلا نعلم الحقيقة وإنما نعلم أن أهل طرابلس وربة منذ مجيء الطليان إلى الآن قد تناقصوا إلى النصف مما كانوا وذلك بالقتل والرحيل وتوالي المحن

وإلى الغرب من مصراطة قضاء « أورفلة » وأهلها بغاية الشدة يقولون « أورفلي ما يواني » وهم جماعة سيدي عبد السلام ابن سليم الأسمر من أكبر أولياء الله . وأهل أورفلة منهم حضر ومنهم بدو وفي الصيف يأوون إلى بيوت الحجر وفي الشتاء يسكنون المضارب . وإلى الغرب من أورفلة بلاد زياطن ويقال لأهلها الفواوير وهم أشرف وسيدي عبد السلام الأسمر منهم وهؤلاء الفواوير يبلغون عدة آلاف ويوجد في زياطن قبائل أخرى كأولاد غيث والعائم والبراهمة وغيرهم . وفي زياطن قروغلية كما في مصراطة . وإلى الغرب من زياطن الساحل وفيه نهر جدر يقال له عين كماوه وأهل الساحل اسمهم الخوامد وعندهم زيتون ونخل وهم يزعمون الخنطة والشعير والندرة والقصب ومن الساحل إلى الغرب محل يقال له المرقب ثم مركز يقال له الخلس كان مركزا للتصرفية لعهد الدولة العثمانية وكانت

سرت ومسراطه وزليطن وترهونة تابعة لتصرفية الخمس . وأما ترهونة فتمتد من المحل المسمى بالساحل الى تاجورة بقرب مدينة طرابلس وسكان ترهونة قبيلة يقال لها ترهونة أيضا وكانت كثيرة العدد جداً لأيام الدولة العثمانية وكان زعيم ترهونة على بك المُرَيْض . وفي أيام الحرب الكبرى عندما انتفض أهالي طرابلس على الطليان وطردهم وحصرهم في مدينة طرابلس ومدينة بنغازي ومدينة درنة لا يقرون أن يخرجوا إلى الخارج استقلت ترهونة بحكومة خاصة بها كما استقلت مسراطه واستقلت أورفله وغيرها . وبقيت الحال كذلك الى أن حضر نوري أخوانور من جهات بنغازي على أثر اتفاق السيد إدريس السنوسي في ذلك الوقت مع الطليان وعقدتهم معاهدة معه يعترفون له فيها بالامارة فجاء نوري منهزماً الى مسراطه ومعه الاستاذ عبد الرحمن عزام المصري فسلم له رمضان السواحلي الذي كان مسنداً بأمر مسراطه أمور تلك البلدة وبعد ذلك بحسن تدبير نوري ومستشاره عبد الرحمن عزام اتحدت جميع تلك الحكومات حكومة واحدة وصار برطرابلس كله تحت إمارة نوري الذي كان يمثل السلطان وكان أخوه أنور يرسل اليه بالامدانات من الاستانة بواسطة الغواصات الألمانية وانحصر حكم الطليان في مدينة طرابلس وأما بنغازي فكانت الامارة فيها للسيد إدريس السنوسي ما عدا مدينتي بنغازي ودرنة . وبقيت الحال كذلك حتى جاء حكم الفاشست في إيطاليا فنقضوا المعاهدة التي كانت إيطاليا عقدتها مع السنوسي المشار اليه وفر السيد إدريس الى مصر حيث هو الآن وسلك الفاشست يسلمى طرابلس وبرقة المسالك النظيف الشنيع الذي سلكوه ونقلنا طرفاً من أخباره في هذا الفصل

هذا والى الجنوب من ترهونه قضاء مسلاته وكان لعهد الدولة العثمانية تابعا لتصرفية جبل غريان وفي مسلاته قبائل كثيرة وأكثر محصولها العنب والزيتون ومن مسلاته الى قرآن عشرون مرحلة . وأما جبل غريان ففيه نحو من مائة قرية وفيه بيوت منحوتة في الصخر وهناك جبل يغرن وجبل نالوت وجبل فساطو وجبل شفانه والجبل الغربي وقصبة زوارا على البحر وأهل الجبل الغربي وزوارا أباضيه وكذلك أهل فساطو ونالوت وأكثر محصول جبل غريان التين . والى الغرب من بلاد طرابلس الزاوية الغربية ثم غدامس على حدود بلاد تونس وما وجدته أيضاً في كذاشاتي أن طريقة سيدي عبد السلام الأسمر ولي الله الأكبر رضى الله عنه هي الطريقة العروسية وأتباعها كثيرون

هذا ما اخترنا ذكره عن طرابلس وبرقة ولأجل تمام الفائدة يجب أن نذكر خلاصة عن كيفية احتلال إيطاليا لطرابلس فليعلم القارئ أن مبدأ هذه النازلة كان احتلال الفرنسيين لفاشودة في منطقة السودان المصري جاءها من جهة السودان الغربي فاعترضت عليهم إنجلترا وحصل خلاف شديد بين الدولتين وأثرت إنجلترا الفرنسيين بالحرب إن لم يرجعوا عن فاشودة فرجعوا عنها ولكنهم طلبوا تحديد الحدود بين المنطقة الإنجليزية والمنطقة الفرنسية في السودان فبعد أن حددوا الحدود بدأ هاتين الدولتين أن تنقسم أفريقيا فيما بينهما سراً وكان ذلك سنة ١٩٠٢ فزلت فرنسا لإنجلترا عن مصر والسودان المصري وأوغندة وغيرها ونزلت إنجلترا لفرنسا عن مرا كس وشمالي أفريقية والبلاد التي كانت فرنسا احتلتها في السودان الغربي وقد كان هذا التقسيم من أظلم ما سجله التاريخ لأن الدولتين تقاسمتا به بلدان الناس بدون علمهم وتجاوزنا على حقوق دول كثيرة مستقلة اعتداء محضاً وتسلطاً صرفاً وقد كان هذا التقسيم لأفريقية بين فرنسا وإنجلترا أكبر عامل في الحرب الكبرى لأنه على أثره قامت ألمانيا تعترض على سعي فرنسا بالاستيلاء على المغرب وكذلك اعترضت دول أخرى كإيطاليا وإسبانيا فاتمهي الأمر بعقد مؤتمر دولي في الجزيرة الخضراء أمام جبل طارق وهناك قررت الدول استقلال سلطنة المغرب برغم ما كان بين إنجلترا وفرنسا من الاتفاق السري ولكن هاتين الدولتين وقعنا على معاهدة الجزيرة من جهة وبقينا تاملان لتنفيذ الاتفاق السري الذي بينهما وبناء على هذا الاتفاق تعرضت فرنسا للمغرب وسأقت جيوشها وتجاوزت على هذه السلطنة من جهة الشرق واحتلت «وجدة» ثم أرسلت جيشاً نزل بالدار البيضاء وكان ذلك مبدأ لبسطها للحماية على مرا كس كما لا يخفى . وقد كان أهالي المغرب رأوا في سلطانهم عبد العزيز ابن مولاي الحسن ضعفاً عن مقاومة الفرنسيين فبايعوا أخاه عبد الحفيظ على أمل أن يقوم هو بالدفاع عن البلاد ولم يبايعوه الا على شرط تنظيف البلاد من الأجانب ولكن الفرنسيين أعملوا القوة العسكرية من جهة والسياسة والمصانعة من جهة أخرى واتمهي الأمر باقناع عبد الحفيظ بقبول الحماية الفرنسية ولعب في ذلك الوقت قدور بن عبد ربه المشهور دوراً مهماً في اقناع السلطان عبد الحفيظ بقبول الحماية بعد ان كان هذا السلطان امتنع عن قبولها أشد الامتناع وأراد الاستعفاء من السلطنة . وخلاصة القول أن فرنسا وإنجلترا من

ورأها ظهير نفضتا معاهدة الجزيرة بفعلهما وكان ذلك مما أثار غيظ ألمانيا وحل امبراطور ألمانيا على المجيئ بنفسه الى طنجة واعلان أن استقلال المغرب لا يمكن أن يمس أحد ولو لم يكن السلطان عبد الحفيظ قد قبل الحماية الافرنسية من نفسه لبقيت ألمانيا متمسكة بمبدأ استقلال المغرب التام . وهذا الذي دعاها قبل الحرب العامة بقليل الى ارسال بارجة الى مرسى أغادير يوم نار الخلاف بينها وبين فرنسا وكادت الحرب بينهما تنشب الا أن ألمانيا نكصت أو انذت عن الحرب لتكون إنجلترا وعدت فرنسا بجعل الأسطول الانجليزي تحت ارادتها فيما اذا نشبت حرب بين فرنسا وألمانيا . وقد كانت هذه من أمهات المسائل التي أوجبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ومقصدا من ذكر هذه المقدمة أن إيطاليا بعد أن رأيت تقسيم إنجلترا وفرنسا لأفريقية واستئثار كل منهما بمالك و بلدان طويلة عريضة واحتلال فرنسا للغرب واعطاء قسم منه لاسبانيا اسكتاً لها عن الاعتراض قامت فطالبت فرنسا وإنجلترا بحصة لها في أفريقيا واقترحت أن تنزلا لها عن طرابلس الغرب وبرقة وتم الاتفاق على ذلك بين هذه الدول الثلاث سرا وبعد ذلك هاجت إيطاليا طرابلس الغرب بغتة بدون أدنى سبب سوى أن فرنسا وإنجلترا تقاسمتا أفريقيا وأنها هي إيطاليا دولة كبيرة فلا يمكنها أن تبقى بدون حصة من هذه القارة ولما هاجت إيطاليا طرابلس الغرب أبلفت تركيا أنها ان رضيت أن تتخلى لها عن طرابلس وبرقة تعوض عليها بعض تعويضات مالية وتبقى للسلطان العثماني السيادة الدينية ولكن العالم الاسلامي يومئذ نار نأثره لهذا الاعتداء الفظيع واضطر النولة الى المقاومة . نعم انه لم يكن للدولة قوة في طرابلس أكثر من أربعة آلاف عسكري على حين ان إيطاليا جهزت لاحتلال ذلك القطر مائة ألف عسكري الا أن الاهالي ناروا بأجمعهم ورأى الباب العالي أنهم قوة قادرة على مقاومة الطليان فأمدهم بما أمكن من الأسلحة وجاء أنور متنكراً ودخل الجبل الأخضر من الحدود المصرية وجاء على فتحى ودخل طرابلس من الحدود التونسية وكان بلغ أهالي مصر وتونس استعداد أهالي طرابلس وبرقة للحرب فأرسلوا اليهم بالأرزاق وأمدوهم بما أمكن من الأموال وكانت الحماية الاسلامية في ذلك الوقت غير ما آلت اليه بعد الحرب الكبرى فرأت إيطاليا ورأى العالم الأوروبي كله من مقاومة الطرابلسيين مالم يخطر لهم على بال . ولقد كانت إيطاليا تعتقد ان احتلالها لدينك القطرين يتم في خنة عشر يوماً . وأتذكر أني

قرأت بيانات للورد كيتشران هذا الاحتلال أصعب مما يظنون وانه قد يأخذ مدة ثلاثة أشهر ... فكان من مقاومة الطرابلسيين أن استمرت الحرب بينهم وبين إيطاليا عشرين سنة تامة بدلا من ثلاثة أشهر ولم تنقطع الا في السنة الماضية بعد أسر الشهيد عمر المختار . وقد بلغت خسائر إيطاليا في هذه الحرب مدة العشرين سنة مائة وخمسين ألف قتيل وثلاثمائة مليون جنيه ذهب ولو نيسر للاهالي السلاح انلازم والعدة لكان يستحيل أن تقدم إيطاليا من ساحل البحر الى الداخل ولو مسافة بضعة كيلو مترات ولكن الذي فت في أعضاد الأهالي هو فقد السلاح والذخيرة كما لا يخفى . وكان نزول الطليان في طرابلس النهار الرابع من أكتوبر سنة ١٩١١ وخرجت الحكومة العثمانية من طرابلس ومعها العسكر بقيادة نشات بك وخيموا في جهات غريان وكانوا ينتظرون الأوامر من الباب العالي بالتسليم وكانت إيطاليا تنتظر ذلك لعدم تصور العقل امكان ادنى مقاومة . ورأى الأهالي أن الدولة تركتهم يخضعوا في أول الأمر للطليان وهؤلاء أخذوا يزعمون الأسوال على وجوه الاهالي في طرابلس وناحيتها وفي بنغازي وفي درنة واستجلبوا كثيرا منهم وكان من جملة من خدم الطليان من أعيان بنغازي المعروفين منصور الكاخيا وكان منهم ابن المنتصر في مصراته . وفي ذلك الوقت بينما ظن الطليان أن الأمر استوتق لهم قام سليمان الباروني زعيم الاباضية الذي هو اليوم وزير امام الأباضية في مملكة عمان وقام معه فرحات وغيرهم من زعماء طرابلس واستنفروا الأهالي فأثروا بالسلاح وهددوا العسكر العثماني المنسحب الى خارج طرابلس بالقتال ان لم يصل الطليان الحرب فاشدد عزم العثمانيين وعلم الباب العالي أنه يقدر أن يعتمد على الاهالي وفي أواخر شهرا أكتوبر المذكور كان المتطوعون منهم قد تكاثروا جدا فزحف العسكر العثماني والمتطوعون الى مدينة طرابلس وقاتلوا الطليان قتالا شديدا وفي أحد الأيام ظنوا أنهم مسئولون عليها لا محالة . ولكن مدافع الطليان من البر والبحر حالت دون تحقيق هذه الأمنية . وكان قد لحق بالجيش العثماني أهالي ترهونه وأهل الساحل والمنشيه والرجيحيات تحت قيادة علي بك الشابي الذي امتاز في معركة برطراس والتحق أيضاً بالجيش أهالي ناجوره بقيادة علي محمد كرموس وجه أيضاً الطوارف والفضانية وأهالي زليطن وناورغه وزستان ورجبان ومزده وأهالي غريان وأورفله ومصراته وناوير والزاوية وزنزور والعجيلات وغيرهم وبدأت الحرب

وجهة حسنة فارس من أولاد أبي سيف وهم سنوسية يسكنون في سكنه وكان جميع هؤلاء الأهالي مقبلين على الحرب كأهم مروضون إلى أعراس واستردت الأهالي جميع النواحي التي حول مدينة طرابلس حتى دخلت سيدي الهاني وسيدي المصري فشهد العالم بأجمعه من بسالة هذه الأقوام ما قضى بأعجب العجاب ولكن الطليان ضاعفوا قواتهم ومعداتهم وفي ٢٦ نوفمبر استرجعوا سيدي الهاني وسيدي المصري ثم بدءوا بتلك الأفعال النفضية وقد ذكرنا فيما تقدم مذبحه المنسوبة التي تبقى عاراً على إيطاليا أبد الدهر . ولولا مدافع الطليان ومعداتهم ما كان يمكنهم أن يثبتوا في مدينة طرابلس فضلاً عن أن يتقدموا إلى الداخل وكان جميع المدافع التي في المعسكر العثماني سبعة مدافع فقط معها ثلاثون من المدفعية ولهم قائد اسمه أحمد شكري قاوم جميع مدافع الطليان بمدفعه هذه ووصل إلى مسافة كيلو مترين فقط من الطليان وإلى مسافة ستة كيلو مترات من المدينة وكانت قنابره تقط في حديقة البلدة وفي واقعة فارغاريش قاوم أحمد شكري هذا بأربعة مدافع جميع مدافع الطليان الهائلة وفي واقعة عين زاره بقي يقاوم مدافع الطليان مدة عشر ساعات إلى أن تمكن العثمانيون من الرجوع بانتظام . وقد وصل الينا ونحن في معسكر درنه المسعودريون مراسل جريدة الأستراسيون المصورة لحدثنا عن وقائع الحرب التي شهداها في طرابلس وقال إنه لم يجد قوماً عندهم شغف بالقتال واستخفاف بالموت كهؤلاء القوم . وفرأت له مقالة في الأستراسيون أنه شاهد في المعسكر العثماني أمام طرابلس متطوعة من الطوارق ومن فزان ومن جبل غريان وزليطن وأورفلة وترهونه ومن الساحل قال : «وإذا سمع هؤلاء نداء الحرب قامت قيامتهم وتدفقوا إليها كالسيول من الجبال وبالجملة فالجرب عندهم أشبهى لذة تصورها عقولنا » ثم إن الدولة العثمانية جعلت معكراً آخر في مصراطه بقيادة خليل بك عم أنور ونوري أخى أنور واشتعلت الحرب بينهم وبين الطليان الذين كانوا في قصر جرد على البحر . وأما من جهة بنغازي فإن الحرب بدأت بعد ١٨ يوماً من إعلان إيطاليا الحرب على تركيا . وفي الليلة الثانية من نزول الطليان في بنغازي هجمت عائلة إبراهيم والبراغنة بغتة على محلة يقال لها الصابري وسط تحيل بنغازي كان الطليان أرسلوا إليها جانباً من جيشهم فحصلت معركة شديدة انهزم بها الطليان إلى محمل يقال له الزرايب وتلف منهم ذلك اليوم نحو من ثابورين . ووقعت واقعة أخرى يوم نزولهم اسمها واقعة جوليانة قتل منهم فيها

ثلاثمائة ومن العثمانيين سبعون وكان الطليان يضربون بنغازي بمقذوفات مدافعهم من البحر فقتل من الرجال والنساء والأطفال نحو أربع مائة وتمكنوا بمدافعهم من النزول الى البر لأنه لم يكن عند العثمانيين مدافع تحمي البلدة فنزلت عساكر الطليان واحتات الثكنة العسكرية فقاتلها الأهالي وسقط من الطليان جماعة في ميدان الثكنة . وخرجت الجنود التي كانت في بنغازي مع قائدها شاكر بك الى سبيل الهواري على مسافة أربعة كيلو مترات من المدينة وبقيت خمسة عشر يوماً في الهواري وكانت أربع مائة جندي فقط تم تأخرت هذه النسوة الى الأبيار على مسافة ثلاثين كيلو مترا . وكان سيدي عمران السكوني شيخ الزاوية السنوسية في قسبة المرج وقد عرفته يوم ذهبت الى بنغازي فرأيت فيه صنيدياً من الصناديد رجه الله وأكثرت من مثله فهذا الرجل استنفر قبيلة العرفا التي هو شيخ على زاويتها وقبائل أخرى والتحق بالجند العثماني الذين بقيادة شاكر بك وزحفوا الى الطليان فكسروهم الى مدينة بنغازي ومن ذلك الوقت لبثوا في بنغازي تحت حماية اسطوهم . وأقام المعسكر العثماني ومعه العرب بالمحل الذي يقال له الرجه . وكان الطليان قد قصدوا قرية الكويبية على مسافة ساعة ونصف الى الشرق من بنغازي وعلى ربع ساعة من شاطئ البحر ولم يكن في الكويبية الا نزر من المقاتلة وكان الطليان عدة آلاف فانهزم الطليان وقتل منهم مئات ونعم منهم العرب بنادق ومسدسات وأعتدة كثيرة

وفي ١٥ يناير سنة ١٩١٢ بعد حضور عزيز بك المصري قائداً للمعسكر العثماني في بنغازي جرت وقائع كثيرة نذكر منها أن أربع مائة عربي هجموا على استحكام اسمه شويليك دخوله من شاطئ البحر فذبحوا الطوبخية الطليان على المدافع وأحضروا المكاتب التي في جيوبهم من أهلهم اليهم وفي ١٦ الشهر المذكور دخل سبعون عربياً الى استحكام الفويحات وقتلوا وغنموا مقداراً من البنادق وفي ١٨ منه جرت وقعة الزريعة اذ دخل من العرب ليلاً ٣٥٠ رجلاً بين استحكامين من استحكامات الطليان وقعدوا في حفرة وقعد ٥٠ عربياً من الجهة الأخرى فسار الطليان فوقعوا في الحفرة بغتة ونشب قتال شديد بين الفريقين وكانت أربع بوارج طليانية تطلق القنابر من البحر منعاً للعرب من امداد ذورهم ولكن أصيب الطليان ذلك اليوم برزايا فادحة وقتل منهم مئات وقيل ١٥٠٠ جندي وقتل من العرب ٣٥ مجاهداً وجرح ثمانون . ومن بعد هذه الواقعة ازداد اهتمام الطليان

بالاستحكامات ووضعوا حولها الأسلاك الشائكة

وفي ٣١ ديسمبر سنة ١٩١١ ذهب ٥٠ عربياً من قبيلة الفوارس ودخلوا استحكام

الفويحات وغنموا وقتلوا وقتل منهم ١٠ رجال وجرح ١٢ رجلاً

وفي ٢٢ فبراير سنة ١٩١٢ هجم العرب من جهة اللثامه على الاستحكام الطلياني

الذي هناك فقتنموا خيلاً قتلوا فرسانها وغنموا بنادق وأدوات

وفي ٢٦ منه اجتهد الطلياني في احتلال « غريونس » على شاطئ البحر جاءوها من

جهة شويليك فردهم العرب وغنموا منهم ١٩ بندقية

وفي ١٢ مارس ١٩١٢ جرت وقعة الفويحات الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربى

دخلوا بين استحكامى الفويحات والبركة فنار في وجوههم الطلياني واشتدت الحرب وأحاط

الطلياني بهذه المائتى مجاهد من العرب وقصد عزيز بك المصرى ومن معه من العرب امداد

هؤلاء فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابر التي كانت تنساقط كالطر من البر والبحر . فلبث

هؤلاء العرب يقاثلون مستميتين الى الظلام وعند ذلك نجح فلهم ولحقوا بالمعسكر العربى بعد

قتال استمر طول النهار ويقال انه نجح ٨٠ رجلاً من المائتين . وأما الطلياني فقتل وجرح

منهم ألف وخمسة مائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطاً برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء وأصيب بالجنون

عدة ضباط من هول تلك الوقعة . وكانت هذه الواقعة قد شقت كثيراً على العرب وقامت

النوادر تسبب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطلياني دون امكان نجاتهم . وبينما

العرب فى مآتم على قتلاهم اذ وردت برقية من أنور القائد العام فى درنه الى عزيز على

المصرى قائد مجاهدى بنغازى عن برقية من الاسنانة عن برقية من برلين عن برقية من

رومة تفيد أن وقعة الفويحات هذه كانت من أشد المصائب على الطلياني خسروا فيها ألفاً

وخمسة مائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتلوا وجرحى ومنهم من أصابهم الجنون من هول

ذلك اليوم . فلما بلغ العرب ذلك شفى من حرقتهم على أبطالهم وتحول حزنهم سروراً

وفي ٤ ابريل اشتبكت دورية من العرب مع ثلاثة آلاف جندى طلياني فى الفويحات

أيضاً فانكشف الطلياني بغير انتظام وخسروا ٨٠ قتيلاً ولم يقع من العرب الا قليل من

القتلى والجرحى

وحصلت بين الفريقين وقعة اسمها وقعة السلماني وذلك أن ٦٠ عربياً هجموا على

استحكام السلطاني فخرج الطليان ودارت رحى الحرب ووردت نجدات للعرب فكسروا الطليان وألزموه داخل الاستحكام بعد أن تركوا مئات من القتلى على الحضيض . ثم وقعة البركة وهي أن المرسة والعبيد دخلوا ليلاً بين الاستحكامات في راس عبيدة وكانوا ثلاثمائة مقاتل فدارت رحى الحرب طول الليل وأصبح الصباح عن ٣٠٠ قتيل من الطليان ولم يقتل من العرب سوى ثمانية مجاهدين وجرح ١٢ مجاهداً . وفي ١٩ يونيو جرت وقعة مع دورية الكوفية وكانت ٥٥ مجاهداً لا غير فتلاقت مع الطليان في سواني عمان وكان هؤلاء نابورين من المشاة والاي من الفرسان ومعهم بطارية مدافع جبلية وبطارية صخر اوية وثبت العرب مع قلة عددهم نحواً من ساعتين الى أن وصلت اليهم النجدات فعند ذلك انهزم الطليان ونقلوا عشر عربات وثلاث سيارات كهربائية ملاءى بالقتلى والجرحى منهم ثلاثة ضباط وغنم العرب أسلاباً كثيرة

وهكذا كانت وقائع بنغازي في بداية الغارة الطليانية واستمرت بعد ذلك بدون انقطاع الى أن جرت الحرب العامة وخذع الطليان بالاتفاق مع الانسكيلز السيد ادريس السنوسي نجل سيدي المهدي واعترفوا به أميراً على برقة وانقطع بذلك القتال وصارت الامرة في البركة للامير ادريس ونقي كذلك سبعاً الى ثمانى سنوات اذ جاء الفاشيست وتكثروا بالمعاهدة واستأنفوا الحرب ففر الأمير ادريس الى مصر وتولى قيادة المجاهدين زعماء متعددون أشهرهم الشهيد عمر المختار الذي ثبت الى الآخر وبلغت مدة جهاده عشرين سنة وأما مبدأ نزول الطليان في درنة فهو أنهم جاءوا ودمروا فيها بيت التلغراف اللاسلكي ثم ضربوا المدينة بالقنابر . وكان في درنة ٦٠ جندياً عثمانياً لا غير تحت قيادة البيكباشي شا كرك بك فانضم اليهم بعض الأهالي وجاء على افندي العوا كلى قائم مقام قصبه المرج ومعهم عشيرته العوا كلة وبعض عائلة غيث فقاوموا الطليان بشدة لكن أهالي درنة اختاروا التسليم . وخرج شا كرك بك بجنده الى عين « ماره » وأخذ الطليان يستجلبون الأهالي بالمصانعة ووزعوا أموالاً وكانوا مشايخ الزوايا السنوسية ورؤساء القبائل ومع هذا فالعرب بقيت نأبي طاعتهم فأخرجوا نابور بحرية وثلاثة تواريخ مشاة وبطارية مدافع وصعدت هذه القوة الى رأس نبع درنة في الوادي المعروف بوادي الشواعر فصدتهم على افندي العوا كلى بقومه وتوافقت اليه الاعراب فهزموا الطليان هزيمة شنعاء قتل منهم فيها

مئات وجرح مئات بعد أن استمر القتال ١٢ ساعة وغنمت قبيلة الشواعر ٨٠ بندقية والعوا كلة ١٢٠ بندقية ومن الحيوانات وقرطاس البنادق شيئاً كثيراً . ولم يسقط من العرب الا ١٢ مجاهداً من العوا كلة وستة من الشواعر . فاشتدت بهذه النصرات عزائم العرب وتفتت قلوبهم وكان أنور قد وصل الى « دفنا » يوم جرت واقعة وادى الشواعر هذه فكاد يطير فرحاً وعلم أنه يقدر أن يقاتل رجال كهؤلاء . وقبل واقعة وادى الشواعر لم يكن حصل الا مناوشتان مع العرب بنى جازيه من العبيدات قتل فيهما ٥٠ طلبانياً . أما بعد وصول أنور فان الطليان امتنعوا عن الخروج مدةً واعتصموا باستحكاماتهم وأخيراً خرجوا بقوة عظيمة وصارت الواقعة المسماة بواقعة « الضبط » وألحوا على معسكر أنور ولكن العرب هزمتهم وتركوا مئات من القتلى والجرحى وغنم العرب ١٣ بغلاً موقرة ومئات من البنادق واستشهد من العرب ٤٠ مجاهداً . وكانت هذه المعركة في ٣١ ديسمبر ١٩١١

ثم في ١٧ يناير سنة ١٩١٢ جرت واقعة بين الطليان وجيش العرب الشرقي أي النخيم شرقي درنه فتقهقر العرب وقتل منهم ١٨ مجاهداً وأمرع الجيش الغربي لجنده فوجد في طريقه تابورين من الطليان فهزمتها وقتل منها ١٥٠ جندياً . ثم في ٣٠ يناير هجمت قبيلة البراعصة على استحكام سيدى عبد الله ليلا وهو ملاك بالمدافع الهائلة الكبيرة وكان هجوماً بجرأة نادرة المثال في تواريخ الحروب الا أن البراعصة لم يقدرها على الاستحكام ووقع منهم ٧١ شهيداً . وجرت واقعة في ٣٠ مارس ١٩١٢ استمرت طول النهار وانهمز الطليان وقتل منهم أربعائة منهم ثلاثة ضباط كبار وقتل من العرب ٣٧ وجرح ١٥٠ مجاهداً وغنموا ١٥٠ بندقية وثمانية صناديق ملائى بالمقذوفات

وفي شهر مارس جرت واقعة كنت أنا السبب فيها لأني كنت وصلت مجاهداً ومعي خمسة رجال من أخصائي من جبل لبنان باق منهم في الحياة واحد هو عجاج أغا عبد الصمد من عماطور فلما وصلت الى معسكرين منصور تقابلت مع أنور ومصطفى كمال وغيرهما من القواد وصرت مترقباً لنسب واقعة لأشدها . فمضت أيام ولم يحصل شيء سوى مناوشات بين الطلائع . فبينما أنا أتحدث الى رشيد بك ابن المشير فواد باشا الجركسى^(١) قال لى :

(١) استشهد رحمه الله في حرب البلقان عند استرداد الصرب لادرنه سنة ١٩١٢

ان شئت نريك وقصة غداً . فذهبت أنا وإياه الى ضلع جبل مناوح لاستحكام سيدي عبد الله وبيتهما واد عميق وجميع تلك الهضاب مكسوة بالأشجار من عفص وغيره وقررنا أن تكون الواقعة هناك وجررنا مدفعين صغيرين من حجة مدافع صغار هي كل ما كان في جيش أنور ووضعناهما بازاء استحكام الطليان . وثاني يوم بكرنا الى ذلك المكان وجتمت العرب في المتاريس بازاء الاستحكام . وذهبت أنا ونقدمت وجمت مثلهم وراء متراس . ثم جاء مصطفي كمال وكان يومئذ قائد ألف وثاني أنور في القيادة جلس بجاني . ثم جاء أنور رحمه الله ثم جاء رشيد بك ابن فؤاد باشا ثم جاء ضابط دمشق ذهب اسمه من بالي ثم جاء ضابط ألماني اسمه البارون غومينبرغ من أنبل عائلات مونيخ وهو لا يزال في الحياة ومن أعز أصدقائي . وبعد أن أخذنا مقاعدنا بدأنا برمي القنابر من المدفعين الصغيرين اللذين كنا وضعناهما هناك قبل الواقعة بيوم . فأكادت أصوات قنابرنا تدوي حتى انفتحت أفواه مدافع استحكام الطليان المسمى بسيدي عبد الله تقصف قصف الرعود وأخذت القنابر تنساق علينا كالطروهي من نوع الشراييل واشتد رمي الرصاص من العرب . فاستمرت الواقعة من الصباح الى الظلام لكن بقي كل فريق في أرضه فلا نحن زحفنا اليهم ولا هم زحفوا نحونا . ولما انتصف النهار اشتد بنا الجوع وكان مع مصطفي كمال رغيف من الخبز قسمه بيننا وكنا خسة وراء ذلك المتراس فأصاب كلاً منا فرزدقة . وكان الهلال الاحمر المصرى قد جعلني مفتشاً على بعثاته الطبية في تلك الحرب فلما رأوا في مخيم الهلال الاحمر انه انتصف النهار والحرب مشعلة ولا تقدر أن تبرح المصاف أرسلوا لنا غداء تاماً فيه ما يكفي من الخبز والحلين والزيتون والعلس وأرسلوا زمزية ماء وجاء شاب صفاقسي اسمه علي كنت استخدمته عندي ومعه الطعام فأخذ يدب بين المتاريس الى أن وصل الينا فنفجنا السفرة وأكلنا وقد نال منا الجوع كل منال فلم أعهد في حياتي أني أكلت أكلة أشهى منها . وبعد الطعام غلب علي النعاس لأنني نهضت ذلك اليوم من الفجر لحضور الواقعة فأشار علي مصطفي كمال بان أبيت في ظل شجرة عفص صغيرة على مسافة ٢٠ متراً من المتراس . فذهبت واضطجعت على التراب ومن شدة النعاس غلب الكرى علي برغم قصف المدافع وأغضيت نحواً من ٢٠ دقيقة واذا بكتلة تراب غمرتني فجأة فاستيقظت مذعوراً فإذا بكرة شراييل سقطت بجاني وانفجرت فأصابني منها التراب الذي اطارته من الارض فجمت

ورجعت فجلست الى جانب مصطفى كمال وانور وراء المتراس . واخذ البارون غومبيرغ بالتقوغرافيا صورنا جميعاً ونحن هناك ولا تزال هذه الصورة محفوظة . ذكرت هذه القصة لأنها من ألد ذكريات حياتي ولأن رفاقي ذلك اليوم صاروا فيما بعد من رجال التاريخ أحدهم أنور أشهر من أن يذكر والثاني الغازي مصطفى كمال رئيس جمهورية تركيا الحالي ولم يقع منافي تلك الواقعة الا نزر من القتل والجرحي

ثم جرت وقائع فيما بعد أشهرها واقعة قصر اللبن استشهد فيها من العرب ٤٠٠ و قتل من الطليان أكثر من هذا العدد . وما زالت المعارك هناك تتوالى الى أن نشبت حرب البلقان فألح الأتراك على أنور بالرجوع الى الاستانة فرجع مكرهاً وسلم القيادة الى عزيز بك المصري الذي واصل قتال الطليان . ثم لما عقدت الدولة الصلح مع إيطاليا رأى عزيز بك نفسه مضطراً الى ترك القتال فسحب العسكر النظامي الذي كان في برقة وكانوا زهاء أربعمائة وأخذ الأسلحة التي أتمكنه أخذها وسار قاصداً الحدود المصرية . وهو بهذا لم يعمل الا بحسب الأصول الدولية ولكن المجاهدين السنوسيين تقموا عليه انه عطل المدافع التي بقيت عندهم ودفن القراطيس والقذائف في الأرض . وهذه روايتهم التي رويها الجميع الناس وحرروها وقدموها الى الاستانة والله أعلم بها . ثم ان عزيز بك أبى أن يسلم العرب البنادق التي مع عسكره وذلك وفقاً للأصول الحربية التي تقضى بعد انعقاد الصلح بين تركيا وإيطاليا أن لا يسلم العسكر العثماني أسلحة لأعداء إيطاليا . ولكن العرب لم يقبلوا هذا العذر أيضاً ولم يفهموا كيف أن الدولة بعد أن عقدت الصلح مع إيطاليا مكرهة مرغممة بسبب حرب البلقان تعود فتسحب هذه القوة الضخمة التي كانت باقية لها في برقة ثم تأتي أن تترك لهم البنادق التي كان يحملها الأربعمائة عسكري الذين مع عزيز بك ؟ ولذلك أصرتوا على عزيز بك في تسليمهم البنادق وبدأوا أولاً معه بالجدال و انتهوا أخيراً الى الجلال . فوفقت حادثة مؤسفة مؤلمة ترى من واجبات الأمانة التي تلزم المؤرخ عند ذكر الوقائع أن لا ندعها مسكوتاً عنها كيف كان الخطأ فيها . وذلك أن الاعراب بجهاهم عند ما قطعوا أملمهم من سلم البنادق بالرضى أطلقوا الرصاص على العسكر العثماني وكان قد خيم في « دفنا » غربي السلام ولم يبق الا أن يصل الى الحدود . ولعلمهم قتلوا أو جرحوا بعضاً من العسكر . فأمر عزيز بك بمقابلتهم بالمثل فنشبت معركة سقط فيها أكثر من ستين قتيلاً من العرب و بضعة

عشر قتيلاً من الجند . وعند ذلك امتدَّ صريح العرب بعضها الى بعض وأقبلت من كل صوب تريد الانتقام من عزيز بك وعسكره . وهذا كله في دفنا والأراضي المسماة بالبطنان . وأخذت العرب تجتمع لمهاجة الجند النظامي . وكان السيد أحمد الشريف السنوسي في الجبل الأخضر وقد سفر الجو بينه وبين عزيز بك المصري بسبب سحب هذا للعسكر النظامي وتخليته لبرقة ولكنه لم يكن إرضى بأن تكون النهاية قتل المسلمين بعضهم بعضاً وان يوقع العرب بجند الدولة التي كانت تحافظ على بلادهم . فأرسل السيد السنوسي الأكبر الشهيد السيد عمر المختار انلافي الشر ومنع الأعراب من الهجوم فقطع عمر المختار مسافة أربعة أيام في يوم واحد مواصلاً الاغذاذ الى أن أدرك العرب قبل هجومهم فجز الشر وابلغهم ما في مقاتلة عسكر الدولة من الفضيحة والشهانة وسوء القالة وسد أبواب عواطف الدولة على عرب ضرابلس وما زال بهم حتى اقتنعهم بأمر السيد السنوسي أن يتركوا ثأرهم ويهدتوا هذه الواقعة كأنها لم تكن . وبمقابلة ذلك أخذ لهم فيما سمعت البنادق التي كانت مستلتها هي سبب الشر الذي وقع . ولكن عزيز بك على المصري وصل الى مصر ثم الى الاستانة وقد امتلأ صدره وغراً على السنوسية كما أنهم هم أيضاً قدموا الشكوى بحقه الى الدولة بعد أن صار أنور ناظراً للحرية واتهموه بأشياء كثيرة أحالته الدولة من اجلها الى المحاكمة . ثم خلَّت بعد ذلك سبيله بشرط أن يغادر تركيا فغادرها الى مصر وطنه في خبر ليس هذا محله لأنه يتعلق بموضوع الحركة العربية على تركيا أكثر مما يتعلق بطرابلس الغرب

و بعد أن خرج عزيز بك من برقة أصبحت القيادة الفعلية بيد السيد أحمد الشريف السنوسي كبير الطريقة السنوسية وكان أكثر اعتماده في الأمور الجهادية على عمر المختار . واهتبل الطليان غرة الحرب البلقانية مع تركيا فأوجفوا على السنوسية بقوتهم اعلمهم يدوخون ذلك القطر بتخلي الأتراك عنه فلم ينالوا أرباً لأن السنوسيين صدوهم من كل جهة . ولبت الطليان منحصرين في المدن الساحلية . فلجأ الطليان الى الخديوي السابق واقنعوه بالتدخل في القضية لعل السنوسي يخضع لايطالية بواسطته — ولغظ الناس يومئذ بأن الطليان وعدوا الخديوي بأن يشترؤا منه خط حديد مربوط الذي كان يخصه والله أعلم فأرسل الخديوي رسلاً من قبله عدة مرات يقترح على السنوسي الاتفاق مع ايطالية فاعتذر السنوسي عن قبول ذلك حسبا حدثنى هو بغمه وأجاب الخديوي بأنه هو لا يملك ذلك القطر

ليُنزل عنه لإيطاليا وإن الإسلام يمنعه من تسليم البلاد للطلبان مادام فيه عرق ينبض . ولعل الخديوي السابق أراد بهذا التوسط تخفيف الشر ولم يكن له مقصد في ضرر السنوسية إلا أن قضية بيع سكة مريوط من الطليان قد دارت على الألسن سواء كانت صحيحة أم لم تكن فحسنت وجه الوساطة وأصممت آذان السنوسية عن سماع الكلام . ثم إن الطليان لم يتمكنوا من شراء سكة مريوط نظراً لمعارضة الحكومة المصرية لذلك بالتواطؤ مع الانكليز سراً . ولقد أشار جيوليتي رئيس نظار ايطالية الشهير في «مذكراته» الى مساعدة الخديوي السابق لإيطاليا في الحرب الطرابلسية ولكنه لم يذكّر شيئاً من قضية سكة مريوط وإنما قال : « إن عباس حلمي الخديوي السابق كان مساعداً لنا من أول هذه الحرب وبواسطته أمكننا الاتفاق مع الأندلسي في عسبر ويقول الخديوي انه أراد بما فعله مكافأتنا على حسن المعاملة التي لقبها منا أبوه عند ما كان منفيّاً من مصر وأقام بنابولي »

ومن هذه الجهة يعرف القارئ ان جيوليتي لا يؤخذ كلامه قضية مسلمة افلا ترى انه يخلط بين والد الخديوي وجدّه اسماعيل باشا الذي كان هو المنفي الى ايطالية لا والد الخديوي ولا عجب في هذا فإن جيوليتي حرر مذكراته بعد أن ناهز الخامسة والثمانين من العمر ومن علت سنة الى هذه الدرجة فأحرر به أن يروي عن زيد ما يكون أحياناً صدر عن عمرو . والله أعلم بالحقيقة

ونعود الى خبر برقة بعد أن تركها الأتراك فنقول ان السيد السنوسي أسس فيها حكومة سنوسية وبقي يجاهد فيها الطليان ويقمعهم في الثغور البحرية بنغازي ودرنه الى الحرب العامة إذ بعث اليه أنور بأخيه نوري ومعه الأوامر بالزحف الى مصر لمشاغلة الانكليز فيها . وكان السيد غير مرتاح الى هذه الغزاة خوف الفشل وكان الانكليز كئسب وما كسويل وغيرها يصنعونه ويقدمون اليه الهدايا اللطيفة يكتبون بها شره عليهم وقرأت عنده كثيراً من رسائل اللورد كئسب والجنرال ما كسويل وهما يبالغان في تعظيمه واسترضاء خاطرهما وما استجلب نظري أكثر من الجميع مكتوب بالعربي من اللورد كئسب محرر بعبارة بليغة وباسجاع رشيقة وبخط لم أجد أبداً منه في حياتي يخاطب فيه اللورد كئسب السيد أحد الشريف كما يخاطب الملوك ويلقبه بسلالة النبي الأعظم عليه السلام وكل هذا مداراة منهم له ليكف عن مهاجمة مصر . ولم يكن السنوسي قد تلسكاً عن الزحف الى مصر بسبب هذه المصانعات

الانكليزية وانما كان يعوفه ان القوة التي كانت بيده لم تكن كافية وكان يخشى أن تدور عليه الدائرة فلما رأى ما رأى من الخاج أنور ونورى وتويخ الوطنيين من المصريين اياه على التناقل اختار الزحف وكان من الأمر ما كان من الفشل الذي قد توقعه مما قد استوفينا شرحه في صفحة ١١٤ و صفحة ١١٥ و صفحة ١١٦ الى صفحة ١٢٩ من الجزء الاول من الطبعة الاولى من هذا الكتاب فمن شاء فليراجع هذا البحث هناك ولكننا هنا ننشر مما وجدناه بين أوراقنا كتباً واردة من السير مكماهون معتمد انجلترا بمصر ومن اللورد كاتشر ومن الجنرال مكسويل القائد العام للجيش الانكليزية بمصر الى السيد السنوسي أحمد الشريف أخذنا نسخها من نفس السيد المشار اليه وهي من أهم الوثائق التاريخية المتعلقة بالحرب العامة

هذا وأحسن تاريخ عربي لطرابلس الغرب هو « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » تأليف أحمد بك النائب الاوسى الانصارى الطرابلسى أصله من جالية الاندلس في القرن السابع للهجرة وهذا التاريخ مطبوع في الاستانة العلية سنة ١٣١٧ هجرية وأول رحلة قام بها أوربي الى طرابلس الغرب الميسو لومير قنصل فرنسة في طرابلس جوفل في تلك البلاد وكتب عنها رحلة بأمر لويس الرابع عشر ملك فرنسة . ثم اتفني أثره بولس لوكلس فزارها سنة ١٧١٠ ثم سنة ١٧٣٣ ثم الدكتور توماس شاو زارها سنة ١٧٣٨ ثم في سنة ١٧٦٠ جاءها من مصر فرنسي معلم طبيعيات اسمه غرانجه وفي سنة ١٧٧٢ و زارها جنس بروس السائح الى الحبشة

وفي أوائل القرن التاسع عشر المسيحي ساح فيها الدكتور سرفلي الايطالى وتحرير ذلك أن والى طرابلس يوسف باشا القرمانلى سير جيشاً لعقاب ولده الذى كان فى درنه وعصاه . فكان فى هذه الحلة الدكتور سرفلي وحرر أشياء مهمة نشرتها جمعية فرنسة الجغرافية . ثم عصى بعض العرب فى جهة المرج بالجبل الأخضر فسرح اليهم والى جيشاً كان فيه طليبانى آخر اسمه « دلاسلأ » فكاتب رحلة ترجت الى الانكليزى سنة ١٨٢٢ ثم زار برقة والجبل الأخضر الأب باسيفيك جاءها من طرابلس . سنة ١٨٢٠ أراد جنرال بروسيانى أن يعمل سياحة فى هذا القطر فاستصحب عصاه وكتاباً وسار اليه من مصر لكنه فقد ثلاثة من أصحابه قبل أن وصل الى الجبل الأخضر فرجع أدراجه . سنة ١٨٢١

ساح القبطان ييشى في بر طرابلس وصور المواقع بالضبط وسنة ١٨٢٤ و ١٨٢٦ خرج باشو الفرنساوى وقام برحلة في القطر الطرابلسى وكتب عنه أربعة مجلدات . وكان المسيو دوپورفيل قنصلا لفرنسة في بنغازى وذلك سنة ١٨٤٨ فجمع كثيرا من الآثار القديمة التى وجدها في الجبل الأخضر وهى الآن في متحف اللوفر . ثم ان الدكتور برث ساح فى طرابلس قبل أن ساح الى تيبكتو . سنة ١٨٥٥ ساح المستر جيس هاميلتون من بنغازى الى أوجه الى سيوه الى مصر

وسنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ أجرى هذه السياحة القبطان مردوك سميث والكومندور بورشر الانكليزيان وكتبا كتابا طبع سنة ١٨٦٤

وكان للقطر الطرابلسى من الصولة والنعمة وهيوب ربح العزفى البحر المتوسط ما للقطر التونسى وللقطر الجزائرى وللقطر المراكشى وكانت له الأساطيل القاهرة وكان ولاية طرابلس يأخذون الجزى من الدول الاوربية وتدفعها هذه لهم . وقد روى صاحب كتاب « المنهل العذب » السالف الذكر فى حوادث سنة ١٢١٣ ما يأتى :

« وفى هذه السنة كلف يوسف باشا (١) دولة الاسويج بدفع مائة ألف فرنك عطية وثمانية آلاف فرنك سنوية فرفض فصلها هذا الاقتراح فأرسل يوسف باشا الأساطيل لهاجتها وبث المراسيا على سواحلها والقبض على مرآكب رعاياها التجارية فغنموا سبع سفائن فالتجأوا الى نابليون بونابرت وهو وقتئذ بمصر . وسنة ١٢١٣ انعقد الصلح بواسطة مندوب بونابرت على أن تدفع السويج ثمانين ألف فرنك غرامة وثمانية آلاف فرنك سنوية وترك تلك السفائن للحكومة المحلية وتعاد أسارى الاسويج »

وذكر بعد ذلك وقائع كثيرة كانت تحصل بين دولة نابولى وطرابلس وبين دولة سردانية (٢) وطرابلس من أجل استنكافهما عن دفع الهدية السنوية لولاية طرابلس . وتلك الأيام نداؤها بين الناس

(١) أمى الفرمانلى والى طرابلس

(٢) دولة آل سافوى ملوك إيطاليا الحاليين

الكتب الواردة

على السيد احمد الشريف السنوسى

من الاورد كتشنر والسبر مكاهون والجنرال مكسويل

* (١) *

من مصر القاهرة في ٢٢ صفر ١٣٣١

بسم الله قبل كل شىء

من عبد الله المتوكل على الله سبحانه وتعالى لورد كتشنر المعتمد السياسى لجلالة

جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى بالنظر المصرى

الى مهبط اسرار الحضرة الربانية ومصدر صفوة الارشادات اللدنية صاحب التجليات

الأنسية والنفحات القدسية قطب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجا والجلال

المتحلى بروحانية اسلافه الطيبين الطاهرين والمتجمل بصفات أهل الجلال واليقين والمتحلى عن

أوضار الاغيار فى مهيع عبادة رب العالمين دوحة الشجرة الهاشمية وبضعة السلالة العلوية

خليفة صاحب ذلك النور القدوسى سيدي أحمد الشريف السنوسى رضى الله عنه وايدده

بروح منه

أما بعد فان الفرصة التى دعنتى الآن لمكاتبة السيد الجليل أحسبها من أشرف الفرص

وان كانت قصتها الداعية اليها ليست من أحسن القصص على أن السيد الجليل والشريف

النبيلى خليفة ذلك الامام المهدي العظيم وولى الله الكريم قد يسره أن ترفع اليه الظلامات

ليحقق آمال رافعها وأن تصل اليه أصوات الضراعات ليكون مدجاً ضارعيها ولهذا يسرنى

أن أكون الوسطة لديكم لرفع مظالم قد ارتكبتها من لم تخالط هدايتكم قلوبهم ولم تستأصل

ارشاداتكم العالية من نفوسهم الخاطئة ذنوبهم ولذلك أكتب لمقامكم الجليل بما يلى :

قد ورد لى من سعادة حاكم السودان العلم أن جماعة من عربان السكبايش التابعين

لحكومة السودان وبلغ عددهم تسعة وعشرين رجلا قصدوا بير النظرون السابع لمديرية

دنقلا وبينما كانوا عند البئر اذ انقض عليهم عدد عظيم من العربان ينهم نحو مائة من

(م ٩ - ثانى)

أهل فزان أتباع الطريقة السنوسية الشريفة والباقون من أهل زغاوة والبيدات واعتدوا عليهم شر اعتداء وكان دافعهم الى هذا الشر وداعيتهم اليه قبل كل أحد زعيم الفزانين واسمه الشيخ محمد أبو دوشي الفزاني أحد الخاضعين لسلطانكم والمستظلين بظل حمايتكم واحسانكم اذ ذهب رجاله الى عربان زغاوة والبيدات وطلب منهم الانضمام اليه لمقاتلة الكبايش وحرصهم على ذلك حتى انصاع اليه جمع منهم فبلغ ذلك عدد عصابته التي أغار بها على ذلك النفر القليل زهاء مائتين وسبعة وأربعين رجلاً . أغار بهذا العدد الكبير على أولئك النفر القلائل ولم يخف سطوة الله عز وجل ولم يذكر أن عمله المنكر فضلا عن دونه يفضب الله وملائكته سيجلب عليه سخطكم وغضبكم الذي هو من سخط الله وغضبه وكأ أنه لم يكفه أن يكون عدده كثيراً كالجيش الجرار بازاء جماعة الكبايش الذين كانوا عند البئر بل أخذهم غدرأ وفاجأهم على غرة منهم فينبأ كانوا آمنين لا يحسبون للشر حساباً اذ أطلق عليهم رجاله من بنادقهم ناراً حامية كادت أن تحصدهم حصداً فلما رأهم قد وقفوا أمامهم برهة من الزمن حلوا عليهم بسيوفهم ورماحهم فطعنوهم في صدورهم أنكى الطعنات وقتلوا بذلك ثمانية وجرحووا ثلاثة وأسرؤا اثنين وسلبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع ثم استاقوا جالهم وعددها مائة وواحد وأربعون بما عليها من الاحمال غير مبالين بأن يعدوا في شريعة الاسلام من العائنين في الأرض فساداً وأن جزاءهم فيها اذا وجدوا فضاة عدولا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض الخ الآية الكريمة فيرى السيد حفظه الله ووفقه لاجراء عدله على حكم الله وسنة رسوله الأمين أن جماعة الفزانين الذين ينسبون انفسهم لطريقكم الشريفة ويعتزون في طول البلاد وعرضها بعزها فد خانوا الله وخانوا محجة رسول الله البيضاء وخانوا عهد طريقكم السمحاء ولم يبالوا بغضب الله ولا بغضبكم ولم يذكروا اليوم الآخر وحسابه وبطش الله وعقابه وهذا غريب جداً أيها السيد الكريم مع ما يعلم القصى والداني من خضوع هؤلاء الأقوام لسلطوتكم واثارهم بأوامركم ومع ما سارت الركبان والأمثال من أخبار عدلكم المشهور وشدة بأسكم على أهل البنى والعناد وما تحلى به شخصكم الكريم من صفات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي انتهت اليكم تراناً عن أسلافكم العظماء الأفاضل ذوي البأس الشديد والثار يخ المجد فكيف مع هذا يجرؤ قوم أشداء كثير والعدد

من أتباع طريقكم الشريفة على الاعتداء على قوم مستضعفين قليلي النفر فيقتلون منهم
الأنفس ويسلبون الأموال والمتاع وهم مع هذا يرون أنهم من أتباعكم خليقون بحمايتكم
وحسن رعايتكم

لقد كان في وسع حكومة جلالة الملك أن تتخذ في مثل هذا الحادث اجراءات أخرى
عظيمة التأثير والأثر على أمثال أولئك الطغاة البغاة ونضرب بهم الأمثال للناس وهي لاتعدم
الوسيلة لذلك ولكنني بما أعرفه عن سيادتكم من حب العدل والانصاف والغيرة على إقامة
معالم الشريعة الغراء في البلاد والجهات التي يصل لها نفوذكم وتمتد إليها سطوتكم قد فضلت
أن أراجع مقامكم السامي في هذه النزلة لرفعها طبق ما يقتضيه العدل الاسلامي الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه

فإذا شاء السيد حفظه الله بتحقيق آمالي في عدله وانصافه فما أسهل على حضرته أن
يأمر تابعيه بكف الاذى عن جيرانهم واخوانهم في الدين وأن يكلف أولئك المعتدين برد
الجمال والاحمال التي سلبوها مع دفع التعويضات كما يراها السيد بالحق الندية للفتول والتعويض
للمجروح ظلماً وعدواناً ولست أظن انه يوجد من الموانع ما يحول دون توقيع هذه
الجزاءات على مستحقيها عند فضيلة السيد ولكن اذا كان هناك مانع لا اعرفه فأتى أرجو
من حضرته السديمة أن تشرفني بإفادتي عن الطريقة التي يحسن اتباعها للوصول الى تلك
الغاية من غير ان يحس كرامتكم التي اودت أن أحافظ عليها دائماً وأطلب من الله المزيد فيها
وقد أرفقت بكتابين هذا بياناً مشتملاً على أسماء الاشخاص المعتدى عليهم من عرب
الكبايش ومن قتل ومن جرح منهم لتكونوا على بينة من الامر واتجروا العدل فيهم كما
أمر الله جعلكم الله ملاذاً أعلى لتحقيق عدله بين خلقه وامدكم بروح منه مادامت احساناته
اليكم متواصله وعنايته بكم شامله ونفعنا الله ببركاتكم على الدوام آمين
(اللورد كتنر باشا)

* (٢) *

مصر القاهرة في ١٥ يناير سنة ١٩١٥ — ٢٩ صفر ١٣٣٣

قطب دائرة أهل الفضل والسكال وخلاصة أرباب الحجى والجلال أمام المصلحين

وقدوة المرشدين الاستاذ الاعظم والملاذ الانعم السيد أحمد الشريف السنوسي أعزه الله

سلام الله الاسنى ونحياته المباركة الحسنى تخص مقام السيادة وبعد فاني بحمد الله ومعونته وصلت الى مصر نائباً عن جلالة الملك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند الذى أعلن حاجته على هذا القطر السعيد ليحفظ سلطنته من اعتداء المعتدين ويرقى به وبأهله في معارج التقدم والفلاح . ولما كانت علاقة حكومة هذا القطر على الدوام ودية مع سيادتكم رأيت أن أبلغكم وصولي وأؤكد لكم ان العلاقات الودية التى كانت لكم ولأسلافكم الكرام مع الحكومة المصرية ستستمر في هذا للعهد الجديد كما كانت عليه من قبل من الود والسلام

الامضاء

السير مكهمون المهر الرسمى

• (٣) •

مصر القاهرة في ٣ ديسمبر سنة ١٩١٥ - ٢٥ محرم سنة ١٣٣٤

حضرة الاستاذ الأعظم السيد أحمد الشريف السنوسى الخطابى الادريسى الحسنى دام

وجوده الكريم

تحية وسلاماً وبعد فقد أدهشني ما وجدته بعد عودتي الى مصر من زيارة الجيوش المتحالفة في غابريولى — ان العلاقات بيننا قد حدث فيها تغيير . وان اتباع سيادتكم قد ارتكبوا أعمالاً عدائية ضد الحكومة المصرية .

وقد سمعت بارتياح انكم أرسلتم كبيراً من مستشاريكم الى البرابى ليسى في ارجاع بعض اتباعكم الذين عصوا أوامركم ولكنى تعجبت اذ سمعت ان هؤلاء الاتباع قد عادوا في العصيان حتى انهم لم يطيعوا الأوامر فقط بل أطلقوا الرصاص فعلاً على جعفر أفندى . هذا وقد بلغنى أيضاً ما همنى وهو أن سبعين رجلاً من رعايا السولة البريطانية الذين نجوا من مركب غرقته غواعة العدو قد حجزوا غرب حدودنا . فأناستكم برهاناً على المواطنف الودية التى أظهرتموها لنا أن ترسلوا هؤلاء الرجل المتكودى الحظ حالاً بدون اذى الى سرسى صروح .

هذا ويظهر أن نفوذ نورى بك وأصدقائه الألمان عليكم يشبه نفوذ أنور باشا على حلاة سلطان تركيا . وهذا النفوذ الضار هو الذى زج تركيا في هذه الحرب المهلكة والتي

سنتسهي حتما بزوال دولة الأتراك من الوجود إنكم تعلمون أن الحكومة المصرية والحكومة البريطانية عاملتا سيادتكم بكل اهتمام واحترام وأما الآن فقد اضطرتت بسبب المقاصد السيئة التي تحيط بسيادتكم أن استدعى رجالى من نقطة السلم وأتخذ لهم مركزاً فى مرسى مطروح . وعليكم الآن أن تبيئوا بأعمالكم وأعمال أتباعكم إذا كنتم تحبون بقاء العلاتق الودية أم لا .

ومن الآن فصاعداً كل رجل من أتباعكم يعدتى الحدود حاملا سلاحه أضطر أن أعده كمن له مقاصد عدائية وأعامله كذلك . لقد سألتكم أن تظهروا مقاصدكم الودية بإبعاد الأشخاص الذين معكم الآن المعروفين بعداوتهم لنا وأنأسف أن أرى أنكم لم تتمكنوا الى الآن من إبعادهم .

انى لا أشك فى أن السيد محمد شريف الادريسي قد سلمكم كتابى وفأوضكم فى جميع الشؤون التى وانج اليه مفاوضتكم فيها ولا أشك فى أنه بين لكم ان مقاصدنا بحكم ودية محضة وان ما أوجب التغيير فى العلاقات بيننا هو اعمال صدرت من جهنكم لا من جهتنا .

ولا يعنى الا الظن بأن الدساسين قد نقلوا اليكم أخباراً كاذبة عن الحرب الأوربية والحقيقة هى ان خسارة امبراطور الألمان وحلفائه بطيئة ولكنها أ كيدة على جميع خطوط القتال والمستقبل يريكم ما أرادته الله .

وانى أسألكم ان تنعموا النظر فى الأمر وتعتبروا انه اذا اتخذتم لسوء الحظ خطة عدائية فانكم لا تجلبون عليكم إيطاليا فقط بل فرنسا وانكلترا ومصر وتتحملون مسئولية جميع النفوس التى تضع فى هذا السبيل وتعرضون بلادكم للجوع اذ تسد عليكم طريق الزاد والمؤونة برأ وتحصر الشطوط البحرية . واذا كان مستناروكم يعتمدون على غواصات الأعداء فاعتقادهم قائم على لا شئ وانى أبسط لكم ذلك كله ليس بقصد التهديد بل بقصد النصيحة كصديق . والأتراك يقضون بكم مأربهم ثم يبنونكم نبد النواة وراء ظهورهم .

ان الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبقى على ما هى عليه الآن ولذلك فانى أسألكم أن تبرهنوا بحسن مقاصدكم بالأعمال وليس بالأقوال وأن ترسلوا حالا الى مرسى مطروح الرجال

الانكاز الذين نجوا من مركبهم وهم الآن غرب حدودنا. وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا وتخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان أى نورى بك ومانسمان وغيرهما من الذين لاشك في أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاءً عظيماً .

ولى الرجاء انكم توفون هذه المسائل حقها من الاهتمام قبل أن يقع ضرر لا يمكن

تلافيه والسلام

الجنرال السيرجون مكويل

القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى بمصر

* (٤) *

مصر في ٤ جادى الأولى سنة ١٣٣٤ الموافق ٨ مارس سنة ١٩١٦

حضرة صاحب السيادة الأستاذ السيد أحمد السنوسى الكبير

تحيةً وسلاماً وبعد فقد وصلتني كتابكم المرسل بيد رسولكم موسى وليس لى أن أزيد في الرد عليه عمالقة في كتبي السابقة . انى كنت دائماً أحذركم من خطر الاصفاء الى نضائح نورى بك وجعفر وغيرهما لأن مصلحة هؤلاء تناقض مصلحتكم على خط مستقيم . فانكم بالاصفاء الى نضائحهم قد أترتم حرباً على مصر ونسبتم جيل بيت محمد على باشا الكبير الذى يمثله صاحب العظمة السلطان حسين سلطان مصر الحالى .

إنكم تعدتتم الحدود ودخلتم الأراضى المصرية برجال مسالحة ومدافع وقد أطلقتتم نيرانكم على العساكر المصرية والانكليزية . وأظهرتم بكل جلاء ووضوح أن مقاصدكم عدائية .

تقولون انى صدقت مقالة سنوبك ولم أصدق ماقلتتموه أتم . فما هو الصحيح ؟ إن جماعات من المحافظة الملحجين كانت على الدوام تأتي الى الأراضى المصرية اما بعل منكم أو بغير علم منكم وتسيء معاملته العرب الذين تحت إدارتنا وتأخذ منهم ضرائب بالقوة وقد أطلق أتباعكم النيران على الغواصات الانكليزية لغير ماسبب . وأزادت الغواصات الألمانية الأسلحة والعساكر وغيرها بقرب برديّة وأطافت نيرانها على طراد لغير السواحل وأغرقت وأتباعكم لم يطلقوا النار على الغواصات الألمانية بل استقبلوها بالترحاب . ثم انكم حفظتم في الأسر جماعة من رعايا الدولة البريطانية الذين غرقوا وابورهم ولجؤ الى سواحلكم . وقدهاجم أتباعكم نقطنا في البرأتى والسبيل وأسرو عساكر الحرس

وسرفو بنادقهم وقطعو خطوطنا التلغرافية وهددو نقطنا بالسلوم حتى اضطررت أن أصدر الأمر الى سنو بك بالرجوع الى مرسى مطروح وفي الوقت الذي كنتم فيه نصرحون بأن علاقائكم معنا على غاية الوداد كنتم تبتبون وترسلون مع رسلكم كتابا كالتى أرفقها بكتايبى هذا وإنى مرسلها اليكم انعلمو الحقيقة .

أرى انكم لازلتهم تذكرون أمر معاهدة عقدت مع الطليان ووجدت بين أوراق سنو بك . وأنا أعود فأكرر القول ان ذلك غير صحيح لسببين . الأول لأنه لم تعمل معاهدة مثل هذه قط والثانى لأن سنو بك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه .

ان جعفر الذى هو الآن أسير حرب يقول ان الانكايه الذين نجو من الوابور والآن فى الأسر عندهم هم فى شقاء عظيم وليس عندهم ما يلزم من الثياب والاطعام . واتم تقولون انهم على أتم الراحة والأمان . فأى القولين أصدق .

إنكم تشكون من أنى حجرت رسلكم هنا وأنا لم أفعل ذلك الا بعد أن بادأتمونى بالعداء . إن الله وحده يعلم بالخفا وما هو فى ضميركم . وكل ما يمكننى أن أقوله لكم ان أعمالكم كلها دلت على عدم تبصرو روية ويلزم أن تحصدوا الزرع الذى غرستموه .

إنكم بأعمالكم قد وقفتم موقف العدو ومدام فى الأراضى المصرية رجل مسلح من رجالكم فانى أعتبركم عدواً وقد سبقت فأخبرتكم عن الشروط التى بها وحدها يمكننى أن أبدأ بالمفاوضة معكم . وهذه الشروط أرسلتها فى كتاب مؤرخ فى ٢٨ صفر سنة ١٣٣٤ الموافق ٤ يناير سنة ١٩١٦ وهى كما يأتى :

- (١) أن تردو بسلام جميع الأسرى البريطانيين أو الهنود أو الأوربيين الذين فى يديكم .
- (٢) يجب أن تبعدو كل الأتراك أو الألمان الذين عندهم . وإن كنتم تجدون صعوبة فى إبعادهم فيمكنكم أن تسلموهم لى أسرى حرب .
- (٣) يجب أن تخرجو جميع رجالكم المسلحين من الأراضى المصرية وتتعهدوا بعدم دخول رجال مسلحين الى الأراضى المصرية وإذا دخلو عوملو معاملة أعداء حيثما وجدوا .
- (٤) يجب أن تجلو جلاء تاما عن سيوه والسلوم وعن جميع البلاد التى الى الشرق منها وتقيموا بسلام فى الجنبوب فإذا كنتم الآن تجيبون هذه المطالب وتظهرون بالأعمال أنكم تريدون أن تكونو على الوداد فانى مستعد للتساهل معكم أكثر مما تؤملون

الجنرال السرجون مكسويل

المهر الرسمى

القائد العام لجيوش جلالة ملك بريطانيا العظمى

ماسبق في التاريخ من استيلاء الافرنج

على طرابلس الغرب

للشيخ

عند ما ضعف شان العرب في صقلية وطردهم منها الملك رجار النورمندی واختلت إدارة أمورهم في تونس وطرابلس فكر رجار في غزو طرابلس والمهدية فبعث بأسطول نازل طرابلس آخر سنة ٥٣٧ للهجرة فنقب الافرنج سور طرابلس وكادوا يستولون عليها إلا أن العرب انحدروا من الجوار فهزموا الافرنج وغنموا أسلحتهم ودوابهم ورجعوا خائبين . ثم ان رجار لم يقطع الأمل من تلك البلاد وصار يترقب الفرصة لغزوها وفي سنة ٥٤٣ للهجرة أرسل أسطوله بقيادة جورجى أمير البحر عنده فاستولى على المهديّة بثلاثمائة مركب ثم استولى على صفاقص وحصات في طرابلس بمساعدة أصاب الناس منها شدة عظيمة واختلت الأحوال وفتيت الحامية فاهتبل الافرنج الغرة وجاء أسطول رجار ونازل طرابلس وقائلها الافرنج برا وبحرا وكان أهل طرابلس قد اختلفوا فيما بينهم وأخرجوا الأمير الذى كان عليهم محمد بن خزرون وولوا عليهم أميرا من لتونه وحصلت بينهم فتنة استفاد منها الافرنج فتمكنوا من البلدة وأغشوا في القتل والنهب ونجا كثير من أهل طرابلس الى الداخل وبعد أن تمكن الافرنج من البلدة نادوا بالأمان فترجع المسامون إليها وأقاموا تحت حكم الافرنج وانقرض أمر بنى خزرون من طرابلس ثم ولى الافرنج أبابيجى رافع بن مطروح على طرابلس وأخذوا رهنا منه على الطاعة ونادوا في صقلية بالمسير الى طرابلس كما ينادى الآن موسوليني بالمسير إليها لأجل استعمارها فسار إليها أناس كثير من الافرنج واستولوا على بلاد الساحل كلها وضربوا على أهلها الجزية وصار لهم من طرابلس الى قرب تونس ولم يزالوا الى أن استنقذ تلك البلاد كلها منهم عبد المؤمن بن على سلطان دولة الموحدين وكان ذلك سنة ٥٥٥ إذ نقض يحيى بن مطروح طاعة الافرنج واستنصر عبد المؤمن بن على الذى طرد الافرنج من المهديّة بعد حصار شديد

ثم إن الافرنج رجعوا فغزوا طرابلس بعد ذلك بمائتي سنة . وكان فيها أمير اسمه ثابت بن محمد فجاءها الجنوية سنة ٧٥٥ وكانوا جمعاً غفيراً فغزلوا بالبلدة أولاً كأنهم آتون للتجارة ثم بيتوها ذات ليلة وصعدوا الأسوار وملكوها على الأهالي وهتف هاتفهم بالحرب ولبسوا السلاح فاستيقظ الأهالي من مضاجعهم فرأوا بلدتهم بيد الافرنج فلم يكن منهم إلا النجاة بأنفسهم فاستباحها الافرنج ونهبوها ثم داخلهم أبو العباس أحد بن مكى صاحب قانس في فدائها فاشترطوا عليه خمسين الف مثقال من الذهب العين بجمعها الأهالي من قابس والحامة وبلاد الجريد ودفعوها الى النصارى وأخرجوهم من طرابلس وبقيت أيضاً نحواً من مائة وخمسين سنة خالية من الافرنج . ثم غزاها الاسبانيول سنة ٩١٦ وكان أهلها قد استناموا الى الدعة وأهملوا الدفاع عن بلدتهم فلما جاء الافرنج لم يكن منهم إلا الفرار وتبى الاسبانيول فيها الى زمان بنى عثمان فأرسل أهالي طرابلس وقد آتت سنة ٩٢٦ الى الاستانة العلية يستمدون السلطان سليمان القانونى رحمه الله لأجل إخراج الاسبانيول من طرابلس وكان الوفد الطرابلسى قد سهلوا الأمر على السلطان فأرسل معهم رجلاً اسمه مراد آغا ومعه قليل من الجند فغزل مراد آغا فى قرية تاجوره على اثني عشر ميلاً شرقى طرابلس وحاصر طرابلس فعجز عن فتحها بتلك القوة القليلة ثم كان أهالي نابولى وحنوة غزوا المهديّة واستولوا على جزيرة جربة فأرسل السلطان سليمان أساطيله فأوقفوا بهم وطردوهم ثم فى سنة ٩٥٨ قدم طرغود بك أمير البحر الى طرابلس فى مائة وعشرين سفينة وحاصرها وفتحها وجاء مراد آغا من تاجوره وتولى الأمر فيها وبعد ذلك رجع طرغود بك الى الاستانة ثم فى سنة ٩٦٢ جاء طرغود بك بالأساطيل ونازل وهران وأخرج الاسبانيول منها ثم نازل بنزرت وأخرجهم أيضاً منها ثم غزا ميورقه وكورسكه ورجع الى الاستانة بغنائم وافرة

عرب طرابلس

(خاتمة : كنت رغبت الى حضرة الوجيه الأخ الفاضل السيد عبد الستار الباسل أحد كبار قبيلة الرماح بالفيوم ومن سراً بر مصر أن يكتب لي خلاصة عن عرب طرابلس لأن صاحب البيت أدري بما فيه فأرسل لي بالخلاصة التالية ثبتها حرفياً) :-
في القرن الخامس من الهجرة رحلت قبيلة هلال من جزيرة العرب الى مصر . ورحل معها بطن من سليم خوولته في بني هلال . أقاما في مصر ما أقاما ثم رحلا الى افريقية وكانت اذ ذاك تابعة لخلافة الفاطميين في مصر

سبب الرحيل الى افريقيا

كان في تونس عامل للفاطميين يدعى ابن باديس نفع طاعة الفاطميين وخطب للخليفة العباسي ببغداد ورفع شعار العباسيين على دور الحكومة . كلفت حكومة مصر هاتين القبيلتين بالذهاب الى افريقية ومحاربة ابن بارس وفعلا رحلا الى تلك الجهة وحاربا ابن باديس ونصرائه من البربر وكانت زعامة قبائل البربر اذ ذاك في زناته . انتصرت هاتان القبيلتان على ابن باديس ومن معه وفتحنا البلاد وأرسلنا الى مصر بنحبر هذا الفتح . ولبدأوهما لم يطمعا في الحكم ولا في الملك . بل سلما البلاد للفاطميين واكتفتا بأن تعيشا في الصحراء كما كانتا تعيشان من قبل . ثم اقتسما الصحارى والمراعى بينهما فأخذت سليم صحراء طرابلس وأخذت هلال صحراء تونس . في هذه القسمة غن على سليم لأن صحراء تونس أخصب من صحراء طرابلس . والسبب في ذلك أن سليم أقلية وهلال كثير ون لأن سليم لم يرحل من جزيرة العرب كلها كما رحلت هلال بل رحل بطن واحد منها وهو الذي خوولته في هلال أما باقي سليم فبعضها في الجزيرة الى الآن وبعضها في السودان المصري وهو ما يسمونه الآن (بعرب بقارة سليم)

سليم طرابلس

تقسم سليم في طرابلس الى نخدين كبيرين . الكعوب وأبو الليل . أما الكعوب فهم ما يسكنون بين قصر سرت شرقا وحدود تونس غربا وتشمل الكعوب قبائل «المحاميد»

« وترهونه » و « أولاد سليمان » و « الرضفة » وقبائل أخرى صغيرة بعضها سكن مدن السواحل وبعضها اندمج في هذه القبائل الكبيرة

أما أبو الليل فهؤلاء المسمون الآن بالسعدى نسبة الى امرأة تدعى سعدى من قبائل زناته بنت عظيم من عظمائهم أخذت في حرب ابن باديس وتزوج بها زعيم سليم اذ ذاك (أبو الليل) وهؤلاء كانوا يسكنون بين قصر « سرت » غرباً وعقبة العلوم شرقاً .

يقسم أولاد سعدى هذه الى ثلاث قبائل (١) براغيث (٢) عقافرة (٣) سلالة

١ - السلالة أو بنى سلام يكونون الآن ثلاث قبائل جميعها تسكن مصر وهم (١)

الطنادى (٢) بنى عون (٣) الجيالية

٢ - العقافرة أو بنى عفار . يكونون الآن أولاد على وهم جميعاً بمصر . والحرايى

وهذه القبيلة يتكون منها خمس قبائل وهي البراعصة والعبيدات والدرسة والحاسة وأولاد فايد وهؤلاء فريق منهم في مصر وفريق في طرابلس

٣ - البراغيث وهم يكونون (١) الفوائد وهذه جميعها بمصر (٢) الرماح (قبيلتنا)

وهذه غالبيتها بمصر وقليل منهم في طرابلس (٣) الجبارنه أو أولاد جبريل وهم ثلاث قبائل

(١) العواقير وجميعها بطرابلس (٢) الجوازي وجميعها بمصر (٣) المغاربة وجميعهم

بطرابلس

٤ - العبيد وجميعهم بطرابلس

٥ - العرفاء أو أولاد عريف وكلهم بطرابلس

هذه هي قبائل سليم التي سكنت طرابلس وأول مجيئ بعض هذه القبائل الى مصر

في أواخر القرن الثاني عشر من الهجرة وأول من جاء منهم بنو سلام ثم بعدهم جاءت قبيلة

أولاد على من العقافرة . ثم في أوائل القرن الثالث عشر جاءت بعض القبائل الأخرى وكان

ذلك بسبب حروب وقعت بينهم وبين اخوانهم الذين بقوا في طرابلس الى حرب الطليان

هذا ياسيدي الأمير مختصر تاريخ هذه القبائل بعضها أخذته من ابن خلدون وصبح

الأعشى . أما بعد القرن التاسع من الهجرة فهي روايات تتناقضها الآباء أخذتها

من الشيوخ نقلها عن شيوخ قبلهم مدعمة ببعض أشعارهم وأغانيتهم

السوسية

الشيخ سيدي

سبق ذكر بحمل الدعوة الوهابية ، وانها اصلاح ديني واثابة الى عقيدة السلف الصالح لولا ما أصابها من الغلو والافراط . أما السوسية^(١) فهي طريقة عمل بالسنة والشريعة بدون شرط ولا قصور . مؤسسها سيدي محمد بن علي السوسى الخطابي من عيون أعيان القرن الثالث عشر للهجرة ، أصله من الجزائر من قبيلة مجاهر من جهات مستغام ، جده سيدي عبد الله بن خطاب المجاهري . واطلعت لهم على نسب ينتهي الى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما ويقال ان عدد أبناء هذا الحى يبلغ ٧٠ ألف نسمة وانه ينتمى اليهم وينضوى حولهم نحو ٢٠٠ ألف أكثرهم في (عمالة) و (حران) بجوار نهر شلف . وقرأت أن رئيس هذه القبيلة اليوم هو سيدي أحمد الشارف بن تلوك^(٢) وان سيدي أحمد الشارف هو شيخ الطريقة السوسية بالقطر الجزائري . والذي أعلمه أن الحكومة الفرنسية في المغرب لا تسمح بنشر الطريقة السوسية التي تعدها خطراً عظيماً على الاستعمار ، وأنها تسمح لسائر الطرق مع المراقبة اللازمة لها لكنها لا تقبل صرفاً ولا عدلاً من جهة السوسية التي تعلم من قوتها ومن مقدرتها العملية ما تعلم .

أما سيدي محمد بن علي السوسى فقد كان عالماً عاملاً ، كبيراً مجتهداً ، خرج من الجزائر عند ما احتلها الفرنسيين . وطاف بالبلدان وحج البيت الحرام ولقى كبار الأشياخ من جلتهم والد الادريسي القائم بعسير . ويظهر أنه رأى القطر الطرابلسي أكثر استعداداً من غيره لقبول دعوته فابتدأ بتأسيس طريقته في طرابلس وعاونته على ذلك سيدي أبو القاسم العيساوي والد الشيخين الاجلين سيدي أحمد العيساوي شيخ زاوية السوسى بينغازى ، وصديقنا سيدي عبد العزيز العيساوي الذي أوفده السادة السوسية ثلاث مرات الى الاستانة فيما يعرض لهم من الأشغال لدى الدولة ، آخرها في أثناء الحرب العامة . وقد

(١) راجع صفحة ٣٠٠ من الجزء الاول

(٢) ولا أعلم درجة قرباه من صديقي سيدي محمد الشارف ابن عم السادة السوسية وشيخ احدي زوايا دفنا من جهة العلوم

وفق الاستاذ السنوسى الأعظم الى نشر طريقته في أكثر بقماع طرابلس وبرقة ، ولا سيما برقة فان أهلها في الحواضر وقبائلها البادية بأجمعهم سنوسية مجاهدون وفي كل بلدة زاوية وعندك قبيلة زاوية . واذا تعددت أنفاذ القبيلة فلكل نخذ منها زاوية ، وكذلك زوايا السنوسى ممتدة الى مصر ، فلم زوايا عظيمة في سيوة والواحات الفواخل الى الفيوم ؛ وزواياهم متسلسلة مطردة من بنغازى الى اسكندرية وعندهم نحو ١٢ زاوية في نفس الحجاز لها تبع كثير من قبائل حرب وغيرها وزواياهم كثيرة في السودان وانما أشهر زواياهم زاوية جغبوب على مسافة يومين أو ثلاثة من الحدود المصرية الى الغرب وهى بلدة تامة في عظمها واتساعها وعدد سكانها . وكانت جغبوب واحة مألوفة يأوى اليها الدمار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العيث في أنحائها فلما اختارها سيدى محمد بن على السنوسى مقراً له وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد امان ، ومركز عبادة ومشرق أنوار ومعلم هداية فغرس بها الأشجار ، ونسق الجنان واستنبط العيون ، وتوسع في البناء ، وأسس مدرسة لتخريج مریدی الطريقة ، أجلس للتدريس فيها جملة العلماء . وكان مركزه بادئ ذي بدء في الزاوية البيضاء من الجبل الأخضر على مقربة من شحات ، وهى قرية مبنية على خربة « سيرنا » عاصمة برقة أو « سيرنا بيك » فيها بقايا آثار من ايام يونان ومن قبلهم ومن بعدهم ، وموقع سيرنا هذه أوشحات على جبل عال مشرف اشرفاً قائماً على علو ثلاثمائة الى اربعمائة متر ومن حذاء هذا الجبل الى البحر مسافة ساعتين وهناك مرسى اسمه سوسة ولا مبالغة اذا قيل ان هذا الموقع هو من أبدع ما خلق الله في أرضه ، لمحّة منظر ، وحسن هواء ، وطيب نجعة ، لاسيما وفي أعلاه مغارة تنبجس منها عين فياضة بياه كذوب اللجين ، تنحدر من هناك في مثل شلال الى أسفل الجبل حيث نسق البساتين والغياض ، وأما الزاوية البيضاء فليست في شحات بل في هذه زاوية أخرى لقبيلة الحاسة^(١) يديرها سيدى محمد الدردق ولكن الزاوية البيضاء على مسافة ساعة من شحات الى الجنوب مبنية في وسط غابة من غلب الجبل الاخضر على مسافة خمس دقائق من مقام سيدى رافع الانصارى أحد الصحابة الذين فتحوا تلك البلاد ، وقد كان سيدى محمد السنوسى بناها وجعلها مقره ، وقد رأيتها رأى العين في اثناء جهادى

(١) التي ينسب اليها عقيلة الحامى الشهير في مرج ابن عامر من ديار فلسطين

بتلك الديار سنة ١٩١١ وبت مرة بتلك الزاوية فاذا هي عبارة عن مدرسة تحيط بصحنها
 الغرف لاقامة الطلبة وفيها جامع حسن ، وهي اليوم زاوية قبيلة البراعصة المشهورة بالنجاعة
 والنجدة ، وعهدى بمشيخة البراعصة ورناسة هذه الزاوية لسيدى محمد العلمى الغمارى من
 ذرية سيدى عبدالسلام بن مئيش المدفون فى جهات طنجة من المغرب الأقصى ولكن هذه
 الزاوية فقدت كثيراً من رونقها بعد تحول السوسى عنها الى جفبوب ، ويقولون انه كان
 قد شعر بدنو استيلاء الاجانب على تلك الديار فاختر الايفال الى الجنوب والاقامة بالصحراء
 فعمر زاوية جفبوب وتوفى بها رضى الله عنه وله فيها ضريح يزوره السوسية من جميع
 الديار ، وولده بالزاوية البيضاء سيدى المهدي والد سيدى ادريس أمير برقة الخالى وسيدى
 الشريف والد سيدى أحد الشريف نزيل الأناضول عند كتابة هذه السطور وامام الطريقة
 السوسية كلها ، ولقد استخلف السوسى واده المهدي وأنبا بأنه سيكون له شأن عظيم .
 وصدقت فراسته فيه فانه أكمل عمل والده ، وبنى زوايا عديدة ، وذاع ذكره فى الأقطار
 وحسبت له دول الاستعمار حساباً كبيراً وحاولت أن تتقرب اليه بأنواع الوسائل ، وأصناف
 اللطاف ، فأعرض عن كل هذه المداخلات ، وعكف على عمله الذى هو بث الدعوة وإيقاظ
 الأمة ، وتأسيس الزوايا وربط الأهالى بها ، حتى هال أمره السلطان عبد الحميد فأراد أن
 يكتشف حقيقته ويستطلع طلع حاله ، فأرسل اليه بعمره فى جفبوب وفداً كان فيه صديق
 المرحوم صادق بك المؤيد من آل العظم فى دمشق وأحد حجاب السلطان ، فحدثني رحمه الله
 عن تلك الرحلة وعمما لقوه فى جفبوب وان السيد السوسى لم يكن الاداعياً مرشداً ، وانه
 دائماً يدعو الله بتأييد الدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية ثم ان سيدى المهدي السوسى
 تحول من جفبوب الى الكفرة ، وهذه هى واحة كبيرة تسكنها قبيلة اسمها زوية فى وسط
 الصحراء تبعد مسافة ٢٥ يوماً عن بنغازى الى الجنوب ، يمر السائر اليها فى طريقه على بلدتى
 جالو وأوجلة اللتين هما فى أول الصحراء على مسيرة ثمانية أيام من بنغازى فاختلفت الأقوال فى
 أسباب ترك السيد السوسى مركزه الذى فيه قبة المقدس والده ، والمدرسة التى شادها مبعثاً
 لأشعة أنوار الشريعة والطريقة ، واختياره الأنواء فى الكفرة بمكانها من البعد عن
 العمران ، فقال بعضهم انه لما استقرت قدم الانكليز بمصر أجفل السوسى ووضع نصب
 عينيه الايفال فى الصحراء ، واتسجاج واحة نكون أقصى من جفبوب مكاناً وأعز منالاً ،

وقال آخرون بل السنوسى منذ زمن مديد كان يتكهن بوقوع الحرب مع النابوليتان (الطليان) وان هؤلاء لابد في يوم من الايام ان يفردوا طرابلس وبرقة، فنشرع بهي اتباع طريقته للقاومة، ويعلم فضائل الجهاد، مما ظهر اثره في حرب ايطاليا سنة ١٩١١ ظهوراً أدهش الشرق والغرب، وأثبت أن الطريقة السنوسية هي عبارة عن دولة بل كئبر من الدول لا تلك ما تملكه الطريقة السنوسية من الوسائل الحربية وذلك بكونها طريقة عملية لا تعرف سوى العمل بالكتاب والسنة والافتداء بسلف هذه الامة، ومن جملة ما فكر فيه أن يجعل مركزه بعيداً ما أمكن عن مطارح انظار الدول الاستعمارية ليحلولة الجو في تجهيز قومه وبث دعوته، فانتبه هذا المكان القصي من الصحراء في النقطة الوسطى بين ساحل البحر المتوسط والسودان. وقال آخرون بل ساءت له معاملة بعض مأموري الأتراك في التحرى والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية في الجبل الأخضر وشاع أن الدولة أخذت تشبه في أمره، وتتوجس خيفة ادعائه الخلافة فقصد أن يعتزلها الى الصحراء الكبرى، ولعل هذه الاسباب جميعها متوفرة في قضية تحوله الى الكفرة يضاف اليها انه من الكفرة كان يقصد القرب من السودان وبث دعوته في تلك الاقطار ونشر الاسلام في أواسط افريقية من طريق واداي، وبرنو، وكام، واداموا، والداهومي، وغيرها من أواسط افريقية وغربها مما كان ولا شك فيه للسنوسية اليد الطولى، فضلا عن كون اقامته بواحة الكفرة سببت عمران تلك الواحة وازدياد الفراس والفلاحة فيها وترقية عقول أهلها، فبنى فيها زاوية عظيمة سماها التاج وجعلها مقراً وبنى في أماكن أخرى من تلك الواحة، وفي واح قريبة منها زوايا أيضاً وأسس مثلها في واحات الوجنقات التي تقع وراء دارفور الى الشمال، وأخرى في واحه ونّ وواحة فرور وزاوية في عين كلك التي وقعت فيها الحرب بين السنوسية والفرنسيس الذين قصدوها من واداي، وزوايا عديدة عمرها واحات الصحراء الكبرى وآس بها وحشتها، ونضر غبرتها، وأيقظ غفلتها، وشغل أفكار الدول الاستعمارية من كل جهة، فانكثرة تحسب حسابه من جهة السودان المصري، وفرنسا من جهة واداي ومستعمراتها في أواسط افريقية وشمالها وغربها. وانطالبا **بإثبات** ثلاث اليه لعلها تنال سدوته فيما كانت تنويه من القارة على طرابلس. ولم **يحل الأمر** من كون السلطان عبد الحميد الذي كان لا يهدأ له بال قد أراد أيضاً معرفة مقاصد

السوسية من انبثاق ذلك المحل القاصي . فبلغني أنه أوفد إليه مرة ثانية المرحوم صادق بك المؤيد الى نفس الكفرة فأخذ منه الجواب بأنه لا يقصد سوى خدمة الاسلام ، وأبث الدعوة لطاعة السلطان . هذا ولم يزل سيدي المهدي السوسية يبث طريقته ويكمل أهيبته ، الى أن مضى الى ربه منذ نحو ٢٠ سنة خلفه سيدي احمد الشريف ابن أخيه الذي اشتهر أثناء الحرب الطرابلسية وقام فيها المقام المحمود الذي لم يقمه أحد ، ولولاه لم يمكن انور ولا غيره من أبطال الدفاع عن برطرابلس أن يعملوا شيئاً ، واتصل جهاده من الحرب الطرابلسية الى ما بعدها فلم تتعدله نار الى الحرب العامة ، الى ان دخل الانكليز والطيالان في المفاوضات مع ابن عمه سيدي ادريس ابن سيدي المهدي واقنعوه بالاتفاق معهم على أن يكون هو أميراً على داخل برقة ويكون الحكم للطيالان في مدينتي بنغازي ودرنه ، ويكون لهم احتلال بعض المراسي فالتعد الاتفاق على شروط معلومة كانت خلاصتها ما تقدم . ولما رأى سيدي احمد الشريف ذلك وكان الونام بين أبناء البيت السوسية من القواعد المقدسة لم يستحسن في باطنه خطة ابن عمه واسكنه لم يشأ أن يجاذبه الحبل وصبر على المرء ، وأرسل الى المرحوم انور ناظر الحربية يومئذ وذلك سنة ١٩١٨ يطلب منه ارسال غواصة لنقله الى الاستانة فاستقبلها بحاشيته الى ترينته ومنها ركب قطار الحديد الى فينا ومنها جاء الى الاستانة واستقبله أهلها استقبالاً فائقاً ، وأعظم السلطان محمد وحيد الدين قدومه وصادف ذلك بداية جلوس السلطان على عرش آل عثمان ، فاختار السيد المشار اليه لتقليده السيف في الحفلة المعتادة لذلك في جامع أبي أيوب الانصاري في الخليج وهو الذي يسميه الاتراك جامع سلطان أيوب . ولما دخل الخلفاء الاستانة أقام ببروسة ثم لما احتلتها اليونان تحوّل منها الى قونية ثم ذهب الى حدود العراق العربي داعياً الى الوحدة الاسلامية . ولم أحصل الى هذا اليوم على شرف معرفته شخصياً وان كنت امتاً اليه بصدافة أكيدة وكانت المراسلة بيننا متصلة منذ سنين عديدة . أيدته الله وأبقاه ونفع هذه الأمة على يده

بعد تحرير ما تقدم بشأن السادة السوسية ، أسف القدر ، وفي الدهر ، بعد أن غدر ، بتحقيق الامنية التي طالما كنت اتناها ، وادراك الغاية التي كنت من سنين عديدة اتوخاها ، وهي مشاهدة الحضرة السوسية ، واجتلاء تلك الأنوار الأنسية ، بعد ان حال بيننا وبينها طول السفر وتواعد الاقطار ، واحتلال الاعداء بعد الحرب الكونية أكثر

الديار . فلما كنت في معسكر الجبل الاخضر ، بعين منصور في ظاهر درنة سنة ١٩١٢ كان الاستاذ الأكبر سيدي أحمد الشريف بنجل سيدي محمد الشريف ، بنجل سيدي محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية وخليفة عمه سيدي محمد المهدي رضي الله عنهم جميعاً ، لا يزال في واحة الكفرة الواقعة في وسط الصحراء على مسافة ٣٥ يوماً الى الجنوب من مدينة بني غازي ، ترد منه الافادات والأوامر الى الادوار المرابطة في وجه الطليان (١) وهو بعد في زاوية التاج مركز السادة السنوسية ، ثم تقدم السيد من واحة الكفرة الى واحة الجغبوب ، ليكون أقرب الى ميدان الحرب ، ولتشتد به عزائم المجاهدين . فكان في ذلك الوقت قد وافق سفر هذا العاجز من الجبل الاخضر ، قاصداً الاستانة لهذا كره رجال الوزارة الجديدة وهي وزارة مختار باشا وكامل باشا وحين حلني باشا ، في أمر طرابلس وثني عزيمهم عن التساهل فيها مع الطليان كما كان شائعاً . فلم يقسم لي القدر في تلك الآونة ملاقة الاستاذ السنوسي المشار اليه ، وبقيت العلاقات فيما بيننا بالمراسلة ، الى أن شبت الحرب الكبرى ، فانقطعت قليلاً ثم استؤنفت ببرد الغواصات التي كان المرحوم الشهيد أنور ينفذها الى سواحل طرابلس .

ولما قدم السيد الى الاستانة العلية بالغواصة سنة ١٩١٨ صادف وجودي بألمانية مهمة التايف بين العثمانيين والألمان ، فيما شجر بينهم في بلاد القافقاس . فلما وصل السيد الى العاصمة لم يكن انتهى شغلي في برلين ، وما انتهى شغلي هناك الا وقد طلب البلغار الهدنة وبدأ الانهيار في أجرف ألمانية وحلفائها . فأبرق الى أنور برقية رقية بواسطة سفارة الدولة ببرلين يترجاني سرعة الاوبة . فذهبت قاصداً الاستانة من طريق رومانية ، وركبت الباخرة من مرسى برايل على الطونة ، ومنها الى ميناء كوستنجه ، حيث تلقت الباخرة أمراً بعدم دخول البوسفور والانصياع الى اودسا . فذهبت مكرهاً وضاق صدري جداً بهذا التأخير ، والمسافر عليل دواؤه الوصول . ولكن قد يمون الخير فيما كره الانسان ، « ولو اطلعت على الغيب لاخترتم الواقع » . اذ لو أكلت الباخرة الثقة الى الاستانة ، لم يلبث الحلفاء

(١) أهالي طرابلس الغرب يسمون المسكر دوراً ، وأصل هذه التسمية - والله أعلم - أن قبائل العرب تأتي الى الحرب بالناوبة ، كل قبيلة تفرض عليها خدمة كذا من الأيام أو من الاسابيع ، أو من الاشهر ، فتقوم بها أو ترسل عدداً معيناً يقوم بها ، ثم تذهب الى مناجمها ويأتي الى محلها غيرها ، وهكذا بالتعاقب حتى أن تكون نوبتها ثانية ، وهم جرا ، فسمى المسكر الذي تخيم به تلك القبائل دوراً

أن قبضوا على مع رفاقي ، وغربوني الى ماطة . فكان في نكوص الباخرة عن الكمال الجري الى دارالسعادة ، وذهابها الى اودسا ، وملاقاتي ثمة المرحومين الاستاذ الشيخ عبدالعزيز جاويش والاستاذ الشيخ صالح التونسي ، والاستاذ الشيخ خضر حسين التونسي ، ورفاقهم من مصريين وتوانسة ، وما علمته منهم من انسلال انور وطلعت وغيرهما من الاستانة ، ما غير وجهتي واعادني مغرباً بعد أن كنت مشرفاً ، مما سبق تحريره في موضع آخر .

قلهدا لم يتيسر لي وقتئذ لقاء سيدي احمد الشريف . وبقيت أ كاتبه من اوربا الى الاستانة ، ثم الى الاناضول . فلما يسر الله الاجتماع في هذه الايام الاخيرة ، حدثني هو بنفسه عن أمور كثيرة وحوادث جرت معه ، آثرت أن اخصها لقراء هذا الكتاب ، لكوني سمعتها من فمه ، وأحسن التاريخ ما أخذته الانسان من فم صاحبه ، وأروى الروايات ما استفاه المؤرخ من رأس نبعه .

ذكر لي السيد ، حفظه الله ، خلاصة رحلته من طرابلس الى الاستانة ، الى الأناضول ، الى أن حصل في مرسين التي يقيم بها اليوم . وذلك أن انور كان أنفذ أخاه نوري أثناء الحرب الكونية الى طرابلس الغرب قائداً عاماً ، وعززه ببعض ضباط وأسلحة ونفود ، وأمره بافتتاح السادة السوسية بمهادنة الطليان ، ومهاجة الانكليز في مصر ، حال كون سيدي احمد الشريف اعتقد عكس هذه السياسة ، وهو مهادنة الانكليز ومطاردة الطليان . فشرع نوري يغادي سيدي احمد ويراوحه في أمر الزحف صوب مصر ، والسيد ثابت في رفضه . حتى وقع الخلاف بينهما . وليس من المظنون أن يكون انور أمل فتح مصر بتلك القوة الضئيلة ، وانما يقبل انها كانت سياسة المانية ، المقصود منها تحميل انكلترا خسائر جديدة ، وتحويل جانب من قوتها الى جهة السوسية ، اذ كل ما يتحول من قوة الانكليز نحو الأقسام الاسلامية كان يخف عن الألمان . حتى ان كثيراً من أركان الحرب يذهبون الى أن حلة الترة نفسها لم تكن على أمل كبير بافتتاح الديار المصرية ، وانما كان هدف الألمان منها تحويل جانب كبير من قوة انكلترا لحماية الترة ، التي هي مجرى نفس هذه الدولة . أما سيدي احمد الشريف ، فلم يكن يعتقد بصواب الهجوم على مصر ، أولاً : لأنه كان يريد حصر قوة العرب في مجاهدة الطليان ، وعدم الاشتغال بغيرهم . ثانياً : انه كان يخشى فيما لو هاجم مصر ، أن يقع الفشل في صفوفه ، لما كان يعلمه من عظمة الاستعدادات

الانكليزية . فاذا فشلت حملته على مصر ، فترت عزائم العرب ، وضعف فألم . ثالثاً : انه كان يهيمه بقاء الطريق مفتوحة بين مصر والجليل الأخضر ، خوفاً على العرب من الجوع ، ويعلم أنه لو هاجم مصرأ لسد الانكليز طريق مصر ، ووقع العرب في حيص بيص . وكان الجنرال ماكسويل الانكليزي يصانع السيد كثيراً ، ويراسله دائماً ، ويتحفه ببعض الكتب ، ويتزلف اليه بكل الوسائل ، اتقاء غارة من جهة السنوسية على مصر ، كما أن السيد كان يصانع الجنرال ماكسويل ، ويؤمنه من جهة السنوسية ، ويستخدمه في قضاء أغراضه ، وكان يستصنع في مصر ألبسة لتواير الجيش السنوسي ، وغير ذلك من لوازمه ، ولا يجد من جهة الانكليز حرجاً . فكل من الفريقين كان في الواقع يتقي الآخر ، ووقعت في يد السيد أسرى انكليز ، نجوا الى بر طرابلس من بارجة انكسرت عند ماطلة ، فقيدوا من ساحل طرابلس الى السيد وهو في السوم ، فألبسهم وأكرمهم وبعضهم هدية الى الجنرال ماكسويل . وكان هذا ينفذ اليه من وقت الى آخر بعض كبارضباطه ، ممن يعرفون سياسة العرب ، ويعرض على السيد مخالفة انكلترة ، ويطمعه في مقام كثيرة ، بشرط أن السيد يطرد نوري أخا أنور من السوم ، ويترك الأتراك . فكان السيد يصم أذنه عن هذه الاقتراحات ، ولا يعد الجنرال ماكسويل الا بالمسألة حسب . ولكن أنور كان يصدر الأمر تلو الأمر الى أخيه ، بأن يتحرض بالانكليز ، ويستقبح زناد الحرب بينهم وبين السنوسية . ويكتب الى السيد ملحاً عليه بشد عضد نوري ، وأنه لا يقبل له عذراً في التباطؤ . ولما تلكأ السيد عن غزو مصر وقع الخلاف بينه وبين نوري ، وشرع نوري يتحكك بالانكليز ، بدون معرفة السيد ، ويضرب بالقناير سفائنهم التجارية ، التي كانت تأتي بالبضاعة والأرزاق الى السوم . فاغتاظ السيد من عمله ، وبين له سوء مغبة ذلك ، فلم يأبه لكلامه وبقى على عمله ، بل كتب الى أخيه في الاستانة بأن سيدي أحمد الشريف لا يريد معاداة الانكليز ، بل انه ممالى لهم سرأ ، وغير ذلك من الأقاويل . ثم أرسل نوري سعاة الى مصر يقولون ان السيد يأبى الزحف الى مصر مداراة للانكليز ، مع انه هو حضر من الاستانة لأجل اعداد حملة على مصر ، واتقاذها من أيدي الانكليز . فصارت تتوارد من مصر الرسل الى السيد ، تعاتبه على موقفه هذا ، وتبين له ما يحتاج المصريين بحقه من الظنون ، بسبب تخلفه عن الزحف . عند ذلك استدعى السيد نوري وقال له : هوذا أنا

حاضر لاسير ، فلانقدر أن تقول ان العائق كان مني ، وانما اذا فشلت هذه الحيلة فلاأ كون أناالمسؤول . وركب السيد وسار بالجيش ، ومعه نوري قائداً أول ، وجعفر العسكري قائداً ثانياً^(١) وكان عدد كل ماجعوه من الجند أربعة آلاف . ولما أحس الانكليز بالحركة أخلوا منطقة السلام ثم بقى ، وانكفأوا الى الورا . ولكنهم بعنوا الى السيد ونوري انكم إن تجاوزتم سيدي براني الى الشرق ، فليس بيننا وبينكم الاالحرب . فتجاوز العرب سيدي براني ، ومازلوا حتى خيموا بزاوية أم الرخم غربي مرسى مطروح . وليلة ما كانوا هناك جاء أميرالاي انكليزي يحسن العربية متزيياً بزى بدوي متجسماً فدخل على نوري وأركان حربه ، فلم يعرفوا حقيقة أمره ، ونظر في القوة التي معه ، فرآها ضئيلة ، وفي جوف الليل انسل من الخيم ، فأخبر قومه بالواقع . فكانت انكفارة جهزت ثلاثين الف مقاتل ، ومعها عدد كبير من المدافع ، وفيها كثير من كواكب الفرسان ، فصمدت الى القوة التي مع نوري ، فلم تقف هذه لها ، وتراجع المجاهدون الى الورا واحتشد منهم ألفان في محل يقال له بئر تونس ، فطمع الانكليز في أسرهم ، وساقوا عليهم ١٣ الف مقاتل ، فأرادوا أن يحيطوا بهم ، فخابوا ، ونار في وجههم العرب ودحروهم وألحقوا بهم خسارة جمة . وكان السيد أحمد الشريف بنفسه في هذه المعركة . فلما ارتد الانكليز الى الورا ، رجع بمجاهديه هؤلاء الى السلام . وأما الانكليز فقصدوا الباقي من القوة التي تحت قيادة نوري فهزموها ، وأخذوا جعفر العسكري أسيراً ، وأفلت نوري من أيديهم بأعجوبة . ثم سار السيد الى سيوه ، وتقدم الى الواحات الدواخل على مسيرة سبعة أيام من سيوه نحو الفيوم . فجهز الانكليز قوة عظيمة لقتاله ، فاضطر أن يرجع أدراجه الى سيوه ، فتعقبوه الى سيوه ، فدافع عن نفسه في سيوه دفاعاً شديداً ، ودحروهم وخرب عدداً من دباباتهم المصفحة والطراپلسيون يسمونها بالكهربات - جمع كهربا ، لكونها تدير بالقوة الكهربائية - وبعد أن ارتد الانكليز الى الورا أجاز السيد من سيوه الى الجغبوب ، وهي مسيرة ثلاثة أيام وتحصن بها . وكان الانكليز بعد أن قطعوا الأمل من سيدي أحمد ، شرعوا في مخاطبة ابن عمه سيدي ادريس ابن سيدي المهدي في الصلح ، والاعتراف بامارته على بركة ، والجبل الأخضر بشرط أن يطرد نوري ومن معه من الأتراك ، ويشير الى ابن عمه سيدي أحمد الشريف بالخروج

(١) هو جعفر باشا العسكري رئيس وزراء بغداد بالأمس ومن أعضاء الوزارة اليوم وهو من أعز أجباء الانكليز

من تلك المنطقة ، وأبلغوه أنه ان بقي سيدي أحمد في الجغبوب فانهم يهاجون الجغبوب ويستولون عليها . فإرسل سيدي ادريس بالخبر الى سيدي أحمد ، ففارق الجغبوب مغتداً السير الى جالو ، وواجهه ، وهي مسيرة ١٢ يوماً من الجغبوب ، في صحراء يباب تياء ، لاعشب ولاماء ، وصادف رحيلهم جارة فيظ فكادوا يهلكون من العطش ، ولم يتوقف السيد أحمد في جالو وواجهه اتقاء الخلاف مع ابن عمه سيدي ادريس ، وهو أحرص الناس على الوفاق بين السنوسية ، لاسيما بيت الرئاسة ، الذي هو القدوة بلجميعهم . فقصد السيد الغرب ، ونزل بسوكته من برطرابلس ومعه ثلاثة آلاف مقاتل . واعصوب حوله السنوسيون الذين بتلك الديار ، مثل بني سيف النصر وغيرهم ، أما سيدي ادريس فلما رأى الضيق الذي وقع فيه العرب بين الانكليز من جهة ، والطلبيان من جهة أخرى . والمحصنة التي أصابتهم على أثر سد العارق ، بين الجبل الأخضر ومصر ، جنح الى الصلح ، وعقد مع ايطالية وانكلترا الاتفاق الذي اعترفنا له فيه بامارة برقة والجبل الأخضر ، وتقلد بموجبه ادارة أمورها ، ماعداً مدينتي بنغازي ودرنة ، وتعهدت ايطاليا بدفع الرواتب لجنوده . وهو الاتفاق الذي نقضته ايطاليا ، بعد حكم وزارة الفاشيستي مباشرة ، وحدثت من بعده الحرب ولما كان شرط هذا الصلح الأصلي هو اخراج نوري والآراك من هناك ، خرج هؤلاء من برقة الى الغرب لاحقين بمصرطة . وكان استبدت بأمر مصرطة رجل أصله من غمار الناس اسمه رمضان شنيوى ، ساد بشجاعته وحزمه ومضائه ، وكان في خدمة ايطاليا أولاً ، ثم انقلب عليها ، واستخلص من يدها مصرطة وما جاورها ، بعد الواقعة الشهيرة المسماة بالقرضائية ، التي انهزم بها الطليان شر هزيمة سنة ١٩١٥ ، وكان مبدأها بين الطليان والسنوسية . فالطلبيان استنفروا لمعاونتهم رمضان شنيوى وقومه ، فزحف بيضة آلاف من رجاله ، فلما وجد السنوسية وهم الف وخسمائة مقاتل قد وقفوا في وجه ١٢ الف مقاتل من الطليان ، وأذاقوهم مر الكفاح ، هجم هو على الطليان من الورا ، وهم على غير انتظار ، فلم ينج من ذلك الجيش الايطالى كله سوى خمسمائة شارد فروا الى جهة البحر ، وغنم العرب جميع أنقال ذلك الجيش . واسترجع العرب بعد هذه الواقعة جميع برطرابلس ، سوى مدينة طرابلس المحمية بالبورارج الحربية ، واستمر ذلك من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٣ ، اذ جهزت وزارة الفاشيستي جيشاً جراراً استرجع مصرطه ، وسلاته ، وترهونه ، وغريان ،

وغيرها . ثم كمر العرب عليها وأخذوها ، ثم زحف الظليان ثانية واسترجعوها ، والأحوال بين الفريقين لا تزال مدمية وجزراً . وقد مثل دوراً عظيماً في هذه الوقائع رمضان شتوي هذا الملقب بالسواحلي ، وجهاد في الظليان حق الجهاد ، ولكنه كان صعب المقادة ، أشوس ، مر العداوة ، وكان يناصر السوسية العداة . فلما قدم عليه نوري مغتاضاً بما فعله سيدي ادريس ، تلقاه برأ ورحيباً ، وعزز به مركزه ، بما كان يرد على نوري من نظارة الحربية بالاستانة من الأموال والاعتناء ، وعلت كلمته بانتسابه الى الدولة ، وقبوله نوري قائداً ووالياً ، وان كانت في الحقيقة الكلمة بقيت لرمضان في الأمر والنهي . وقد وفق الله طرابلس في أمر ، وهو أنه كان الاستاذ عبدالرحمن عزام ، من آل عزام بالجيزة ، ومن شبان مصر الناهضين^(١) ذوى الحصافة والتجربة ، يجمع حنكة الشيوخ الى حاسة الشبان ، قد التحق بمجاهدى السلم يوم زحفوا لقتال الانكليز ، شهد الوقائع ثم غرب مع نوري الى طرابلس ، ولما دخل نوري مصراته ، كان عبد الرحمن يده اليمنى ، فعرف كيف يأخذ رمضان بالحسي ، وابن بقدر الامكان من شدته ، وأصلح بينه وبين أهالي ترهونه ، وزايطن ، واورفاه ، وغيرها ، وشكلوا حكومات متحالفة ، مركزها مصراته ، وعلى رأسها نوري باشا . وكان القائم بأعبائها عبدالرحمن عزام المؤمناً اليه . ثم لما استدعى أتور أخاه نوري الى الاستانة ، وولاه قيادة جيش القافقاس ، استصحب معه الى الاستانة الأستاذ عبد الرحمن عزام ، وقال لى نوري مرة هذه الجلبة ، واستدللت منها على عقله وانصافه : « لولا هذا الشاب ، ما كان يمكننى أن أوفق في طرابلس » .

ثم لما أرسلت الدولة الأمير عثمان فؤاد ، ابن الأمير صلاح الدين ، ابن السلطان مراد ، ابن السلطان عبد المجيد خان ، الى طرابلس أميراً وقائداً عاماً عليها ، مكان نوري باشا أرسلت معه عبد الرحمن عزام المصرى مستشاراً ومديراً ، فلما انتهت الحرب الكبرى وانقضت المشاركة ومن جلة شروطها اخلاء الأتراك لطرابلس ، صدرت الارادة السلطانية الى الأمير عثمان فؤاد بترك تلك البلاد . فذهب الى تونس ، وسلم نفسه الى الفرنسيين ، وهؤلاء سلموه الى الظليان الذين أخرجوا عنه . ولكن بقيت الحكومة الوطنية في طرابلس على ما كانت عليه ، وهى حكومة حلقية ، مركزها مصراته ، وعبدالرحمن عزام هو الذى يدير

(١) وهو من أعضاء مجلس النواب المصري في عهد الوزارة الوفدية

أمورها ، ويرتق فتوقها ، ويؤلف بين الجهات المتنافرة ، حتى ينسني لهم بالاتحاد حفظ استقلالهم . الا أن شرة رمضان السواحلي ، كانت غالبية عليه ، فقصده مرة قتال اورفله ، فمغلط أهل اورفله في وجهه الآبار ، وأنشبهه في معاطش هلك فيها أكثر رجاله ، وقيد فيها أسيراً . ولما أرادوا احضاره الى عبد النبي بلخير زعيم اورفله ، قال هذا لقومه : « لاندعوه يصل الى خوفاً من أن يغلبني الحياء فأستحييه » . ففهموا منه انه يرجع قتله فقتلوه ، وبعد رمضان المذكور جعل الطرابلسيون رئيساً على حكومتهم الوطنية الخلفية أحد بك المريضة وهو زعيم ترهونه ، وظل رئيساً مقبها بمسكر المجاهدين جنوبي البلاد التي استرجعها الطليان .

ثم نعود الى سيدي أحمد الشريف . فنقول انه لما فارق برقة ، تفادياً للخلاف مع ابن عمه الذي صار أميراً على برقة ، غرب الى سوكنه كما سبق فأرسل اليه رمضان السواحلي قوة تقائله ، عليها ضباط من الترك ممن كانوا مع نوري باشا أخي أنور . فالسيد هزم القوة التي جاءت تقائله ، وقتل في تلك الواقعة الضباط المدعورين توفيق . ولكن اشتت الأزيمة بالسيد لانقطاع المدد عنه من كل الجهات ، فالانكليز أصبحوا أعداءه وضبطوا أملاكه ، وزواياه ، في سيوه والواحات الدواخل ، وذلك لانقياده الى الأتراك ومسيره مع نوري لمهاجرة مصر . والأتراك تركوه أيضاً ، لانحياز نوري باشا الى رمضان السواحلي في مصراته ، واعتصامه به ، وهذا كان عدواً للسوسية . فوصل الأمر بالسيد وعساكره التي كانت نحو ثلاثة آلاف ، أن أخذوا يقتاتون الحشائش ، وأن مات منهم خلق كثير جوعاً ، وهو صابر على هذه البلية صبر الكرام ، والازمة تزداد به وبأجناده يوماً فيوماً ، وهو لا يقدر أن يعود الى الجغبوب ، خوفاً من الخصام مع ابن عمه ، وانقاء التحرش بالانكليز . ولا يقدر أن يدخل مصراته والبلاد التي حولها ، لكون رمضان السواحلي وغيره من أعداء السوسية له بالمرصاد . قال لي السيد من فقه : « بلغ في الضيق من هذه الحالة ، وأنا أرى رجالى امام عيني يموت جوعاً ، أن وصلت الى درجة اليأس ، وقررت في نفسي الصلح مع الانكليز مستخيراً لئله ، وفي تلك الليلة رأيت فيما يرى النائم ، استاذي سيدي أحمد الربيعي يقول لي : قد عرف الاخوان مرادك ، فلم يرضوا لك بما عزمتم عليه ، فارجع الى ما كنت عليه واستأنف العمل ، فلما استيقظت من النوم أفلعت عن تلك الفكرة وحررت الى

أنور كتاباً ، بعثت به ضمن كتاب الى نوري قائلاً له : احذر أن تؤخر ارسال كتابي الى أخيك . فأرسل بالكتاب الى الاستانة ، وجاءني من انور الجواب .

وكان السيد قبل ذلك ، بعث الى ، انا محرر هذه السطور ، بكتاب يشكولى به من معاملة نوري ، أيام كانا في السلم ، ويبدى لى شيئاً من التعتب على انور ، ولكن لم تقع له فرصة لارساله ، وبقى محتفظاً بذلك الكتاب الى أن جاء الى الاستانة العلية ، واتيته الحرب ، وشرعت أرساله من اوربا الى مكانه . بروسه ، فأرسل الى ذلك الكتاب بعينه ، بعد فوات وقته ، كأنه يريد أن يطلعنى على تلك للمجربات الماضية ، ولولا كون هذا الرقيم فى أوراقى التى تركتها فى أوربا ، لسكنت أكلت هذه القصة بنشره . ومن الغريب ، انى مع كون هذا الكتاب من السيد لم يصلنى يومئذ ، فقدقت تجاه السيد بما لم أكن لا عمل زيادة عليه فيما لووصلنى كتابه انكنت بدأت انم من معية انور رائحة الوحشة من سيدى احمد الشريف ، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة « التشكيلات » التابعة للحربية يلغزون السيد ، ويعزون اليه امورا ، كنت على يقين انها بهتان محض . مثل كونه يريد الخلافة لنفسه ، ومثل أنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك . وكان انور دعانى مرة للافطار معه فى رمضان فقلت له : « ان بعض بطاتك بدأوا يغمزون السيد احمد الشريف ويشيعون عنه أراجيف يصعب تصديقها ، وهذا الأمر يحس جانبك أنت ، ولا ينحصر فى السوسية ، لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة . فان ظهر بعد ذلك انهم خائنون ، لا سمح الله ، فتسكون أنت الملووم ، ويستدل الناس بذلك على كونك فائل الراى . وان كان عندك شىء راهن بحفهم ، فصرح لى به لنعلم درجة الخبر من الصحة » . قال لى انور رحمه الله :

« حاشا ، ما يقتر أحد أن يتهم سيدى أحمد الشريف بانغيابة ولكن الانكليز كانوا يخذعونهم أحيانا » . قلت له : « ان سيدى أحمد الشريف لم ينخدع للانكليز ، وانما كان يصانعهم كما يصانعونه ، وما نلكا عن محاربتهم الا خشية الفشل ، إذ كان يعلم أن القوة التى لديه غير كافية للدخول الى مصر ، أفلا ترى كيف أن الانكليز بمجرد زحف الأربعة الآلاف مجاهد الى مرسى مطروح ، رموهم بثلاثين ألف مقاتل ، وبالمدافع ، والطائرات ، والذبابات ، ولولا اطف الله بهم لوقعوا جميعاً أسرى وأخوك من الجلة ... » قال لى انور :

« أنا أعطيتهم أوامر بأن يتجنبوا المعارك الفاصلة » . فقلت له : « ياسبحان الله انت

عسكري صنعتك الحرب وأدرى منى بهذه الامور، أفاذا هاجم الانسان من هو أقوى منه مراراً، أفيبقى له الاختيار في الكرك والفر؟» واتيته هذه المحاوره باقتناع أنور، وتركه مؤاخذه السيد. ثم أخذت منه الاذن لسيدى عبد العزيز العيساوى، الذى كان معتمداً للسادة السنوسية في استانبول، وهو من الفضلاء الاجلاء، أن يواجهه في نظارة الحربية، بعد أن بقي محجوباً عنه عدة أشهر، ثم أن يعود الى وطنه بالغواصة. فأذن له وأعادته معززاً مكرماً، وكتبت معه كتاباً الى السيد. وما مضت مدة حتى جاء مكتوب السيد الى أنور، حسباً تقدم. فأنفذ أنور يوسف بك شتوان بالغواصة، فتلاق مع السيد وتفرر بجي السيد الى الاستانة بالغواصة، فركب من مرسى العقيلة من ساحل سرت، فأصدأ بحر الادرياتيك.

قال لى السيد: « قبل ركوبى الغواصة، تحدثت مع الضباط الألمان الذين فيها، وسألتهم عن خطر ركوبها فقالوا لى: لا يخلو الأمر من الخطر، ولكننى ما باليت بذلك لأننى كنت رأيت أستاذى سيدى احمد الربى في المنام فقال لى: الشئ الفلانى ستأخذه من « بولا » فى اليوم التالى سألت الضباط هل يوجد محل اسمه بولا ؟ فقالوا لى: « نعم ان المرسى الذى سنزل فيه من بلاد النمسا اسمه « بولا » فاعتقدت أننا بالغوهذا المكان ، بحول الله وقوته » قال لى: « وقد عرضت لنا اهللكة ثلاث مرات ، ونحن فى البحر : أول مرة صادفنا بوارج للعدو ففصنا تحت الماء ، ورأيت مراكب العدو يعنى ، بواسطة مرآة يرى الانسان بها من تحت البحر ما هو فوق البحر، ومازلنا متوارين عنهم حتى مضوا . ومرة ثانية أصاب الآلة المحركة تعطيل ، فكنت أرى ضباط الغواصة يجهثون ويذهبون ، وهم فى حيرة عظيمة ، فلم يخبرونى بالحقيقة الا بعد أن أصلحوا الآلة . ومرة ثالثة نام قيم الآلة ، فصادمت الغواصة صخراً وكادت تفرق ، ولكن كنا على مقربة من « بولا » وقد فصل سيدى أحمد الشريف من مرسى العقيلة بساحل سرت فى ٧ ذى القعدة سنة ١٣٣٦ ، ووصل الى « بولا » من ساحل النمسا فى بحر الادرياتيك بعد أسبوع من ركوبه وسافر من « بولا » الى فينا ومعه حاشيته ، ويوسف بك شتوان . ولما حصل فى فينا أرسل الإمبراطور يبنى مشاهدة السيد ، فأجلب شتوان معتذراً عن امكان هذه الملاقاة قبل أن يذهب السيد الى الاستانة ويقابل السلطان . ولكن هذه

الجواب وقع بدون اطلاع السيد ، ولما اطلع عليه فيما بعد لم يستحسنه اذ رأى أنه كان يليق بمقابلة الامبراطور في عاصمته لا سيما أنه طلب ذلك . ثم سافروا الى الاستانة ، فاستقبل في محطة « سرکه جی » بزيد الاجلال والاكرام ، وكان أنور باشا في المحطة بنفسه . وأقبل علماء الترك عليه ، وهنأوه بالقوم ، وتبركوا بمعرفته . وأتته الدولة بسرأي « طوب قبو » مقر السلاطين القديم . وصادف وقتئذ الاحتفال بتقليد السلطان محمد السادس السيف ، في مسجد أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، الذي يقول له الأتراك : « سلطان أيوب » . وكانت العادة أن الذي يقبل السلطان السيف عند جلوسه ، هو الشهي شيخ الطريقة المولوية . وسلافة مولانا جلال الدين الرومي ، قدس الله سره . فاختار السلطان السابق محمد السادس ، الاستاذ السنوسي لتقليده سيف السلطنة في ذلك المحفل المشهود ، وأنعم عليه برتبة الوزارة السامية ، وبالنشان المرصع ، واحتفى به كثيراً ، هو وولي العهد الأمير عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خان ، الذي تولى الخلافة بدون سلطنة بعد ائتمار الأتراك على اليونان ، وخروج محمد السادس من دار السعادة . ثم خلعت الجمهورية التركية أخيراً وأقصته هو وجميع آل عثمان عن المملكة ، والسلطنة وأسقطتهم من التبعية التركية .

وكانت الحرب أوشكت أن تنتهي ، وأيقن الأتراك أن الدائرة ستدور عليهم وعلى الألمان فتكلم أنور مع السيد السنوسي ، في لزوم رجوعه بالسرعة الى طرابلس ، وقال له كلاماً يدل على كونه آماله في مسلمي افريقية صارت أكثر منها في سائر العالم الاسلامي . وصرح له أن السلطان نفسه ، يريد أن تعود الى بلدك لتقوى بك عزائم المجاهدين ، ونحن حاضرون أن نقويك بالمال والعتاد والسلاح . وقرر أنور اعطاء السيد (١٢) ألف بندقية مع عدتها ، و (١٠) مدافع و (٣٠) رشاشاً و (٢٠٠) ألف جنيه . فسأله السيد قائلاً « بلغني من بعض الضباط الطرابلسيين الذين في خدمة الدولة ، انكم تبغونني أقاتل ابن عمي سيدي ادريس ، لكونه اتفق مع الانكليز والاطليان » . فقال له أنور : « معاذ الله أن نبغي منك ذلك ، لأننا نعلم أنه لم يبق للاسلام في افريقية حصن أحسن من هذا البيت السنوسي الكريم ، وانه ان وقع لا سمح الله الشقاق في هذا البيت فسد الأمر واضمحلت القوة السنوسية التي عليها معول الاسلام في افريقية . فكن على ثقة باننا نبغي اتحادكم قبل كل شيء ، نصحاً بالاسلام وضماً باستقلاله ، وان معاونتنا لكم

أما هي محض حجة على الاسلام ، لأن تركيا من جهتها لم يبق لها أدنى أمل باسترداد طرابلس ، ولستنا لا نحب أن نرى اخواننا مسلمي افريقية تبعة للاجانب . وكان أنور كما هو مشهور عنه ، متمسكا بوحدة الاسلام ، يفار عليه في أي بقعة كانت ، ولا يفرق بين عربي وتركي وهندي الخ ، وطالما اختلف مع زملائه من أجل هذه السياسة .

وبعد أن أجمع السيد الاووية الى طرابلس ، جاء من قال له ان الغواصة ستترك في ساحل مصرطة ، وهي بيد رمضان السواحل اليوم ، فلا يجوز أن تأمن جانبه ، فأخذ السيد يفكر في كيفية النزول الى البر بحيث يظاً ساحلا لا يكون فيه عليه يد لا من الطالبان ولا من رمضان شنيوى ، واذا ذلك صارت تتابع الحوادث بسرعة البرق ، فتغيرت الوزارة ، وسقط أنور ، وندم السيد على تأخره عن السفر ، وحاول الانسلا من الاستانة الى النمسا ، حتى يركب منها الغواصة قافلا الى وطنه فلما أحس محمد السادس وحيد الدين بذلك ، أخذ يداوره عن عزيمته هذه ، ويقول له : « يعز علينا أن تفارقنا في هذه الآونة الحرجة » . والسيد يظن أنه أثناء عقد الهدنة مع تركيا شدد الخلفاء على السلطان في ملازمة السيد عن الإبحار الى طرابلس ، حتى اذا دخلوا الاستانة كان السيد في قبضة يدهم ، أما أنور فكان السيد يختلف اليه بعد سقوطه فكان يداور السيد في السفر معه الى أوروبا ويقول له : « لا يجوز أصلا بقاؤك في الاستانة والخلفاء على وشك دخولها » . وأما الصدر الأعظم ، المشير احمد عزت باشا ، فلما كان السفر بالغواصة ممسأ من بحر الادرياتيك ، أشار على السيد بالسفر خفية واللحاق ببلاده ، وبأن لا يبالي بكلام السلطان . فلما انعقدت المتاركة ، وصار السفر بالغواصة متعذرا اشار على السيد في الذهاب الى بروسة ، وكان هذا رأى وحيد الدين ايضا . فتحول السيد من الاستانة الى بروسة ، وقامت الحكومة العثمانية بكل ما يلزم له . وكان السلطان يديم السؤال عنه وكلما تعين وال لبروسه يتلقى الامر بالذهاب الى السيد قبل كل شيء ، والوقوف عند خاطره ، والمبادرة الى مرضيه . فالسيد السنوسى من أول يوم قدم فيه الى تركيا ، الى هذه الساعة ، لقي من بر الاتراك وحقاوتهم واجلاطم ، سواء من حكومة الاستانة مع تقلب وزراتها ، أو من جموعة انقره في مختلف صفحاتها ، ما لم يظراً عليه أدنى تغيير ، ولا اوجب الثبتم في قبيل ولا كثير . حتى كأن جميع الايام التي قضاه بين اظهرهم يوم واحد . فكانت الامة التركية ايناحل وكيف

ارتحل ، تهرع اليه على اختلاف الطبقات ، بدون تكلف ولا تصنع ، ولا انتظار أوامر حكومة ، بل بشعور عام أوجده فيها اتحاد الكلمة على نزاهة هذا الرجل ، وتجرده عن المآرب الشخصية ، وعزوفه عن حظوظ الدنيا وانصراف همه كله الى الذب عن بيضة الاسلام بدون غرض سوى مرضاة الله ورسوله ، وحفظ استقلال المسلمين . فكان كثير من الترك ، والكرد ، والجركس ، والارناؤوط ، يقصدون زيارته لمجرد التبرك بتقبيل يده ، والافتداء بهديه وتلقي وارداته الروحية ونفحاته القدسية ، وكثير منهم اخذوا عنه الطريقة السوسية . وكانت مدة مقامة يروسه ما يقرب من سنتين تأسست خلالها الحكومة الانقروية ، فarsل اليه رئيسها مصطفى كمال باشا يدعوه الى الانحياز الى انقرة ، شداً لعرض الاسلام ، وترجيحاً لكفة الجهاد على كفة القعود . وكانت القوى المليية التي مركزها انقرة ، هي في الحقيقة آخر ما بقي من قوة الدولة الفعلية ، فاعمل السيد الروية في هذا الامر ، فرأى ان حكومة الاستانة ، لا سيما في ايام الداماد فريد ، اصبحت كالحلس الملقى ، لا تملك ضراً ولا نفعاً ، ولا تقدر أن تدود عن حق مسلم ، فضلاً عن كون بقائه في يروسه مع دنو اليونان منها ، يعرض شخصه للوقوع في ايدي الخلفاء . فأزمع السيد التحول الى الاناضول ، واول بلدة نزل بها اسكى شهر ، حيث وافاه مصطفى كمال باشا ومعه رجهه باجمعهم ، وتلقوه برأ وتكريماً ، واحتفلوا بمقدمه احتفالاً عظيماً . ثم ان بعض الترك ، بمن لا حاجة الى بيان اسماهم ، استطاعوا رأيه في أمر الخلافة ، واراوده عليها ، وأبدوا واعادوا في اقناعه بها ، فاعتذر عن ذلك وأقهمهم ان لا سبيل الى قبوله هذا الأمر ، لاسباب عديدها . فتركوا مراجعته في هذا المشروع ، وخبروه في الإقامة بأي بلد يريد . فاختار قونية ، وأقام بها عدة أشهر . وأثناء إقامته بقونية ثارت تلك الثورة على الحكومة الانقروية ، لأسباب ليس هنا موضعها ، فبذل السيد كلمته في اخاد الثورة ، ونصح الأهالي بطاعة الحكومة المليية ، وصعد المنبر يوم الجمعة ، حث الناس على اجتناب الفتنة ، وبصرهم عواقب الشقاق بينها العدو أخذ منهم بالحناق ، وبين لهم كيف أن أنقرة هي نعال الاسلام ، وثمالة ما بقي في حوضه في هذه الأيام ، فلا يجوز لهم والحالة هذه الخروج عليها ، وتوهين قوتها ، حتى لقد عاتبه كثيرون من أهل قونية في تشييعه لأنقرة ، وغضب آخرون . ولولا احترامهم لمقامه العظيم ، ونسبه الكريم ، لمسه السوء يوم سالت السماء في أسواق قونية ،

وما زال في الوعظ والارشاد ، حتى وصلت العساكر المليية فبددت شمل الثائرين وقبضت على مئات منهم وحاكمتهم في ديوان حرب ، وصلبت كثيراً منهم ، وكادت تبطش بالشهيد شيخ المولوية وسلالة مولانا جلال الدين الرومي البكري الصديقي قدس الله سره . فكان السيد واسطة خير وشفيعاً له ولغيره . فأثقت كثيرين ولفظ مصائب كثيرة ، بحسن شهادته ولطف مواعظه ، في هذه الفتنة التي كسائر الفتن لا تصيب الدين ظلموا خاصة . ثم اتدبته الحكومة المليية للذهاب الى بلاد الأكراد ، لاخذ بعض الفتن ، واعمال نفوذه الديني في نصيحة العشائر التي كانت غير راكنة . فذهب السيد الى ديار بكر ، وأقام بها وبماردين وباورفا ، مدة وفدت فيها عليه زعماء القبائل العربية والكردية الضاربة في هاتيك الديار ، وراودوه على الإقامة بينهم ، وأظهروا له من الطاعة لأمره والانقياد لكلمته ما هو فوق الوصف ، ولكنه أبدى لهم استحالة ذلك عليه وكونه مقيداً ببلاده ، لا بد له من الرجوع الى الغرب ، وانما نصح لهم في الانفاق مع الحكومة المليية ومظاهرتها توحيداً لكلمة الاسلام واتقاء الفتنة ، التي انما يستفيد منها العدو أثناء حرب لافح لايدري ما تلد . وكان يشدد عزائم الناس ، ويحثهم على الجهاد . واحدى المرار بينما هو في ماردين ، قال : « ان هجوم الأعداء سيبدأ بهذين اليومين وسيكون نصيبهم الخذلان » فلم يمض يومان حتى ورد عليه بريقة من الغازي مصطفى كمال باشا قائلاً : « ان العدو بدأ بالهجوم نسألك الدعاء . فكان ذلك مدعاة لهشة الضباط الأتراك ، الذين سمعوا من السيد أن العدو سيهاجم بهذين اليومين ويقدوا ذلك بالورق يوم قاله لهم ، فكان الأمر طبق ما قال . وكان الغازي في بريقته طلب أيضاً من السيد قراءة البخاري الشريف تبركا واستنزالا لانصر على جيوش الاسلام ، فذهب الى المسجد الجامع بماردين ، وشرع بالقراءة ، ودلوموا عليها الى أن وردت البشائر بكون العدو ارتد خاسراً من وقعة سقاريا . ثم أقام السيد بطرسوس فراراً من برد الأناضول . وفي أناتها تم الظفر الأخير بالعدو ، وأخرج من كل أقسام تركيا ، وجاء مصطفى كمال باشا الى ولاية أظنه ، وزار السيد في منزله بطرسوس ، فبالغ السيد في الاحتفال به ، وقدم بعض هدايا نفيسة للسيدة الخاتون حليلته . وبعد ذلك ذهب الى أنقرة انتهت الحكومة بظفرها الأخير ، واستتباب الأمر وعقد الصلح ، وكانت زيارات السيد لأنقره ثلاث مرات : أولها يوم توجه الى بلاد الأكراد بطلب من الحكومة

الملية . والثانية أثناء الحرب بعد هزيمة العدو في سقاريا . والثالثة بعد نهاية الحرب وعقد الصلح . وفي هذه المرة الأخيرة كان معه عجمي باشا السعدون ، أمير المنتفق الذي لم يفارق جيش الدولة وترك وطنه العراق حياً بها ، ومداومة على مبدئه . وقد كان السيد في جميع زيارته لأنقره يلقي من الغازي ومن هيئة الحكومة جميع ما هو أهله من الاجلال والاكرام . وآخر مقامه كان بمرسين ، التي آثرها على طرسوس ، فنزل بقرية « خريستيان كوي » التي كان يسكنها الأروام قبل المهجرة ، وهي على مسافة نصف ساعة وكان كولونل ايطالى قد وافى أنقره آخر مرة من زيارته لها ، واستأذن السيد في ملاقاته ، فأذن له ، فتكلم مع السيد في حقن الدماء في طرابلس ، والاتفاق على أساس للصلح . فاجابه السيد بأنه لا يكره الصلح ، على شرط استقلال وطنه المحبتي وبعد الاخذ والرد ، أحال السيد أخذ خلاصة الاقتراحات الايطالية الى الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش . وكان السيد قبل أن رضئ بالاخذ والرد مع هذا الكولونل سأله : « أعندك تفويض من حكومتك بالدخول معي في حديث الصلح ؟ » فقال له الكولونل : « كلا . وإنما يمكنني الحصول على التفويض من اليوم الى شهر » . فقال له السيد : اذا ، بعد الحصول على الاذن من حكومتك ، تفويض بما تريد بيانه الى الاستاذ الشيخ جاويش . وأوعز السيد الى الشيخ جاويش بان يعيد عليه الجواب . فبعد مدة جاءه الشيخ بخلاصة الشروط . فوجدها السيد غير موافقة وقال للشيخ جاويش : « قل لهم لا تقبل أن تكون القوة العسكرية في أيديهم ، ولا أن تكون الشرطة منهم ، وكل ما نتسامح معهم فيه هو الامتيازات الاقتصادية ، واستثمار البلاد حقا لم دون غيرهم من الاجانب . فلما حقوق الملكية فلا تنزل عن شيء منها ، وسلاحنا لا بد أن يبقى في أيدينا ، وعلى غير هذه الشروط فلا سلام ولا كلام ، لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود به على الطليان ، بل هما ملك أهلها » . فلما عاد الشيخ الى الطليان بالجواب علموا أن لا سبيل الى الصلح ، فاداعوا في الجرائد أن خبر مفاوضاتهم للسيد السنوسي بالصلح غير صحيحة . والحال أنه قبل هذه الاذاعة بقليل ، كان ورد الى السيد الخبر من الشيخ جاويش بان الكولونل الايطالى قادم الى مرسين لمواجهة ، كما أن هذا الكولونل لما واجه السيد وشافهه بأمر الصلح في أنقره ،

أخبر السيد الغازي مصطفى كمال بما جرى فأشار عليه بالصلح ان طاب له ووافقته شروطه .
 عند ما قدمت الى الاستانة في أواخر سنة ١٩٢٣ ، وهي أول مرة دخلتها بعد الحرب
 قررت لأجل الاستجمام من عناء الاشغال وترويح النفس بعد طول النضال ان أسكن ببلد
 صغير تنهياً لى فيه العزلة ونسهد الرياضة ، ويكون دانياً من وطنى سورية لملاحظة شغلى
 الخاص ، وتعهد أملاكى فيها ، فاخترت مرسين ، والقيت مرسة غريشى فيها . وكان السيد
 السنوسى بلغه قدومى الى دار السعادة ، فكتب لى يرغب الى فى سرعة المجى . ورحب بى .
 فلما جئت الى مرسين ذهبت تورأ لزيارته ؟ فأبى الا أن انزل عنده ، ريثما اكون استأجرت
 منزلاً فى البلدة ، وقد رأيت فى هذا السيد السند بالعبان ، ما كنت اتخيله عنه بالسمع وحقى لى .
 والله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان نخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيّب الخبر
 حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

رأيت فى السيد حبرا جليلا ، وسيدا غطريفنا ، وأستاذا كبيرا ، من أنبل من
 وقع نظرى عليهم مدة حياتى ، جلالة قدر ، وسراوة حال ورجاحة عقل ، وسجاجة خلق ،
 وكرم مهزة وسرعة فهم ، وسداد رأى ، وقوة حافظه ، مع الوفاق الذى لا تغض من جانبه
 الوداعة ، والورع الشديد فى غير رثاء ولا سمعة . سمعت أنه لا يرقد فى الليل أكثر من
 ثلاث ساعات ، ويقضى سائر ليله فى العبادة والتلاوة ، والتهدج ، ورأيت مراراً تنفج بين
 يديه السفر الفاخرة اللائقة بالملوك فى كل الضيوف والحاشية ويجترى هو بطعام واحد
 لا يصيب منه الا قليلا ، وهكذا هى عادته . وله مجلس كل يوم بين صلاتى الظهر والعصر
 لتناول الشاى الأخضر الذى يؤثره المفاربة . فىأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال
 المعية ، ويتناول كل منهم ثلاثة اقداح شاى عزوجاً بالعنبر . فأما هو فيتجامى شرب الشاى
 لعدم ملائمته لصحته . وقد يتناول قدحا من النعناع . ومن عادته أنه يوقد فى مجالسه غالبا
 الطيب ، وينسبط السيد الى الحديث ، وأكثر احاديثه فى قصص رجال الله وأحوالهم ورفقاتهم
 وسير سلفه السيد محمد بن على بن السنوسى ، والسيد المهدي ، وغيرهما من الاولياء والصالحين
 واذا تكلم فى العلوم قال قولاً سديداً ، سواء فى علم الظاهر أو علم الباطن . وهو يذهب الى
 تعظيم الاولياء ، ويرى فيهم الوسائل بين الله والعبد . وينكر على القائلين أن لا وسيلة

بين الخائن والمخلوق ، بل يقول ان الانبياء ، صلوات الله عليهم ، ان هم الا وسائل الى الله . ويقول اذا وقع خلاف في مسألة بين علماء الشرع ، و بقيت غامضة ، فالدول فيها ما يقوله علماء الباطن أهل التصوف . وهو شديد الاعتقاد والافتداء باثنين : الاول عمه سيدي محمد المهدي الذي لا يرى فوق طبقته احداً الا سيد الكائنات ، عليه السلام . والثاني استاذه ومرشده سيدي احمد الريفي ، من اكابر السادة السوسية ، وأركان هذه الطريقة ، ويقول انه كان علامة بحراً في جميع العلوم . قرأ في فاس وأنقن العلوم بأسرها حتى الفلك والاسطرلاب ، والهندسة ، والرياضيات . وهو يعتمد على كلامه له ، ومن جملة ذلك أنه قبل وفاته ، رحمه الله ، بأيام قال له : أماكم جهاد طوبى ل عريض ، فينبغي لك أن تجاهد ولا تقعد ، وان الجهاد ينتهي بنصركم . وإنما لا تجعل لنفسك مركزاً معيناً تلازمه ، ولا تكن مهاجماً للنقاط المحكمة بل قف دائماً على قدم الدفاع . وإياك والصلح « فسأله السيد « اين يكون هذا الجهاد ؟ » وكان ظن انه يعني حرباً تقع بين السوسية والفرنسيس في جهة واداي ، لانه كان القتال مستمراً بين الفريقين على عين كلك . فأجاب سيدي احمد الريفي : « كلا ! هذا جهاد ضد عنوياً نيكم من جهة البحر ، وهو الطليان » . قال له : « وستأنبكم النجدة من استانبول . » فما مضى على وصاة سيدي الريفي شهران ، حتى نشبت حرب طرابلس وشهد كل ذلك . فالسيد متمسك بكلام استاذه لا يحيد عنه . وقد لحظت منه صبراً قل أن يوجد في غيره من الرجال وعزماً شديداً نلوح سبأوه على وجهه ، فبينما هو في تقواه من الإبدال : اذا هو في شجاعته من الأبطال . وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه ، ويمتطي جواده بضع عشرة ساعة على التوالي بدون كلال ، وكثيراً ما كان يفامر بنفسه ولا يقتدى بالأمرء وقواد الخيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية ، أن لا تصل اليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفي احدى المرات أوشك أن يقع في أيدي الطليان ، وشاع أنهم أخذوه اسيراً . وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لي خبرها بتفاصيله ، وهو أنه كان يبرقة فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلة من المجاهدين ، وغير بعيد عن جيش الطليان ، فسرحو اليه قوة عدة آلاف ومعها كهرباء^(١) خاصة لركو به . اذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت من أيديهم تلك المرة . فبلغه خبر زحفهم ،

وكان يمكنه أن ينجح عن اللقاء أو أن يتحرف بنفسه الى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر، أو يترك الحرب للعرب تصادمهم فلم يفعل . وقال لي « خفت اني ان طلبت النجاة بنفسى ، أصاب المجاهدين الوهل ، فدارت عليهم الدائرة ، فثبت للظليان وهم بضعة آلاف بثلاثمائة مقاتل لا غير ، واستمات العرب ، وصدموا العدو ، فلما رأى هؤلاء وفرة من وقع من القتل والجرحى ، ارتدوا على اعقابهم ، وخلصنا نحن الى جهة واقتنا فيها جوع المجاهدين . » قال لي : « وفي هذه الواقعة جرح الضابط نجيب الحوراني ، الذى كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية ، كان قائداً ولكنه كان يغامس بنفسه فى كل واقعة ، فجرح مرتين واستشهد فى الثالثة رحمه الله . ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه ، لباهر شجاعته وشديد اخلاصه . وكان السيد يكتب لى من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحيم عليه . والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلى ، من مشايخ بلاد عجلون ، ترك فى بلاد الغرب ذكراً خالداً .

والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر ، سيال القلم ، لا يمل الكتابة أصلاً . وله عدة كتب منها كتاب كبير أطلعنى عليه فى تاريخ السادة السنوسية ، وأخبار الاعيان من مرديهم والتصلين بهم ، ينوى طبعه ونشره فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين وإنما يفهم الانسان من مطالعة أخبار سيدى محمد السنوسى ، وولده سيدى المهدي ، ومحادثة سيدى أحمد الشريف ، ان طريقتهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا نكتفى بالاذكار والأوراد ، دون القيام بعزائم الاسلام ، كما كان عليه الصدر الأول . ولذلك وقفوا للجهاد ووقفوا فى وجه دولة عظيمة كدولة ايطالية ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيدة طرابلس وبرقة منذ أول شهر من غازاتها عليهما . ويذكر الناس ان الظليان قدروا لتسوية طرابلس وبرقة كليهما مدة خمسة عشر يوماً ، من أول نزولهم . وان قواداً من الانكليز المنسكين فى حروب المستعمرات والبوادي ، قالوا ان الظليان افرطوا فى التفاؤل بظنهم الاستيلاء على بر طرابلس فى ١٥ يوماً ، والحقيقة انه قد تأخذ هذه المسئلة معهم ثلاثة أشهر ... فلينظر الانسان كيف ان المدة التى قدرها أركان الحرب فى ايطالية ١٥ يوماً وقدرها أركان الحرب فى انكلترا ثلاثة أشهر ، وتناولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هى كما كانت فى بدايتها . وكل هذا بفضل السادة السنوسية ، ولا سيما هذا السيد

العظيم سيدى أحمد الشريف . وكان الاوربيون فى عهد السلطان عبد الحميد يشكون الى السلطان حركة السوسية ، ويتوجسون خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الاوربية فى افريقية ، وطالما ضغطت دول أوربا على السلطان لاجل أن يستدعى سيدى المهدي الى الاستانة ، ويأمره بالاقامة بها ، ولا يأذن له بالعودة الى وطنه ، ليخلو للاوربيين الجو فى تقسيم أواسط افريقية ، وخصد الشوكة الاسلامية فى تلك الديار . فكان السلطان يماطل هاتيك الدول ، ويعتزلهم بصنوف الاعتذار ، بل كان يلاطف السوسية كثيراً بالهدايا والكتابات ، الى ان اشتد الضغط على السلطان فى قضية السوسية ، فأرسل رجلاً اسمه عصمت بك الى بنغازى ، ومنها الى جفبوب ، بمأمورية سرية ، فبلغ المهدي ما هو عليه السلطان من الارتباك من جهة ضغط الدول عليه فى أمر الدعاية السوسية ، فاجابه السيد المهدي بحسب ما قرأت فى التاريخ الذى تقدم ذكره ، بكلام لا يتضمن نصياً ولا إيجاباً ، وإنما تلاه آيات كريمة فى معنى الاتكال على الله ولكن السيد المهدي لم يعتم بعدها ان فارق جفبوب الى واحة الكفرة ، وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة فى وسط الصحراء . والأغلب ان سبب تحوله من واحة الجفبوب ، القريبة من مصر وبرقة ، الى واحة الكفرة ، التى هى فى أواسط الصحراء الكبرى ، ثم توغله من الكفرة الى ناحية قرو التى اختاره الله فيها ، وهى على أبواب السودان هما من ارتياحه الى العزلة ، وميله الى التناهى عن مرا كز السلطة الرسمية ، والخروج من مناطق تأثير الدول الاستعمارية ، بحيث انتبهت مرا كز محاطة بالقبائى والقفار ، مأهولة باقوام لا يزالون على الفطرة ، فأصبح حراً فى بث دعوته لا تصل اليه يد بضغط ، ولا تعلو فوق كلته كلمة ، وعكف على تهذيب تلك الأقوام ، ونشأهم فى طاعة الله بعد ان كانوا يتسكنون فى مهامه الجهل فبدلت به الأرض غير الأرض ، وانقلبت به أخلاق هاتيك الأمم انقلاباً حير العقول ، ولم يقف فى الدعاية الروحية على واحات الصحراء ، واطراف السوادين ، بل بث دعائه فى أواسط افريقية فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله السنى ، والشيخ حودة المفاوى ، والسيد طاهر الدغمارى . وزجالات آخرون جاؤوا السوادين مبشرين وهادين ، فكان السيد المهدي هو الزاحم الاكبر لجمعيات المبشرين الاوربية ، المنبثة فى قارة افريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعائيه الحثيثة اهتدى للاسلام ملايين من الزنوج ، فلهدا جمعيات المبشرين باسرها

تشكو حزنها ، وبثها من نجاح الاسلام في أواسط افريقية ، مثل بلاد النيجر ، والكونغو والكامرون ، وديار بحيرة تشاد ، وتوجه أكثر شكواها الى الطريقة السنوسية ، كما طالعنا ذلك في مؤلفات أوربية عديدة : هذا من جهة القوة الروحية وأما من جهة القوة المادية ، فقد كان السيد المهدي يهدي هدى الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم ان أحكام القرآن محتاجة الى السلطان ، فكان يحث اخوانه ومريديه دائماً على الفراسة ، والرياسة ، وبيت فيهم روح الأنفة والنشاط ، ويحملهم على الطراد والجلاد ، ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غراس وعظه في مواقع كثيرة ، لا سيما في الحرب الطرابلسية التي أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى وتضارع أعظمها جبروتاً وكبراً ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هي التي كانت مظهر بطش السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيين في مملكة كاتم ومملكة واداي من السودان استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٣ هجرية ، وحدثنى السيد أحمد الشريف ان عمه المهدي كان عنده خسون بندقية خاصة به ، وكان يتعاهدها بالمشح والتنظيف بيده ، لا يرضى أن يمسه له أحد من أتباعه المعدودين بالثقات ، قصدا وعمدا ليقتدى به الناس ويحتفلوا بأمر الجهاد ، وعدته وعتاده . وكان نهار الجمعة يوماً خاصاً بالتمرينات الحربية ، من طراد ورياسة ، وما أشبه ذلك . فكان يجلس السيد في مرقب عال ، والفرسان تنقسم صفين . ويبدأ الطراد ، فلا ينتهي الا في آخر النهار . وأحياناً يضعون هدفاً ، ويأخذون بالرياسة حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المرن . وكان يجيز الذين يسبقون في الطراد أو يقرطسون في الرمي بجوائز ذات قيمة ، ترغيباً لهم في فضائل الحرب . كما أنه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالأيدي ، فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها ، ويشغفون بأنواع المهن من بناء ، ونجارة ، وحداثة ، ونساجة ، وصهافة ، وغير ذلك ، لا تجد منهم ذلك اليوم الا عاملاً بيده والسيد المهدي نفسه يعمل بيده لا يفتر حتى ينه فيهم روح النشاط للعمل . وكان السيد المهدي ، وأبوه من قبله ، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة ، والغرس تستدل على ذلك من الزوايا التي شادوها ، والجنان التي نسقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بساتين ، وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة الى بلادهم من أقاصى البلدان . وقد أدخلوا

في الكفرة وجفوب زراعات وأعراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها. وكان بعض الطلبة ياتسون من السيد محمد السنوسي أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة المخرات ». وأحياناً يقول لهم : « الكيمياء هي كد اليمين وعرق الجين ». وكان يشوق الطلبة والمريدين الى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جلاً تطيب خواطرهم ، وتزيد رغبتهم في حرفهم ، حتى لا يزدروا بها أو يظنوا أن طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيك من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم ». وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ، ويقول لهم وهو يشتغل معهم : « يظن أهل الاوريقات والسيحاح انهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا ». يريد بأهل الاوريقات العلماء وبأهل السيحاح العابدين والقانتين فكانه يريد أن يقول للاحترفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء والزهاد مقابلاً ، بمجرد كونكم صناعاً وعملة ، وكوتهم هم علماء وقراء . هذا ليزيدهم رغبةً وشوقاً ، ويعلم الناس حرمة الصناعة التي لا مدنية الا بها .

هذه الفرقة فرقة عملية لانعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير . فهي تجمع بين العمل الشرعي بخدافيه ، والتجرد الصوفي الى أقصى درجاته ، وتنظم بين الظاهر والباطن ، نظماً لم يوفق اليه غيرها . ويظهر أن مؤسس هذه الطريقة السيد محمد بن علي بن السنوسي ، ولديه السيد المهدي ، والسيد الشريف ، وكبار أعوانهم مثل سيدي أحمد الريني ، وسيدي عمران بن بركة ، وسيدي أحمد التواتي ، وسيدي عبدالرحيم بن أحمد ، وسيدي عبدالله السني ، وسيدي أبي القاسم العيساوي ، وغيرهم كانوا على أخلاق عظيمة ومدارك سامية ، تدل عليها أقوالهم وأفعالهم . حدثني سيدي أحمد الشريف أن عمه الأستاذ المهدي كان يقول له : « لا تحقرن أحداً ، لا مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا كافراً ، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك . إذ أنت لا تدري ماذا تكون خاتمة ». وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون أولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء أقطاب وأبطال ، يتجمل التاريخ بذكرهم . وواسطة عقدهم اليوم هو السيد أحمد الشريف الذي نحن في ترجمته . وقد ذرف السيد المشار اليه على الخمينين ولكن هيئته لا تدل على وصوله الى هذه السن ، لدورة الشيب في شعره ، وهو رافع المنظر ، بهي الطلعة ، عبل الجسم ، قوي

البنية ، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجله ويحترمه (١).

بقي علينا شيء لا بد من الإشارة إليه وهو ان الذين يقرأون هذه السيرة من الناشئة الجديدة يرون فيها مالا يوافق مشربهم ، من القول بالولايات والكرامات ، والاعتقاد بانكشاف ، وبما فوق الطبيعة ، مما يرونه حديثاً ماضياً ، لا يليق بالتربية العصرية التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية . وكلما يعظم في أعين هذه الناشئة رجل ينطوي على هذه العقائد ، مهما كان عظيماً . بل قصارى ما هناك أنهم يحترمونه لحسن نيته وخلص اعتقاده لا غير .

وانني أحب أن أجاب هذه الطبقة التي قد توجه مثل هذا الاتقاد الى هذا المقام بأن العالم المتمدن لا يزال حتى هذه الساعة منقسماً الى فريقين : روهي ومادي ، وأن الفريق الروحي هو أكبر جداً وأحصى عدداً من الفريق المادي ، بل يوجد في أوروبا وأميركا واليابان عدد لا يحصى من غول علماء الطبيعة ، يعتقدون بوجود العالم الروحي ، وآخرون يعترفون بأن مشكل الروح لم ينحل بعد ولا أكنه سر الروح وانصاها بالجد أحد . واذا رأينا أناساً مثل فلما ريون الفلكي الشهير وفيكتور هوغو أكبر شعراء الفرنسيين ، وسواهما من صيابة العلماء ، يعتقدون باستحضار الأرواح ويشهدون بوقوع المحاورات بينهم وبين الأموات ، وعرفنا أن جمعيات لاتعد ولا تحصى في أوروبا مؤلفة خاصة للباحث الروحية ، واثبات الحوادث التي لاتعلل الا بوجود شيء وراء المادة ، لم يحق لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العظماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية . واذا علمنا أن رجلاً مثل باستور بمكانه من العلم والاكتشافات الكيماوية التي لم يسبق اليها أحد ورجلاً مثل غلادستون في الشهرة ، وبتوقد الذهن كانوا من أشد الناس تمسكا بالدين ومن الموقنين بأن السيد المسيح اله وانسان معاً ، ظهر لنا أن الاحقاد النام أو الرفض للاعتقاد بكل ما هو خارج عن المادة ، ليس بشرط في علو درجة العقل ، ولا بدليل على التبجر في العلم . وما أوتيتم من العلم الا قليلاً .

(١) لقد كتب سعادة أمير البيان هذا الفصل من عهد بعيد وحدث في أثناء طبع الكتاب للمرة الثانية أن وافتا أخبار الجباز بوفاة السيد أحمد السنوسي في المدينة النورة في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٥١ والدمر الأول من مارس سنة ١٩٣٣ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح رياضه . الناشر ،

الجزائر والأمير عبد القادر وفرنسا

الجزائر

يس هنا محل سرد تاريخ المغرب الأوسط من أوله الى آخره ، وانما نذكر بمناسبة الامير عبد القادر الحسني الجزائري سبب استيلاء فرنسا على الجزائر ، وأوليات ذلك ومصارفه ، تمهيداً للدور الذي قام به هذا المجاهد الكبير في الديار المغربية فنقول :

لا يخفى انه عندما استولت فرنسا على الجزائر كان هذا القطر من جملة أجزاء السلطنة العثمانية التي افتتحته منذ سنة ١٥١٦ وأجلت الاسبانيول عن أكثر مدنه البحرية التي كانوا احتلوها وامتدوا الى ما وراءها . وكان القائم بهذا الفتح هو عروج الرئيس البحري التركي ، ثم أخوه خير الدين الملقب ببربروس ، أي ذى اللحية الحمراء ، الذي وصلت القوة البحرية الاسلامية في أيامه الى أوجها الأعلى بحيث أصبحت هي سيدة البحر المتوسط بلا مرء ، وتضاءلت أمامها جميع أساطيل النصرانية . وكان مركز خير الدين هو مدينة الجزائر ، وقد مد منها جناح سلطته باسم السلطان العثماني على سواحلها ودواخلها ، فصارت نهبان وما يليها ، وقسطنطينة وما يقبها ، داخلة تحت الحكم العثماني . وقد توالى بعد خير الدين الولاية من قبل الدولة على تلك البلاد يتولون أمورها على شكل ادارة داخلية مستقلة أشبه بادارة تونس ومصر . ولان هؤلاء الولاة في شغل دائم ونصب مقيم من مكافأة الدول المسيحية في البحر المتوسط ورد غاراتها المتوالية على سواحل المغرب . ولما كان أساس نزول خير الدين بهانيك الديار هو القوة البحرية فقد بقيت تلك الولاية مركز قوة بحرية عظيمة مدة ثلاثة قرون ، استفحل فيها شأنها طيلة القرن السابع عشر وأدرك أمرها الهزال والضعف في القرن الذي بعده . وكانت الدولة العثمانية تنوكت دائماً في حروبها على أسطول الجزائر ، وتجعله ردةً للأسطول العثماني في كل موقف خطير ، الى أن انقلب أسطول الجزائر من الجهاد الى اللصوص ، ومن الدفاع الشريف عن حوزة الاسلام الى الاعتداء على الناس والسبي والنهب والاسترقاق ، مما لم يزل يتهدى ولا تنجح فيه الوسائل حتى ضاق بذلك ذرع ودل النصرانية ، وآل الأمر الى تولى احداهن (فرنسا) كبر اسقاط تلك القوة واستئصالها

من شأفتها ، والاستيلاء على العرش الذي درجت منه . فقد صارت لصوينة البحر ، أو القرصنة ، في أواخر القرن السادس عشر مورد رزق وواسطة كسب لحكومة الجزائر ولأهلها وأصبح هؤلاء يؤلفون الشركات ويننون السفن ويجهزونها بالعدد اللازمة ، وينسونهما في البحر تغزو وتعيث ، فتأخذ السفن غصباً وتنهب البضائع التي فيها ، وتسطو على ركابها فتسوقهم أسارى من رجال ونساء وأطفال وتبيع بعد ذلك الأموال والأرواح في أسواق الجزائر ، فتأخذ الحكومة من ذلك نصيباً معلوماً ويتقسم الباقي على أصحاب السفن والبحرية . وإذا كان الأسير من أسرة ذات ثروة أو واجهة فنعم الغنيمة إذ كان أقارب الأسرى وحكوماتهم المتبوعة وبعض رهبانيات النصارى يفكون الأسرى بمبالغ طائلة . واستمرت هذه الحال دهرأ حتى عيل صبر الدول الأوروبية لا سيما فرنسا وانكلترة وضربتا الجزائر بالمدافع سنة ١٦٥٩ وسنة ١٦٦٤ وتكرر ذلك سنة ١٦٨٢ و١٦٨٣ ثم سنة ١٦٨٦ الى أن تمكنت دولنا انكلترة وفرنسا من صيانة سفائنها من اعتداء قرصان الجزائر وصارت تجول في البحار بدون معارض . أما الدول التي من الدرجة الثانية مثل السويد وهولندة والدانمرك ونابولي الخ فكانت مضطرة أن تدفع لحكومة الجزائر جزية سنوية تشتري بها حرية سبر سفائنها . وكانت دولة أوستريا والمجر معفاة بوصاة خاصة من الباب العالي . ومازال الأمر كذلك حتى أيام نابليون ، فانهز قرصان الجزائر فرصة الحروب التي اشتعلت يومئذ في كل أوربا وضاعفوا عيشهم في البحر المتوسط ، فارتفع العويل من كل جهة ، ولما تقرر الصلح قررت الدول في (اكس لاشابل) منع الجزائريين بتاتا من التعرض لأي سفينة ، فلم يسموا لأحد كلاماً فأطلق الانكليز مدافعهم على الجزائر انتقاماً

وفي سنة ١٨٢٧ حصلت منافرة بين حسين داي والى الجزائر ودفال فنصل فرنس بمد يده الداي الى الفنصل وضربه بالمروحة ، فحصرت فرنسا سواحل الجزائر واغتنمتها فرصة لفتح تلك البلاد ، فاحتلت الجزائر في ٥ ايلول سنة ١٨٣٠ وكان ذلك لعهد الملك كارلوس العاشر ، وكان مراد الفرنسيس في الأول الاحتفاظ ببعض المدن البحرية وتقرير نظام لادارة البلاد الداخية بالاتفاق مع الدول ، ثم انقلبت الأفكار وتألفت لجنة اسمها « اللجنة الافريقية » لهذا كره فيها اذا كان الاولى ترك الجزائر تحت شروط معلومة ، تفادياً من الكلف الباهظة التي يفتضيها فتح القطر الجزائري أو الاستمرار على سياسة الفتح والاحتلال

الى النهاية . مسألة شبيهة جداً بمسئلة سورية اليوم بين الحزب الذى يرى تركها لأهلها خوف التورط فى حروب مستقبلية اما مع العرب أو مع الترك أو مع غيرهم ؛ والحزب الذى يرى التمسك بسورية والسيطرة عليها لأجل نفوذ كلمة فرنسا فى المشرق مهما كلف ذلك من المشاق . وفى سنة ١٨٣٤ رجح رأى الاستيلاء ، وتعين حاكم عام للجزائر ، ولكن تقي الفرنسيين مترددين فى قضية الزحف الى الداخل ، وجعلوا يدخلون المدن تدريجياً ، فاستولوا على وهران ومستغانم وعنابة وبجاية . وسنة ١٨٣٦ قصدوا قسنطينة ، وكان فيها أحمد بك فهزمهم . فأعدوا حملة ثانية فى السنة التالية ففتحوها وامتدوا من هناك الى الصحراء . وفى سنة ١٨٤٤ كانوا فى بيسكرة

أما فى الجهة الغربية فان المقاومة كانت أطول أمداً ، وأصعب مراساً ؛ وذلك أن الأهالى اختاروا لهم أميراً قاتلوا تحت لوائه وهذا الأمير كان رجلاً من أعظم الرجال وهو عبد القادر بن محيى الدين الحسنى . أصل سلفهم من المغرب الأقصى ومن آل البيت فيما يقال . هاجروا من هناك الى نواحي وهران ، واشتهر منهم رجال بالورع واقتدت بهم الناس ولا سيما السيد مصطفى بن محمد الخنار ، والسيد محيى الدين والد المترجم . وكانت ولادة المترجم سنة ١٢٣٣ الموافقة لسنة ١٨٠٨ ونشأ فى مهد العلم والتقوى ، واعتنى بالتحصيل جد الاعتناء ؛ حتى تفوق بالأدب والفقه والتوحيد والحكمة العقلية ؛ وكان مع ذلك لا يهمل المناقفة بالسلاح وركوب الخيل بحيث نبغ من جهة عالم فاضلاً ، ومن جهة ثانية ثقفاً فارساً تجمع بين السيف والقلم . وفى سنة ١٨٢٧ وقعت مشاحنة بين والده السيد محيى الدين وبين حسن بك حاكم وهران التركى ، فانتهى الأمر بجلاء السيد محيى الدين عن وطنه ، فأزمع الرحلة الى المشرق وحج البيت الحرام وكان معه ولده عبد القادر . وبعد سنتين من غيابهما عادا الى وطنهما ، فكانت بعد ذلك الحرب بين آتراك الجزائر والفرنسيين فيقال ان عبد القادر منع والده من الانضمام الى حسن بك حاكم وهران فسلم الحاكم البلدة الى الفرنسيين ، ودارت رحى القتال بين الحامية الفرنسية وبين الأهالى ؛ فتولى قيادة هؤلاء السيد محيى الدين ، وظهر فى أثناء هذه الحرب من بسالة عبد القادر وإقدامه ورباطة جأشه واصالة رأيه ، ما جمع له محاب القلوب وعقد به آمال الناس . ولما أراد أهالى تلك البلاد مبايعة السيد محيى الدين أميراً عليهم ؛ اعتذر بعلو سنه ، وأشار عليهم بولده عبد القادر فى

٢١ تشرين الثاني سنة ١٨٣٢ قبوع بالامارة، وقيل بالسلطنة أولاً، فتحاشى لقبها مراعاة لسلطان فارس، واكتفى بالامارة. واصل هذه المبايعة منشور في كتاب « عقد الاجياد في الصافيات الجياد » تأليف أكبر أولاده الأمير محمد باشا.

جعل عبد القادر عاصمته مدينة المعسكر، ورتب جنوده وباشر القتال، ولم يكن قتاله قاصراً على جهاد الفرنسيين فحسب، بل اضطر ان يقاوم حيلاده ورفبائه من أهل البلاد أنفسهم، فقام بجمع ذلك أحسن قيام، حتى دانت له كل عمالة وهران تقريباً، وفي ٢٦ شباط سنة ١٨٣٤ انعقدت بينه وبين الفرنسيين المعاهدة المعروفة « بمعاهدة دميشل » التي بها تعترف فرنسا لعبد القادر بجميع العمالة الوهرانية خلا مدينة وهران وآرزواو ومستغانم وكان له الحق بموجب هذه المعاهدة ان يعين معتمدين (قناصل) في وهران والجزائر ومستغانم وغيرها، وان يستورد الاسلحة من أى جهة أراد. فعظم شأن عبد القادر وتأصل سلطانه. وصار الامر الشرعى لجميع أهالى الجهات الغربية من المغرب الاوسط. ثم مدرواق ملكه على البلاد التي لم تكن داخلية في ضمن حدوده، مثل ميدية ومليانة، ورتب فيها المسالخ بالرغم من احتجاج حاكم الجزائر العام، ولما كان الحسد والمنافسة هما أقلل أمراض المسلمين. بحيث لا تثقل عليهم سلطة الغريب كما تثقل سلطة أخيهم، ثار على الامير قبيلتنا الدوائر والزمانة وانضمنا الى فرنسا فطلب تسليم رؤسائهم اليه فأبى الجنرال « تريزل » ذلك فبرز عبد القادر الى القتال وانتصر على الفرنسيين في يوم المقطع (٢٦ تموز ١٨٣٥) فخرت فرنسا جيشاً كثيفاً استولى على عاصمته المعسكر تحت قيادة المارشال « كلوزل » وكانت بقية من الأتراك لا تزال في قلعة تلمسان ففاوضوه من الورا. فانهمزم هزيمة ثانية في حرب مع الجنرال الفرنسي « بوجو » ولكنه بقى ثابت العزم متوفر القوة. وتمكن بدهائه السياسى ان اصطالح مع الفرنسيين على شروط تضمن له أحسن ما ضمنته معاهدة (دميشل) وذلك في معاهدة « التفنة » (٣٠ ايار ١٨٣٧) التي اعترفت فرنسا له فيها بجميع عمالة وهران وقسم كبير من عمالة الجزائر. فلما انتهى الخصام بينه وبين فرنسا شرع يقوى سلطته على البلاد التي ادخلت حديثاً تحت حكمه. ورتب مسالخ في لاغوات وميجانة وزيبان وخضع له أهل هاتيك الاطراف ما عدا المرباط محمد التيجاني الذي أبى الاعتراف بامارته. فزحف عبد القادر بنفسه الى (قصر عين ماضى) وحصره وبعد

حصار خمسة أشهر افتتحة مع أنه حصن متين لم يتمكن الأتراك طول مدة حكمهم في الجزائر أن يدخلوه ثم رتب عبد القادر جيشاً منظماً على نمط جيوش الدول ، وقسمه الى مشاة وفرسان ومدفعية ، واستجاد تعليمه وتدريبه ضباطاً من الجيش التونسي ومن الجند التركي الذي بطرابلس ومن الفارين من الجيش الفرنسي . وسن لهذا الجيش نظاماً يتعلق بأكله وملبسه ورواتبه ومدة التعليم وشروط الترقية فيه ونيل الأوسمة وغير ذلك . وجعل دهايز لادخار الحبوب واناير للاقوات ومعامل للسلاح ، ورسم القلاع ، ولم يغفل عن شيء مما يلزم لتأسيس الحكومات الشرعية

ولما كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع أهالي الاقطار التي تضع نصب اعينها الاستيلاء عليها هي في الغالب محاط استراحة بين الحجة والحلة . ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير بحيث لدى توفر القوة لا تعمد عنراً في نقض تلك المعاهدات التي لم تبرمها منذ البداية الا على نية النقض ، وكانت في الواقع مصدقة لمنوله تعالى في هؤلاء « وما وجدنا لآكثرهم من عهد » شرعت فرنسا بالتعلل من جهة تفسير بعض فقرات معاهدة التفنة ، وازادت التفصي منها ، حال كون الامير يتقاضى العمل بها فنشبت الحرب بين الفريقين . لأن فرنسا كانت اعدت عدتها والامير ابت نفسه التزول عما خولنه اياه المعاهدة ، فزحف المارشال « فالى » و « الدوق دومال » من جهة ، واغارت عساكر الامير على متيجة من جهة اخرى . ونادى الامير بالجهاد وذلك في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ فاستمرت الحرب من ذلك التاريخ الى سنة ١٨٤٣ بدون انقطاع . وقام فيها الامير عبد القادر مقامه المحمود الذي طبق ذكره الآفاق . وان كان عدم تكافؤ القوتين المتقابلتين آل أخيراً الى سقوط اكثر حصونه ، واستيلاء العدو على اكثر مدنه ، مثل تاغدمت والعسكر وتازة ووادي الشليف . فانكفاً الى الغرب ، فزحف العدو الى تلمسان ونواحي ندرومة واحتلها فتحول الامير الى الجنوب وهناك ايضاً كبس (الدوق دومال) محلته (ما يسميه الأتراك بالفرار كاه) وغنم أكثرها فقت هذا الحادث في عضده وخفله أكثر أنصاره ففر الى المغرب وسعى في حل سلطان المغرب على اصلاء الفرنسيين الحرب فكانت بين جيش المغرب والجيش الفرنسي « واقعة ايسلى » (١٢ أغسطس ١٨٤٤)

ولما كان المغاربة لا يملكون من آلات القتال ما يملكه الفرنسيين اتصرت الجزائر
« بوجو » على الجيش المغربي ، وكانت بوارج فرنسا ضربت بالمدافع تغرى طنجة
ومغادور ، فضيقت فرنسا على سلطنة المغرب من البر والبحر . وأجبرت السلطان مولاي
عبد الرحمن صاحب المغرب على عقد الصلح (١٠ ايلول ١٨٤٤) بالشروط التي تريدها .
وأولها منع عبد القادر من تجاوز حدود الجزائر . فلبث هذا نحو ستين متربصاً منتظراً
غرة من العدو ليتهربها . فلما لاح له في ثورة سنة ١٨٤٦ انقض على بلاد الجزائر ثانية
وأوجت في الغارة حتى بلغ بلاد البربر المسماة عند الفرنسيين (كايلى) ، وأعاد الأمر كما
بدأ . الا أن قوة عبد القادر كانت هذه المرة قد تناقصت ، وقدم الفرنسيون في الجزائر قد
رسخت . فلم تستمر غارته وأحاطت به الجيوش من كل جهة . فأسرع الاوبة الى الحدود
المراكشية فعدت فرنسا لتفاضي مولاي عبد الرحمن تسليمه . وما زالت تلح في ذلك حتى
ساق عليه السلطان قوة عظيمة . فلما رأى نفسه بين نارين وان اخوانه المسلمين قد صاروا
عليه البأ مع الفرنسيين ، اشتد به الغضب وسلم نفسه الى الفرنسيين على يد « الجنرال
لاموريسيار » (٢٣ كانون الأول ١٨٤٧) . ووقع الاتفاق على أن يخرج بعائلته من
الجزائر ذاهباً الى الاسكندرية أو عكا

وعلى رواية أخرى وهي التي مال اليها صاحب « تاريخ الاستقصا في أخبار المغرب
الأقصى » لما ينس الأمير عبد القادر من الفوز على الفرنسيين بقوته الخاصة ، حدثته نفسه
بقلب سلطنة المغرب ، والجلوس على عرش فاس ، فأوجس السلطان عبد الرحمن خيفة من
دسائسه ، وأرسل تلك القوة لمطاردته وخضد شوكرته ، قبل أن يستعصى أمره . ولذلك
صاحب الاستقصا بعد أن أثنى أولاً على جهاده وعلاوهمته ، عاد فرماه أخيراً بسوء النية
والفساد في الأرض . وهو في كلتا الحالتين لم يلقبه بالأمير بل « بالحاج عبد القادر بن
عجي الدين »

فأخذ الأمير الى طولون حيث كان المراد تسفيره الى الشرق بحسب العهد الذي
انقعد . الا انه في تلك الايام حصلت في فرنسا ثورة سنة ١٨٤٨ وسقط الملك لويس فيليب
فاعتلت الحكومة الموقفة في اطلاق سراحه وأبقت في بلادها أسيراً الى سنة ١٨٥٢ اذ بشره
لويس نابليون بنفسه انه تقرر اخلاء سبيله . فذهب الى الاستانة ثم أقام ببرصا . وسنة ١٨٥٥

استاذن في الذهاب الى الشام بمعرفة الحكومة الفرنسية فأذنت الدولة العلية له بذلك . ولما حصلت في دمشق الحادثة المؤلة المسماة بحادثة سنة الستين . التي كان منشأها من رعاغ القوم ، اهتم الأمير عبد القادر بوقاية المسيحيين وأنقذ منهم عدداً وافراً . وان لم يكن هو المنفرد بذلك بل شاركه في هذه المرة كثير من أعيان دمشق مثل محمود أفندي حجة ، وبنى العابد ، وبنى المهابى وغيرهم ، فاستحق بهذا الفعل الجليل ثناء الجميع وجاهته الأوسمة مع عبارات الشكر من فرنسا وأكثر الدول الأوروبية . وقضى بقية حياته في مشافهة العلماء واسداء الخيرات ، وكان كل يوم يقوم الفجر ويصلى الصبح في مسجد قريب من داره في محلة العمارة . لا يتخلف عن ذلك الا لمرض . وكان يتعهد الليل ويمارس في رمضان الرياضة على طريقة الصوفية وما زال مثالا للبر والتقوى والاخلاق الفاضلة الى أن توفي رحمه الله سنة ١٨٨٣ فدفن بمقام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي في الصالحية . وترك من الولد الأمراء محمد باشا ، ومحيي الدين باشا ، والهاشمي ، وابراهيم ، وأحمد ، وعبد الله ، وعلى وعبد الرزاق ، وعبد المالك ، فالأمير محمد باشا وشقيقه محيي الدين انتقلا الى الاستانة وجعلتها الدولة في مجلس الأعيان الى ان توفيا وكان الثاني منهما شاعراً أديباً ، على الهمة ، وذهب سنة ١٨٧٠ بدون علم أبيه الى الجزائر ليرأس الثورة القبائلية التي اشتعلت يومئذ فلما بلغ الخبر أباه أعلن سخطه عليه لأن الأمير بعد أن أعطى عهده لفرنسا حافظ على قوله الى المرات واما الهاشمي فمن ولده الامير خالد الذي هو على رأس الحركة الوطنية الحاضرة في الجزائر وأما الامير عبد الله فهو في قيد الحياة بدمشق ، وأما الامير على فقد كان مبعوثاً عن الشام منذ سنة ١٩١٤ في مجلس الأمة بالاستانة ، وكان محرر هذه السطور قد انتخب عن حوران أيضاً وسفرنا يومئذ الى دار السعادة معاً ، فلما افتتح المجلس وصارت المناكرة في انتخاب الرئيس ونواب الرئيس وكانت العادة أن يكون الرئيس الاول تركيا والرئيس الثاني من أبناء العرب ، واستشارني طلعت بك حينئذ ، وكنت العضو العربي الوحيد في القلم العمومي لمجلس الامة ، وطلعت هو الرئيس ، فانفقنا على دعوة المبعوثين لانتخاب الامير على رئيساً ثانياً ، وهكذا كان ، ولما شبت الحرب العامة أرسلته الدولة الى ألمانيا حيث قابل الامبراطور غيليوم وأمضى مناشير ألق بها الطيارات الألمانية على العساكر المغربية ، تخمهم على ترك العسكر الفرنسي . والاتحاق بالامان حلفاء الدولة العلية ، فأخذ الفرنسيين حذرهم من

مفعول هذه المناشير ، وصاروا يؤخرون المغاربة الى الوراء بعد ان كانوا يضعونهم دائماً في الأمام وفوداً للنار . و بعد أن قضى الأمير على مدة في ألمانيا عاد الى الاستانة ومنها الى سورية اذ وجد أخاه الأمير عمر محبوساً مع من حبسهم جمال باشا قائد الجيوش في سورية اثناء الحرب لأوراق وجدت عليه في فصلية فرنسا ، فقتنع الى جمال في أخيه فلم يقبل شفاعته ، ونفاه هو أيضاً مع أولاده وسائر أسرة الأمير عبد القادر الى برصا ، ولم يرع حرمة جهاد والده ولا خدمة الأمير على في ألمانيا ولا قبل ذلك في حرب طرابلس الغرب ، فاشتد عليه الغم ولم يلبث ان مرض ونقل الى الاستانة وتوفي بها رحمه الله . وأما الأمير عمر فكان من جملة الاعيان المشوقين . وطالما راجعنا في أمرهم وطلبنا عنهم العفو أو تحويل جزاء القتل الى النفي فلا أمر يريد به الله أني جمال باشا الا ازهاق الانفس ، فكانت من الاغلاط الكبرى التي ذاقت الدولة العلية مرارة مغبتها وسهلت طريق الاجانب . وما أتذكره ان جمال باشا سألتني عما اذا كنت انكر مما لاثة الأمير عمر لفرنسا مع انه هو لم يقدر على الانكار . فأجبت له لست ممن ينكر ذلك ولكن أرى وجوب الصفع عنه حرمة للمرحوم والده الذي لا يخفى ماله من المسكاة في العالم الاسلامي فقال لي جمال بالتركية (بكانه) أي وماذا يجيئني من ذلك . وأما الأمير عبد الرزاق فذهب شاباً وكان نادراً في الذكاء وجمال الصورة والسيرة . وآخر أولاد الأمير عبد القادر هو الأمير عبد المالك قضى بضعة عشرة سنة مجاهداً في المغرب بين القبائل الثائرة على فرنسا وعلى اسبانية . ولم يزل في تلك الديار يتحرك نارة ويسكن أخرى الى كتابة هذه السطور

وكان المرحوم الأمير عبد القادر متضلعاً من العلم والادب ، سامى الفكر ، راسخ القدم في التصوف ، لا يكتفي به نظراً حتى يمارسه عملاً ، ولا يحن اليه شوقاً حتى يعرفه ذوقاً . وله في التصوف كتاب سماه (المواقف) فهو في هذا المشرب من الافراد الافئذاد وربما لا يوجد نظيره في المتأخرين وله كتاب آخر تمتع اسمه (ذكرى الغافل وتنبية الجاهل) في الحكمة والشريعة . وقد ذكر مؤرخو الافرنجة أن مملكته العلمية والدينية كانتا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التي أسسها وانه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه باللسان . ولم ينكروا عليه حفاظه للعهود لكنهم زعموا انه كان لا يتوقف ان يخفها فيما لورأى في ذلك مصلحته المندمجة في مصلحة الاسلام . قال في دائرة المعارف الاسلامية

الفرنسوية : « كان عادلا لكن على الطريقة الشرقية ، برأ رؤوفا ، لكن يجوز أن ينقلب سقا كاللدماء جاسياً اذا رأى ضرورة ايقاع الرعب في قلوب الاعداء »

قلنا يظهر ان الافرنج يريدون أن يحفظوا مزية خفور العهد لدى تبين المصلحة لأنفسهم دون سواهم ، وكذلك سفك الدماء لأجل القاء الرعب عند الضرورة . وحينذا لو حصروها في دائرة الضرورة ، بل اعمالهم في غاراتهم الاستعمارية ثم في الحرب العامة الاوربية قد فضحت أمورهم وأثبتت أنهم بسفكون الدماء في ضرورة وفي غير ضرورة . وليس مثلهم من يحق له أن ينتقد في هذا الباب رجلا شهد له جميع أعماله بالوفاء كالامير عبد القادر . ولنختم هذه الترجمة بشئ من شعر الامير الذي يدل على علو نفسه :

نساتلني أم البنين وانها لأعلم من تحت السماء بأحوالي

الافاسألني جنس الفرنسيين تعلمي بأن مناياهم بسبني وعسالي

ومن عادة السادات بالجيش تحتمى وبي يحتمى جبشئ وتنع أبطالي

الجزائر وقبائل البربر

للأمير شكيب

بعد أخذ الأمير عبد القادر أسيراً وانعقاد معاهدة الصلح بين فرنسا والمغرب (١٨٤٥) تحددت الحدود بين الجزائر ومراكش ، وعلت كلمة فرنسا في القطر الجزائري ، فأخذت العساكر الفرنسية تتقدم الى جهات الصحراء وتبنى فيها المخافر وتؤسس المساح وتوطئداً لقدمها في البلاد ، فنار ثائر يقال له أبو زيان في واحلت زيبان من الصحراء ، فكان نصيب ثورته الفشل فنار زعيم آخر اسمه الشريف محمد بن عبد الله فسيقت عليه العساكر الفرنسية فافتتحت مدينه لغوات وزحفت الى ورغله (١٨٥٤) وفر الشريف شريداً .

وكانت البلاد المسماة (كايلى) أى القبائلية ، اشارة الى قبائل البربر التي تسكنها ، لا تزال مستعصية على الفرنسيين شامخة بانفها ، لا تعطى المقادة ، فوالى هؤلاء عليها الزحوف بقيادة « الجنرال بوجو » و « الجنرال سانت آرنو » و « الجنرال راندون » فما زالوا يفادونها القتال ويراوحونها من سنة ١٨٤٤ الى سنة ١٨٥٧ والدماء جارية من الفريقين حتى خضعت تلك القبائل في وادى الساحل ووادى سيبار ، وانهزم أبو بغلة الذي اشتهر في تلك الحرب وبقيت قبائل الجرجورة مدة حافظة استقلالها ، الى أن أذعننت هي أيضا ولكن على شرط حفظ تشكيلاتها الادارية وعاداتها وعرفها ، فولت فرنسا على بلاد القبائل رؤساء مسلمين يراقب عليهم ضباط فرنسيس بجانبهم ، وجعلت أقلاماً عربية في تلك الادارات ، وسمحت للقبائل بالمحافظة على عاداتهم وأوضاعهم مما هو سنة الدول الاستعمارية في الأقوام التي نبلوا منها شدة البأس وصعوبة المراس ، الى أن تكونتمكنت منها بطول عهد الحكم وازالة ما بقي من أسباب المقاومة ، فتعدل حينئذ الى اجراء الأحكام الاستعمارية .

على وجهها الأكل ، ولكن الثورات في الجزائر لم تكن انتهت لذلك العهد بل كان على فرنسا أن تخمد ثورات أخرى ، كلما انطفأت نار احداها اشتعلت أخرى . ففي عام ١٨٥٩ كانت ثورتها في سلسل على حدود المغرب الأقصى ، فكلفت فرنسا حملة عسكرية .

وفي جنوبي وهران كانت ثورة أولاد سيدي الشيخ التي استمرت ثلاث سنوات متتابعة . واضطر بها الجنرال « فيمفن » الى تعقب الثوار الى وادي الجير من عمل المغرب ، ولم تكن هذه الفتنة الا سنة ١٨٦٧ . ولكن لما انكسرت فرنسا في الحرب مع المانيا سنة ١٨٧١ كانت الثورة الكبرى اذ لاحت الفرصة للجزائريين ورأوا الصيد سانحاً ، فثار المقراني قائد مييجانه ، وضافره على الحركة مرابط يقال له الشيخ الحداد مع ولده سي عزيز ومعهم أتباع الطريقة الرحمانية ، فاشتعلت الفتنة في جميع القبائل ، وامتدت الى بعض أعمال قسنطينة واتصلت ببعض عمل الجزائر ، ولكن العمالة الوهرانية في تلك الآونة بقيت ساكنة لم تشارك سائر اخواتها ، أما الثائرون فأحاطوا بجميع الحصون الفرنسية التي في بلاد القبائل وخرّبوا قرية « بالسترو » وكادوا يستولون على متيجة ، فجرت فرنسا جيوشاً جرارة عقدت عليها للاميرال « غويدون » لشهرته بالصرامة والمضاء ، فدارت رحى القتال ونشبت هناك ٣٤٠ واقعة انتهت أخيراً بسبب التفوق الفرنسي في فن الحرب ووفرة اعتادها بمحمود نار الثورة ، وسقط المقراني قتيلًا في وادي سفلات ، خلفه في الزعامة أخوه أبو مزراق ، فازال هذا يكافح حتى وقع أسيراً بحمل يقال له الرويسات في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٢ وكان ذلك ختام الثورة فاقصت فرنسا من القبائل أولاً بأن ألغت لهم استقلالهم الاداري ، ثانياً بأن اغتصبت من أراضيهم ٤٥٣ الف هكتار (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) سلمتها الى المستعمرين الفرنسيين الذين يقال لهم « الكولون » ، ثالثاً بان ضربت عليهم غرامة حربية فادحة تجعلهم دائماً رازحين تحت أوقار الديون ، ومن بعد هذه الثورة لم يحصل من مقاومات الجزائريين ما يستحق الذكر الا ثورة أبي عمامة سنة ١٨٨١ ، ومن ثمة ساد السكون في ذلك القطر وانقطع الأمل من القيام بالسيف ، لاسباب بعد أن لحق القطر التونسي ثم القطر المراكشي بالقطر الجزائري وصارت كلها مستعمرة واحدة يلقبها الفرنسيين بأفريقية الفرنسية . الا أن الحرب العامة انشأت روحاً جديدة في بر الجزائر لم تكن موجودة من قبل ، وهي ان الجزائريين قدموا لفرنسا جزراً للسيوف وقوداً للكرات النارية أكثر من ٢٠٠ الف مقاتل في الحرب العامة قتل منهم نحو ٦٢ الفا كانوا فداء لفرنسا بأرواحهم ، وكان الفرنسيين يوم نشوب الحرب العامة واحتياجهم الى بعض المستعمرات قد بالغوا في التملق للاهالي ، وتبذلوا جلود النمر بأصواف النعاج ، وطافوا

على الجزائريين يقولون انما هو وطن واحد يدافع عنه جميعا حتى اذا فزنا بما نرجوه قسمنا حقوقه بالمساواة بدون تمييز لفرنساوي عن جزائري ، ولا لمسيحي عن مسلم ، وان ادارة الجزائر بعد الحرب ستكون شكلا آخر لا يشبه شيئا مما كان الى ذلك الحين ، وان المسلمين سيتمتعون بجميع الحقوق التي تمتع بها الامم المستقلة ، الى غير ذلك من المواعيد التي كانت فرنسا وسائر دول الحلفاء توزعها جزافا على الأمم المهتزمة ، ترغيباً لها في القتال الى جانب الحلفاء ، مما يعرفه عرب آسية اكثر من سواهم ، كيف لا وهم الذين وعدهم الحلفاء بأنهم اذا انحازوا الى صفهم في الحرب العامة أعادوا لهم السلطنة العربية بخلافها ، والخلاصة مواعيد بدون حساب يبذلها أناس كانت تجول في محاجرهم دموع التماسيح وهم يقولون هلموا ايها الاقوام الى القتال في جانب الحلفاء لنصرة الحق على الباطل ، وانفروا خفاً وثقالا لمكافحة هذه الامة الالمانية الفاشمة التي تريد استعباد الامم ، حال كون مقصد الحلفاء من هذه الحرب هو رفع سلطة القوى عن الضعيف ، وابتاء كل امة قسطها من حق الاستقلال . فما زالت هذه المواعيد تبذل ، وتلك الالفاظ تتكرر وتصل ، حتى استوسق للحلفاء النصر وانتهت الحرب ، وقضى الأمر فقلب الحلفاء لتلك الامم ظهر المجن ، وتناسوا جميع تلك الوعود ، ونكثوا بعامة هانك اليهود ، وادرك اولئك الاقوام الذين بذلوا ارواحهم في سبيل نصرتهم أن هذه النصرة انما كانت عليهم لا لهم ، وانهم انما اعانوا على انفسهم ، وشاركوا في تخريب بيوتهم بايديهم . ومن جملة هذه الامم اهل الجزائر ، فثارت خواطرهم وغلت قلوبهم وتنجزوا فرنسا ما سبق من وعودها ، وذكروها بالاثنين والسنين الف قتيل الذين ذهبوا منهم في سبيلها ، فبعد اللثا والتي اعطتهم فرنسا حق الانتخاب بمعنى أن تقبل اصواتهم في الانتخابات البلدية ، وكذلك حتى الترقى في الدرجات العسكرية . بعد أن كانت لهم دائرة معينة لا يتجاوزونها مهما بلغ من نصح خدمتهم . وكذلك تساووا مع المستعمرين في الاموال الاميرية ، بعد أن كان هؤلاء يدفعون مالا والجزائريون يدفعون أمثاله عن الارض الواحدة . وكل هذه الحقوق الجديدة ليست شيئا مما كان الفرنسيين يمنونهم اياه اثناء الحرب ، وما هي الا فلك بعض حلقات من تلك السلسلة الطويلة التي هم راسفون بها منذ نحو قرن . فلذلك قاموا يناصبون الفرنسيين الحرب المعنوية التي بدأت تتجلى في الانتخابات والاجتماعات ، واخذت تمتد بينهم الحركة العسكرية النازعة الى

الاستقلال ، واتتهز حزب الشيوعيين في فرنسا فرصة القنوط والغضب اللذين استوليا عليهم ، فبنوا فيهم الدعوة الاشتراكية الشيوعية . فتلقاها كثير من عملتهم وصعاليكهم وربما من التمويل منهم ؟ لا رغبة فيها بذاتها بل فيما يصاحبها من تخفيف السلطة الحاكمة والوطأة الاستعمارية .

ولقد كان الفرنسيين يظنون ان الواسطة الوحيدة لزرع فكرة الاستقلال من رؤوس الوطنيين ، وامانة روح المقاومة ، هي ملاشاة التعليم الاسلامي ، وطمس معالم الشريعة التي يظنونها هي وحدها موقداً للحمية الاهلية ، ومنزعا للتماس من الحكم الاجنبي ، فلهذا كانت سياستهم في الجزائر من الاول الى الآخر سياسة تساهل ديني في الظاهر ، مع التحامل في الباطن ، فانهم متعوا ليس الفرنسيين فقط ، بل الايطالي والاسبانيولي ، بل اليهودي والمالطي ، بحقوق لم يسمحوا بها للجزائري المسلم . وجعلوا المسلمين هم الطبقة الدنيا في السياسة والادارة والاجتماع وكل شيء . وقصروا امتاعهم بالحقوق - التي يتمتع بها كل الخلق من سواهم - على تجنسهم بالجنسية الفرنسية ، وقبولهم القانون الفرنسي الذي يصادم الشريعة في كثير من الاحوال الشخصية ، بحيث لا يقدر المسلم ان يقبل العمل به الا بعد ان ينزل عن اسلامه . وجعلوا كثيراً من التمتع بالنعم والاعطية والمكافئات موقوفاً على النصر . ولم يرق الجنرال يوسف رتبة جنرال الاعلى هذا الشرط . ومنذ سنتين طلب أحد النواب الأحرار في البرلمان في باريس الغاء القانون الذي تمنح بموجبه في الجزائر الهبات العقارية للاوربي واليهودي والجزائري الذي يرضى أن يقتصر . وهو قانون سنه الحكومة الفرنسية منذ نحو ثلاثين سنة لا غير أي على عهد الجمهورية التي تزعم ان الاديان عندها سواء ، وقد أجب ممثل الحكومة يومئذ موافقاً على استهجان هذا القانون ، ومعلنا نية الحكومة الغاءه ، لاسيما بعد التفادي الذي تفاداه المسلمون في هذه الحرب ، ولكن است على ثقة من كونهم قرنوا القول بالفعل اذ طالما قالوا ولم يفعلوا ، ولم يجزئ الفرنسي بهذه الوسائل الرسمية لتزهد المسلمين في الاستمسك بعروة شريعتهم ، بل فسحوا المجال للبعثات الدينية ، وعضدوا « الكريدينال لا فيجري » في بث مرسلته الملقين بالمرسلين البيض ، والتقطوا كثيراً من أطفال الفقراء من المسلمين وأيتامهم ، ونشأوهم في المدارس الدينية ، وقد جعلتني الافكار في احدى مدن ايطالية بقائد الف في

الجيش الايطالى كان يرغب الى أن أرسله الى احدى الحكومات الاسلامية لاجل الخدمة فيها فساته عن سبب هذا الخين ، فأجابني انه مسلم مغربي ، وكانت سخاؤه تدل على ذلك ، فقلت له وكيف صار ضابطا في الجيش الايطالى ، فقال لى انه تربى في احدى تلك المدارس على أن يمجّد الاسلام ، ويتجنس باحدى الجنسيات الثلاث الكاثوليكية : الفرنسية ، والايطالية ، والأسبانيوية . فهو يومئذ اختار الايطالية ولكنه اليوم يبنى الرجوع الى أصله وبالجملة فانه وان كانت الحكومة الفرنسية غير دينية في بلادها الأصلية ، فهي في الخارج سائرة على قول غمبنا : « عداوة الدين ليست من بضائع التصدير » . وهذا مرجعه الى سببين أحدهما أنها تعتقد أن الدعوة الدينية قد تكون عضداً للحركة الاستعمارية ، ومن هذا الباب كان جنب فرنسا بضبع الجزويت في سورية ، مع أن الجمهورية تناصب هؤلاء العداوة في فرنسا ، والناسي أن أكثر النفوذ في المستعمرات إنما هو للقوة العسكرية ، وأكثر أمراء الجيش تجدهم من الحزب الكاثوليكي . وما لا ينبغي أن ننساه أن الفرنسيين قلبوا كثيراً من مساجد الاسلام في الجزائر ككنائس . فجامع القشاة في نفس مدينة الجزائر هدموه وبنوا محله كنيسة ، والمسجد المسمى بمسجد « ميزومورتو » حولوه كنيسة ، وكثير من الجوامع حولوها ككنائس عسكرية وانباراً ، وكان في مدينة الجزائر يوم فتحوها ١٧٦٦ مسجداً وزاوية فلم يبق منها الا ٤٨ فقط . وأما الأوقاف وما استولوا عليه منها فذلك شرحه طويل ، لا يسعه هذا المكان ، وقد نقرأ في التآليف الرسمية عن حالة الجزائر ما يخجل لك أنه وان كان لا أثر للساواة بين الأوربيين والمسلمين في الادارة ، ولا في القضاء ، ولا في الهيئة الاجتماعية ، فهناك شيء من الاعتناء بحالة المسلمين ، ومن النظر في رفاهيتهم وسعادتهم ولكن اذا سألت هؤلاء أو قرأت مؤلفات الأحرار من الفرنسيين أنفسهم ، تعلم من الحقائق ما يسوء كل ذى وجدان سليم ، وفي العام الماضي ذهب المسيو « فاليان كوتوربه » أحد النواب الشيوعيين في البرلمان ، وساح مدة طويلة في الجزائر وتونس فنشر في جريدة « الأومانيتيه » مقالات متعددة عن درجة اهتمام أولئك الاهلين لا يبقى معها أدنى مجال للكآبة . وحسبك أن ستمائة ألف ولد من أولاد الجزائريين لا يجدون مكتباً يتعلمون فيه القراءة ، من أصلهم ستة آلاف في نفس مدينة الجزائر ، فكيف يقال ان الحكومة

تعنى بهم .

وقد لجأ الفرنسيين الى وسيلة أخرى لتمكين قدم استيلائهم في المغرب ، وهو زرع الخلاف بين العرب والبربر ، واقناع البربر بكون أصلهم من سلالة أوروبية ، وان لغتهم غير عربية ، فلا ينبغي ان يتعلموا العربي . وما لا يكتمه بعضهم ان على فرنسا فصر اللغة العربية ضمن حدود معلومة ، وحل جميع من أصلهم بربر على اللغة البربرية ، وهذا يناق دعواتهم ، من كونهم انما يتوخون في الاستعمار نشر المدنية ، لأنه مما لامشاحة فيه أن البربرية لا تصلح للادنية بخلاف اللغة العربية التي تعد في الدرجة الأولى من لغات الأرض شرقاً وغرباً ، وانما هناك سبب آخر نأتيك منه بشاهد واحد :

قال « فيكتور بيكه » الفرنسي في كتابه المسعى (مراكش) Le Maroc, Par Victor Piquet الذي ظهر سنة ١٨١٨ ما ترجمته :

« ان البربر كان منهم مجوس ووثنيون ويهود ، وفي صدر النصرانية قبلوا الدين المسيحي لكنهم نسوه عند ما تمكنوا من الاستقلال . ثم دانوا بالاسلام الذي ببساطة قواعده يستميل العقل ويرسخ في جميع الأمم التي تدن به » .

ثم قال : « ان البربر أسلموا اسلاماً لا يزال مشوباً بأحوال وأوضاع خاصة بهم »

ثم قال : « ان العالم الاختصاصي في أمور البربر المسمى « دونه » الذي جال بين قبائل البربر نوه بحسب سجايا هذا الشعب البربري . وقال ان به مناط الآمال في شمال افريقية »
ثم قال : « انه شعب يظهر عليه الميل من نفسه الى المدنية الفرنسية . لذلك يجب علينا قبل كل شيء أن لا نعر به أكثر مما هو . ولأجل بلوغ هذه الغاية يجب أن يحتمل البربر على الثقافة الفرنسية ، وأن يتكلموا بالفرنساوي قبل وصول الثقافة العربية واللسان العربي اليهم . وعلى هذا الشكل يتحقق بلاريب - أكثر مما هو مظنون - خيالنا العظيم بمراكش فرنسوية » .

ثم قال في صفحة ٣٠٢ من كتابه :

« وفي النية تأسيس مكاتب فرنسوية بربرية في الجهات التي لم تستعرب من بلاد البربر . وهذا تصور حسن جداً لكننا لسوء الحظ قد تأخرنا في انفاذه . فاذا كانت بلاد القبائل من الجزائر ليس فيها الا بعض أقوام من البربر . فان قسماً عظيماً من أهل المغرب الأقصى لا يعرفون العربية أو يتكلمون باللغتين البربرية والعربية ، وليس لنا أدنى

مصلحة أن نشر بينهم اللغة العربية — لغة الجامعة الإسلامية — بل بالعكس .
ولسنا ممن يقول ان جميع المفكرين من الفرنسيين هم على هذا الرأي من مناصبة
اللغة العربية والشريعة الإسلامية بالوسائل الممكنة ، كلاً فان فئة منهم تنجح الى الحرية
النامة ، وتناضل دائماً عن حقوق الأهالي ، وتعتقد عمق تلك الوسائل الاستعمارية ، ولكن
مع الأسف لا تزال هذه الفئة هي الفئة القليلة ولا تزال الدولة لأولئك ، وأنت ترى أنه مع
كل مساعي الفرنسيين في مناصبة العربية والشريعة لم يقدرُوا أن ينعوا الحركة الوطنية التي
تتقوى يوماً فيوماً في الجزائر ، مع أن أكثر القائمين بهامهم ممن حصلوا جميع علومهم
باللغة الفرنسية .

ونود أن نلخص هنا فصلاً من كتاب « البسيكولوجيا السياسية » لفيلسوف
الفرنسي الشهير غستاف لوبون وذلك فيما يتعلق بسياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر .
قال في صفحة ٢٢٨ مايلي :

« إنني لا أتوخى هنا انتقاد الأشخاص وإنما أريد انتقاد الآراء والمبادئ التي بنفذهما
الأشخاص بقطع النظر عنهم لأنني أعلم أن الضرورات السياسية لا المبادئ والنظريات هي
التي تدير أعمال رجال السياسة . فليس على الأشخاص إذ يجب توجيه الاعتراض فان هؤلاء
مقيدون بمبادئ وأوضاع معلومة وان تغييرها في غاية الصعوبة . ومن نظر الى ظاهر الشعب
الفرنسي حسب أشد الشعوب نزوعاً للثورة ولكن الشعب الفرنسي في الحقيقة هو في
نفسه محافظ أكثر من كل شعب آخر

« الجزائر الغرب فطر مساحته كمساحة فرنسا ولكن سكانه قليلون بالنسبة الى مساحته
أرضه . وفيه خمسة ملايين من المسلمين تؤكد التقارير الرسمية أنهم مخلصون للحكومة
الفرنسية إلا أنهم برغم اخلاصهم المزعوم يحتاجون الى ستين الف عسكري لتقييمهم على
الطاعة أي إلى جيش بمثله تقريباً تخضع انكلترا ٣٥٠ مليوناً من الهنود من هؤلاء ٥٠
مليوناً من المسلمين أشد مراساً من الجزائريين^(١)

وبين هذه الخمسة الملايين من مسلحي الجزائر ثمانمائة ألف أوربي نصفهم فرنسيون

(١) غستاف لوبون عول على احصاءات قديمة والحقيقة أن عدد أهل الهند اليوم ٣٢٠ مليوناً منهم

والنصف الآخر طليان واسبانيون وغيرهم . وهؤلاء الأور بيون لا يختلطون في النسب مع المسلمين وإنما يختلطون بعضهم مع بعض بحيث يتكون منهم في المستقبل شعب قائم بذاته «أما المسلمون فنلتاهم بربر والتت عرب والفوارق بينهم قليلة أهمها انقسامهم الى حضر وبدو .

«وانتد كتب المسيو « لوروا بوايو » Leroy Beaulieu من أساتيد مدرسة «كوايج دو فرانس » كتاباً مهماً عن مسألة الجزائر هو زيادة التعبير عن الرأي السائد في فرنسا بشأن الجزائر والجزائريين وهو أنه يجب علينا « أن نفرس المسلمين » أما الكيفية التي يريدون أن يفرنسوا بها هؤلاء المسلمين فهي قريبة من طريقة الأمريكيين الأوائل في اغتصابهم أراضي الأقوام الجر في أمريكا وتركهم اياهم أحراراً أن يموتوا جوعاً

« نعم هذه هي طريقتنا الادارية في الجزائر وانظر كيف يصفها المسيو « فينيون » Vignon في كتابه الذي هو من أهم الكتب في هذا الموضوع . قال :

« لما رأت الادارة أن الولاة كانوا بعد كل ثورة يضبطون جانباً من أراضي القبائل رأيت أنه يمكن أيضاً اعتياد أحسن الأراضي وتسليمها للمستعمرين « الكولون » ودحر القبائل الى الصحراء . وكلما كان العنصر الأوربي في الجزائر ينمو كانت القبائل تخرج باقوة من أراضي آباؤها وأجدادها وتُدحر الى الصحارى حتى خرجت قبائل بأسرها من بلاد كانت هي أوطانها ومساقط رؤوسها . ولا جرم أن نتيجة هذه السياسة التي استمرت نحواً من ثلاثين سنة على وتيرة واحدة لم تكن غير المنتظر . فان العربي المدحور بدون انقطاع الذي ليس آمناً ولاساعة أن يجني ثمرة تعبته قدفرت همته وأصبح لايعتنى بحوث ولا زرع . ولو فرضنا أنه حرت وزرع فلم يكن له أن يسترجع البذر الذي زرعه في الأرض لأن القبائل كانت قد أخرجت من الأراضي الصالحة الخصيبة ودُحرت الى أراض جرداء محرومة من المياه لا تخرج مايقوم بقوت الزراع ولا ما يكفي لعلف مواشيهم . وهكذا كانت تزداد بغضاء الوطنيين للمستعمرين وتزداد الهوة الفاصلة بينهما عمقاً

«ولما قرر المجلس الاستشاري سنة ١٨٦٣ أن أصحاب الأملاك يلبثون متصرفين بالأملاك التي كانت في أيديهم لم يمنع ذلك من تتبع سياسة دحر الأهالي الى الصحراء وإنما

لجأوا فيها الى طريقة ثانية وهي تغيير الصيغة والاسم . فهي الآن تسمى « بالاستملاك لأجل المصلحة العمومية » وطريقة هذا الاستملاك تمتاز بأمرين أحدهما انها لا تجد أراضي للمستعمرين الا من أراضي المسلمين وانها تحدث دوائر استعمارية خاصة للأوروبيين لا يحق لأهالي الجزائر المسلمين أن يسكنوا فيها كذوى أملاك^(١) الثاني أن المسلم يأخذ تعويضا عن الأرض التي تُزعت من يده ٥٠ أو ٦٠ فرنكاً عن كل هكتار^(٢) فإذا كان الجزائري المسلم يملك ٣٠ أو ٤٠ هكتاراً خرج منها بألف وخمسمائة فرنك . هذا كل ما يحوزه لمعيشته طول حياته وهو مبلغ لا يقوم بأو كده أكثر من سنتين . « . اهـ

قال : « ومن أغرب الحوادث التي جرت في الجزائر ونجلى فيها استبداد الحكومة بافطع شكل الاستعمار الرسمي الذي أورد له المسيو فينيون أمثلة من أعاجيب الدهر من قبيل توزيع أراضي على أناس يعرفون من الزراعة بقدر ما يعرفون من لغة السنكريت وبناء دور لم يبق فيها الآن ديار وذهبت نفقاتها كلها سدى . ولم تفد هذه التجار برجال حكومتنا أدنى عبرة لأنه من عهد قريب كان والى الجزائر يطلب من الحكومة ٥٠ مليوناً ليتزع بها أراضي من أيدي العرب ويبنى قرى للمستعمرين مكان قرى كانت قد خربت ولكن مجلسي البرلمان والسنات لحسن الحظ رفضا هذا الاقتراح خشية أن يؤدي تنفيذه الى ثورة

« فلاعجب اذا كنا بأعمال كهذه أنفقنا على استعمار الجزائر أربعة مليارات من

خزانه فرنة فضلاً عن دخل بلاد الجزائر

« فإتانا منذ احتلنا الجزائر لم يوجد عندنا في أمرها الا رأيان أحدهما أن نطرد العرب الى الصحراء ونأخذ أراضيهم والثاني أن نفرسهم ونصغهم بصيغتنا . فأما العرب فلم ينهيا طردهم كما كان المظنون لأن الصحراء لا تنبت ما يعيش به هؤلاء وهم ملايين من النسم ولأن طردهم قولاً واحداً لا يمكن بدون مقاومة منهم . وكذلك لم يتيسر لنا أن نفرسهم كما ظننا لأن نقل أمة من عقلية نشأت عليها الى عقلية أخرى غريبة عنها شديد الامتناع

« فكل من هاتين الطريقتين مدمومة ولا مصلحة لنا بها . ولا تزال فرنة باستعمالها

(١) أي يسكنون فيها كفضة لا غير

(٢) ثلاث ليرات عن مساحة ١٠ آلاف متر مربع تقابل

نحسر وتضيق الى أن تفهم أن أمثل الطرائق هي ترك أهالي الجزائر على عاداتهم وعقائدهم وطرز معيشتهم كما هو عمل الشعوب المستعمرة كالانكليز والهولانديين في مستعمراتهم فهي أبسط الطرق وأقلها خساراً وأعلاها حكمة

«ولكن الرأي العام في فرنسا ضد هذا الأسلوب في الاستعمار . وعندنا الناس لا يعرفون أهمية الأوضاع الدينية في الشرق وان الحياة عند أتباع محمد كما عند أتباع سيوا (معبود الهنود) وأتباع بوذا (معبود الصينيين) هي كلها جارية وفق أوامر دينية . وليس عند الانكليز من يعتقد أنه لأجل حياة مبدئ يجوز أن تموت بلاد .

«فتحن كان يجب أن تكون سياستنا تعزيز الديانة الاسلامية ورجاها بدلا من مناصبتها العداة وكذلك كان يجب علينا احترام العادات والمنازع والأوضاع العربية التي هي عند هذه الأمة من الدين . فالسيو «لوروا بوليو» بسفه هذا الرأي ويقول «ان احترام منازع العرب وتقائدهم وقواعدهم يوجب خروج جيشنا ومستعمرينا من افريقية . ولعمري لم نجد تعليلا معقولا لهذه الدعوى . وهانحن أولاء نرى الانكليز يحترمون قواعد المسلمين وعقائدهم في الهند وليس في نية الانكليز أن يجلبوا عن الهند» اه

ثم يذكر غستاف لوبون رأي «لوروا بوليو» في البربر وزعمه انهم أوربيون وانه من الممكن كثيراً أن يتفرنسوا . وهو يهزأ برأيه هذا ويرد على زعم «لوروا بوليو» ان العرب كلهم رعاة وبدو ويقول ان القبيلين فيهما بدو وحضر بحسب طبيعة الأرض وان من العرب حضراً في الجزائر كما في سورية ومصر وجزيرة العرب . وان قابلية العرب للتمدن ثابتة بالحضارة الزاهرة التي كانت لهم ولم يكن مثلها للبربر

قال : «ثم يذكر «لوروا بوليو» من الأمور التي أوجبت تأخر العرب تعدد الزوجات ولا أريد الآن الخوض في هذا المبحث ولكنني أكتفي بالقول ان تعدد الزوجات الشرعي عند المسلمين أفضل من تعدد النساء بدون صورة شرعية عند الأوربيين وماينشأ عن ذلك من الولادات غير المشروعة . ولقد أعطيت هذا البحث حقه في كتابي «تاريخ مدينة العرب» وأثبت أنه في ممالك العرب تعلمت نسوة تحت الحجاب ونبغ منهن مثلما نبغ من مدارس الاناث في عصرنا»

ثم قال : « لقد تحقق الآن ان تعدد الزوجات لم يكن في يوم من الأيام سبباً في جود المسلمين . أبلزم أن ننبه قومنا الى أن العرب وأن العرب وحدهم هم الذين عرفونا بالعالم اليوناني اللاتيني وان جامعات اوربة ومن جلتها جامعة باريز بقيت مدة ستة قرون متوالية تعبس بتراجم كتب العرب وتطبيق قواعدهم العلمية . نعم لقد كانت المدينة العربية من أبهر المدنيات التي عرفها التاريخ ولقد ماتت كمات غيرها ولكن تلعيل موتها بكونه من نتائج تعدد الزوجات ليس فيه شيء من التدقيق »

ثم قال : « وقد عدت » لوروا بوليو « الثقافة اللاتينية من جملة العوامل التي يجب أن نعتمد عليها في استجلاب العرب الينا . وهذا هو الرأي السائد في فرنسا اليوم وقد كنت أنا نفسي من الغائلين به ولم أعدل عنه الا باسفار ومراقبات كثيرة . ومع اني لا أؤمل أن أهدي طريق قارئاً افرنسياً واحداً فاني أرى الموضوع أجل من أن لا اصارح فيه بكل أفكارى . ولقد خصصت الفصل الآتي من كتابي هذا بهذا المبحث وسيجد القارئ أن الثقافة الاوربية بعيدة عن اصلاح حالة الشرقيين بل هي أجدر بأن تزيدهم بؤساً في مادتهم ومعناهم . فان هذه الثقافة التي هي نتيجة احساساتنا واحتياجاتنا نحن منذ قرون وأعصر لم تكن لتطابق احساسات اقوام آخرين واحتياجاتهم فتكون نتائج تطبيق ثقافة مخالفة لأذواقهم وشواعرهم واحتياجاتهم هي تجريدهم دفعة واحدة سواء كانوا عرباً أو هنوداً أو شرقيين آخرين من أفكارهم وعقائدهم الموروثة التي عليها قائم بناء وجودهم . فان صح حل « لوروا بوليو » وأمثاله ممن يشيرون بتنشئة العرب في الثقافة الاوربية فان الجزائر تكون لنا ما كانت البندقية لاوستريا وايرلاندة لانكثرة والازراس لالمانيا

« ان مؤرخينا يندبون فقدنا الهند بعد أن كنا فتحنا جانباً منها . وأنا أقول : لا ينبغي لنا كل هذا الأسف لأنه لو بقيت لنا الهند وأخذنا نديرها كما ندير سائر مستعمراتنا الآن أي بالمبادئ والطرق التي يشربها « لوروا بوليو » لما طال الأمر حتى اشتعلت بها الفتنة وعم الخراب وخرجت من يدنا .

« ولقد طبقوا في الهند الصينية وفي السودان والنيغال هذه السياسة بعينها أي حل الأهالي الوطنيين على أوضاعنا وقوانيننا فجاءت بافبح النتائج وكرهتنا الى أولئك الأقوام

وأفقدتنا الأموال والرجال»

الى أن قال : « لقد أثبت التاريخ ان مدنيّتين مختلفتين تمام الاختلاف لاندماجنا وأنه مارؤيت الأمة المغلوبة مندجحة في الغالبه الا اذا كانتا متشابهتين من الأصل . فالشرقي يندمج في الشرقي أما في الغربي فلا . وهذا هو سر نفوذ العرب في الشرق وفي الصين وفي الهند وفي افريقيه فانهم كانوا كيفما تقلبوا طبعوا تلك الأمم بطابعهم وأعطوها صبغتهم وحيث حلت حضارة الاسلام ظهر أنها استقرت وثبتت . فهي في الهند قد غلبت على حضارات أقدم منها وهي في مصر قد عربت بلداً دخل فيه الفرس والرومان واليونان ولم يؤثروا فيها الا قليلا . وانا لنجد الاسلام يتقدم في الهند والصين وفي القارة الافريقيه وهذا برغم معاكسة المبشرين بالانجيل المنبئين في كل مكان .

« ان الاوربيين مستعمرون ماهرون بدون نزاع ولكن من بعد رومة العظمى لم يأت مدنيون بالفعل أقدر من المسلمين الذين تمكنوا من أن يحملوا أمماً كثيرة على دينهم وشريعتهم وصناعاتهم

«والاوربيون نظير الانكايذ في الهند يقرون أن يتغلبوا على شعوب شرقية هي متأخرة عنهم فاما محاولة تغيير عقلية هذه الشعوب فليست مما يتال لأن الفرق بينهم و بيننا في الأذواق والمشارب والشواعر والاحتياجات عظيم جداً لايتأتى قطع مراحلها الا بأعصر طويلة ولأن مايلزم لهم لايلزم لنا . ولقد كنت أقضى العجب من أن أرى المتأدبين الشرقيين الذين زاروا أوربة هم أقل الشرقيين افتناناً بحضارتها . وكنت أجدهم يرون دائماً الشرقي أسعد وأصلح وأقوم من الاوربي مادام لم يتصل به « انتهى ببعض اختصار

وفي الصفحة ٢٥٣ قال غسلاف لويون :

« ان الرأي الذي أنا مبديه في استحالة صبغ العرب بصفتنا واقامتهم على ثقافتنا ليس هو رأياً خاصاً بي بل تجده عند جميع الاوربيين الذين ساحوا في الجزائر واطلعوا على امورها حق الاطلاع ونظروا الى الحقائق كما هي لا كما هو الهوى . وهو أيضاً رأى الأدباء الراسخين من العرب . وافد شافهت من المسلمين عدداً لا يحصى من مراكنس الى أقصى آسية ورأيهم مجمعين على أن التربية الاوربية للمسلمين تزيدهم عداوة لاوربية وقد تكون

عداوتهم من قبل فطرة أو غير موجودة . ولقد أكد لي أرباب المعرفة من المسلمين الذين
 حدثتهم ان النتيجة الوحيدة لتعليمنا ناشتتهم هي افساد أخلاقها ، وإيجاد احتياجات لم تكن
 بضرورية لها وإيجاد روح الثورة فيها . وأنا على ثقة ان التربية الاوربية ان تمت وعمت
 في الجزائر تسمون نتيجتها صوتاً صارخاً من جميع مسلميها : «الجزائر للعرب» . وذلك كما
 ان جميع الهنود المتعلمين يصرخون بصوت واحد الهند للهنود » اه

وفي الصفحة ٣٦٣ يتكلم غستاف لوبون عن عقم مساعي المبشرين المسيحيين وكيف
 ان عدد الذين نصرّ وهم هو قليل جداً بالقياس الى الملايين والملايين التي بذلوها وان
 المنتصرين لا يكونون الا من أدنى الطبقات . ويفيض في هذا الموضوع . ثم يذكر على سبيل
 الاستشهاد الأربعة آلاف يتيم مسلم الذين رباهم الكردينال لافييجري في الديانة المسيحية
 فقد كانوا في محيط منقطعة فيه جميع علاقتهم مع المسلمين وقد تلقوا التربية المسيحية بكل
 معناها وما بلغوا الرشد حتى عادوا الى الاسلام دين آبائهم الا النادر منهم » اه

بلاد الطاغستان والشيخ شامل

الشيخ شامل

على الضفة الغربية من بحر الخزر بين ٤٣ و ٤١ من العرض الشمالى بلاد يقال لها طاغستان مساحتها نحو ٢٩٧٦٣٠ كيلو متر مربع وعدد نفوسها سبعة ألب ، أما اذا انضم اليها جميع بلاد القوقاس الشمالية فيقال ان أهلها يبلغون مليونين الى ثلاثة . وقد فتح العرب في خلافة هشام بن عبد الملك الطاغستان سنة ١٠٥ للهجرة ووطد أخوه مسلمة الحكم العربى في تلك الديار ، وكانوا يلقبونها بالدر بند ، وكانت ثغرا من ثغور العرب ومنها انتشر الاسلام في تلك الاقطار ، وكان الاهالى من قبل وثنيين ونصارى ويهوداً . وروى المؤرخون ان احد ملوك تلك الامة صاحب مملكة خيدان كان يقيم شعائر الملل الثلاث فيصلى يوم الجمعة مع المسلمين والسبت مع اليهود ، والاحد مع النصارى . وكان في تلك الاقطار عدة ملوك يلون عدة شعوب صغيرة معروفة باسم اللزقيين ، ولما اجتاحت الغول بلادهم كان أكثر هؤلاء صارا مسلمين ، ولما كانت غارة تمرانك (سنة ١٣٩٥ مسيحية) كان أشهر شعوب الطاغستان قبيلتين أحدهما القايتاق ، والآخر القومق ويقال لهم غازى قومق ، وكان حكم القايتاق الذى يلى الدر بند فى يد السلطان طوقتايش شرف الدين اليزدى ، وكان ملك القومق يسمى بالشامكال أشبه بلقب كبرى لفارس وفرعون لمصر ، وكان هؤلاء من أشد أنصار الاسلام وأحسبهم فى بث دعوته . وفى سنة ١٥٧٨ استولى على هاتيك البقاع الاتراك العثمانيون ولكن لم تطل فيها مدتهم . وأكثُر أشراف الطاغستان يدعون انهم من أصل عربى وان آباءهم قدموا مع مسلمة بن عبد الملك واحياناً يخلطون معه بأسلم ويجعلون قبره فى مدينة غنراق ويقولون انه هو بانى الجامع الأول فى بلاد القفق . وقد صادفت فى الروسية بعض أشراف الطاغستان فقالوا لى ان أصلهم من العرب يوم فتحوا الدر بند وهم يفتخرون بذلك . واشتهر من ملوك القايتاق السلطان أحمد خان المتوفى سنة ٩٩٦ هجرية أى ١٥٨٧ مسيحية وهو الذى يقال انه بنى مدينة « المجالس »

لأنه كان يجتمع فيها شيوخ الأمة ويتفاوضون في الأمور العامة . وفي سنة ١٩٤٠ انفصلت فرقة من الفياتاق وانتجعت الأراضي الواقعة جنوبي الطاغستان وأمرت عليها حسين خان ، فجعل مركز امارته ساليان وكوبا ، ومن هذا الفرع ظهر في القرن الثامن عشر فتح علي خان أمير كوبا والدر بند .

وقد طمع الروس في الاستيلاء على الطاغستان منذ أواخر القرن السادس للمسيح فلم يفلحوا وهزمهم أولاد الشامكال وأخرجوهم من بلد سولاك التي كانوا احتلوها ، ثم سنة ١٩٠٤ كروا نازية على الطاغستان وقصدوا بلدة طاركهو فلم يفوزوا بطائل

وكان الشامكال قد خضع لآل عثمان ، وتبعه أمير تابازاران ، والأمير الآخر الملقب بالعصمي ، فلما زحف الشاه عباس سلطان العجم على هذه البلاد سنة ١٩٠٦ انحاز إليه العصمي رستم خان وبقى الشامكال متمسكا بالعثمانيين الا أن رستم خان انحاز أخيراً الى هؤلاء فخالفه الشامكال الى سلطان العجم ولما ضعف أمر الدولة الصفوية في فارس ثارت أهالي الطاغستان ونبتت طاعة الفرس ، واستقل سركاى خان بامارة القومق . ثم تحالف هو والأمير الملقب بالعصمي ، والمدرس الحاج داود ، عن كان مطاعاً بين العامة واستولوا على شامكي ثم أرسلوا الى استانبول يطلبون من الدولة أن ترسل اليهم خلع الولاية وتعرفهم من رعاياها . فاحتج بطرس الأكبر صاحب الروسية بأن ثلثمائة تاجر روسي قد قتلوا يوم فتح شامكي وساق جيشاً استولى على الدر بند وسائر سواحل الخزر الغربية (١٧٢٢) الا ان نادر شاه صاحب فارس غزا هذه البلاد واسترجع أكثرها من أيدي الروس (١٧٣٥) وزحف تتر القريم التابعون للدولة العثمانية على الطاغستان في تلك الأثناء ففشلوا ؛ وبقى الحكم هناك للعجم لكن المملكة الفارسية بعد نادر شاه تضعف أمرها ، فتقلص ظلها عن الطاغستان ؛ وزحف الروس ثانية فأجتاحوا البلاد سنة ١٧٧٥ وفي سنة ١٧٨٤ خضع لهم الشامكال مرتضى علي وبعد ذلك استولوا على القوقاس ، فتمكنت قدمهم في الطاغستان ولما استولى آل قاجار^(١) على فارس أحبوا أن يستردوا حقوق فارس على الطاغستان فاشتعلت الحرب بينهم وبين الروس ولم تنته الا سنة ١٨٠٦ اذ فاز الروس بالاستيلاء على هذا القطر ، وسنة ١٨١٣ نزل لهم العجم عن كل حق لهم فيه

(١) الأسرة المالكة في إيران عند كتابة هذه السطور

ولما تخلى الترك من جهة والفرس من جهة عن الطاغستان ، عقد أمراء البلاد محالفة فيها ينهم على مناهضة الروس فاشتبك القتال بين الفريقين ، ونجسحت الروسية كلفا عظيمة الى أن تمكنت من تدوير البلاد فألفت لقب العصي من أمراء قايتاق (١٨١٩) ولقب المعصوم أمير تبازاران (١٨٢٨) وجعلت لدى الأمراء الباقين ضباطاً روسيين يأخذون على أيديهم ، فاستسلموا جميعاً للحكومة الروسية ، فنار الشعب على الروس وعلى الأمراء وتولى كبر الثورة علماءهم وشيوخ الطريقة النقشبندية المنتشرة هناك ، وكانهم سبقوا سائر المسلمين الى معرفة صكون ضررهم هو من أمرائهم الذين أكثرهم يبيعون حقوق الأمة بلقب مالك أو أمير ، وتبوء كرسي أو سرير ، ورفع علم كلاب ، ولذة فارغة ، باعطاء أوسمة ومراتب ، فناروا منذ ذلك الوقت على الأمراء وعلى الروسية حاميتهم ، وطلبوا أن تكون المعاملات وفقاً لأصول الشريعة لا للعادات القديمة الباقية من جاهلية أولئك الأقوام ، وكان زعيم تلك الحركة غزالي محمد الذي يلقبه الروس بقاضي ملا ، وكان من العلماء المتبحرين في العلوم العربية ، وله تأليف في وجوب نهد تلك العادات القديمة المخالفة للشرع اسمه « إقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان »

وفي ٢٩ تشرين الاول سنة ١٨٣٢ بعد جهاد طويل احبط بغازي محمد في قرية جيمري ، واستشهد في معصمة القتال رحمه الله ، فخلفه حزة بك الذي استشهد أيضا رحمه الله بقرب غزاق بعد ذلك بستين ، فتولى زعامة الثورة الشيخ شامل افندي المقصود بهذه الترجمة . وهو على نمط الامير عبد القادر الجزائري ، خرج من المشيخة الى الامارة ، وتناول السيف من طريق القلم . ولم يدن الشيخ شامل في سعة علم سلفيه ولكنه كان احسن منهم ادارة للامور ، وبصيرة بالحروب ، فشرعن ساق الجهاد وانف ذلك الشعب الأبى من حوله ، فنب عن حوض ملته نحو ٣٥ سنة ظفر فيها بالروس في وقائع عديدة والتي الرعب في قلوبهم . وجلاهم عن جميع البلاد الا بعض مواقع ثبتوا فيها في الناحية الجنوبية وكانت أعظم الدبرات التي والاها عليهم هي في سنتي ١٨٤٣ و ١٨٤٤ حيث افتتح جميع الحصون التي كانت لهم في الجبال وغنم منهم ٣٥ مدفعاً وأعتاداً حربية ومؤناً وافرة ، وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى ، فجردت الروسية بعظمة ملكها وسلطانها جيوشا جزارا ونادت هي بالجهاد في الطاغستان . ونظم شعراء الروس القصائد في وصف تلك الحروب ،

وما زالت توالى الزخوف حتى تمكنت من البلاد ولكن بقي الشيخ شامل عشر سنوات يناوشها القتال في الجهات الغربية من الجبال ولم يسلم هذا المجاهد العظيم للروس الا في ٩ ايلول سنة ١٨٥٩ فعهد الروس على أثر تسليمه الى اعادة سلطة الأمراء ليتمكنوا بهم من خضد شوكة العلماء الذين لم تكن المقاومة الا بهم ومنهم . ولكن لما استتب لهم الامر بواسطة هؤلاء الامراء عادوا فخلعوهم هم أيضا كما هي العادة بأن هذه الدول تبدأ اولاً باستعمال نفوذ الامير الوطني في اغراضها . وتصريفه في حاجاتها ، حتى اذا قضتها كلها رجعت اليه ونبذته نبذ الحصاة ، وذهب يقرع سن الندم على استرساله اليها واعتاده عليها ، ففي عام ١٨٦٢ استأصلت الحكومة الروسية جميع ما كان بقي من جرائم الامارة الاهلية وأزرت اولئك الامراء حتى عن كراسيهم الوهمية . وبقي الامر كذلك الى سنة ١٨٧٧ اذ نشبت الحرب بين الروسية والعثمانية فنار الطاغستانيون وافتتحوا قلعة القومق ، ورفع ابناء البيونات التي كانت مملكة من قبل اعلام الثورة ، واستعادوا لقب العصمي ، ولقب المعصوم ، ولكن لما دارت الدائرة على الدولة العثمانية في تلك الحرب ، تمكن الروس من قمع الثورة بدون عناء كبير

ولما انحلت الحكومة الروسية القيصرية ، وقامت الحكومة البولشيفيكية سنة ١٩١٧ محلها وأعلنت استقلال الأمم المهزومة ، وخيرت الشعوب التي كان القياصرة الروس قد أخضعوها بحد السيف بين أن تبقى منضمة الى الروسية الأصلية ، أو تنفصل عنها ، كان أهالي بلاد القوقاس أجمعين ممن أعلنوا استقلالهم التام ، فتألفت جمهورية في كرجستان ، وأخرى في الطاغستان ، والثالثة في آذربيجان ، والرابعة في أريقان ، وأوفدت كل من الجمهوريات الأربع وفودها الى الاستانة لمفاوضة الأتراك والألمان في الاعتراف بهذه الجمهوريات الأربع ، وصار الحديث في ارتباطها بعضها ببعض بشكل حلفي ، وكان الوفد الطاغستاني الجركسي مؤلفاً من عبد المجيد بك ، وعلى بك ، وحيدر بك بامات الذي كان ناظر الخارجية الطاغستانية . وما مضت مدة قصيرة حتى داخل الكرج الدولة الالمانية وطلبوا حاجتها . فاعترفت لهم بالاستقلال دون غيرهم واحداث ذلك خلافاً بين الأتراك والألمان لان تركيا تقاضت حليقتها المانيا الاعتراف باستقلال الجمهوريات الثلاث الباقية حتى ان طلعت باشا الصدر الأعظم يومئذ سعى لدى ألمانيا في معرفة استقلال جمهورية اريقان الارمنية التي كانت

تتقرب من الدولة العلية ، وكان رجال البولة يريدون بمساعدتها اصلاح ذات البين بينهم وبين الأرمين فتقدم أنور باشا الى هذا العاجز أن أذهب الى برلين وأتسكلم في هذا الموضوع وأقنع نظارة الخارجية الألمانية بلزوم المساواة بين جمهوريات القوقاس كلها ، والا لم يكن مناص من الاختلاف . وكلفني الوفد الطاغستاني أيضاً أن أهتم بقضيتهم نوعاً لأنهم حسبوا أن الترك قد يصرفون معظم عنايتهم في مصلحة جمهورية أذربيجان التركية فقط فبدلت في تلك الأيام جهدي مع نظارة الخارجية في برلين في تمهيد الخلاف ، وكان أكثر الكلام مع فون روزنبرغ الذي كان مديراً للامور الشرقية ، وهو هو اليوم بيننا أحرر هذه الأسطر ناظر الخارجية الألمانية . ولم يلبث أن حضر الى برلين طلعت باشا والكونت برنستورف سفير ألمانيا في الاستانة ، واشتركنا في حل هذه المسائل جميعاً وتم الاتفاق لولا أن الحرب في الجبهة المقدونية جاءت بما لم يكن في الحساب . وطلبت بلغاريا الهدنة ، وابتدأت نهاية الحرب فوقف كل شيء من جهة ألمانيا وتركيا ، واحتل الانكليز القوقاس ، وعلق الفوقاسيون عامة آمالهم بانكثرة أنها تعترف باستقلالهم وتوطد لهم حكوماتهم ، لاسيما أنها كانت تعطف على الطاغستانيين قديماً أثناء مقاومتهم الطويلة للروس فكان الأمر بالعمس اذ حصرت انكثرة جهودها في مناهضة البولشفيك واعادة الحكم الامبراطوري على أصله وأمدت الجنرال دينيكن عدو هؤلاء بالمال والسلاح ، فابدأ الجنرال بالحرب مع البولشفيك حتى غزا الطاغستان وحاول القضاء على استقلالهم فحرت بين الفريقين الوقائع الدامية ، ومازالت الى أن انقضى أمر دينيكن ، واستتب الأمر للبولشفيين أنفسهم ، فجرد هؤلاء جيوشاً على جمهوريات القوقاس الأربع . فقبضوا على أزمتهما وألحقوها بحكومة موسكو خلافاً لوعدهم الأول ، ونار أهالي الطاغستان عليهم فتغلبت الحكومة البولشفية على الثوار وقبضت على بعضهم وألقتهم في السجون ، وشرذ قسم من رؤساء الحكومة المستقلة ، ومنهم عبد المجيد بك وصديقنا حيدر بك بامات الى أوروبا ، حيث يواصلون مساعيهم لأجل قضيتهم القومية الى يومنا هذا .

وبلاد الطاغستان متعددة اللغات فمنها لغة الآقار ، ولغة القوق ، ولغة القبايق ، ولغة الدارغا ، ولغة تابازاران ومنهم من يتكلم بلغة فارسية ، وفي الدردبند والسواحل يتكلمون بالتركية الاذرية أي الجغتاي ، وهي أرقى جداً من اللغات السابقة الذكر ،

ولكن لان العلم في جبال الطاغستان هو اللسان العربي ، وهو اللسان الذي يشكاتب به أعيان تلك الأمة ، وقد صادفت سنة ١٩١٩ الوفد الطاغستاني الجركسي في « برن » قاعدة سويسرة ولزمتهم مكاتبات الى رؤساء بلادهم ، فكلفني حيدر بك بامات بتحريرها لهم بالعربية الفصحى ، وكثير من علماء طاغستان معدودون من علماء العربية .

قد حرر تاريخ الطاغستان كثير من مؤرخي الألمان والروس والفرنسيس المذكورة أسماؤهم في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، واصديقتنا الاستاذ عزيز بك مكبر ناموس بالسفارة التركية الحالية بموسكو وأحد فضلاء الأمة الجركسية ، رسالة باللغة الفرنسية وافية بأخبار تلك الأمة . ولمبرزا حسن أفندي ابن الحاج عبد الله أفندي الأقدري الطاغستاني تلويح باللهجة الأندرية اسمه « كتاب آثار طاغستان » طبع في بطرسبرج سنة ١٨٩٥ ولم يسمح الروس بنشره الا سنة ١٩٠٢ بعد رفع المراقبة عن المطبوعات ، ومحرر هذا التاريخ كان ممن اشترك بثورة ١٨٧٧ ونفاه الروس مدة مديدة .

وقد عرفت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر كامل باشا حفيد المرحوم الشيخ شامل ، وانعقدت بيننا الصيحة لما رأيت من حسن أخلاقه ، ولما نشبت الحرب الكبرى استدعته الدولة الى الاسنانة وكانت له مواقف في خدمتها تليق بمن كان حفيدا لتلك الجند الأجداد .

المهدي المنتظر

الشيعة

اتفقت الأديان السماوية الثلاثة على ظهور واحد في آخر الزمان . فاليهود لا يزالون منتظرين المسيح الذي يجدد ملكهم قبيل انقراض الدنيا . والنصارى يرون في عيسى عليه السلام المسيح الذي بشرت به الأنبياء ويقولون برجوعه في آخر الوقت لابادة الدجال الذي ينبيء به يوحنا . والمسلمون أيضاً عندهم المهدي الذي يظهر قبل قيام الساعة ليملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . ويروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه لا تقوم الساعة حتى يخرج من ذريتي رجل اسمه كاسمي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . ويظهر الاسلام على الدين كله . وبعضهم قال ان المهدي الذي سيظهر في آخر الزمان هو عيسى عليه السلام . وبعضهم قال بل هو علي بن أبي طالب . والشيعه الامامية يقولون انه محمد الحجة ابن الحسن العسكري ، بن علي التقي ، بن محمد التقي ، بن علي الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، ابن محمد الباقر ، ابن علي السجاد زين العابدين ، ابن الامام الحسين السبط ، ابن سيدنا الامام علي رضي الله عنه وعنهم جميعاً ، وان محمد الحجة هذا دخل مع أمه صغيراً سرداباً بالحلة من أرض العراق واختفى فهم ينتظرونه الى الآن . قال القلقشندي في صبح الاعشى : ويقال أنهم في كل ليلة يقفون عند باب السرداب ببغلة مشدودة ملجمة من الغروب الى مغيب الشفق ، ينادون أيها الامام قد كثر الظلم ، وظهر الجور ، فأخرج البنا . وروى ياقوت أنهم كانوا في قاشان من بلاد العجم يركبون كل صباح الى لقاءه ، وذلك في أواخر القرن الخامس للهجرة . وروى ابن بطوطة انه لما مر بالحلة رأى مسجداً مسدولاً على بابه سجن من الحرير ، وأنه كان يأتي كل يوم مائة رجل متقلدين السلاح فيصلون العصر ، ثم يذهبون الى قائد البلد ، فيعطيهم بغلة ملجمة مسروجة فيطوفون بها ، وهم يطبلون ويذمرمون ، حتى اذا انتهوا الى باب ذلك المسجد نادوا : يا امام الزمان اخرج فان الظلم قد ظهر ، والفساد قد كثر .. الخ

والفرقة الكيسانية يجعلون المهدي محمداً بن الحنفية^(١) ويتظرونه ويقولون انه لم يمت وانه مختف في جبل رضوى ، بين المدينة وينبع . وكان عند ملوك الصفوية في العجم عادة ، وهي اسراج رأسين من الخيل معدين دائماً في القصر لاستقبال المهدي وعيسى المنتظر مجتمهما كل ساعة . وهذا يشبه عمل بعض التهوسين من الافرنج الذين يقيمون بالقدس منتظرين محيى السيد المسيح ويوم الدينونة . روى هولارت Hart الفرنسي صاحب تاريخ العرب المطبوع سنة ١٩١٣ أن انكليزيا ورد بيت المقدس وأقام بالوادى الذى يقال انه ستكون به الدينونة ، وشرع كل صباح يقرع الطبل منتظراً الحشر . وسمعت أن امرأة « انكليزية فيما أظن » جاءت القدس وكانت تغلى الشاي كل يوم لأجل أن تقدمه لاسيد المسيح ساعة وصوله وحدث لامرئين الشاعر الفرنسي العظيم في رحلته بجبل لبنان أنه زار في قرية جون السيدة استيرستانهوب ابنة أخى بيت Pitt الوزير الانكليزي الشهر فرأى عندها فرساً مسرجاً دائماً ليكون ركوبة للسيد المسيح المنتظر وصوله .

وقد استخدم قضية المهدي كثير من الدول الاسلامية لترويج دعواتها فالدولة الفاطمية عند ماظهرت بتونس ادعت أن عبيدالله مؤسسها هو المهدي . ومحمد بن تومرت لما قام بمصمودة في المغرب قام بالدعوة الى المهدي ، وبها تأسست دولة الموحدين بنى عبد المؤمن . وقام في أيام الدولة المرينية بفاس رجل اسمه التويزرى أصله من توزر من تونس وادعى أنه المهدي واعتصم برباط حصين اسمه (ماسا) بالسوس الأقصى . واعصوب حوله رؤساء صنهجة فقتله المصامدة . وكذلك ظهر رجل آخر اسمه العباس بين سنئ ٦٩٠ و٧٠٠ للهجرة في نواحي الريف من المغرب وقال انه المهدي وثار معه جماعة فقتل وانتهى أمره . وظهر في السنيغال سنة ١٨٢٨ ميلادية رجل ادعى أنه المهدي وأحدث ثورة ثم انكسر وذهبت ريحته . ولما احتل الفرنسيس مصرأ في زمان بونابرت قاتلهم بين دمنهور ورشيد رجل مغربي من طرابلس ادعى أنه المهدي ومازال يقاتلهم حتى قتل .

وبعد ثورة أحمدعراي بمصر ظهر في السودان رجل اسمه محمد أحمد ادعى أنه المهدي ويقال ان والده كان يسمى عبيدالله وأنه كانت تسمى آمنة ، وكان له أخوان أكبر منه يصنعان السفن في النيل الأبيض ، فأرسله يحصل العلم في نواحي الخرطوم ، ولا بلغ الخامسة

(١) أحد أولاد سيدنا علي

والعشرين من سنة انقطع الى العبادة في أحد الكهوف ، وظهر من ورعه وزهده ما تحدث به الناس فأتبعته قبيلة البقارة وهي قبيلة عظيمة عربية الأصل من جويبة فنصرته وقالت انه هو المهدي . وأعلن هو ذلك سنة ١٣٠٠ هجرية . وكان رزوف باشا والى السودان المصرى أرسل ٢٠٠ جندي للقبض عليه ، فقتلهم جماعة محمد أحمد جميعاً ، وانحاز هذا الى جبل هناك والتفأ حوله السودانيون فغردت الحكومة المصرية جيشاً تحت قيادة جيفلر باشا البقارى فهاجمه نحو ٥٠٠ الف سودانى وأبادوه ، ولم ينج من المصريين سوى ١٢٠ رجلاً ، فدخل المهدي الأبيض سنة ١٨٨٣ في ١٧ كانون الثانى وجعلها كرسي حكمه . فغردت الحكومة المصرية جيشاً آخر بقيادة هيكل باشا فأباده السودانيون أيضاً وأخيراً أبادوا قوة غوردون باشا في الخرطوم ، واستولوا على السودان كله . وبعد موت المهدي خلفه التعايشى أحد زعماء قبيلة البقارة ، واستفحل أمره فأشار الانكليز على مصر « والاشارة هنا بمقام الأمر » أن تتخلى عن السودان وتتركه وشأنه ، وم يكن ذلك الاتوطنة لفتوحهم هم للسودان ، فانهم مالبنوا أن جردوا جيشاً من المصريين يقوده ضباط انكليز رئيسهم الجنرال كينستر فاستفتحوا السودان برجال مصر ومال مصر ، وعادوا يقولون للمصريين ان السودان مشترك بيننا وبينكم ، والحقيقة أن لاحق لهم بهذه الشركة ، لأن السودان كان لمصر ولا تستغنى عنه مصر طرفه عين فضلاً عن كون هذه الشركة هي اسمية ، لأن كل شئ في السودان هو في يد انكلترا ، ومن ولى أمر السودان فقد أخذ بمخفق مصر ، لآنك هذه معه أن تصعد نفساً ، ولذلك مسألة السودان هذه هي العقدة الكبرى المعضلة الواقفة في وجه حل المسئلة المصرية بين انكلترا ومصر ، واذا تحلت مصر عن السودان فقد تحلت عن نفسها .

افغانستان

للامير شكيب

هنا موقف عظيم من أعظم مواقف الاسلام في العالم ، ومعترك شهير من أجل مقاماته فيما حدث ، فضلا عما تقدم ، ولعمري لولم يبق للاسلام في الدنيا عرق ينبض ، لرأيت عرقه بين سكان جبال الجلايا والهندكوش نابضاً ، وعزمه هنالك ناهضاً ، ألا وانه من هناك غزا الفاتح العربي محمد بن القاسم في صدر الاسلام الهند ؛ وفتح السند (٧١٢ ميلادية) ووصل الى حدود الملتان ومن تلك الجبال انحدر ذلك المجاهد الكبير اسكندر الاسلام ، وحامي المعارف والعلوم في عصره ، السلطان محمود بن سبكتكين الفزنوي التركي ، في أوائل القرن الحادي عشر لليلاد ، ودوخ الهند من أقصاها الى أقصاها ، ونأب عليه رجاوات (ملوك) لاهور ، واناغبال ، ودهلي ، واجير ، وقنوج ، وغفاليور ، وكالنجار ، ولودجين ، حزمة واحدة ، ووقف العالم البراهمي بازاء العالم الاسلامي ، واصطفت الاقران ، وانتصب الميزان ، فادال الله للعالم الاسلامي من العالم البراهمي في واقعة «باتنداه» ، وتمزق شمل الرجاوات كل ممزق ؛ وفتح محمود كشمير ودهلي ، واقام ولاية من قبله في لاهور ، وجعل راجا قنوج من أتباعه ؛ واكمل توطيد ملكه في جميع البنجاب ، وغزا كالنجار تلك المدينة الموصوفة بتعتها ، فانقاد له ملوك تلك الديار صاغرين وقصد كوجرات وحطم الصنم الأعظم المعروف بسومنات وفتح بهاضية ذلك الفتح الذي تحدثت به الركبان ، وكتب فيه تلك الرسالة الطنانة شيخ الكتاب أبو الفضل بدیع الزمان ، فقال انه « الفتح الذي تضاءلت أمامه الفتوح ، وأمنت عليه الملائكة والروح » الخ وذاكر عن الهند وعجائبها وعظمة الخلائق التي فيها ، ما عرف بقدر تلك الفتوحات التي أناحها الله للاسلام على يد أمين الدولة وبمين الملة^(١) قال السيوريه غروسه René Grousset صاحب تاريخ آسية الذي ظهر سنة ١٩٢٢ في ثلاثة مجلدات مختصاً من روايات أكابر المحققين ، وذلك في بحث الهند لعهد الاسلام ، ما يأتي تعريبه :

(١) هو لقب السلطان محمود الفزنوي

« ان محمود قام بصليبية اسلامية ^(١) استمرت الى القرن الثامن عشر وكانت كسائر الصليبيات ، جامعة بين روح الدعوة الدينية ، وروح الطمع في السحت ، وان محموداً بقيت صورته العالية مشرفة على ثمانية قرون ملأى بالفتوحات ، لأن الجهاد الذي كان هو أول أبطله ، ثم يبلغ حده النهائية الا في بحر العصر الحديث بعد أن عرفت أرض البراهمة من جبال حلايا الى سواحل كور وما ندل ، اسم الله تعالى ودامت لسلطين الترك المغوليين »

واقيني اثر محمود بن سبكتكين التركي ، محمد الغوري الأفغاني ، الذي استولى على سلطنة آل سبكتكين وغزا مثلهم الهند ، وشت في واقعة « نانسوار » الثلاثمائة ألف فارس والثلاثة آلاف فيل التي حشدها لقتاله ملوك الهند ، واقتحح دهلي ، وقنوج ، وميرات ، وآغرا ، وضمها الى مملكته (١١٩٤ ميلادية) وأتم عمله بملاوكة آيبك التركي الذي فتح بنارس ، وضرب الجزية على ملوك كاتالبور ، ومالفا ، واقتحح كوجرات ، وكالنجار ، وضم الى المملكة بوندلكاند . ثم القائد بختيار الأفغاني ، الذي اقتحح مغدلا ، والبنغاله ، وأزال الدولة البوذية من تلك الأقطار فكان عمل هؤلاء الفاتحين مقدمة لسلطنة اسلامية عظيمة قاعدتها دهلي وقد بسطت جناحها على الهند بحدافيرها ، واستتبت من القرن العاشر للمسيح الى أوائل القرن التاسع عشر اذ هرمت وعمجزت وانقرضت على أيدي الانكليز كما هو معلوم . وليس المراد هنا تاريخ الدول الاسلامية التي تعاقبت من ذلك الوقت على الهند ، ولكن المراد هو ذكر العلاقة الشديدة التي بين اسلام الهند وبلاد الأفغان التي منها انحدر الفاتحون المسعون سواء كانوا من العرب ، أو من العجم ، أو من الترك ، أو من الأفغان واثبات ان تلك الجبال كانت ولم تزال على ما يعاوها من الثلوج مستوقفة حاسسة ، ومناخ حية ، وموطن فتوة ، ومعادن فروسة ، واليك ملخص تاريخ علاقاتها مع الانكليز منذ وضعوا أيديهم على الهند الى يومنا هذا : -

قال. للمسيو لومارشان Le Marchand أحد ضباط الجيش الفرنسي ومن أعضاء الأكلاديمية العسكرية في كتابه « حرب الانكليز مع الأفغان » الذي ظهر سنة ١٨٧٩ ما يأتي تعريبه ملخصا :

(١) يتون بذلك سلسلة حروب أشبه بحرب الصليب

« ان مبدأ علاقة انكلترة مع افغانستان كان في القرن التاسع عشر ، وذلك عند ما أرسل نابليون الأول « الجنرال غاردان » لمفاوضة العجم في عقد محالفة بينها وبين فرنسا ، لأجل فتح الهند ، فلما بلغ الانكليز ذلك أسرعوا بإرسال وفد الى كابول ليتخذوا من الأفغان رداءً ضد العجم ، وكان يومئذ في كابول أمير عليه لقب شاه مثل شاه الفرس فصلت عليه ثورة ، واستولى على الملك أخو الصدر الأعظم الذي كان عند ذلك الشاه وفر أخو الشاه الأفغاني الى الهند ، منتجئاً الى الانكليز مستمداً نصرتهم لاسترداد ملكه كما ان أمير الأفغان الجديد ، وهو المسعودي دوست محمد خان ، عقد حلفاً مع الروس فكان عمله هذا كافياً لتجريد حملة انكليزية على افغانستان ١٨٣٩ . وكان قد سبق الحملة الى كابول السائح الانكليزي المشهور برنس Burnes ليقاوم فيها دسائس الضابط فيكوفيتش الروسي فلما رجع برنس الى الهند أقنع « الثورداو كلاند » بوجود الزحف واعادة الشاه القديم شجاع الملك ، ولكن ما أعيد الشاه المذكور حتى وجد الانكليز حاجة ماسة الى تعزيره بجيش عظيم ، لما كان قد انتشر في البلاد من الفوضى ، وظهر من عدوان الأهالي للانكليز . وفي سنة ١٨٤١ ثبت نار الثورة في كابول ، وقتل فيها المعتمد البريطاني ، وعدد من ضباط الانكليز ، ثم اضطر القائد الانكليزي ، بالنظر الى تخرج موقعه ، الى طلب الأمان على نفسه وعلى جنده ، على أن يخرج من البلاد بدون توقف لا يلوى على شيء ، وهككذا خرج في أشد زمهرير الشتاء ، وكان ما كان من الملحمة المشهورة التي استأصل فيها الأفغانيون ١٦ ألف أو ١٧ ألف جندي انكليزي ليس منهم سوى ٤ الى ٥ آلاف مقاتل ، وذلك في كمين نصبوه لهم في « خورد كابول » فلم ينج سوى الطبيب العسكري « بريدون Brydon » الذي فر الى جلال آباد ليخبر قومه بالفادحة العظمى . ثم ان الأفغان تقدموا وحاصروا جلال آباد التي كانت فيه حامية انكليزية ، فقاومتهم زهاء شهرين الى أن زحف « الجنرال بولوك » من الهند فأنقذها . ثم بعد مدة زحف الانكليز بحملة عظيمة على كابول ونسفوا قلاعها ، ودار الملك وأخنوا بشارهم حماسي (قال) : وقد أردنا الإشارة الى هاتين الحملتين اللتين تقدمتا للانكليز في افغانستان لما لهما من العلاقة بالحرب الحاضرة (١) كما أنه لا يتخلو من الفائدة معرفة ما يعترض جيشاً أوربياً يريد التوغل في تلك الديار من العقبات

(١) أي حرب سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٠

الصعاب وما يستجلب النظر من كون كتاب العساكر الأفغانية التي كان الانكليز قد كتبوها واستخدموها وظنوها أصبحت من جلة جيشهم قد انقلبت عليهم وكانت أشد أعدائهم وطأة في تلك الحرب « انتهى

نقول ما أستأصل جيش أوربي قوة وطنية في آسية أو افريقية ، وخطر يبال مؤرخ أوربي أن يذكر ما هناك من الاعذار المشروعة ، والاسباب المعقولة ، التي قفت بالطائفة للاوربيين على الوطنيين ، مع ما بين الفريقين من التفاوت في الأعتاد الحربية ، والاختراعات الفنية ، والمعرفة بعلم التعبئة ، وأصول القتال ، فاذا أتاح الله واقعة بالعسك قضي فيها بقلبة الوطني على الاوربي أسرع المؤرخون الأوربيون الى تمويه تلك الديرة بالناس الأسباب المخففة ، واتتحال الأعذار المتنوعة ، التي لا تكاد تخلو منها هزيمة ، وذلك حرصاً على الشرف الاوربي أن يمس نقص ، وعلى المسكاة الافرنجية أن تتزعزع في نظر الوطنيين . فالجيش الانكليزي في خوردكابول وهو ١٧ ألفاً قد أفتى على بكرة أبيه ، سواء كان كله مقاتلين أم كان بعضه مقاتلا والآخر حاملا للذخيرة . والانكليز قد تعلموا من تلك الواقعة أن ينظروا الى الأفغان بغير العين التي ينظرون بها الى جيرانهم الهنود وعرفوا ان الأفغان لا ينام على النار ، ولا يقبل أن يطاء الاجنبي وطنه ولا يواطى العدو على استقلال بلاده ، كما حصل من كثير من أمراء المسلمين الذين كان الواحد منهم يسعى بين يدي القوة الأجنبية ، ويذل أمامها مناكب قومه ، طمعاً في أن تلبسه تاجاً موهوماً ، أو تركبه عرشاً اسمياً ، كلا . ان الافغان منذ أول احتكاكهم بالانكليز أفهموا بأعمالهم هؤلاء أنهم ليسوا من طينة غيرهم من جيرانهم ، وأن المنافسة فيما بين أمراءهم على الملك لا تصل الى حد الاجتراف بالاستقلال ، والمساحة بأمور الملك ، وأن الوفاء بالعهد عندهم لا يبلغ درجة تواطؤ الرجل مع الاجنبي على قومه ، ومقاتلة الجندي الافغاني جندياً افغانياً آخر يذب عن حوض وطنه ، بسبب كون الاول يأخذ جريئة من ذلك الاجنبي ؟ كما فعل كثير من سلاطين الاسلام ورؤسائه واجناده ، واغتروا بالنعمة الزائلة والجارئة الموقته التي لم تلبث أن ألقحت بكاءهم دماً ، واكلهم اناملهم ندماً ، بعد انقضاء الوطر ، واستتباب الأمر للفاتح الغريب ، بما لا تحصى ولا تعد أمائيله ، سواء في آسية أو في افريقية . ونقول مع الأسف ان الاسلام لما يبيل تماماً من هذا المرض ، وانه ان كان ورد في أثره الشريف انه لا

يلدغ المؤمن من جحر مرتين فتراه اليوم يلدغ من جحر واحد مائة مرة ولا يتوب . وقد رأينا أن أكثر فتوحات اوربا في بلاد المسلمين والشرفيين عموماً إنما انفتحت لها على أيدي المسلمين والشرفيين ، فأوربا اعتادت أن تستعين عليهم بهم وأن تضرب الأخ بالأخ وأن تفرغ التبع بالتبع ، وإن تجرد على الاقطار التي تنوي استعمارها جنوداً من أهالي المستعمرات ، تخاطبهم بجزر من جنود اوربية ، وتضع على رأسهم قواداً اوربيين ، وتنال بذلك مناهها ، وفي حرب افغانستان هذه ، وفي التي تليها . قد استعملت من أجناد الهند ورجاها وجاها وأفيالها ، ومن العساكر المنتقمة من ملوكها وأفيالها ، حتى من نفس ملوك الاسلام في الهند ، ما لا حاجة الى احصائه هنا ، كما انه في ثورة الهند الكبرى سنة ١٨٥٧ وهي التي اشفت انكثرة فيها أن تخسر الهند بأسرها ، يعترف المؤرخ المتقدم ذكره وغيره أنهم لم يكن بقي في جميع الهند سوى ١٠ آلاف جندي انكليزي لحفظ ١٩٠ مليوناً^(١) يردفها لواء واحد من متطوعة البنجاب ، وانه في تلك الأزمنة ظهرت مهارة اللورد لورانس باستنفار بعض الزعماء لتكتيب جنود من الأهليين ، اجتمع منهم فيما بعد فيلق جرار ، كان هو السبب في حفظ انكثرة لا للبنجاب فقط بل لجميع الهند . فالتنود هم الذين في الحقيقة فتحوا أنفسهم بأنفسهم لحساب انكثرة أولاً وآخراً ، وقد حاولت هذه الدولة أن تجرى على هذه الطريقة في أفغانستان فلم تنسق لها لا أولاً ولا آخراً ، ولو كان الأفغان مثل الهند أو البلوج أو غيرهم من الأمم التي علققت في الحياثل الاوربية لكانت أفغانستان اليوم ولاية من ولايات الهند ، أو امارة يليها بالاسم أمير من أهلها والحكم الحقيقي فيها للوزير المقيم أو للعميد أو للعميد كما يسمونه ، ولم يكن في عرض البلاد وطولها بندقية واحدة يتقي بها أفغانى ذل العبودية ، بل الشعب كان يومئذ كله أعزل مقلم الأظفار ، والقوة العسكرية التي تكون عنده يومئذ عبارة عن حامية انكليزية مؤلفة من بريطانيين وهنود وأفغان يخدسون في بلادهم على بلادهم ، بدرهم معدودات . هكذا كان شأن الأفغان لو اتبعوا خطة غيرهم من الأمم الشرقية الغافلة ، أو لو اقتدوا بنوابي « ايسا كل » و « نانك » و « تاونا » و « خان » خطأ « السير خوجه محمود وغيرهم من أمراء الهند الذين كانت لهم اليد الطولى في قمع الثورة الهندية الكبرى . بل تجدد المسير لومارشان يقول في الصفحة ٢٨٩

(١) عدد سكان الهند في ذلك الوقت

من المجلد الأول من تاريخه « ان القبيلة الدورانية التي هي نلت الأفغان ومنها الأسرة المالكة عندهم من الاعتزاز بنسبتهم وقومهم ما يجعلهم مؤثرين لأى أمير كان مهما كان من السيرة ، على الحكم الأجنبي ، ولم يكونوا بأسفون على سقوط الأمير وتشريده مع عترته على شرط أن يكون لهم الخيار فيما بعد فى اختيار حكومتهم »

ثم نعود الى ذكر غزاة الانكاز فى بلاد الأفغان فنقول : ورد فى دائرة المعارف الاسلامية المحررة بالفرنسية بقلم المسيو هوتسمه Houtsma ورفاقه خلاصة تاريخ الأفغان مستخلصة من نحو مائة مصنف بالعربية والفارسية والانكليزية والفرنسية والألمانية ومن جملة ما فيها أن الانكاز بعد أن دخلوا بلاد الأفغان للاخذ بنأر جيشهم سنة ١٨٤٢ وحاولوا اجلاس الشاه شجاع الملك على عرش تلك المملكة ، رأوا ما هناك من صعوبة المراس ، وتعذر البقاء . وهجم على شجاع الملك من قتله ، فأزعم الانكاز الخروج من تلك البلاد وأخذوا معهم فتح جنك ابن الشاه المقتول ، ثم عمدوا الى مصالحة دوست محمد خان الذى علموا أنه هو الملك الوحيد الذى يمكنه أن يضبط زمام الأفغان ، فانعقد الصلح بين الفريقين على شرط أن الانكاز يحترمون حدود الأفغان ، وانصرف دوست محمد خان الى تحصين بلاده ، واسترد بلخ ، وكولم وقندز ، وبذخشان . ولما اشتعلت الثورة الهندية الكبرى سنة ١٨٥٧ التزم الحيداد ، ولم يهتبل تلك الغرة لمقاتلة الانكاز . ومات دوست محمد سنة ١٨٦٣ فنار الخلاف بين أولاده وتقاتلوا مدة طويلة ، والانكاز ينظرون اليهم من بعيد معتزلين الخلاف كله لعلمهم أنهم لو أنشبوا أظفارهم فيه لتعرضوا لخسائر لا تحصى كالى عرفوها من قبل ، ولكن آل الأمر الى اتحاد الأفغان كلهم بدأ عليهم ، فلم يزالوا متربصين الى أن استوسق الأمر لشير على خان أحد أولاد دوست محمد خان ، وأطلق أحد أدباء الانكاز كلمة « عزلة رئيسية » على خطة الحكومة البريطانية يومئذ وسارت مثلاً . فلما أجمع الأفغان على طاعة شيرعلى اتفق معه اللورد لورانس أولاً ثم خلفه اللورد مايو فأيد اتفاق سلفه على شروط معلومة ، وأولها أنه لا يدخل عسكري انكليزى واحد ببلاد الأفغان لأجل اطفاء ثورة أو تدويج قبيلة عاصية (١) وأنه لا يرسل ضابط انكليزى معتمداً فى مدينة من مدن الافغان

(١) هذا خلاف طلب الذين توافقوا مع الانكاز على أن يدخل هؤلاء بلادهم ويخمدوا لهم الثورات ويخضعوا لهم المعادة ثم بعد استتباب الطاعة يجلبون عن البلاد بزعمهم

وأنه لا يكون للامير راتب معين من انكلترة مشاهرة ولا مسانته . وقد توارث أولاد دوست محمد خان هذه الغيرة الشديدة من رؤية الأجنبي في بلادهم من والدهم الذي كان يقول للورد لورانس سنة ١٨٥٦ ما يأتي : « ان كنتم تريدون أن نبقى أصحاباً فلا تكرهوني على قبول ضباط انكليز في بلادى »

ويقول المؤرخ لومارشان السابق الذكر « انه قد بقيت العلاقات بين الانكليز وشير على سائر على هذه الوتيرة ، الى أن دخل الروس خيوه سنة ١٨٧٢ فراع ذلك شير على خان ، وأوفد من قبله من يسير شور الحكومة الهندية فيما لو وصل ازوس في الاعتداء الى بلاده ، فوردده الجواب بقبول رأى انجاده ان جرى عليه اعتداء بدون حق من جهة الروس ولكن الشروط التي وضعت لأجل القيام بتلك النجدة لم تكن لترضيه . »

قلنا : ان صاحب حرب تاريخ الانكليز والأفغان أغفل ذكر هذه الشروط عمداً لأنه من أول هذا التاريخ انى آخره مؤيد لسيرة انكلترة ، الا أنه بالبداية يدرك القارئ أن الشروط التي وضعها الانكليز ولم تعجب شير على في حال احتياجه اليهم لا بد أن تكون مرة المناق على أمير بهمه أن تبقى مملكته بكرة لا تطمئنها قسمم أجنبي ، ولا شك ان أول شرط منها كان اقامة مسيطرين انكليز في افغانستان ، ووضع حاميات انكليزية في بعض المواقع الافغانية وربما يكونون اقترحوا عليه قبول الحامية البريطانية ، ليصبح كأحد نوابي الهند أو نظام حيدر آباد ، طابن انهم يستفيدون من فرصة أزمته هذه ليست حامية لا تزال تحمئهم أنفسهم بها . ولكن لننظر الآن ماذا فعل شير على خان . يقول لومارشان

« انه لما ورد جواب الانكليز نفر وامتعص وصارت علاقاته مع الانكليز في فتور مستمر ، وأبى السماح بالمرور لضباط انكليزي أرادوا انفاذه الى حدود شمالي افغانستان للمفحص عن حالة الحدود ، وكذلك لم يأذن للسير دوغلاس فورسيت Douglas Forsyth العائد من كاشغر الى الهند . ورفض قبول مبلغ من النقود كان الانكليز يعشوا اليه به وبالعكس ذلك كانت علاقته ودية مع الحاكم الروسي في تركستان . ووقع هذا الجفاء في أواخر أيام اللورد نورنبروك ، فلما جاء اللورد ليتون خلفا لنورنبروك بذل الجهد المنتطاع لتأليف ذات البين مع شير على ، واقترح عليه ارسال جرى من قبل انكلترة هو السير بلي Polley ليفاوضه في كابل في رغائبه ومراضيه ، فأبى شير على قبول هذا المعتمد ، واقترح هو ارسال معتمد الى بشاور للمفاوضة في النقاط

الواقع الخلاف عليها ، وهي تدخل انكلترة بينه وبين ابنه يعقوب خان (١) وخطتها في مسألة حدود سبستان ، بين أفغانستان والعجم ، وارسال حاكم الهند هدايا رأساً الى أحد أمراء الأفغان ، مع أنه تابع لمملكة شير علي ، ورفض انكلترة رأى التحالف معه والاعتراف بتولية عهده ابنه عبد الله خان الى غير ذلك . فرضت انكلترة بهذه المفاوضات في بشاور ، لكنها لم تجب شير علي الى مطالبه واعتلت عن كل منها بسبب ، فلم يسفر ذلك المؤتمر عن أدنى طائل . ثم إن هناك مسألة القبائل الأفغانية العاتية المحادة للهند فإن هذه القبائل بأجمعها تعترف برئاسة الامير ، وليس منها واحدة خلا قبائل البلوج التي الى الجنوب تقر سلطان انكلترة عليها أو ترضى باختيارها وطأة قدم انكليزي لأرضها . وإن جميع ما عند الانكليز من المعلومات عن هذه القبائل أو عن منازلها لم يتيسر لهم الا بواسطة الجغرافيين والمخططين الذين كانوا تابعين للجيش أثناء الحلات العديدة التي حملها الانكليز على تلك الديار ، ومن الغريب أنه مع شدة غيرة هذه الأقوام على بكاره بلادهم ، وحرصهم على أن لا تطأها قدم انكليزي تجدهم يجولون من بلدة الى بلدة في الهند ويتجرون بما يريدون في أسواقها ، ويخدمون جنوداً في الجيش البريطاني ، وتجد منهم عند الانكليز عمالاً ومأمورين ينتقدون الرواتب الجزيلة . فلا يبلغ الانسان اذا قال انه لا يكاد يخلو الاى في البنجاب من ضابط أو من ضباط متعددين من أبناء هذه القبائل ، وترى منهم ضابطاً في مدارس ومبای وحيدر آباد . وبالرغم من كل هذه الأسباب التي كان ينبغي أن تجعل اللحمة بينهم وبين الانكليز شديدة ، فلا بد من الاعتراف بأن هذه الحالة منذ استولى الانكليز على البنجاب وجاوروا تلك القبائل لم تتغير تقريباً .

فلنا ان الوطنيين في أكثر البلدان ، الامن رحم ربك ، عودوا المستعمرين أنهم متى قبلوا وظائفهم وانتقدوا رواتبهم جاورهم في جميع مقاصدهم وتبعوهم في كل مراميمهم ، حتى فيما هو على الضد من مصلحة قومهم ، وفيما يمس استقلال وطنهم ، وأكثر ما سقطت البلدان المستعمرة تحت السلطة الاوربية إنما كان على أيدي مأجورين من أنفس الأهالي ، يبيعون أوطانهم بخسيس الحطام وقليل المتاع ، ولهذا تجد المؤرخين الأوربيين نظير لومارشان هذا يقضون العجب من صنيع هذه القبائل الأفغانية المحادة للهند كيف أنها مع شدة اختلاطها

(١) كان ناز عليه وأخذت انكلترة تحببه

بالانكيز وارتفاقها بأموالهم ووظائفهم لم توأطى* الانكيز على بلادها ، ولم تمكن لها في أرضها كما صنع كثير من غيرها ، فهؤلاء قد خالفوا العادة الجارية من غيرهم ، وهذا الأمر يدهش الأوربيين كثيراً .

ويقول هذا المؤرخ « ان القبائل البلوجية هي على خلاف ذلك فهذا ادارة السند كانت دائماً أرفق وأهناً من ادارة البنجاب. أما القبائل التي بين جبال ماهابون وجبال بوزدار فانها نحو خمس عشرة قبيلة ، منها ثلاث عشرة سالت الدماء غزيراً بينها وبين الانكيز ، وساق عليها هؤلاء لا أقل من ٣٠٠ حملة (١) فن هذه القبائل قبيلة الجادون يسكنون المنحدر الجنوبي من جبل ماهابون وقوتها تقوم بنحو ٥٠٠٠ مقاتل ، وكانوا اذا شنوا الغارات على الأراضي الهندية اكتفى الانكيز بحصرهم ، وسنة ١٨٦٣ جردت عليهم حملة بقيادة السير فايلد فاغات العساكر أدرجها الاعادواهم الى الثورة . ثم قبيلة البونارقال وهم من أشجع أعداء الانكيز وقعت الحرب بينهم وبين الانكيز سنة ١٨٦٣ فمسر الانكيز في مصارعهم ٩٠٠ رجل بما بلوه من مركفاحهم . وبعدهم قبيلة السواني الذين ساق عليهم الانكيز حملة سنة ١٨٤٩ ويقدر مجموع هاتين القبيلتين بنحو ٢٥ ألف مقاتل . ثم قبيلة اترانيزاي وقد غزاهم الانكيز مرتين سنة ١٨٥٢ وعددهم ٣٠٠٠ مقاتل . ثم قبيلة عثمان كيل (٢) وعددها ١٠ آلاف رجل اشتدت وطأتهم على الانكيز ، حتى جردوا عليهم ثلاث حملات الواحدة عام ١٨٤٩ بقيادة الكولونيل رادفورد ، والثانية عام ١٨٥٢ بقيادة السير كولين كامبل ، والثالثة سنة ١٨٦٦ بقيادة الجنرال دونسفورد . ثم الى الجنوب من هؤلاء قبيلة الماهموند الكبيرة وهي تفر أن تحشد ٢٠ ألف مقاتل ، وقد ناجزها الانكيز سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٢ ثم بعد ذلك بستين تجددت الفتنة بينهم وبين أحد أبنائها وستة ١٨٦٤ نشبت بين الفريقتين معركة في سهل شو بكوودور

«وجميع هذه القبائل تنزل شمال مضيق خيرالشيهر بالجبال التي تتاخم الهند الانكليزية ويوجد الى الجهة الغربية ، قبائل أخرى لا تقل عن هذه شدة بأس ، وصعوبة مراس ، مثل الباجوري والشيفاري وغيرها ، ولكن مرادنا الكلام على القبائل التي بجوارها لتخوم الهند كانت الحروب متواصلة بينها وبين الانكيز . فبين مضيق خير . وكوروم منازل

(١) هذا الى عام ١٨٧٩ فما ظنك بما جرى من الحملات منذ ٤٥ سنة الى اليوم

(٢) معنى كيل فصيلة أو روط

قبيلة الافريدى التي تعد ٢٥ ألف محارب ، وهي على ما يظن أهم قبائل الترخوم وقد تبارزت مع الانكليز مراراً عديدة ، وساقوا عليها زخوفا سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٣ و ١٨٥٥ وأخيراً سنة ١٨٧٧ بقيادة الجنرال كايس والجنرال روس

« وكذلك قبيلة الميرانزاي التي تجهز نحو ٥٠٠٠ محارب تبارزت مع الانكليز سنة ١٨٥١ و ١٨٥٥ و ١٨٦٩ وقبيلة الثورى وهي تعادل الأولى في العدد ، غزاها الانكليز عام

١٨٥٦

ثم الى الجنوب من هذه نجد قبيلة الاوراكزاي من ١٥ الى ٢٠ ألف مقاتل حل عليها الانكليز سنة ١٨٥٥ و ١٨٦٨ و ١٨٦٩ بقيادة شامبرلين وجونس وكايس . وبين مضيق كوروم وغومول ، تسكن قبيلة الداغارى قاتلها الجنرال كايس عام ١٨٧٢ ، ثم قبيلة الوزيرى الشهيرة التي زحف عليها الانكليز سنة ١٨٥٢ بقيادة نيكولسون وسنة ١٨٥٩ بقيادة السير نفيل شامبرلين ، وسنة ١٨٦٩ بقيادة كايس لردعها عن الغارات والعدايات على حدود الهند . « وعلى جانبي غومول تسكن قبيلة المحسود وزيرى التي طالما أفلقت راحة الترخوم الهندية ثم قبائل البوزدار ، والسكازرائى ، والشهورائى ، التي هي دائماً في جدال مع الجنود الانكليزية

« ولكن الى الجنوب من هذه قبائل أخرى كانت دائماً في وئام تام مع الانكليز مثل الكتران ، والكوزاه ، واللاغارى ، والغورشاني ، والمارى ، والبوغنى ، ويقول لومارشان ان سبب هذه المسألة هو حب هذه القبائل للمال وإشاره على ماسواه ، فالانكليز عالجوهم بالدواء الذي رأوه الانجح فيهم » انتهى

وعلا لا يجوز أن ننسأ أن الاحصاءات التي أوردها هذا المؤرخ عن عدد هذه القبائل إنما هي عن الوقت الذي كان فيه عدد سكان الهند ١٩٠ مليوناً بدلاً من ٣٢٠ مليوناً عند كتابته هذه السطور فلاجل صحة الحساب ينبغي إضافة ٣٥ فى المائة على الأقل الى الأعداد التي أوردها ، كما أنه قد وقعت منذ ٤٠ سنة معارك كثيرة بين البريطانيين وهذه القبائل من بعد الوقائع التي ذكرها ، واليك شاهداً ما جرى مع الافريدى :

ورد في دائرة المعارف الاسلامية الآنفة الذكر « أن الافريدى هم عدة أخفاذ وهم الآدم كيل ، الذين منهم الجافاكي المجاورون لمضيق كوهات ولقبيلة خاناق ثم الآكاكل

الممتدة منازلهم من آكور الى باراه . ثم الكوكي كليل والكمبر كيل والزكا كيل ، والمالكدين كيل ، والكامركيل ، والسبباه ويقال هؤلأ الافريدي الخيريون ، يتجمعون في الصيف الميدان في ناحية تيراه ، وينزلون في الشتاء الى السهول ، وهؤلأ الخيريون معدودون في أشد القبائل عتواً وتوحشاً ، وأصعبهم مقادة ، ولا يزالون يشنون الغارات على السهول ولا سيما الزا كليل الذين هم أفبحهم سيرة . وكانوا الى تاريخ سنة ١٨٩٧ يتباهون دائماً بأن أرضهم لم تطأها قدم فاتح ، ولكنهم في تلك السنة نفسها رأوا العساكر الانكليزية الهندية تجوس خلال ديارهم كلها (١) »

ثم يقول « انهم كانوا يتقصدون مبالغ من المال لأجل أن يتركوا المضايق مفتوحة للسابلة ، وبعد أن استلحقت انكثرة بلاد بشاور لم تتعرض لاستقلالهم ، وبقيت تؤدي اليهم هذه الأعطيات لأجل حرية المرور ، وامن مضيق ككوهات كان أكثر الاحيان مسدوداً بسبب المنازعات التي بينهم بحيث ان الانكليز غزوا الجافاكي منهم في شرقي ككوهات سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ولكن لم تطل مدة الاحتلال (٢) ثم انه في سنة ١٨٩٧ أعلن أحد المشايخ الجهاد في بلاد الشينغاري ، فاقبل الصريح بالافريدي والماهوند ، وهاجم الكثرون قلعة لاندي كونال وافتتحوها ، وكذلك دخلوا عنوة المواقع العسكرية التي في جنوبي بلاد الاورا كزاي ، فجرد الانكليز جيشاً بقيادة السير لوكارت ، فاصطلت معارك حامية دامية ، وأصيب الجيش بخسائر ثقيلة ، ولكن جميع زوايا الديار قد جيتت ، وجميع الفصائل العاصية قد اقتص منها . وبعد موقف طويل في ناحية الميدان ، عاد الجيش الى سهول بارا . ثم جردت حملة ثانية الى أودية خير وبارازار ، وبعد ذلك أطاع الافريدي كافةً وصاروا ينتظمون في جيش الحدود ، ولكن سنة ١٩٠٨ عاد الزا كليل الى عيشهم المعتاد فسبق عليهم جيش الى أودية بارازار وبارا ونكل بهم »

ثم ورد في دائرة المعارف « أنه بموجب المعاهدة المنعقدة سنة ١٨٩٣ بين انكثرة والامير عبد الرحمن خان ، تخلى الامير عن بلاد الافريدي وسنة ١٨٩٧ أرسل هؤلأ وفوداً الى

(١) ينه أن يعرف أن محور هذا التمسك من دائرة المعارف هو انكليزي .

(٢) لا بد أن يكونوا تقوا منهم عذاباً واصباً ؛ لأن عدم اطالة الاحتلال لا سيما في نقطة كهذه لا تنطبق

كابول يستنصرونه على الانكيز فلم يلب نداءهم « انتهى
فيظهر أن حالة هذه القبائل ومرودها على العيث والاخلال براحة الحدود الانكيزية
منذ استولى الانكيز على الهند ، ولا سيما على البنجاب وديار بشاور كانت تدعو الحكومة
البريطانية الى التحرش بأمر الأفغان لتناجزه حرباً تكون عاقبتها اعترافه لها بالسلطة على
منازل هذه القبائل لتتمكن بذلك من الاخذ بنواصيها . وهكذا حصل فان الانكيز
حشدوا جيشاً عظيماً عام ١٨٧٨ وقاموا بتجهيزات لا يقدر عليها غيرهم ، ونطوع معهم
كثير من أمراء الهند ومن المرتزقة من القبائل التي في شمالي البنجاب ، ومن أمة السيك
الهندية المشهورة بالإسالة والتي لا تقل في شدة البأس عن قبائل الباتان السابقة الذكر وزحفوا
بعدد وعدد تضمن لهم نجاح الحركة ، فبعد وقائع عديدة دخلوا كابول بقيادة اللورد
دورنس ، وفر شير علي خان الى مزار شريف في القسم التركي من مملكته حيث مات
سنة ١٨٧٩ وكان شير علي قد غضب على ولده يعقوب خان لمقاومته له ، وحاربه في هرات ،
فلم يقدر عليه ، فأمهله ريثما صرف جنوده ، وأظهر له العفو عما سلف ، فاستدعاه الى
حضرته وأمنه ، فلما قدم اليه ألقاه في السجن وتقي مسجوناً الى أن دخل الجيش البريطاني
الهندي كابول فأخرجوه من سجنه ، ونصبوه أميراً وعقدوا معه معاهدة غاندامق التي تخلى
لهم فيها عن بعض الأراضي بجوار مضيق بولان ووادي كورام ، وتعهد بقبول بعثة
بريطانية تقيم بعاصمة الأفغان فلم تمض على هذه المعاهدة أشهر قلائل حتى جرت ثورة في
هذه العاصمة ، وذبح الأهالي أعضاء هذه البعثة بأجمعهم ، فعاد اللورد روبرنس بجيشه
ودخل كابول ثانية ، إذ أن الأفغان جهروا من خلفه وجاءوا فحصروه في كابول ، فخلع
الانكيز يعقوب خان وأشخصوه الى الهند وداخلوا الأمير عبد الرحمن خان بن أفضل خان بن
دوست محمد خان في قبول الإمارة ، وكان جيش انكيزي في قندهار ، فزحف الى كابول
على أن يكون من هناك جلاء جميع الجيوش الانكيزية عن أفغانستان ، فلاقاه في الطريق
قبيلة أحد كليل وأذاقوه علقم القتال فلم يخلص منها الا بشق الانفس ، ثم حشد أيوب خان
ابن شير علي جيشاً في هرات وزحف به الى قندهار فالتقى بعسكر انكيزي فكسره ،
فأسرع اللورد روبرنس الى قندهار واصطلت الحرب مع أيوب خان ، وأدرك الانكيز بهذه
التجربة الثانية انه ماكل حراء تمره وان الاولى اخلاء أفغانستان بأمرها فانفقوا مع الأمير

عبد الرحمن على أن يكون هو الامير وجاوا سريعاً عن البلاد . فأدار الامير عبد الرحمن الامور بحكمة سلم له بها أهالي الشرق والغرب ، ورّم فتوق بلاده وأقام العدل وأرّهف الخلد في المفسدين ، ووطد نفوذ الحكومة وأسس معملاً للسلاح ، وأصلح بقدر امكانه تدريب الجيش ، ووسع حدود البلاد من جهة الشرق ، واستولى على ولاية كافرستان التي هدى الله أهلها على يده الى الاسلام فساها نورستان ، وبالاجال فقد ذاقتم مملكة الافغان في زمانه طعم الراحة ، وعرفت معنى الوحدة . ومازال يدد أمورها الى أن قبضه الله اليه سنة ١٣١٩ هجرية وفق ١٩٠١ ميلادية . وهو معهود من أفضل ملوك هذا العصر في سداده وحكمه ومضاء عزيمته وبلغنى أن له تاريخاً مطولاً بالفارسي ذكر فيه ماجريات حياته . وخلفه ولده الأمير حبيب الله خان الذي خاطبته الحكومة البريطانية بلقب ملك ، وان كان لم يتمكن من تأسيس علاقات خارجية مع غيرها مما بقي معه استقلال افغانستان مشوباً بشئ من القصر لم ينفك قيده الابهمة ولده من بعده .

ولما نشبت الحرب العامة أحب الأتراك والألمان أن يجتذبوا الأمير حبيب الله خان الى جبهتهم وسارت بعثة ألمانية الى كابول وخاطبته في ذلك فكان يعتقد أنه لوخاض غمرات هذه الحرب لجنى على نفسه وعلى وطنه فلم يأت بأدنى حركة تغيظ الانكليز ، وقد يعد عمله هذا مستحسناً لأن حفظ العهد أمر محمود ، والنظر في العواقب من أجل المنافع . الا أنه عفا الله عنه ، كان يقدر أن ينتهز تلك الفرصة لمطالبة انكلترا بكثير من حقوق الافغان التي التهمتها أثناء ما كانت افغانستان في الضيق وذلك نظير أخذ البلاد التي ابتزتها لياها بدون حق والحجر الذي وضعه عليها في الامور السياسية الخارجية وكنتعها من الحصول على تفرج بحري تكون حرة فيه بوارداتها وصادراتها . فأهمل الأمير حبيب الله ذلك ، ومشى في سياسته على مقتضى مكارم الأخلاق الشرقية التي تأتي مهاجة العدو في حالة ضيقه ، لا على مقتضى السياسة العملية الأوروبية التي لا تعرف هذه المكارم بل تعدها من قبيل الخيالات الشعرية ، أو مبادئ الفطرة الأولى التي ليست في شئ من مبادئ المدنية الحاضرة المبنية على الحقائق الراهنة ، وذلك بخلاف مايدعى الأوربيون من كون الشرقيين لا يحترمون سوى بالقوة ولا يتأخرون عن نقض العهد اذا آتسوا من عدوهم الضعف . فيرمون الشرقيين بما هو في الحقيقة دأب الغربيين . ولقد ذهبت أمانة حبيب الله خان مع انكلترا سدى اذ

بعد أن وضعت الحرب العامة أوزارها لم ينل من الانكليز أدنى مكافأة على وفائه وكيف ينال وجيع الخلفاء صاروا بعد الحرب غير ما كانوا أثناء الحرب ونسوا عهودهم مع كبير من الأمم التي نصرتهم في الحرب نصراً عزيزاً . وفي سنة ١٩١٩ وجد حبيب الله خان في مشتاه بجلال آباد مقتولا ولم يعرف قاتله ، ولا سبب قتله ، وتنوعت الأقوال ولم يزل سر هند الغيلة مجهولا ، وسمعت أن مصطفى الصغير الجاسوس الهندي الانكليزي الذي افتضح أمره أخيراً في انقره بعد أن قدمها جاسوساً في ثياب صديق ، قد زعم أثناء محاكمته التي آلت الى قتله أنه هو الذي دبر مؤامرة اغتيال حبيب الله خان بإشارة من الانكليز ، ولا أعتقد بصحة ذلك اذ لا يمكن أن دولة عظيمة كدولة انكلترة تقدم على أفعال كهذه ليس فيها شيء لامن حفظ الكرامة ولا من الحكمة ، والانكليز موصوفون بهذين الأمرين . وفضلا عن هذا فالرحوم حبيب الله خان كان للانكليز صديقاً وفيماً . وابت بهم طول مدة ملكه برأ حفيها ، فلا يعقل أن تكون هذه الضربة منهم بل الأيق بالعقل أن يكون قتله وقع بمؤامرة أناس متحمسين تقموا عليه شدة محافظته على ولاء الانكليز ، واضاعته فرصة الحرب العامة التي كان يمكنه في أثنائها أن يسترد كثيراً من حقوق الافغان المغتصبة . وان الذين عرفناهم من رجال الدولة الافغانية يكذبون زعم مصطفى الصغير ، ويقولون ان هذا لم يكن يومئذ هناك ولا الأمير قتل في المكان الذي عينه من جوار كابول ، بل استشهد رحمه الله في جلال آباد . وقد ثبت أن مصطفى الصغير هذا افترى روايات كثيرة في تضاعيف استنطاقه في انقرة ، لا يعلم الانسان مقصده منها ، ومن جللتها اقحام نفسه في حديث هذه المؤامرة . ثم ان الأمة الافغانية بعد استشهاد الأمير عوات على مبايعة جلالة ولده أمان الله خان ، مع كون ولي العهد هو نصر الله خان أخاه الأكبر ، فن حسن الحظ أن عدول الأمة عن ولي العهد الى أخيه لم يحدث شيئاً من الفلق ، ولا صعبه شيء من الكوارث مما يدل على تعقل كل من الأمرين الآخرين اللذين أحدهما لم ينهض الى الحسام ، ولا أسرع الى الفتنة لأجل الملك ، والثاني لم يعامل أخاه الابالحسنى ، ولا حمله الحنر منه على التضييق عليه ، كما كان يفعل الملوك السابقون . فاستتب أمر الدولة الافغانية على أحسن مايرام ، وانفتت الكلمة ، ولكن الأمير الجديد لم يستو على عرش كابول حتى أرسل الى الانكليز بمطالب أمته التي منها إعادة الأراضي التي اغتصبوها من ضمن حدود أفغانستان الجنوبية ، والتفرغ عن مرفأ بحري

تكون الدولة الافغانية فيه حرة ، وحق تأسيس العلاقات الخارجية رأساً مع سائر الدول بما كان الأفغان لا يفتأون يطالبون به ، فأبى الانكيز التسليم بهذه الشروط وجر ذلك الى زحف الجيش الافغاني ومن ضافره من قبائل البوتان السابقة الذكر ، واختراقهم حدود الهند ، ودارت رحى الحرب فكانت سجالاً ، وصادفت خروج بريطانيا العظمى من الحرب الكبرى وملل الشعب الانكيزي من سفك الدماء وبذل القناطير المنقطرة ، وعلم الانكيز ما امامهم من العقبات في حرب الافغان وانها ستكون أشد عليهم من الحروب السابقة فجنحوا الى السلم ، وعرضوا على الافغان الهدنة ، وذهب محمود ترزي خان ناظر الأمور الخارجية في كابول الى الهند واتفق مع الانكيز على مشاركة السلاح ، وأوفدت انكيز وفداً الى عاصمة الافغان للتفاوض على شروط الصلح أثناء كون الجيوش من الطرفين مرابطة على الحدود ، فاتفق الصلح في سنة ١٩٢١ على شروط . أولها استقلال الافغان في الأمور الخارجية كما كانت مستقلة في الأمور الداخلية والثاني حق استمرار السلاح من طريق الهند والثالث تحديد منطقة متحايدة من بلاد قبائل البوتان لان تكون ملكاً لا للانكيز ولللافغان . ولم ينتظر شاه افغانستان عقد معاهدة لتأسيس سفارته لدى الممالك الاسيوية والأوربية بل قبل الصلح أرسل سفيراً الى طهران ثم سفيراً الى أنقرة ، وعقد مع الأتراك معاهدة متينة للسلم والحرب ، ثم معاهدة مع حكومة موسكو ، وأرسل اليها سفيراً هو أول سفرائه في أوروبا ، وهو الفاضل النبيل محمد خان . ثم أوفد الوزير الجليل الجنرال محمد ولي خان بعثة فوق العادة الى أوروبا لتأسيس سفارته في عواصمها فبدأ بفارسوفيا عاصمة بولونيا ثم قدم برلين ، ثم ذهب الى رومنة ، ثم الى باريس ، ثم الى أميركا ، وأثناء مقامه بواشنطن دعاه سفير انكيز فيها باسم حكومة بريطانيا العظمى أن يزور لندن فلبى الدعوة ، ولما جاء الى العاصمة استقبله رجال حكومتها برأ وترحيباً ، الا أنه رأى وزير المستعمرات يفاوضه في بعض المسائل ، فأبى محمد ولي خان الدخول في أدنى مفاوضة مع وزير المستعمرات ، كما سمعت ذلك من فمه ، وقال : لاشغل لنا الامع نظارة الخارجية . فاعتذروا له عن هذا الخطأ غير المقصود ، وشرعت الخارجية نفاوضه في عقد معاهدة الصلح فأجاب : انما ذلك هو عائد الى الحكومة الافغانية في كابول ، وهي في مذاكرة مستمرة مع الوفد البريطاني الذي هناك . ولما تم عقد الصلح أرسلت الحكومة الافغانية عبد الهادي

خان من أنه نهباً شبانها سفيراً الى لندن ، كما انها جعلت غلام صديق خان من أنجب نجباؤها أيضاً سفيراً ببرلين ، والامير شير أحمد خان سفيراً في رومة ، ثم عند ما استقال الوزير الجليل الفاضل محمود ترزي خان من نظارة الخارجية الهاساً لترويج النفس في أوروبا ، بعد ان التفت مزاجه لكثرة الاشغال التي عاناها عينه الامير سفيراً له في باريس ، وهو من قاموا بخدمات جلالت لا يساها له تاريخ الافغان . فانتدب الامير لنظارة الخارجية محمد ولي خان السابق الذكر . ثم ان من قام بخدمة الحكومة الافغانية في أوروبا بمحمد أديب خان من أجل أدباء دمشق اذ كان هو الممثل للدولة الافغانية في برلين لاول تأسيس السفارة الى أن تعين مؤخراً معتمداً لها في وطنه الاصلي دمشق . وقد كان محرر هذه السطور حظ معرفة هؤلاء الامائل باجمعهم ، وعند ما قدم الوفد الافغاني برلين ، احتفلنا بهم في النادي الشرقي الذي برئاسة هذا العاجز ورأينا من ذكائهم وشهامتهم وحيثهم ما صدق لنا النواريح المأثورة عن جنسهم ، أما الوزير محمود ترزي خان فقد سبق لنا معرفته منذ مدة مديدة اذ كان وقع بين والده المرحوم غلام خان وبين المرحوم الامير عبد الرحمن خان نفور أدى الى هجرة غلام خان ووطنه واقامته بالشام وهناك أسعد الحظ بمعرفته عرضاً فكان له نحوى عاطفة أبوية ، وأهداني مرة نذكاراً نفيساً وهو مديح نظمه بالفارسي في شمائل الحضرة النبوية ، عليها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وكتبه مذهباً بخطه الانيق . وكان رحمه الله من صناديد الكتاب والكتاب ، وابطال الحرب والمجرب ، وذرف على التسعين ، وهو يقوم الفجر ويصلي في الجامع الاموي ، لا يتخلف يوماً واحداً ، وكان معه ولد له محمود ترزي خان الذي هو اليوم سفير افغانستان في باريس ، وهو الوطني الذي حرر مدة طويلة جريدة « سراج الاخبار » وجاهد في ترقية ادارة بلاده وتثقيف قومه بالفنون العصرية ، بقلمه البليغ ورأيه الاصيل ، ما لم يوفق الى مثله غيره .

ولقد باشر شاه الافغان الحالي تنظيم ادارة البلاد الملكية ، وتعليم الجيش وتليجه على الطرق الحديثة وتوسيع معمل السلاح الذي في كابول ، وأرسل عدداً وافراً من الطلاب للتحصيل في أوروبا ، من جتلهم اولاده واخوته الصغار ، فجعل قسماً منهم في برلين والقسم الآخر في باريس ، وانتدب عدداً من ضباط الاتراك لتدريب الجيش ، وعداداً من الاسانذة والمتخصصين الاويين لترقية التعليم والادارة ، واستدعى طائفة من المهندسين

لتخطيط الطرق الحديدية ، واستخراج المعادن واستثمار خيرات البلاد فالمملكة الافغانية سائرة في أيام الامير امان الله خان الشاه الخالي سيراً حثيثاً الى الامام بحيث يحكم العارفون أنه لا تمضي ٢٠ سنة على أفغانستان ، حتى نصير أعز دولة في آسية الوسطى ، وتعود ركنا للشرق والشرقيين . وهي الآن تحتوى على نيف وتسعة ملايين من السكان ، ولما انعقدت المعاهدة بين كابول وموسكو سنة ١٩٢١ كان من جملة شروطها تخيير ولاية كوشكه في الرجوع الى الأفغان ، وهي ولاية على حدود تركستان كان الروس اغتصبوها منذ نحو أربعين سنة ، وصبر عبد الرحمن خان على ذلك خشية أن يتهور في حرب مع دولة عظيمة كالروسية لا طاقة له بها . فبعد استرداد أفغانستان لهذه الولاية يناهز عددها ١٠ ملايين نسمة وعلاقات الدولة الأفغانية جيدة مع جميع الدول ، الا أنها متضامنة مع تركيا تضامناً تاماً ، حل الأمير أن يصرح لسفير انكلترة عندما عقد الصلح معه في كابول وأن يخاطب نفس ملك الانكليز ، بأن أفغانستان لا يمكنها أن تخلص الود لانكلترة ما دامت هذه تنصب العدوان لتركيا ملجأ الخلافة الاسلامية . ولعمري انه لا يوجد في العالم الاسلامي فرد فيه ذرة من العقبل الا وهو يسمي الونام بين انكلترة وبين تركيا ، وأفغانستان ، ومصر ، وبلاد العرب ، وسائر بلاد الاسلام ، لما لانكلترة من المصالح الشائكة والعلاقات الكثيرة في الشرق ، وما في الائتلاف بين هذين العنصرين من المنافع الجزيلة لهما معاً . ولكن ما دامت انكلترة سائرة على الطريقة التي اتبعتها منذ ٤٤ سنة ، وهي السعي في تفكيك أوصال الاسلام ، وابعاد حاه من كل جهة ، استئصالاً لنشأة قوته السياسية ، وتقليها لجميع أطفاله أن تحدته نفسه بأذنى وقوف في وجه قوة استعمارية ، وما دامت هي آخذة على نفسها القيام بمعظم هذه العداوة ، فان أمد الصراع بين هاتين القوتين لا يزال طويلاً ، وليس من المرجح أن الانكليز هم الذين سيربحون في هذه التجارة .

أما القبائل المار ذكرها فقد ازدادت الوقائع بينها وبين الانكليز بعد الحرب العامة ولا يمضي شهر واحد حتى تأتي جوائب الأخبار بمركبة أو واقعة ، وقد عول الانكليز على قتال هذه القبائل بالطائرات القاذفة من عل بالكران المحشوة ديناميتاً ، وهي طريقة عمدت اليها أوربا بعد الحرب الكبرى التي ترق فيها فن الطيران الى هذا الحد ، فصار لكل دولة مستعمرة أسراب من هذه الطائرات مرصد أكثرها للتسكيل بالأقوام التي تنور على

السلطة الاستعمارية أو تطالب بحق استقلالها ، أو لا تريد أن تطيع الأحكام الجائرة الجارية عليها . ولا ينحصر عمل هذه الطائرات بالفريق الناثر أو العصابة الخارجة ، بل الطريقة المتبعة هي أنه عند ما تبدو من ناحية علامة عصيان أو مقاومة ، ترسل الطائرات فوق القرى أو المدن فتقذف عليها أجالا من الديناميت تنسف الديار ، وتقتل النساء ، والأطفال ، ولولم يكن لأحد من أهالي تلك المدن أو القرى أدنى صلة مع الناثرين انما هو الارهاب ، والقاء الرعب في القلوب ، واجراء المثلات بهؤلاء ليخشى أوثك . وقد وجدت دول الاستعمار هذه الطريقة أقرب منالا وأقل نفقة من تجريد العساكر وتعقب النوار الى مكائهم . ولانكثرة وزارة خاصة بالطيران تنفق سنوياً خمسة ملايين جنيه انكليزي على طائرات الشرق التي هي مرصدة لنبائل البوتان وأهل الهند وأهل جزيرة العرب والعراق ومصر الخ . كما ان عند فرنسا ألوفاً مؤلفة من هذه الطائرات تستخدمها في المغرب وسورية . ومع هذا فكل من هاتين الدولتين تدعى أن استخدام هذه الوسائل الجهنمية وقتل النساء والأطفال انما هما لأجل المدنية

* * *

من بعد صدور هذا الكتاب طبعته الأولى جدت في بلاد الافغان حوادث ذات بال خلاصتها ان الشعب انتفض على أمان الله الملك الذي تولى المملكة بعد والده حبيب الله خان وهزم الثوار جنده فالتجأ أمان الله الى الفرار من كابول الى قندهار ومنها الى الهند حيث ركب البحر من بمباي وجاء الى أوربه واختار الإقامة برومة . وتولى عرش الأفغان من بعده نادر خان الذي كان ناظر الحربية لأرائل عهد أمان الله ثم صار سفيراً لأفغانستان في باريز ثم استعفى واعتزل وأقام مدة سنوات بمدينة طولون

وتحرير القصة ان أمان الله تولد فيه الميل الى التفرنج والافتداء بالاور بين في كل شيء وأعجبه في هذا الباب مسلك مصطفي كمال المستأثر بأموار تركيا ووجد في مصطفي كمال حجة على من خالفه في هذا الرأي وكثر كلامه في القضاء على العادات الاسلامية القديمة ولا سيما حجاب النساء . وكان يزعم ما يزعمه رجال انقرة اليوم من أن التمسك بهذه العادات هو الذي أفضى بالاسلام الى هذا الضعف وأن طريق النجاة الوحيد للمسلمين هو الافتداء بالاور بين في ما أخذهم وشاركهم ولباسهم وطعامهم وجميع ما عولوا عليه . وبالاختصار فكل ما رآه الافرنج حسناً فهو حسن ولولا أن يكون الافرنج أقدر على معرفة

الحسن من غيره ما كانوا يحجوا هذا النجاح الباهر الى غير ذلك من التعليقات الانقرية الواهية المردودة بالبداهة وبحجة ان علماء الافرنج أنفسهم معترفون بأن رقي الامم المادى لا يتم لا ضمن مقوماتها الروحية ومشخصاتها الاجتماعية وبدليل أن الافرنج تقدموا هذا التقدم فى العلوم والمعارف والفنون والصناعات ولبثوا عاضين بالنواجذ على تقاليدهم المسيحية لا يخرجون عنها وقد يكونون أشد اعتصاماً بها من المسامين بتقاليدهم

فأمان الله خان أعجبه خطة مصطفى كمال فى هذا الموضوع ويقال ان محمود ترزى خان الذى هو أبوزوجته وناظر الخارجية عنده كان يزين له هذا المسلك وان العلاقة الوثيقة التى كانت بينه وبين الحكومة التركية السكالية هى التى كانت أكثر السبب فى جنوحه الى هذه الخطة

وسنة ١٩٢٨ أراد أمان الله أن يقوم بسياحة فى أوربة والبلاد الشرقية فجا إلى مصر ومعه زوجته الملكة ثريا ووفاه اليها محمود ترزى خان حموه قادماً اذ ذاك من أنقرة . ويظهر ان مصطفى كمال كان أرسل الى أمان الله بوجوب الظهور فى مصر بمظهر التفرنج الذى كان الغازى قد حمل عليه أهل تركيا وجاء تقيلاً على الشعب التركى ورأوا أنفسهم متفردين عن العالم الاسلامى فكان من جهة سياسة مصطفى كمال أن ينشر عادة سفور النساء وليس القبعة وعادة الرقص المختلط وغير ذلك من الأمور التى أوجبها على الأتراك وأن يحمل عليها المسامين من غيرهم كما جرى منه مؤخراً فى تقاضيه من سفير مصر بانقرة عبد الملك بك حزة أن يخلع ضربوشه فى حفلة رسمية مما أدى الى منازعة بين مصر وتركيا وصارت مسألة دولية بينهما . فلا شك فى أن محمود ترزى وصل الى مصر متزوداً بتعليقات مصطفى كمال باشا الى أمان الله خان بأن يبدأ بفيد التقاليد الاسلامية من مصر لأن الناس لخطوا ان الملكة ثريا دخات الى مصر متحجبة على عادة نساء المسامين وانها بدأت بالسفور فى مصر . وكذلك بدأ أمان الله بلبس القبعة فى مصر وأفضى الى الصحفيين بمحدث معناه وجوب عدول الشعوب الاسلامية عن أزيائها الخاضرة . وذهب أمان الله خان الى الجامع الأزهر بالقبعة فبعد ان كان العلماء قد اجتمعوا هناك اعظماً لقدمه عند ما شاهدوه آتياً بالقبعة انصرفوا مشتمين ولكن ملك الأفغان لم يكن عنده يومئذ الا الرغبة فى تقليد مصطفى كمال وهذا الذى هوى به عن عرشه

ثم جاء أمان الله الى أوربه مع الملكة ثريا وزار عاصمة ايطاليا ثم عاصمة فرنسا ثم عاصمة سويسرة ثم عاصمة ألمانيا ثم موسكو ثم انقرة وغيرها ولقي في كل مكان اكراماً وحفاوةً الا انه كانت أخبار تفرنجيه وسفور زوجته قد وصلت الى افغانستان وهاجت عليه رجال الدين والشعب الأفغاني

ولقد كان أمان الله يكره علماء الشرع الاسلامي في مملكته ويجب خضد شوكتهم اقتداءً بجدّه عبد الرحمن خان لكن جدّه كان يقهر رجال الدين ويحطّ من مكاتبتهم وفي الوقت نفسه يحافظ على الدين من حيث هو وعلى العوائد الاسلامية فهذا أمكن عبيد الرحمن خان ان يقهر علماء زمانه بدون أن يتعرض لخطر الثورة في بلاده بخلاف حفيده الذي باقدامه على ما أقدم عليه من نبذ العوائد الاسلامية والتشبّه بالافرنج في الكلي والجزئي قد هاج عليه حتى العلماء وأوجد لهم عليه طريقاً فهاجوا عليه القبائل وأشاعوا أن الملك استخف بالدين واستهتر واقتدى بالافرنج في ماآخذه ومشاركه وبدأ الهيجان على أمان الله في غيابه الا أن الثورة لم تشتعل عليه الا بعد أو بته الى كابول ولم تنحصر أسبابها في التفرنج وحل النسوة على السفور بل اتهم الملك أعداؤه بأنه غلّ من مال الدولة وذهب الى اوربه يتزوّه وينفق على لذاته بينما قد مضى أشهر على الجند وهم لا يقبضون أرزاقهم ولا رواتبهم فتغيرت عليه قلوب عسكره . وعند ما أثار العلماء قبائل الافغان على الملك كان أكثر الناس قد انفضوا من حوله ونشبت الحرب فانكسر الجند الذي كان بقي معه وثار رجل اسمه ابن السقا أصل أبيه سقاء من رعاع الناس وهو نفسه كان من قطاع الطرق فاعصو صب حوله كثير من الدعار وعن كانوا يتربصون بالملك الدوائر وهاجوا كابول وكادوا يدخلونها ففر الملك الى قندهار التي هي مركز عشيرة الدرانية التي ينتسب اليها بيت الملك وترك الملك لأخيه الأكبر عناية الله خان طائناً أن المشكل ينحلّ بزوله هو عن العرش . ويايع رجال الحكومة أخاه وبقى ملكاً نجواً من ثلاثة أيام اذ دخل ابن السقا هذا بأعوانه فخلعوه ايضاً ولحق بأخيه وتسلم ابن السقا زمام الأمر وقتل وقتك وحرّض القبائل على قتال أمان الله والزحف اليه في قندهار فأحس هذا بثقل الجلالة وفرّ بالطيارة الى الهند ومنها أبحر الى اوربه وأول مدينة صعد اليها رومة واستقر بها لسبب لا نعلمه

أما ابن السقا فقد عضده رجال الدين واستوسق له الأمر وبقيت الامرة بيده عدة أشهر وربما كان قد طال حكمه لولا ماحدثته به نفسه من مبايعة الناس له أميراً غير مكثف

بالوزارة . ولم يكن الافغان ليقبلوا السقا اميراً فبنى بذلك على نفسه . وذهب نادر خان من طولون ومعه اخوته وزحف الى كابول بالقبائل الموالية لبيت الملك وعضده رجال الدين الذين كانوا لا يرضون بالسقا اميراً ولكنهم يخشون رجوع امان الله فهزم جنود السقا وقبض عليه وقتله ومزق شمل اتباعه واستوسق له الامر وسار بالرعية سيرة الامير العادل الحازم في غير عنف ، الشفيق في غير ضعف واقتنى سنتي امان الله في الاعتناء بالعلم والتعليم وتنظيم الجيش وترقية وسائل العمران الحقيقي لكن بدون تعرض للمسائل الاجتماعية ولا تشبث باحداث انقلابات في الازياء والعوائد والتقاليد كما أراد أن يفعل ابن عمه امان الله . ولقد خرجت بلاد الافغان من هذه الثورة منهوكة القوى فشرع نادر خان برأب الصدوع و يضمد الجروح و يرى جميع الناس يتمنون له النجاح ويرجون الخير والفلاح لهذا الشعب الباسل المجيد الذي هو في طليعة الشعوب الاسلامية في الذكاء والحية وكرم المهزة وشدة البأس اما امان الله فبقى مدة يتربص ان يدعوه نادر شاه الى الاستواء ثانية الى العرش ولكن نادر شاه احتفظ بالعرش لنفسه لا لمجرد حبه الامارة ولا مطاوعةً للنفس الامارة بل نزولا عند ارادة الاهالي وعلماء الشرع . فكان ذلك مما أحفظ امان الله خان وأحدث بين المالكين السابق واللاحق من الخفاء ما كل انسان يود زواله

ولما كانت الحوادث التاريخية التي تهم التاريخ العام أقرب الى الثقة فيما اذا استقفاها الراوى من منابعها الاصلية وحدث فيها عن اصحاب الشأن رأساً رأيت ان اختم هذا البحث عن افغانستان برواية ما جرى من الحديث بيني وبين جلالة امان الله بعد نزوله عن العرش الافغانى

كنت جده معجب بامان الله في الدور الاول من امارته كما يتضح من الفصل الذى كتبه عنه في الطبعة الاولى من هذا الكتاب وذلك لكونه تمم استقلال الافغان واجتهد في ترقية شؤون تلك الامة وكانت لى علاقة بسفراتهم ورحاله يوم كنت رئيساً للنادى الشرقى فى برلين سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٣ ولما نألفت جمعية المانية افغانية فى تلك العاصمة وانتخب لها رئيس أول من الالمان انتخبت أنا لها رئيساً ثانياً . وكانت ترد لى الكتب من كابول متضمنة الشكر من جانب امان الله خان عما كنت ابدله من الجهد فى خدمة الدولة الافغانية . ولهذا لما سمعت بخبر قدومه الى الغرب كنت متحفزاً لاستقباله وتقديم الواجب لجلالته كرجل سبقت له معه علاقة الا انى لما علمت بما ظهر منه من مصرم في اوربة من مشايعة

السياسة الانقرية التي لم أوافق ولن أوافق عليها وعلمت ان الملك فؤاداً نصحه بالمحافظة على أوابد قومه وعوائدهم ولم يسمع نصح جلالة الملك فؤاد أمسكت عن السلام عليه حتى بعد مجيئه الى لوزان حيث كنت مقبلاً وتسررت عتاب حاشيتي الى على ذلك ولم أفعل . وكنت متوقفاً ان لا أطول اماره امان الله بعد هذه المظاهر التي ظهرها في بلاد كافغانستان أهلها شديداً الاستمساك باوضاعهم الدينية والقومية .

ففي شهر رمضان سنة ١٣٤٩ جاء الملك امان الله الى سويسرة ومعه أديب خان الاديب المدني الذي لي معه صحبة من ايام برلين وهو خال الملكة ثرياً ونزلاً في مونترو وكلمني أديب خان بالهاتف لاجل السلام على الملك فذهبت من لوزان الى مونترو وسلمت عليه وتلطف هو فاعاد لي الزيارة بمنزلي بلوزان . وجرت بيني وبينه عدة مجالس نحلنا فيها جميع المسائل التي أوجبت الانقلاب الذي جرى في افغانستان ولم اكنم عنه شيئاً من الانتقادات التي وجهتها على سياسته وحررت بها بعض مقالات في الجرائد العربية فكان جوابه عن ذلك انه قسم ما عزي اليه من الامور الى ثلاثة أقسام قسم أقر فيه بالخطأ والتسرع وقال ان مجلس وزرائه لم ينهه له . وقسم قال انه جرت فيه مبالغة كثيرة بحسب عادة الرواة في المبالغة . وقسم أنكر وقوعه منه شيئاً وقال انه من باب الافتراء عليه . واخذ يذكر لي متعدد خدماته للامة الافغانية . وأجبت بان هذه الخدمات لم ينكرها أحد ولكن الناس يمتنون لو اتفق مع ابن عمه نادر خان حياً براحة هذه الامة التي اتعبتها الفتنه التي وقعت فيها واستمرت اكثر من سنة .

ثم ذكر لي رغبته في اداء فريضة الحج الشريف وقال ان الوقت لم يسمح له بادائها يوم جاء الى اوروبا ماراً بالشرق الادنى مع انها كانت في نيته فينت له ان ذلك كان أيضا من جهة ما أخذ الناس عليه ولكن من الممكن تلافي هذا الأمر . هابدي لي رغبته في الكتابة لجلالة ابن سعود في عزمه على الحج ذلك العام . فقلت له ان مثل جلالته ياتي في الحرمين الشريفين كل الاجلال اللائق بامثاله وان الملك ابن سعود من أحسن خلق الله وقادة ومعاملة لكل قادم فكيف اذا كان القادم ملكاً من ملوك الاسلام . ومع هذا فقد كتبت الى جلالة ملك الحجاز ونجد بنية الملك امان الله الحج تلك السنة . ولما توجه الى الحجاز لاداء الفريضة عامله الملك ابن سعود معاملة الأخ لاخيه وعاد الملك امان الله من مكة الى رومة حيث هو مقيم الآن وحيث لا يرى الناس لاقامته بها وجها .

المسلمون في الصين

المسألة الثانية

مسلمو الصين^(١) كأنهم لسوا من هذه الدنيا فالمعلومات عنهم قليلة والروايات بشأنهم متناقضة والى هذه الساعة لم يعرف المؤرخون كيف كان وصول الاسلام الى الصين. أوصل اليها بحر أم طريق الهند أم وصل برأ بطريق تركستان وما وراء النهر كما أن الجغرافيين وعلماء الاحصاء الى اليوم لم يتفقوا على عدد المسلمين الصينيين فمنهم من يجعله عشرين مليوناً ومنهم من يجعله خمسة وعشرين مليوناً ومنهم من يقول ثلاثون ومنهم من يقول أربعون وكثيرون أكدوا القول بأن في الصين ٦٠ مليون مسلم ومن هؤلاء بعض علماء من مسلمي الصين جاءوا الى الاستانة ومصر وأكدوا أن المسلمين هناك لا يقلون عن ستين مليوناً وكذلك روى لي مستشار سفارة الصين في برن قاعدة سر بسرة وبخلافه قال غيرهم فأكدوا أن مسلمي الصين لا يزيدون على عشرة ملايين وان بعثة أولون Mission d'Ollone التي أرسلت بمساعدة نظارة المعارف الفرنسية وجاءت بعض أفطار الصين لا تجد المسلمين يزيدون على خمسة ملايين في جميع بلاد الصين وان كانت تقول انها لا تقدر أن تحزم بشيء.

وأما دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، فتقول انه لا يمكن الاعتماد على قول وثيق من جهة العدد ولكن برو ومهال Brounhal أرسل سؤالا الى نحو ثمانمائة شخص من أهل الصين فجاءه نحو ٢٠٠ جواب من أما كن مختلفة فأستخلص ما يأتي :

ولاية كانسو أقل ما يقدر فيها مليونان من المسلمين ومعظمه ثلاثة ملايين ونصف مليون . والمسلمون في كانسو كثيرون في غربي هذه الولاية ومواليدهم تزيد بالنسبة على مواليد الصينيين ويوجد نواح خلت من الاسلام بعد الثورات التي جرت في « ايانغ تشوفو » لم يبق سوى ٧٠ مسلماً . وفي « هسي بنغ فو » يوجد ٢٥٠ ألفاً وفي « لان تشوفو » قاعدة الولاية ٢٥ ألفاً ولهم جوامع عظيمة وربما منعوهم بسبب الثورات الأخيرة من السكنى في داخل المدن فسكنوا في الضواحي وكانت لهم جوامع فيها كما هو الحال في

(١) راجع صفحة ٢٩٣ و ٣٠٠ من الجزء الأول

« نينغ هيا » و « نينغ ليانغ » .

ولاية « شنسى » كان فيها قبل الثورات مليون مسلم ولا يظن أنه باق فيها اليوم . أكثر من خمسمائة ألف . ويوجد في « سنغان فو » سبعة جوامع وفي (تشونغ فو) ثلاثة

ولاية شانسى يقال ان فيها ٢٥ ألف مسلم

ولاية (تشيلى) الاحصاءات تختلف كثيراً فمنها ما يجعل مسلمى هذه الولاية ٢٥٠ ألفاً ومنها ما يجعلهم مليوناً وفي باكين من ٣٠ الى ٤٠ جامعا ومنها المسجد الأعظم (نين شيه) الذى يدرس فيه على رضا التركي . ويقدر عدد المسلمين فيها بعشرة آلاف . وفي أرباضها مسلمون كثيرون . كذلك في الشمال من جدار الصين الكبير عدد وافر من المسلمين .

ولاية « شانتونغ » هم فيها من ١٠٠ الى ٢٠٠ ألف نسمة .

ولاية (هونان) هم فيها أكثر من ٢٠٠ ألف نسمة في مدينة (هوى شينغ فو » أربعون ألفاً والقرى المجاورة كلها مسلمة وفي (شنغ شو) عشرة آلاف وأهالى « هوى نين شى » كلهم مسلمون ومساجدهم كثيرة .

ولاية (كيانغ سو) مظنون أن فيها ٢٥٠ ألف مسلم . وفي « نانغ كينغ عشرة آلاف لهم ٢٥ جامعاً

ولاية « ستشوان » ليس عندنا معلومات راهنة الا عن قسم منها فيه ٥٠ ألف مسلم والمظنون أن الولاية كلها تحوى ٢٥٠ ألفاً . ومركز الاسلام هو في الشمال الغربى من البلاد مثل (سونغ بان نينغ) وينمو الاسلام كثيراً على حدود التبت . وبلدة (كيوشياو) فيها ١٢ اماماً و ١٠٠ هونغ (أى عالم)

ولاية (كوى تشوا) لا يوجد فيها أكثر من عشر آلاف مسلم ولهم أربعة مساجد .

ولاية (بنان) يختلف الاحصاء فيها من ١٦٠ ألفاً الى مليون . وقد نسفت الثورات من بلاد الاسلام فيها جانبا كبيراً وان مدنا كثيرة صارت قاعاً صفصفاً . ويقال ان مسمى بنان يخفون عددهم الحقيقي اجتناباً لمخاوف الحكومة الصينية . ولا يختلف مسلمو بنان عن الصينيين لا في الزى ولا في الفكر ويظن دافيز Davies أن المسلمين في السهول هم أضعاف

مضاعفة عمّاهم في الجبال وانهم ثلاثة في المائة أي ثلاثمائة ألف نسمة لا غير . وأما سوليه Soutie في مجلة العالم الاسلامي سنة ١٩٠٩ حزرهم من ٨٠٠ ألف الى مليون وكذلك المبشر رود يقول ان في ينان مليوناً من المسلمين وعلى كل حال لحساب تيرسان Thiersant صاحب كتاب (المحمدية في الصين Le Mahamétisme en Chine) بأن مسلحي ينان هم أربعة ملايين هو بعيد .

ولاية « هويه » ليس فيها أكثر من عشرة آلاف وفي (فوشانغ) ثلاثة مساجد وفي (هاتكو) مسجدان

ولاية (كييانغ سي) هم أكثر قليلا من ٢٥٠٠

ولاية (آن هوي) فيها أربعون ألفا ويكتثرون في شمالها وفي العاصمة (انكينغ) ستة آلاف ومسجدان

ولاية « تشيكيانغ » فيها ٧٥٠٠ فقط . ومدينة (هانغ تشوفو) التي يذكروها جغرافيو العرب وشاهد فيها ابن بطوطة محلة اسلامية عظيمة غنية لم يبق فيها اليوم الا منات من العائلات ونحو أربعة مساجد .

ولاية (كوانغ تونغ) فيها ٢٥ ألفا وأما خانسو التي يسميها جغرافيو العرب الخنساء وابن بطوطة يقول لها (سيني كالان) فلم يبق فيها سوى ١٠ آلاف مسلم وخمسة جوامع .

ولاية (كوانغ سي) فيها من ١٥ الى عشرين ألفا منهم ثمانية آلاف في العاصمة (كوي لين) وفي هذه المدينة وفي (فوتشو) ستة جوامع .

ولاية (فوكيين) فيها ألف مسلم فقط ولهم مساجد في (آموي) وفي (فوتشو) وفي (تشانغ تشوفو) ولا يوجد في آموي أكثر من أربعين الى خمسين مسلحاً من طبقة مأموري الحكومة .

ولاية منشوريا فيها ٢٠٠ ألف مسلم منهم في مدينة موكدن ١٧ ألفا .

ولاية مونغوليا : المسلمون فيها هم في الجنوب واحصاؤهم متعثر .

أما التركستان الصيني وان لم يدخل هنا فالاحصائيون يجعلون فيه من مليون الى مليونين وأربعةائة ألف مسلم .

ونتيجة هذه الاحصاءات ان حدها الأصغر هو ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف وان حدها الأعظم هو سبعة ملايين واربعمائة ألف . ومن أغرب الغرائب ان انبشرين الاوربيين يناقض بعضهم بعضا في الشهادات في مثل ان بعضهم يذكر وسطا اسلامياً عظيماً فيه المدارس والمساجد والآخريين يقولون اننا لم نشاهد من ذلك شيئاً . « انتهى بتصرف عن الانسيكاكو بيديه الاسلامية » .

على أن نيرسان صاحب كتاب (المحمدية في الصين) الواقع في مجلدين يحصى المسلمين ٢٥ مليوناً في الصين وكذلك الجغرافي الفرنسي الشهير اليزه ركوس يقول في جغرافيته العامة ما يأتي :

« ان المسلمين لهم بال كبير في المملكة الصينية وقد حزرهم سكانشكوف بعشرين مليوناً ولكن هذا العدد يظهر ضئيلاً بالقياس الى أقوال مؤرخين آخرين من الصين ففي ولاية كانسو كان المسلمون هم الأكثرية كما أنهم كانوا في كثير من نواحي شمال الصين نحو ناث السكان ويجب أى تحسب معهم الدونغان وسائر مسلمي دونغارية وكولجه وتركستان الشرقي لأجل أن نعم أهميتهم ويراهم الانسان أعلى درجة من سائر أبناء وطنهم وأعز نفوساً وأصرح نظراً وفي ولايات غربي الصين يتقلدون السلاح وهم لا يشربون المسكرات ولا التبغ ولا الافيون فتجدهم أصح اجساماً من أبناء الملل الأخرى ويوجد بينهم تضامن يجعلهم أسعد حالاً وأعظم ثروة من غيرهم ويفرضون على جماعاتهم ضريبة معلومة نظير العشر من الدخل لأجل انفاقه في مصالح الجماعة وهذا في ولايات كانسو وشنسي وفي بلاد ينان عندهم مدارس يتعاملون فيها العربية ويفهمون معاني القرآن كما ان الصلاة هي في كل مكان بالعربية وفي كانسو يوجد مئات من الجوامع ثم ان التجارة في الشمال تكاد تكون منحصرة في أيديهم لاسيما تجارة الموائى فتجدهم هم الذين يبيعون باكين وسائر المدن الشمالية الساحلية الخ » .

وقد همت مسألة إسلام الصين دول أوربا كثيراً لأنها توجست ولا تزال تتوجس خيفة من انتشار الاسلام في الصين الى حد أن يصير هو الغالب على تلك المملكة التي عددها يزيد على اربعمائة مليون فاذا قدر الله دخول هذه المئات من الملايين في الاسلام حصل انقلاب في وجه العالم .

الاسلام في الصين

والاسلام قديماً بالهجرة في بلاد الصين بذكر الصينيون أن أول ظهوره بين ظهرانيهم كان لعهد السلطان (تايتسونغ) وذلك في القرن السابع للمسيح وان أول داخل من المسلمين الى تلك الديار رجل من عصبة النبي يقال له ابن حجرة جلا الى الصين بثلاثة آلاف مهاجر وتزلوا في (سنغان فو) وانه جاء على أثرهم مسلمون آخرون من طريق البحر وأقاموا بجهات يونان . ويذكر مؤرخو الصين انه في نواحي سنة ٧٥٨ اقبل على بحر الصين متلصقة من العرب يأخذون كل سفينة غصباً فعاثوا في تلك البحار وجاسوا خلال الديار واكتسحوا ضواحي كنتون واحتلوا على مافي الالهراء السلطانية التي هناك . وهذه تبشير دخول العرب لتلك البلاد بحسب ماورد في تواريخ الصين .

وم أجد الى الآن في الكتب التي طالعتها من كتب العرب أثراً لقصة ابن حجرة هذا ولا ما يوافقها وانما روى المسعودي في تاريخه قصة تحكيها من بعض الوجوه تؤئرها بالاختصار . وهي أن رجلاً من قریش من ولد هبار بن الأسود ، خرج الى مدينة سيراف ، وكان من أرباب البصيرة وذوى الأحوال الحسنة . ثم ركب منها في بعض صحراكب بلاد الهند ، ولم يزل من مركب الى مركب ، ومن بلد الى بلد ، الى أن انتهى الى بلاد الصين الى مدينة (خانقو) ثم دعتة همتة الى أن سار الى ديار ملك الصين ، وكان الملك يومئذ بمدينة جدان وهي من كبار مدنهم فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر انه من أهل بيت نبوة العرب ، فأمر بعد هذه المدة الطويلة بانزله في بعض المساكن وازاحة العلة بما يحتاج اليه . وكتب الى الملك المقيم بخانقو يأمره بالبحث عنه ، ومساءلة التجار وعمما يدعيه من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم . فكتب صاحب خانقو بصحة نبيه ، فأذن له بالوصول اليه ووصله بمال واسع وأعادته الى العراق .

ويظهر من كتب العرب ، ان أول صقع عرفوه من بلاد الصين هو كاشغر . وذلك منذ سنة ست وتسعين للهجرة اذ غزاها قتيبة بن مسلم الباهلي في خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي . قال ابن الأثير الجزري في تاريخه . انه سار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلاً على معبر النهر ليمنع من يرجع الايجواز منه ،

ومضى الى فرغانة وأرسل الى شعب عصام من سهل الطريق الى كاشغر ، وهي ادنى مدائن الصين ، فغم وسبي وأوغل حتى بلغ قريب الصين ، فكتب اليه ملك الصين أن ابعث الى رجلا شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم . فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جلال وألسن وبأس وعقل وصلاح فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخبز والوشى وكان منهم هيرة ابن مشمرج الكلابي فقال لهم اذا دخلتم عليه فأعلموه اني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أظأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم . فساروا وعليهم هيرة فقال لهم ملك الصين قولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة أصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم . قالوا : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون . وأما تخوفك ايانا بالقتل فان انا آجالا اذا حضرت فآكرمها القتل لسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلفت أن لا ينصرف حتى يظأ أرضكم ويختم ملوككم ونعطوا الجزية . فقال فانا نخرجه من بينه ونبعث تراب أرضنا فيظأه ونبعث اليه بعض ابنائنا فيختمهم ونبعث اليه بحرية يرضاه . ثم اجازهم وبعث بما ذكر الى قتيبة فقبل الجزية وختم الغامان وردهم ووطئ التراب . فقال سواد ابن عبد الملك السلوي :

لا عيب في الوفاء الذين بعثتهم للصين ان سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القندي خوف الردى حاشى الكريم هيرة بن مشمرج
ادى رسالتك التي استدعيته فأناك من حنث اليمين بمخرج

ووصل الخبر الى قتيبة في هذه الغزاة بموت الوليد ثم قتل قتيبة في السنة نفسها ولا يجعد انه لو بقي حيا لاستأنب الكرة على الصين لما هو معهود من بعد هيمته في الجهاد . ولا شك أن الاسلام كان قد دخل في البلاد منذ ذلك الوقت وكثرت أتباعه وما زالوا على نحو وازدياد يلحظ ذلك من تضاعيف الحوادث المذكورة في تواريخ العرب فقد ذكر ابن الأثير انه في سنة أربع وستين ومائتين ظهر ببلاد الصين انسان لا يعرف جمع غمراً من العامة وأهل الشر وقصد بهم مدينة خانقو وحصرها . قال وهي حصينة ولها نهر عظيم وبها عالم كثير من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وغيرهم من أهل الصين . هذا في القرن الثالث للهجرة . وأما بعد ذلك فترى الأخبار عن مسلمي الصين كثيرة : نقل الامام أجد القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ عن الشريف حسن بن الجلال السمرقندي وكان من السفار ومن جال الآفاق

ودخل الصين وجاب آفاقه وجاس خلاله انه قال ان من عجائب ما رأى في مملكة القان (أى الخان) انه مع كفره في رعاياه من المسلمين أم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ومتى قتل أحد الكافر مسلماً قتل القاتل الكافر وأهل بيته ونهبت أموالهم وان قتل مسلم كافراً لا يقتل به بل يطلب بديته ودية الكافر عندهم حار لا يطلب بغيره .

ولم يدخل الاسلام بيت الملك في تلك البلاد الا ما كان ببلاد المغول في ذرية جنكيزخان وفي كاشغر . قال ابن خلدون في الجزء الخامس من تاريخه عند ذكر الترك انه كانت لهم دولة ببلاد تركستان وكاشغر وان ملوكهم أسلموا بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم وكان بينهم وبين بنى سامان القائمين فيها وراء النهر بدولة بنى العباس حرب وسلم .

قال يحيى بن أحمد بن على النسائي كاتب جلال الدين خوارزم شاه في تاريخ دولته ان مملكة الصين منقسمة من قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر ويتولى كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ويكون نائباً عن الخان الأعظم وكان جنكيز أحد الخانات المذكورين فتغلب عليهم جميعاً وصار الملك الأعظم . وفي كتاب ابن فضل الله حكياً عن صاحب علاء الدين عطاء ان دينه ودين قومه كان الجوسية حتى ملكوا الأرض واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وما وراء الهند فأسلم من ملوكهم من هداه الله للاسلام . و ذكر ابن خلدون في الكلام على ملوك بنى جنغى بتركستان وكاشغر وما وراء النهر انهم كانوا أولاً كلهم على دين الجوسية يعضون عليها بالنواجذ فاما صار الملك الى ترماشين منهم أسلم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجاهد وأكرم التجار المترددين .

وذكر الملك المؤيد صاحب جمه في تاريخه في خبر الملوك بنى دمرش خان وهو من أولاد جنكيز خان انه لما مات دوشى خان ولى مكانه ابنه ناظو خان ثم مات وولى بعده طرطو خان ثم مات فولى بعده ابن أخيه واسمه بركة فأسلم على يد شمس الدين الباخورى وكان مقبلاً ببخارى كتب اليه يدعو الى الاسلام فأسلم وان بركة هذا عمل الرحلة الى لقاء شمس الدين فلم يأذن له في الدخول حتى تطرح عليه أصحابه وسهلوا الاذن لبركة فدخل ووجد اسلامه وعاهد الشيخ على اظهار الاسلام وأن يحمل عليه سائر قومه فحملهم واتخذ المساجد والمدارس في بلاده وقرب العلماء والفقهاء ثم ذكر المؤرخون اسلام أربك بن طغرلجى من سلالتهم واسلام نكندار بن هولوكو وخر بندا بن ارغو ثم أحمد بن هولوكو .

وفي مختصر الدول لأبي الفرج الملطى صورة كتاب كتبه الى سلطان مصر في ذلك الوقت جاء فيه « بقوة الله باقبال قالن فرمان أحد . أما بعد فان الله تعالى بسابق عنايته وبنور هدايته قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحدائث الى الاقرار برؤيته والاعتراف بوحدانيته والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته (الى أن قال) وأنفدنا أقضى القضاة قطب الدين والاتابك بهاء الدين وهما من ثقات هذه الدولة القاهرة ليعرفاهم طريقتنا ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جيل سنتنا وبيننا لهم أنا من الله على بصيرة وأن الاسلام يجب ما قبله الخ » .

وقال القلقشندي (في صبح الأعشى) ان أول من أسلم من ملوك هذه المملكة ترماشيرين فأسلم وأحسن اسلامه وأخلص وأيد الاسلام وقام به حق القيام وأمر به أمراءه وعساكره وذكر أيضاً عن بكدار أنه أسلم .

وقد بقي الاسلام في أعقاب الاويغور طائفة جنكيزخان الى يومنا هذا . ففي جغرافية اليزه ركوس أن الاويغور والطانغون سكان بلاد كانسو كانوا قديماً من عبدة اللاما ومن النساطرة فأساموا وأسلم بهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جفظاي ثم ازداد عددهم بمهاجرة المهاجرين من أهالي التركستان الشرقي ومسلمي المغول الذين بقوا من عهد تارنك وبهذا صارت الأغلبية للاسلام في هذا القسم من مملكة الصين .

ولما دخل ابن بطوطة الصين على ما ذكر في رحلته كان الاسلام فيها غنياً وافراً حسب ما يفهم من كتابه فهو يقول في الجزء الرابع من رحلته : وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكنائهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وعم معظمون محترمون .

ولما ذكر مدينة زيتون قال : وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما في بلدة سجاساسة في بلادنا وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة . ثم قال عمن تعرفه من صدور تلك البلاد وجاء الى قاضي المسلمين تاج الدين الأردوبلي وهو من الأفاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبدالله الأصفهاني وهو من الصلحاء وجاء الى من كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذين استندت منهم حين قدومي على الهند وهؤلاء التجار لسكنائهم في بلاد

الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم .

وقال عند ذكره مدينة سين كلان ان بعض جهاتها بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضى بينهم وكان نزولي عند أوجد الدين السنجاري وهو أحد الفضلاء الأ كبر وذوى الأموال الطائلة .

وذ كر عند وصوله الى مدينة قنجنفو ان المسلمين فيها يسكنون داخل السور الثالث وانه نزل عند شيخهم ظهير الدين القرلاني وقال عن الخنساء انها ست مدن كبار وان بالمدينة الثانية منها مسكن اليهود والنصارى والترك وبالثالثة مسكن المسلمين وبها المساجد ولأولاد عثمان بن عفان المصرى وهم كبراء المسلمين فيها زلوية تعرف بالعثمانية وبها طائفة من الصوفية والمسلمون كثيرون في هذه البلدة .

والظاهر أن الاسلام ما برح ينتشر في آفاق الصين حتى بلغ عدد أهله عشرات من الملايين . زعم سكاتوف أنهم عشرون مليوناً فقط وذهب الأ كثرون الى أن عددهم فوق هذا بكثير وأحصاهم صاحب كتاب (Le Mhaouétisme en Chine) المحمدية في الصين) خمسة وعشرين مليوناً وزعم بعضهم انهم أربعون مليوناً وقال آخرون انهم يربون أيضاً على ذلك وان السواد الأعظم في ولاية كانسو هو منهم وهناك مدينتا سالار وكنكيا بو محط رحال الطلاب والمتفقيين من جميع أقطار الاسلام الصينية . وقد أحصى عدد المساجد في بعض مدن كانسو فبلغ مئات وهو ما لم يعهد الا لعواصم الاسلام الكبرى مثل الاستانة العلية ودمشق والقاهرة وان كثيراً من ولايات الصين الشمالية ثلثها من المسلمين وهم أهل التجارة والكسب والعمل ولذلك تجد حالتهم أجمل وأزین من حالة بقية الصينيين وكثيراً ما يأخذون أولاد الفقراء من الوئيبين ويربونهم في حجر الاسلام خصوصاً عند حصول المجاعات الشديدة . وقد شدد فقهاؤهم عليهم في أداء الزكوات فيجمعونها في صناديق لكل بلد ينفقون منها في شدائدهم ويسدون بها عوز محاور يجهد المعدمين منهم قليلين ولهم بعضهم على بعض خان ورافة وحفيظة فيما بينهم وعلى عدوهم لا توجد في الأم التي نسا كنهم كذلك بسبب تجافهم الأفيون وأنواع المسكرات تجد أجسامهم أحسن

من اجسام غيرهم فهم يفوقون جيرانهم الصينيين صورة ومعنى ويسميهم الصينيون «هواى هواى» وهذا لقب طائفة الاويفور في الماضى وأما هم فيؤثرون أن يسما «كياومن» أى أهل الدين عطفاً على «ان الدين عند الله الاسلام». وسمعو بلاد يونان الجنوبية يعرفون باسم «بانطى» وجيع المسلمين هناك يتميزون عن سائر الأهالى بملاصحتهم وشاراتهم ووحدة ملابسهم ويلوح عليهم من النعرة والأنفة مالا يلوح على سواهم وكلهم من أهل السنة والجماعة وتسكنهم فى الفقه فئتان الخفية والشافية وهم يصكروهن جداً الاختلاط بالوثنيين ولا يزوجونهم وانما يأخذون من بناتهم فى الأحياء شراء بالدرهم.

وقد وقعت لسمى الصين فى هذا القرن مع أهل تلك المملكة حروب تسيب لها الأطفال اذا استقصى خبرها المؤرخ لم تكفه فيها المجلدات وملخصها أن اول ثورة حصلت هناك هى فى بلاد يونان بسبب عملة من الفريقين كانوا يعملون فى أحد المعادن فأسفر القتال عن الغلب للمسلمين وتكررت الحوادث والظهور لهم حتى بلغ الخلق من ولاية الصين مبلغه فاستنفروا اليهم الوثنيين قاطبة ونادوا باستئصال شأفتهم ونعفة آثارهم وذلك فى يوم معين من شهر ايار (مايو) أحد شهور سنة ١٨٥٦ فاستنعر المسلمون ذلك قبل وقوعه وأخذوا له أهبتهم وجرأوا واستلأموا فلما وقعت الواقعة توفرت الطائفة لجهتهم ولم تسئل الحكومة منهم مأرباً الا فى القرى التى مسلموها قليون. وتكررت الوقائع وصمد الفريقان بعضهم لبعض من أكثر جهات البلاد والمسلمون فى غلبة وظهور حتى افتتحوا عنوة مدينة «طالى فو» وهى منيعة حصينة من الطراز الأول فى حصون الصين وفتحوا منها طريقاً الى برمانيا يسربون منه اليها الميرة والسلاح ثم استولوا على مدينة «يونان فو» حاضرة البلاد ومضى على دولتهم هذه وهبوب ريحهم بتلك الأرض ثلاث عشرة سنة والصين لا تزداد أمامهم الا اتخذت حتى أيقنت أن لا قبل لها بهمهم بذباب السيف قالت الى اعمال الحيلة والندسائس وجاذبت زعماءهم حبال الرشوة ومنتهم الأمانى وأدرت عليهم العطايا الوافرة سراً وولدتهم الأعمال الخطيرة حتى فصمت عرى اتحادهم وحلت بنفثات سحرها عقدة جامعتهم بل استهالت بعض رؤسائهم الى أن وقفوا فى صفها يقاتلون بنى ملتهم فبديهي أن تنحل بعد ذلك عصبتهم وتفشل ريحهم وأن يزرع الصينيون فيها الانتقام حتى يهلك منهم ثلاثون ألفاً بحد السيف ويلحق اقوام منهم بمملكة برمانيا.

أما في شمال الصين فاستطاع شرر الفتنة سنة ١٨٦٠ وذلك في « هوانشيو » شرقي « سينغان فو » وكانت الدائرة على الصينيين وتأثرهم المسلمون في كل سهل وجبل يقتلون ويسبون ولكنهم عجزوا عن دخول « سينغان فو » لمناعة أسوارها ثم امتد طيب الثورة في تلك البلاد ونادى منادى الاسلام بيا للثارات فقاموا بقيادة الرجل الواحد وفر الصينيون والمغول من أمامهم وانهار المسلمون في أثرهم يشلونهم شلا ويستقصونهم أسراً وقتلا وامتلأت ولايات شانسي وآنسو عيشاً ودماراً والتجأ الوتنيون الى الكهوف والمغاور وظنوا أنها ما نعمتهم فلم تكن بما نعمتهم واشتمل الخراب على تلك البلاد حتى لم يبق قرية الا خوت على عروشها ولم يذر المسلمون الا على المسيحيين ولم يبق عامراً من تلك الجهات الا الأمصار الكبيرة بما أدير عليها من سياج الأسوار . وقدّر عدد الذين هلكوا في هذه المعركة بالملايين . وحدث بعض مؤرخي الافرنج أن من المسلمين من بلغ منه الخلق أن قتل أولاده وامراته ليتوفر على الجهاد . والحاصل أن هذه الفتنة كانت من أكبر الفتن واستمرت خمسة عشر عاماً كاد ينقطع أمل الصين في خلاها من استرداد البلاد ولكن لم يلبث الشقاق ان دخل بين المسلمين فأدخل عليهم الوهن وتشظت عصاهم قطعاً فنالت منهم عساكر الامبراطور واسترجعت الشانسي ثم الكانسو ثم معاقل تيان شان وبددت شمل الباقين من التوار في دز ونغاريا ولكنهم لا يزالون الى الآن أهل صولة وشوكة وشأنهم على ازدياد وجدهم في صعود ومنهم كثير من الحكام وقواد الجيش . وكثير من المؤرخين الأوربيين يظنون أن لهم وحدهم مستقبل السلطان في الصين . وقد بعثت الدولة الروسية مرة بعنا علميا جال في الصين وجلب آفاقها واطلع على دقائق أمورها فكان من جملة ما قرره تحذير الروسية من مستقبل الاسلام في تلك المملكة لأنه ينمو ويتقدم واذا أخذ يوماً بزمام الدولة انقلبت هيئة الشرق الأقصى انقلاباً عظيماً لأن الصين اسلامية ليست كالصين وثنية (وأتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (١)

(١) كان محور هذه السطور قد نشر مقالات متتابعة في مجلة القنطاف عن الصين وأحوالها في سنة ١٩٠١ وعقد فصلاً خاصاً بالاسلام في الصين يفتي إعادة نشره عن البحث والتنقيب في كتب ورحلات كثيرة لأنه تعمس تمهيداً جيداً (وهو هذا الفصل المتقدم) فلذلك نقلناه بينه عن مجلة القنطاف جزء تموز (يوليو) سنة ١٩٠١ . وانضيف اليه التحقيقات التي وجدت بعد هذا العهد مثل أقوال بيته أولون وكلام الانكليويديّة الاسلاميّة مع ملاحظتنا عليها .

وافد ذهب بعثة أولون الفرنسية غلات في كثير من بلاد الصين من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩٠٩ ونشرت عن مشهوداتها وما اتصلت اليه من المعلومات كتاباً ذكرت في مقدمته أن أصل ارسالها كان من نظارة المعارف لأجل فحص عام عن أحوال الصين . ولكن بعض العلماء استجلبوا نظر النظارة المشار اليها الى موضوع اسلام الصين بنوع خاص . فلذلك وجهت همها الى التحقيق عن أحوال المسلمين في الصين ونشرت ذلك الكتاب الذي تضمن خلاصة تدقيقاتها .

وهي ان المسلمين لم يكونوا يؤلفون في كل ولاية وحدة مستقلة قائمة بذاتها وان بين مسلمي الصين مذاهب مختلفة خلافا لما كان يظنه السياح من قبل وان الطرق الصوفية معروفة لديهم . وظهر لبعثة اولون هذه في آخر أيام سياحتها وجود علاقات سرية بين مسلمي الصين ومسلمي الشرق الادنى .

وبعد تحرير بعثة اولون ما حررته عن مسلمي الصين ظهر كتاب انكليزي اسمه (الاسلام في الصين) لسائح اسمه بر ومهال وذلك في ٢٥ يناير سنة ١٩١١ وهو كتاب قضى صاحبه ١٩ سنة في السياحة في الصين والبحث والتنقيب وأخذ عن نحو ٢٠٠ رجل أمدهم بمعلوماتهم . فتهاقت على قراءته رجال بعثة اولون لعلمهم يجدون شيئاً لم يحصوه في كتابهم فاذا به يزعمهم لم يكشف شيئاً جديداً فانهم واذا هو لا يخرج عن كتاب تيرسان Thiersant الفرنسي .

وبحسب تحقيقات بعثة اولون كان ظهور الاسلام في ولاية ينان وربما في كل الصين على يد الرجل الملقب « بالسيد الاجل » وهو سيد شريف من آل البيت اسمه شمس الدين عمر دخل في خدمة دولة الصين ونصح لها وكان من أفراد الرجال في جميع المزابا فتقدم في الدولة وتولى المناصب العالية وانتهى الامر بأن السلطنة عهدت اليه بولاية ينان فأفاض الخير ونشر الامان ووزع العدل وأتى من المائتة مالاً يزال الصياديون يلهجون به الى هذا اليوم وكان دخول الاسلام الى ينان في عهده .

وجاء في تاريخ « كيوسين تانغ شو » انه في صدر الاسلام ورد الصين عسكر عربي عدته ثلاثة آلاف ومن ذلك الوقت دخل الاسلام في الصين ويطن ان هذا الحادث وقع سنة ٧٥٦ مسيحية .

ويقال ان أصل مجي المسلمين الى الصين هو لأجل معاضدة سلطان مخلوع من سلاطين الصين . ومن ذلك الوقت صاروا يخدمون قواداً وأجناداً في بلاط السلاطين وبقيت هذه العادة الى عصرنا الحاضر فيجد الانسان توابير تامة من المسلمين يقودها أمراء من المسلمين في دولة الصين .

وأما السيد الاجل فقد اطلعوا في ينان على تاريخ محرر في سنة ١٦٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيز خان الى الغرب جاء السيد الاجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطاقته (١٢٠٦ - ١٢٢٩) ولما آل الأمر الى السلطان أوغوناي (١٢٣٠ - ١٢٤٢) ولاء ثلاث ولايات وهي « فونغ » و « تسينغ » و « يون ناي » ثم استدعاه الى باكين وعهد اليه بمنصب عال . ثم لما تولى السلطان نانغو (١٢٥١ - ١٢٥٩) عهد اليه بادارة ست نظارات بالاشترك مع (تا اول هوان) ثم جعله مديراً عاماً لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الادارة جداً فعهد اليه بنظارة الاستخبارات . ثم لما زحف السلطان الى بلاد (نسو تشوان) جعله ناظراً لليرة العسكرية فقام بها أحسن قيام فلما تولى السلطان قوبلاي أعطاه رتبة الوزارة وجعله عضواً في مجلس أمانة السر الاعلى . وكان كلما تقلد حملاً ظهرت فيه فضائله وحاز رضى السلطنة . وسنة ١٢٧٤ تقدم اليه السلطان في ان يقبل ولاية ينان وكانت أحوالها مختلفة وكان أهل ينان شديدي الغباوة والجهل فلما ذهب الى هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة نفاق هذا منه و اراد أن يجاذبه الجبل الا ان السيد الاجل بحكمته وحسن سياسته استماله اليه وصيره صديقا . وكانت تلك الولاية في غاية الانحطاط والبلاد خرابا فنشر السيد الاجل العلم وبنى المدارس واعتنى بتهديب الاخلاق وكذلك وجه همه الى عمارة الارضين فهد الطرق وبنى المعابر والجسور والسدود لاجل المياه مما تلاق به خطر القحط فكانت بعض الانهار تطفئ على الاراضي فتذهب بها زروع الفلاحين فجعل لها حواجز تقي من ضرر العلفيان . وكانت أراضي أخرى تعطش في الصيف من قلة المياه فبنى خزانات وحياضا احتياطا من وراء العطش . وأزال المغارم والمظالم وأبطل السخرة وشيد ملاجئ للايتام والعجزة وخفف المكوس وأحدث أنموذجات زراعية يحتذى على مناهل وحفر الآبار وأقام الأسواق وأدخل في طاعة الدولة مالا يعد ولا يحصى من الأقوام وأثناء وجوده في تلك الولاية عمر مساجد للإسلام ولكنه شيد أيضاً هياكل لكونفوشيوس

ولبودا . وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة فيحدها من الشرق سونغ ومن الغرب
يرمانيه ومن الشمال التبت ومن الجنوب آنام . وبحسن سياسة السيد الاجل خضع ملوك
التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن مالك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر الى السيد الاجل
بالزحف اليه فلما سار بالجيش رآه الناس حزيناً كثيراً فسألوه عن سبب كآبته فأجاب :
است كثيراً لموني ذاهباً الى الحرب بل لكوني أتصور منكم كثيراً سيهلكون في هذه
الملحمة بدون ذنب اقترفوه وأنهم سيقتلون وينهبون أناساً كثيراً من مواعين لا ذنب
لهم أيضاً . ولما وصل الى مكان الثورة أرسل الى الثوار يعرض عليهم التسليم فلبثوا ثلاثة
أيام لا يجاوبون فهاج العسكر وطلب القواد الاذن بالهجوم فلم يأذن لهم بل راجع رئيس
الثوار في أمر التسليم فأظهر هذا الطاعة لكنه لم يسلم البلدة فوثب رؤساء الجند على البلدة
فغضب السيد الاجل واستدعاهم وقال لهم : ان ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد ينان وأحكم
فيها بالعدل والأمان لا بالقتل والعموان فلا أرضي أن تهاجوا البلد ما دام الثأرون وعدوا
بالطاعة فان أيتم الاسفك الدماء جزاؤكم القتل . ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم
خلاقاً لأمره . فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وسلموا وسكنت البلاد وأطاعت على
بكرة أبيها .

وكان سائر العمال يفتدون بيرة السيد الاجل ويتباهون بأعماله فأمنت السوابل
واستراحت الرعية وساد العدل وفاضت الخيرات وعمرت البلاد وصار يقال هنيئاً لبلاد ينان .
أما آثاره في الزراعة فلا تزال بقاياها الى الآن وإن كثيراً مما بناه من الجسور لا يزال قائماً
الى يومنا هذا .

وكانت بلاد « تشاوتيان » تطنى عليها الأنهر فتتحول الى بحيرة ، فخر السيد الاجل
نهرأ حدر اليه تلك المياه كلها فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يفرها من قبل . وخر
ترعا كثيرة وخلصا لسقى البقاع المحتاجة الى الري . وجعل يريداً مؤلفاً من ٣٦٠ فارساً
وحراساً بقدرهم يسهرون على السود بحيث اذا حصل فتق في أحدها أسرع البرد
باختبار الحكومة جمعت الحكومة الاهالي وتمضوا الرق الفتق .

ومات السيد الاجل رحمه الله سنة ١٢٧٩ (مسيحية) فكان له ماتم عم الصين

بأسرها وبكاه أهل ينان كما يبكي الاولاد أباهم . وعم الحداد البلاد المجاورة الى بلاد سونغ وتبت وغيرها وذبحت القرابين في البلاط السلطاني .

وخلف خمسة أولاد و ١٩ حفيدا فكان خلفه في الامارة ابنه ثم ابن ابنه وتداول أحفاده الامارة وكانوا جميعا أعضادا للسلطنة .

وفي أيام دولة « مينغ » راجع السلطان « ناي تسوكاو هوانغ تي » (١٣٦٨) — (١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية ووفرة آثار العمران مثل السيد الاجل فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه « ين تشو شو » وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في المملكة وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الاجل وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هياكل تذجج فيها القرابين عن روحه .

وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة للسيد الاجل بقلم « تشينغ هو » ويوجد في بلاد ينان هيكل باسم الأمير « هيان يانغ » وهو لقب السيد الاجل عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الاجل الى اليوم وأسرته معروفة منذ ٨٥٠ سنة . وأما أولاده الخمسة فأولهم نصير الدين والصينيون يقولون له « ناسولا تينغ » صار وزيرا للدولة ثم واليا على شنسي ثم على ينان ومات سنة ١٢٩٢ والثاني حسن صار قائدا عاما لجيوش « كوانغ تونغ » والثالث حين صار وزيراً للدولة ثم والياً على ولاية « كيانغ سي » ثم والياً وقائداً عاماً لولاية ينان بعد أخيه نصير الدين والرابع شمس الدين عمر كان مديراً عاماً لمقاطعة « كين تشانغ » من ولاية كيانغ سي والخامس مسعود والصينيون يقولون له « ماسوهو » وصار وزيراً ثم والياً على ينان .

أما أحفاده فأشهرهم « بايان فنتشان » من أولاد نصير الدين صار وزيراً للعدلية ثم والياً عاماً على ينان بعد عمه الحسين وقد نال ألقاب جده كلها وأسرع لتجدة الامبراطور في باكين فقال لقب الأمير الأمين المجتهد . وهو الذي رُم السجد الأعظم في سينغان فونال للدين الاسلامي من الدولة الصينية اسم « الدين الطاهر الحق » . ومن أولئك الاحفاد عمر والصينيون يقولون له « قوما أول » وكان من وزراء الدولة وصار والياً على « كيانغ تشو »

ومنهم جعفر كان قائداً عاماً لصاكر « كينغ هو » ومنهم حسين صار وزيراً للدولة وخلف أخاه بايان تشيان على ولاية ينان . وشادى صار حاكماً فى إحدى مقاطعات ينان . وأيوب والصينيون يقولون له « ايونغ » وكان مدير قلم التشريعات فى دار القرايين . وبيانشار صار وزيراً للقلم الأعلى ولقبه الامبراطور بالجنابى الأكبر . وبرهان وصار حاكماً فى « يونان سين » و « كولى » وكان قائداً عاماً لصاكر هونان

ومن أحفاد أحقاد السيد بعده بسبعة بطون رجل يقال له حاجى والصينيون يقولون له « سى هانشى » أدى اليه سلطان الصين مبالغ من النفود بنى بها مساجد فى نانكين وسينغان فو . ومن أعيان هذه الاسرة رجل اسمه يوسف بينه وبين السيد الأجل ١٤ بطناً ولد فى نحو سنة ١٦٠٠ والصينيون يسمونه ماشيكونغ وكان عالماً فاضلاً ذهب الى باكين سنة ١٦٦٥ واستشاره الامبراطور فى الأمور الدينية والعسكرية وصار مدرساً فى مدرسة « كرونسوكين » وسنة ١٦٨٥ نشر كتاباً اسمه « بوصلة الاسلام »^(١) ومنهم فى عصرنا هذا أمير الأي كان فى الجيش الصينى سنة ١٩٠٧ . ومنهم رئيس جماعة مسلمى « ينان فو » وناظر أوقافهم . ورأس هذه الأسرة اليوم هو « نافانسينغ » امام جامع ماشوكيا .

ويوجد أسر أخرى هاشمية فى الصين فان كتاباً اسمه « حياة محمد » ألفه صينى اسمه « ليوتشييه » فيه مقدمة من قلم رجل يقال له سايبو من ذرية الرسول ﷺ وتاريخ هذا الكتاب سنة ١٧٧٥ .

وسنة ١٤٤٥ كان فى مدينة سينغان فو أسرة شريفة نبوية منها حافظ بن كولى محمد ابن الشريف بدر الدين بن شمس الدين . والذي يظهر أن الثورات التى قام بها المسلمون فى القرن الماضى قد أضرت بهم وأوقفت تقدمهم ولولاها كانت لهم الكلمة العليا فى حكومة الصين . وقد ظهرت لبعثة أولون آثار الفتننة الأخيرة ورأت بعينها الخراب الذى أصاب الديار ولحظت النقص الذى لحق بالنفوس والثمرات وعرفت أن كثيرين من المسلمين لا يزالون تحت المراقبة . وقد سألت بعثة أولون أحد أدباء « لان تشيو » واسمه « فوق بين » قبل لها انه أعلم من يوجد بأخبار هذه الثورة فقص لها ما يأتى : —

(١) البوصلة ابرة المغنطيس التى يستمد عليها البحارة

« سنة ١٨٦٤ تارت فتنة في الشرق والغرب من الصين أصلها اثنان « مياو باي لين » و « ماهو الوونغ » فأخذوا يعيشان فساداً في كانسو واتصل الثاني منهما بشوار كانوا عصوا في جنوبي شنسي وشمالها فأثار أهالي « تينغ هيا » وأهالي « شان هوا » وأهالي « مينغ تيا ولينغ » وهذه هي مدينة في شمالي سور الصين فسافت الحكومة جيوشاً على تينغ هيا وحاصرتها وقتلت خلقاً كثيراً ثم افتتحتها عام ١٨٦٥ بعد حروب طويلة . إلا أنه سنة ١٨٦٨ عادت الثورة فاشتعلت فسافت الحكومة جيوشاً وسفكت دماء كثيرة واستردت كثيراً من المدن العاصية . وسنة ١٨٧١ أسرت ماهو الوونغ وزعيماً آخر اسمه مابانسيو وصلبتهما وهاجت مدن هونشيو وسينينغ وسوتشيو وأخذت الثورة في جميع بلاد شنسي وكانسو . وسنة ١٨٧٤ زحف جيش « ليوكين تانغ » وجيش « كين شوان » قاصدين الزعيم الديني « باي ين هو » وهاجما « نغان نسي ين » أو كاشغر فانهزم الزعيم الى أرض الروس وقتل ملك كاشغر وتحددت حدود « سين كيانغ » أي التركستان الصيني من الشمال والجنوب . ونصبت الصين ليوكين تانغ والياً عاماً على كاشغر انتهى

فظهر من هنا أن ماهو الوونغ الثائر المسلم حمل كبر الثورة مدة ست سنوات ولولاه لم يتمن يعقوب بك سلطان كاشغرن يعمل شيئاً وأن سلطنة كاشغر لم تستمر ١٣ سنة الا بفضل ثورة ماهو الوونغ المذكور وقد لعب الدور الأعظم في قتال المسلمين الجنرال « تونغ فوسيانغ » وهو هو الذي ترأس ثورة اليوكسر الشهيرة على الأوربيين سنة ١٩٠٠ ولما طلبت دول أوروبا من الصين تسليمه فر الى كانسو وتخبأ بها . وكانت له قصور شاهقة وأراض واسعة ومات سنة ١٩٠٧ وأعيدت اليه بعد الموت الألقاب التشريفة التي كانت دولة الصين تزعتها منه اجابة لطلب الدول وكانوا يظنون في أوروبا هذا الجنرال مسلحاً وذلك لوجود عساكر كثيرة من المسلمين يلبسون العمام في جيشه فالتبس عليهم الأمر والحقيقة أن هذا الجنرال كان أعدى أعداء الاسلام وأنه من شدة خبثه ومكره ضرب بعضهم ببعض وأوقع بأسهم بينهم لا سيما بواسطة القائد المسلم « مغان لينغ » الذي فتك كثيراً بأبناء ملته .

وأما ثورة بنان فاستمرت من سنة ١٨٥٥ الى ١٨٧٣ وانتهت بالويل على المسلمين . وسبب انكسارهم اختلاف رؤسائهم وعدم تذكرهم قوله تعالى « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » فان الثائر « توفنسيو » نودي بمسلطانا في « تالي » ولكن الزعيمين

« ماتوسين » و « ماجولونغ » قاتلاه وانتصرا لحكومة الصين . وكان للثائر ماهوا لونغ شيعة يقولون انه قطب الوقت وان القطبانية انتقلت بعد وفاته الى خلفائه . وقد خلفه صهره « ماتاهي » وفي سنة ١٩٠٨ كان عمره ٥٥ سنة وحفيده « مالول هي » وكان عمره ثلاثين سنة تبع كلا منهما حزب الا أن حزب الصهر أعظم . ومركز الصهر « شاكيو » ومركز الحفيد « نانغ كياوتشوان » وهذه هي ناحية عظيمة الشأن في اسلام الصين فيها مدرسة كلية لهم في « بينغ لينغ » وهذه الفرقة تلقب سائر المسلمين بالظاهرية . ويقولون في كانوا ان الخلفاء الراشدين الأربعة أسواكل منهم طريقة فأبو بكر طريقته الخفية يذكرون بصوت منخفض والثانية الجمهوريّة يذكرون بصوت عال وهي طريقة عمر والنائنة الكبارية أو الكبرى وهي طريقة عثمان لأنه كان كبيراً مسناً والرابعة القادرية وهي طريقة علي . والحاصل أن الانتقام الذي يراه السياح الأوربيون ورواد حكوماتهم بين مسلمي الصين ويؤولون له التأويلات بحسب عاداتهم هو عبارة عن فرقة القائلين بالشرعية المحضة بدون نظر الى التوصل وفرقة القائلين بالتصوف والآخذين بالطرق على أنها لاتنافي الشرعية . فالأوربيون مثل بعثة اولون يرون في ذلك ديانتين .

ومن عادة مسلمي الصين أن يشتروا أولاد الوثنيين ويربّوهم في الاسلام روى ذلك تيزسان صاحب « الحمديّة في الصين » وغرونارد Grenard وقالت بعثة اولون انها لما حرت من هناك كانت في الصين محضة شديدة فكان الصينيون يبيعون أولادهم والمسلمون يشترونهم لأن المسلمين يتماسكهم أيسر حالا من الصينيين . وفي ثورة البوكسر قتل ألوف من المسيحيين ونهبت أموالهم وبيعت نساؤهم وأولادهم فاشترى مسلمو « نينغ هيا » عدداً منهم وهذا محقق لأن مطران مغولية كان يسعى في استردادهم .

وفي شمالي نينغ هيا عاد الاسلام ينمو ويزداد وجميع المسلمين يشجرون بالجلد والصوف وكل نواتية الأنهر لاسيما النهر الأصغر هم منهم . والمدينة التي على هذا النهر المسماة « باوتار » شغلها كله في أيديهم . والمدينة المسماة « كوكوكوتا » أي الزرقاء التي فيها من كل الأجناس يسكنها ٢٠٠٠ أسرة مسلمة . ويقول اولون انه صادف فيها رجلا مسلما يعرف وجود الخليفة في الاستانة لأنه كان ذهب الى باكين وتلاقى مع علي رضا وحسن حافظ ورجع ومعه منورها ، وصورة راية الخليفة . قال اولون : على أنه اذا انفتحت هذه الدعوة هناك

دخل الاسلام الصينى فى طور جديد . ولكن أولون لو انتظر الى هذه الأيام لعرف أن كثيراً من حزب التجسد فى الأتراك يرون اخلافة ضرراً عليهم ولذلك قد ألقوها وأخرجوها من الاستانة .

وكان السلطان عبد الجيد أرسل من الاستانة حسن حافظا وعلى رضا فأسس مدرسة فى مسجد نيوكياى كان فيها ١٢٠ طالبا وأقبل المسلمون عليهما لالكونهما قادمين من قبل خليفة المسلمين لأن هؤلاء فى الصين لم يكونوا يعرفون هذا الأمر وإنما احتفلوا بهما لأنهما آتيان من الآفاق التى ظهر فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولقد بث هذان الداعيان روح الانضمام الى الخلافة ورفع العلم العثماني وزارا بلاد هولندا وبنان وهواى وكوانغ تونغ أعظم الحواضر الاسلامية ونشرا فى الصين الجرائد الاسلامية منها عثمانية أو تركية ومصرية وروسية وبلغارية ويوجد اليوم جريدة اسلامية فى باكين اسمها « تشنغ تسونغ نقاى كوباو » أى الجريدة الوطنية .

وفى باكين ٢٩ جامعا أكبرها « نيوكياى » ومنها جامع « سيتان باى ليو » كان هيكلا وثانياً الى سنة ١٩٠٠ فلما نارت ثورة اليوكسر جعلوه مركزا لهم فلما زحفت جيوش الدول الى باكين خاف الصينيون أن يحرقوه فعرض أحد علماء المسلمين أن يحمله جامعا ويرفع منه الأصنام حتى يظنه الأوربيون مسجدا للاسلام فلا يتعرضوا له فرضى الصينيون بذلك ولما انتهت الحرب أبقوه جامعا وهو من أعظم جوامع باكين .

أما بلاد كاشغر فبعد أن خدت فيها الثورة أخذت الدولة الصينية ادارتها بيدها وجعلت فى كل من مدنها الكبار مفوضاً امبرطورياً وقائداً عسكرياً . فدن غربى كاشغر هى كاشغر وباركند وياتى حصار وقوطان . وأما مدن شرقى هذا القطر فهى أوش واكو وكوتشار وبيدجان وهالى وطورقان وهار اشار . والجميع احدى عشر مدينة كل منها يتبعها مدن عديدة فعين لكل منها قاض انفصل قضايا المسلمين ولا بد لكل هؤلاء أن يذهبوا كل سنة مرة الى العاصمة كما أنه يأتى كل سنة مفتشون من العاصمة للتفتيش عن أحوال المسلمين .

أما الانسيكو بيديتة الاسلامية فتذكر ما ملخصه : أن أصل دخول الاسلام فى الصين هو لأجل التجارة لأن المسلمين بعد أن تاملت دولتهم فى بغداد سارت سفنهم من خليج

فارس الى الهند والصين وعرفوا نفور الصين من صدر الاسلام كما أنهم من الجهة الأخرى دخلوا الى شمال الصين بواسطة الترك من زمان جنكيزخان وأعقابها فان جنكيزم يكن يعبأ بالدين وكان يجمع حوالبه من جميع الملل ودخل في جنده كثير من الترك والأفغان والباتان وأناس من الفرس وفي زمان قوبلاي خان دخل جماعة من الفرس في خدمة دولة الصين وذكروا منهم ابن بطوطة أناساً في رحلته وأشار اليهم السائح الايطالي ماركو بولو وكان كل هؤلاء مسلمين فنشروا الاسلام في الصين . وكان في زمن جنكيز اتصل بخدمة بلاطه رجل من بخارى يدعى أنه من آل البيت اسمه السيد الأجل ولهذا الرجل تراجع عديده ذكرتها الأنيسكو بيديه ونقلت منها تنفاً وقالت ان ماركو بولو تكلم على ابنه نصير الدين وروت كثيراً من أخباره عن رحلة أولون واليه والى ابنه هذا نغزو ظهور الاسلام في ينان .

أما حالة المسلمين الاجتماعية فهي كما هي في سائر بلاد الاسلام والعمل انما هو بالشرع الشريف . على أن تيرسان يروي أن مسلمي الصين مضطرون في أمر الزواج أن يتقيدوا بقانون المملكة الصينية ولو خالف الشرع ولا نعلم مبلغ ذلك من الصحة . ويقول أولون ان الحجاب غير مفهود عند نساء المسلمين في الصين بل النساء يخرجن سافرات وهكذا يقول غيره ناز الا أنه يقتنى من ذلك نساء الأغنياء ، وفي هونشو يتنقب النساء المسلمات بنقاب أسود تحت الاعين . وعادة وضع القدم في القالب لتصغيره معروفة عند المسلمين كما عند سائر الصينيين وفي كانسو يتنافس بها المسلمون أكثر من سواهم . ويتزوج المسلم بالصينية بل يستحب أن يأخذ غير مسلمة لعل الله يشرح صدرها للاسلام ولكن لا يجعل مسلمة أن تزوج بغير مسلم . ومع التشديد في منع ذلك يوجد حوادث مستثناة فان الامبراطور « شيسين لونغ » كان متزوجاً بأبيرة تركية مسلمة . أما العفة ومهارة العرض فهما محفوظتان عند المسلمين اكثر مما هما عند سائر الصينيين .

واحترام الآباء والاجداد معروف عند مسلمي الصين ، وتراهم يحفظون شجرات الانساب كسائر أهل الصين . ولا يوجد عندهم تفاوت في الطبقات الاجتماعية الا ما كان من تعظيم آل البيت وتمييزهم ولكن مسألة ادعاء النسب النبوي غير فاشية هناك كما في سائر بلاد الاسلام لذلك عدد أصحاب هذه الدعوى قليل وكان منهم الزعيم الثائر ما هو الوونغ . أما

سحنة مسلمي الصين فهي في الغالب كسائر أهل الصين وإنما يجد فيهم الرأي كثيراً من السحنات العربية والتركية بسبب المهاجرة وبجى الطراء . وعلى كل الأحوال فالسواد الأعظم من مسلمي الصين هم من السلالة الصينية ولقنتهم هي لغة الصين وكتابتهم هي كتابة أهل الصين وإن كان يوجد في لهجة نطقهم ما لا يخلو منه مكان من الاختلاف بحيث يعرف الصيني المسلم من الصيني الوثني من لهجته . ولا شك أن اختلاف الدين أوجد بين الصيني المسلم والصيني الوثني تبايناً كبيراً فالمسلمون يرون أنفسهم أعلى جداً من الصينيين وهؤلاء يلقبون المسلمين باسم « هوى هوى » والمسلمون يكرهون هذا اللقب ويعجبون أن يقال لهم « باي شان » أى أصحاب العمام البيضاء . ويوجد في الصين جنس من الإسلام هم ميايون لسائر مسلمي الصين وللصينيين في اللغة والسحنة وهم قوم يقال لهم « السالار » يسكنون على الضفة اليمنى من « هوانغ هو » وما جاوره فهؤلاء يشبهون آراك كاشغر في الخلقة ولقنتهم من التركي المحرف ومذهبهم حنفي ويعرفون الحروف العربية ولا يوقدون البخور ولا يضعون أسماء سلاطين الصين في جوامعهم وهم يجهرون في الصلاة وقد ظهر بينهم مرشد في نحو سنة ١٧٥٠ اسمه « مامينغ هسين » أو محمد أمين وهو الذي يقلدونه إلى الآن .

ويمتاز مساعو الصين على سائر الصينيين بعلا الهمة وقوة الجسم فتجدهم من أجل ذلك مشغوفين بالخدمة العسكرية وتجد عدداً كبيراً من ضباط الجيش الصيني مسلمين ومنهم كثير في المناصب المدنية إلا أنهم في المناصب العسكرية أرغب . وأما المهن فإن بعضها يكاد ينحصر فيهم وذلك نظير المكاراة وقيادة المواشي ويقال لصاحبها « مافو » فإن هذه المهنة هي فيهم خاصة وكذلك حرفة الخانات والاماكن المعدة للمسافرين فهي مما يختص بهم . وبالأجمال تجد الصينيين أقوم من المسلمين على الزراعة وتجد المسلمين أقوم من الصينيين على تربية المواشي

وأهل الصين ينظرون إلى المسلمين بعين الحذر ويعتقدون أنهم يريدون تأسيس سلطنة ضمن السلطنة ولذلك تجد المسلمين يميلون إلى الأوربيين بعض الميل ويعجبونهم أخوياً بأبناء الصينيين . وإن كنت تجد في قواد الجيش الصيني من المسلمين من اشتهروا بغضب الأجانب فالعامل فيه هو غطرسة الأجانب الأوربيين لا التعصب الصيني . وبما لا يتكر أن مسلمي الصين يلجأون إلى جميع الوسائل لأجل زيادة عددهم في المحاصمات

أولف من أولاد الوثنيين ويربونهم في الاسلام ويجذبون الى دينهم كثيراً من الصينيات بواسطة الزواج . وضباط الجيش من المسلمين يهدون الى الاسلام كثيراً من جنودهم . وقد أخبر أولون أنه صادف جمعا من الذين أسلموا حديثاً . نعم ان ثورات المسلمين الاخيرة وقفت سير الاسلام بعض الشيء ولكن مما لا نزاع فيه وما اتفق عليه جميع سياح الاوربيين الذين سبوا غور الصين أنه لا يعد مستحيلا دخول الصين في الاسلام لاسيما بعد أن أعلن الصينيون المجددون سنة ١٩١٢ كون الماندشو والمغول والمسلمين والتبتيين والصيدين كلهم متساويين ويذهب بعض الاوربيين الى امكان حصول ديانة جديدة يمزج فيها الاسلام بعقيدة كنفوشيوس لاسيما أن في العالم الاسلامي حركة دينية ظاهرة نحو التجدد .

أما الحركة الدينية الحاضرة في اسلام الصين فهي عبارة عن أن « ماهو الوونغ » الذي تقدم ذكره قام بطريقة خاصة من قواعد الجهر في الصلاة وارتداء الأيدي بدل القبض والاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور وتزعم بعثة أولون أن المسلمين الصينيين انقسموا بذلك الى قسمين : أصحاب الديانة القديمة ويقال لها « لاوشياو » وأصحاب الديانة الجديدة وتسمى « سين شياو » وعقبت على ذلك الانسيكلو بيدي الاسلامية بقولها ان هذه الحالة هي في سائر بلاد الاسلام فان هناك من يتمسك بالأولياء والأقطاب ويعتقد بتصرفهم في الكون باذن الله ، ومنهم من لا يعتقد بذلك ولا يخرج عن ظاهر الشرع

ثم ذكرت الانسيكلو بيدي أن السلطان عبدالحيد فكر في الاستفادة من مسلمي الصين بإيجاد علاقات معهم باسم الخلافة فأرسل الى الصين سنة ١٩٠٠ أحد القواد وهو أنور باشا^(١) لهذه الغاية فأخفق أخفاقاً تاماً . ثم ان الاهونغ^(٢) وانغ هاوزان الياس عبد الرحمن مفتي باكين قدم الى الاستانة فالتمس من السلطان ارسال بعثة اسلامية الى الصين فأرسل اثنين هما علي رضا وحافظا فأسسا مدرسة سنة ١٩٠٧ . وجاء في بعض بلاد الاسلام « ولكن الحكومة الصينية قضت على الدسيسة التركية » فالتجأ ذاك التركيان الى سفارة المانية في باكين ووعلت سفارة المانية في الاستانة بأن تحمل سفارة المانية في الصين على حاجتهما ولكن الحكومة الصينية لم ترد أن تسمع كلاما فلما رأى المرسلان المذكوران أن السلطان

(١) غير أنور باشا الصيد ناظر الحرية

(٢) الاهونغ عند أهل الصين العالم المسلم

تركهما التجأ الى سفارة فرنسا فحتمتهما ثم عادا الى الاستانة ولا يزال في تركية الدستورية نية تأسيس سفارة في باكين وهي جنة ليست على ما يظهر قريبة التحقيق (كذا).

ثم أردفت ذلك بقولها : انه وان كان المستقبل لا يأذن بالتكهنات . فيمكن مع ذلك أن يقال ان استيلاء الاسلام على الصين وظهوره على سائر أديانها هما شيح لا يفيد المسلمين سوى الخراب والخسار . ولكن اذا كان بتسلسل حوادث غير منتظرة تحققت آمالهم في هذا الأمر ولو لمدة موفقة فتكون مصيبة على الصين لأن الاسلام ليس بدين مدنية والاسلام هو قبل كل شيء عدو للمدنية الافرنجية حال كون استعداد الصين انما هو لاقتباس هذه . فان كان المسلمون يريدون الاشتراك في حركة التجديد الصيني فلا بد من أحد أمرين : اما أن ينقادوا الى الأفكار الجديدة ويسروا مع دعاة الاصلاح الصينيين الى تجديد مملكة صينية على قاعدة القومية الصينية وبذلك يكونون غير مجرمين . واما أن تبقى في قلوبهم نيات الفسلط على سائر الصينيين فبمجرد ظهور هذه النيات بسحقهم الصينيون سحقاً لأن المسلمين عددهم قليل جداً في وسط رؤساء الحركة الاصلاحية وان الأمة الصينية تحسن عملاً في الحذر من العناصر الاسلامية التي في داخلها وفي منع نمو الاسلام في الصين بشراء أولاد الصينيين . انتهى بالحرف .

وقد يأخذ القارئ العجب كيف ان دائرة المعارف الاسلامية تصرح بمنثل هذه الأقوال التي فيها من التحامل والبغضاء وسوء النية بحق المسلمين مالا يمكن المراء فيه . ولماذا ارسل السلطان عبدالجيد بعثة تهذيبية الى باكين يعد « ديسية » وبعثات الدول الأوربية التي هي مائة الصين والشرق والغرب لاتعد « دسائس » ؟ ولماذا وجود سفارة تركية في باكين يعد جنة حال كون أولى الأمم بأن نكون لهم سفارة عند الصين هم الترك نظراً لتجاور الترك مع الصينيين ولوحدة الأصل ثم لماذا يجب على الصين هذا الحذر كله من الاسلام والاسلام دين قسم وافر من أهلها ولا يجب عليها الحذر من الافرنج الذين ماتشبوأ أصابعهم في مكان الا انتهى الأمر باستيلائهم عليه واستعبادهم لأهله ولماذا الدين الاسلامي عدو للمدنية وقد شهد كثير من أعظم أوربا ونخبة المستشرقين انه خدم المدنية ؟ وأخيراً لماذا يغار هذا الكاتب على الصينيين أكثر من غيرتهم على أنفسهم فانهم تسامحوا مع المسلمين في تركهم يأخذون أولادهم في المساعب ويربونهم في حجر الاسلام وهذا الكاتب

لا يسمع في ذلك .

ولكن من علم أن محرر هذا الفصل من الانسيكلو بديبة الاسلامية الفرنسية هو الاستاذ المستشرق مرتين هارتمان الألماني بطل عجبه . فان هذا الأستاذ قضى حياته في محاربة الاسلام والاجتهاد في اظهار معايبه والتحاميل عليه في كل فرصة وهو أشبه بلامنس اليسوعي يكون كل منهما استشرق في مدينة بيروت ووقف عمره على مجادلة الاسلام وأسس في هذه السبيل العنان طواه واحنة صدره . عرفت هارتمان هذا وأنا طالب في مدرسة الحكمة في بيروت لم أتجاوز الخامسة عشرة سنة من عمري ثم لقيته بعد ذلك باثنين وثلاثين سنة في برلين وهو محرر في مجلة « الشرق الجديد » أثناء الحرب . وكان يتردد الى « ولم أكن أعرف حقيقة مشربه ولا اطلعت على كتاباته اذ ذاك الا أنه قيل لي مرة ان الأستاذ هارتمان كان من ألد أعداء الأتراك لا يفتقر عن الطعن فيهم فما باله عاد الآن يحميهم طريقتهم أترى ذلك من أجل كون الترك حالفوا الألمان ؟ فبحثت عن السبب فعلمت أنه رضى عن الأتراك بمجرد ما علم أن فئة منهم تسير في خطة غير اسلامية ولهذا كان معجبا بمبادئ ضيا كوك ألب وأمثاله . وحدثني المرحوم الشيخ صالح التونسي أنه جرى اجتماع في برلين أثناء الحرب حضره كثير من المسلمين فقام هارتمان وعرف الجهاد عند الاسلام بكيفية تقشع منها الأبدان فانبرى له الشيخ صالح وتكلم في حقيقة معنى الجهاد وفند دعوى هارتمان في الأمور التي زعم أن الشرع يجيزها للجهاد فأجاب هارتمان أن ما يقوله الشيخ صالح هو شيء جديد غير ما في الشريعة . فرد عليه الشيخ صالح بقوله بل هذه هي أحكام الشريعة وان هارتمان يجعل الشريعة وطالت المشاحة بينهما وفصل بينهما الاستاذ المستشرق ميتفوخ وقال ان حد الجهاد هو ما قاله الشيخ صالح لا ما قاله الشيخ هارتمان .

ومن أغرب شواهد التهور الذي كان عليه هارتمان هذا في احتقار الاسلام أنه في مقالته عن الصين هذه أشار الى الحديث النبوي الذي نقله المستشرق المجرى غولد سيهر وهو : « اتركوا الترك ما تركوكم » فهزأ به وزعم أنه حديث موضوع يقصد به اضافة العلم الى النبي ﷺ وتعظيم قدره والحال أنه قديكون محمد لم يسمع بذكر الترك في حياته . ولولا كون هارتمان قدم مات بعد الحرب بقليل وقبل أن اطلعت على جلته هذه لكنت أظهرت له ما فيها من قلة المعرفة وعدم التمييز وفساد الاستشراق واثبت له أنه لا يضح أن يعد مستشرقاً

من يعتقد أن سيداً من سادات العرب — بصرف النظر عن النبوة — لا يعرف وجود الترك في الدنيا مع أن العرب في الجاهلية كانوا يعرفون الترك والروم كما يعرفون العجم. وكان اسم الترك معروفاً لديهم واردة في أشعارهم ولم يكن جهل العرب واصلاً إلى حد أنهم يجهلون وجود الترك. وإنما القول بأنهم كانوا بهذه الجهالة هو عين الجهالة وقلة العقل والظن بأن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب ربما لم يسمع في حياته بوجود أمة اسمها الترك هو منتهى الصغارة والضعفة ولا يشابهه إلا أقوال لامنس اليسوعي التي يأسف من يقرأها على تصدر أناس أعماهم الغرض إلى هذا الحد لدعوى الاستشراق وتصديهم للكتابة عن الشرق والاسلام. وقد صنف الميسودييه Dinei وسليمان بن ابراهيم كتاباً بالفرنسية اسمه « انك في واد وأنا في واد » أظهر فيه ما في تأليف لامنس من السخافات والآراء الخيالية التي لا تشين الاصحابها ولا تنقص الا كتابها .

هذا ونعود الى موضوع الاسلام في الصين فنقول ان أحد أدباء الصين ورد مصرأ في العام الماضي فنقلت جرائد مصر عنه أحاديث عن بلاده من جعلتها أن في الحكومة الصينية الحاضرة أربعة وزراء مسلمين وهم الجنرال محمد كاشونغ ناظر الحربية ثم الجنرال محمد شيسانغ ناظر الطرق وناظرين آخرين أحدهما وزير الزراعة والثاني وزير الأمور الدينية الاسلامية الذي هو بمثابة شيخ الاسلام . وقال هذا السائح ان مسلمي الصين متفوقون مع حكومة الصين في مبدأ تعزيز الرابطة الشرقية . وذكر أن عدد المسلمين في الجيش الصيني هو نحو نصف مليون منهم ٥٠٠ ضابط وأخبر عن وجود جريدة اسلامية في الصين اسمها « راية الاسلام » والله أعلم .

ولقد اطلعنا على كتاب اسمه « مسلمو يunnan » Les musulmans du Yunnan لكتاب افرنسي أقام بجنوبي الصين عدة سنوات اسمه الميسو « كورديه » Cordier من أعضاء ا كاديمية علوم المستعمرات قال فيه ان مسلمي الصين يبلغون عشرين مليوناً أى واحداً من عشرين من الأمة الصينية لكن لهذه الاقلية الاسلامية هناك شأن لا يستهان به

ولما كان صاحب هذا التأليف عالماً مؤرخاً فيما يظهر من كلامه أحياناً ان نأثر عنه

بعض معلومات تم بها فائدة هذا البحث

فهو يرى أن دخول الاسلام في الصين بدأ من القرن الاول للهجرة وذلك ان الفاتح العربي قتيبة كان بين سنة ٧١١ و ٧١٤ قد وصل بفتوحاته من سمرقند الى كاشغر وانه قد وجد في المجموعة الكبرى الصينية صور الكتب التي وردت من ملوك بخارى وسمرقند وتركستان الى اهل الصين لذلك العهد يستصرخونه لانقاذهم من العرب . ومنها يستدل على الرعب الشديد الذي حل بالترك أو انثذ من سطوة العرب ^(١) وان قتيبة بعد أن حمل تلك الشعوب التي أطاعته على الاسلام أرسل الى ابن السماء برسالة يدعوها الى الاسلام و يشرح له عقيدة القرآن و بحسب قول مارغويوث قد راع اهل الصين الاخبار التي جاءت عن قوة العرب فارضى بأن يرسل الى قتيبة بالجزية

والمسيو كورديه يشك في تأدية اهل الصين للجزية نظراً للعهود من كبرياء ملوك الصين ولكنه يرى محققاً أن اهل الصين أعجب جداً بشجاعة العرب واقدم فأندهم قتيبة لانه سنة ٧٥٦ كان نار أحد العصاة المسمى « آنلوشان » على العاهل « سوتسونغ » واستفحل أمر الثائر هذا فأرسل العاهل الى الخليفة أبي جعفر المنصور يستنجده على الثوار فأمدّه بجيش أربعة آلاف مقاتل من العرب فذهبوا الى الصين وأخذوا الثورة وأعادوا الى الامبراطور ملكه بعد ان كاد يذهب من يده . ولما سكنت الحال استقر هؤلاء الجنود العرب في بلاد الصين وتزوجوا وتولدت منهم طبقة خاصة وهذه بلا نزاع النواة الأولى للاسلام في الصين

وهل كان مجي* هذه النجدة العربية للامبراطور « سوتسونغ » بجرأ أم برأ ؟ الجواب هذا غير معلوم الا أنه مما لا شك فيه ان مدينة كانتون كان فيها مسلمون من القرن الأول للاسلام مؤلفون من بحارة العرب والعجم الذين كانوا في تردد دائم على سواحل الصين وقد كثر عددهم الى حد انهم سنة ٧٥٨ ثاروا على الحكومة بسبب ضريبة أرهقتهم فنهبوا البادية وأحرقوها وخرجوا . ثم لم يطل الأمر ان رجعوا الى هناك لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين سيراف وكنتون وكانت المحطة بينهما جزيرة سيلان وسنة ٨٧٢ وصل الى كنتون السائح العربي ابن وهب وقصد بلاط العاهل وأراه هذا صور الأنبياء نوح وموسى وعيسى ومحمد وصور حكماء الصين . وبعد هذا التاريخ بسبع

(١) راجع الصفحة ٨ من كتاب كورديه

سنوات ثار ثأر اسمه « هوانغ تشاو » ونهب كنتون وقتل فيها مائة ألف مسلم
وبعد ذلك تسكت التواريخ الصينية عن ذكر المسلمين في الصين الى زمن ثوراتهم
الأخيرة اهـ

قلت : اما ارسال قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح بلاد الترك رسالة مع وفد انتخبه الى ملك
الصين فقد ذكره ابن الأثير تفصيلاً كما سبق لنا نقل ذلك في الطبعة الأولى من هذا الكتاب
والذي يظهر هو أن ملك الصين راعه الامر ووجد العرب قد كادوا يظأون بلاده فأرسل
الجزية الى قتيبة خلافا لما ذهب اليه كورديه من أن كبير ملوك الصين أعلى من ذلك . ولو
كان الكبير يمنع مثل هذا الامر لما استنجد اهل الصين أبا جعفر المنصور وبينهما مسافة
بضعة أشهر

وأما ذهاب ابن وهب من البصرة الى كنتون ثم الى بلاط ملك الصين وكون هذا أراه
صور الأنبياء والحكام فهذه القصة واردة في كتب العرب
والذي يظهر أن العرب كثروا جدا في كنتون صدر الاسلام وكانت السفن لانقطع
بين مرافق الاسلام ومرافق الصين

جاء في كتاب « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » قال .

« حدثني القاضي احمد بن سيار قال حدثني شيخ من التجار بعمان قال : كنت بالابلة أريد
الخروج الى البحر فرأيت سائلا بباب الجامع فصيح اللسان مليح المسألة فرققت له وأعطيته
دراهم صالحة وخطفت في الوقت الى عمان فقضيت بها شهورا ثم قضى لي ان مضيت الى
الصين فدخلتها سالماً فاذا أنا يوماً أطوف فاذا الرجل بعينه قائماً في السوق يتصدق فتألمته
فعرفته فقالت له : ويحك سائلا بالابلة وسائلا بالصين . فقال : قد دخلت الى هذا البلد ثلاث
دفعات وهذه الرابعة اطلب المعيشة فلا أجد لها الا من الكدية فأرجع الى الابلة ثم أرجع الى
هنا . قال فعجبت من شدة حرمانه » اهـ

والذي أريد استخلاصه من هذه النكتة أن كنتون كانت لعهد دولة العرب أشبه
ببمباي الهند اليوم بالنسبة الى البصرة أو الى الكويت أو الى البحرين الخ
وكورديه يرى أن الاسلام دخل الصين من الطريقين البحري والبري . اما مقاطعة
« يَنْآن » فيذهب هذا الرجل الى ان الاسلام جاءها من الشمال عن طريق مقاطعة

« شانسى » كما أنه يجوز أن يكون جاء المسلمون من الهند الى يرمانيا الى ينان . ولكن هذا الاحتمال ضعيف . وبحسب الروايات الماثورة فى الصين دخل الاسلام فى ينان فى أيام دولة « تانغ » ثم ازداد فى أيام جنكيز خان الذى غزا جنوبي الصين وكان فى جيشه مسلمون فاستوطنوا تلك البلاد . وكان السيد الاجل مغولياً مسلماً من هؤلاء فاعتنى بتكثير المسلمين هناك ولهذا لما وصل السائح الايطالى الشهير الى « يوان فو » ذكر أن أهلها مزيج من وثنيين ونصارى نساطرة ومسلمين . وزعم الجنرال « فيتش » Fytche فى مجلة « ادنبورغ ريفيو » ان الامبراطور « هويو تسونغ » من عائلة « تانغ » عند ما حصلت عليه ثورة « نغالوشان » استنجد العرب فى قمع الثورة فأرسلوا اليه عشرة آلاف مقاتل أجدوا له الثورة ولكنهم لم يرجعوا الى بلادهم فأسكنهم الامبراطور فى ينان . ولم يذكر الجنرال مصدر هذه الرواية . وذهب « جون آندرسون » John Anderson الى أن مسلمي ينان هم من سلالة العرب ومعهم عنصر تركياني هبط اليهم من شانسى وكانسو

وذهب « بورن » Bourne الى أن مسلمي ينان هم قسبان : جماعة « تاليفو » وجماعة « ايننغان » فالأوائل هم سلالة عسكر جنكيزخان . والأواخر هم من مهاجرى شانسى . قال وقد أسكن الأوائىل فى غربى ينان الأمير « هيان يانغ فانغ » المعروف بالسيد الاجل وذهبت مادام فاسال Madame Vassal فى كتابها على « ينانغو » الى أن أصل مسلمي ينان هو من الملاحة العرب الذين جاءوا الى كنتون فى القرن السابع المسيحى ونهبوا هذه البلدة ثم تفرقوا فى جبال ينان . ولكن كورديه يقول : كيف لم يترك هؤلاء آثاراً اسلامية فى طريقهم بين كنتون وينان

قال كورديه : وكيف كان أصل وجود الاسلام فى ينان فالمسلمون لم يزالوا ثمة فى ازدياد بصورة منتظمة ولولا الذين ذهبوا منهم فى الثورة الأخيرة من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣ لكان عددهم عظيماً جداً . أما عدد الذين ذهبوا منهم فى المذابح التى وقعت فى المدن الكبرى مثل « كين تسينغ » و « تشنغ كيانغ » و « سين هينغ » و « كوانغ يى » ولا سيما « تالى » فيظن أنه ثلاثمائة ألف نسمة . وقد قتل فى تالى وحدها ٣٠ ألفاً . وهذا هو تعديل الأب بورياس Paurias الذى كان معاصراً للثورة .

أما عدد مسلمي بنان في الوقت الحاضر فغير معروف بالتمام فبعثة «اولون»^(١) D'ollon لا تزيدهم على مائتين وخسين ألفاً . وقال « دافيس » Davies انهم ثلاثمائة ألف . وقال « كاراي » Carey انهم ثلاثمائة وخسون ألفاً وقال « سوليه » Soulié انهم من ثمانمائة الى تسعمائة ألف . وجعلهم « نيرسان » Thersan من ثلاثة الى أربعة ملايين . قال كورديه :
أما أنا فقد سألت المسلمين أنفسهم محلة محلة وبلداً بلداً وقابلتها مع المعلومات التي عندي من المبشرين المسيحيين فوصلت الى عدد يتراوح بين ٣٠٠ ألف و ٤٥٠ ألفاً

وأهم المراکز الاسلاميه هي « بنانسن » و « شانين » و « تشاوتونغ » و « تشوان » و « سين هينغ » و « تالي » و « يونغ تشانغ » و « بوويل » و « بووهي » و « ساو » و « يون تشيو » . ثم حرر كورديه جدولاً تقريبياً عن عددهم في كل بلد ثم قال : ولا أضمن مع هذا ان هذا العدد هو الصحيح اذ لا بد لمن أراد أن يعرف ذلك أن يقيم في بنان مدة سنتين بالأقل وهو يفتحص في كل ناحية وفي كل كورة

ثم ذكر كورديه انه قد اختلف السياح كثيراً في هذا الأمر وان « مور » Muir ذهب الى أنه يوجد مسامون منتشرون الى حدود التبت . والحال أن مسلمي بنان اكدوا لكورديه انه لا يوجد مسامون وراء « لي كيانغ » وقال « موريسون » Morrison انه يوجد قرى اسلامية متعددة في الجبال . ويقول ان في « تشاوتونغ » ثلاثة آلاف عائلة مسلمة وان فيها شارعاً ملائناً بالمساجد وكلها نظيفة وان تجارة الجلود في تلك الناحية كلها بأيدي المسلمين

وقد ذكر موريسون أنه صادف في أحد الجوامع « مثلاً » أي شيخاً يقرئ بعض الاحداث فأخذ يحادثه فوجد أنه لا يعلم شيئاً عن الخارج . وسأله عما اذا كان جامع قرطبة وجامع القرويين بفاس أجمل أو أكبر من جوامع تشاوتونغ ؟

ثم قال كورديه : ان الاسلام انتشر في وقت واحد في « كوانغ تونغ » و « ستشوان » و « شانسي » و « شنسي » و « كانسو » و « بنان » ولكن ثورات المسلمين لم تقع الا في المقاطعات الثلاث الأخيرة . وليس ذلك للأسباب طبيعية . فولاية « كانسو » هي قطعة مستطيلة بين « الغوي » و « التبت » يحدها الجبل من جهة والمفازة من أخرى . فالصينيون بهمهم

(١) التي تقدم الكلام عليها في حواشي الطبعة الأولى

أن تبقى هذه الولاية بأيديهم لأنها نقطة الاتصال بين الشرق والغرب ومنها يتمكنون من ردع قبائل التركمان عن التجاوز . والمسلمون أيضاً همهم هذه الولاية لأنهم بها يتصلون بأخوانهم مسلمي التركستان وفي الوقت نفسه بمسلمي سنشوان وبتيان . ويأملون أن يركبوا سلطنة من هذه الولايات الثلاث . فمن هنا كثرت الثورات فيها

ويتيان نفسها معدودة كأنها قطر منفصل عن الصين تحدها أعلى التبت وحراج بيرمانيا والتونكين العليا والمسلمون فيها يقدرون أن يكونوا على اتصال بمسلمي الهند

ولكن هذه التعليلات لا يقبلها الجميع ومن الناس من يقول ان ثورات مسلمي الصين لم يكن لها منشأ الا الظلم . فالأب داود يقول ان مسلمي شانسي لا يفكرون أبداً في انشاء حكومة ولا يريدون الا اللب عن حياتهم وما لهم وأن يعيشوا بسلام وأمان وان كانت الثورة امتدت واشتدت فاذاك الامن عسف العسكرية ونهبهم للأهالي . ثم قال : « وليس مسلمو الصين متعصبين كمسلمي الغرب وجميع اسلامهم الاعتقاد ببعض مبادئ اسلامية والختان والامتناع عن أكل الخنزير . وقليل من شيوخهم حجوا الى مكة واذا قرأوا القرآن لم يفهموه » وذهب جون أندرسون الى أن ثورة ينان كان سببها ظلم ولاية الصين . وهكذا قال « برومهال » Broomhal قال ومن سنة ١٨٣٤ الى سنة ١٨٤٠ نشبت ثورة أساسها قتل حاكم « شوانغ نينغ فو » لألف وستمائة مسلم في « مونغ ميان نينغ »

وذهب « كارنيه » Carné الى عكس ذلك ووصف مسلمي ينان بالشددة والقوة والافراط في العصبية ومزيد الجرأة وقال انهم هم البادئون بالشر . وهكذا زعم الاب بورياس الذي كان سنة ١٨٦٦ في ينان فأكد ان المسمين هم الذين أشعلوا الحرب وطمحوا الى الاستقلال وان بلاد ينان كانت تقريباً في أيديهم وكانت طاعتهم للحكومة اسمية وكان الصينيون يتقون شرهم فأنت ترى اختلاف الآراء وتناقض الروايات في هذه المسئلة . وقال فرنسيس غارنيه Francis Garnier ان المبشرين الكاثوليك أعطونا عن أسباب الثورة معلومات يعارض بعضها بعضاً بحسب الاماكن التي كانوا فيها

وقال « كولبورن باير » الانكليزي : ان مسلمي ينان هم من أصل واحد مع

البوذيين وغيرهم من الصينيين الاصليين . وقال الكاتب جونستون وغيره من السياح ان

التعصب الديني لم يكن السبب في الثورة

ولقد كانت ذكرت بعثة « أولون » أنها لم تحب في ينان كثرة الاختلاط بالمسلمين والاحفاء في الاستئالة خشية إيجاد الوسواس عند حكومة الصين التي لا تطمئن اليهم وقد أدهش كورديه هذا الكلام . وقال انه بعد سفر بعثة أولون بقليل جاء الى ينانغو وخالط المسلمين وذهب الى الجوامع وأخذ صوراً فوتوغرافية وأحرق ما شاء في أسئلة شيوخ الدين وطلبتهم ولم يثر ذلك أدنى شبهة عند مأموري حكومة الصين . وربما أثار الشبهة بحق بعثة أولون أن رجالها كانوا كلهم عسكريين . ومرة أراد أحدهم وهو بزي مدنى أن يزور دار السلاح في ينانغو ووجد من سار به اليها أشبه بمتفرج . وكان مدير دار السلاح أراد أن يطلعه على كل ما فيها الا أن هذا الضابط لم يلبث ان عرف بنفسه وصرح بكونه ضابطاً وان رتبته كذا . فعندها اشتبه مدير دار السلاح بالأمر وبعد ان قدموا الى المتفرج الافرنسي الشاى والحلواء بحسب العادة اعتنقوا له عن اطلاعه على العمل بحجة ان العملة كانوا فى العطلة وما أشبه ذلك

ثم قال كورديه — ويظهر انه هو كان هناك مدير مدرسة — انه لم يجد أدنى فرق في السحناء بين الصينيين المسلمين والصينيين البوذيين وانه كان عنده في المدرسة ٢٥٠ طالبا منهم ٥٠ كانوا مسلمين ومع شدة تحديقه وتدقيقه لم يجد في خلقتهم فرقا . فهو يرى انهم باجمعهم من سلالة واحدة . وأما الاب داود الذى ساج كثيراً في ينان فيقول انه برغم وجود دم عربى ودم تترى في مسلمى ينان فالغالب عليهم السحنة الصينية

ثم ذكر كورديه ان مسلمى ينان يدخنون ومنهم من يشرب الأفيون ومنهم من يشرب المسكرات لكن سراً . وهم في هذا كسائر الصينيين لكن الاجماع عندهم واقع على اجتناب لحم الخنزير

قال : وليس للمسلمين هناك مهنة خاصة بهم بل هم أرباب أشغال وحرف مختلفة كثيرهم . وقد كانوا فى القديم يحبون الجندية وكان القواد المسلمون يستكثرون منهم . فانما تحول الجيش إلى النسق الجديد قل عددهم فيه لأنه فى الجيش لا يقدر الجندى المسلم ممارسة شعائر دينه فى الوقت الذى يريد ان كانت الخدمة المنظمة تقيد به بواجبات أخرى

وقال كورديه : كل من يعرف الجزائر يحار من شدة المشابهة التي يجدها بين هيئة بيوت مسلمى الجزائر وهيئة بيوت مسلمى ينان . فجميعها مساكن تحيط بدار فى الوسط

وأمام المساكن أروقة يمر بها الانسان من محل الى محل بدون أن تصيبه الشمس أو المطر وليس للجوامع طرز بناء خاص يميزها عن غيرها الا ما ندر كما على باب جامع ينانغو الذي فيه شيء من الزينة مع كتابة عربية . وليس للجوامع ما آذن كما في سائر البلدان . قال كورديه : وفي ينانغوستة جوامع . ويقال ان في نالي ١٥ جامعاً وان في شرقي ينانغوسطها ٣٥ جامعاً . ثم قال : ان بين جوامع المسلمين وهياكل البوذيين بوناً عظيماً من جهة النظافة فان هياكل الصينيين ليس فيها شيء من النظافة التي تجدها في مساجد الاسلام سواء في ذلك داخل المسجد أو صحفه . ولعل السبب في هذا ان المساجد هي دائماً مشغولة بالمصلين على حين أن الهياكل لا يأتيها أهلها الا في الأعياد . قال : واذا دخل الانسان جامعاً لم يقدر الا أن يشعر بخشوع اكيد لا سيما إذا قايستها بمعابد الوثنيين بما فيها من أدوات ومواعين وأصنام بشعة المنظر وآلهة سمجة الملبس . وأشد ما يكون الخشوع اذا اجتمعت جماعة المؤمنين للصلاة يدخلون بلباسهم البياض فيتركون نعالم عند الأبواب ويتوضأون وهم يقرأون شيئاً بصوت منخفض ثم يتقدمون ويبدأ الى الصلاة صفوفاً وراء « الاهونغ » (الامام) الذي يؤم بهم .

والاهونغ لا يمارس الامامة عندهم الا ثلاث سنوات فقط . ولكن ان شاءت الجماعة تمدد له هذه المدة . وامام الجامع الأكبر في ينانغو مضى عليه ٢٥ سنة وهو في هذه الخدمة . ومعاشات الأئمة هي من جماعة المؤمنين لا يستثنى منهم الا الفقراء . وعلى الاهونغ خدمة ثانية وهي تعليم الاحداث العقيدة الدينية واللغة العربية في جانب كل جامع مكتب للاولاد . وفي بعض المساجد يوجد مدارس تعلم فيها الآداب الصينية وغيرها من مواد برامج المدارس الابتدائية .

وليس لهذه المدارس امتحانات رسمية لكن متى رأى الأهونغ تلميذه قد أتم دروسه يامره في أحد الأعياد أن يفسر آية من القرآن أمام جماعة المؤمنين . ومن ثمة يحق لهذا الدارس الذي أتم تحصيله أن يلبس الثوب الأخضر ويتعل نعال الخمطل الاسود ويتعمم بعمامة بيضاء تدور بطربوش ذي قترعة . وهذه الحوائج يشترها له جماعة المؤمنين أو الذين انفقوا على تحصيل هذا الطالب الى أن صار منتها . ثم ان هذا يعود فيقرئ غيره العقيدة والعربية

وليس للأئمة معاش محمد بن معاشاتهم تابعة لدرجة غلة أوقاف المساجد التي يقومون عليها . وقد يخصص للامام مقدار من الارز من غلة اراضي المسجد . ثم ان المؤمنين يؤدون اليهم شيئاً عند عقد الأناكحة وفي الجنائز

وتسعة أعشار المسلمين هناك لا يعرفون من العربية الا « سلام عليكم » و « بسم الله » و « الله أكبر » وبعض كلمات . وأما الأئمة فليسوا بعلماء في العربية قال كورديه : حدثني أحد الاهونغات ان ٢٠ في المائة من المسلمين يقرأون العربي بدون أن يفهموه . وخمسة أو ستة يقرأون العربي ويفهمون بعض الصلوات . وواحد في المائة يقرأ العربي ويكتبه ويفهمه كما يلزم . لكن ايس في الالف واحد يقدر أن يتحدث كما يريد باللغة العربية . ويقول كورديه انه لم يلاحظ عند الأئمة اجتهاداً في نشر العربية كأنهم يخشون بنشرها المزاجحة على وظائفهم

قال كورديه : وكل مرة كان الاهونغات يتشهدون لى باية من القرآن كانوا يتلونها باللغة الصينية . ويقال للاستاذ منهم في علم التوحيد « هويغو » ثم اذا ارتقى قيل له « اهونغ » وهو من « اخوند » بالفارسية . ولذا ذهب الى الحج قيل له « اولتش » والشيوخ الكبار من هؤلاء يقال لهم « سوفو » ويوجد من يقال لهم « أوسوتو » أى الاستاذ . وهؤلاء هم الذين حصلوا العلم في « تاوتشيو » أو « بين لينغ » من مدن كانسو وهناك مدارس أسستها من خريجي الأزهر بمصر . وليس في بنان الأستاذان من هذه الدرجة أحدهما درس العربية مدة ١٨ سنة منها ١٠ سنوات في كانسو . وهو الآن مدرس في « شانيين » . وقال كورديه انه يعرفه

ثم قال ان مسمى الصين هم ستيون على اللذهب الخفي . وبلاد « هينكيانغ » و « كانسو » و « بنان » أهلها هم أشد المسلمين تمسكاً بالامة

قال كورديه : وم أرم يتوضؤون بانتدبيق الذي يتوضأ به مسلمو المغرب والجزائر لأن الصيني بفطرته يكره الغسل والاعغسال . وهذه الامة الصينية بأجمعها هي كما قال الدكتور « سديفت » Svaift الانكليزي أمة قذرة (كذا)

قال : والصدقة وانزكاة جاريتان . وجميع الشرقيين بفطرتهم يحبون الصدقات الا أنهم لا يجدهم يجرون أحكام الزكاة الشرعية بحرفها . فالحكم الشرعي هو أن على المسلم أن

بؤدى للزكاة واحداً من ٤٠ من نقوده ورأس بقر من كل ٣٠ رأساً وخروفاً من كل ٤٥ من الخراف والחס من المعادن الخ الا أن مسلمي ينان أفقر من أن يقوموا بكل هذا وان كانت هذه الامور جارية في سائر بلاد الاسلام . والضيافة أيضاً أمر مقدس عند المسلمين وكل غريب أو ابن سبيل يقدم الى محل يقال له ضيف الله ويطعم ولا يسأل . وكان محمد ﷺ يوصى بالصدقات الخفية ولكن غلب على المتصدقين حب الظهور

قال : وأقل أركان الاسلام نفوذاً في الصين الحج نظراً لبعده المسافة الى مكة فلا يستطيع الحج الا الأغنياء المترفون . ومن كل ينان لا يحج في السنة الا خمسة أو ستة . ومن كانوا عشرة . ومن « ستشوان » عشرة

نعم ذهب سنة ١٩٢٣ من ينان ١٠ حججاج الى مكة وفي السنة التي بعدها بلغ عددهم ٢٣ حاجاً

ثم ذكر كورديه شيئاً غريباً وهو أنه قد باع مسلمي ينان أن فرنسة أحسنت معاملته اخوانهم مسلمي تركيا أكثر من انكلترة فالوا الى فرنسة سنة ١٩٢١ جاء منهم ٢٢ شخصاً فأخذوا تواصي من قنصلية فرنسة ولم يذهب الى قنصلية انكلترة الا واحد فقط

وطريق الحج من ينان الى التونكين حيث يسبحرون من « هونغ كونغ » الى سنغافوره الى جدة

ثم ذكر كورديه بعض عادات المسلمين هناك فقال : اذا ولد المولود استدعوا الاهونغ فقرا له بعض الأديعية وأعطاه اسما عربياً ولأجل أن ينتخب الاسم يفتح كتاب الله ويقلب الصفحات سبعاً بسبع ثم ينتخب الكلمة السابعة من السطر السابع . وبعد ثلاثة أيام من الولادة يكون ما يسمونه بالحمام الثالث . ويومئذ يقدم الأصحاب هدايا من ثياب وعقود للمولود ويعمل أهله خبزاً خاصاً من دقيق وسكر معجوناً بالزيت . وأما سنة الختان فيجرونها اذا كان الولد في السابعة أو الثامنة . وأما في الزواج فلا فرق في الأعراس عن البوذيين غير أنه في ايلة الزفاف يأتي خمسة من الاهونغات ويجمعون الى العروسين ويلقون عليهما نضائح ويدعون لها

وأما الجنائز فعند ما يحتضر الانسان يستدعى الاهونغ ليقرا له ما ينسّر وبعد الموت يوضع في نعش هو النعش العام لجميع الموتي من المسلمين . وعند الخروج بالميت يكون

محولاً على الأُكف الرأس الى الامام والأرجل الى الورااء لسكنهم في الطريق يعكسون الأُسر ويجعلون الأرجل الى الامام . وعند الدفن يكشف الالهونخ عن وجه الميت ويوضع في الحفرة والوجه متجه الى مكة . وبعد الموت بثلاثة أيام يوزعون في بيت الميت خبزاً معجوناً بالزيت

وعلى وجه الاجال لا تجد سد مسامي ينان شدة التمسك التي عند مسلمي تركيا أو افريقيه باسلامهم ولا ترى ما تراه في الجزائر مثلاً وهو أنه متى جاء وقت الصلاة أينما وجد المسلم خر ساجداً

وفي ينان طائفتان من المسلمين « كوكياو » و « سين كيانو » واختلافهما انما في بعض الآراء الدينية لاني الشعائر . والفئة الثانية هي الضعيفة والفئة الاولى هي الجماعة

والحرية الدينية تامة في الصين وقد أعلنت رسمياً في القانون الأساسي الذي أعلن سنة ١٩١٣ وبعد ذلك نشرت الحكومة وصايا أدبية في كتب خاصة فيها : « إن الصينيين والمغول والندشو والتبتيين والمسلمين كلهم أبناء جمهوريتنا الصينية بدون تفریق بين أجناس ولا أديان . ولكل أن يعتقد ببوذا أو عيسى أو محمد فليس للدولة ديانة رسمية بل الديانة حرة والحرية هي عبارة عن مجموع الحقوق المدنية لكل إنسان في شخصه وأمواله وشرفه وعقيدته فكل ذلك بحميه القانون »

وبرغم هذا فقد أحدث الانقلاب الجمهوري في الصين ثورة في الأفكار والمبادئ نشأ عنها اعتداء على الأديان والعقائد . وأراد بعض دعاة التجدد جعل مذهب كنفوشيوس هو دين الدولة الرسمي وهدموا هياكل للاديانة البوذية والديانة الطاوية وأقفلوا هياكل ومنعوا شعائر . ولم يسلم المسلمون من بعض الاذى وحملت بعض الجرائد عليهم . ولكن هذه الثورة عادت فسكنت (١) ورجع البوذيون يبنون هياكل ويقسمون شعائرهم وكذلك المسلمون تمنعوا بنهم حريتهم في إقامة شعائرهم الدينية ورجع الولاة في الصين ورجال الدولة يعززون مذهب بوذا

ولقد استفاد المسلمون من هذه الحرية الدينية وصاروا يجاهرون بشعائرهم أكثر من ذي قبل وصاروا ينقشون على أبواب المساجد الآيات بالحروف العربية والاعلانات بأن

(١) هذا شيء شبه بما جرى في فرنسا يوم الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩

هنا مدرسة لحفظ القرآن وهنا جمعية خيرية وهم جراً

يقول كورديه : لو أن الحكومة الصينية أظهرت من التسامح الديني منذ مائة سنة ما أظهرته منذ سنة ١٩١٣ لما كان جرى شيء من هذه الثورات التي ناراها المسلمون في كانسو وتركستان وبتآن

وبما لا شك فيه أن المسلمين تساهلوا في كثير من شعائرهم في الماضي مراعاة للحكومة الصينية ولدين الأكثرية . ومن الجلة اصطلاحهم على عدم بناء المآذن في جوامعهم . لم يكن لهذا سبب سوى ضعفهم . ولهذا يمكن القول بأن الانقلاب الذي حصل في الصين قد أفادهم

وفي أوربة كانوا يحبون أن يعرفوا كيف كانت حركة المسلمين بازاء هذا الانقلاب في الصين ؟ والحقيقة أن هذا الانقلاب لم يدخل فيه غير رجال العسكرية وأن الشعب سواء كان بؤدياً أو مسلماً لزم الصمت وكان الناس قابعين في بيوتهم من الخوف أربعة أيام الثورة ولما استوسق الأمر للجمهورية واستقر الحكم الجديد زين الناس منازلهم وقدموا التهانئ للحاكم . وكان المسلمون من الجلة فقد زينوا البيوت والجوامع واشتركوا بالافراح

وعيل كورديه الى القول بأن سكون مسلمي بتآن الزائد ولزومهم العزلة التامة أصلهما الخول الذي كان عكس فعل الثورة التي أبادت خضراءهم منذ خمسين سنة . ومن ذلك الحين صاروا لا يتعرضون لشيء من الأمور العامة . نعم لهم بعض رؤساء من الاهونغات أو من التجار نالوا هذه الرئاسة اما بصفتهم الدينية أو بخدمتهم لجماعتهم أو بدونهم من حجاج البيت الحرام . وقد عرفت من هؤلاء الزعماء رجلاً موسراً اسمه « ماسين كيين » عمره ٣٨ سنة ليس لزعامته سبب غير ثروته . أما سرواتهم القداماء الذين كان لهم الخول والطول في الماضي فلم يبق منهم أحد

ثم ذكر لوجود مسلمي بتآن وخولهم اسباباً أخرى هي قلة اتصال بعضهم ببعض وبسائر مسلمي الصين ثم استيلاء الفقير عليهم مما يعرف من الأرزاق التي يقدمونها للأئمة وخدمة المساجد فأنها كلها ضئيلة وأكثرها من الحبوب والارز والزيت والنقد نادر . وكثير من المساجد في حال الخراب وقبر السيد الأجل الشهير هو بحال الخراب أيضا وليس من يرمه وبالجلسة نغمول مسلمي بتآن ناشئ عن خوفهم من السلطة الصينية تقرب عهدهم

بالثورة الكبرى التي جرفت منهم نحواً من ثلاثمائة ألف نسمة
ثم ان نظام الحرية في الصين أقاد المسلمين من جهة أخرى وهو أنه نشأ عندهم كما
نشأ في تركيا وغيرها من بلاد الاسلام فكرة التأليف بين العلم والدين وبين العقائد القرآنية
والمنازع العصرية وان القائلين بهذه الفكرة وان كانوا لا يزالون فئة ضعيفة فانهم ماضون
في عملهم يرون أن بقاء المسلمين على هذا الجود الذي هم فيه يؤدي الى ثلاثي الاسلام
ورأس القائلين بهذا العمل هم المسمى « شا » امام جامع باب الجنوب في « ينانغو »
والمسمى « ما » مدير المجلة الاسلامية المنشورة في ينان
وهذه المجلة هي لسان هذه الفئة الناطق بالاصلاحات التي يريدونها
وبرنامجه هو ما يلي :

- (١) تأليف جمعيات اسمها « جمعيات الترقى » وقد تألف منها في ينان ستون جمعية
لكنها في غير ينان لا تزال قليلة
- (٢) ايجاد علاقات بين هذه الجمعيات كلها لتوحيد المساعي
- (٣) نشر جرائد اسلامية بقدر الامكان . وكان في الصين ثلاث جرائد اسلامية
الأولى في بكين والثانية في شنغاي والثالثة في ينان . والاوليان احتجبتا وبقيت
الثالثة (١)

- (٤) تأسيس مدارس منظمة يقوم عليها مديرون مسلمون
- (٥) ايجاد وحدة تامة في العمل واشتراك في السعي والوصول الى تأسيس شيء أشبه
بجمعية الشبان المسيحيين

ويقول السيد « ما » ان الذي أبقانا بحال التأخر ولم يساعدنا على تبوء المقام اللائق
بنا هو أن المثقفين في حزبنا قليلون وانا أشبه بعشري الكاثوليك لم تقدر أن نستجلب
اليها الا الطبقة الدنيا من الشعب . فيجب علينا العمل لبث المعارف بكل جهدنا حتى ينسئ
للمسلمين أن يرشحوا المناصب الحكومة رجالاً أكفاء فانه في ينان اذا استثنينا الجنرال
« ما تسونغ » وثلاثة من معاوني الحكام يبقى جميع المأمورين المسلمين شاغلين وطاقف
صغيرة .

(١) المسوع أن قد صدرت الآن مجلات وجرائد اسلامية جديدة

ثم قال كورديه : ان كلام السيد « ما » هو الصحيح فالملأ التي لا تتألف الا الجهلاء تبقى في حال الانحطاط . ثم قال كورديه :

ان الاسلام انتشر في أوربة بالقوة القاهرة باديء ذي بدء (١) لكنه ما لبث أن نبغ من أبنائه علماء وفلاسفة كانوا هم الوصلة بين العالم اليوناني اللاتيني القديم والعالم المسيحي الجديد وكان لجامعات العرب العنسية في قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة تأثير عميق في المدينة الاوربية . ثم قال : أما جيوش جنكيزخان فانشرت في ممالك آسية بدون أن نغني بشيء من الفتوحات العلمية أو الأدبية أو الصناعية

ثم ذكر أن انتشار الاسلام في الصين كان بواسطة طبقة الجند فأنحصر في أوساط غير راقية وأبى به الجود على منازعه وعوائده القديمة الانتشار في جميع الأوساط ولا ينكر أنه وجد قواد مسلمون كثيرون في الجيش الصيني ولكنه لم يوجد ولاية وحكام كثيرون

ونقل كورديه عن مجلة العالم الاسلامي الافرنسية أن الجود هو الذي أوقف سير الاسلام في الهند أيضاً وهذا الجود كان مصدره الآداب الاسلامية (٢)

ثم قال ان تأخر الصين كلها كان منشؤه الآداب الصينية أيضاً لأنه كما قال « ركلوس » Reclus (الجغرافي الافرنسي) أخذ أدباء الصين بقواعد كنفشيوس فلا يفكرون أن يتصوروا وجود أحسن منها ولا أن يعدلوا عن البحر الى السواقي بزعمهم . وما زالوا على هذه الأفكار الى أن بدأت تذهب بالتعليم الجديد

ثم قال ان لجنة « شا » و « ما » هذه وان لم يكن عملها عظيماً الى الآن فليس مما يستخف به . وهي ماضية في توحيد الحركة الاسلامية الصينية . ومنذ الثورة الجمهورية الصينية تحمّس مسامو الصين كما تحمّس غيرهم من أبناء وطنهم وأنفوا لجانباً كل منها مستقلة بذاتها لكنها في صلة دائمة مع أخواتها . وقد كان رئيس الجمعية الاسلامية في ينانغو الجنرال « فانغ » ثم صار مكانه الجنرال « ماتسونغ » وهذه الجمعية فروع في النواحي . وللرئيس اثنان معاونان ثم للجمعية مدير ادارة وهو اميرالاي الآن ويده ادارة دار السلاح . ولهذا معاون أيضاً وهو اليوم أحد تجار الملح واسمه « ما »

ولهذه الجمعية نفاذ عظيم في جماعة الاسلام هناك فهي التي تزيد أو تنقص عدد الأئمة

(١) هذا من كورديه ومم وعدم تحقيق

وتؤسس المدارس وتفصل الخصومات الشرعية

وكان السيد « ما » القائم بحركة التجديد قد أصدر مجلة اسمها « مجلة الجوامع » وتوقفت مرتين بسبب قلة المشتركين وهي الآن تظهر للمرة الثالثة (سنة ١٩٢١)

ثم قال ان هذه المجلة ملحقاً اسمه « السراج التلاوي » وذكر ان الجريدة تقبل جميع ما يكتب اليها العلماء والمفسرون والفقهاء ولا تؤدى اليهم بمقابلة مقالاتهم شيئاً سوى أن الجريدة ترسل اليهم مجاناً وان الجريدة تنشر رسوماً وتصاوير ونكافي من ينقشها وانه ان أعان الجريدة أحد بشيء نكتب اسمه ونشكره على مبرته وان كان مبلغ الاعانة طائلاً تنشر صورته

ثم نقل كورديه بعض أمودجات من منشورات هذه المجلة - مثلاً : أن نفوذ الوعظ في الجمهور هو على نسبة تبحر الواعظ في المعارف فعلى المسامحين أن يتعلموا

واليك مثلاً آخر : ان المعارف في أوربة ما نمت وترقت الا بعد ظهور البروتستانتية . ولولا الاسلام كانت أوربة قبلاً في جهل وكانوا يقصدون بلاد العرب للتعلم

واليك مثلاً آخر : بينما المسلمون في الغرب مظلومون مقهورون نحن معاشر الاسلام في الصين أحرار تمتع بالحقوق التي يتمتع بها سائر أبناء وطننا . فلنعكف على التعلم والتهذب وبذلك نكون جاهداً لأجل عظمة الصين

واليك مثلاً آخر : اذا كنا لا تعلم الا العربية أصبحنا كالصم البكم في بلادنا . وان كنا لا تعلم غير الصيني لم يتيسر لنا أن نتفاهم مع الخارج . فيجب علينا اذاً تعلم اللغتين . ان مدرسينا لا يعرفون الصيني كما يجب فلذلك ان خسروا وظائفهم صعب عليهم تحصيل معيشتهم

وفي أحد الأعداد يدعو الى ارسال مرشدين لوعظ النساء ولارشاد الأحداث الذين يجهلون القراءة

وفي عدد آخر يعلن أن الجريدة فقيرة تعيش من الاعانات وان من النفقات ما لا بد منه فيجب على المشتركين أن يؤدوا ما عليهم

وفي عدد آخر يقول : تتأون تذكرون « توفنسيو » زعيم الثورة الينائية (١)

(١) من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣

وتنسون أنه ما قام الا ليخلع سلطنة المانشو وأنه كان في جميع أحواله يحذو حذو الملوك
القدماء الخ

وفي أحد الأعداد يتساءل : هل يلزم تعليم البنات ؟ فيجيب بالإيجاب قائلاً ان قوة
الأمم الاوربية ناشئة عن كون الجميع متعلمين نساء ورجالاً
وفي أحد الأعداد يقول انه ليس للاديان أن تعني بالمظاهر الخدأبة بل يجب أن تعني
بتعليم الحقائق .

قال : ولهذا فأقوى الأديان البوذية والبروتستانتية والاسلامية

قال كورديه : وأن لجنة ادارة المجلة كانت مؤلفة من الجمعية الاسلامية ومن مجالس
الأوقاف ومن جمعية طلبة المسلمين القدماء ومن جاعة المدرسة العربية في عاصمة ينان ومن
أمة المساجد ومن ذوى الحمية

لقد أحيينا أن نلخص هذا الكتاب الذي ألفه المسيو كورديه في التعريف بمسلمي
ينان لأنه أشبه بصورة مصغرة عن مسلمي الصين بأجمعهم ولأن ينان ولاية من ولايات الصين
والبلاد هناك متشابهة والمسلمون بخاصة يشبه بعضهم بعضاً أكثر من جميع الأمم ولو تباينت
أصولهم . ثم اتنا نقلنا أمائيل من كتابات جريدة المسلمين في «ينان» لأن الجرائد من أدل
الأمور على عقليات الشعوب وطرز تفكيرها وعلى اختلاجاتها الروحية

ورأينا فيما أترناده عن هذا الكتاب ما فيه كفاية عن تلك البلاد بالنسبة الى ما يلزم
القرءاء معرفته عنها . وبقى من هذا الكتاب القسم المتعلق بشورة ينان العظيمة الشهيرة
فهذه قد اكتفينا منها بالخلاصة التي أسلفناها^(١) وبالاختصار كان المسلمون قد غلبوا على ولاية
ينان واستبدوا بأمرها وأصبح زعيم الثوار سلطاناً بالفعل واستمر استقلالهم ثلاث عشرة
سنة الى أن تمكن الصينيون من ضرب بعضهم ببعض وايقاد الفتنة فيما بينهم فتنازعوا
وفشلوا وذهبت ريحهم كما حصل في كثير من مواطنهم وانتهى الأمر بمجزرة قلماً سمع
التاريخ بمثلا . والى اليوم لم يقم مسلمو ينان من هذه الجزرة التي أبادت منهم مئات ألوف
ولقد ختم كورديه كتابه هذا بلحظة دالة على الاسلام في الصين بازاء البانيسلامييم
أيالجامعة الاسلامية ولم يقتصر فيها على مسلمي الصين حسب بل تناول مسلمي الهند ومسلمي

(١) راجع صفحة ٢٢٧ من هذا الجزء

الجاوى وتوابعها ومسلمى الفيليين. ونحن ملخصون رأيه في حالة الاسلام بهذه الأقطار الأربعة

رأى كوردية في حالة الاسلام

في الصين والهند وجاوى والفيليين

قال: ان حركة ابن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية خيلت لأوروبا ان هناك نهضة عربية واسعة النطاق لاستئناف عظمة السلطنة العربية الا أن جيوش محمد على قضت عليها ثم قال: ان كتّابين من المؤرخين الأوربيين وفي مقدمتهم « لو تروب ستودارد » يذهبون الى أن « العالم الاسلامي في محاض شديد وان المائتين والخمسين مليون مسلم المنتشرين من مرا كس الى الصين ومن تركستان الى الكونغو يتخلجون تحت تأثير أفكار جديدة وانهم سيدخلون في طور جديد قد يحدث انقلاباً في العالم كله » يقول كوردية: ان فرنة لا ينبغي لها أن تراقب حركات مسلمى الجزائر وتونس ومرا كس فقط بل حركات مسلمى آسية أيضا . نعم ان المسلمين الذين في مستعمرة فرنة في الهند الصينية هم عدد قليل الا أن مركز هذه المستعمرة الكبيرة هو واقع بين الصين والهند وماليزيا والفيليين والاسلام في جميع هذه الأقطار راسخ القدم كما لا ينبغي فيجب على فرنة أن تراقب سير الأفكار الاسلامية في آسية لتعرف ما ينشأ منها من اتصال لأن أكثر الثورات انما تنشأ عن اتجاهات فكرية جديدة

ثم ذكر كوردية حركة الاسلام في الهند وقال: ان المسلمين في الهند كانوا وقفوا بازاء الهندو الذين يتطلبون الاستقلال التام وينادون « بانديتاران » أى سلام على الوطن الأم . وذلك لأن معنى هذه الجملة عند الهندو هو اخراج كل غريب من الهند والاسلام من الجملة . ولذلك كان المسلمون في البداية عضداً للانكليز . فلما حصلت الحرب الكبرى وانتهت بتقسيم الانكليز لتركيا ورأى المسلمون ان انكلترة أرادت القضاء على الخلافة وابداء تركيا غضبوا وانضموا الى الهندو . وهي أول مرة اتحد فيها هذان الفريقان بسوء سياسة انكلترة

فأما في بلاد اندونيسيا أى المستعمرات الهولندية جاوى وسومطرة وتوابعهما فبعد أن ذكر كوردية تاريخ دخول الاسلام فيها وصل الى الحالة الحاضرة التي عليها مسلمو هذه الجزائر فقال: ان اسلامهم ليس بشديد الصبغة وان العالم الاسلامي لم يزد بهم الا زيادة عدد

فقط . وان ادارة هولاندة هي من التسامح بحيث لاتجعل لاتقاضيهم سبيلا . قضاى الأمر ان مسلمى اندونسيا ينشئون العلم والتعلم ويجتهدون بواسطة العلم أن يحصلوا على حق ادارة أنفسهم بأنفسهم . ولم يخل الأمر من وقوع ثورات هناك كما جرى فى بلاد « اتشين » وهذا فيها قديم يقال ان أصله من أغلاط الهولانديين وأخذهم البرى بذب المجرم وارثكاهم فى تلك البلاد الظلم وسفك الدماء

ثم ذكر اسلام الفيليين فقال : ان ظهور الاسلام فى تلك الجزائر التى يقال لها « مينداناو » وفى أرخبيل سولو كان فى وقت ظهور الاسلام فى بورنيو . يقال ان تجار العرب نشروا الاسلام هناك فقبل لهم « المورو » كما كان يقال لمسلمى الأندلس . وعم من بعدها مسلمى الفيليين . وقد بدأ وجود الاسلام فى هذه الأماكن من قبل سنة ١٥٠٠ وكان سلطان بورنيو تزوج ابنة سلطان مينداناو فأسس سلطنة سولو التى استفحل أمرها . ولما كان بين الاسبانول وبين المورو عداوة من عهد الأندلس فقد غلظوا على المسلمين وأخرجوهم فبدأت الثورة فى « لوسون » من سنة ١٥٧٦ وصارت الحرب متصلة بين الفريقين فمن جهة المسيحيين الحرب الصليبية ومن جهة المسلمين الجهاد فى سبيل الله

وكان سلطان سولو أشد أمراء المورو مقاومة فأعترف الاسبانول باستقلاله سنة ١٨٣٦ لكنهم عادوا فقتلوه سنة ١٨٤٤ و ١٨٥٠ ثم تصالحوا سنة ١٨٦٠ ولم يكن لهم فى سلطنة سولو الى حد سنة ١٨٧٦ الاسيادة اسمية

أما اميريكيو الولايات المتحدة فلما انتزعوا الفيليين من أيدي الاسبانول استخفوا بأمر سلاطين المورو فعرفوا عاقبة خطئهم لأن هؤلاء كانوا لايتناهون عن العيث والقتل والفساد فى الأرض حتى ملت الحكومة الامريكبة منهم . وكان الامر يكيون يرجون بواسطة التعليم وفتح المدارس أن يصلوا الى السلام ولكنهم أسرعوا فى التفاؤل وكانوا وعدوا الفيليين بالاستقلال الداخلى لكنهم استعجلوا فى الوعد^(١)

قال كورديه : ان جميع هذه الثورات لم تنشأ عن بائسلاسيم ولاعن ارتباط عام بين المسلمين ولاعن مجرد بغض وشنآن للأجانب . بل هذه ثورات منشؤها نهوض الأهالى بطلب حقوقهم من الأمم التى تسلطت عليهم . ولا يوجد مسلم واحد لاعالم ولا جاهل يحلم بجمع

(١) قلنا انه فى أواخر هذه السنة المنصرمة سنة ١٩٣٢ قرر مجلس النواب الأمريكى استقلال الفيليين

بلاد الاسلام تحت سلطة أمير واحد واستئناف دولة الخلفاء . نعم لما كان أكثر المسلمين وقع تحت عبودية الأجانب فتجدهم يحنون بعضهم الى بعض بسبب اتحاد العقيدة والتشابه

في المصيبة الأجنبية الواقعة عليهم . ولا يرى أدنى عجب في هذا الأمر

ثم عاد كورديه الى ذكر منشأ الاسلام فقال : انه لم توجد ديانته من الديانات الكبرى لا الزرداشتية ولا البوذية ولا النصرانية انتشرت بسرعة انتشار ملة محمد . فانها بدون عصد امتدت في ثلاثة قرون من البرانه الى جلایا ومن قلب آسية الى قلب افريقية . ولم تكن أسباب سرعة هذا الانتشار سوى ضعف مملكتي بيزنطية وفارس وحاسة العرب الفاتكة وفروسيتهم الباهرة وسداجة العقيدة التي نشروها . ثم باختلاط الغاليين بالمغلوبين تولدت هذه الحضارة الاسلامية التي لمعت لمعاناً شديداً بينما كان الغرب هائماً في الظلمات (١)

الا أن لمعان الاسلام لم يكن طويل الأمد . بل بدأ بالانحطاط من القرن العاشر (المسيحي) الى أن قال : انه من سنة ١٠٧١ تغلب الترك على القدس وانهت دولة العرب ومع أن الترك كانوا حمار بين أشداء فلم يكونوا أهل ملكة عمرانية . وفي سنة ١٢١٣ سقطت خلافة قرطبة بتغلب النصارى . ثم في سنة ١٢٥٨ سقطت بغداد في أيدي المغول فاضمحت القوة الاسلامية . ثم استأنف الترك السلطنة وأخذوا بيزنطية وبلاد البلقان والمجر وشمال افريقية والشرق الأدنى فصار لهم من فارس الى صرا كش . الا انهم من بعد فشلهم أمام اسوار فينا (سنة ١٦٨٣) تراجعوا القهقري

وكان جاء عصر التجدد في أوربة « رينسانس » واهتدى الأوربيون الى كشف أمريكا فانسعت موارد ثروتهم وامتد ظل سلطانهم . ومن نعمة لم يكتفوا بدفع المسلمين عن بلدانهم بل تجاوزوا عليهم وأخذوا يفتحون بلاد الاسلام قطراً قطراً فانفصلت بلاد اليونان ثم رومانيا ثم بلغاريا عن تركيا . واستولت انكلترة على مصر والهند . واستولت الروسية على القوقاس وآسية الوسطى . وبسطت فرنسا يدها على شمال افريقية . وهلم جرا وعند نهاية الحرب العامة لم يكن بقي مستقلاً من ممالك الاسلام غير تركيا . وهذه أيضاً كانت معاهدة فرساي أخنت على استقلالها

لكن ان كانت قوة الاسلام العسكرية والسياسية قد سقطت فان قوته الأدبية لم

(١) قال هذا كورديه بالحرف

تسقط ومن القرن السابع عشر الى الآن تراها على ازدياد

ثم مثل كورديه نحو قوة الاسلام المعنوية بالوهابية ثم بالسوسية التي هي أقوى الفرق
الاسلامية بعد الوهابية . وذكر ان امامها الحالي هو السيد أحمد الشريف ابن شقيق
سريدى المهدي

وعاد نغم كلامه بذكر اسلام الصين قائلاً ان ثورات شانسي ونيان هي كما قال
غارنيه والأب داود واندرسون وغيرهم لم تحصل عن تعصب ديني بل عن حسن المحافظة
على النفس . وكذلك ثورات كانسو سنة ١٨٦٤ و ١٨٩٥ كانت للأسباب نفسها وانتهت
صلحاً . وبقيت مقاطعة سفنوان التي هي بين شانسي وكانوسا كنة سا كنة مع
اشتغال أربع ثورات من عن جوانبها

قال : ولقد كثرت كهن العلماء والمؤرخين على مستقبل اسلام الصين وكل منهم
أدلى بدلوه وقال « فاسيليف » سنة ١٨٦٧ : اذا انتشر الاسلام في الصين كما انتشر مذهب
بودا ينقلب وجه العالم

وقال « دوترسان » صاحب كتاب « المحمدية في الصين » انه ان تقسمت الصين
وفقدت وحدتها السياسية استفاد المسلمون في المقاطعات التي أكثرها منهم واستقلوا .
وتكون مدة استقلالهم بحسب حسن ادارتهم ومشيئة الله . وان ترقّت الصين في العلوم
والمعارف وصارت دولة من أعظم دول الكرة الأرضية كان لا مناص لها من أن تترك
أضاليلها وعقائدها الوثنية وأن تأخذ بديانة تعبد بها الواحد الأحد ولن نجد لها حينئذ
أقرب من الاسلام الذي يدين به عشرون مليوناً من أبنائها . ولكن لتكن أوربة من
حادث كهذا على ثقة انه لن يحدث انقلاباً لأن اسلام الصين سيكون مصطبغاً بصبغة
مسيحية (؟) لا يهيمه الا السلام ونشر المدنية الحق (؟) . وقد اتقد كورديه هذا الكلام
وقال : هذا حلم من الأحلام . فن يقول ان اسلام الصين سيصطبغ بصبغة مسيحية ؟

ومن تخوفوا من مصير الصين الى الاسلام الكاتب الانكليزي آرنولد

قال كورديه . وقد مضى خمسون سنة على هذه الآراء ولم يتقدم الاسلام في الصين
شبراً وذلك لأن الأمة الصينية ليست بأمة ذات اشتغال بالعقائد وانما هي أمة مادية لا يهيمها
الا الحياة الدنيا

وقال « أولون » ان الثورات كثيرة في الصين والاتقلابات مستمرة فان وصلت التوبة الى قائد مسلم وتمكن من الاستواء على العرش لا يبعد أن يتحول قسم كبير من أهل الصين الى الاسلام

وهذا أيضاً خطأ بحسب رأى كورديه لأن الجنرال « ماتونغ » في بيان هو مسلم وهو القائد الأول فيها وما أسلم على يده واحد . وكذلك الجنرال « ما » المشهور والنهابة بحسب رأى كورديه ان مسلمي الصين يقبلون على نيار التجدد نظير أبناء وطنهم الصينيين وان جميعهم مع ذلك يغلب عليهم السكون بمقتضى فطرتهم . انتهى

تعليقات على مبحث مسلمي الصين

مقالات وأحاديث للصينيين أنفسهم

أحيانا لأجل زيادة شفاء الغليل من مبحث اسلام الصين أن ننشر خمس مقالات أحداها ظهرت في جريدة الأهرام تاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ والثانية ظهرت في الأهرام أيضا سنة ١٩٢٣ والثالثة والرابعة في جريدة الفتح تاريخ غرة رمضان و ٦ ذى القعدة سنة ١٣٥١ والخامسة في الجامعة العربية بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٣٥١ فالأولى تتضمن حديثاً لرئيس البعثة الصينية في الجامعة الأزهرية والثانية تتضمن حديثاً لعالم صيني نزيل تكية الكلثني بمصر والثالثة هي محررة بقلم السيد محمد مكين الصيني من المجاورين بالأزهر

حديث لرئيس البعثة الصينية الازهرية

الاسلام والمسلمون في الصين

قصت في صبيحة أمس الى الدار التي اعدتها وزارة الاوقاف ليسكن فيها اعضاء البعثة الصينية التي اوفدها حكومة الصين لدراسة العلوم الدينية والمدنية في الجامعة الازهرية وسألت عن أعضائها وعن رتبهم فأخبرت بان ادارة المعاهد الدينية قد أعدت هذا اليوم لاختبارهم في اللغة العربية وفي القرآن الكريم وفي الخط العربي والاملاء والانشاء ، فذهبت الى مقر لجنة الامتحان في الجامع الازهر وظلت أنتظر حتى انتهوا ، ثم تقدمت الى مدير البعثة وطلبت منه أن يحدثني عن الحالة الاجتماعية في الصين وعن الاسلام والمسلمين في تلك الديار النائية القاصيه فابتسم وقال لك عندي كل شيء واني على استعداد لان أحدث معك في كل شيء إلا السياسة فاني لا أعرفها ولا أكاف نفسي عناء الغوص في اسرارها وبواطنها واكنهاها ، فقلت له وهل محظور عليك ان تتكلم في السياسة . وهل السياسة عندكم شيء نانوي أو كالي لا يعني بما لا يقدر ، وهل بلغت الصين في السياسة شأوا بعيدا ونالت كل ما تصبو اليه الامم من الحضارة والمدنية فأضحت لا تنظر الى السياسة الا كما تكون اللحية عند الرجل الديني المتعمق في معاني الايمان ؟؟ فنظر الى رئيس البعثة نظرة ذات طابع صيني وقطع على حديثي وقال : اني يا سيدي رجل ديني فقط : وأرأس بعثة دينية فقط ، وهناك قوارق متعددة بين الدين والسياسة ، ولقد درسنا الدين في بلادنا الى درجة محدودة وجئنا نطلب المزيد هنا ، وما اتصلت ولا اتصل أحد من أعضاء البعثة بالسياسة ولا جالسنا أحد الرجال السياسيين لاتنا نرعى في مزرعة وهم يرعون في مزرعة أخرى ، وما أبعد الفارق بين المزرعتين . وسكت . فقلت وهل لنا أن نتحدث عن الناحية الاجتماعية والدينية في الصين ، فقال لك هذا ، وجلس ، وجلس حولينا أعضاء البعثة وجرى بيننا هذا الحديث :

قلنا — ما هو عدد المسلمين في الصين وما هو عدد غيرهم من الطوائف الاخرى ؟

وهل هناك تنافس ديني بين المسلمين وغيرهم من تلك الطوائف ، ولاي سبب يرجع ذلك التنافس ، اذا كان موجودا ؟

قال — أما عدد المسلمين في الصين فخمسون مليونا ، وعدد السكان أربعائة مليون ، والمذاهب الدينية في الصين متعددة كالكونفوشيسية ، البوذية ، المسيحية ومع ذلك فان أكثر أهل الصين لا دين لهم ، وهم يعبدون أشياء متعددة ، كالجمال والنور والنار ، وبعضهم يعبد الماشية والدواب ، وهناك مذهب ديني قليل الانتشار يسمى « التوفينية » نسبة الى رجل يقال له « لوتزا » وأصحابه هم المتصوفة المتقشفون الزاهدون الذين لا يتزوجون طوال أيام حياتهم ، ولا ينظرون الى المرأة ولا يتصلون بها أي اتصال وانى أقررت ان بين المسلمين وبين أفراد الطوائف الاخرى تنافسا دينيا بعيد المدى شديد الأثر ، وذلك لان الطوائف غير المسلمين تمتتنا وترمينا في اعتقادنا الديني ، وهم متعصبون ضدنا كثيرا ويرجع السبب في أغلب المعارك الدموية الداخلية الى ذلك التعصب الديني ولكن الاديان في الصين أمام القانون سواء وحرية المعتقدات مكفولة والحكومة لا تناصر طائفة على طائفة ولا تؤازر مذهباً دون مذهب فهي لا دينية ولا تتبع خطط دين معين

قلنا — وهل يوجد بين الموظفين في الحكومة أفراد مسلمون ؟ وما هو عددهم ؟
قال — نعم يوجد بين الموظفين في الحكومة أفراد مسلمون . منهم خمسة قواد في الجيش ومحافظ لاحدى عواصم المقاطعات ، وبعضهم يشغل وظائف في المجالس البلدية والمحلية وبعضهم في وظائف التدريس ، وهناك مسلمون كثيرون في الجيش كجنود لانهم مشهورون بالشجاعة والافدام . واما في الوظائف الملكية المدنية فعددهم قليل جداً .
قلنا — أليس هناك قانون عام للتجنيد ، وكيف تكون أكثرية الجنود من المسلمين مع أن القانون عام ينفذ على الجميع ؟؟

قال — المسألة نسبية . والقانون حقيقة عام ولكن عدد المسلمين في بعض المقاطعات الصينية أكثر من عدد أية طائفة من الطوائف الأخرى لاني اذا قلت لك ان عدد المسلمين في الصين خمسون مليوناً لوجب أن يكون عدد كل طائفة من بقية الطوائف الاخرى أقل من ذلك بكثير وفي الصين أكثر من خمسين ديناً ومذهباً

قلنا — هل لك ان تحدثني عن نظام الزواج والطلاق عندكم ؟؟

قال — ان جميع المسلمين يتزوجون ويطلقون وفق ما جاء به القرآن الكريم والزواج عندنا لا يتم الا بعد موافقة الزوج والزوجة ورضائهما عن بعضهما رضاً تاماً موثوقاً به . ووثيقة الزواج واشهاد الطلاق عندنا تسجل أمام المجالس البلدية والمحلية . ومن يتزوج أو يطلق من غير أن يثبت زواجه أو طلاقه أمام تلك المجالس يعاقب بالسجن

قلنا — يؤخذ من هذا أن ليس هناك محاكم شرعية لكي تفصل في المنازعات الزوجية التي تحدث بين الزوجين المسلمين بمقتضى أحكام الشريعة الاسلامية ؟؟

قال — لا ، لا ، ليس عندنا محاكم شرعية لمثل هذا النوع من القضايا ، بل ان المنازعات الزوجية عندنا وما اليها من المشاكل الشخصية تدخل ضمن المسائل المدنية . ويفصل فيها مجلس قضائي مؤلف من أعضاء متعلمين ومنتخبين انتخاباً حراً عن طريق التصويت المباشر وهو يصدر احكامه في المسائل المدنية التي تدخل ضمنها مسائل الزواج ، والحكومة ملزمة بتنفيذ أحكامه

قلنا — أليس للمسلمين في الصين رئاسة دينية ؟؟

قال — نعم ليس للمسلمين عندنا رئاسة دينية وليس لنا رئيس ديني ، وليس هناك من يشرف على التقاليد والأصول الاسلامية غير الجمعيات الأهلية المحلية والتي لأذ كر لك هنا أن مسلمي كل مقاطعة نوعاً من التقاليد مصطلحاً عليه ، ومقاطعة يونان فو ، هي أشد المقاطعات حرصاً على الاسلام ، وغيرة على آدابها وتقاليدها

قلنا — هل المسلمون في الصين مثقفون تقيفاً علمياً عصرياً يسمح لهم بان يزاولوا أو يتقلدوا الوظائف المدنية الراقية ، وما هي نسبة المتعلمين منهم ؟؟ وهل أحوالهم المالية تسر على وجه العموم ؟؟

قال — إني آسف لان اقرر هنا ان عدد المسلمين المتعلمين تعليماً عالياً عصرياً قليلون جداً ، والاغلبية منهم أمية ، واما نسبة المتعلمين فهي اثنان في المائة أو أقل من ذلك في بعض المقاطعات ، والمسلمون في الصين فقراء كثيراً وحالتهم المالية لا تسر على وجه العموم قلنا — هل الذي يرتكب جريمة هتك العرض مثلاً ، يعاقب عقاباً دينياً ام

عدياً ؟؟

قال — ان الذي يرتكب أية جريمة جنائية يحاكم أمام المحاكم الجنائية التي لها قانون

عديني أهلي

قلنا — وهل المسلمون متمسكون بدينهم ، وهل هناك مساجد للصلاة
قال — أعود فأكرر الاسف إذ أقول ان مسلمى الصين لا يفهمون الاسلام على
الوجه الصحيح ، وذلك يرجع الى جهلهم وعدم تعليمهم ، وعندنا مساجد كثيرة بنى بعضها
منذ دخل الاسلام فى الصين ، وأول من بنى مسجدا هو الملك « طان » الذى أسس مسجد
كواتونج ، ومع أن المساجد كثيرة إلا انها خربة لا يؤمها إلا القليلون
قلنا — ما هو مركز مصر الدينى عند مسلمى الصين ، وما هو مقام الازهر
عندهم ؟؟

قال — ان مركز مصر الدينى عندنا هو مركز كبير لا يسمو عليه أى مركز فى
الوجود ، وانا نحب مصر من قلوبنا ونعدها قبة الاسلام ، وبخاصة لانها بلد الجامع الازهر
الذى نعتقد فيه أنه منبع الاسلام الصحيح
قلنا — وهل المرأة الصينية متحجبة أم سافرة ، وهل لها حقوق مدنية مقررة فى
دستور البلاد ؟

قال — ان المرأة الصينية سافرة وحالتها الآن أحسن بكثير من ذى قبل وهى تتمتع
بالحقوق المدنية التى يتمتع بها الرجل . اذ ان لها حق الانتخاب والتوظيف فى القضاء
والادارة وفى المجالس البلدية والمحلية

وانتهى الحديث بنا الى هذا القدر وشعرت انه متعب فاستأذنت فى الانصراف
وشكرته وودعنى بما يبدو عليه من الحياء والتواضع
أحمد عبد الحلیم العكرى

حديث عالم مسلم صيني

نزول تكية الكلكشني في مصر

في صباح الخميس أول يوم من عيد الفطر المبارك قمنا نحن الثلاثة زيارة هذا العالم الذي قرأنا بعض أخباره وآثاره في الجرائد والمجلات المصرية . فلما بلغنا شارع تحت الربع صعدنا الى باب التكية واستقبلنا مقام الكلكشني وبه وجهة مصنوعة من الفسيفساء الجميلة . الألوان المتقنة الصنع ثم اتجهنا ذات اليمين وصعدنا درجاً فسيحاً وبالذور الأعلى وجدنا غرفة عليها منظر البساطة والزهد وبها سريران وصندوق مملوء بالكتب والأوراق وفي وسطها رجل في نحو الستين من عمره قصير القامة نحيف البنية أصفر الوجه عالي الجبين بارز الفك الأعلى لا نبات بعارضيه ويكاد يكون شعر شاربه عذاراً وبجواره فتى في نحو العشرين من عمره غييناها باللغة العربية فرد العالم تحيننا بعربية فصحي وأظهر سروراً عظيماً بزيارتنا في هذا اليوم المبارك ثم أجلسنا وقدم لنا الشاي الصيني الحقيقي في آنية صينية ثم قدمنا اليه أسبائنا ودار بيننا الحديث الآتي . قال العالم : —

« اسمي « واي ون كين » وترجمته بالعربية سعيد إلياس وصناعتي عالم اسلامي وامام بلدي تشين ومحرر جريدة تشين وقد سافرت من بلدي منذ عام وغاييتي من هذه السياحة الاطلاع على أحوال الأقطار الاسلامية والاستنارة بالأفكار الجديدة الموجودة في الشرق الأوسط والشرق الأدنى فزرت بلاد الهند وها أنا في مصر وسأزور سوريا والأناضول والاستانة ثم أعود الى وطني »

فلنا — كم عدد المسلمين في بلادكم وما هي حالة تعليمهم وشؤونهم الاجتماعية
أجاب — يبلغ عدد المسلمين في الصين نحو سبعين مليوناً وكلهم يقومون بواجباتهم الدينية وفي بلدي نحو أربعين مسجداً ومعظمهم يقرأون الكتب العربية بنطق صيني ما عدا العلماء الذين يتعلمون العربية منذ الصغر . ويؤدون الصلاة باللغة العربية . وتعدد الزوجات وان يكن مباحاً بالشريع في الدين الاسلامي الا أنه مفقود من عاداتنا فلكل رجل امرأة واحدة بحكم عاداتنا والطلاق نادر جداً ويكاد يكون معدوماً . وقد درست في صغري

وشبابي الفقه والحديث والسنة وعلوم الكلام والتصوف والتوحيد وآداب اللغة العربية

سألتها — هل يوجد لبوذا وكونفوشيوس أتباع كثيرون في الصين

أجاب — ان بوذا متبع في بلاد الهند فقط وذكروه عندنا قليل أما كونفوشيوس فله أتباع كثيرون في الصين ويطلق عليهم اسم « أصحاب كونفوشيوس » ولم يكن هذا الزعيم المصلح نبياً مرسلًا ولم يقل بذلك هو نفسه أو أحد من أصحابه بل كان حكماً وكل تعاليمه خاصة بشؤون هذه الدنيا وتدير الأمور المادية والسياسية والإدارية وأصحابه ليسوا مقبدين بعبادة إله معين فهم يعبدون ما يشاءون كأجدادهم فيعبدون الأشجار والأنهار وبالجملة فانهم مشركون .

سألتها — وما حجة الصين منذ دخول الحكم الجمهوري في البلاد ؟

أجاب — ان الشرق عامة محتاج الى حكم قوى يكون مصيره العدل والحكمة وحب الخير ولكن الحكام الذين من هذا القبيل لا وجود لهم في هذا الزمان وأفضل مثال لهم الخلفاء الراشدون في صدر الاسلام ونحن المسلمين في الصين نعتقد في أن الاسلام دين شوري وديموقراطية وقد جاء فيه « وشاورهم في الأمر »

سألتها — هل حصل تقدم في البلاد في الأعوام الاخيرة ؟

أجاب — نعم فقد أبطلت عادات كثيرة من العادات الرديئة مثل تقييد أقدام الفتيات ومنعها من النمو ظناً بأن هذا أثر من آثار الجبال وأصبح هذا الفعل معاقباً عليه وبدأت بلاد الصين تشعر بوجودها القومي وتسترد المقاطعات التي كانت اغتصبها منها بعض الدول الاجنبية وهي سائرة ببطء لانها أمة عظيمة وملكها مترامي الأطراف .

سألتها — وما هو شعوركم نحو الدول الاجنبية

أجاب — ان اليابان وان كانت من جنسنا الا انها دولة قوية وميالة لانتهازنا فهي كلما وجدت فرصة للانقضاض علينا فلا تتأخر وهذا دليل على أن اتحاد الجنس والدين لا يقف في سبيل المصلحة السياسية فنحن نبغضها . أما الدولة المحبوبة لدينا فعلاً فهي الولايات المتحدة وهي التي ننسج على منوالها كل شيء وهي تظهر لنا المحبة وكل معاملتها معنا كانت بالأقوال والكتابات لا بالأفعال الهمجية كثيرها مثل الحرب أو الاستيلاء على بلادنا

سألتها — ما رأيك في علماء مصر عن زرتهم وزاروك
قال — لم يزرنى أحد منهم ولا أعرف الا اسماعيل بك رأفت والشيخ طنطاوى
جوهرى. وقد عرفت كثيراً من العلماء بالكتب مثل الشيخ محمد عبده وأظنه كان من أعظم
رجال العالم قاطبة ولا ينتظر أن يجود الزمان بمثله في الوقت الحاضر فقد كان عالماً دينياً
وسياسياً واجتماعياً وليس في مصر من يخلفه . واسم مصطفى كامل باشا معروف جداً لدينا
في الصين لأنه أسس الحركة الوطنية في مصر كذلك اسم مصطفى كمال غير أنتى غير مشتغل
بالسياسة ولا يهمنى أمرها الا من حيث نهم ترقية شؤون قومى وقد ترجمت كتباً كثيرة
من اللغة العربية الى اللغة الصينية مثل تاريخ مصر القديم أما التاريخ الحديث فليس معلوماً
لدينا ولم نصلنا كتب عنه ونحب أن نكون علاقة مصر بمسعى الصين قوية

سألتها — هل تستطيعون وتودون أن تلقوا محاضرة باللغة العربية عن حالة المسلمين
بالصين من الوجهة الدينية والاجتماعية في جمهور من المتعلمين المصريين

أجاب — أستطيع ذلك على شرط أن أولفها بالكتابة أولاً ثم أقرأها لأننى لا أستطيع
أن أرتجل خطبة . فشكرناه واستأذناه فى الانصراف ونرجو من وزارتى الأوقاف والمعارف
وعلماء مصر وأدبائها أن يعتنوا بزيارة هذا العالم واكرام وفادته فقد قال لنا عند ذكر
مصطفى كامل انه يعلم أن شعار المصريين هو — « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا »
(الأهرام)
١ . رؤوف — ح . رمزى — لطفى

الاسلام في الصين - غابرة وحاضرة

- ١ -

يسألني دائماً اخواننا المسلمون عن أحوال الاسلام في الصين ، ويسرني غاية السرور عنايتهم بالدين ورغبتهم في العلم ولوني الصين . فأكتب بحول الله هذا الكلام الوجيز لقضاء حاجتهم الشديدة وتوطيد التعارف والتفاهم بين شعوب الاسلام وأسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير وهو القريب المريب

تاريخ دخول الاسلام في الصين

متى دخل الاسلام في بلاد الصين ؟ هذه مسألة غامضة فيها روايات متعددة مختلفة وعلى الرواية المشهورة عند المسلمين الصينيين أنه في سنة ٦٣٦ م (قبل وفاته عليه السلام) وعلى رواية أخرى كان ذلك في سنة ٥٩٩ م (قبل الهجرة النبوية) وعلى تحقيق حجة التاريخ الاسلامي الصيني البروفسور جنيون أن أول وافد من الدولة الاسلامية الى الدولة الصينية أوفد سنة ٦٥١ م (في عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه) وقال البروفسور : ان مناط الاختلاف في ذلك تبين التقويم الصيني مع التقويم العربي لأن السنة الصينية سنة قمرية شبيهة بالسنة الشمسية في كل سنة بسيطة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً كالسنة القمرية تماماً ، وأما السنة الكبيسة فيزداد فيها شهر واحد وتكسب السنة مرة في كل ثلاث سنوات ومرتين في كل خمس سنوات وسبع مرات في كل تسع عشرة سنة لتتفق مع السنة الشمسية ، واستعملت الحكومة الصينية التقويم العربي سنة ١٣٨٤ م وهي توافق سنة ٧٨٦ م فطرحت ٧٨٦ سنة من التقويم الصيني ليعرف مبدأ التقويم العربي بالنسبة الى التقويم الصيني ، فوقع الخلاف ، وهذا كلام معقول مرجح عندنا . والله أعلم

العلاقة بين الدولتين الاسلامية والصينية

ذهب في عهد الخلفاء الراشدين الى الصين الوفود الاسلامية والتجار المسلمون من العرب والفرس متعاقبين ، وكانت الجالية الاسلامية في عاصمة الصين وحدها عددها أربعة

آلاف شخص وهي أكثر من الجالية الافرنجية الموجودة الآن في بكين ، وعلى احصاء البروفسور جنيون بعثت الى الصين في عهد اسرة «تان» وأسرة «سون» من سنة ٦٥١ الى سنة ١٢٠٧ م الوفود الاسلامية ٧٦ مرة واستنجد سنة ٧٦٢ م عاهل الصين بالمسلمين على التائر الفاتك شيجوي

العظماء المسلمون المتقدمون

كان عواهل الصين يجاملون المسامين . وفي عهد أسرة «يون» وهي أسرة جنكيزخان (سنة ١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) كان للمسلمين منزلة عالية سياسية واجتماعية ، والأعيان المسلمون المسجلة أسماؤهم في سجل طبقة الأعيان الملكي كانوا أكثر من مائة نفر . وكان السيد جاسر الدين والياً عادلا على ولاية يونان ، وحفر في نواحي عاصمتها قنوات كثيرة مازالت باقية مفيدة ، وبنى فيها لأهلها الكافرين هيكلا للفيلسوف الأكبر كونفوشيوس ، وهو أول هيكل بنى له في ولاية يونان . وللسيد جاسر الدين ذكر خالد عند سكانها فأقاموا تماثلا له في هيكل الحكماء (الباتيون) في عاصمتها وقد تولى ابنه السيد باين رئاسة الوزراء سنة (١٣٣٣ - ١٣٤٠ م) . وألف الأديب المسلم جنس بضعة عشر مؤلفا ، ومازال ديوان البار المسلم دنهاتى منتشرا حتى الآن . وكان يتخير مهندسا في بناء سور القصور في بكين ونال سنة ١٣٣٣ م عشرة من الأدباء المسلمين الشهادة العنمية الملكية العليا وفي أسرة «مين» (سنة ١٣٦٥ - ١٦٤٣ م) استعمل التقوم العربي فقام الشيخ محمود بترجة الكتب التقومية العربية وأرسل العاهل سنة ١٤٠٦ م الطواشي المسلم جنبها قائداً الاساطيل الصينية المؤلفة من ٣٧٠٠٠ بحري الى جزائر الهند الشرقية وسيلان وسواحل الهند الجنوبية والعراق وسواحل جزيرة العرب وساحل أفريقية الشرقية ليدعو سكانها لأداء الخراج لعاهل الصين واهداء التقاد ، ومن رفض دعوته هدهه بالقوة والسلطنة . ووجه وأبوه كانا حاجين ، ومسقط رأسه في ولاية يونان . وصنف العلامة صالح ليوجلين (رحماته) في آخر القرن الثامن عشر باللغة الصينية كتاب (سيرة سيد المرسلين) وكتاب (شريعة الاسلام) وكتاب (أسرار الاسلام) وهذه المؤلفات هي التي تيقن بها الصينيون أن الاسلام دين حنيف لا يخالف مبادئ الفيلسوف كونفوشيوس بل يؤازرها ، فأدخلت في دار الكتب الملكية فانكشفت ستور الاسلام في الشرق الأقصى . ومسقط رأس العلامة صالح ليوجلين

ومدفنه في نانكين عاصمة الصين الجديدة وقد زرت روضته الطاهرة سنة ١٣٤٧ هـ وألف العلامة يوسف مافوسو (رحمه الله) باللغتين العربية والصينية مؤلفات مفيدة في العربية والعلوم الاسلامية وطبع مؤلفات العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) بعد التصحيح فازدهر الاسلام مرة أخرى . وطلع عقبه المعلم العظيم الحاج نورالحق ماجبان (رحمه الله) فنخرج في مدرسته العلماء العاملون أفواجا، ومسقط رأسهما في ولاية يوتان

ثورة المسلمين

كان طغاة الأسرة المنشورية (سنة ١٦٤٤ - ١٩١١ م) قد اضطهدوا المسلمين وساموهم خسفاً وزاد عليهم في اضطهاد المسلمين الأمراء المنشوريون الظالمون في ولاية سنكيايج (التركستان الصينية) فأخذوا أموالهم وفضحوا عيالهم ، فقام المسلمون يدافعون عن أنفسهم وأعراضهم ، ف وقعت الثورة الهائلة في مائة سنة تقريبا (سنة ١٧٥٨ - ١٨٧٣ م) خمس مرات وناهيك بالكتب التاريخية الأثرية في هذه الثورات وعدد أجزاءها كالاتي :

- (١) تاريخ ثورة سوسيسان في ولاية كنسيو (سنة ١٧٥٨ م) ٢٠ جزءاً
- (٢) تاريخ ثورة مامنين في ولاية كنسيو (سنة ١٧٦٨ م) ٢٠ جزءاً
- (٣) تاريخ ثورة جنقع في ولاية سنكيايج (سنة ١٨٢٥ - ١٨٢٧ م) ٨٠ جزءاً
- (٤) تاريخ ثورة سليمان دونسيو في ولاية يوتان (١٨٥٥ - ١٨٧٣) ٥٠ جزءاً
- (٥) تاريخ ثورة يعقوب في ولايات شانسي وكنسيو وسنكيايج (سنة ١٨٥٥ - ١٨٧٥ م) ٣٣٠ جزءاً

آثار الاسلام

هي كثيرة ، وأهمها ما زرته سنة ١٣٤٦ هـ وهي كالاتي :

- (١) ضريح سعد بن أبي وقاص في خارج ررض مدينة كنتون بني هذا الضريح وسط القرن السابع تقريباً
- (٢) مسجد مدينة كنتون ، وهو أول مسجد في الصين أسس وسط القرن السابع تقريباً أيضاً وفيه منار شامخ عليه مسحة من جبال الفن العربي
- (٣) المسجد الأعظم في عاصمة ولاية شانسي بني بنفقات الخزانة الملكية سنة ١٤٤٣ م

على نحو ما وصفه النصب التذكري الحجري الموجود الآن فيه
(٤) مسجد نانكين بنى سنة ١٣٨٨ م بنفقات الخزانة الملكية أيضا

أسباب انتشار الإسلام في الصين

- انتشر الإسلام في الصين انتشاراً سريعاً مدهشاً والأسباب في ذلك أربعة وهي :
- (١) تجارة المسلمين : هي سبب دخول الإسلام في الصين الأصلية في عهد أسرة « نان » (سنة ٦١٨ - ٩٠٥ م) وازدهار الإسلام في عهد أسرة « سون » (سنة ٩٦٠ - ١٢٧٦ م) وأسرة « مين » (سنة ١٣٦٨ - ١٦٤٣ م)
- (٢) الفتوح الإسلامية : هي سبب اسلام سكان ولاية سنكيانج (التركستان الصينية) في عهد أسرتي « سون » و « مين » فضلا عن أنها كانت سبباً في اسلام التركستان الروسية في عهد أسرة « نان »
- (٣) تناسل المسلمين : هو سبب ازدهار الإسلام وازدياد المسلمين في الصين الأصلية بعد أسرة « يون » (سنة ١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) وأسرة « مين »
- (٤) اختلاط الكافرين بالمسلمين وتأثرهم بآدابهم : هو سبب اسلام أبناء التتار في التركستان الصينية والروسية

لا عجب في السببين الأول والثاني وأما السبب الثالث فهو من خواص الإسلام اذ يحرم المسلمون النكاح بينهم وبين الكافرين ليحفظوا اعتقاداتهم التوحيدية وعاداتهم الإسلامية فتوارثوا دينهم جيلا بعد جيل ، بخلاف الكافرين اذ يمكن أن تعتنق أفراد أسرة من أسرهم أدياناً مختلفة فإذا مات المعتنق انقطع دينه عن أهله. وجواز تعدد الزوجات عند المسلمين من أهم أسباب زيادة أنسألم أيضا . وأما السبب الرابع فلا يوجد الا في الإسلام مثلا تغلب في القرون المتوسطة الميلادية التتار بسببهم على المسلمين وأسلم أبناءهم من بعد بتهديب وتأثير المسلمين ، وما أعجب قوة تأثير الإسلام

و يوجد في ذلك سوى الأسباب السابقة السببان الآتيان :

- (١) عدم اذاعة الدعوة الى الإسلام . لأجل هذا مامنى الإسلام بحسد الكافرين ، فلم يوجد قط في ترويج الإسلام في الصين ما حصل بين التروية والبوذية زمن الأسر الستة (سنة ٤٢٠ - ٥٨٨ م) وأسرتي « نان » و « يون » من الغزاع الشديد ، ولم يصب الإسلام

مأصاب الأديان الأخرى من اضطهاد كما حصل (سنة ٨٤١ - ٨٤٦ م) اذ حتم أتباع كنفوشيوس هدم الأوثان . وليس في الاسلام أوثان يلزم هدمها . وزد على ذلك أن الكافرين لم يقاوموا المسلمين كما قاوموا أصحاب الأوثان لأن المسلمين ما كانوا يدعون الناس الى الدخول في دينهم كما كان يفعل أصحاب الأوثان فظهرت عند أتباع الفيلسوف كنفوشيوس فكرة هدم الأوثان خشية أن يكثر معتنقوها

(٣) عدم نقد مبادئ الفيلسوف كنفوشيوس : المسلمون لم ينقدوا مبادئه التي تثبت وجود الملك الحق وتعلم الناس بحكامم الأخلاق ، بل أسس السيد جاسر الدين هيكلة لمن لم يتأدبوا بأداب هذا المعلم المعظم واستدل العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) بمبادئه على بعض أسرار الاسلام ، ولذلك تعايش المسلمون مع أتباع كنفوشيوس بالألفة والمودة فلم يسمع أحد ينقد الاسلام كما نقدت البوذية في عهد أسرة « تان » والمسيحية في عهد أسرة « مين » والحمد لله الحكيم العليم

— ٢ —

عدد مسلمي الصين ومساكنهم

المسلمون في الصين يزداد عددهم عاما بعد عام حتى بلغوا خمسين مليوناً يتفرقون في الولايات كلها وأكثرهم في ولاية كينسيو ثم ولاية يونان ثم ولاية هانان ثم ولاية شانتونغ ثم ولاية هاي . وعدد سكان الصين أربعمائة مليون فالمسلمون ثمنهم

لغة مسلمي الصين ومذهبهم

المسلمون في ولاية سينكيان يتكلمون باللغة التركية لأنها منشأ الأتراك ، والمسلمون في الصين الأصلية يتكلمون باللغة الصينية . وأما الكتب الدينية فأكثرها العربية وتليها الفارسية ولذلك يعرف رجال الدين هاتين اللغتين ولكنهم في المطالعة أقوى منهم في المحاطبة وبعبارة أخرى إنهم يفهمون كثيراً ويعبرون قليلاً . والسبب في ذلك أنهم يتوارثونها من أساتذتهم الصينيين الذين يعلمونهم الترجمة ولا يعلمونهم الانشاء ، وانهم ينقطعون عن المتكلمين بهما فلا يجدون فرص الممارسة . وزد على ذلك أنهم يقرأون الكتب الدينية

ولا يقرأون الكتب الأدبية، فضعفت الثقافة العربية يوماً فيوماً بطبيعة الحال. وأما مذهبهم فكلهم أحناف

مهنة المسلمين

المسلمون في المدن يعالجون التجارة وأهم تجارتهم في شنغهاي وبكين ونيجيان جواهر وحجارة كريمة وتحف قديمة. وفي الولايات المجاورة لسور الصين الكبير فراء وأصواف وأوبار وخيل ومواش. وفي ولاية يونان جلود وأرز وخرم شجرية. والمسلمون في القرى والأرياف يشتغلون بالزراعة وتجارهم وزراعتهم مشهورون بالاجتهاد والاقتصاد

مكانة مسلمي الصين

الأدبية والاجتماعية والسياسية

المسلمون هناك أكثرهم لا يملكون من الرزق إلا كفاف حاجتهم، والسبب في هذا ان في مشاركتهم مع الكافرين عسراً في الأكل والشرب، مع أن رؤساء دينهم ينصحونهم دائماً بالزهد والتقناعة، فيكفون عن التكاثر والتسابق. ويعيرون درس اللغة الصينية لاعتمادهم أن اللغة العربية لغة الكتاب والسنة فيجب على كل مسلم أن يدرسها ويقدمها وأما اللغة الصينية فهي لغة الكفرة لانتم من العناصر المخالفة لديننا حتى قال بعضهم من قرأ الكتب الصينية فقد كفر والنتيجة من ذلك ان صار رجال الدين في الصين أميين في اللغة الرسمية إلا نادراً ومن يعرف القراءة والكتابة من المسلمين واحد في المائة أو أقل ومن الكافرين تسعة في المائة أو أكثر فكيف يمكن المسلمين أن ينافسوا غيرهم في معركة الحياة وان قررت في الدستور الصيني حرية الدين ومساواة الشعوب في الحقوق

الجمعيات الإسلامية الصينية

أنشئت (جمعية التقدم الإسلامية الصينية العمومية) سنة ١٣٢٩ هـ في بكين عاصمة الصين والجمعيات الفرعية لها في عواصم بعض الولايات، وازدهرت هذه الجمعيات الفرعية سنة ١٣٣٢ هـ لسبب من الأسباب السياسية فاقب منها الاما في ولاية يونان، فمثل جمعية التقدم الإسلامية الصينية كمثل شجرة ذابلة فروعها الا فرع واحد لولاه لحكم على الشجرة

باليس وهذا الفرع الناضر هو (جمعية التقدم الاسلامية الصينية) في عاصمة ولاية يونان وقد أنشأت فيما يسكنه المسلمون من المدن والقرى في ولاية يونان جمعيات فرعية كثيرة ، وأنشأت أيضاً واحدة في حدود ولاية كوينجو واحدة في حدود ولاية سيجيوان وواحدة في رنجون (ميناء روم) وفيها ادارات للعارف والهداية والصلح والافتاء ، ولها نفوذ ماض على جمعياتها الفرعية بأسرها وثقة كاملة عند الحكومة المحلية حتى انها تستشيرها فيما يتعلق بالمسلمين ووكلت اليها تسوية الخلاف بين المسلمين وهي الصلة الوحيدة بين الحكومة والمسلمين فهي ترفع شكاية المسلمين وعرائضهم الى الحاكم وتبلغ قوانين الحكومة وأوامرها إلى المسلمين وتصدر منها (مجلة المنبه الاسلامي) باللغة الصينية بنفقات جمعياتها الفرعية الشهرية وهي أول جمعية اسلامية صينية استأذنت صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشريف في ارسال أعضاء البعثة الصينية الأولى الى الجامعة الأزهرية ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم فارجع الفضل في مجي البعثات الصينية الأزهرية متعاقبات الا الى رحابة صدر الأزهر الشريف وجهد هذه الجمعية العظيمة ولما رجع فضيلة الأستاذ الجليل الحاج هلال الدين هاديجين من مصر الى الصين أنشأ مع زملائه في شنههاي سنة ١٣٤١ هـ (الجمعية العلمية الاسلامية الصينية) لاداعة دعوة الاسلام وإحياء العلوم الدينية وتنشيط التعليم الاسلامي وتوطيد كتلة المسلمين بوساطة مجلته وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان وبعض كبار المسلمين في نانكين عاصمة الصين المحروسة سنة ١٣٤٥ هـ (نقابة المسلمين) باذن الحكومة المركزية

المدارس الاسلامية الصينية

لمسجد كل ريف يسكنه المسلمون مدرسة دينية أولية يدرس فيها الأولاد بالحروف الهجائية العربية ، ثم بعض السور القصيرة ثم كتاب يشتمل على الدعوات الكثيرة الاستعمال في العبادات ، ثم بضعة أجزاء من القرآن الكريم ، ثم كتاب في أسئلة الإيمان وأجوبتها يسمى (أربعة فصول) وكتابان في الفقه الحنفي يسمى أحدهما (المهمات) والآخر (عمدة الاسلام) . وهذه الكتب الثلاثة كلها باللغة الفارسية ، وكذلك دروس مدرسة البنات التي تدرسها المعلمات ، الا أنه يدرس فيها بعض الحكايات والقصص الاسلامية مثل قصة موسى عليه السلام وقصة عيسى عليه السلام وقصة زواج نبينا محمد عليه السلام

بخدمته رضى الله عنها، وقصة زواج ثابت والد الامام الأعظم أبي حنيفة وما شاكل ذلك
 والمسجد كل قرية أو مدينة يسكنها المسلمون مدرستان ثانوية وعالية يؤمهما الطلبة
 من الأرياف والقرى ويدرس في الثانوية الصرف والنحو وكتب الدراسة في الصرف
 (قسم الصرف) للعلامة يوسف مافوسوا، و (مفتاح المراح) للحاج نور الحق ماجيبان،
 و (مراح الأرواح) لأحمد بن علي . وفي النحو (قسم النحو) للعلامة يوسف مافوسوا،
 و (حواصل النحو) للحاج نور الحق ماجيبان و (الكافية) لابن الحاجب . ويدرس في
 العالية النحو والمنطق والبلاغة والتفسير والفقه والكلام، وكتب الدراسة (شرح الكافية)
 و (قسم المنطق) و (قسم البيان) و (شرح التلخيص) و (تفسير الجلالين) و (شرح
 الوقاية) و (شرح العقائد النسفية) والمدرس هو إمام المسجد غالباً ويسكن هو والطلبة في
 أروقة المسجد ينفق عليهم الأغنياء من المسلمين القيارى . وإذا أتم الطالب دروس الأقسام
 بعد بضعة عشر سنة خلع عليه أستاذه خلعة، وهي جبة خضراء من الجوخ، وأهدى اليه
 الموسرون نفقات السفر فرجع الى وطنه ظافراً مفتخراً، فأقام له أهل بلده حفلة التكريم
 بعد أن استقبلوه خارج البلد ووكالوا اليه منصب الامام أو الخطيب أو المؤذن أو المدرس .
 وأما الذين لم يحظوا بمنصب من المناصب الدينية فمنهم من يشتغل بالزراعة ومنهم من يعيش
 بالصدقات من تلاوة القرآن الكريم في المآتم . هذا هو نظام المدارس الاسلامية القديمة في
 وطنى ولاية يونان، ويقرب من ذلك ما في سائر الولايات، بيد أنه يدرس في مدارس ولاية
 كنبسيو (تفسير البيضاوى) و (تفسير حسين) باللغة الفارسية و (الدر المختار) وكتاب في
 أصول الدين يسمى (المكتوبات)

ولما شعر حضرات رؤساء جمعية التقدم الاسلامية الصينية في ولاية يونان بنقصان
 النظام القديم أنشأوا في عاصمتها سنة ١٣٢٦ هـ القسم الأثرى والقسم الابتدائى للمدرسة
 الاسلامية وقسمها الثانوى سنة ١٣٣٩ هـ وتدرس في هذه المدرسة اللغة الصينية واللغة العربية
 والعلوم الدينية والعصرية اللازمة وقد قرر وامنهاج الدراسة ونظام الامتحان ومدة
 الدراسة، وسجلت وزارة المعارف العمومية الصينية اسمها في سجل أسماء المدارس القانونية
 سنة ١٣٢٩ هـ . وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان على هذا النظام (مدرسة المعلمين الاسلامية
 الثانوية) في عاصمة ولاية شاتونغ سنة ١٣٤٣ هـ ثم نقلت في السنة التالية لسبب من الاسباب

اني بكين عاصمة الصين المنسوخة سنة ١٣٥٠ هـ وكذلك أنشأت الجمعية الكلية الاسلامية الصينية في شنغهاي سنة ١٣٤٥ هـ (الأكلاديمية الاسلامية) التي تخرجت فيها سنة ١٣٥٠ هـ بعد ما أخذت شهادة المدرسة الحكومية الثانوية في عاصمة يونان سنة ١٣٤٣ هـ . وأنشأت في ولاية سيچوان سنة ١٣٤٥ (مدرسة المعلمين الاسلامية الثانوية) وهذه المدارس الأربع هي المدارس الجديدة لتدريس اللغة العربية والدين الاسلامي ، وتقوم كلها على الصدقات والهبات الشخصية ، وأما المدارس القديمة فما زالت باقية في القرى والمدن . وأما المدارس الانزامية فكلها على قانون وزارة المعارف العمومية وقد يعلم فيها شيء قليل من المعلومات الاسلامية وتكاد تم القرى والمدن التي يسكنها المسلمون

المجلات الاسلامية الصينية

لما سمع اخواننا الصينيون أبناء النهضة الاصلاحية في المهارة الاسلامية قاموا بتسابقون ويتفخرون باصدار المجلات لاشاعة هذه النهضة ، فتظاهرت متابعة كما توزق الأشجار بعد مطر الربيع ، ولكن قلة المال وأدت بعضها قبل البلوغ وأشهر باقيتها (نضارة الهلال) في بكين و (المنبه الاسلامي) في يونان و (نور الاسلام) في تينجين و (مجلة العلوم الاسلامية) في كانتون وهذه المجلات ما زالت ضعيفة بسيطة بالنسبة الى سائر المجلات الصينية لقلة التغذية المالية والعامية ولو صاغتها اليد البيضاء لكانت الصلة الوثيقة لاتحاد المسلمين في الصين مع إخوانهم في الدنيا مشارقها ومغاربها

النهضة الجديدة والخلاف بين المسلمين

كان العلماء في الصين يبالفون في ثواب النوافل ، فاشتغل المسلمون بها عن الواجبات وأكثروا لا يصلون ولا يصومون ولا يزكّون ولا يحجون ، بل يهتمون باقامة المناسم ويدعون البهار رؤساء الدين والمعلمين ليقرا كل واحد منهم سوراً من سور جزء عم أو جزءاً من أجزاء القرآن الكريم ، وايصلوا على النبي عليه السلام بالترجيع والتفريد ، ثم تقدم اليهم الوليمة الفاخرة والصدقات الجزيلة ، واذا جاء مولد النبي عليه السلام أو مولد السيدة فاطمة رضی الله عنها أقاموا حفلة الذكرى بصدقات المسلمين وعملوا الولائم في أروقة المسجد فحضرها المسلمون والمسلمات جميعاً يسمعون القرآن والصلوات والوعظ واذا حان

وقت الصلاة صلى بعضهم وبعضهم يأكلون ويشربون . فلما وجد بعض علماء الدين الخطر في هذه العادات المستبعدة نصحوا المسلمين بأداء الواجبات بدلا عن النوافل ، وأخذوا يحرمون الطعام والصدقة لأجل تلاوة القرآن ، فعارضهم المتعصبون والمنتفعون بهذه الحال ، وانشقت عصاهم ووقعت الفتنة بينهم غير مرة ، وهذه الخصومة تميل الآن الى الضعف والنقصان بحول الله ، وأسأله تبارك وتعالى أن يوفقنا للاتحاد ويعصمنا من كل خصام وشقاق انه جواد كريم

كتب أحد سفلة الكتّاب الكفار في (مجلة الآداب الصينية) حكاية فكاهية بهيمية خلاصتها أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير لأنهم أبناء الخنزير وطبعت المطبعة الحديثة بشنغهاي هذه الحكاية كتاباً مستقلاً ، فقام المسلمون في شنغهاي يتشاورون في الجمعية العلمية الاسلامية الصينية في هذا الأمر الخطير فاتفقوا على أن يقدموا احتجاجاً على ادارة المجلة ، فوعد رئيس تحريرها أن ينشر في الجرائد اليومية المشهورة اعتذاره الى المسلمين ويصحح الغلط في الحكاية في العدد الأخير من نفس المجلة ويضمن أن لا يقع فيها مثل هذه الحادثة مرة أخرى ويحترق بحضرة المسلمين الباقي من العدد الذي فيه الحكاية . ولكن المسلمين في بكين لم يقتنعوا بهذه التسوية ، فاجتمعوا وتشاوروا في لجنة الدفاع عن الاسلام وفي أثناء الاجتماع قطع السيد النبور «ليهيتين» سبأته فسال الدم منها فكتب بدمه هذه الكلمة : «دافعوا عن دينكم !» فبلغت حماسة المسلمين الحاضرين ذروتها ، وغطت الغيوم سماء المجلس ، فتحالت الحاضرون أن يدافعوا عن دينهم الى النهاية مهما كلفهم الأمر ، وأجمعوا على أن يرفقوا الى المسلمين في البلاد كلها ويوفدوا أربعة مندوبين الى نانكين ليشتكوا الى الحكومة الصينية المركزية ما في هذه الحكاية الخبيثة ، وقد شاركهم في ذلك المندوبون من قبل المسلمين في شنغهاي ، والرسائل البرقية طارت الى الحكومة الصينية المركزية بشكاية المسلمين من أقطار الصين فأمرت (١) الحكومة الجمهورية الصينية بمحاكمة الكاتب الملعون وتعطيل مجلة (الآداب الصينية) وإغلاق (المطبعة الحديثة) وسنت قانوناً خاصاً لحماية الأديان توطيداً لما في الدستور من حرية الدين ومساواة الشعوب في الحقوق ، وأعلنت أن المسلمين من العناصر المهمة للامة الصينية ولهم تاريخ مجيد في خدمة

الوطن ويحترمهم أبناء الأمة كل الاحترام ، فاتمى الأمر بذلك واستقبل المسلمون في محطة سكة الحديد بشنغهاي المنسوين وأقاموا لهم في الجمعية العلمية الاسلامية الصينية حفلة التكريم شكراً لهم على جهدهم وإخلاصهم للدين الحنيف والكرامة الاسلامية جزاهم الله عنا وعن دينه خير الجزاء

هذا ولأجل أن يقف قراء الفتح على مبلغ ما كان لهذا الحادث من الأثر في الصين ننقل لهم من تعليقات جريدة « شينبو » أكبر جرائد الصين اليومية العبارة الآتية :

قد ورد في أمر مجلس التنفيذ للحكومة الجمهورية الصينية « المسلمون عناصر خطيرة للإمة الصينية وقد اشتهروا بخدمة الوطن واحترامهم أبناء الأمة جميعاً » ، واني لمعجب باتحاد كلمة المسلمين وحاستهم الفاتقة في الدفاع عن دينهم ، واني لمعتقد أن أبناء وطننا لو كان لكل واحد منهم في الدفاع عن الوطن مثل هذه الروح لسكانت مكانة وطننا السياسية أحسن مما هي عليه الآن ، ولما سقطت منشوريا في أيدي اليابانيين ، وان اخواننا المسلمين ما صاروا عناصر خطيرة للإمة الصينية الا بتأديب القرآن ، وقد قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة « **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْقِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** » ، لم يكن اعتداء اليابانيين في منشويا أشد من القتل ! لو قام ولاية الأمور منا يدافعون أعداءهم كما أوصانا القرآن لما شهق اليوم ثلاثون مليوناً من اخواننا تحت حوافر خيول اليابانيين . فأرجو من اخواننا المسلمين أن يعملوا بأمر الله تعالى في الدفاع عن الوطن كما يدافعون عن الدين ، لترسم مآثرهم ومفاخرهم في تاريخ الأمة وآت احترامهم أمم العالم جميعاً . انتهى كلام الجريدة الصينية

يأيها القراء الكرام جاهدوا في سبيل الله على حسب الامكان بعد ما تعرفون قدر الجهاد مما تقدم !

حمد مكيين الصيني

المسلمون في الصين

وأحوالهم الاجتماعية والسياسية

حديث طريف للوفد الصيني المسلم مع مندوب « الجامعة العربية » بالقدس

« وبينما كنا نحرر هذا الكتاب قدم وفد من علماء مسلمي الصين الى مصر ومعهم عدة من الطلبة الجدد يريدون ادخالهم في الجامع الأزهر وأقبل على هذا الوفد مندوبو الجرائد يستعلمون منه عن أحوال مسلمي الصين . وقد جاء رجال الوفد المذكور الى القدس الشريف وأخذت منهم جريدة الجامعة العربية المعلومات الآتية نأثرها هنا لأنها أحدث حديث في الشرق الأقرب عن مسلمي الشرق الأقصى » . أما المذابح التي أجراها الجنرال الصيني المسيحي فونغسيانغ واستأصل بها أوفواً وأوفواً من المسلمين فقد كنا أول من نبه الناس لها يوم وقوعها وذلك بمقالات في جريدة الشورى بمصر واقترحنا حينئذ على المسلمين أن يرفعوا احتجاجاتهم الى دولة الصين والى الدول وعلى جمعية الرابطة الشرقية أن تفحص عن هذه الفادحة وتوسط لدى الصين والدول وكل هذا لم يحرك من أحد ساكناً وباللاسف واننا لا نقدر أن ننكر هذه الحقيقة المؤلمة »

أما حديث الوفد الصيني للجامعة العربية فهو هذا :

اغتنمت فرصة وصول الوفد الصيني المسلم الى القدس المؤلف من السيدين الحاج عبد الله الصديق جاو بين سكرتير مدرسة المعلمين الاسلامية في بكين ومدير مطبعتها ومكتبتها ومحرر مجلة نضارة الهلال في بكين ، والحاج عبد الرحيم ماسون تين إمام جامع تونسيبا لو في بكين ووكيل مدرسة المعلمين الاسلامية فيها . فتقدمت اليهما باسم جريدة « الجامعة العربية » حيث يقيان بالزاوية النقشبندية ملتصقا منهما ان يتفضلا على قرائها بحديث عن رحلتهمما وعن حالة اخواننا مسلمي الصين ، فاجابا ملتصقا بكل بشاشة وسرور . وقد ازداد ابتهاجهما عندما أطلعتهمما على العدد الاخير من الجامعة العربية المشتمل على مقال عن مسلمي الصين وبعض معلومات عنهم . والى القراء موجز الحديث الذي اشترك فيه السيدان المذكوران :

غادر السيدان الحاج عبد الله الصديق جاو بين والحاج عبد الرحيم ماسون تين مدينة

بكين عاصمة الصين السالفة في أول شهر شعبان الماضي على رأس بعثة صينية مؤلفة من خمسة طلاب من مدرسة المعلمين الاسلامية في بكين فوصلوا الى القاهرة في الثالث من شهر رمضان المبارك ليدخلوا البعثة المذكورة في الازهر الشريف لتعلم العلوم الدينية الاسلامية والقرآن الكريم واللغة العربية .

أما أعضاء هذه البعثة العلمية فهم : سعيد ونجش مين ، علي خان خون كوي ، شعيب جندان كوي ، اسماعيل ماجن بوم ، سليمان جنبنتو . وقد دخلوا في الازهر الشريف ولقوا كل مساعدة من الحكومة المصرية والشعب المصري

والسيدان المذكوران ينويان زيارة بلاد الحجاز لقضاء فريضة الحج ، وذلك من أسباب رحلتهم الرئيسية كما ان من أسبابها أيضا زيارة بيت المقدس والمدينة المنورة والتعرف على اخوانهم المسلمين في هذه الاقطار والوقوف على أحوالهم

ويبلغ عدد المسلمين في الصين نحو خمسين مليونا وهم آخذون في الازدياد بالتدريج وأكثرهم يقطنون في الولايات الغربية والشمالية وفي ولاية « يوتنان » في الجنوب . أما حالتهم لحسنه وتقدمهم مطرد . وحالتهم المادية متوسطة وحالتهم العلمية بالنسبة الى أهل الصين عامة في المقام الاول . وأكثر أهل الصين بوذيون وكونفوشيوسيون وقليل منهم اعتنقوا الديانة المسيحية ولكن عدد النصارى آخذ في الازدياد بسبب كثرة الارشادات الدينية الاجنبية والوسائل المادية التي تلجأ اليها هذه الارشادات . والمسلمون والنصارى في الصين في درجة علمية واحدة وهم أرقى على وجه العموم من البوذيين . أما الكونفوشيوسيون فهم متعمون أكثر من الجميع .

ومن الغريب في المذاهب الصينية ان البوذي أو الكونفوشيوسى الذى يعتنق النصرانية ، يقوم بالطقوس الدينية المسيحية في الكنائس ثم يقوم أيضا بالطقوس البوذية والكونفوشيوسية في المعابد الوثنية ، فهم يخلطون بينهما خلطا عجيبا . والكتب الدينية النصرانية كالتوراة والانجيل مترجمة الى اللغة الصينية . أما المسلمون فهم مستقلون في شؤونهم الدينية معتصمون بسلامتهم وبصلاتهم وبزواجهم وعباداتهم ومعاملاتهم وتقاليدهم الاسلامية . ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ، والنكاح فيهم محصور بالمسلمين والمسلمات ونادر من المسلمين الذين يتزوجون من غير المسلمات ، وإذا حدث

حادث مثل هذا فلنرى يحمل المسلم زوجته غير المسلمة على اعتناق الاسلام وهي بعد زواجها منه لا بد أن تصير مسلمة كما أن المسلمين لا يستعملون الآنية التي يستعملها غير المسلمين والمسلمون في الصين غير مكروهين من قبل بقية الطوائف الصينية وهم وطنيون

بكل معنى الكلمة ويعيشون مع مواطنيهم بكل وفاق ويتعاملون معهم أحسن التعامل وعلماء المسلمين في الصين يقرأون القرآن وكتب الفقه والحديث والتفسير والتوحيد وبقية العلوم الدينية والاسلامية باللغة العربية ويفهمونها ولكنهم لا يحسنون التكلم بها ، وكذلك يدرسون علوم الصرف والنحو والبلاغة بالعريسة ويدرسونها في المدارس ويستعملون الحروف العربية ، كما أنهم يقرأون اللغة الفارسية .

ولهم مساجد كثيرة ، وفي كل مسجد مدرسة ابتدائية . أما المدارس الثانوية والعالية فقليلة عندهم . ومدرسة المعلمين الاسلامية في بكين تتألف من ٦ صفوف ابتدائية و ٦ ثانوية . على أن هذه المدارس خاصة بالمسلمين يجمعون أموالها من أنفسهم . وهم في الوقت نفسه يتعلمون في مدارس الحكومة العمومية .

وهم يقيمون الصلاة بواسطة الاذان ولكن ماآذتهم غير مرتفعة والوضوء عندهم يكون بالماء الساخن والماجد تحتوى على ماء ساخن للوضوء . وهم يعنون بالنظافة . وأكثرهم يشتغلون بالتجارة والزراعة

وقبل نحو سنتين عند ما اشتد ساعد الجنرال فونفسيانغ الصينى الملقب بالمسيحى الذى قام ضد حكومة الصين وشق عصا الطاعة وقاد الجيوش للزحف عليها ، ظل مسلمو الصين على ولائهم لحكومتهم وصمدوا في وجه الجنرال فونفسيانغ السفاح الذى حاول اجتياح ولاية كانسو الاسلامية وذبح كثيراً من أهالى المسلمين وارتكب فيهم شتى الفظائع وكان هذا هو السبب الظاهرى لتلك المذابح . أما السبب الحقيقى فهو تعصب الجنرال المذكور ومقتة للمسلمين لبس الا .

ومسلمو الصين أهل نجدة وشجاعة ، وهم رجال حرب وقتال وكثير منهم جنود في الجيش وفيهم قواد وجنرالات كبار مثل الجنرال عماد الدين ماخون كوى حاكم ولاية كانسو الذى تحت امرته جيش مؤلف من خمسين ألف مسلم صينى . ومثل الجنرال ماشن جن حاكم ولاية شنغاي — كوكو نور — فان جيشه مؤلف من ثلاثين ألف جنسدى مسلم ، ومثل

الجنرال ماخو بين حاكم ولاية نغشاي فان جيشه مؤلف من عشرة آلاف جندي مسلم ،
 وغيرهم . ومسلمو الصين يشاركون مواطنيهم غير المسلمين في مقتهم لليابان التي اتخذت ظلم
 الصين والاعتداء عليها ديدنا لهم . وهم لا يوافقون على استقلال منشور يا الذي تم بمساعدة
 اليابان وفصلها عن جسم الصين
 والمرأة المسلمة في الصين لا تحتجب وهي تتمتع بالحقوق التي يتمتع بها الرجل وحالتها
 آخذة بالنفد

ورئيس الجمهورية الحاضر غير مسلم ولكن ليس في دستور الحكومة الحاضرة ما يمنع
 من أن يكون الرئيس مسلما . وفي الوزارة وزيران مسلمان أحدهما محمد مانوشيان وزير
 منغوليا والنائب وقد توفي المرحمة الله وهو والد الجنرال عماد الدين ماخون كوي حاكم ولاية
 كانسو . والثاني وزير المعارف واسمه ما جنغ وو .

وليست للمسلمين في الصين رئاسة دينية وإنما تقوم الجمعيات المحلية بالاشراف على
 التقاليد الاسلامية .

وقد ختم السيدان الفاضلان حديثهما باظهار شديد رغبتهما باتخاذ الاسباب والوسائل
 الكاملة لحفظ الصلات وتوثيق الروابط بين مسلمي الصين الذين هم اكبر كتلة اسلامية بعد
 مسلمي الهند ، وبين بقية اخوانهم المسلمين في العالم الاسلامي .

ثم اثنيا التثناء المستطاب على سماحة المفتي الاكبر السيد محمد أمين أفندي الحسيني
 وقالوا إن أعماله الباهرة وخدمته للمسلمين قد نظارت أباؤها الى الصين وانهم هناك معجبون
 بسماحته كل الاعجاب ، ثم تمنيا أن تقترن مشروعاته الجليلة بالخير والفلاح

مسلمو الروسية

في عهد البلاشفة

للشيخ

عند ما ذهبت الى موسكو في حزيران أويونيو عام ١٩٢١ ، لتفحص الأحوال ، عن قرب ومعرفة ما اذا كان ممكناً فعلا انتفاع الشرق من الروسية الحاضرة ، وما هي درجة هذا الانتفاع ، سألت عن أحوال المسلمين في الروسية ، وتلاقت مع بعض أدياء الطاغستانيين والقازانيين ، فاستقصيت منهم عما أريده وقيل لي : ان بموسكو بضعة عشر ألف تترى لم تسجدان جامعان ، وكذلك في بتروغراد كان نحو عشرة آلاف منهم ، ولهم جامع بديع البناء . وكنت في إحدى الجمع أديت الصلاة في أحد جامعي موسكو ، حيث يؤتم في الجماعة الشيخ عبد الودود فتاح الدين قاضي المسلمين في موسكو وبتروغراد ، ويتبعه في القضاء المسلمون الذين في ولايات « باراسلولة » و « توير » و « يفالومنه » وبلدتي « ايفانو » و « جنيسسكي » والأخيرة بلدة معامل ، فيها عملة مسلمون كثيرون . ويقولون له هناك « حضرة عبد الودود » ويسمونهم المحتسب . ومعنى المحتسب عندهم ، هو الذي ينظر في الأمور الدينية ، ويرجع اليه أئمة المساجد . فالاستاذ عبد الودود فتاح الدين هو المحتسب في جميع البلدان المار ذكرها . ومرجعه المجلس الاسلامي الأعلى الذي بمدينة أوقا . وقد رأيت منه عالماً فاضلاً ، مطلعاً على الأمور ، بصيراً بأمور قومه ، وقيل أن تحدثت معه سمعت خطبته في صلاة الجامع ، فالعادة عندهم هي أن يبدأ الخطيب بخطبة بالتركية القازانية فيها ويتكلم في أهم الأمور التي تناسب الحال ، فإذا انتهى من هذه خطب الخطبة الرسمية بالعربية . حضرة عبد الودود وقف بحذاء المنبر ، وبقى يتكلم أكثر من نصف ساعة ، ومع كون تركية التر تختاف لفاظ وتصريف الأفعال عن تركية العثمانيين فقد كنت أفهم كل ما نبي جداً وعظه ونسق خطابه ، وعلمت أنهم مدركون للاحتياجات

العصرية ، متنبهون لما يجب أن ينتبهوا اليه . ولما انتهى من خطبته بالتركي سعد المنبر أخوه ، وهو مثله من العلماء لخطب بالعريية بالتسجيع على نخط خطباء بلادنا ، ولكن بأعراب صحيح ولفظ فصيح لا تفرقه عن لفظ خطباء العرب في شيء ، مما جلني على الظن أن هذا الخطيب كان مجاوراً في مكة أو في المدينة مدة طويلة ، حتى أمكنه أن يخرج الحروف العربية مخارجها كأحسن المجودين من العرب ، اذ لم أعرف في أمة الترك من يقدر على ذلك الا من نشأ منذ صغره في بلاد العرب ، فانه قد يتقن القارئ التركي علم التجويد ، ولا يزال معروفاً من لفظه أنه تركي ، ولا يبرح عاجزاً عن اخراج الحاء والعين والواو ، مثلاً ، مخارجها الصحيحة الا اذا ربي بين العرب . فأما خطيب جامع موسكو ، فسمعت منه لفظ خطيب عربي ، فدهشت عندما عرفت أنه لا يعرف بلاد العرب ، وانه انما تعلم التجويد في قازان ، وقد ازددت دهشاً لما سمعت بعض القراء يقرأون كقراء العرب نغمة وترتيلاً ، بدون أن يكون أحد منهم جاور في الحرمين ، ولا عرف البلاد العربية . مع أن اخواننا الترك العثمانيين يتعلمون التجويد ويحفظون القرآن ، ويتقنون كل ذلك ، وتبقي نعمتهم على ما هي عليه .

سألت حضرة عبد الودود بعد الصلاة وقد دعاني الى الشاي في منزله المناوح للمسجد ، بما هم عليه في عهد البولشفيك ، وما هو الفرق بين الادارة القيصرية السابقة والادارة الشيوعية الحاضرة ، فأخذ يفتص لي المحاسن والمساوي الا أنه قال : « أما من جهة الحرية الدينية فقد صرنا في بحبوحة عظيمة ، اذ أن البولشفيين لا يسألون الانسان عن عقيدته ، ولا يعرفون الا كلمة « روسي » أياً كان دينه ، وكان الدخول في الاسلام ممنوعاً لعهد الحكومة السابقة أما الآن ، فالحكومة لا تعترض أحداً ، وان كثيرين في هاتين السنتين أسلموا على يدي . بل كان أهالي مائة قرية من جوار قازان قد جعلتهم الحكومة القيصرية على النصرانية قسراً منذ مائتي سنة وحولت مساجدهم كنائس وأرسلت اليهم القسوس ، وكانوا لا يزالون في الباطن مسلمين ، لكن لم يقدرُوا أن يظهرُوا اسلامهم الا بعد أن سقطت القيصرية وجاء البولشفيك ، فعادوا الى الاسلام وأعادوا مساجدهم الى أصلها . »

ثم سأته عن تشكيلاتهم الشرعية فقال : ان قازان وسيبيريا وبلاد الباشقرد والفرغيز والمدن التي فيها مسلمون من جوار موسكو ، هذه لها مجلس اسلامي أعلى مركزه بمدينة أوقا . وهذا المجلس مؤلف من أربعة قضاة ، يرأسهم المفتي لأعظم . والمفتي الأعظم اليوم هو

العلامة جان بارودى بن محمد بارودى ، وهذا الرجل هو من خول العلماء وله تصانيف ، وكان أصلح أصول التنريس الاسلامى فى الروسية ، وأيقظ المسلمين ، فلهذا نفاه القيصر الى سيبيريا ، ولم يعد من منفاه الا بعد سقوط القيصرية ، فانتخب مقبياً أعظم فى أيام البولشفيك أما القضاة الأربعة اليوم فهم ، العلامة رضاء الدين بن نجر الدين من المشهورين فى البلاغة والتاريخ ، وكشاف الدين ترجانى امام قازان سابقاً ، وصابر جان الحسى امام أوقاف والسيدة مخلصة بوبيا ، وهى سيدة عالة فاضلة قد اقترحت الحكومة البولشفية ادخالها فى المجلس الأعلى بقولها : ان النساء هن نصف البشر ، وانه من العدل وجود امرأة فيه للمحافظة على حقوق المسامات (١) . فهذا هو المجلس الاسلامى الأعلى ، وفيه تنحل جميع المسائل الشرعية . ويتبع هذا المجلس تسعون ناحية ، كل ناحية منها فيها محتسب مثل الاستاذ عبد الودود ، فالحسبون مرجعهم المجلس الأعلى ، والأئمة فى المساجد مراجعهم المحتسبون . وأما تركستان فلها تشكيلات دينية ، ومفت أعظم مركزه طاشقند . وكذلك يوجد مفت أعظم لمسعى القوقاس ، ومفت لمسعى القريم .

سألت حضرة عبد الودود عما يقال من عدد مسامى الروسية كلها فقال لى : « فى ولايات قازان ، واورنبورغ ، وأوقاف وتوابعها ، مع الباشقرد ٥ ملايين . والغريغز ٥ ملايين . وتتر سيبيريا نصف مليون . وولايات تركستان ، طاشقند ، وسمرقند ، وخوقند الخ ١٢ مليوناً . وبجارى مليونان وخمسة مليون واحد . فهذه ٢٥ مليوناً ونصف مليون . » فقلت له ، وفى القوقاس ثلاثة ملايين الى أربعة طاغستانيون ، وجركس . وثلاثة ملايين فى اذربيجان وكرجستان . ونصف مليون أو أكثر فى القريم . فهذه نحو ٣٣ مليوناً . فوافقنى على هذا القول ، وسألت غيره حتى ممن كانوا من أعضاء مجلس الدوما الروسى ، فقالوا ان عدد مسامى الروسية نحو ٣٥ مليون نسمة .

وفى بولونيه نحو ١٥ أاب نسمة مسامون ، يقطنون عدة قرى . وفى مملكة ايتوانيه من ممالك الباطيك المستقلة بعد الحرب نحو ١٠ آلاف نسمة ، لهم بعض قرى ، وعندهم مساجد ، ولكنهم لا يعرفون لا العربية ، ولا التركية ، وانما يتكلمون بالليتوانية والروسية وكان يحسن أن يؤخذ منهم بعض طلبة الى الاستانة وآخرون الى مصر لأجل تعليمهم العربى والتركى . وكان منهم طالب أديب فى برلين ، جعلناه عضواً فى النادى الشرقى .

(١) روى الطبرى أن كثيراً من الفقهاء أجازوا قضاء المرأة

السيد جمال الدين الافغانى

حكيم الشرق

للأمر شكيب

فيلسوف الاسلام ، وعلم الاعلام ، وكوكب الاصلاح ، الذى أطلعه الله فى افق المشرق بعد أن اشتد به الظلام ، حجة الشرق الناهضة ، وآية الحق الباهرة ، الذى قال عنه ارنت رنان ، الفيلسوف الفرنسى المشهور بعد أن عرفه : « كنت أتمثل أمامى عند ما كنت اخاطبه ابن سبنا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين » . قد بلغ من شهرته ، والمهجة بذكره ، والضاوة بعقريته ولاسيما بمصر والشام ، وسائر البلاد العربية ، ان ترجمة حاله تكاد تكون احدثه الجميع ، فلا حاجة الى الاطالة بجميع تفاصيلها ، ولا الى الاحاطة بفررها وحجوها ، قصارى ما فى الأمر ان هناك حوادث لم تكتب الى اليوم ، وان الروايات تضاربت فى أمرين أحدهما ، هل هو أفغانى مولود فى افغانستان ، أم فارسى مولود فى همدان كما زعم بعضهم ، والثانى ، هل هو فيلسوف الهى أم مسلم ، أم فيلسوف مادى معطل . وعلى الأمر الأول نقول : ان كل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه انه من افغانستان ، وانه من سادات كثر الحسينية المشهورين فى تلك الديار ، ووالده السيد صفير وكان مولده فى اسد آباد بقرب كتر سنة ١٢٥٤ هجرية وفق ١٨٣٨ ميلادية وكذلك عرف به كبير تلاميذه ، الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مفتى الديار المصرية ، فى صدر رسالة الدهريين تأليف السيد جمال الدين . ولقد لقيت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسيناً أحد ولاة افغانستان ، ومن سادات كثر المشار اليهم ، ومن أفاضلهم ، وعلمت منه ان السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم ، كما انى سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الافغانية وسفرائها ، الذين جمعنا بهم التقادير فى اوربا بعد تأسيس سفاراتهم بها ، فلا أعلم كيف تتفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار ، على كون المترجم

أفغاني الدار علويًا حسيًا ، من أسرة نسبتهم كالتشمس ، ومقامهم في بلاد الأفغان أشهر من أن ينوه به ، ويكون في الحقيقة من همدان ومولوداً بها ؟ ونقول على الثاني : إن الأستاذ الشيخ محمد عبده تعرض إلى ادخاض هذه التهمة أكثر من مرة وعرب من الفارسية بمساعدة عارف أفندي أبي تراب الأفغاني رسالة « التبشيريين » أي الطبيعيين التي يرد فيها السيد جمال الدين على الملحدة والمعتلة ، ويقدم العقيدة الإلهية على أساطين المنطق ، والحكمة العقلية ، وينتجح إلى إيضاح البراهين المحمدية ، كل ذلك بملكة قل أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره ، ولكن بعض الناس — ولا سيما العلماء الحشوية — أبوا أن يروا في الفلاسفة الملحدين ومعتلين ، ومن هذا جاء قولهم العامي : من تمنطق زندق . وبمثل هذه المبادئ السخيفة والكلمات المحزنة ، أضلوا العوام ، ووضعوا عقائدهم في خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، وجنوا على الإسلام جنابة كبرى ظهر أثرها في الانحطاط السياسي والاجتماعي ، الذي نراه عليه الآن . وإذا قام مصلح أو مجدد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية ، ويبحث على النظر ، وينهى عن التقليد ، ويبين مضار الجود ، كان أول ما يتسرعون إليه رمية بالزندقة ، وانهامه بوهن العقيدة . وقد يصادف ذلك هوى في افئدة من يميلون إلى التعطيل فعلاً ، فيلقفون ما يسمعون من هذا القبيل بدون تثبيت ، ويسارعون إلى اذاعته بين الناس ، لأن من أحب شيئاً أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه ، ولهذا صدر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين ، التي أسلفنا ذكرها ، بمقدمة في ترجمة حال استاذ السيد جمال الدين قال فيها تقريباً ما يأتي : « يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل ما نراه من اختلاف آراء الناس في أمره ، وتضارب أقوالهم في حقيقة حاله ، حتى كأنه قوة روحية قامت في كل ذهن بما يلائمه ، أو حقيقة كابية نزلت في كل عقل بشكل يشاكله ، والرجل على صفاء جوهره ، وزكاء مخبره لم يتناول وضع الأوضاع ، ولا حزر الخراسين الخ » . ثم شرع بترجمته على الوجه الصحيح ، الذي هو أدري به من كل مترجم غيره ، بمكانه من خلطة السيد الأستاذ ، وماله به من تمام الخبرة ، ومعه من إطول العشرة . فقد ذكر نسبه ، وحسبه ، ومولده ، ونشأه ، ورحلته ، ومذهبه في السياسة ، ومذهبه في الفقه ، وقال في هذا : « إنه حنفي حنفي مع ميل إلى مشرب السادة الصوفية ، رضي الله عنهم » . وذكر عن مذهب السياسي أنه كان جل اجتهاده ، في أن

يرى إحدى الدول الإسلامية ، في صف كبريات الدول الأوروبية . وأطال في وصف مواهبه العقلية ، وقدرته العلمية ، إلى أن قال : « وبالجملة فلو قلنا أن ما أوتيه من الذكاء ، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء ، لكننا غير مباليين » . ووصف شأله الباهرة ، وأخلاقه العظيمة ، وهممه العالية ، وشجاعته التي لا تعرف للموت معنى ، وعدم مبالاه بالدنيا ، وانتهى إلى قوله فيها أتذكر : « وهو حلیم يسع حاضه ماشاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو أحد ليمس دينه ، أو شرفه ، فينقلب إلى غضب ، تنقض منه الشهب ، فيبينا هو حلیم أبواب ، اذا هو أسد وثاب » . قلت وسترى عاقبة غضبه عندما أهانه الشاه ناصر الدين ملك العجم ، والصورة الفجیعة التي انتهت بها ذلك الخلاف ، مما سترويه لك في آخر هذه الترجمة . وقد اتفق أرباب النظر في هذا العصر ، على أن قدوم السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية ، التي بدأت في البلاد العربية وسائر الشرق الأدنى ، ولم تزل تنمو إلى الآن ، رامية إلى تحقيق الشرق بالمعارف التي ساد بها الغرب ، ورفع سيطرة هذا عن ذلك ، وإعادة الشرق سيرته الأولى من الرقي . ولم يقرأ السيد جمال الدين على أحد بالأزهر ، ولكنه كانت له حلقة خاصة في منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر ، يستفيضون بحر حكمته ويستمطرون صوب صوابه ، اشتهر منهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سامان ، وإبراهيم أفندى اللقاني ، والسيد وفا القوي ، وسعد باشا زغلول ، الذي قيل لي انه أدرك آخريات أيام السيد بمصر ، ولازمه ثلثة من أدباء الشام ، الناقلين بمصر مثل أديب اسحاق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستاني ، وغيرهم وانفتح مريدوه ووجهة علمه ، يكتبون ويخطبون وينتجون إلى الملأ ما لانتقوه من فوائده ، وانتظموه من فرائده ، وكان ذلك اسانا عاليا لاعهد للناس بأمثاله ، وأسلوباً راقياً انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله ، فأحدث في الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله ، ونفخ فيها روحاً سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله ، فنشطت هم واستجدت عزائم ، وهبت قوى وفاضت قرائح .

وقال الشيخ محمد عبده في وصف تلك الحركة ما يأتي تقريباً : — لأن نص كلامه ليس بيدي الآن — فاستنارت الأبواب ، واستضاءت البصائر ، وانحلت عقل الأوهام عن قوائم العقول . إلى أن قال انه لم يكن بمصر للكتابة قبل جمال الدين شأن يذكر ، ولم يكن يعرف من الكتاب سوى عبد الله باشا فكري ، وخيرى باشا ، وفلان على ضعف

فيه ، وفلان على اختصاص فيه ، وبقية من بقي فأنا ساجعون في المراسلات الخاصة ، وإنما مؤازرون في بعض الكتب الأدبية الخ ، ولم تكن الثورة التي أحدثها السيد جمال الدين في السياسة بأقل منها في المعارف ، ولعمري هاتان توأمان ، فقلما انتشر العلم في مكان إلا هتف بالحرية. وأول أثر ظهر لجمال الدين في ميدان السياسة ، هو الحركة التي هبت في أواخر أيام الخديوي اسماعيل باشا وآلت الى خلعه من الخديوية ، وكان للسيد اليد الطولى فيها ولما جلس توفيق باشا على كرسي مصر شكر لجمال الدين مساعدته ، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية في حقه ، وجاء من دس الى الخديوي الجديد أن السيد لن يقف عند هذا الحد ، وقد تحذته نفسه بثورة ثانية ، وباقامة حكم جمهوري وما أشبه ذلك ، مما لا يعي تنمية السعاة والمتعلقين ، فصدر الأمر لجأة بنبي جمال الدين وأخرج الى السويس ، ومنها ذهب الى الهند ، ولم يدخل بعدها مصر . وجرت الحركة العراقية في غيابه ، واحتل الانكليز مصر . وما لا مرأى فيه أن المبدأ الوطني ، الذي رأس تلك الحركة كان من زرعه هو ، وإن كان هب على ذلك الزرع ، من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ، ولفحه من الدسائس الأجنبية ماصوح نضرته ، وأذهب ثمرته ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث في الشرق أو حركة اصلاح تشفق من ورأئها الدول أن تتمزق حجب العباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار إلا أن ذلك الزرع لم تذهب بزوته من الأرض ، وعاد فأخرج شطأه ، وما زال ينمو حتى استوى على سوقه ، يعجب جمال الدين لو عاش الى اليوم ، و يغتاز به الذين لا يرحون مخاطلين في الجلاء عن مصر ..

وفي سنة ١٨٨٥ ذهب جمال الدين الى أوروبا ، وأول مدينة سعد اليها لندرة ثم تحول منها الى باريس حيث وافاه الشيخ محمد عبده أكبر تلاميذه ، وأكمل وعادة علومه ، فأصدرا فيها « العروة الوثقى » التي بلغت من ايقاظ الشرق وهز أعصاب العالم الاسلامي ، ما لم تبلغه صحيفة سيطرة قبلها ، ولا بعدها ، ولكن لم يسعهما الوقت أن يصدرا منها إلا بضعة عشر عدداً ، فعاد الشيخ محمد عبده الى بيروت حيث كان منفا على أثر الحادثة العراقية ، وبقى جمال الدين في أوروبا يحول في مدنها ويناقن أهل العلم فيها الى أن تلاقى بالشاه ناصر الدين صاحب فارس بلغنى أنهما تصادفا في منيخ عاصمة بافاريا ، فدعاه الشاه أن يكون بمعينه لما شاهده من وفرة علمه وفضائه ، وتقدم اليه في الذهاب معه الى طهران ، فإبى السيد دعوته ،

وأكرم الشاه نزله في عاصمة فارس ، وما زال في علياء عنده ، حتى نفس عليه الحساد منزلاته هذه لدى الشاه ، ولما كان السيد جمال الدين لا يكتم فكره ، ولا يحتاط من قوة نفسه ، أن يجهر بكل ما يجيش به صدره . وكان بعد ذا وذا مجد في ادارة أحكام العجم ، مالا يطبق عليه صبراً أقل منه بكثير ، في اطمه ، وابع الضيم ، وصحة الوجدان فما ظنك برجل نظيره . لم يصعب على أولئك المفسدين ، أن يحكموا الوشاية ، ويوقعوا العداوة بينه وبين الشاه حتى انتهى الأمر باعتقاله وحبه ، ثم باخراجه مهاناً من فارس الى بغداد ، حيث خاطب المجتهد الكبير ، ميرزا محمد حسن الشيرازي رأس الشيعة في وقته بكتاب شهر ، عدد فيه مساوي الشاه ، واستيلاء العتة على عقله ، وشرح فيه مضرة امتياز شركة التبناك ، الذي يقضي باستنثار الأجانب بأهم محصول بلاد العجم ، فكان هذا النداء ، من أعظم أسباب الفتوى التي أفتاها ذلك الامام بطلان هذا الامتياز ، واضطرت الحكومة الفارسية خوف انتقاض العامة الى الغائه . ولكن السيد جمال الدين لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها ، وأخذ يعاكس الشاه وحكومته بكل وسيلة ، وكان كلما تذكر اهانة الشاه له ، وبين جنبه تلك النفس العظيمة ، التي لو قلنا ان أنفس الملوك في جنبها تعد أنفس سوقه ، لسكنا غير مغالين حاج به هائج الانتقام ، وتقصد الأخذ بالثار ، لا سيما أنه كان رأى بعينه في ابران ، من آثار الاستبداد والظلم وفتائع العسف والغشم وذهاب مصالح الأمة العامة في سبيل اهواء افراد ، وشهوات آحاد ، ما مكن في خلدته فكرة العمل لرفع الشاه من مركزه . وصادف بعد ذلك أنه ذهب الى اندرة مرة ثانية ، فخر في مجلة سهاها « ضياء الخافقين » مقالات على أحوال فارس تقيم وتقعده ، وكان السلطان عبد الحميد قد دعا السيد جمال الدين الى الاستانة وذلك في سنة ١٨٩٢ فجاءها وكانت هذه المرة الثانية لسخوله هذه العاصمة . اذ كان قد عرف الاستانة مرة قبلها في زمن السلطان عبد العزيز . هذا ولما كانت سبقت لمحرر هذه السطور معه مراسلات بواسطة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده كان أول من سألت عنهم عند سفري الأول الى أوربا سنة ١٨٩٢ المذكورة ، هو المرحوم السيد جمال الدين فقيل لي انه قصد الاستانة وأظهر لي التخوف على مصيره في الاستانة هنرى روشفور ، الكاتب الفرنسي الشهير ، الذي عرفته وهو منى بلندرة . وكان روشفور يحب السيد جمال الدين ويحترمه ، وقد وصفه في كتابه « ماجريات حياتي » بقوله هكذا على أسلوبه الخاص به في الكتابة :

« السيد جمال الدين الأفغاني من سلالة النبي ، والمعروف هو أيضاً أنه أشبه بنبي » ثم قال :
« انني شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التي أجدتها تربطني بكل داع الى نورة أو
مقاوم لسلطة . »

ولما ورد السيد جمال الدين الاستانة أنزله السلطان منزلاً كريماً ، في دار ضيافة خصه
بها في نشان طاش ، وأجرى عليه الأرزاق الوافرة ، وكان يدخل على السلطان ويصلي صلاة
الجمعة معه . ومضت مدة وجمال الدين حظي عند أمير المؤمنين ، لا خوف عليه ولا هو يحزن
وكان الجولم يسفر بينه وبين السيد أبي الهدى الصيادي فبدأ ذلك أجل القصص بحقه الى
السلطان ، وإنما كانت تلك فترة لا يعياً بها ، اذ ما عثم الأستاذ الصيادي أن وجه عليه حملته
عند مولاه ، وان دفع يشتم جمال الدين بالكفر والزندقة ، كما هو ديدن هؤلاء ، في شأن كل
من أرادوا تنقصه من الحكماء . وقد اطلعت على نشرة من جانب السيد أبي الهدى تناول
ثلاثة من أعباده وهم السيد فضل العلوي الحضرمي أمير ظفار ، والشيخ ظافر المدني
الطرابلسي شيخ الطريقة الشاذلية ، والسيد جمال الدين الأفغاني ، وثلاثهم كانوا من
المقربين الى السلطان ، وكان لكل منهم نصيب وافر من الشتم والوقية في هذه النشرة ،
وحصة السيد جمال الدين كانت تهمة الخداد وفساد الاعتقاد . ومن جهة الشواهد على ذلك
كونه قال مرة : « أنا أطوف بأشجار البندل طواف الحجيج بالكعبة » . والبندل هي
السدود بالتركية وذلك أنه يوجد محل زهه بظاهر الاستانة قد سد السلاطين العظام فيه
أودية بحيث تكونت منها بحيرات لسقيا العاصمة ، وقد أحاطت بتلك البرك غابات ملتفة
بديعة ، ففاية ما يقال ان جمال الدين عبر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية ، فاستخرج
منها أبو الهدى الخداداً وكفراً . وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركانه
وسكناته ، ويقدموا ذلك الى السلطان . فما يروى أنه كان هو وعبد الله نديم الكاتب المصري
المشهور في منزله « الكاغد خانة » ، فصادفا الجناب الخديوي عباس حلمي ، وسلم بعضهم
على بعض ، وتحدوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك . فيقال ان السيد أبا الهدى قدم
تقريراً للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديوي على الاجتماع في
الكاغد خانة . وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة . لكن السلطان بحسب قول جمال
الدين لم يحفل بهذه الوشاية . ولكن هذا الخلاف مع أبي الهدى لم يزعزع مكانة جمال الدين

من السلطان ور بما زاده لديه زلفي ، وإنما أدى الى وحشة الخليفة منه ، استمراره في مجاله التي كانت تنتابها الناس دائماً على القدح في شاه العجم مما جعل سفير ايران على رفع الشكوى الى السلطان ، فاستدعى السلطان اليه السيد جمال الدين وقال له : « ان سفير العجم يرجئني أن أتكم معك في الكف عن الواقعة في الشاه وأنا بناء على أملي فيك وعدنه بأنك تكف عنه » وقد روى لي السيد رحمه الله هذه القصة عند ما رجعت من أوروبا الى الاستانة في أواخر سنة ١٨٩٢ . فقال لي هكذا بالحرف : « فقلت للسلطان ما كنت ناوياً أن أترك شاه العجم حتى أتزله في قبره ، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه ، فلا بد من طاعته . » بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك ولا يبالي عن موقع مثل هذا الكلام منهم ، مع أن أشدهم حذراً ووسواساً كان السلطان عبد الحميد ، فلا عجب ان وقع في نفسه شيء منه . ولكن بيت السيد كف بالفعل عن أذى الشاه ، إذ لم يلبث أن عاوده الغضب الذي هو العيب الذي عوذ الله به حسنانه العديدة ، والذي جرّ عليه كثيراً من المصائب ، حتى قال الشيخ محمد عبده في وصفه : « وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعت الفطنة » . فبني أحد الأيام قدم على جمال الدين رجل من العجم ، بابي المذهب ، اسمه رضا آقاخان ، صادف أنه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عندما اعتقله الشاه ، فصلت بينهما محبة أكيدة ثم تفارقا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفي الى بغداد ثم أخلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجيء السيد الى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسره به السيد كثيراً ، وكان دائماً يحادثه ويتكلمان على شقاء الأمة الإيرانية بسوء ارادة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقاخان يوماً انه هو حاضر أن يفدى نفسه لتخليص أمته فقال له جمال الدين : « ان كان كذلك فاذهب وافعل » فذهب رضا آقاخان ، وبعد أشهرينما ناصر الدين شاه في جامع عبد العظيم في طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : « بدى از جمال الدين » أي خذها من يد جمال الدين ووردت الأخبار الى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثارها ويفتك بالطاغى الذي على رأسها ، لا تكون قد قُضت جرائم الحياة . » وكلاماً من هذا القبيل كان يردده . ثم لما ورد عدد من مجلة « الأيولستراسيون »

التصويرية الفرنسية ، وفيها صورة القاتل رضا آقاخان مصلوباً معلقاً ، والناس ينظرون من حوله هتف : « علو في الحياة وفي المات . وقال : انظروا كيف علقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رمزاً الى أنهم كلهم كانوا من دونه » . وكان الجواسيس ينقلون الى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين ، وانه مازال وراء الشاه حتى « أئزله في قبره » كما قال . ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ، وذهب هذا الى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى في تدمير مكيدة مع بعض الايرانيين ، تلغع الشاه أو لقتله ، فندم جداً على افلاته ، ويقال انه هو الذى بعث الى السلطان عبد الحميد يرجو منه استخدام جمال الدين اليه ، ووضعه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى . ولما ورد الاستانة أمر بالمبالغة في برّه واكرامه ، ليليه عن عداوة شاه العجم ، فكان مع ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شديداً . وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ومنع أى أحد من الاختلاط به الا بارادة سلطانية ، فأصبح السيد في قصره محبوساً . وكانت الحكومة الايرانية شرعت في تحقيقى حادثة القتل فثبت لديها اغراء جمال الدين لرضا آقاخان بالاشترك مع شخص فارسى آخر اسمه رضا آقاخان أيضاً ، وشخص بغدادى باسمه الشيخ ابراهيم . فطلبت الدولة الايرانية من الباب العالى تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلغنى أنه جرى تسليمهما وقتلا في إيران بحجة اشتراكهما بانثوامة . ثم ان التضييق بلغ حده على المترجم حتى أرسل الى فيس موريس مستشار سفارة انكلترة يلتمس منه ايصاله الى باخرة يخرج بها من الاستانة ، فحضر فيس موريس اليه وتعهد له بما طلب ، واذا ذلك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل اليه أحد حجاجه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة الى هذا الحد ، ولا يلتمس حياية أجنبية . فثارت في أنفه حية الاسلام ، وبعد أن كان زمّ حقايبه للسفر قال لفيس موريس انه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن . ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من اذن خاص . وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، فصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية بتولاها قبور زاده

اسكندر باشا ، كبير جراحي القصر السلطاني ، وكان هذا مقرباً جداً الى الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، وبالمثل الاياما فلائل حتى فاضت روحه رحمه الله وعفا عنه . وهنا تقول الناس أشكالا وألواناً في قضية هذا السرطان وهذه العملية الجراحية ، لقرب عهد المرض بحادثة قتل الشاه ، وما كان معروفاً من وساوس عبد الجيد . فقيل ان العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمداً ، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا : بحيث انتهت بموت المريض . وحدثني صديقي الكونت لاون أوستروورغ ، المستشرق العلامة ، مترجم كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ، وحدثه هذا كان لي في هذه الأيام الأخيرة في لوزان (شهر يناير سنة ١٩٢٣) . أن المترجم كان صديقه فدعاها اليه بعد اجراء العملية الجراحية وقال له ، ان السلطان أبي أن يتولى العملية الاجراحه الخاص ، وانه هو رأى حاله ازدادت شدة بعد العملية ، فيرجو منه أن يرسل اليه جراحا فرنسويا ، مستقل الفكر ، طاهر الذمة ، لينظر في عقب العملية . فأرسل اليه الدكتور لاردي ، وهو رجل لايزال حيا واقامته بحيف من سويسرة ، فوجد ان العملية لم تنجح على وجهها ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وان المريض قد أشقى بسبب ذلك ، وعاد الى أستروورغ ، وأنبأه بهذا الأمر المحزن ، وماضت أيام حتى فارق جمال الدين الحياة . وقال لي واحد ممن كانوا في خدمة عبد الجيد وقد رويت له هذه القصة : أن قبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الدنائة ، ولكن كان رجل عراقي اسمه جارح طيب أسنان يتردد كثيراً على جمال الدين ويعان له أسنانه ، وكانت نظارة الضابطة قد استألت جارح هذا بالدراهم وجعلته جاسوساً على المترجم ، فصار له عدواً في ثياب صديق . قال لي صاحب هذه الرواية : فأردت مرة أن أمنع جارحاً من الاختلاط بحمال الدين فأشار اليّ ناظر الضابطة اشارة خفية بأن أتركه ، وفهمت من الاشارة انه يذهب الي هناك ويطبب أسنان السيد بعلم من النظارة والسيد لايعلم بشيء من ذلك ، ويستخلص جارحاً ويشق به . قال فلا أعلم ماذا فعل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به ، فصارى ما أعلم انه لم تعض عدة أشهر على حادثة الشاه ، حتى ظهر السرطان في فك السيد من الداخل ، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح ، وجارح هذا ملازم للمريض . وبعد موته كنا نراه دائماً حزينا ، كئيبا ، كاسف البال ، واجم الوجه ، حزيان ، مما جعلنا نشبه أن يكون ذا يد في افساد الجرح بعد العملية ، أوفى

توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل ، فلما مات السيد أخذ يعذبه وجدانه على خيافته هذا الرجل العظيم ، الذي كان وثق به . قال ولا أجزم بكونه هكذا فعل ، ولكنني أجزم بأنه كان جاسوساً على السيد والله من وراء العلم . وكانت وظائفه رحمه الله في آذار سنة ١٨٩٧ وصلى عليه في جامع الثنويقية في نشان طاش ، ودفن في مقبرة علي مقربة منه . ولى في جريدة الاهرام يومئذ مقالة بين يدي فقدمه ليست في يدي الآن لمراجعة تاريخها . وكنت لماعدت من أوروبا الى الاستانة سنة ١٨٩٣ ، ذهبت اليه في نهار وصولي ، فاستقبلني برأ وترحيباً ولزمته تلك المدة الى أن اضطررت الى السفر الى وطني سورية ، ففارقته أسفا وأنا أمني نفسي بالعودة الى الاستانة ، لمشاهدته والاستفادة منه . وسألني مرة عما شاهدته في أوروبا وأرى نتيجة استخلاصها من حال أولئك القوم ، لأنه كان فيلسوفاً تاماً لا يرى الجزئيات الا من خلال الكلليات ، فلما أردت أن أبدي له ما يعنى لي في هذا الباب ، وكنت يومئذ في أول شباني لم أجاوز الثانية والعشرين من العمر ، غلبتني مهابة حكمت وخشيت أن لا أصيب المحز ، فتحوطت لسلامي بشئ من انكار النفس واستكبار أن يكون مثلي ممن يجوز أن يتكلم بمحضرة مثله ، فأرأته الانهض وأمسك بيدي وهتف قائلاً : « أنا أهني أرض الاسلام التي أنتتلك » . فسمع الناس هذه الجملة وما زالوا يتناقضونها ، وما خاله قصدتها الا الجنب بضبي الى الأمام ، وجبر مانقص من قوتي المعنوية . وحكيت له مرة أن احدى جراند اميركا بحثت في موضوع اكتشاف تلك القارة ، فقالت يروي أن العرب خاضوا الاوقيانوس الاطلانتيكي ناشدين البر الذي وراءه ، وسالت هل عند مؤلفي العرب شئ من هذا الخبر ، فعربت ذلك جريدة النشرة الاسبوعية في بيروت ، وألقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت في باريز ، فلما اطلعت على القضية لبيت ذلك النداء وراجعت في المكتبة الوطنية كتب الشريف الادريسي الجغرافي العربي الشهير ، وقلت من كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق ، خير الاخوة المغرورين ، الذين ركبوا سفينة من أشبونة وجعلوا فيها كل ما يلزمهم من الزاد والماء ، وخالصوا بها بحر الظلمات الى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر الى جزيرة غالية لم يجدوا بها الا الوحوش ، فركبوا البحر متجهين الى الجنوب ، وبعد نحو شهر أيضاً نزلوا بجزيرة فيها أناسي وملك يحكم عليهم ، ففعلوا من عندهم متجهين شرقاً ، حتى نفذوا بعد مدة الى مرسى اسقى بالمغرب الأقصى . فلما اكملت له الرواية

واتى حررتها جونا على النشرة الأسبوعية ، وقد أنرتها عنها جميع الجرائد العربية ، التفت الى قائلا : « لا أريد أن أسرّ المسلمين بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم . أجابوه : ان آباءنا قد كانوا كذا وكذا . وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بان ما كان عليه آباؤهم من الرفعة ، لا ينفى ما هم عليه اليوم من الخمول والضعف . قال : ان الانسان اذا بنى قصرا مستوفيا جميع شروط البهاء والسيقة ، ولم يفته فيه شيء من الرفاهة والفرهة ، فهو يفكر حينئذ بأن يأتي الى قصره بالرياض الغلاتى النادر من القطر الغلاتى ، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التى لا يملكها الا القليلون ، وأن يجعل فى حديقة القصر هذه الزهرة البديعة وتلك الريحانة العجيبة . فأما وهو قصر متداع الى السقوط ، والجص نازل الى الأرض ، والسقوف قد هوت من كل جانب ، وهو لا يقدر على ترميمها ، فهل يحظر بباله أن يأتي لا كمال زينة قصره بهذه الآنية ، وتلك الزهرة ، وهانئك الديباجة ، كلا ، لعمرى ان من أعوزته الضروريات ، لاجابة به الى الكايات . قال لى : « وأنالا أقول لك لماذا حققت عن قضية جد العرب لا اكتشاف أميركا ، ولكننى أقول لك ان الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة ، وهى كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر ، قالوا : أفلاترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أتم أولاء كما أنتم . فلا يلقى بكم أن تذكروا مفاخر آباؤكم الا أن تفعلوا فعلهم . وكأنه ينظر بهذا الى قول القائل :

بنى كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

وكان من شدة ما يجد من الالم خلال الاسلام ، تحظر له خواطر نادرة فى هذا الموضوع ، فقال لى احدى المرار : « قد فسدت اخلاق المسلمين الى حد أن لا أمل بأن يصلحوا ، الا بأن ينشأوا خلفا جديدا ، وجيلا مستأنفا ، فبذا لولم يبق منهم ، الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسيّرهم فى طريق السلامة . » وقال لى نوبة أخرى : « لم يبق فى الاسلام أخلاق ، فهذا محمود سامى (البارودى الشاعر الكبير ، رئيس النظائر أثناء حرب عرابى) عاهدنى ثم نكث معى ، وهو أفضل من عرفت من المسلمين . » وقال لى أيضا : « ان المسلمين قد سقطت همهم ، ونامت مجزأتهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شئ واحد فيهم وهو شهواتهم . » وكان يندد هذا التنديبة لئلا كان فيه من الوجد لاسترداد الاسلام مجده القديم ، ولما كان يراه من غفلة المسلمين عن الاخذ باسباب

الرقى ومن السبات العميق الذى أمعنوا فيه ، على حين صاح صائح الجذ بسائر اذمها على الفلاح . ومن قرأ مجموعة العروة الوثقى التى كانت ترجمان أفكاره ، بقلم تلميذه الشيخ محمد عبده رأى انه أنبأ منذ أر بعين سنة بما سيؤول اليه حال الاسلام ، وما ستكون معه سياسة الدول المستعمرة ، مما تحقق كله فيما بعد ، حتى كأنه كان ينظر الى الحوادث المستقبلية فى مرآة . وكان فى أطوار حياته ، فيلسوفاً كاملاً ، عالماً عاملاً ، فلا يقول ما لا يفعله ولا يكتفى من الحكمة بالنظر دون العمل ، كما هو شأن كثير من العلماء الحفاظين الذين قلوبهم فى واد وألستهم فى واد . فكان يفطم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات الا اللذة العقلية العالية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ، ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وقال له : قضيت حياتى مثل الطير على الغصن ، فلا أريد فى آخر أيامى أن أتعلق بعائلة . وكنت سامراً مرة عنده وعن هذا الموضوع ، فقال له أحد الدمشقيين : يا مولاي لماذا لا تتأهلون ويكون لسكك الذرية الصالحة ؟ فلم يعجبه قوله ، ولما انصرف الرجل أقبل على السيد وقال « لم تدخل روح الفلسفة فى هذه الامة » . وليس مراده بذلك التزهيد فى الزواج ، وإنما تقرير حقيقة وهى أن الفلسفة لا تبال بالنسل والذرية ، وان الفلاسفة قلوبهم فى شغل شاغل عن ذلك ، وكان ينظر الى المال نظره الى التراب فلا يدخره ، ولا يعرف معنى تسميره ، ولا يتناول منه الا ما هو ضرورى للحياة . ولما كان فى الاستانة ، كان عنده قهرمان هو الذى بيده الحساب والقبض والصرف ، أما هو فلا يدري من ذلك شيئاً ، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضى عسكر مثلاً ، فأبى أن يقبل الرتبة ، وأن يلبس كسوتها المزركشة بالفضة ، وكذلك رفض قبول الوسام مهما كان عالياً ، فسألته عن ذلك فقال : أكون كالبنغل يحمل على صدره الجلابجل ؟ وبالجملة فلم يكن يؤخذ لا رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد كان راغباً عن الدنيا بخلاف غيرها عيوقاً عن زينتها معرضاً عن زخرفها كما مريك . وأما الرهبة فلم يكن يعرف الخوف الى قلبه سبيلاً ، وفيما سردنا لك من قصصه ما فيه مفتح . وعرض حديث أجريت فيه ذكر الشيخ محمد عبده فقلت ، انه من الأفراد بمصر ، فاجابنى : « لا يوجد مثله بمصر » . وكان هذا قبل أن صار الأستاذ فى منصب افتاء الديار المصرية ، ونال تلك الشهرة العظمى .

تحرينا فى ترجمة حال هذا الحكيم الكبير ، هذه الدقائق لأنه مما لا مشاحة فيه ،

أنه هو الموقف الأعظم للشرق ، وإن طريقته ستزداد انتشاراً ، ومبادئه ستطبق في يوم من الأيام الشرق بأجمعه ، فيسأل الخلف عن أحوال حياته ، ويستقصون عن خواطره ، ويجدون في جمع آثاره ، كما نرى الأور بين اليوم يحرصون جد الحرص ، على اكتشاف أقل شئ يعزى إلى عظيم من عظمائهم ، سواء من خير أو أثر . ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم في حياتهم معشراً ما يحرصون عليها بعد ذهابهم ، وكنت أسأل مرة مارسل كاشين ، وجان لونغه ، وجاعة من رؤساء الاشرافيين الفرنسيين ، عن جوريس نابغة السوسياლისت في هذا العصر ، فبعد أن حدثوني عنه ساعة قالوا لي : « لم تكن تقدره قدره في حياته كما تقدره قدره اليوم » وأظن الحال كذلك مع رنان ، ومع فيكتور هوغو ، ومع سبنسر ، ومع بسمارك وجميع الأعاظم . فإن أقدارهم تزداد بالوفاة ، والولع بآثارهم يتضاعف مع تقادم العهد . وهكذا شأننا مع جمال الدين ومحمد عبده ، وغيرهما من كبار المصلحين ، كلما تقدم عليهم العهد ، حرص الناس من آثارهم على المفظلة الشاردة ، والكلمة الفاردة ، ليكتبوها عنهم بماء الذهب . وجمال الدين تاريخ للأفغان ، ومقالات متفرقة كان عندي منها مجموعة ، سطا عليها لص علم ، وآخر ما نشر له ، رسالة الشهرين التي سبق ذكرها . وبالجملة فلم يكن يحفل بوفرة التصانيف ، وإنما كان مؤلف أمم ومصنف بمالك .

وعن ترجم السيد جمال الدين ، العلامة غولند سيهر المستشرق المجري المشهور ، شيخ المستشرقين في العلوم الشرعية ، وصاحب التصانيف العديدة . فقد رأيت له في دائرة المعارف الاسلامية ، المحررة باللغة الفرنسية ترجمة خاصة بالمرحوم السيد جمال الدين ، جاء فيها ما ترجمته :

« السيد محمد بن صفر ، من أعظم رجال الاسلام في القرن التاسع عشر ، كان بحسب رأى براون فيلسوفاً ، كاتباً ، خطيباً ، صحفياً . وقبل كل شئ ، كان رجلاً سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً ، وأعداؤه مهيجاً خطيراً . وقد كان له تأثير عظيم في حركات الحرية ، والنزاع الثورية ، التي جددت في العشرات الأخيرة من هذه السنين ، في الحكومات الاسلامية وكانت حركته ترمي إلى تحرير هذه الممالك من السيطرة الاوربية ، وانقاذها من الاستغلال الاجنبي ، وإلى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة .

وكذلك كان يفكر في جمع هذه الحكومات بأجمعها ومن جعلتها إيران الشيعية ، حول الخلافة الإسلامية . لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الأوربي في أمورها . فجاء الدين بقلبه ولسانه ، كان أصدق ممثّل لفكرة الجامعة الإسلامية . وأسرتة الشريفة تنتمي الى الحسين بن علي بن أبي طالب بواسطة المحدث الشهير الترمذي ، فهو من أجل ذلك يلقب بالسيد . ثم يقول انه بعد اكمال تحصيله بكابل ، ذهب الى الهند ، ثم حج البيت سنة ١٢٧٣ هـ ، أو ١٨٥٧ و بعد اوبته من الحج ، دخل في خدمة دوست محمد خان أمير الأفغان ، ورافقه في حصار هراة ، ولما توفي دوست محمد خان ، دخل في خدمة محمد أعظم الذي استوزره الى أن كان سقوطه واستيلاء شير علي خان على المملكة . فرحل السيد جمال الدين الى الهند (١٨٦٩) ومنها قدم القاهرة حيث أقام أربعين يوماً ، ومنها قصد الاستانة ، فأقبل عليه وزراؤها وعلمائها ، وأجلوا قدره ، وعرفوا فضله ، وعينته الدولة عضواً بمجلس المعارف وصار يلتقي بعض الدروس في أياصوفيا والسلطان أحمد ، ودعى مرة الى الفاء خطبة في دار الفنون على فوائد الصناعة ، فذكر النبوة من جملة الوظائف الاجتماعية (١) فأدى ذلك الى أن حسن افندي فهمي شيخ الاسلام رماه بالزندقة ، واضطر الى مغادرة الاستانة قاصداً مصر . فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشاً شهرياً ١٢ ألف غرش بدون أن تسكفه إلقاء درس خاص ، وانما كان يقرأ على حلقة من الطلاب في منزله ، واجتمع حوله كثير من العطاش الى مناهل العلوم العالية الخ .

وذكر غولد سيهر سائر ما يعرف من أحواله مما حرره الشيخ محمد عبده ، في صدر رسالة الرد على الدهريين ، وما هو بمعنى ترجئنا له في هذا الكتاب ، الا أنه يقول انه لما نفي من مصر الى الهند جعلوا اقامته بجيدر آباد الدكان ، وهناك كتب رده على الدهريين ، وانه قد زعم ويلفريد سكا فن بلونت وهو مما لم يذكره غيره . من مترجيه ، أن جمال الدين ذهب

(١) حقيقة هذه القصة أن السيد يومئذ شبه الاجتماع الاسلامي بمجم أعضاء الصناعات المختلفة ، فبشبه السمعة الفلانية باليد ، والفلانية بالرجل ، وهذه بالعين ، وتلك بالأذن ؛ ثم قال وأما الرأس المدير لهذا الجسم ، فهو اما النبوة أو الحكمة ، والفرق بينهما أن النبوة وحى إلهي معصوم من الخطأ ، وان الحكمة وضع بشري قد يخطئ . وقد يصيب . وكان حسن فهمي افندي شيخ الاسلام يومئذ ، ناقداً علي الأفغاني قرأها سابقاً في مجلس المعارف ينال من رزقه ، فانتبه فرصة هذا الخطاب ليقول ، ان الأفغاني جعل النبوة من جملة الصناعات

من الهند الى أمريكا ، وانه منها جاء الى لندن سنة ١٨٨٣ .
 وذكر غولد سيهر مناقشة جمال الدين مع رنان ، في أمر قابلية الاسلام للعلم ، فقال
 ما يأتي بالحرف :
 « وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذاً أبواب الرأسة ، فنشر فيها مقالات
 ممتعة ، عظيمة القيمة على السياسة الشرقية ، التي كانت تتنازعها انكلترة والروسية ، وعلى
 أحوال تركيا ومصر ، وعلى معنى حركة المهدي السوداني . وفي ذلك الوقت جرت بينه وبين
 ارنست رنان ، المناظرة التي أساسها محاضرة ألقاها رنان في السوربون على الاسلام والعلم .
 فجعل الدين أراد تنفيذ مزاعم رنان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العلمي ، وذلك في مقالة
 بجريدة « الدنيا » ترجمت أيضاً الى الألمانية . ثم بعد ذلك بقليل ، ترجمت محاضرة رنان ،
 مصحوبة برد من قلم حسن افندي عاصم الخ » .

ثم ذكر غولد سيهر العروة الوثقى ، وكيف شددت الحكومة الانكليزية بمنعها من
 أول عدد صدر منها من الدخول الى مصر والهند . وقال انه سنة ١٨٨٥ ، بالرغم مما اشتهر
 به المترجم من عداوة انكلترة ، داخله الانكليز بإشارة المستر بلونت في أمر إيجاد حل لمسألة
 المهدي السوداني ، ولكن لم يقترن شيء من ذلك بالعمل . ثم زعم أن الشاه ناصر الدين
 دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ الى حاضرة ملكه طهران ، وأكرم مثواه وبالغ في الاحتفاء به ،
 ولكن خشية الرقباء حلت جمال الدين على الاستئذان من الشاه والذهاب الى الروسية ،
 حيث أقام مدة وصارت له علاقات كثيرة ، وان لقاءه للشاه في منيخ كان في المرة الثانية
 ودعاه هذا الى الرجوع الى طهران ، وذلك سنة مجيء الشاه الى معرض باريس (١٨٨٩)
 وذكر غولد سيهر أن سبب الفتنة بين جمال الدين والشاه كان الصدر الأعظم ميرزا علي
 أصغر خان الملقب بأمين السلطان ، نفاسة على جمال الدين بالمكانة التي أحرزها في ايران ،
 وان جمال الدين التجأ الى مقام عبد العظيم الذي هو أشبه بحرم من دخله فهو آمن ، وأقام
 به سبعة أشهر والناس تتردد عليه ، الى أن أرسل الشاه كتيبة ٥٠٠ فارس ، اخترقوا حرمة
 الحرم وأخذوا السيد منه عنوة ، وساقوه مكبلاً بالحديد الى خانقين (١) .

ثم استوفى بقية خبره ، وكيفية معاكساته لحكومة الشاه ، ثم هجبه الى الاسطانة ،
 وموته فيها على الوجه الذي حررناه .

الاسلام والجنود السوداء

مقالة روجر لا بون والتعليق عليها

روجر لا بون

- ١ — الاسلام الأسود
- ٢ — الاسلام عند السنغاليين
- ٣ — الخلاصة
- ٤ — الجنس الأسود والاسلامية

انه مما يجدر بأن يطلع عليه الشرقيون عامة والمسلمون خاصة ، ما يصدر في أوروبا في
 الأحياء من الكتابات المتعلقة بهم ، والتصانيف الباحثة عن مصيرهم ، والمقالات المصورة
 لأحوالهم وشؤونهم بلون مخيلات الكتاب الذين حرروها ، الناطقة عن هوى الأحزاب التي
 ينتمى هؤلاء الكتاب اليها ، بحيث يعرف منها الشرقي أو المسلم أو المستضعف المغلوب على
 أمره كائناً من كان ، ماذا يطبخ له في الخفاء ، وماذا يدس بحقه تحت الستار ، وماذا يدبر
 عليه بدون علمه مما لا يطلع عليه الا في الندرى ، وما هو رام الى ادامة استغلاله ، والاحتياط
 من وراء اساره ، وتأمين رسفاته الأبدى في سلاسل العبودية . نحن هذا القليل وما نورد
 مثالا ، مقالة مشبعة ظهرت مؤخراً في مجلة من أشهر المجلات الفرنسية هي مجلة باريز
 Revue de Paris في عدد أول ابريل سنة ١٩٢٣ ، لكاتب فرنساوي اسمه روجر لا بون (١)
 Roger Labonne عنوانها « الاسلام والجنود السوداء » كشف فيها النقاب عن جميع
 ما يشوى بعضهم في حق المسلمين الذين تحت نير الافرنجة عامة ونير الفرنسي خاصة ، وتوخي
 عدم حصر ذلك في الميدان السياسي والاداري ، بل تجاوزه الى الميدان الديني والاجتماعي ،
 مما لا يجوز التهاون به ولا الاعضاء عنه ولو لأجل العلم به على الأقل . وقد جرت عادة
 المضالين والمهاكبين ومخدرى الأعصاب من الاوربيين ، عندما يتحدثهم انسان بشأن مقالة

(١) راجع الصفحة ٣٠٦ من هذا الجزء .

كهنه أو مصنف من بابها ، أن يكون جوابهم أبدأ بأن هذه هي آراء أفراد ، لا يؤبه لها ولا يلتفت إليها ، وليست الحكومات المستعمرة لتقيم لها وزناً ، وكلمات كلها من هذا النمط ، فليحذر الشرفيون وجميع المسلمين من قبول هذه الأقاويل ، والاسترسال الى هذه التموهيات ، لئلا يندبوا عاقبة سذاجتهم وحسن ظنهم . ان المبادئ والآراء التي في المقالة الآتية تعريتها ، وفي مئات بل في آلاف من أسئلتها الصادرة تباعاً في العالم الأوربي هي عقيدة حزب كبير جداً في أوروبا ، بل يمكننا أن نقول هي عقيدة السواد الأعظم من أهالي الممالك الاستعمارية ، لا يخرج عن هذه العقيدة سوى الأحزاب الاشتراكية ، والشيوعية ، وغلاة الراديكال ، ومن ند لعله من العليل من جمهور الأحزاب الأخرى المتوسطة والتميئة ومن يليها ، وذلك كعالم كبير طاهر الوجدان ، أو فيلسوف عامل واسع الفكر صادق الانسانية ، أو سياسي محنك راجح العقل يغلب ادراكه هواد ، ويعلم ما في هذه الأفكار من التهور وما يترتب عليها من الاخطار ، وما يكون لاجرائها بالفعل من سوء العاقبة . وما عدا من ذكرناهم ، فالعالم من القوم هو على هذه العقيدة فلا ينبغي أن نخادع أنفسنا ، وأن تتغابي عن الحقيقة لذة بالتغابي كمن يكتم مرضه ، فانه اذا كان قبيحاً بالمرء أن يغش غيره ، فأقبح منه أن يغش نفسه . فن الأمور التي لا يجوز أن تغش أنفسنا بها ، والذهاب الى كون هذه المبادئ الضارة بالشرق والعالم الاسلامي هي مبادئ الفئمة القليلة ، وأن تلك الحكومات غير ماشية بموجبها . والحقيقة أن ليس هناك الا الفرق بين عدو عاقل يمتعه عقله ، وتر بأبه رويته ، عن المجاهرة بمكنون فكره ، وافلاق خواطر الأمم المستضعفة بصراحة نيته ، وعدو متهور غلبت عليه حرارة صدره وشدة طمعه ، حتى باح بكل ما ينويه لتأييد عبودية تلك الأمم المقهورة ، لا سيما المسلمين ، الذين يرونهم أشد خطراً من الجميع بما ينفت القرآن في روعهم ، من روح العزة ونهوض الموت ابتغاء الحياة الكريمة . وهذا القسم الثاني هو نظير روجر لابون هذا الذي نأتيك بمقاله معرباً بالحرف قال :

— ١ —

لمحة على حالة الاسلام الحاضرة

« نجد الناس في فرنسا ينظرون بدون قلق ، الى القلاقل والى حركات العصيان

البادية في العالم الاسلامي . بل ربما ينظرون اليها مع شيء من الشك أو السخرية ببعض جيراننا ، الذين لا يوصفون بخلوص النية ، ولا بكرهون أن تشتد وتمتد عندهم هذه الحركات ، ويعتقدون أن مجرد التزلف الى الشعوب الاسلامية ، وادعاء المحافظة على حقوقهم ، هما مما يزحزح عنا نحن هذا الخطر الذي يتهدد غيرنا . ثم انهم لا يريدون أن يسمعوأ كلام المتشائمين ، الذين تهجس في صدورهم علاقات الاناضول مع التونسيين والجزائريين . والمراكشيين ، والدسائس الجارية على الحدود الشرقية من سلطنتنا الافريقية . بل يقابلون مخاوفهم هذه بتصرّحات الازراك ، الداعية الى الزكون والطمأنينة . ويعتمدون على الفشل الذي لقيه اعلان تركيا الجهاد في الحرب العامة بمعاونة المانية . ثم يسليهم الفرح ، الذي يبيده لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة ، وينخدعون بكل سهولة بظاهر الشرقي ، الذي من شأنه كتمان سريرته تحت ستار الادب الغض ، والكياسة الزائفة . وينسون أن الاسلام المبني على قاعدة الخضوع للقوة الغالبة ، تصلح له الصراحة وسياسة الخزم ، أكثر من سياسة التودد والمرامة عن حقوقه .

نعم ان السكون الذي نرى رواقه الآن ممتداً على ممالكنا الاسلامية ، قد يصبو الخطة المتبعة عندنا ، لانه على ضد ما هي الحالة في الريف الاسبانيولي ، وبرقة الايطالية ، ومصر الانكليزية . ولكن النار توشك أن تصل اليانا ان كنا لا نريد أن نلتفت جهة الشرق الذي منه انبعثت الحرب ، والذي حوادثه الحاضرة ليست الا مقدمات لما هو أعم وأظلم .

سنة ١٨٩٧ أثبت كويولاني وديونت Coppolani et Depont في كتابهما على الطرق الدينية الاسلامية ما كان من التأثير لا لتصار الترك في ناليا ، ففالا ان الامم الاسلامية كلها ماتت طربا لبشائر النصر الذي أحرزه أبناء ملتهم . ولكن هذا الغليان لم يكن يومئذ ذابال . لان اوربا كانت يومئذ قوية ثابتة متحدة ، وكان المارد الروسي ملقيا بكلسكه الثقيل على جميع العالم الشرق والاسلامي ، فلم يكن ليحجراً أحد من المسلمين على أقل حركة بالرغم من دسائس عبد الحميد ، ومن مظاهرات غليوم الثاني الولاية للاسلام في الارض المقدسة . أما الآن فقد تغير كل هذا ، فان أوربا قد ضعفت ، وجرأة المقلقين قد تضاعفت ، والحركة القومية تعمل عملها في الشعوب ، وموسكو بدلا من أن تكون هي ذات اليد الضاغطة على المسلمين اذا هي التي تعضد هذه الحركة وتظاهر أصحابها على التملص من اليد

ان الاهتمام الذي يراقب به العالم الاسلامي حركات الثائرين من مسلمي آسية ، لاجل التخلص من ريفه الغرب ، هو ارهاص لا يجوز الاستخفاف به . فان فوز شعب اسلامي على حكومة اوربية لا يخلو أبداً من رد فعل يمتد الى أقصى البلدان عن مرزح المعركة ، فلو رأيت جرائد الاستانة أيام انكسار الاسبانيول في الريف كيف كانت تهلل وتكبر ، وتشر في صفحاتها الاولى بشائر نصر المراكشيين المسلمين ، وخرائط ميادين الحرب ، لقضيت العجبت ، وانك لترى أقل اضطراب يقع في برقه أو تونس أو سورية أو الهند مبالغا فيه أشد المبالغة في الصحف التركية .

مع ذلك سياسة محاسنة الاسلام لا تزال ماشية ، على ما فيها من تضليل الافهام . ونبد النصائح المبنية على التجارب ، ولا يرح بعضهم معتقدين أن لا خطر من هذه السياسة ، وان كان ثمة من خطر فيكون على جيراننا فقط . ولقد اشتدت مجارى الحب والبغض بعد الحرب ، الى حد أن أصبح الانسان يرى الصواب في عدم اقتحام غمرتها ، وبدلا من أن يبين الخطأ الفظيع الذي دل عليه الاختبار الطويل ، تجده يجترئ بالتعديل الخفيف ، منتظراً أن تأتي الحوادث بما يبرّد حرارة تلك الاهواء .

واننا في هذه الدقائق التي يوشك أن يصل اليها أذاها ، نحس بتأثير برلين ، فهناك النادي الشرقي المؤسس سنة ١٩٢٠ ، تحت حاية مجلس برلين البلدى والجنرال لودندورف ، يصدر جريدة لواء الاسلام بالعربي والتركي والفارسي ، التي الغاية منها بث الدعوة ، وتفسير حوادث اوربا وآسية بالشكل المناسب . ويضاف الى هذه العوامل الناشئة عن حالة الحرب ، عوامل أخرى للبهيجان ، هي غير واردة توأ ، بل هي من فطرة الاسلام نفسه . فقد تكرر مراراً ان ديانة النبي تحتم على أتباعها الاستسلام للقوة ، وأنها تجعل القوة خاصة الهية تجب طاعتها ولو كان صاحبها كافراً ، فالقوة من الله ومن ذا الذي يقدر أن يناهض قوة الله .

وان هذا المشرب المخالف لدين الاوربيين ، الذين يندفعون بعامل العاطفة ، هو السبب الوحيد فيما تجده من انقياد أشد الأمم الاسلامية للفتح الاجنبي . واكثر ما يحدث من

الاغلاط في سياسة هذه الأمم ناشئ عن الجهل بهذه الحقيقة ،^(١) فالاسلام لا يخضع بفطرته الا لسلطة القاهرة . والسلطة والعلاء عنده توأمان . وعند ما كانت أوروبا متحدة وكان هناك ما يسمونه بالمجتمع الدولي ، كانت مكانة أوروبا فوق أن تنازع ، وكانت الشعوب الاسلامية واحداً بعد واحد تلقى السلاح ، ولم يكن ثمة منها الا بعض حركات عارضة ، ونورات منحصرة ، فكانت قوة التأثير ، من مهدي وزعيم لا تنبسط ولا على جميع القبائل المجاورة . ولما جاءت الحرب الكبرى ، كنت ترى بنجابي لاهور ، وهنود البنغال ، وكافنبور ، ومصري وادي النيل ، والاعراب ، والبرابر ، والمراكشيين ، والبامبارة^(٢) يتجدون تحت رايات دول الحلفاء ، وان مليوناً ونصف مليون مقاتل من المسلمين ، قاتلوا بمزيد السالة عساكر خليفة استانبول وقبصر برلين . وهذا النفوذ التركي الذي يعدونه الآن عنصراً ضرورياً للنظام والسكون في العالم الاسلامي ، لم نجد له أدنى دور يذكر في الحرب العامة ، ولا استجلب للألمان أدنى حليف من المسلمين ، ولا أحدث أدنى مشاققة للحلفاء . بل تبارى المشايخ في مراكش والمغرب ، على نشر الفتاوى المضادة لآبناء ملتهم من الأتراك . فلما أمضيت متاركة مودروس ، ووقف جيش الحلفاء الظافر عند الدانوب ، وجيش الانكليز عند القرات . كانت ديار آل عثمان تروح بالعساكر الاسلامية المقاتلة تحت ألوته الحلفاء ، وقتوى شيخ الاسلام ودعوة الجون ترك لم يسمعهما أحد . وكان الشرق كله يتوقع أحكام أوروبا التي أبطأ صدورها ، وكان موطناً نفسه على الطاعة ، لكن لم يطل الأمر حتى انصرفت الجيوش ، وظهر الضعف والتردد في عزائم الحلفاء . فعادت الحركة الى الشرق وعاشت آمال أهله ، وعرفت ذلك احدي جرائم انقرة بقولها : « ان أوروبا حل بها الوهن بسبب التنازع ، ويد الله أخذت على أيدي الصليبيين الغالبين ، بينما كانوا على وشك اغراق المؤمنين بسيلهم » فنشط الاسلام ، وزعت تركيا ومصر والعراق وأفغانستان والهند الى الثورة ، وعجل في ذلك التحالف مع البولشفيك ، وشعرت الدول الغربية على أثر الخسائر التي أولدها الحرب بخور القوى ، وبال حاجة الى مداخلتها التأثيرين في أمر الصلح ، وجنح الجميع الى الهوادة . فانكثرة مالت الى الرفق بافغانستان وفارس

(١) أي كون الاسلام عبداً للقوة

(٢) جبل من أوائل بلاد السودان يتزلون بين صحراء افريقية من الشمال وأعلى السبخال من الجنوب

والعراق . وفرنسا أبدت التساهل في كيبكيا . وإبالية سلكت مسلك التؤدة في طرابلس الغرب والبانبة . فكنت الأمور وهدأت الأحوال ، ولكن سقط جاه أوربا في نظر الاسلام وتشجع الثأرون . ورأيت هذه الثورات بأجمعها مطبوعة على غرار واحد ، فانه يوجد على رأسها دائماً بعض مفكرين ، ينحون بزعمهم المناحي الغربية ، آخذين ببعض معلومات قرأوها ، وأسأت هضمها عقولهم مع قلة الخبر وشدة الكبر ، ثم من تحتهم أمة جاهلة ليست على سوية واحدة ، ذات أخلاق حسنة ، لكنها لا تحسن شيئاً غير اظهار احتياجها الى النظام والسلام . على أن لها من يثير تأثر عصبيتها ، من المشايخ والمرابطين المستولين على العقول والافئدة .

وفي مصر ازداد عدد المعلمين من أطباء ومحامين ومهندسين وصحفيين ، ممن يريد تحرير بلاده ، وينتظر أن يحل محل الإنكليز الموظفين ، فتخرج بذلك مركز انكلترا . وما لا شك فيه ، أن مبادئ الوطنيين جديدة بالاحترام ، لكننا نراهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الاحتلال الانكليزي ونجدهم متمسكين بكلمات فارغة غير متوقفين عن انتقاد الأحوال الضرورية التي هي بنات التجربة ، ولا متجنبيين أخطار التعصب وعداوة الاجانب ، بل مجتهدين في تلقين مبادئهم هذه ذلك الفلاح الذي أرى يبيع قطنه ، ودائنين في انارته ، على ادارة ذاق بها طعم الراحة والسعادة .

هذا هو تاريخ الحركة المصرية ، وهذا ما يمكن أن يكون غداً سير حركة الاستقلال في بلدان نهمنا أكثر من مصر . فإن المسئلة الوطنية القومية قد بدأت تنمو وتقوى عند جميع شعوب الشرق ، لا سيما العرب . ومن العيب أن نتجاهل ذلك ، ونحن الآن بعد مضي مائة سنة على فتحنا افريقية ، أخذنا ندرك الخطأ الذي ركبناه ، في طريقة ضمنت لنا الفتح الحربي والفوز السياسي ، لكنها أهملت الفتح المعنوي الذي كنا نراه من القسم المستحيل . ومن اهمال هذا الفتح المعنوي ، تأتى المتاعب كما اشتد الهيجان في العالم الاسلامي . ففي الجزائر بالرغم من الصداقة والأمانة اللتين أظهرهما الجيش الوطني أثناء الحرب كانت نتيجة انتخابات ١٩١٩ مما يوجب قلق الفسکر فان السماتة ألف وطني ، الذين آتيناهم حق الانتخاب بموجب أمر ٤ شباط ، رشحوا بأجمعهم كل من عرف ببغض فرنسا ، وكان

من جماعة الأمير خالد (١) وكذلك الشبان ، الذين حصلوا العلم في مدارسنا وتلقوا تربية أوربية ، كانوا أشد الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين . فاما العامة ، فهي باقية بعيدة عنا جداً من الجهة المعنوية ، ومنذ خفق العلم الفرنسي فوق مرسى الجزائر ، تكوّن بين هذه الأمة وثام لم تعرفه من قبل .

لقد عظمت الأغلاط التي ارتكبتها ولاية الأمور الذين تساموا مقاليد الجزائر ، بالغائم العمل بعادات البربر وعرفهم القديم ، وحلهم طراً على شريعة القرآن . ومن المسموع ، أنه كان في ذلك الوقت ٨٠٠ ألف بربري غير مسلمين ولا مستعربين . فالولاة من الفرنسيين مراعاة للشرط الذي وقع عند تسليم الجزائر ، من عدم مس الشعائر الاسلامية ، تجنبوا الى حد المبالغة ، الاخلال بكل ما يخالف هذا الشرط ، وظنوا أنه صار من واجباتهم حل البربر على أحكام مخالفة لعاداتهم وعرفهم . وبدلاً من أن يجعلوا هذه العادات القديمة الباقية للبربر من عهد الرومان قوانين مرعية نافذة ، عدلوا بهم عنها الى أحكام الشرع التي بأيدي القضاة والمرابطين ، وهكذا أوجدوا وحدة دينية قومية ، عجز فاتحو شمالي افريقية (٢) منذ ١٢ قرناً عن إيجادها . ولقد دخلت الاهواء والعواطف في هذه المسئلة ، فلم يبدأ احتكاكنا بالاسلام ، حتى جعل الاسلام يستفيد من أصحاب العقول الشاذة عندنا ، ومن دعاة البع والأمور الغريبة ، الذين أخذ بعقولهم ما في حياة اتباع محمد من الكرامة والرصانة ، وما في الصلاة فوق رلام الرمل ، من السذاجة المقرونة بزعمهم بالوفار والهيبة . وكانوا يستحلون تلك الحركات البسيطة الجلييلة ، التي تزيدها جلالاً وجلالاً في نظرهم ، هيئة برانس المسلمين أثناء صلاتهم . نعم اشتغل هؤلاء المفتونون بحب العرب بالأمور الصورية عن الأمور المعنوية ، وتناسوا حالة العربي النفسية ، وما عنده من الكراهة لكل مخلوق غير مسلم ، وما هناك من عقيدة القضاء والقدر التي هي عقيدة الجود ، والتي لا تتزج مع الاحتياجات العصرية .

ان هؤلاء المفتونين بالاسلام ، الذين يعرون بأقطاره سراعاً ، يذكرون دين الرسول

(١) ابن الأمير الهاشمي ابن الامير عبد القادر

(٢) الفاتحون المسلمون

عزيرد الاطراء^(١) وسنة ١٨٣٨ نهت جريدة « الدبا » عن نصير المسلمين بحجة أن ذلك يفقدهم صبغتهم المحلية ، وأن ذلك مخالف للصلحة . وفي أيامنا هذه كاتب شهر^(٢) يلوم على نصير البنات المسلحات في سان لويس (في السنيغال) ، بحجة أن الزاهبات يفبرن لمن ملايسهن الوطنية التي هي أليق بهن . فأحكام كهذه مستعجلة ، لا تزال تقوى عاطفة الميل عند الأمة الفرنسية الى المسلمين ، الذين منهم عدد عظيم في تبعية فرنسا ، وتحول دون رؤية عيوب الدين الاسلامي ، المستورة بظواهره الشرعية ، فلفظة اسلام ومغرب وحجاز وما أشبه ذلك ، كادت تكون ألقاظاً صوفية تأخذ بلب بعض الناس .

على أننا لا نكون هيجنا على الاسلام ، ولا تعرضنا لهذه الشعوب الاسلامية في عنائدها المحترمة اذا كنا ننبه الناس الى أخطار ديانة ، من جهة برنامجها الحرب المقدسة ، وعبادة غير المسلم ، والتوحيد بين الشرع الديني والقانون المدني ، مما يجعل الامتزاج صعبا . وناهيك أن الشرع الاسلامي يمنع الزواج بين المستعمرين الأوربيين والنساء المسلمات ، قد وقف سداً دون كل اختلاط بين الفريقين ، مع أن الجنس اللاتيني هو غير الجنس الانكوصا كسوي ، فان الجنس الصاكسوي حينما حل بأمريكا وزيلانده الجديدة واسترالياه لاشي العنصر الأصلي هناك ، أما اللاتيني فهو يهوى الامتزاج مع العناصر التي يجدها أمامه ، فجيوش تراجانوس اللاتيني امتزجت بأقوام الدانوب وتكونت منها أهالي رومانيا الحاضرة ، وأما بربر شمال افريقية الذين هم ذوو قرين مع اللاتين ، فلم يكن بينهم وبين هؤلاء امتزاج أصلا ، بل تجد الفروق تنسع يوماً فيوماً بين الفريقين . كذلك ترى التقدم بطيئاً جداً ، في الأمم الاسلامية التي في شرقي أوربا وآسية ، لأن فقد حرية البحث يقضى على روح الانتقاد ، ويعزز عقيدة الاستسلام والرضى بأى شيء كان . لانكون أهنا الدين الاسلامي اذا بينا حالة التأخر التي عليها الأمم التي دانت به ، لاسيما اذا تركت وشأنها . فان الاسلام يعارض التقدم العصري بحواجز قوانينه المدنية والدينية ، وحصون شرائعه الاجتماعية ، وما هناك من الأوامر والنواهي . فلو كان بربر افريقية يتبعون غير

(١) وذكر الكاتب هنا اسم رجل من هذا الفرانسه دوكلستري De Casteries له مؤلف

في الاسلام

(٢) ذكر اسمه وهو المسيو آدم P. Adam ؛ في كتاب اسمه ترطاجنة Cartage

دين الاسلام لكان مركزنا هناك أقوى مما هو اليوم ، واذا قررنا هذه الحقيقة فلا يكون مرادنا منها الاقتداء برومة في حملها الأمم المغلوبة على قبول ديانة الفاتحين .

ان تلك الآراء الفاسدة المتعلقة بالاسلام ، هي عبارة عن استنتاجات غير صحيحة ، من مقدمات واهية صارت عند البعض حقائق كلية . ومن جملة هذه النتائج الباطلة ، كون المسلم لا يصبأ عن دينه . فهذه الفكرة مع خشية دوران التعصب مما هو وهم بحث ، حل رجال الحكومة الفرنسية في الجزائر منذ بداية فتح فرنسا لهذا القطر ، على معارضة مساعي جمعيات التبشير الفرنسية ، الرامية الى تنصير المسلمين . حتى انهم كانوا يجعلون حراساً على أبواب الكنائس لمنع المسلمين من غشيانها . وكان قسيس عربي من سورية دخل الجزائر وصار له نفاذ عظيم بين أبناء جلده (١) فطرده السلطة الفرنسية من هناك . وبالجملة فقد جعلوا الأهالي على الخضوع لأحكام القضاة القرآنية ، وتوقف بذلك سير حركة التنصير ، التي كانت قد بدأت بين البربر غير المتدينين . ثم لقيت مجاهد الراعي جلابرت (Le Pasteur Galabert) في مدينتي القصور وبجاية ، ومساعي الكردينال لافيغري في افرقية لأجل التقريب بين الوطنيين والأمة الفاتحة حذراً شديداً وأصبحت تلك المشروعات على شفا السقوط ، ولم يفهم بعضهم فوائد ولاغاياتها الانسانية ، بل كانوا من شدة خوفهم أن تكون حركة دينية ، يضعون العرافيل في وجه هؤلاء المبشرين ويطعنون في المنتصرين ، ويصمونهم بجميع عيوب قومهم ، مضافة اليها عيوب الأئمة التي دخلوا في دينها فرغموا أن الرجال من المنتصرين هم من طبقة السكبرين المدمنين ، وأن النساء المنتصرات هن من الغانيات المشهكات ، وغاب عنهم ان الهيئة الاجتماعية الاسلامية مع ما هي عليه من شدة الفسرة ، فيها عيوبها ، وأن عيوب المنتصرين ، كان تحفّ جداً لوكثر سوادهم و صاروا جاعات . بعد أن مضى قرن على فتح فرنسا للجزائر ، تضاعف عدد الوطنيين فيها واضمحلت العداوة التي كانت بين العرب والبربر . وترانا لانقرر أن نعتمد على أقلية غير مساندة كما يعتمد الانكليز على القبط بمصر . ولهذا مثيل في مستعمرات هولانده ، التي صار فيها مركز هذه الدولة حرجاً ، فقد كان مسلمو الجاوى وبورنيو وسومطره لأول فتح هولانده تلك الجزائر ، خسة ملايين ، فصاروا اليوم ٣٠ مليوناً ، ولم يكن للاسلام ثمة باء ذى بدء الا

تبع قليل ، فصار الاسلام في هذا الزمان سيد تلك البلاد . وتجد المسلمين هناك تحت ادارة فئة قليلة مستنيرة من ذوى الاطماع ، متحفزين لرفس وصاية هولانده الأبوية . فأما أرخبيل الفيليين الذى أهله تنصروا لعهد الاسبانيول ، فان مطالبهم الاستقلالية باديه بشكل معقول بخلاف بلاد الاسلام التى تلاقى حركة الرقى فيها ، روح الفوضى والاختلاط التى هى من خاصيات الجماعات الاسلامية اذا تركت وشأنها . ان شبان الاسلام فى آسية الغربية ، يريدون أن يشبهوا قابليتهم للترقى بقابلية اليابان ، ويدعون أنهم يقدرون على ماقدر عليه اليابان فى الأمور الاجتماعية والاقتصادية ، وينسون أن اليابان لم تكن لترقى بهذا الرقى العجيب لو بقيت مقيدة بأنقال العقائد القدريه ، ويفعلون عن أن التجدد السياسى لابد أن يسبقه التجدد الاجتماعى .

ماعداء مدة قصيرة للأمويين فى اسبانية وللعباسيين فى بغداد ، لم يوفق الاسلام فى وقت من الأوقات الى تأسيس مدينة خاصة به ، بل جميع أجيال أمة محمد لم تلاحق مجهودا يأذن لها بتوليد عقول كبيرة . بل ان الخصائص التى اشتهرت بها هى خصائص التدمير ، سواء للمدن التى وجدتها أمامها ، أو التى حصلت فى داخلها . ومادام السيف فى يد الاسلام كان الاسلام قادراً أن يجرى أحكامه ، فلما قضت الأيام بأن تصحب قوة السيف قوة أخرى هى قوة العلم ، سقط الاسلام . واليوم لأجل أن يزحزح نير الغرب عن عنقه ، نراه يدرك قيمة العلم ويقدر قدر الثقافة الأوربية ، ولكن أكثر مايريد أن يأخذ من أوربا هو صنعة السلاح . ثم ادعتم أن صناعة الأدوات الحربية لاتكفى ، عاد يطلب الاسلحة المعنوية فصارت المطبوعات للسلم سيقاً ذا طبع آخر يسته فوق رؤوس غير المؤمنين . وتجد الجرائد الاسلامية تتكاثر بمصر ، وتركيا ، والهند ، والجاوى ، والمستعمرات الانكليزية والفرنسوية وكذلك جرائد أخرى تصدر فى الولايات المتحدة ، والبرازيل ، والارجنتين ، عربية سورية وأرناؤوطية . وفى برلين يظهر لواء الاسلام ، وفى باريز ولندن ورومة تصدر جرائد اسلامية جديدة أيضاً ، تبحث فى الشؤون الاسلامية . ومنارع هذه الصحف تختلف باختلاف المراكز التى تصدر فيها ، جرائد الشرق وجرائد أميركا وبرلين تمتاز بشدة اللهجة وفرط العداء ، وأما جرائد العواصم الأخرى فمزيتها ، لطف اللهجة وبراعة الطلب والكلام المعقول ، ولكن الهدف واحد ولو تنوعت الأساليب ، وهذا الهدف هو تقوية روح

التكافل بين الأمم الاسلامية ، ونشر الاسلام وتحرير أبنائه وزرع بذور التفاهق بين الدول الغربية لأجل تبشير فوز المشرق .»

— ٢ —

الاسلام الأسود

قال بينغر Binger : ان درجة حرارة المسلم الأسود هي على قدر ظاهر لونه ، فالعصبية الدينية العميقة التي تجدها عند المغاربة والأقوام السامية الأصل ، الساكنة في جهات نهر النيجر وبحيرة تشاد ، لا تجدها عند المسلمين من أبناء اللون الأسود ، مثل البامبارة Bambara والسيره Serès والبورو Boros ، الذين عندهم ناهل عجب في ممارسة شعائر دينهم . وماعدا حركات محدودة من آثار دعوة المرابطين ، ومن اجتهادات الحاج عمر واحد وبين السنغاليين والفولبي Fulbés ، والسونينكة Soninké ، الذين فيهم شيء من الدم البربري ، لم تصادف في افريقية السوداء حرباً دينية ، ولا مقاومة أصلها عقيدة القضاء والقدر .

وان عقيدة السنة والجماعة في افريقية الغربية ، مختلطة عند الأهالي مع عاداتهم القديمة ، ومع الأوضاع الفتيشية كالاطلام والرقى . وقد أورد بينغر مثلاً على ضعف حرارة المسلم الأسود قضية ساموري ، الذي بالرغم من كونه مسلماً دينياً ، أكل بدون نحر من لحم ثور ذبحه العسكر السنغالي ، على شكل يخالف الأوامر القرآنية ، فمثل هذه المخالفة تعد انماً كبيراً عند مسلمي الشمال . ثم ذكر بينغر مثلاً آخر وهو أنه كان أسود مسيحي يظهر الاسلام أحياناً ليستفيد من الرخص المعطاة للمسلمين في عيد المولد النبوي أو العيد الكبير .

فهذا الفتور في تمسك الزنجي بديانته يتمسك بها بأقصى الشدة ، الساميون والتورانيون ، يعنده بعضهم دايلاً على انحطاط عقل الزنجي وفقد قوة التمييز عنده ، والصحيح هو غير ذلك . بل الزنجي رجل حلیم ، واسع المشرب ، سهل القيادة ، قريب المأخذ ، مع حسن صادق ومنزوع عملي ، وميل إلى الخير يجدر بإبناء ملته من البيض والصفير أن يقتدوا فيه به . وهو يمتاز بعدم الشدد في إقامة شعائر دينه ، وبالتساهل مع أبناء الأديان

الأخرى . وفطرته السليمة تمنعه أن ينظر الى الأبيض نظره الى رجل ذاهب الى النار ، بل هو يرى الأوربي من الرقي والتفوق ، بحيث لا يصدق أبداً ان مثل هذا الأبيض يمكنه أن يخطئ^٤ . ولاشك في انه بحسب ميله للانقياد والانطباع لو صار به قليل عناء ، لكان يتقبل دين سيده الأبيض ، الفاتح لبلاده ، بشرط أن هذا الفاتح يدعو له لذلك (!) وان كنت تراه يدين بالاسلام فهذا لظنه أنه ينال بذلك رفعة ، مع أنه أولى به أن يتنصر اذ الأوربي عنده أعلى من المسلم ، ومهما كان يرى من عزة المسلم ، فهو يعلم أنها ليست شيئاً بالقياس الى عزة أوربا .

وعليه فينبغي أن نعلم أن اسلام السودان هو سطحى قائم بصور ظاهرة فقط ، ولأجل تعليل هذه القضية التي لا توجد الأثمة ، زعموا وجود علل أخرى غير ذهنية الزنجي نفسه ، فذكروا تأثير الاقليم والعادات والبيئات ، وقالوا ان البلاد الشمالية من الكرة هي غير مساعدة على انتشار الاسلام ، لأن طول النهار المفرط وقصر النهار المفرط يحددان اختلاطاً عظيماً بعلم الميقات القرآني ، فصلاة الظهر وصلاة العصر تختاطان مع صلاة المغرب وصلاة العشاء هناك ، فيتطرق الشك الى قاب المؤمن . ففي أواسط افريقية الحالة أيضاً هي مشابهة لتلك الحالة ، فالأنهار والشجر الكبير التي يعد بها القرآن المؤمنين ، هي في هذه الأصقاع من الكثرة بحيث يصبح هذا الثواب لقيمة له . فالاسلام لأجل نجاح دعوته محتاج الى صحارى واسعة تتجلى بها عظمة الله تعالى كصحارى آسية الوسطى ، أما في خط الاستواء فالاسلام مركزه فلق ، لأنه ينحصر ثمة في الآفاق الضيقة بين الغابات الملتفة ، حيث يصعب على المؤمنين معرفة القبلة ، فيعدلون عن شعائر الدين . على أنه مهما فرضنا كون شعائر الاسلام سليمة في الظاهر نساءل ، هل يوجد لنا مصلحة في تمكينه يمتد وينتشر بين هذه الأقوام ، لا بل في أن نعرف به ديناً رسمياً لمن دان به منهم . سيحصل لعمري في غربي افريقية ماقد حصل في الجزائر ، ويمتد الاسلام وينتشر بسبينا (!) وتحت حماية أسلحتنا عند أقوام أشداء لم يزالوا منذ فرون يرفضون الاسلام ، الذي يأتيهم به تجار الرقيق من العرب ويحبطون فتوحاتهم الدينية والعسكرية . ونحن كلما أوغلنا في تلك الديار ازداد الاسلام بسطة . وقد أرادوا تأويل ذلك بأسباب عديدة منها ، كون العربية لسان الرسول القرشي هي لسان التجار الجاهليين بتلك الأقطار ، ومنها أن مبادئ الاسلام تطابق عقيدة

الاستسلام للقدر التي عليها الزنجي ، ومنها أن هذا يميل الى بساطة الاعتقاد وتجذبه سداجة الشعائر ، وقالوا ان ممارسة هذه الشعائر ، سهلة طبيعية ، ثم هناك لذات النعيم التي يحجبها هؤلاء الهمج عامل آخر ، ومعلوم انه لأجل أن يكتب المرء مع السعداء يكفيه لفظ كلمة لاله الا الله ، فانه بها يصير مسلماً بدون أن يشعر . وعززوا هذه الأقوال بأن عقائد الأوربيين تنافي البساطة ، وان شعائرها صعبة ، وان آدابهم كثيرة التجريد ، وفيها تحريج كثير على المذات الحسية ومنع لتعدد الأزواج ، وبالجملة فقالوا ان الاسلام وجد ديناً موافقاً للزنجي كما وجد موافقاً للعربي ، ومن العبث الاجتهاد في وضع دين آخر محله في تلك الأصمغ . فهذه الظنون التي صارت قضايا مسلمة لم توضع موضع الحك والنقد ، ولو محصت لثبت أن ليس بصحيح كون الاسلام هو العقيدة التي تلائم الأسود الخالص أكثر من سواها ، فان أقلية مهمة من السيفاليين قد أمكن نصيرها . وبلاد الأوغانده صار أهلها كلهم نصارى . أما كون العرب والبربر يأبون كل دين غير الاسلام ، فلنا من القبط والحبشة مثال كاف لاثبات كون الاسلام ليس ذا تأثير عليهم الى ذلك الحد .

فثلاثة أرباع الحبشة وهم جنس أمهاره Amharas ومعهم أقلية بربرية وزنوج ، لبثوا متمسكين بالنصرانية بالرغم من تلاطم أمواج الاسلام في جوانبهم . وأحسن من ذلك أن بلاداً بأسرها مثل هرر كانت أسلمت بعد ثورة الدراويش ، فعادت الى النصرانية بعد ظفر النجاشي منليك بالأمير عبدالله سنة ١٨٨٤ . ولقد بقيت الديانة المسيحية والقومية الحبشية متحدتين كما هو الشأن في الشرق ، بأن الديانة والقومية تسيران معاً ، وحفظنا استقلالهما أكثر من الف سنة . وبيننا قبائل بربرنا في الجزائر وأمم البويل Peuls والقولبي Fulbés ، الذين هم من جنس بربر الحبشة مشتتون هباء منشورا بسبب عقيدتهم الدينية ، الداعية الى الكسل والتحول ، رأيت الحبشة بأمانتها لدينها ، واقفة في وجه الفتح العربي . وتمكنت المسيحية ان تعيش في وسط هذه الأمم الزنجية والبربرية ، وان كانت شعائرها هناك لاتزال معقدة ، لأنها ممتزجة بعقائد يهودية ، وعادات يزنطية ، فالأكبروس (طبقة القسيسين) له في الحبشة نظام صارم ، وهو تابع للكنيسة الأرثوذكسية في الزواج ، وعزوبة الكهنة ، ويخرج القسيس في المراسم الدينية بالأثواب المزركشة بالقصب بين قرع الطبول ونقر الدفوف . فالحبشية بهذه العادات هو بعيد اذاً عن سهولة الشعائر الاسلامية

وهو يصوم صوم المسامين الشاق ، و اذا بلغ الكبر يترهب في دير . فمن هنا يظهر بطلان قول البعض « ان النصرانية شديدة التعقيد ، شاقة التكليف ، كثيرة المعاني المجردة بالنسبة الى مدارك الزنجي الساذج ، فهي تخالف ظروف حياته وتبطل نظام اجتماعه ، ولذلك فالأسود المنصر هو أسود مقلوع من أصله ، حال كون الأسود المسلم هو مسهما بطبعه . »

فانت ترى أن النصرانية قد رسخت عند الامهارة ، الذين هم من قبيل السنيغاليين والبربر والبوليل بدون أن يكونوا مقلوعين من أصلهم ، وتجدها تنمو هناك كما ينمو الاسلام ، وعقيدة أو توخيوس^(١) تتلوى هناك ، مع الزمان والمكان كالاسلام الذي يناسب الامم الفطرية مثل الأمم السوداء : و اذا كان عمل المبشرين شاقا في البلاد السودانية والاسلامية ، فانما هو لكونهم يريدون وضع عقيدة امم راقية جدا محل عقائد أقوام هم في أدنى الدرجات (تأمل) ، أما النصرانية ، كما كانت في القرون الأولى ونصرانية الحبشة الحاضرة ، فشرها يمكن بسهولة نشر الاسلام ، الذي كان نجاحه بسبب المستوى العقلي الذي عند ناسريه ، لا لسبب معالي عقائدهم (تأمل أيضا) .

لا شك ان الزنجي عندما يدين بالاسلام يتقدم تقدماً محسوساً ، فبعض أرباب الخيالات الذين لا يحبون أن يروا الا المحاسن ، يجحدون في الاسلام الامتناع عن المكرات ، وتهذيب الاخلاق ، وترقية سوي الحياة ، واعلاء حال المرأة في الاجتماع ، فيشربون بالسي في نشر الاسلام بين أمم الفتيش في مناطق خط الاستواء ، وكأن من طبيعة هذا العصر ، ان الناس يقدرون قدر المذهب بنسبة درجة نجاحه بدون تأمل فيما يجري اليه من العواقب ، فحمل الزنجي على الاسلام هو من باب الرفع الى أسفل ، وهو من قبيل المداواة بالطلاسم والرق ، مما هو وخيم العقاب (تأمل) . ان اساس الدين الذي يدين به المسلم وتصطبغ به نفسه مهما كان حليما ، والذي لا يعرفه الا ذوو الخلطة والخبرة الطويلة ، ان هو الا عامل ثورات مستقبلية ، من مصلحتنا ان لانتركها تفعل مفعولها . حتى ان هؤلاء اللهوسين بالاسلام أنفسهم ، يقفون حيارى احيانا عند ما يرون من الجماعات الاسلامية ، تلك المطامح التي لا تقف عند

(١) عاش في القرن الخامس للمسيح وكان يقول ان ليس في المسيح سوى طبيعة الهية ، خلافاً لقول نسطور ، الذي كان يقول أن ليس فيه الا طبيعة بشرية وكما حرمت الجماع قول نسطور ، حرم الجميع الخلقيدوني قول اوتوخوس وقرر الطبيعيين ، ولكن القبط والحبشة تابعون لمذهب

حد ، وهاتيك الاحقاد المتأصلة في نفوسهم .

أما البعض الآخر فقد هالهم هذا النزوع الاسلامي الى الثورة ، فاتفقوا طريقنا في بناء المدارس والمؤسسات الاسلامية والترغيب في لغة القرآن ، وأوضحوا عظيم الخطر الناشئ من تضامن الشعوب الاسلامية ، ودهشوا من قضية ارسال معلمين جزائريين لتعليم العقائد الدينية في جنة وتمبكتو^(١) وهؤلاء النفر يقولون انه لا يكون من باب مس كرامة الاسلام ، ولا من السعي في نقض مبانيه ، ولا من حجز الحرية الدينية اذا اتخذنا التحولات اللازمة بازاء أخطار الحالة الحاضرة ، لا سيما ان هذه المسامحات التي لا يجبرنا عليها أحد لا نقر بنا زلقي الى الأمم الاسلامية ، وانه ليس للحكومة أن تدخل في حياة رعاياها الخاصة ، بل عليها أن تأخذ حنرها من ديانتها ، هي فيما عدا بعض مبادئ نادرة فيها شيء من السباحة ، يمكنك أن تختصرها بهذه الجملة « قاتلوا الكفار واستعبدهم واطرحوهم في الارض »^(٢)

فبين آراء المقاومين المتشددين وآراء التهوسيين الميالين الى الاسلام ، يوجد مكان لعمل معتدل حازم ، وهو انه لا ينبغي أن يسار على سياسة اسلامية واحدة ، بل على سياسة متعلقة بالظروف وبالبلدان وبدرجة حرارة الاهلين ، فيمكن تنكب طريق قهر الاسلام بدون السعي في تأييده . واذا أيدنا في مستعمراتنا سلطة ادارتنا الملكية ، وجعلناها فوق الشريعة الاسلامية ، كان ذلك خطوة أولى في منع انتشار الاسلام بين الاقوام ، التي لم ترسخ قدمه بينهم . ولكن مادام القاضي الاوربي يرسل القضايا المعضلة ، التي يعجز عن حلها الى القاضي المسلم ، وفي المسائل التي يتناكر فيها الخصمان ولا يمكن معرفة الصحيح بينهما ، يحيل القضية على اليمين كما في القرآن ، وهي طريقة بسيطة تكفي أولئك القضاة مؤونة التدقيق لتهيئة الحكم ، فنكون قد جعلنا للقضاء الشرعي نفوذاً ليس من الحكمة في شيء ولا سيما في هذا الوقت . كذلك تتحتم المراقبة الخفية للشايخ والمرابطين ، الذين بين الزوج المستعدين لقبول الدعوة الى الثورة ، فانه كما قال سنة ١٩٠٥ الحاكم العام بونتي Ponty :

(١) تمبكتو في أول السودان الغربي مشهورة ، اما جنة فهي مدينة بالسودان على مسافة ٣٠٠ كيلومتر الى الجنوب الغربي من تمبكتو ، وعلى ١٦٠ كيلو متراً الى الشمال الشرق من سينو وسبكورو ، وأول أوربي دخل جنة هو رجل فرنساوي اسمه رينيه كاليه سنة ١٨٢٨
(٢) أين وجد هذا ؟

زيارات الغرباء القادمين من المشرق بحجة الصدقات مضرة ، اذ هؤلاء يجوبون بلاد
السنغال واليوبل والسونينكة ، دعاة كثيراً أو قليلا الى الجامعة الاسلامية ، ويدعون
انهم شرفاء ، ويلبسون عمامة خضراء ، وكلما حدث هيجان اسلامي كانوا هم المشحذين لقراره ،
والمنديعين للاراجيف . ولا ننس حج مكة فانه في الآونة الحاضرة ، يؤثر تأثيراً مضرراً بنا
بين رعايانا المسلمين ، ومع هذا ، فالبعض غافلون عن منع حج رعايانا الى مكة وعمما يحدثه
هذا السفر من أسباب تشويش اذهانهم ، لما يستمعون فيه من الأخبار الملفقة عن وقائع
البلاد الاسلامية ، ففي آبوا الى ديارهم عادوا أقل ميلا لنا . فان الحاج يسمع في الحجاز
أبناء عن جميع العالم لم تطع في صحيفة والاوربي مصور فيها بشكل ظالم غاصب (استغفر
الله ...) لا تحصى سياسته والمسلم مصور بشكل غالب ظافر لا بد أن يأخذ بشاره . كما ان
الطوائف التي أحرزها بعض الشرقيين تروى هناك بالمباقة والغلو ، ويتفائلون فيها بعودة
الايام ، التي كان فيها العلم الاخضر منصوراً خفقا فوق رؤوس الامم ، المغلوبة . وهناك
المشعوذون المترنمون بنصرات الغازي (أي مصطفي كمال) واهلاكة الكفار كما أهلك
المسلمون قريناً يوم بدر . وكل هذه الوقائع تبرز فيها قوتها الخيالية الشرقية بشكل رائع
رائع ، فيذهب الحاج من مستعمراتنا أمينا لنا ويعود غير ما ذهب ، بل يتبدل نفسه ،
ويصير مبتهجا بنصرة أبناء ملته ، وتقوى فيه روح التضامن الاسلامي ، فيفرح بفوز
أتباع محمد ، ويتمنى لهم الظفر النهائي . وبعد ايايه الى وطنه يستحيل أن لا يلقى الى بعض
أهل بلده ولو نجما ما سمعه في مكة ، وحيث يكون نال لقب حاج فلا بد له من الاجتهاد في
اثبات أهليته لهذا اللقب ، هذ عدا ما يحمله معه من القصائد والجرائد والحجاسيات التي
يوزعها على أبناء وطنه ، وان كان ممن يعرف الكتابة راسل من تعرف بهم من الحجاج
مكرراً لهم آيات الكتاب المقدس حول الحجر الاسود .

وينضم الى هذه التأثيرات السيئة نفوذ الطرق الصوفية فان دورها مهم . وربما كان لها
القول الفصل فيما لو هبت العاصفة المثيثة دائماً للهبوب في جو الاسلام . فان أتباع عبد القادر
الجيلاني ولى بغداد مالثون افريقيتنا ، وهم هؤلاء التيجانية ، الذين كانت لهم اليد الطولى
في ثورة السنيقيامبيا عندما قام بها الحاج عمر . ولهم زوايا في باماكو ، وبافولاب ،
وسينغو ، وجنة ، وتمبكتو ، ولهم وسيلة مع السنوسي في طرابلس ، فكل هؤلاء المتحمسين

دعاة ثورة وعداوة للاور بين . لا ينكر أن بعض الطرق قد أفادتنا في الجزائر ومراكش وغربي افريقية ، وكان نفوذ رجالها السامي موافقاً لنا ، وهؤلاء مثل الشيخ سيديا ، والشيخ سعدبو ، والمختار الكنتي ، الذين هم في موريتانيا (غربي مراكش) وبلاد النيجر . فقد كانوا معنا في فتح تلك البلاد ، ولكن مساعداتهم هذه هي نوع من الأعمال التجارية ، التي يريد أصحابها دائماً بقاء التوازن لأجل استمرار قائده . وأما الخطر الأعظم ، فهو خطر الطرق الاسلامية التي مراكزها الأصلية في غير مستعمراتنا ، كبلاد العرب والعراق وطرابلس لأنها خارجة من يد نفوذنا .

هذه على وجه الاجمال العوامل المضرة التي سلطنتنا الافريقية معرضة لها . ولاتقاء ضررها وصف الناس أدوية كثيرة ، منها علاج جمع كل الآراء وهو نشر اللغة الفرنسية ، فهو أمر ضروري وهو رأي لوشانليه Le Chatelier الذي يقول : « يوم لا يبقى اللسان العربي هو لغة التجارة في افريقية ، لا يبقى خطر من جهة الاسلام لأن مدارسه نصير فقرة » . وهذا هو رأي بول برت Paul Bert الفسيولوجي المعروف القائل : « حل المسألة العربية هو في الكتاب ، وآتمنى أن أرى في كل قرية مغربية معلماً عربياً ومعاناً فرنسياً » وهو أيضاً رأي الرحالة قاتل أمور افريقية علماً بينغر . وهو كذلك مشرب الكرديال لافيغري مؤسس جمعيات التبشير الذي قال : « لا حاجة بنا الى الدعوة لنفس الدين ، بل الحاجة هي الى التعليم والتبريض »

وإذا نظرنا الى درجة انتشار لغتنا في الشرق بين أولئك الأقوام والأمم المختلفة ، نأسف كيف لم نقدر أن ننشرها في مستعمراتنا كما هي منتشرة في الشرق ، وأغرب منه أنه لو كان علما انتشر في مستعمراتنا بالسهولة التي انتشر بها في السلطنة العثمانية ، لربما كان أناس يحتاجون على ذلك قائلين ، يجب على حكومتنا أن تبقى متحايدة . مع أنهم يرون أن البعثات الفرنسية في البلاد الاسلامية ، التي كالأناضول وكردستان والعراق وفلسطين قد نجحت نجاحاً تاماً بدون إراث أقل قلق في سلطنة آل عثمان الكريمة ، الرجحة الصدر ، وقد حصرت همها في تعليم لغتنا للروم والأرمن والكرج واليهود والمسلمين والكانوليك ، وجميع هذه الأجناس التي جمعتها في عالم ثقافتنا . ولم يثر ذلك في البلاد التركية ، ولا العربية ولا الفارسية شيئاً من العصبية التي خيف من آثارها في الجزائر . ثم هذه مصر التي هي

تحت الحكم البريطاني ، تعرف لغتنا كما تعرف لغتها العربية . أما الجزائر فأنها تجهل لغتنا تقريباً . ليس مقصدنا بهذا أن نوجد في مستعمراتنا نخبة علماء ومفكرين ، اذ يجوز أن يفتخ فيها أدباء راسخون ، وأرباب عقول سامية ، لكن يخشى أن يظهر من هم متعلمون نصف تعلم تكون لهم مطامع وماآرب (تأمل) إنما المقصد هو وضع لغتنا التي هي عامل مدينتنا موضع لغة أخرى ، (أي العربية) هي قاعدة ثقافة أخرى وفكرة أخرى ، ان فرض معرفة العربي على عمالنا في المستعمرات هو حسن ، لكن اغناءهم عن العربي نضعيم اللغة الفرنسية كما في الشرق هو أحسن .

— ٣ —

الاسلام عند السيفاليين

تجد السيفالي في بيته كما هو في نابوره ، مرن الأفكار بعيداً عن الدين المشهود عند الجزائري والمراكشي ، اعتقاده بالخرافات أكثر من اعتقاده بالدين ، مهتم الامأندر بأمور معيشته أكثر من اهتمامه بالمذهب الديني . وترى أنه في جميع مواطن الحرب لم تفلح لدى السيفاليين دعوة الجامعة الاسلامية ، وقد احتك هؤلاء بالاسلام في البلاد العربية (١) ولم يحدث بذلك عندهم أقل انحراف ، بل بقى السيفالي بسيطاً ، طيب السريرة أميناً لرؤسائه ، ولم تؤثر فيه تحركات شيوخ الدين ، الذين طالما أثروا بعساكر الهند الانكليزية وفر هؤلاء على أترها ، فالسيفاليون لم يفر منهم ولا واحد الى العدو ، لا في سورية ، ولا في كيليكيا ، ولا في جميع الشرق الأدنى .

ان العرب والتورانيين يزدرون بالاسود ، وهذا الاسود يقابلهم على ذلك بالانفصال عن ديانتهم عندما يختلط بهم ، وهذا أمر واقع سواء في الشرق أو في شمالي افريقية . وترى السيفاليين في الاستانة والأناضول لا يدخلون الجوامع ، ولا يخاطبون المشايخ ، ولا المقتنين ولا يحملون في حقائبهم أوراقاً مضرة ، ولا بطائق من وارد بلاد الاسلام متضمنة مدائح الغازي غالب الكفار . وان العداوة بين الأهالي والسود في شمالي افريقية وان لم تاخذ

(١) أي في سورية والأناضول والاستانة

شكلاً حاداً ، هي السبب الكافل عدم امتداد دعوة سياسية بينهم . وفي نفس السنيغال لا في الجيش فقط ، لم يمكن التعصب الاسلامي احداث أقل عدوان لفرنسا ، بل بالعكس ، الاسلام في تلك البلاد الى الورا لا الى الأمام .

على أنه اذا كانت سداجة هذا الجنس وسلامة عقولهم ، لا نجعلان في جيشنا خوفاً من دعوة الجامعة الاسلامية ، فلا يجوز أن نهمل التحوطات اللازمة لاتقاء روح سارية في أماكن أخرى . فالأطباء يعلمون أن أحسن واق من أمراض المستعمرات ، هو تعاطي الاسباب المانعة لظهورها ، فكما أن العمال في بلادنا الاسلامية يجب أن يعلموا منازع ديانة الأقباط الذين يولون عليهم ، كذلك القواد الذين دأبهم تعليم الجنود المسلمين يجب أن يعرفوا القواعد المبني عليها الاسلام ، وماذا يوجد في أدمغة أتباعه . وعلى القائد أو الضابط أن يميز جيداً بين الاسود الذي هو مسلم حقاً ، من الاسود الذي اسلامه سطحي . فينبغي أن نعرف عناصر الاسلام المختلفة في ممالكنا الافريقية ، للتمييز بين العناصر القابلة منها للثائرة ، والتي هي غير قابلة لها ، ثم أن نعمل في السنيغال احصاء نجدده ككل مدة للأجناس والأديان ، لنعلم تطورات الاسلام هناك ، والميول الروحية التي عند عساكرنا السنيغالية . ومن المهم أن نعرف ما هو اعتقاد الجزائريين بالسنيغاليين ، لأن هؤلاء في نظر أولئك ، هم القوة التي وكل اليها توطيد السكينة في شمالي افريقية ، ولا ترى ذلك محدثاً عندهم أدنى غضب لأن من طبيعة المسلم أن يطبع دائماً القوة القاهرة ولا يحنق من التداير المتخذة بحقه ، والجزائري ولو كان يحتقر الاسود ، ينظر بدون حقد ، بل بعين الرضى الى ترتيب تواريخ السنيغاليين وبالاجال المسلم السنيغالي في سلك الجندي لا يمارس فرائض دينه . وقد جرت العادة الى اليوم بان لا يعارض في أمر دينه كصوم رمضان ، والاحتفال بالأعياد ، واقامة الصلوات ، وأن يترك هذا كله لارادته . وكلما قل التعرض له في هذه الأمور كان خيراً . وكذلك لحظ أنه من العبث حمله على مراعاة فروض دينه ، أملاً باستمالة المسلمين بهذه الوسطة ، فالمسلم أثناء الخدمة يقهم الضرورات التي تمنعه من أداء تلك الفرائض ، وهو يتعجب من اهتمام الأوربي بديانة المسلم أكثر من اهتمامه بديانة نفسه . انه من الواجب اذاً أن يراقب من العساكر السنيغالية من يفرطون في مراعاة شعائر

ديهم^(١) ولعمري ، أي فرصة أحسن من وجودهم في الخدمة العسكرية لتعلم لغتنا ، إنها أحسن من كل المعلمين الذين يريدون إرسالهم إلى غرب إفريقيا . والذي حصل إلى اليوم من النجاح في هذا الباب ليس بقليل فإذا كان الضباط في الجزائر مضطرين أن يتعلموا لغة جنودهم ، ففي السودان الضباط يجهدون لغة جنودهم ، فهؤلاء مضطرون أن يتعلموا لغة الضباط ثم هناك ضرورة أخرى لتعلم الفرنسيين ، وهي جهل الجنود أنفسهم بعضهم لغات بعض لأنهم من أصناف وألسن مختلفة ، فلا حيلة لهم أن يتفاهموا إلا باللغة الفرنسية .

ومما جرت عليه القيادة ، اجتناب تكتيب الكتائب ، على صورة يكون فيها العنصر الإسلامي غالباً ، فتجد السنغاليين مشتتين بين الجماعات الفتيشية والمسيحية . وهناك على ذلك مثلاً : في مدينة فيلبفيل بالجزائر برابط الآلاي الخامس عشر السنغالي ، الذي عدده ١٧٠٩ جنود ، فتجد فيه ٥٤٢ مسالماً و ١٣٢ مسيحياً و ١٠٣٣ فتيشياً أو غير تابع للمذهب خاص . والتابور ١٣٩ الذي بمدينة الجزائر ، الذي عدده ٤٨٩ جندياً فيه ١٤٥ مسالماً و ١٨٢ مسيحياً و ١٦٤ فتيشياً ، فازدياد عدد المسيحيين من يوم إلى آخره ثمرة مساعي المبشرين والمؤسسات الخيرية . وتجدي في بيسكرة (بالجزائر) راهبات مسنخى لافيجري رين صغار السنغاليين . انه إلى يومنا هذا لم تدخل حكومتنا بصورة رسمية في قضية تنصير السنغاليين ولا تزال مظاهرة الحياء في هذا الموضوع ، لكن مع ملاحظتنا الوجهة السياسية فقط ، يحق لنا أن نسأل هل من مصلحة مستقبلنا سوق الجماعات الفتيشية إلى الإسلام أم إلى النصرانية وعلى كل حال ، فقد دلت التجربة في الجزائر ، على ان المجرى الديني الإسلامي دخل في حكم هذه القواعد البديهية التاريخية التي يتلقاها الخلف عن السلف بدون أدنى تحريف ولا تبديل ، فعساكرنا السنغاليون ، مع كونهم غرق في بحر جماعات كلهم مسلحون ، لم يبدوا حتى اليوم أقل انجذاب إلى المحمدية . ولقد شهدوا مواطن حرية عديدة كان الهياج الإسلامي فيها شديداً ولم تزعزع صداقتهم ، مما هو جدير بكل تقدير ، وهو مما يعجبنا على الاكثار من تجنيدهم ، وعلى تأمين طرق مكافآتهم المالية ، واعطائهم رواتبهم في أوقاتها انه عندما انتصر الترك في ازمير ، أشار الدكتور اسماعيل صدقي بك أحد كبار الوطنيين المصريين إلى الحفلات التي اجريت يومئذ بمصر . والاجتماعات التي تداعت إليها

(١) انظر إلى هذه الدعاة ...

وقد سارت في البانية الحوادث سبباً مشابهاً لهذا . ولا تنكر أن مبادئ المسيحية انساباً ، يمكنها أن توجد بين أمة أوربية والاسلام ، علاقات حسنة مبنية على حرمة متبادلة ، وعاطفة متقابلة ، لكن هذا يجب أن يكون مبنياً على فكرة نظام ثابت ، وراحة موطدة . وهذا هو رأى المستشرقين الحقيقيين ، الذين سبروا غور أفكار المسلمين بأقامتهم سنين طوالاً في بلاد هؤلاء ، نابذين الأغراض الشخصية والخيالات المرسلة بدون تحقيق ، فقد قال أحد هؤلاء : « ان القوة هي وحدها علة بقائنا ، وإذا أتينا بأقل علامة على نقص قوتنا ، فتحنا على أنفسنا باب الثورات » . وقال آخر : « نحن المال ، والسلاح ، والعقل ، والعدل ، فإذا خسرتنا هذه المستعمرات نكون خسرتها برضانا » . فهؤلاء المحققون الذين استبطنوا نوايا دخائل النفس المحمدية في غير الكتب والحكايات ، لا يستحسنون فرح الاسلام الفرنسي ببنصرات الأتراك الأخيرة . فان جداول التبرعات التي جرى الاكتتاب بها في الجزائر وقاس وداكار^(١) وتاماناف^(٢) لاعانة الترك الغالبين والأدعية في المساجد بفوزهم ، والتهاني التي وردت على أنفذة من ٣٠٠ مليون مسلم ، هذه كلها مقدمات لحوادث تالية . وكذلك حال هؤلاء المدققين ، ما شاهدوه من تأثير الوقائع التركية في تونس ، وصفاقس ، والقبروان ، وسوسة . فقد وردت برفية من المهديّة تفيد أن الشعور الذي كان يحصل من تلك المظاهر الحفيظة ، هو أن الشعب التونسي معجب جداً بشعب كالشعب التركي يأخذ حقه عنوة بقوة المدفع . أي أن التونسيين يطمعون ، بان يأخذوا هذا الحق قريباً بالواسطة نفسها . ليس عامة الوطنيين هؤلاء الساذجون طيبو السرائر . المقدرين قدر السعادة التي هم راتعون في مجبوحتها . والعارفون فضل الأمان والأطمئنان . هم الذين نحن منهم على حذر . بل ليس الاسلام نفسه ، الذي عرف أثناء الحرب العامة أن يعلى نفوس رعايانا هؤلاء ، الى أن تحملوا ما تحملوه من الرزايا القاذحة بصبر الأبطال ، هو موجب عدم ركوتنا . بل حذرنا انما هو من تلك الفشة القليلة ، التي عليها مسحة التربة الأوربية ، والتفتشة الغريبة ، الذين قرأوا ما هضمت عقولهم هضماً سيئاً ، غلبت عليهم المآرب ، واستفواهم التعصب ،

(١) أحد موانئ السينغال

(٢) مدينة بحرية في ماداغسكار

وأحبوا وطنهم ، ولكن أحبوا أكثر منه منافعهم الشخصية . فهؤلاء الشبان المسلمون لا يقلعون عن غيهم مهما جرى ، ومهما أعطوا من الحقوق . ومهما أجرى معهم من التسامح ، فلا يكون ذلك الا طريقاً لتوقيف الأوربي عند حده ، وأخذهم مكانه .
ففي وجه التضامن الاسلامي ، الذي يزداد كل يوم كلما ازداد نجاح اتباع الاسلام ، نجد الحصن الذي كان الغرب يمتنع به بدأ ينهار ، وعلاقات أوروبا بعضها مع بعض تسوء . فإذا كنا لا نقدر على تلافى هذا النزاع الغربي ، فعلى الأقل يجب علينا في وسط مستعمراتنا أن نوحّد الجبهة بازاء المهيجين والمقلقين^(١) بتدابير عامة شاملة ، ويلزم أن نمنع سرّيان العدوى الى الجيش ، فإن السكون الحاضر في مملكتنا الافريقية ، لا يجوز أن يصرف أنظارنا عن مشاهدة الغيوم المتلبدّة في الشرق .

ان صور أبطال الاسلام مائة أسواق مصر وبيوت فلاحى الأرياف ، فهذه حالة روحية ، قد تسرى الى مستعمراتنا لا سيما تونس شمالاً ، وممالك بحيرة تشاد جنوباً ، وإذا نالت مصر استقلالها صارت مركزاً لتحرير الاسلام .

لأحد يمكنه أن يتكهن على درجة هذه الحركة ، لكن من راقب الحوادث الجارية تهيأ له الاستنتاج بأنه لا يجوز التفاؤل المفرط ، كما لا يجوز التشاؤم بدون سبب . فالحالة تستدعي الاكتراث وان لم تكن التهلكة محققة الوقوع ، فعلى أى الأحوال يتعين حفظ القوة العسكرية التي لا يعتبر المسلم شيئاً غيرها ، هذا مع الحزم والعدل ، وبسط الأمان وتيسير المنافع المادية . انتهى

إدحاض الأباطيل والمفتريات

اعتنينا بتعريب هذه المقالة بحرفها حتى لا نترك مجالاً للكابرة ، ولا محلاً لناكرة . وكنا نود لو تركناها كما هي تكفي بنفسها مقوونة الرد عليها ، لولا أن يكون في الشرق لسوء الحظ ، من يتلقى كلام كل أوربي تقريباً حقيقة رياضية ، أو قضية مسلعة ، ولولا أنه لا يزال عندنا من حسن الظن في هؤلاء القوم ، ما يجعل التنبيه فرضاً ، والتمحيص حتماً . نعم ان افتتان الناشئة من الشرقيين بعدل أوروبا ، وانصافها ، ومعالي زعامتها ؛ قد خف كثيراً بعد الحرب العامة عند ما تجلت عرائس الحقائق على مناص المناهج ، وقشعت رياح الحوادث غيوم الأوهام ، التي كانت متلبدّة في الشرق ، من جهة تلك الفضائل وهاتيك العلى ،

ولكن مع الأسف نقول ، انه لم تبرح لهذا المرض عندنا عقابيل كافية للضرر ، وبقيها
جازية للارتكاس في الخطأ ، والارتكاس في المرض ، فلم تر مندوحة من ادماض ما في هذه
المقالة من الأباطيل ، واطهار ما فيها من التناقضات ، لا أكثرنا بنفس محررها ، بل
بكونها نظرية الأكثرين في قومه وأمثال قومه ، ولو كان بعضهم يكتبها والبعض
الأخر يعلنها .

بدأ الكاتب بتخطئة الأوربيين ، الذين يسمت بعضهم ببعض عندما تقوم على فئة
منهم ثورة اسلامية ، قائلا ما معناه : ان كل ثورة اسلامية هي خطر على جميع دول اوربا ،
فالتى لم تصل اليها النار حالا تصلها فيما بعد . فهو من أنصار توحيد الجبهة الاوربية في وجه
الاسلام والشرق أجمع . والحال أن هذه المسئلة غير محتاجة في أوربا الى تنبيه من حضرته ،
بل هي قاعدة أساسية ماشية عليها الدول الاستعمارية ، منذ وجد الاستعمار ، وانبسطت يد
العرب الى الشرق . فانها مهما اختلفت هذه الدول وتناهدت في أوربا ، تقف صفا كالبيان
المرصوص في وجه الشرقيين ، لاسيما المسلمين منهم . ولو شئنا استقصاء الشواهد والأدلة على
ذلك لم تكفنا المجلدات ، فلا نغني أنفسنا بالاستشهاد بتواريخ لا تنتهى وإنما نقول اذا طرأ
بعض الأوقات عوارض بسيطة تخالف هذه القاعدة الاستعمارية الكلبة ، فتكون عوارض
جزئية محدودة لأسباب مجبرة لا مناص منها ، وضمن الدائرة التى لا تخجل بالتضامن الأوربي
العام في وجه الشرق ، وهو التضامن الذى لا يزال دستور الاستعمار الأعظم . مثلا : لما
أسقطت فرنسا الحكومة العربية في الشام وطردت الملك فيصل خلافاً للمعاهدات التى كانت
بين فرنسا وانكلترة ، وبين هاتين الدولتين والعرب ، ارتفع عويل العرب الى السماء ،
واشتدت مشاحتهم لانكلترة ومطالبتهم لها بمنطوق المعاهدات ، وصادف أثناء ذلك ، أن
مسئلة العراق أعضلت وعز حلها ، فأرسلت انكلترة فيصلا الى العراق فيأما بجزء مما تعهدت
به للعرب ، وتوفيراً للمال والرجال على نفسها ، لأنها بقيت تقاتل في العراق مدة سنتين بمائة
وعشرين ألف جندي والنار لا تزداد الا اشتعالا . فكان نصيبا لفيصل ملكا على العراق
مخالفا لهوى فرنسا ، التى قابلت هذا العمل بعقد اتفاق مع الأتراك بشأن كيليكيا ،
وأعدت تلك الولاية الى تركيا بدون أن تستشير في هذا الوفاق حليفها انكلترة . فعند
بعضهم هذه السياسة من الحليقتين مخالفة لقاعدة التضامن الأوربي الاستعماري ، وليس

الأمر كذلك ، فان انكثرة لم يكن ليتمكنها أن نستخف تماماً باليهود التي قطعنها للامة العربية ، والى حد أنها لا تفكر أن ترضى هذه الأمة بشيء ، مع استمرار الحرب في العراق وامكان نشوبها في أماكن أخرى ، ومع ما كان يبدو لها من علامات تقرب العرب الى الترك لا سيما بعد أن خذلت العرب في الشام ، ولم تبد على اسقاط فرنسا للحكومة العربية بدمشق أدنى اعتراض ، فكان ارسالها فيصلا الى العراق نوعاً من الكفارة لبعض تلك السيئات . وكذلك فرنسا أنفقت على كيليكييا نحو مليارين ، وخسرت فيها بضعة عشر ألف جندي ورأت نفسها مع حرج الحالة المالية وانصرافها الى تقاضي ألمانية ، التعويضات التي ليس استيفاؤها بالأمر السهل ، عاجزة عن متابعة الأعمال الحربية في كيليكييا . ولحظت من جهة أخرى ان انكثرة تستثمر لحساب نفوذها في الشرق مجاهد فرنسا في قتال الأتراك . فعدلت عن تلك الخطة الأولى وجنحت الى مسألة الترك ، وتركزت لهم ولاية هي في الواقع تركية ، وكان من أصعب الأمور على فرنسا أن تقدر على حفظها بدون جيش جرار . وبذل المليار بعد المليار . فلا الانكليز حاولوا ارضاء العرب في العراق حباً بالعرب . ولا الفرنسيين حاولوا ارضاء الترك حباً بالترك . بل التزاماً من كل من الفريقين لمصلحته تحت ضغط الحوادث . ومع هذا . فلم يحدث انفراد كل منهما بسياسة هذه أدنى تلمع في جدار التضامن العام بازاء الشرق . لأنه لا الانكليز عضدوا العرب على فرنسا مع كثرة ما ناداهم العرب للحفاظ على عهودهم المقطوعة للعرب . ولا الفرنسيين أعانوا الأتراك على الانكليز في شيء يذكر مما ظهر في مؤتمر لوزان ، المنعقد أثناء تحرير هذه السطور ، إذ جبهة الحلفاء كانت فيه واحدة من الأول الى الآخر في وجه الترك والعرب والمصريين الخ . وكل ما جرى في أثناء هذا المؤتمر من الاختلافات الأوربية وأولها مسألة الروم ، لم يزعزع في شيء بناء التضامن الغربي بازاء الشرق . وبالاختصار فكل ما يقع من اختلاف النظر بين الدول الغربية بشأن المسائل الشرقية ، يبقى محصوراً في دائرة ضيقة ، لا يمكن أن يكسب صفة عامة ونبق القاعدة عندهم ، هي ، ان نجاح أي غربي في أي بقعة كانت من الشرق هو نجاح للجميع والعكس بالعكس .

أما الذين يثير اليهم روجر لايون من كونهم يشتمون بحيرانهم ، أي الفتنة التي من الفرنسيين تفرح بمشكلات انكثرة في مستعمراتها الاسلامية ، فهؤلاء أكثرهم من

الشيوعيين والاشتراكيين وهؤلاء كما تقدم أصداد الاستثمار ، لأنهم يقولون ان الاستثمار قضية عائدة على الطبقة المتمولة ، وهم لا يريدون أن يسفكوا دماءهم في افريقية وآسية ، ويعتوا بحميات هاتيك الاصقاع النائية لأجل زيادة ثروة الممولين في بلادهم ، ناهيك أن طبقة العملة تشبه أهالي المستعمرات بكون الفريقين مستضعفين هؤلاء من الخارج ، وأولئك من الداخل ، فبين الفريقين جاذب التضامن الذي بين الضعفاء والمظلومين ، وما عدا هؤلاء ، فيوجد غلاة الحزب الشمالي الذين يحبون الحرية كما لا يخفى ، وجميع هؤلاء لا يدعون الا فئة قليلة بالقياس الى بقية الأحزاب ، وان وجد من غيرهم من الفرنسيين من يشمت بالانكليز في مشكلاتهم الاستثمارية اما حشداً أو نفاسة ، أو على أثر اختلافه دولي اشتد بين الامتين ، فلا يتعدى ذلك بعض كلمات فارغة ، ولا ينشأ عنه شيء بالفعل أبداً ولا يدخل أصلا في برنامج الحكومات السياسي .

فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الأوربيين في وجه الاسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصا لاسيما أن بين هؤلاء رابطة دينية ، لا يمكن زوالها غضب روجر لابون أم رضى . وقد كان يمكن أن تراخي هذه الرابطة الاسلامية بالعدل والاحسان من قبل الدول المستعمرة ، اذ كان لا يوجد شيء تستلج به قلوب الأعداء مثل العدل ، وكان الانسان كما يقولون أسير الاحسان من أى جهة أتى . فالدول المستعمرة بدل العدل والاحسان ، لم تعرف في مستعمراتها سوى الضغط والظلم ، وامتهان الوطنيين والسكيل لهم بمكياال وللأوربيين بمكياال آخر ، والحجر على حريتهم ، والتصرف بحقوقهم ودمائهم ومرافقهم ، وابتزازهم أراضيهم ، وهذا ما امتازت به فرنسا أكثر من غيرها بدليل نسق استعمارها بالجزائر وتونس مما لا يحتاج الى بيان ، ومن شاء زيادة الوقوف فليقرأ كتاب «تونس الشهيدة» ليعلم ماذا يجري هناك أو فليقرأ بعض كتابات الفرنسيين أنفسهم ومن جللتها ما كتبه المسيو فالبيان كوتوريه Vaillant Couturier أحد أعضاء البرلمان الفرنسي من الحزب الشيوعي ، على أثر سياحة طويلة في الجزائر وتونس أجراها في العام الماضي ونشر خلاصة مشاهداته في جريدة الاومانيتيه ، بل فليعلم النظر في المبادئ التي يوصى بها لابون نفسه والمرء مؤاخذ باقراره فيعلم درجة الضغط الواقع على أولئك المساكين ، وبأى نظر تنظر الأمة المستعمرة اليهم ، فليست اذاً الرابطة الاسلامية وحدها

هي التي تجمع قلوب الجزائريين والتوانسة والمراكشيين وغيرهم الى قلوب أهالي الأناضول بل هناك رابطة المستضعفين بعضهم مع بعض ، ورابطة الأخ الذي تحت نير العبودية مع خيه الذي تمسكن من رفع ذلك النير عن عنقه . هذه لعمرى روابط طبيعية لا تزول ولا تخف ، لا بالسهر ولا بالمراقبة ولا بالحجر ولا بالحجز ، ولا يمنع القضاء بالأحكام القرآنية كما يشرب به لابون ولا بالتعب في تنصير المسلمين كما يريد اذ كل هذه التدابير لا يكون لها نتيجة سوى أن تزيد النار اضطرابا . بل الوساطة الوحيدة لا لازالة تلك الرابطة لأنها لا تزول أبداً ، بل لحصرها ضمن حدود لا تضر فيها بمصلحة فرنسا ، هي معرفة فرنسا حقوق الوطنيين المسلمين ، ومعاملتهم على سوى واحد مع الاوربيين وعدم الترفع بأى الوسائل لوضع اليد على أملاكهم ، وتجنب استغلالهم كما يستغل الانسان حرته ، وعدم القذف بهم في النخور والمهالك ، ليكونوا فداء عن أبناء فرنسا وهم غير متمتعين بشيء من حقوق المساواة مع أبناء فرنسا الى غير ذلك من الشروط التي لو توفرت لعاش الوطنيون المسلمون في دعة وراحة مع الفرنسيين ولم يضمروا لهم الخقد ، ولكانوا ارتبطوا معهم برابطة محبة أكيدة بخلاف ما هي الحالة الآن ، اذ الرابطة الوحيدة التي تربط شمالى افريقية بفرنسا هي قوة السلاح ، وهذه كما لا يخفى مهما طال وجودها ، فقد يأتي يوم يخونها الدهر فيه ، فتذهب وتحل محلها قوة أخرى ، والدهر لا يدوم لأحد .

ثم يقول « يتسلون بالفرح الذي يديه لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة » فلم نفهم ما هي خطتهم الحاضرة التي نستوجب كل هذا المن على المسلمين ؟ هل هي اعدتهم كيليكيا الى تركيا ؟ فهذا قد بينا أسبابه ، وان فرنسا لم يمكنها أن تعمل غير ذلك في الآونة الحاضرة أم اعطاؤها حق الانتخابات لسلمى الجزائر ، وهو أدنى ما يمكن أن يكافأ به قوم قدموا لها نحو . . ٣٠ ألف مقاتل في الحرب العامة ، تلف منهم ٦٢ ألفا . فبدلا من أن تسويهم باليهود أو المايطيين على الأقل ، كان أقصى ما منحتهم من الحقوق أن يكونوا ناخبين لاعضاء المجالس البلدية . أم سماحها بزيادة عدد الوطنيين في الندوة التونسية ، لكن بشرط أن لا يكونوا الاغلبية وان لا يكون لهم الحق في التعرض للامور السياسية أبداً ، وان لا يمساوا بشيء المبادى الاستعمارية الماشية عليها حكومة تونس ؟ أم أخذها لسورية التي ثلاثة ارباعها مسلمون نقضا لكل عهد وميثاق ، وتعديا على حقوق الامم وخلافا

لنصر مباحثها أثناء الحرب ، ثم معاملة سورية بصفة مستعمرة ، واستزاف أموالها ، والخلل بوحدها ، وإثارة الاحقاد الدينية التي كانت ساكنة فيها منذ زمن طويل ، وحبس مفكرها ونهبائها لطالبهم إياها باستقلال بلادهم ، واعتبار سورية أرضاً فرنسوية مع الهزؤ بأهلها بأنهم هم مستقلون ، وانها هي انما اتدبتها جمعية الأمم للوصاية عليهم لترشدهم وتعلمهم كيف يديرون فيما بعد أنفسهم بأنفسهم . . . أم الحرب القائمة بينها وبين أهالي مراكش والتي لولا حسن ادارة المارشال ليونى بنفسه ، لكانت غير منحصرة في بعض جهات تلك السلطنة بل كانت عامة لجميعها ؟ ما هي خطتهم الحاضرة اذاً ، وماذا فيها من هذه الأيادي البيضاء على المسلمين ؟ لما انتصر الاتراك على اليونان لم ترد فرنسا أن تنتصر لليونان كما أراد لويد جورج ، لكونها من النزاع مع المانية في شغل يستغرق كل قوتها فالت الى الصلح ولم تكن في ذلك وحدها ، بل كان رأى الجميع والانكليز أنفسهم الذين أسقطوا لويد جورج وضع حد لهذه الحرب في المشرق ، ومع هذا فقد أحد الناس كلهم — الا اليونان فقط — سياسة الدول السلمية وسياسة فرنسا من الجمل ، وأظهر لها مسلمو المغرب الشكر على سداد هذه السياسة ، التي هي كلها في مصلحة نفسها في الواقع ولكن لم تلبث أن تقاضت بدل مسألتها هذه التي لم تكن فيها بالمنفردة مطالب اقتصادية ثقيلة على الاتراك ودعاوى خارجة عن العدل والنصفة ، ومن جعلتها التحريم على الترك في النزول لها عن حق سيادة الدولة العثمانية على سورية .

اذاً بماذا نحن فرنسا وتعتمد على المسلمين ؟ حتى يقرع لابون بعض عقلاء قومه بانهم كانوا مسرورين من مظاهر الرضى التي أبدتها مسلمو المغرب .

ثم يحذر أبناء جنسه من الاعتراض بظاهر الشرق الذي يحظى الحقد ويبدى الولاء . ولا تنكر أن هذا من الأمور التي يتجاوز بها الشرقيون الحد المعقول ، والتي كانت السبب في كثير من المضار ، لأن الافرنجى من شأنه أن لا يحمل الافراط في الكياسة الا مجمل الضعف وانه كلما تواضع الانسان أمامه احتقره واستصغر شأنه ، هذا محرب فيهم الاماندر . ولكن الشرقيين مفظورون على الجمالة ، فتراهم يظهرن التودد الى أقوام استولوا على بلدانهم واستعبدوهم ، فهؤلاء الذين عرفوا جيداً ماذا فعلوا بهم ويمرفون أن سياستهم معهم لا توجب أدنى مودة ، يعتقدون أن هذه الظواهر هي كلها كذب وملتق ورتقاء ، وانه كاسن

وراءها الحقد والبغضاء اذ لا يعقل أن الانسان يحب من أساء اليه . فليحذر الشرفيون والمسلمون من أن يأتوا بتصداق كلام هذا الرجل ، وليجعلوا للمجاملة حداً لئلا يتهموا بالراءء والتخداع . فلقد كان من الافراط بهذه المجاملة من النتيجة السيئة في احتلال سوررية ، وادعاء أن أهلها هم الذين طلبوا ذلك ما ليس هنا محل بيانه وما طالما نبهنا اليه . أمادعواه بأن الاسلام مبنى على الخضوع للقوة القاهرة فكذب محض ، واختلاق منه ، فان الاسلام أمر بأوامر ونهى عن نواه لابد للسلم أن يجرى عليها اذا أراد أن يبقى مسلماً ، مهما وقف في طريقه ولو ذهبت بذلك نفسه . وهذا مبسوط في كتب الشريعة التي يفترى عليها لايون بدون علم ولا حياء ، وليس للسلم أن يتقى في دينه الا في بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الاسلام ، ولو كان المسلم مأموراً بالاستسلام للقوة الغالبة ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشا وهي أقوى منه ، ولما قاوم الخلفاء الراشدون تلك الأمم كلها ودونخواهم ولم يكونوا شيئاً بالقياس الى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالاسلام مبنى على العزة وعدم المبالاة بالحياة ولا بالمال في الذب عن شريعة الاسلام ، وان القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستقيض به ، وما سقطت الاسلام الا بعد أن فتر عمل أهله بتلك الآي ، وغلبت عليهم « كراهية الموت وحب الدنيا » وفقاً للحديث النبوى الذى أنبأهم بالحالة التي وصلوا اليها وبالأسباب الداعية الى حصولها ، وهو حديث « يوشك أن تنداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع الخ » .

ثم يقول ان ابتهاج الاسلام بعضه بفوز بعض لم يكن من قبل ذا بال ، نظراً لقوة أوربا واتحادها في وجهه بخلاف ماهى اليوم ، والروسية التي كانت أعظم ضاغظ على الاسلام صارت في هذه الآونة تناصره وتند أزره . والجواب أن تضامن أوربا كلها على الاسلام ، كاف بدون الروسية ، ولا بشك أن الحرب العامة قد استنزفت قوى أوربا والروسية ، وكرهت الحرب الى السواد الاعظم من العالم فاستفاد الشرفيون كلهم من هذا الضعف بدون نزاع وهبوا للمطالبة باستقلالهم ورفع الانيار عن أعناقهم ، ومن يلومهم على ذلك الا الذين لا وجدان لهم مثل هذا الكاتب والحزب الذى هو منه ، على أنه لو فرض أنها لم تحصل الحرب العامة لما كان الشرفيون راضين بأن يبقوا عبيداً الى الأبد .

أما ابتهاج الأتراك بل المسلمين أجمع بنصرة المراكشيين على الاسبانيول فليس فيه

شيء من العجب ، فقد كان الأوربيون كلهم مبتهجين باتصار البلقانيين على الأتراك ابتهاجاً أنساهم كل ما ارتكبه البلغار واليونان والصرب من الفظائع في تلك الحرب ، وكان أحلى ما يروق للأونكليز يومئذ وقائع الجبل الأسود التي تجلت فيها بسالة ذلك الشعب الصغير الأثني ، أفلا يحق للمسلمين أن يتتهجوا بنصرة فئة قليلة من المغاربة ، كلهم قبائل متطوعة ، على دولة عظيمة سافت عليهم ٢٠٠ ألف مقاتل ، فاستأصلوا منهم نحو ٣٠ ألفاً وغنموا ١٧٠ مدفعاً و ٧٠ ألف بندقيّة وانتهى الأمر بان عاد الأسبانيول كما جاءوا ولم يفوزوا بطائل . إن فرنسا وقتئذ مع بغضها لاسبانية والمنافسة بينهما على طنجة وغيرها ، لم يسرها فوز الريفيين ، بل أوجست منه خيفة وعاونت اسبانية بما أمكنها . وإن الأمير محمد عبد الكريم أرسل وفدأ الى لندن يلتمس وساطة انكلترة في الصلح ، فلم تقبل انكلترة هذه الوساطة ، مع شدة ادعائها بحجة السلام . فلماذا لعمرى ؟ الجواب بسيط ، وهو لأجل التكافل الأوربي في وجه الاسلام . وكذلك المسلمون يفرحون بظفر الريفيين ، أولاً ، لكونهم اخوانهم في الدين ، ثانياً ، لكونهم فئة قليلة مظلومة ، غلبت فئة كثيرة قوية ظالمة ، طامحة الى استعباد تلك الفئة القليلة العدد الأبية للضم .

أما ما ادعاه من كون النادي الشرقي برلين هومن مراكز دعوة الجامعة الاسلامية ، وانه يصدر جريدة لواء الاسلام لبث هذه الدعوة ، فلما كان محرر هذه السطور هو رئيس النادي الشرقي برلين قد نشرنا في بعض الجرائد تكديبا لدعواه هذه ، ولكون النادي هو تحت حماية مجلس برلين البلدي والجنرال لوندوروف ، كما افترى علينا كذبا وبهتاناً ، وبيننا أن النادي هو محفل اجتماعي ليس له شغل بالسياسة ، تأسس مجتمعا للشرقيين من كل الأجناس والأديان ، فقيه أترك ، وعرب ، وجركس ، وتتر ، وافغان وفرنس ، ومصريون وهنود ، ومغاربة ، وفيه مسلمون ، ونصارى ، ويهود ، وبراهمة الخ . وأن جريدة لواء الاسلام ليس لها أدنى علاقة بالنادي الشرقي . فاذا كانت كل معلومات لابون هي من قبيل هذا الخبر فيكون مقصده التهبيج فقط ، لايهام أبناء جلدته وجود حركة اسلامية ألمانية ، يتوسل بها الى زيادة الضغط على المسلمين :

ثم زعم أن ليست نتائج الحرب العامة هي العاملة فقط في هياج المسلمين ، بل هناك عوامل من طبيعة الاسلام نفسه ، لأن الاسلام لا يخضع بزعمه الا للقوة . فكرر هنياته

الأول الذي لم تعلم على أي شيء بناه ، اذسنة الأمم كلها انها تخضع للقوة وتنشر عند فقدها ، لم يختص الاسلام وحده بذلك . بل الاسلام والشرق فيهما بقايا من كرم الأخلاق ، والعفو عند المقدرة والسجاجة ، وترك الانسان حقه لمجرد علو الهمة ، والميل الى المساكين وهذه كلها مناقب يهزأ بها الغرب ولا يفهم لها معنى ، بل يسمعون ويقرأون نوادر كثيرة عن الشرقيين لا سيما العرب منهم ، وينقلونها في كتبهم من باب الكرم العريض والايثار على النفس وعفو الموتور عن الواتر بمجرد دخوله بيته ولو كان قاتلاً ابنه فلذة كبده ، وكم من والد سامح يقتل ولده ووالدة سمحت بقتل ولدها لمجيء القاتل الى بيتهم مستصحفاً ، وكم من تجاوز عن القود وعن الدية معاً ، فهل سمعنا أو قرأنا أن فذاً أوريباً فعل مثل ذلك مما يقع عند العرب كل يوم تقريباً ؟ وكم في التاريخ للاسلام من نوادر عفو عند المقدرة ، قد عرف منها الافرنجيين كثيراً باحتكاكهم مع عرب الأندلس ، وفي أثناء الحرب الصليبية مع صلاح الدين الأيوبي الذي كانت سيرته بهم بعد سيرتهم بالاسلام عند دخولهم القدس سبب عار لا يعجز للصليبيين ، ^(١) كما أقر بذلك المؤرخون المنصفون من الافرنجة ، لأنها أظهرت ما هناك من سعة الفرق في علو النفس ، ورقة الاحاس ، بين الأمم الاسلامية والأمم الأوربية . أفيقال بعد هذا ان المسلمين لا يخضعون الا للقوة القاهرة ، وانهم لا يؤثرهم حسن المعاملة ولا العدل ، بل العامل الوحيد الذي يؤثر بهم ويكفل طاعتهم هو ازهاف الحد ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواه هذا الكاتب وأمثاله ، ان يقولون الا كتباً .

والحقيقة هي أن القوة المسلحة هي العامل الوحيد الذي يؤثر بالافرنج ، وأقرب شاهد على ذلك مثل الترك الذي لا حاجة لبيانه اذكل أحد يعرفه ، فقد أصمت أوربا آذانها عن جميع ما نادوها به من العهود والمواثيق والمتركات والحقوق الدولية ، الى أن أثبتوا قوتهم بالعلبة على اليونان وغيرهم ، فعرفتهم حينئذ بشرأ ، ورضيت أن مجالسهم في مؤتمر لوزان وأخذت نصائحهم وتداريهم . وهناك مثل اليابان التي لم تعتبر عندهم دولة متمدنة الا بعد أن قهرت الروس ، وأثبتت قوتها العسكرية . كان أحد كبار الوزراء اليابانيين يحدث على

(١) قتلوا ٧٠ ألفاً في المسجد الأقصى ولم ينفوا عن النساء ولا الأطفال ، فلما استرد صلاح الدين القدس

فظاهى باشا سفير تركيا في رومة مؤخراً فقال له : « ان شتم أتم الأتراك أن تكونوا متمدنين في نظر أوروبا ، فاجتهدوا أن تكونوا أقوياء لا غير . فاننا نحن اليابانيين كنا بلقنا مبلغهم ، وتجاوزنا أمدهم في العلم والصناعة ، وصرنا نصنع من الأمتعة ما يضاهاى الذى يصنعونه ، ونبيعه بأثمان أرخص من أثمانهم ، ولبثوا يعدوننا مع البرابرة . الى أن هجمنا في يوم من الأيام على الروسية ، ونسفنا لها بوارج بدون اعلان حرب منا مخالفين بذلك الحقوق الحربية الدولية ، ثم تابعتنا الحرب الى أن انتصرنا على الروس نهائياً ، وعرفوا أننا نعرف أن نقتل ونهلك وندمر مثلما يقتل الأوربيون ويدمرون ، صرنا عندهم دولة عظيمة وصاروا يعدوننا متمدنين » . هذا كلام وزير يابانى كان تولى الصدارة في اليابان ، وان شاء الشرقى أن يفهم جيداً ما هي أوروبا فليستظهر دائماً هذه الامثلة . ويعلم الله أننا لم نكن لنوضح كل هذا من شأنهم في تقديس القوة المادية والتنمر على الضعيف والتبصص للقوى ، لو لم يكونوا دائماً يتذفوننا بهذه التهمة عينها ، فقد تكررت منهم هذه الكلمات بحق الشرقين الوفا من المرار . وعند كل مناسبة ، تجدهم يقولون : الشرقيون لا يعرفون الا القوة . الشرقيون لا يفهمون الا بلغة السيف . الشرق لا يأتى الا بالارهاب . لا تنس أنك تخاطب أمة شرقية . اعلم أنك في الشرق . وما أشبه ذلك ، والحق أن القوة المادية هي معبود الغربيين قبل الشرقيين . ثم ذكر أنه في الحرب العامة ، انقادت أكثر الأمم الاسلامية الى الحلفاء ، وقاتل منها مليون ونصف مليون مقاتل تحت راياتهم ، ولم يعبأوا باعلان الخليفة الجهاد ، وتبارى علماء المغرب في الفتيا بعدم وجوب الحرب في جانب الأتراك والألمان الى غير ذلك .

والجواب عليه ان كان يعنى بالأمم الاسلامية البامبارة والسنيفاليين وأمثالهم فهؤلاء مساكين لا يقدرون على شئ ، ولا يعرفون شيئاً ، بل تراهم كالانعام يساقون الى الجزرة ولا يشعرون حتى يصل السحكين الى أعناقهم ، ولم تترك فرنسا في سبيل ابقائهم في أدنى درك الجبل والخيولة ينسهم وبين الشريعة الاسلامية واللغة العربية واسطة الا استخدمتها لأجل أن تلصق بهم الكرة ، وتقتلع منهم كل شئ اسمه ارادة ، فهؤلاء لا كلام فيهم . أما الجزائريون والتونسيون والمراكشيون ، فمع كون الجهل أيضاً محجياً على عامتهم ان لم يكن في نسبة السنيفاليين فقريباً منها ، ومع كونه لا يصعب على فرنسا شراء ضباط كثيرين منهم

فقد طاف عمال الفرنسيين عليهم يخطبون ويعظون ويعقدون المجمع ويحادثون العلماء والزعماء أثناء الحرب وفي كل أحاديثهم وخطبهم ، يصرحون بأن هذه الحرب هي حرب تحرير الأمم ، فكل من قاتل فيها وبذل دمه نال بعد الحرب استقلاله ، وكل من تخلف عنها لاحظ له من الحرية ، وان هذه النوبة هي نوبة الجزائر وتونس . نيل الحكم الذاتي بحيث لا يبقى بينهما وبين فرنسا الاصلة حلف فقط . وان الألمان الذين هم أشد أعداء الاسلام ، قد خدعوا تركيا ، بل استمالوا فرقة الجون ترك فقط . وهي الغالبة على الأمر والآخذة على يد السلطان الخليفة ، فأعلنت هذه الفرقة الحرب بدون علم الخليفة وبلا علم الأمة ، وكذلك الفتوى بالجهاد هي تزوير من فرقة جون ترك ، هذه التي هي مارقة من الاسلام تهين الدين وتجاهر بعدوانه^(١) وسيكون نصيب تركيا فيما لو انتصرت ألمانية ، السقوط بين أيدي الألمان الذين سيفضون على الاسلام القضاء المبرم بعكس الحلفاء الذين هم أحباء الاسلام ، ولا يريدون بأهله الا خيراً (!) فبعد أن ينسق النصر للحلفاء ستمنح فرنسا الحكم الذاتي الى جميع مستعمراتها الاسلامية ، وستعطى انكسرة مصر استقلالها التام وسيساعد الحلفاء العرب على تأسيس سلطنة عربية ، تنأف من سورية وفلسطين والعراق وجزيرة العرب ، وعلى استئناف مجد الخلافة العباسية . وقالوا لأهل الهند انهم سينالون الحكم الذاتي بأجمعهم ، وأقسموا لهم جهد أيمانهم انهم ولو انتصروا على تركيا ، فلا ينال تركيا من الحلفاء أدنى سوء ، بل كل ما يريدونه من تركيا هو الانفصال عن هذه الدولة الألمانية التي تنوى وضع اليد على تركيا . هذه التصريحات والتأكيدات كررها الحلفاء أوفاً من المرار على أهالي مستعمراتهم الاسلامية ، لاسيما الجزائر وتونس ومراكش ومصر والهند ، وعلى الامة العربية ، ولبثوا يكررونها الى السنة الرابعة من الحرب العامة ، اذ قوى أملهم بالنصر النهائي فعند ذلك تغيرت نعمتهم ، وبدأت تلك الامم التي انقادت لوساوسهم تلاحظ انها انما وقعت في شرك ، وانها كانت من تمويهانهم في غرور مبين . ولقد أصابت احدى الجمعيات السورية في أمريكا بوصفها الحلفاء أثناء الحرب العامة وهم يشنون الدعوة لفضية تحرير الشعوب بزعمهم . فقالت في منشور أذاعته بعد الحرب : « فلورأيت الحلفاء ودموعهم

(١) واستشهدوا على ذلك بأشياء

تسبيل ، وهم يستنهضون الأمم انصرتهم في هذه الحرب التي لم يتابعوها بزعمهم الا لأجل تحرير الأمم كافة ، وقهر التسلط الألساني الخ » نعم بقي الحلفاء يشنون هذه الدعوة ودموعهم تسيل رقة وحناناً (١) الى أن قضاوا وطربهم ، فقلبوا ظهر المجن لسكل من عاونهم وقاتل في صفوفهم ، وجفت دموعهم اذ ذاك ، وعادوا ذئاباً بعد أن كانوا جملاناً ، وتناسوا كل ما تعهدوا به أثناء الحرب بدون أدنى خجل ولا وجل ، فلذلك هاجت أحقاد تلك الأمم التي خدعوها بزخرف القول وختلوها بمواعيد ، لم تعد مواعيد عرقوب عندها شيئاً ، وقاموا عليهم من كل جهة ، فنهضت مصر تطالب باستقلالها التام ولم تزل ناهضة ، وحتى أهل الجزائر من خلف المواعيد الفرنسية حنقاً دل عليه صنيعهم في انتخابات ١٩١٩ ، التي لم يرشحوا فيها واحداً موالياً لفرنسا . ولا تزال الحركة الوطنية تقوى فيما بينهم بفضل سوء السياسة الاستعمارية لا بدسائس الأناضول ولا بتحريكات الجامعة الاسلامية ، وازدادت ثورة المرالكشين اشتعالاً ، وهي منذ خمس سنين مضت من بعد الحرب العامة لم تسكن يوماً واحداً ، وثار ت الهند ثورات مختلفة الأنواع ، منها بالاسلح كما في شمال الهند وكشورة الموبلاه في المليبار وغيرها ، ومنها بالسياسة كالثورات الوطنية الذي انعقد ممثلاً من جميع شعوب الهند وأديانها ، وكاتحاد المسلمين والهندوس ، وكقيام جمعية الخلافة ، وكقطاعة المتاجر البريطانية بحيث نقصت في الهند نحو ٣٠ في المائة . ثم قام أهل العراق في وجه الانكليز ، الذين كانوا أعلنوا لهم يوم دخولهم بغداد سنة ١٩١٧ ، أنهم لم يأثوا لملكوا بلادهم ، بل ليعيدوا اليها الحكم العربي كما كان ، فلما استوسق الظفر لانكثرة حاولت الاستيلاء على العراق والحاقها بالهند ، فنار العراقيون بها مدة سنتين أذاقوها فيها عرق القربة ، ولم يضعوا الاسلح حتى مكنتهم من تأسيس حكومة عربية ، اشترطوا أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً ، ولن يرحوا حتى يروا استقلالها تاماً ، وأما أهل تونس فنترك القول لهم ، فقد ورد في كتاب « تونس الشهيدة » المطبوع في باريس سنة ١٩٢٠ في خلاصة الكتاب ما يأتي :

« كانت مفاداة الشعب التونسي بجانب فرنسا ، في الحرب التي اكتسحت العالم المتمدن ٩٥ ألف مقاتل و ٣٠ ألف فاعل من أمة لا تزيد على مليونين من النفوس ، وقد قتل وجرح من الخسة والستين ألف مقاتل ٤٥ ألفاً ، وكانت لنا ثقة تامة في الحصول
 « م ٢٢ - ثاني »

على أمانتنا القومية على أثر ظفر الحق (١) والعدل بين الأمم ، وتنفيذ مبدأ تعيين الشعوب لصيرها ، انسى كان أعظم رجال الدول نادوا به ووعدوا بهذه الشعوب أمام الله والناس . فهذه الثقة هي التي جعلتنا على القيام بواجب المشاطرة الوجيهة بدون قيد ولا شرط في الحرب العظمى العائدة لخلاصنا فكان ديناً على فرنسا اعطاؤنا حريتنا من وجهين ، الأول الخسائر التي تحملناها من أجلها ، والثاني المواعيد الشهيرة التي قطعتها لنا ، فقد نالت الشعوب الصغيرة حتى من التي كانت في صفوف الأعداء حريتها ، أما نحن فقد ادخرت لنا فرنسا لأجل المكافأة على خسارتنا طريقة من أغرب ما يتصوره العقل ، وذلك بتهيئة برنامج استعمار جديد زيادة على القديم ، تتمكن به من غصب أملاكنا وهضم حقوقنا ، فقد اعترفت ايطان فئة من صعاليك الفرنسيين ومعتريهم ومحاوليهم في بلادنا ، وتيسير أسباب معاشهم من مالنا وتقديم الأراضي اللازمة لهم من أرضنا . فما هي فائدة فرنسا لعمري من متابعة خطة هي من سنة ١٨٨٩ ، وعلى الخصوص من سنة ١٨٩٢ حتى اليوم مصدر كل عمل تأتبه في تونس وبدلاً من أن نعدل عنها ولو على وجه المكافأة لرزاينا من أجلها ، تكون النتيجة ، أنها بعد انتهاء حرب الحق والعدل (١) تزداد فيها توسعاً وتقناً الخ .

لا نطمح أن ننقل هنا كل ما ورد في « تونس الشهيدة » من الحقائق الرسمية ، التي ثبتت الى أي حد وصل الفرنسيين من استعمار تلك البلاد ، واستعباد أولئك العباد ، وكما تقدم كانت مكافأتهم على الخمسة والأربعين ألف رجل الذين فقدوهم فداء لفرنسا ، أن قررت الحكومة الفرنسية ارسال كل المحاولين والسفلة والأفاقين الذين في بلادها الى تونس ، واعطاءهم أراضي فيها من أملاك الحكومة التونسية وأوقاف التونسيين ، والاتفاق عليهم اعمارة تلك الأراضي بواسطة قرض يعقد باسم تونس ، ويدفع فائضه أهل تونس .

وبالجملة فاذا شاهد المسيو روجر لابون ومن على شاكلة هيجاناً في العالم الاسلامي . فليبحث عن أسبابه في مظالم الحكومات الاستعمارية ، وتكثها بمواعيدها ، وخبطها هذه الشعوب بعضا العفيف ، واستنارها بأراضيهم ، وأمواهم ، ووضعهم تحت أقدام المستعمرين حقارة واهانة فالتعبون الاسلامية والشرقية مهما بلغ بها الضعف فلن تقر في يوم من الأيام على العبودية للأوربيين ، يلزم أن يرفع الأوربيون خيال تأييد هذه العبودية من رؤوسهم وأما زعمه أنه بعد معاهدة مودروس كان الاسلام بأسره قد استخذى ، وصار منتظراً أي

حكم يصدر من أوربا ليطيعه ، وإن السبب في كونه رفع رأسه فيما بعد ، واستأنف أماله ، وعاد الى المحاصمة ، هو ما رآه من انصراف الجيوش من الشرق ووقوع المنازعات بين الحلفاء فهذا كذب محض ، وبهتان بحت ، ينقضه التاريخ وتكذبه القیود الرسمية ، فقد وضعت الحرب أوزارها ، ومصر والاسنانة والعراق والأناضول والقوقاس وسورية ملائى بجيوش الحلفاء التي لبثت مرابطة في هذه البلدان مدة طويلة . وعندما أهالى مصر نهضوا لطلب استقلالهم كانت مصر تروج بالجيش الانكليزي . وإن أهل العراق هبوا لمقاومة انكسارته غير هيا بين المائة والعشرين ألف جندي ، التي ساقتها عليهم ، كما أنه لما نهض مصطفى كمال في الأناضول كانت الجيوش الانكليزية في الاسنانة والأناضول والقوقاس بعشرات الألوف ، وكان جيش فرنساوى نحو ٤٥ ألفاً في كيليكييا ، وجيش آخر في الاسنانة وجوارها ، وكان جيش للارمن في حدود أرضروم ، وبعد ذلك زحف ١٥٠ ألف يوناني ، فأطبق الأعداء على الأناضول من كل جهة ، ومع هذا فلم يزد الترك ذلك الاثباتا . فكيف يقال انهم تشجعوا بانصراف الجيوش عنهم . وأما في سورية فبلغ عدد الجيش فرنساوى ٧٠ ألف مقاتل ولم يمنع ذلك أهلها من مقاتلة الفرنسيين ، ولا صرفهم الخوف من كثافة الجيوش عن طلب حقهم الذي لا يزالون يطالبون به ، وأما شمالى الهند فلما زحفت عليه القبائل الأفغانية وجيش كابول ، أُرصد الانكليز لمقابلتهم . ٣٠ ألف مقاتل ، فكيف يكون المسلمون قد طمعوا وتجرأوا بانصراف الجيوش عن بلدانهم . وكذلك فارس أجبرت الانكليز على الجلاء عن بلادها ، والجيش البريطانى منتشر في أكثر البلاد .

ثم يقول كان أكثر الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين هم الذين حصلوا العلم في مدارس فرنسا . إذا فالفریق الذي تلقى تربية اسلامية والفریق الذي تلقى تربية أوربية كلاهما واحد في طلب الحرية ، وهذا أمر بدهى ، اذ لا الاسلام يرضى لأبنائه بهذا الاهتزام ، ولا أوربا تجيزه على أمة من أبنائها ، وكلا التعليمين ملتقيان في نقطة الاستقلال وإن السفسطة التي معناها أن المسلم لا يد أن يكون تحت حكم أوربي لاجل انتظام سير المدنية التي دياته تمنعه منها ؛ هذه لا يقبلها المسلم العتيق ولا الجديد ؛ بل لا يقبلها أوربي عنده وجدان سليم ، وما هي الا أكنوبة خلقت لتسويغ الاستعمار واقناع الأحرار من الاوربيين ، الذين يقولون : « مالنا ولؤلؤاء القوم نهضم حقوقهم ، وتتحكم فيهم ، ونذهب

فدقاتلهم في عقر دورهم « فيريد حرب الغزو والاستعمار أن يجاوبهم : « ان هذا ليس في شئ من الظلم ، لأن هؤلاء القوم لا يزالون عصاة على المدنية ما داموا مسلمين » . ثم يقول وهو من أعزب ما سمع في باب الفحة انه « منذ خفق العلم الفرنسي فوق مرمى الجزائر تكوّن بين هذه الأمة ونام لم تعرفه من قبل » . وفي محل آخر يندب قصور عمال فرنسا في تأريث نار الشقاق بين العرب والبربر كما كان من قبل . وقلما سمعنا أن قوما يدعون أنهم في أرق طبقات المدنية يأسفون من كونهم لم يحسنوا التفرقة ، ولم يحكموا العداوة بين الأمم التي ساء بختها بسقوطها تحت أيديهم ، ويعلمون أسفهم وندمهم من جراء هذا الإهمال . على أن كلامه هذا هو كذب محض ، فإن عمال فرنسا في الجزائر لم يهملوا وسيلة لشحن العداوة بين العرب والبربر الا توسطوا بها ، ولكن الذي جمع بين العرب والبربر هو رابطة الاسلام ، ورابطة الظلم المحيط بالتفريقين . واذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية أي منذ سنة ١٩١٨ الى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفترؤا يوما واحدا عن تأريث الضغائن المدنية بين المسلمين والنصارى في سورية وبين النصارى والدروز في لبنان ، بعد أن كانت هذه الضغائن والنحول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان اليوم في أسوأ حال من هذه الجهة مما بذرنه يد الاحتلال ، التي ظنت انها لا تمتد الا على بساط شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة ، فما ظنك بما كان يفعله عمال فرنسا في الجزائر من تحريك الاحن بين العرب والبربر الذين ليسوا في مستوى أهل سورية ، لكن فرنسا لاتسكلم بيد الا وتأسوا بخرى ، فكل ما زرعه عمالها من الشقاق بين ذينك الجيلين في المغرب ذهب بفضل الظلم والنصب والامتهان وسوء الادارة ، التي وحدتهما . وهذا شان كل من حاق بهم خطر عام . وليس بصحيح انه لما دخل الفرنسيين الجزائر كان فيها ٨٠٠ الف بربرى غير مسلمين ، فالاسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من الف سنة ، واللسان العربى هم يعرفونه جميعا الا ما ندر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا في فتنتهم في دينهم ، ووقفوا الى بعض ما قصدوه وذلك بأن أدخلوا عليهم الشكوك في عقائدهم ، فاصبح بعضهم معطلين أو ماجدين ، ولكن لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام الى النصرانية ، ولا ينكر أن كثيرا من الفرنسيين ومن عمالهم أيضا ، هم من ذوى الوجدان والاستقامة وارباب العقل والحكمة فتنهم عن استقامة طبع وطهارة وجدان ، تأبوا أن يزعموا مسلمي

الجزائر في دينهم وان ينكثوا بعهد المحافظة على حرية الدين الاسلامي ، ومنهم عن حسن تدبير ، وبعد ادراك تجنبوا أن يتعرضوا للجزائريين في عقائدهم وشريعتهم خوفا من انتقاضهم ، وتفاديا من زيادة نفورهم ، فهؤلاء هم الذين روجوا لابون لا يزال يندد بهم ، ويقبح عملهم ، ويزعم أنهم كانوا يعززون الاسلام ، ويعاونون على تأييده ، وليس الأمر كذلك فاما من فرانسوي على وجه الأرض عزز الاسلام أوسى في نشره ، وانما هناك فئتان احدهما ، ترى التعرض للمسلمين في كل شيء حتى في دينهم ، وأخرى ترى ذلك من قبيل اللعب بالنار وتتوجس من ورائه الثورات والفن ، فلا تحب أن تتعرض للدعوة الدينية ، ولا أن تثير هذا الساكن ، وان رضية بشيء من ذلك تنكبت فيه الطرق الرسمية . على أن تميز غير المسلم على المسلم في شرق افريقية وسائر مستعمرات فرنسا ، ليس بما تشي فيه فرنسا الضراء ، وناهيك انه من نحو عامين فقط ، اقترح أحد نواب السوسيا ليست في البرلمان الفرنسي الغاء قانون ، بمقتضاه لاتعطي مكافآت عقارية لذوى الخدمة النصح الالمسيحيين واليهود ، ومن يتنصر من المسلمين . وهذا قانون ليس بقدم العهد ، بل وضعه مجلس نواب فرنسا منذ ثلاثين سنة ، وقد أجابت الحكومة على اقتراح النائب الاشتراكي بأنه يلينى الغاء هذا القانون بعد الخسائر الجليلية التي تحملها الجزائريون فداء لفرنسا . فأنت ترى كذب دعوى هؤلاء ، الذين يزعمون أن الحكومة الفرنسية قصرت في احتقار الاسلام واهتضامه في الجزائر . نعم هناك فئة قليلة من الفرنسيين ترى هذا الضغط بسئ التدبير ، ولعمري كل عاقل في الدنيا يحكم هذه الفئة بالصواب في رأيها .

مم يفستري على الاسلام بقوله انه مادان به شعب الا تأخر وتقهقر ، وانه مانع ، بقوانينه الدينية من الترقى الاجتماعي . والحال أن الاسلام ليس فيه شيء يمنع الترقى ، ولا توجد شريعة في الدنيا تقدر العلم وتعلي شأن العرفان وتجعل العلماء تلو الأنبياء كشرعية الاسلام ، واذ كانت الأمم الاسلامية قد انحط شأنها في القرون الأخيرة لأسباب عديدة من جلستها : تكالب أوروبا على بلادها ، وتظاهرها على استئصال قوتها فلم يكن نفس الاسلام هو باعث القهقري بل كانت لذلك بواعث أخرى لم تخل منها أمة ومثال ذلك أن أوروبا بقيت منحطة جاهلة ، متخسمة ، ملفوفة في حنادس الممجيبة ، من بعد ما تنصرت بألف سنة . وبلغ من جهلها وانحطاطها أن ماتت عربى افتتحوا قسما من إيطاليا وقسما من سويسرة

في أوائل القرن العاشر ، واستولوا على أكثر الجبال والمضايق ، وبنوا القلاع والأبراج ، وجاذبوا الجبل جميع ملوك تلك الأطراف ولبثوا مالمكين هاتيك الحصون والقلاع ، ضاربين على أهالي تلك البلاد الذلة والمسكنة نحو قرن تام ، ولم يكن عددهم أنمي مانعوا وأكثروا ما كثروا يزيد على ألف رجل ، نجزي بهذا الفتح العجيب عن ذكر فتوحات العرب للاندلس والجنوبي فرنسا وجنوبي ايطالية الخ وتهذيبهم أهالي جميع الممالك التي احتلوها وغلبوا عليها . فكما أن همجية أوروبا لذلك العهد لم يكن السبب فيها الدين المسيحي ، فانحطاط الاسلام اليوم ليس السبب فيه الشرع المحمدي . وانما هي أدوار تعاقب ، وتارات تتناوب ، وكل مملكة أوكل مدسنة تطراً عليها أحوال من داخلها ومن خارجها ، فنشقي ونسعد ، ثم تعود فنشقي ثانية ، ثم تعود فنسعد ثانية وهلم جرا . ولقد سعت قرطاجنة ثم شقيت وكان دينها واحدا ، ولقد علت رومة في أيام الوثنية ثم سقطت في أيام النصرانية ، فهل كان الدين المسيحي هو السبب في سقوطها ؟ كلا . ثم هذه اسبانية منذ أر بعمائة سنة ، كانت أقوى مملكة وأزهر مملكة ، وكانت اكتشفت أميركا وصارت في بسطة مستعمراتها نظير انكثرة الحاضرة ، ثم لم تزل ترجع الى الورا حتى عادت كالعرجون القديم ، وصارت تعجز عن قبائل الريف ، ولما كانت في عنجبية عزها كانت نصرانية ولما وصلت الى حالتها بقيت نصرانية . وكان النتر غالبين على الروس وملوك الروس يؤدون الجزية الى أعقاب تمرنك احقبايا متظاوله ، ثم أصبح النتر كلهم رعايا الروس ، وصارت الملوك الباقية لهم اتباعا وخولا لقيصر روسيا ، ولما علا النتر كانوا مسلمين ولما انحط الروس كانوا نصارى والآن تغيرت الأحوال ، وكل باق على دينه . والدولة العثمانية الاسلامية وصلت الى بولوتيه ، واستولت على المجر ، وحاصرت فينا ، وصارت ملاذاً لفرنسا وناهضت أوروبا بأجمعها قروناً عديدة ، وكانت هي مسلعة ، وكانت أوروبا نصرانية أكثر مما هي اليوم . فمن العبث أن تقول ان الدين المسيحي أو الدين الاسلامي ، هو سبب تأخر هذه المملكة أو تقدمها وانما التأخر أو التقدم تكون له مقدمات وأسباب تراكم فتعمل عملها ، وناهيك أن اليابان أمة شرقية واذنية ، بلغت باجتهادها وصدق عزيمتها أن ضارعت أقوى دولة أوربية لا بل ، قهرت أقوى سلطنة مسيحية وهي الروسية ، فلما كانت لم تزل في دور الانحطاط جاهلة بمجھولة علوا ذلك في أوروبا بكونها أمة غير أوربية ، وغير مسيحية ، كما يعلون اليوم أسباب تأخر

عمالك الاسلام فلما نهضت اليابان نهضتها هذه ، وكذبت فلسفتهم المبينة على الاهواء
 والمآرب ، لم يقدروا أن يدعوا أن اليابانيين تنصروا حتى أمكنهم أن يتقدموا ، ولولا
 تنصرهم لما بلغوا هذه الدرجة فزعموا أن اليابانيين وان لم ينصروا فقد تفرنجوا ، ولولم
 يتفرنجوا لم يصيروا الى هذه الرتبة . و بعضهم لم يجروا أن يقول ان اليابانيين تفرنجوا فقالوا : ان
 اليابانيين قاموا بانقلاب اجتماعي في داخل بلادهم حتى رفقوا هذا الرقي . ان هذا لعمرى
 كلام فارغ ، فان كل أمة تعتمد على العلم والعرفان ، وتعمم المدارس في بلادها ، وتنشد
 الأنوار من حيث أتت ، يحصل بها انقلاب اجتماعي بطبيعة الحال ، فاليابان نشدت العلم
 وأخذت ماعند الأوربيين من المعارف والفنون ولكنها بقيت شرقية في كل شيء ، بل
 بقيت على دينها مذهب سينتو مع مذهب بودا ، لم تحدد عنهما ، ويخطئ من يظن أن اليابان
 بعد أن تعلمت وترقت ، أصبحت بلادين أو استخفت بالدين . فان كان من أهلها دهيرون
 أو قائلون بالنبيعة ، أو بوجود قوة مبدعة خصب ، فهؤلاء يوجد منهم في كل أمة .
 وبالاختصار فيمكن الاسلام أن يرقى رقى اليابان ورق أوروبا ويبقى مسلماً ولكن الفتنة
 المستعمرة من الأفرنج يريدون أن يلبثوا منسلطين على بلاد الاسلام ، فلا يزالون ينتحلون
 لديومة سلطنتهم عليها أعالي ومعاذير ، من جلتها أن الاسلام دين جود أو مشار فوضى وخلل
 فلا يترك وشانه ، كما كرر ذلك هذا الرجل عدة مرار كذبا وميناً .

ومن غريب ما رواه ان قسيسا عربيا من سورية جاء بلاد الجزائر وصارت له مكانة
 عند أبناء جلدته عرب الجزائر ، فأولو الأمر من الفرنسيين هناك حرصا على عدم تنصير
 المسلمين طردوه من الجزائر ، والذي يظهر لنا ان كانت هذه الحكاية صحيحة ان هذا القسيس
 بسبب كون لغته هي العربية ، أراد أن يدخل مع المسلمين في مباحثات ومناظرات دينية ،
 وربما يكون تجاوز الجدل الى النيل من الاسلام مما أدى الى هيجان الأفكار ، ورفع
 بعض المسلمين القضية الى أولى الأمر ، نفاقوا الفتنة وطرّدوا الكاهن المذكور وبرهنوا
 بطردهم اياه على عقل وحكمة . ولو أن داعيا مسلما دخل بين جماعة من التصاري الذين
 تحت حكم الاسلام ، وطلق يجادلهم في دينهم ويثير خواطرهم ، وكنت واليا في ذلك المكان
 لطرّدته ، وكان في ذلك عين المصلحة . أما قول هذا الفرنسي أن الكاهن السوري كان
 عند أبناء جلدته عرب الجزائر فهو غريب فان الفرنسيين بعد دخولهم سورية جعلوا العرب

غير السوريين والسوريين غير العرب ، واجتهدوا في اثبات كون السوريين هم من سلائل الآراميين والفينيقيين وانهم ليسوا من العرب ، حال كون السوريين هم في الأغلب من العرب الذين أوطنوا سورية قبل الاسلام وبعده ، والذين هم من أصل فينيقي هم عرب أيضا لثبوت هجرة الفينيقيين من جزيرة العرب والذين هم من سلائل الآراميين عدا كونهم ساميين أبناء عم العرب قد ذهب الأكثرون من محققى علم التاريخ في أوربا ، ان آباءهم الآراميين جاءوا أيضا من جزيرة العرب مهد الأمم السامية بأسرها .

ثم ادعى أنه لم تنسق للاسلام مدينة تذكر الامدة قصيرة أيام الأمويين بالأندلس والعباسيين في بغداد أى نحو ثمانمائة سنة في الأندلس ، ونحو خمسمائة سنة في بغداد فهذه الأدوار رآها قصيرة لتعزير برهانه الساقط ، مع أنها أطول على كل حال من مدينة أوربا ، التي لم تبدأ الا منذ أر بمائة سنة وفي القرون الوسطى كانت كمدنية أوربا اليوم . وبعد أن اتهم الاسلام بالجوذ والخول ، وعدم القابلية للنباهة ، زعم أنه أخذ اليوم يتوسل الى العلم ، ويجتهد في صنعة السلاح ، ولم يقف عند السلاح المادى بل تجاوزه الى السلاح المعنوى ، الذى هو الطبع والنشر وصارت له جرائد كثيرة في الشرق والغرب قائمة بدعوة اتحاد الاسلام . اذن الاسلام لم يكن جامدا كما يدعى هؤلاء الناس . ثم يتكلم على اسلام السودان وانه مشوب بخرافات فتيشية ويتفاهل بذلك خيرا ، وأكثر هؤلاء على هذا النمط من التفاؤل بعدم تحقق السودان بالاسلام الحقيقى ، فلا أكاد أقرأ لكاتب أو سائح أوربى كلاما على اسلام الزنوج أو الجاوى أو الصينيين أو غيرهم ممن أسلموا حديثا الا رأيتهم يجتهد في اثبات كون اسلامهم ليس تاما ، وانه لا تزال عندهم عقائد وثنية أو عادات وثنية . وكأن هؤلاء الأوربيين يسلون أنفسهم بذلك من قبيل ، اللهم اننا لا نسألك دفع القضاء ولكن نسألك اللطف فيه . فعداوتهم لمذهب بوذا ومذهب سينتو ودين براهما ، بل لعبادة الضم نفسه ، ليست بدرجة عداوتهم للاسلام ، الذى كله توحيد وتزويه . وأما قوله ان الزنجى لم يسلم الا لئال رفعة ، ولما كان يرى الأوربى أعلى من المسلم كان الأولى أن يتخذ دين الأوربى لنفسه . فنحن لا يسؤنا أن الاسود الفتيشى يصير نصرانيا كما يسؤ أكثر الأوربيين صيرورة الفتيشى مسلما ، لاننا نعلم أن النصرانية ترقى عقله وخلقه ، وترفع سويته الاجتماعية عما كان . ولكن الزنوج الفتيشيين بالرغم عن جماعات التبشير التي

لا تعد ولا تحصى وعن نفوذ أوروبا الذي يكتنفها سواء من الدول الكاثوليكية أو البروتستانتية ، وعن « كون الأوربي هو أعلى وأقوى من المسلم » في نظر الزنوج ، فلا يزال هؤلاء يرجحون الإسلام ، ونحو . ٤ مليوناً من هؤلاء دانوا به في القرن الماضي ، وفي هذه المدة ، بدون بعثات ، ولا جمعيات ، ولا دول تعضد الجمعيات . ولا ننكر ان كثيرين من هؤلاء الزنوج الفتيشيين تنصروا ، وقد أحسنوا بذلك صنعا ، لكن هؤلاء فئة قليلة في جانب الذين أسلموا كما يعترف بذلك سياح الأوربيين ، الذين جالوا في افريقية وكتبوا عنها ، وأنفس المبشرين والرهبان الملقين بالرهبان البيض وغيرهم ، ممن كتبناهم ملأت الدنيا بهذه القضية .

ثم قال : ان البلاد الضاربة في الشمال هي غير مساعدة على انتشار الإسلام فيها ، لأن طول النهار المفرط وقصره المفرط ، يحدتان خلا بمواقيت الصلاة ، فينترق الشك الى قلب المؤمن . الى غير ذلك من التهكم والرقاعة مما كنا نحب أن لا نجأوبه عليه لسخفه ، ولكن قلنا حيث اننا خفنا في هذا الموضوع فلنتناوله بأطرافه فنقول :

ان أحكام الصلاة والصوم جعلت لاغلبية البلاد التي فيها النهار نهار والليل ليل ، فلا يضر تلك الأحكام بعض أقسام من الكفرة هي من النادر الذي لا يعتد به . على ان الفقهاء قرروا انه في مثل هذه الاصقاع النادرة ، التي يطول فيها النهار هذا الطول المفرط أو يقصر هذا القصر المفرط ، يكون العمل في الصلاة والصوم مقبياً عليه في أقرب بلد من تلك الجهات ، وانحل بذلك الاشكال ، وليس في الإسلام حرج بل هو أوسع وأسمح مما يتخيله هؤلاء المقوم أو مما يريدون أن يخيلوه لأبناء جلدتهم . وان القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافية ولا قوسموغرافية ، بل كتاب توحيد وتزوية ، وتهذيب نفوس ، وتطهير أخلاق . ومع هذا فلم يرد فيه شيء يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات ينحار غير المؤمن بالوحى من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سواء في علم الفلك ، أو في علم تكوين الأرض مما كان في عهد نزول القرآن مجهولاً ، وذلك مثل آية « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، تأمل ما في هذه الآية من الانطباق على جميع النظريات العلمية الحديثة التي معناها ان الأرض والاجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فانفصل بعضها عن بعض ، وكذلك ان الحياة بدأت في

المياه . ثم تأمل هذه الآية « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » التي تثبت انه لا يوجد في الفلك جرم غير متحرك على الاطلاق مع أن الفلكيين في عصر القرآن كانوا يقولون بالسيارات والنوابت حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية الى التأويلات والاحتمالات البعيدة ، الى أن تقرر في علم الهيئة الجديد كون الاجرام الفلكية بأجمعها متحركة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل . وانظر الى قوله تعالى « من كل زوج بهيج » وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم الانسان ان الخلق كله من حيوان ونبات وجماد ، مبنى على الازدواج حتى النبات فيه ذلك ، والجماد فيه القوتان السلبية والايجابية مما لم يكن شئ منه معلوماً في زمن البعثة ، فلم يفهم العلماء بعد مرماه الى أن تكفلت به التحقيقات العصرية . وأمعن النظر في قوله « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمَاداً وَهِيَ تَمْرٌ مَرٌّ السَّحَابُ » مما هو المثل الملازم لكيفية دوران الأرض مع سكونها الظاهر وتدبر قوله « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَنَشْأَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ » الآية التي يشير فيها الى القوة الكهربائية وغير ذلك من الآيات التي تدعش الفارئ المتعلم ، بما فيها من الحقائق العلمية بشرط أن يكون ذا ملكة عربية ، يقدر بها أن يتدبر عمق غور تلك الآيات لا أن يكون أجنبياً عن أدب العربية . وقد ألف العلامة الفلكي العظيم ، المنقطع النظر في علم الفلك والطبيعة والتقويم المرحوم الغازي أحمد مختار باشا كتاباً في تطبيق الآي القرآنية على العلوم العصرية ، جمع فيه نحو تسعين آية كريمة ، وأوضح ما جمعت من القواعد العلمية بأوجز لفظ وأقصر تعبير يعجز عن مثله البشر ، كما أنه شرح هذه النظريات كلها حسبما اتفق عليه علماء العصر الحاضر ، وأخرج منها وجوه المطابقة طالعة كالشمس ، وبلغني أن أحد الضباط الأتراك ممن نبغ في علم الفلك والهيئة ، نبوغاً باهراً قد ألف كتاباً عنما جليلاً أجاد فيه الى الدرجة القصوى تطبيق قواعد هذا العلم على القرآن ، فعلمت بكتابه هذا بعض جمعيات التبشير المعهودة ، فأخذوا يراودونه في أن يببهم إياه بمن جزيل لأجل أن يحرقوه ، ويحرقوا من الارض كتاباً فنيا يستدل به على فضل القرآن المجيد ، وانظماؤه على العلم . وليس هذا ببعيد عن هذه الجمعيات المتهومة . ولولا كوننا تتجاف عن المناقشات الدينية ، ونكرها ونعتقد ضررها ، ولوجب حرمة الكتب السماوية التي تملك بها أديان محترمة كالدين المسيحي وشريعة موسى ، لأوردنا في مقابلة تهكم هذا الرجل بالقرآن أقوال العلماء المحققين من أبناء جلده الفرنسيين

في اطلال نظريات التوراة من جهة تكوين الارض وبدأ الخلق ولكننا نؤثر اجتناب كل قول يس عواطف هذه الملل الكريمة التي ترى أعظم خدمة للإنسانية ايجاد الوئام بينها وبين الاسلام ، ولكن ان أبي الامراء نجيله على كلام أكبر فلكي فرنساوي المسيو فلاماريون الشهير ، في خاطراته من صفحة ١٧٠ الى صفحة ١٧٨ حيث يذكر أنه كان مؤمنا معتقداً ناشئاً نشأة دينية ، وبنى كذلك الى الثامنة عشرة من عمره ، اذ بدأت تتحلبه الشكوك وذكر أسباب هذه الشكوك وأظهر أن أصلها هو عدم الانطباق بين الفن والدين ، وأنى هناك على قمة كوبرنيك ، ثم غاليله الفلكيين العظميين ، والحرم الذي صدر بحق الاول ثم الثاني . وان شاء التوسع في ذلك فليقرأ كتاب « اختلاف العلم والدين » للعلامة درابر الاميركاني وغيره مما لا شأن لنا فيه ، لاننا نحن هنا في مقام سياسي لا نحب أن نخرج عنه ولاننا نكره المناقضات الدينية ، ولسنا على رأى التهافت على الكتب السماوية بالانتقاد والتخطئة كلما وردت فيها عبارة تخالف قاعدة علمية أو حقيقة فلكية فمنا ننفدها ، فان هذه الكتب انما هي لغرض آخر أخروي ، ولا بد من أن ينظر فيها الى طاقة العوام في الفهم والآفات الغرض المقصود منها ، فضلا عما في آيات هاتيك الكتب المقدسة من الكنايات والمجازات المأثوقة في اللغات التي جادت بها ، فلا بد لغارتها من أن يلحظ هذا الامر .

ثم قال ان الاسلام لم يوجد ليمتد الا في صحارى آسية الواسعة التي تتجلى فيها عظمة الله ، ولا يصلح بين الأنهار والشجر الكبار التي تجدد الافق بينها ضيقا كما في بلاد خط الاستواء حيث تصعب معرفة القبلة . وأيم الله قد وصل هذا الكاتب من الرقاعة ، الى حد أن صار الانسان لا يتزل الى الجواب على كلامه أصلا ولقد ثبت أن الاسلام منتشر في خط الاستواء أكثر من كل مذهب آخر ، ولكن قد ظهرت نبتة من هذه المهاككات ، وهي أن يحمل الحكومة الفرنسية على عدم الاعتراف باسلام السود ، ومعاملتهم كزنوج فتيشين تتصرف الحكومة بهم كما تشاء في العقيدة كما أنه يوجد في جزيرة ماداغسكار قبائل كثيرة أسلمت بواسطة الطارئين على تلك الجزيرة من عرب زنجبار وجزر القمر ، فلم تشاء الحكومة الفرنسية السيطرة على الجزيرة أن تعرفهم بصفة مسلمين ، بل بقيت تعدهم وثنيين ولا تعتبر مسلمين الا المسلمين القرباء النازلين بالمواني ، وما المقصود من انكارها اسلامهم الا التعرض لهم في عقائدهم وردهم عن الاسلام قسرا .

ثم لاجل ترغيب الحكومات الاوربية في تنصير الزوج ومنع انتشار الاسلام قال ، ان اقلية ذات بال من النيجال صارت مسيحية ، وان اهالي الاوغانده صاروا كلهم نصارى ، فليس الاسلام هو الدين الطبيعي للسود كما يقال دائماً . ونحن نجاول به انهم ان كانوا نصارى ، فهو افضل جداً عند الاسلام من أن يبقوا فتيشين يعبدون الوثن أو النار أو مظهرها من مظاهر الطبيعة فان النصرانية تزلفهم من الانسانية وتبعث فيهم روح الفضيلة ، وتتناشهم من ذلك التوحش الذي كانوا فيه . وذلك بخلاف ما يمتنى كثير من الأوربيين ، الذين أعمى الغرض قلوبهم من أن يبقى الزوج على الفتيشية ولا يصيروا مسلمين ، مع أنهم في دخائل ضمائرهم يعلمون مزايا الاسلام العالية ورغبة أهالي افريقية فيه أكثر من غيره . أما قوله ان جميع أهالي الاوغانده صاروا نصارى ففقه مبالغة وهو مثل قوله ان بلاداً بأسرها مثل هرر صار أهلها نصارى . وهناك ما ورد عن الأوغانده في انسبيكو بيدية المسيو موريس فال Maurice Wale التاريخية الجغرافية ومؤلفها من غول عاماء فرنسا ، وهو مغشش المعارف العمومية في المستعمرات أي خير بأحوالها فهو يقول عن الأوغانده : « انها قطر في الشمال الغربي من بحيرة فيكتور يا نيازا ، مساحتها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع وأهلها منيون نسمة ، قد حصلت فيها قلاقل على أثر موت الملك متيزا بسبب المناظرات الدينية بين المسلمين والكاثوليك والبروتستانت ، وقد قلب البروتستانت على الآخرين بعض ضباط الانكليز لهم ، والاوغانده هي تحت حياية انكلترة » انتهى . قلنا ان الانكليز اقتطعوا الاوغانده من أصل السودان المصري استبداداً من عند أنفسهم وضموها الى مستعمراتهم ، ولم يرضوا أن يبقوها من جلة السودان المصري ، لأن السودان المصري هو بزعمهم تحت حكم مشترك بين انكلترة ومصر فالانكليز مضطرون أن يقبلوا ولو بالاسم بقاء حصة امصري في حكم السودان المصري ، لكنهم يريدون أن ينفردوا وحدهم بملك الأوغانده ، وقد عززوا البعثات البروتستانية هناك بكل قوتهم ، ولكنهم لم يقدروا أن يستأصلوا الاسلام من تلك الأرض . وأما عن هرر فيقول المسيو فال « انه قد افتتحها منليك نجاشي الحبشة سنة ١٨٨٧ ، وكانت من سنة ١٨٧٥ تابعة لمصر ، وان أهلها ٣٥ ألف نسمة مسلمون شيعة . أما في دائرة المعارف الاسلامية فيقول ان أهلها ٥٠ ألف نسمة ، منهم الثلث من أهل البلاد الأصليين ، والباقيون بين سوماليين وأحباش وهنود وسوربين وأرمن وروم وأوربيين . الى أن يقول ان

الاسلام دخل هرر منذ سنة ١٠٠٠ للمسيح ، فهو فيها قديم جداً ولا يزال يطرأ عليها أناس من جزيرة العرب ومصر ويثنون دعوة الاسلام من هرر في بلاد غاللا Gallia الوثنية ، وقد نقصت هذه الدعوة قليلاً بعد مجيء الحبش المسيحيين ، لكن مسلمي هرر لا يزالون معدودين من المتشددين في دينهم » وقد ذكر المسيو موريه Morie الفرنسي في كتابه تاريخ الحبشة المطبوع سنة ١٩٠٤ . أن الامبراطور منليك بعد أن فتح هرر وبدد جمع الأمير عبد الله على عبد الشكور ، هدم الجامع الأعظم في هرر وأقام محله كنيسة . ولم يقل ان أهل هرر تركوا الاسلام ، ولا أحد قال انهم تركوه .

ثم قال انه كان عمل المبشرين شاقاً في البلاد الاسلامية ، فهذا من أجل كونهم يحاولون وضع عقيدة أمم رافية جداً محل عقائد أقوام هم في أدنى المراتك . فنحن نمسك القلم عن الرد على هذه الفقرة التي لا ندل على شيء سوى قحة كاتبها على حين أن الاسلام يهزأ بهذه المطاعن على أن لا يورث يجعل نصرانية القرون الأولى (١) أيضاً من قبيل الاسلام في ملاءمته لأستوى العقل المنخفض ، فليتأمل الانسان وليتدبر في قحة هؤلاء الناس حتى على الدين الذي ينتمون اليه ، ويريدون بث دعوته بزعمهم .

وبعد أن أشار بالتضييق على التعليم الاسلامي ، ومراقبة من يواظب على صلاته من مسلمي السنغال ، وبين مزار الحج ، وحرص على جميع هذه التدابير ، التي يعلم منها مبلغ احترام هؤلاء القوم للحرية الدينية ، عاد فأشار بالطرق الآتية الى قلع اللغة العربية من شمالي افريقية ، وجعل الفرنسية لغة الأهالي .

ومن الغريب أنه استشهد على وجوب هذه الطريقة ، بكلام بول برت الذي يقول : ان حل المسألة العربية هو بالكتائب ، وأتمنى أن أرى في كل قرية من قرى المغرب معلماً عربياً ومعلماً فرنسواً ، فكلام بول برت كلام رجل عاقل مجرب لا غبار عليه ، وليس منا من يكره أن يتعلم مسلمو المغرب و افريقية اللغة الفرنسية ، بل نود ذلك من صميم أفئدتنا . وإنما الذي يعارضه المسلمون بكل قوتهم هو أن تحمل اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ، وتصير هي لغتهم القومية ، اذ لا يوجد في الدنيا قوم يرضون بسلب لغتهم مهما كانت ، فاظنك بالناطقين بالعربية التي يفتخر بها كل منسوب اليها ، ويجل قدرها

(١) أي النصرانية التي هي قرية العهد من البد المسيح والحواريين

حتى الغرباء عنها . وأما استشهادها بانتشار اللغة الفرنسية في الشرق وزعمه أنه قد تعلمها الأكراد والترك والعرب والأرمن والكرج الخ ، فمع كونه بالغ في دعواه هذه مبالغة عظيمة إذ ليس الامر كما يقول ، وان تعلم الفرنسية منحصر في الطبقة الراقية فقط ، فانه لا ينطبق على الغرض الذي يتوخاه ، لأن مقصود هذه الفئة المستعمرة أن تمحو اللغة العربية تدريجاً من المغرب ، وتحمل الناشئة الاسلامية منذ الصغر على اللغة الفرنسية توسلاً بذلك الى محو الاسلام ، القائم هناك باللغة العربية . مع ان الأمم الشرقية التي يذكر أنها كلها تعلمت اللغة الفرنسية لم تجعل هذه اللغة لسانها القومي ، بل جعلتها في مقدمة اللغات الأجنبية التي يناسب تعلمها لاغير ، فلذلك لم يحدث من تعلم الفرنسي أدنى محذور ما دام تعلمها اختيارياً لا يضر باللغات القومية ، بل يزيدنا علماء . ولكن متى حاولت فرنسا عمداً وقصداً قلع اللغة العربية رأساً أو تدريجاً ، وقصر المغاربة على الفرنسية ، قامت عليها القيامة في جميع تلك الأقطار وفي غيرها ، وأظن أن العقلاء في فرنسا يدركون استحالة ذلك .

ولقد تقدم في هذه العجالة ما يكفيننا مؤونة الرد على سائر كلامه ، الذي تجده كثيراً ما ينقض بعضه بعضاً ، ومن جملة تناقضاته أنه بعد كل جلالة الشديدة على الاسلام يقول انهم لا يحذرون في تونس من عامة الأهالي الراعين في السعادة والامان^(١) ولا يحذرون من الاسلام نفسه ، الذي أعلى نفوس هذه الأقسام ، حتى تحملت ما تحمته من الخسائر الفادحة . فعرف هنا أن الاسلام يعلى النفوس ، وينهض بالهمم . قال ولكنهم يحذرون من تلك الطبقة المتعلمة الذين قرأوا أشياء فاسادت هضمها عقولهم . ولعمري ما من أمة في الارض قام بتحريرها الا نبهاؤها والطبقة المتعلمة منها فاماذا اذا قام الأروام أو البلغار أو الصرب أو الأرمن أو الكرج الخ ، بطلب استقلالهم كانت الطبقة الناهضة منهم محل اعجاب اوربا وثنائها ، وعظفت جميع تلك الدول المتمدنة عليها ، فاذا جاء الدور الى أمة مسخرة تطلب تحريرها ، قامت أوربا سداً في وجه مطالبها ولو كانت هي اليوم أرقى من هاتيك الأمم عند ما نهضت للاستقلال ؟ لماذا كل ما هب قوم من الشرقيين والمسلمين لطرح نير

(١) كما هم راضون أهل سورية الآن بل أهل سورية لا يزالون أسعد حالاً لأن اليد لما تمتد الى غصب

العبودية عن أعناقهم رموا بالتعصب والتعنت ، وكرهية الأوربيين ، وقيل ان ذلك هو من عمل القرآن في قلوبهم ، ومن تحريض رجال الدين . وان كان المطالبون منهم هم من الفئة التي طلبت العلم في اوربا ، وانصفت بعدم الدين ، قيل انهم طبقة قد قرأت أشياء لم تحسن هضمها ، هذه الجملة التي لا تزال نجدتها في كلامهم بكثرة وأصيلا ، كما تكلموا عن أمة اسلامية أو شرقية يطالب نهاؤها بتحريرها قالوا عنهم هذه الجملة : قرأوا أشياء أساءوا هضمها .

اجال الكلام أنهم غلبوا على هذه المستعمرات واستعبدوا هذه الأمم ، فيريدون أن يحتاطوا لأجل تأييد سلطانهم عليها بجميع الوسائل ، ولا يقفون عن شيء في سبيل احكام سلاسل هذه العبودية ، فانين أنهم يحفظونها راسفة في هذه الأصفاد الى الأبد ، فتراهم يفكرون في تهيئة الأسباب لاستئصال كل ما يخشون وقوفه في وجه ما ربهم السيئة ، من دين ، ولسان ، وقومية ووطنية وما هم بقادرين على شيء من هذه المكابدة الشيطانية ، التي لا يزيدهم استعمالها الا خبالا . وان كان ثمة أمل بحسن العلاقات وتمكن الألفة بينهم وبين تلك الأمم ، فلا يكون الا بسياسة العدل والمساواة ، واحترام ديانتهم ولغتهم ، والعدول عن تلك الأساليب الاستعمارية الخبيثة مما هو برنامج أحزاب الشمال منهم .

وان كان ظن هؤلاء الجماعة أن تنصير السودانين أو المغاربة ، يؤمنهم أديبا على تلك المستعمرات ، ويكفيهم شر استقلالها مما صرح به بقوله : « لسنا في الجزائر كالانكليز بمصر اذ هم يعتمدون فيها على أقلية قبطية » . فهذا وهم عريق في البطلان ، لأن هؤلاء الأمم سواء كانت مسلمة أو نصرانية ستطلب استقلالها وتأخذ وأنت ترى أن أهما كثيرة نارت على أمم كانت تسودها ، ولم يمنع من ذلك اشتراك السائد والمسود في الدين ، ولديك امبراطورية النمسا أعظم شاهد ، وان قيل ان ذلك يكون في أوربا المتمددة لاق أفريقية أينما لك بمثل الحبشة مع انكلترا ، ثم مع ايطالية ، أفتحملت الحبشة حكم الطالبان لسكونهم نصارى وكونها هي نصرانية ؟ كلا . ثم يقول لسنا كالانكليز الذين يتوكلون بمصر على أقلية قبطية . فهذه لعمرى مكابرة في المحسوس ، اذ يكاد أن يكون الأقباط بمصر أشد تسكنا باستقلال مصر وجلاء الانكليز عنها من أنفس المسلمين ، فأى توكلؤ توكانه انكلترا عليهم ؟ وأعجب من هذا أن الزنوج الذين تنصروا في غربى افريقية يكرهون الأوربيين

كما يكرههم الزنوج المسلمون وتجد الفريقين متحايين يود بعضهم نجاح بعض ، وقد تلاقى بعض المسلمين مع بعض كبار السودانيين النصارى في لندن ممن هم حكام في بلادهم تحت سيطرة الأوربيين ، فوجدهم يتمنون فوز المسلمين كما يتمنون فوز أنفسهم . وفي العام الماضي تقابلنا في جنيف باثنين من رجال جمهورية ليبيريا في غينية^(١) وكانا من الأوربيين يمثلان ليبيريا في جمعية الأمم ، فأخبرانا ان هذه الجمهورية التي تأسست سنة ١٨٢٢ للعبيد الذين تحرروا في أميركا ، واعترفت الدول باستقلالها سنة ١٨٤٧ ، يسكنها اليوم مليون ونصف مليون نسمة ، منهم مليون ومائتا ألف مسلم ، وثلاثمائة ألف مسيحي وبنينهم ٥٠٠ أوربي فقط . والمسلمون والمسيحيون هناك يعيشون كالأخوة ، ويغارون جميعاً على وطنهم . فهذا سيكون مصير افريقية في يوم من الأيام بازاء المستعمرين ، ولا ينفع الأهالي كون أهل افريقية من هذا الدين أو ذلك الدين .

ولنأت بشاهد آخر على نيات الفرنسيين بحق مسلمي مستعمراتهم ، وهو كتاب لـ J. Brévié يرفيه إلى بلاد النيجر الفرنسي ، الذي عليه صفة رسمية ولا يمكن أحداً أن يمارى بقوله انه كاتب منفرد برأيه الخاص ولا انه خال من الصبغة الحكومية ، فانظر ماذا تقول جريدة الاوفر L'oeuvre ، المعروفة انها من الجرائد الحرة ومن حزب الراديكال في عددها المؤرخ في ٢٢ يونيو سنة ١٩٢٣ . تحت عنوان :

الجنس الأسود والاسلامية

قد نشر السيور بريفيه حاكم مقاطعة النيجر كتاباً ممتعاً ، يشرح فيه المقاومة الناجحة التي تبديها الأمم السوداء للاسلام في السنين الأخيرة ، حال كونه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، غلب الاعتقاد بأن جميع الأجناس الزنجية صائرة الى الاسلام لاجلته ، فالآن مشهودة حركة بالعكس ، وبالرغم من الوعظ والارشاد اللذين يقوم بهما المبشرون المسلمون تجد الزنوج متمسكين بعقائد آباؤهم وعادات أسلافهم .

فالسيور بريفيه في كتابه المسمى « الاسلامية ضد الطبيعية . في السودان الفرنسي » Islamisme contre Naturalisme au Soudan Français يعترف أنه مهما كان من مدنى الفتيشيين في درجات الحضارة فليس من المستحيل عليهم الترقى والتمدن ضمن دائرة

قوميتهم وغاربا عن الاسلام . ففي السنين الأوائل من استيلاء فرنسا على غربي افريقية كان عمالنا بسبب معرفتهم المدنية الاسلامية يميلون الى دعاة الاسلام الذين أمكنهم هكذا ان يشوا بكل أمان تعاليم هي في الظاهر أرقى من عقائد القيثيين (نأمل) أما الآن فتقهقر الدعوة الاسلامية ، أمر لم يبق فيه شك . وان احصاء عدد الناشئة المتعلقة من المسلمين يتناقص في بلاد النيجر ، كما انه لم يتقدم الى الأمام في سائر البلدان التي امتد اليها الاسلام من قبل . وقد عزا المسيو بريفيه هذا التقهقر الاسلامي الى تناقص عدد الزعماء ، وإلى تزايد عدد مدارسنا التي زاجت مدارس المشايخ المرابطين ، وإلى الغاء تجارة الرقيق التي هي من الأركان الاقتصادية عند تجار المسلمين ، وإلى الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع .

فالآن سياستنا عاملة بهذه المبادئ ، وقد توزع بلاغ على مأموري الادارة مصرح فيه بما يأتي : « يجب التزام الحياد مع الانتباه التام بحيث ان كلا من فريق الاسلام والقيثية يمكنه أن يترقى وينمو في وسطه بدون تسلط هذا على عقيدة هذا . »

وقد وجد الأنسب حفظ تلك الهيئة الاجتماعية ، التي كان لها في الماضي زعماء تمثل عاداتها ، والتي هي الصورة الحقيقية لمزج ذلك العرق الأسود وابقاء تشكيلاتها البلدية المبنية على مبدأ المشيخة ، والعمل بأحكام قضاتها ، الذين كان يضرب بعضهم المثل حتى يقال في الحكم الذي قد استوفى شروطه : « هذا حكم من أحكام البامبارة القديمة . »

والحقيقة أن الغرض هو احياء عادات الزوج القديمة وتقاليدهم الموروثة التي نشأوا عليها ويقول المسيو بريفيه : « انه يوجد من ذلك قواعد قضائية كافية لأجل حل المشكلات الاجتماعية وفصل الخصومات الفردية ، وهي من وجوه كثيرة لانقل متانة عن الشرع الاسلامي . وانه يجب علينا أن نجتمع تلك الهيئة الاجتماعية ، التي توشك أن تنحل ، والتي هي متفرقة أشتاتا حول تلك الأصول القديمة . انتهى . »

فليسمح لنا القارئ أن نأخذ من هذا الكلام النتائج الآتية :

أولا - ان كتاب حاكم مقاطعة النيجر الفرناوى ، والمنشور الرسمي الذي أشار بصدوره الى مأموري الادارة يدلان دلالة واضحة على كون فرنسا قد بدأت تقاوم انتشار الاسلام بنفوذ الحكومة ، وان عبارة وجوب الحياد مع الانتباه لمنع تسلط عقيدة أمة على أخرى ، هو من قبيل التمويه ، فانه ولا في وقت من الأوقات تسلط الاسلام بالقوة في المستعمرات

الفرنسية على عقائد الفتيشين ، كما أنه ولا في وقت من الأوقات روج عمال الحكومة الفرنسية في المستعمرات الدعوة الإسلامية ، بل غاية ما هناك ان عمال الادارة الفرنسية لم يكونوا يناصرون الدعوة الاسلامية العداء ظاهراً ولم يجتهدوا في منع انتشارها كما هم يجتهدون اليوم ، وذلك كان منهم عملاً بمبدأ الحرية الدينية المشهور ، فالآن لما هالهم تقدم الاسلام بين الزوج قررروا توقيف نموه فعلاً ، بحجة أنهم لا يسمحون بتسلطه على عقائد الفتيشين . وتحت هذه الجملة « منع تسلط عقيدة على أخرى » ، يعملون ما يشاءون لمنع المشايخ المرابطين من بث دعوة الاسلام بين السودانيين ، واقفال المدارس التي يمكن أن يفتحها المسلمون في قرى الوثنيين ، وغير ذلك من التدابير التي ليس على الفرنسيين فيها من رقيب ولا حسيب هناك ، ولا ينتظر القارىء أن يجدها مكتوبة على الورق وان كانت جارية بالعمل . ولا شك ان اغتباط حاكم النيجر بعدم تقدم الاسلام ، في هذه السنوات الأخيرة فيما بين الزوج ، وتفاؤله بحسن المستقبل ، هما من آثار التدابير الحكومية التي اتخذتها فرنسا لمنع انتشار الاسلام ، والتي يشير بها روجر لابون وأمثاله ، لوقف الدعوة الاسلامية في غربي افريقية وأواسطها . وانفد ظهر هنا اننا كنا على صواب في قولنا ان آراء روجر لابون لم تكن آراء فرد مستقل بفكره ، بل هي آراء الحزب الأغلب بفرنسا بدليل كتاب المسيو بر يفيه هذا ، والأوامر الرسمية الصادرة في هذا المعنى .

ثانياً - يظهر جيداً من قول الحاكم المذكور ، وكلام جريدة الاوفر ، أن الفرنسيين عولوا على احياء عادات الفتيشين وعقائدهم ، واجراء الأحكام بموجبها ، ومعلوم انه لم يكن ذلك اعجاباً بها ولا اعتقاداً بأنها تشبه الشريعة الاسلامية في شيء ، بل من باب اختيار أهون الشرين عليهم ، فانهم لما رأوا دعوة التبشير الأوربي غير ناجحة بين الزوج كما يرومون ، وانه لانسبة بين ما يكتسبه الاسلام وما تكتسبه النصرانية في افريقية ، بسبب كون الأسود يكره الأوربي فطرة وينفر من تقليده في دينه ، عادوا فرأوا ان بقاء الفتيشين على عقائدهم الوثنية هو أوفق لصلحة فرنسا من تدينهم بالاسلام ، فوجدوا الاحزم أن يعملوا لتأييد الفتيشية ، ويجعلوا عاداتها وعرفها قوانين جارية معمولاً بها ، ويعترفوا بافضية الفتيشين ، وبالجملة فكل شيء يهون عند الأوربي - الا النادر الأندر - بالنسبة الى فوز الاسلام ونجاح دعوته .

ثالثا - من كلام المسيو بريفيه يتبين أنهم بدأوا بقصر القضاء الشرعي الاسلامي ، لقوله ان من جملة أسباب تناقص النشء الاسلامي ، هو « الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع » فانت ترى مافي ذلك من الاخلال بمبدأ الحرية الدينية ، ومن معارضة المسلمين رأسا بأمور دينهم ، على حين ان الفرنسيين في الوقت نفسه يريدون احياء أفضية الوثنيين ، ويجعلون اصطلاحاتهم القديمة قوانين وأصولا يرجع اليها في الأحكام . ولا يبعد أن يكونوا قد اجبروا أنفس المسلمين على مراجعة قضاة الوثنيين توهينا لتنفيذ الشريعة الاسلامية ، الذي هو هدفهم المرمي المتجلى وراء كل حركة من حركاتهم وتدابيرهم . وان لم يكونوا اجبروا جميع المسلمين على ذلك ، فلا بد أن يكونوا ساقوا الى ذلك الزوج ، الذين أسلموا حديثا ، لأنه ظهر ان الحكومة الفرنسية عوات على ان لا تعترف باسلام من يريد أن يدخل في الاسلام من الآن فصاعداً من الأمم السوداء ، وقد أسلمت قبائل كثيرة في ماداغسكار ، فلم ترض السلطة الفرنسية في تلك الجزيرة أن تخصيها في المسلمين ، ولا أن تعتدها مسلمة بوجه من الوجوه ، واحتجت لعملها هذا المخالف لكل حرية دينية ، بأن اسلام تلك القبائل هو خليط بعقائد وثنية . وربما يكونون اجبروا على التفاضي عند قضاة القبائل الوثنية من كان قد أسلم من هاتيك القبائل بحجة أنهم كلهم من أصل واحد ، فأمة « البامباره » هذه المنتشرة في السودان الفرنسي ليست بأجمعها وثنية ، بل منها قسم كبير لاسيما أهل كارنا Kaarta مسامون . والا فامعنى قول المسيو بريفيه ان من جملة أسباب تناقص الناشئة الاسلامية ، الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع الاسلامي ؟

رابعا - قد نوه المسيو بريفيه حاكم النيجر وتابعته جريدة الاوفر بحسن قضاء البامباره ، ومثانة أصولهم وأوضاعهم ، وظهر أن الفرنسيين يريدون أن يجعلوها دساتير للاحكام وصرح الحاكم المذكور انها لاتقل عن الشرع الاسلامي مثانة ، وغير ذلك من المزاعم التي حلهم عليها مجرد رغبتهم في منع العمل بالشريعة الاسلامية . والحقيقة انه ليس عند البامبارة شيء من هذا ، فالبامبارة جيل من السودان الفرنسي يحد بلادهم شمالا السودان الذي يسكنه المغاربة من كولدوغو Kuladugu الى تامباكاره Tambakara وجنوبا السنغال الأعلى من مدين Medine الى بافولابه Bafoulabe أي بين ١٢ الى ١٤ من العرض الشمالي و ٦ الى ١٠ من الطول الغربي (من باريز) وهم أهم أجيال الجنس

الماندى . وقد وصفهم السياح الأوربيون بالعمل والحرص ، والاقتصاد ، أما عاداتهم وأوضاعهم ففطرية ، اذ الأب هو رئيس العترة والمتصرف بها كما يريد ، والاولاد الى سن الرشد ارقاء له ، وهو زوج بنته بدون علمها كما أن البنت متى تزوجت صارت أمة لبعليها ، والطلاق عندهم مباح ، كذلك تعدد الزوجات ، والارث ينتقل من الاخ الى الاخ . وكانوا ينقسمون الى طبقات ثلاث ، الاشراف وهم المحاربون ويقال لهم تونينغى ومعنى تونينغى قوأس ، ثم الفلاحون ، ثم العبيد ، أما الآن فبرأسهم الاسر الملوكية القديمة مثل بنى « كاروبالى » و « دياره » و « ماساسى » ويأتى بعدهم طبقة يقال لها « نومو » أى الحدادون ، ثم طبقة يقال لها « غارانغوى » أى صناع الجلد ، ثم طبقة السحرة ، ثم الارقاء . وكل قرية من قراهم ، لها زعيم يفصل فيها الخصومات بموجب أصول يتوارثها الخلف عن السلف . وهذه القرى المرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً واهياً لاتشند أوأخيه فيما بين البامبارة الا عند قتال عدو عام ، كما حصل في حروبهم مع الاسلام . وللبامبارة لغة اسمها « الباماناكا » هي من جملة لغات امة الماندى ، وهي في منتهى الاختصار ، فليس من حالات للاسما ولا للأفعال ، بل هي تلزم حالا واحدة في المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والحاضر والماضى والمستقبل . والكتابة عندهم قليلة وإنما يستعملون لها الحروف العربية ، وليس لغتهم آداب ، وإنما هي أخبار وقصص لانتهى الى أبعد من القرنين الاخيرين ، وبعض أغاني رقصون عليها . وأما ديانتهم فهي وثنية محضة ، وكل عائلة عندهم لها حيوان معبود اسمه ته Tenné لايقدر ان يقتلوه ، ولا أن يأكلوه ، ولأن ينظروا اليه اجلالاً له . ويعتقدون ان الاسلاف ، هم حافظون للاخلاق ، لذلك يدفنون موتاهم في دهاليز بيوتهم ، ويضعون اشارات على مدافنهم كصور وجوه أو أيد ، ويقدمون عليها القرابين ، ومن قبل كانوا يذبحون الاسرى . وكثيراً ما يصبون أشجاراً يذبحون أمامها الحيوانات قربانا ، من غنم وكلاب وديكة ، وربما قدموا لها الفواكه والحبوب . وهم يسبحون مثل هينجى الاشجار المقدسة بالعليق . وأما السحرة ، فهم عندهم بمثابة الكهنة يخرجون من طبقة الحدادين . ولهم جمعيات سرية ، ويتكهنون بالمغيبات ويفحصون احشاء الحيوانات التي تقرب بذبحها ، ويطوفون في الليالى بين القرى مرتدين البسة مخيفة يقصدون بها لقاء الرجيب . وليس للبامبارة تاريخ معروف سوى انهم كانوا من جملة الاجيال

التابعة لسلطنة مالي الإسلامية ، فلما سقطت هذه السلطنة أصبحوا مستقلين بأنفسهم ، وأسس أحد زعمائهم المسمى « كلالديان كور وباري » على البلاد الواقعة على ضفتي النيجر مملكة واسعة ، وقام من بعده أولاده فتنازعوا فيما بينهم حتى آل الملك إلى أحد أحفاده المسمى « يتو » ، فجمع تحت حكمه جميع بلاد البامبارة وملك مدة ٣٠ سنة ، وخلفه ابنه فوسع ملكه ، ثم جاء ملك اسمه « نغولو » فبسط ملكه حتى حدود تمبكتو . وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر كان منهم ملوك أعزة في « سيغو » و « مانسونغ » و « دودياره » تغلبوا على بومبارية « كآرنا » وضربوا الجزية على أهل « ماسينا » و « فونا » (١٨٣٠) وكان لهم إمارة أخرى في « الكا آرنا » أسسها في أواسط القرن السابع عشر « سا كابا » ابن كلالديان كار وباري ، ثم انتقل الملك من أعقابه إلى إمارة أخرى صاحبها « سيه ماسا » استمرت في أعقابه إلى أواسط القرن التاسع عشر في « نيورو » هذا هو ملخص تاريخ البامبارة .

وفي أواسط القرن التاسع عشر ، ظهر الحاج عمر الشهير ملك « التيكولور » فاستولى على الكا آرنا وأزال ملكها ، وزحف إلى مملكة سيغو ، وكان ملكها قد تحالف مع ملك ما سينا لصد الإسلام ، فسقط كلاهما ودخل الحاج عمر إلى سيغو في ١٠ مارس سنة ١٨٩١ وأقام بكر أولاده ملكا عليها . ولكن البومبارة انتفضوا عدة مرات على المسلمين ، وقام منهم قوم « البليديغو » بالاستقلال ، وقطعوا ما بين سلطنة التيكولور ومملكة سيغو ، ودام ذلك النزاع إلى سنة ١٨٩١ ، إذا وصلت الجيوش الفرنسية واحتلت البلاد وأزالت سلطنة التيكولور الإسلامية . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية ، أن البومبارة يمثلون في السودان الفرنسي ، العنصر المحاصم للإسلام . وقد أيد هذا القول كلام حاكم النيجر في كتابه السابق الذكر ، وسياسة الحكومة الفرنسية التي يظهر أنها تريد لتحيي العدواة التي كانت عند هذه الأمة للإسلام . وتجعل البامبارة سداً في وجه المسلمين . فأما الأصول والعادة التي أشار المسيو بريفييه إلى متانتها من تقاليد البومبارة ، فقد مر بك من مجملها ما تعلم به انحطاطها وانحطاط عقائد أولئك القوم ، الذين يعبدون الحيوان والشجر وما أشبه ذلك ، ولا يجبل المسيو بريفييه من أن يقول : « انها لا تغل عن الإسلام متانة وان تعاليم الإسلام هي - في الظاهر - أرقى من تعاليم الفتيشين » . ومتى كان الوالي من

ولاية الفرنسيين على تلك الديار ، يبلغ به التعصب وموت الضمير حد أن يقول مثل هذا القول ، فإذا تأمل من عدله وانصافه بين هاتيك الرعية ...

خامساً - نحقق هنا بالرغم من تمويه الأمر الرسمي الذي يوصى بالمساواة ، أن فرنسا تحاول هناك بنفوذها وقوتها ، وكل وسيلة لديها ، أن تمنع انتشار الدعوة الاسلامية ، وتفضل ، أن يبقى الزوج على عبادة الحجز والشجر والكلب والهر وغير ذلك ، على أن يديسوا بهذه الديانة السامية النقية ، التي هي الاسلام . وهذا لعمري منتهى الغلو في العدوان ، اذ لا يشك أحد في كون المسلمين يريدون ان كان هؤلاء الزوج لم يشرح الله صدرهم للاسلام ، أن يدين هؤلاء بالنصرانية ، ويردوا شرعة تهذيبها ، ولا يستمروا على تلك العقائد التي لا تليق بالانسانية . ولقد تذكرنا بهذه القضية قصة رواها المؤرخون ، ونقلها المستشرق الفرنسي اوى العلامة البارون « كارادوفو » Kara de Vaux في كتابه « ابن سينا » وهو أن الخليفة المأمون العباسي بينما كان مرة غازيا بلاد الروم ، مر ببلدة حران ، فالتقاء أناس بزى غريب وأتواب ضيقة رخون ذوائبهم فسأهم : من أنتم ؟ فقالوا : حرانيون . فقال ، أنتم نصارى ؟ قالوا ، لا . قال أفيهود أنتم ؟ قالوا لا . قال أفعندكم كتاب الهى أو لكم رسول ؟ قالوا لا . قال لهم ، ان كنتم لا ترغبون فى الاسلام ، فتصروا ، أو تهودوا ، واتخذوا ديناً يعرفه الاسلام . فأنت ترى أن المسلمين لا يضيق صدرهم بنصرانية الوثنيين ، ولكن الأوربيين يفضلون كل انحطاط فتيشى على كل معالى الاسلام ، وهم مع هذا يدعون خدمة الانسانية والمدنية .

وتحتم هذا المقال بكلام قاله الحاج عبد الله الجزائرى نزيل برلين ، فى مقالة نشرها فى مجلة العالم الاسلامى الألمانية^(١) وذلك على « الآباء البيض » الذين أسس رهبانيتهم انكرديال لا فيجرى ، وأرسلهم يطوفون فى بلاد الاسلام بأفريقية بزى المسلمين ، ويدخلون فى كل ناد ويتحككون بكل عائلة ، ويتوسلون بكل وسيلة لاجل بث دعوتهم بين الناشئة الاسلامية ، متسلحين لذلك بنفوذ الحكومة الفرنسية ، التي هى عضدهم أينما ذهبوا وكيفما انقلبوا . فبعد أن أفاض الحاج عبد الله الموما اليه ، وهو من خيرة رجال العلم والادب ، والمتمكنين من اللغة الفرنسية فى ذكر القتن التي أحدثها هؤلاء الآباء البيض

(١) التي كان يصدورها أثناء الحرب الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش والاستاذ عبد الملك بك حمزة

في وسط الأسر الإسلامية بالمغرب ، والعقائد التي تخلخلت على أيديهم ، والبشوق التي انفتحت بواسطتهم ، وكيف أن الحكومة الفرنسية - التي يقولون انها لا تقوم بدعوة دينية - كانت تميز المنتصرين على غيرهم ، وتعفيهم أحياناً من العقوبات ، وتستنيهم مما لا تستثنى منه غيرهم ترغيباً لهم ، في أن يصبأوا عن دينهم قال ما يأتي : « نحن لا نريد أصلاً بهذا أن نوجه أذنى طعن على الدين الكاثوليكي ، ونحن نعلم أن جميع الأديان جيدة ، وأن كلامها يدعو المتسكين الى الفضيلة وحسن التربية ، ولا نفترض فيما لو كان المسلم يصبأ عن دينه باقتناع وجدانه ، وانما دعوة الآباء البيض لها شكل آخر ، فانهم يهجمون على الاسلام في كل مكان ويحولون بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، ويخربون نظام العائلات فيضطر الأب أن ينكر ولده ، والأخ أن يهجر أخاه ، والعشيرة أن تبرا من بعض أبنائها . وغالباً يخرج مثل هؤلاء الذين اجتذبهم الآباء البيض مفسدين لا هم من الجياد لا في الاسلام ولا في النصرانية . »

ونحن نرى أن ارتداء العنان للآباء البيض في بث الدعوة الدينية بين مسلمي افريقية ، وتحرش فرنسا بهذه المسائل ولو من تحت ستار مما يضرها في سياستها ، ويجر عليها من المناعب أضعاف ما تتوخى ربحه ، فانه لا يهيج الاحقاد ولا يورث الضغائن شيء ، مثل المنازعات الدينية ، التي لا يفلح قوم جعلوها قطب رحى سياستهم .

الاسلام في افريقية^(١)

بشكيب

من أعظم الكتب المؤلفة في هذا الموضوع كتاب
« الاسلام والنصرانية في افريقية » تاليف المسيو بونه موري
L'Islamisme et le Christianisme en Afrique G. Bonet Maury

وقد نقل عنه المستر ستودارد بعض أشياء ، ونحن نلخص منه ما يأتي ، لأنه جمع
فاودي في تاريخ مسابقة الاسلام والنصرانية في القارة الافريقية . قال :

« ان الاسلام انبسط على افريقية الشمالية الغربية ، فتحوط هذه الاقطار دار
اسلام رغبة أو كرهاً ، ولكنه افتتح افريقية الشرقية سلباً . وكان مبدأ ذلك بواسطة تجار
العرب والهنود الذين كانوا يقدون على تلك الديار زرافات ، فوصلوا الى رأس Guardafui
والى جنوبي Capricorne . ولقد وجد منذ القرن الألف بعد المسيح مسلمون في كيوان ،
على أكثر من ٢٠ من العرض الجنوبي أدنى من زامبازة Zambéze » الى أن يقول :
« في أواخر القرن الحادي عشر (للمسيح) طمست أكثر الكنائس الارثوذكسية التي
كانت ممتدة على ساحل افريقية الشرقية ، ومن مصر الى المغرب الابعض جماعات لبثت
أشب بجزر صغيرة مجهولة ، في وسط الاقيايوس الاسلامي . ولكن هناك كنيسة بقيت قائمة
على صخرة المتانة معتصمة بجباها ، وهي الكنيسة الحبشية التي بمركزها وشجاعة أبنائها
الجبليين ، صدت جميع غارات الاسلام . وقد كان هؤلاء الأحباش من أتباع الكنيسة
المنشقة ، لا يعرفهم الكاثوليك الرومانيون ، ولا الارثوذكس البيزنطيون » .

ثم قال : « بعد أن وطد دعاة الاسلام دعائم هذا الدين في جميع سواحل افريقية
الشمالية ، قصدوا داخل البلاد ضارين الى الصحراء التي يسكنها البربر ، وفاقوا في ذلك
أساقفة افريقية اللاتينية الذين في أوج عزهم وسلطانهم لم يفكروا في نشر الدين المسيحي
في تلك الجهات . فزوج السودان تلقوا القرآن من جهتين احدها البربر المسلمون ،
والثانية قوافل العرب ، التي كانت تخترق فزان والوحدات الى تمبكتو . فسلطين دولة المرابطين

(١) راجع صفحة ٣٠١ و ٣٠٢ من الجزء الاول

وكانوا متحمسين جداً في الإسلام ، خرجوا من مراکش قاصدين أواسط افريقية لحل أهالي بلاد غانة ومالي على الإسلام ، فظهر أبو بكر بن عمر من أعوان الملك سني على ، وهو بربري الأصل ، وشيد مملكة السونغاى في غانة سنة ١٠٨٧ ميلادية وهؤلاء السونغاى هم من الجنس النوبى ، رحلوا من مصر العليا عند الفتح العربى ، وكانت لهم دولة لم تبدأ بالانحطاط الا في زمن فتح المنصور (السعدى) سلطان مراکش للسودان .

فدرواق سلطانه الى أبعد من زاوية النيجر ، وجميع البلاد المعروفة الآن بساحل الذهب ، والمداهومى ، وبلاد نيجريا ، الى بحيرة تشاد . وقد كانت هذه السلطنة تنقسم الى أربع ممالك ، وكانت قاعدتها جنة Djenné التي كنت ترى فيها التجار والعلماء من المغرب الأقصى والجزائر ومصر ، وكانت سفائن هذا السلطان تسرى في النيجر ، وقوافل الصحراء تحمل البضائع الى أطراف هذه السلطنة ، فنقل الذهب والعاج والنحاس والمسك ، ودين محمد . وابتد المرابطون في القرى ، يعلمون القرآن والكتابة بالعربية . وكان أبناء المشايخ يأتون الى تمبكتو لتحصيل العلم ، فلم تكن تمبكتو سوقاً لتجارة أواسط افريقية فقط ، بل كانت دار علم انتشر ذكرها حتى سواحل البحر المتوسط . ولما مات أبو بكر بن عمر في سنة ١١٢٠ ، كانت بلاد النيجر أو نيجرينيا الى حدود الكونغو اسلامية .

هنا ما كان من جهة البربر وأما العرب ، فإن احدى فصائل بني هلال تقدمت من ارواحى طرابلس الى واحة « ودان » ومن هناك الى « والانه » ثم تقدمت نحو السودان ، فتلاقت مع البربر الآتين من الشمال الغربى واختلطت بهم ، وصارت تمبكتو التي اختطها الطوارق في سنة ١٠٧٧ ، مركزاً للدعوة الاسلامية تنبث منها الى كل الجهات .

وفي الجنوب الغربى وصل الاسلام الى البامباره bambarras والمادينغ Madinges والبله Peulls ، الذين في القرن التاسع عشر صاروا أشد حاته وأجهد دعائه ، في بلاد النيجر والسنغال الأعلى . وكان في بلاد المادينغ المسماة بلاد الملى Melle قد أسلم الزعماء والأشراف والتجار منذ القرن الثانى عشر ، وبقى العامة قتيشين . ووصل الاسلام في الجنوب الشرقى الى بحيرة تشاد ، في القرن الثالث عشر . وأما في الشمال الشرقى ، فكانت الغاله Gallas والنوبة ، قد دخلوا في الاسلام بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٣٥٠ .

ثم قال تحت عنوان « مساعدة الاسلام على تمدن افريقية » ما يأتى :

« لم تنظر الى الآن نتائج الفتح العربي الامن الوجهة الدينية ، مع انه يجب أن نعرف هل كانت للمسلمين في هذه الصفحة الأولى من استيلائهم (٦٣٨ - ١٠٥٠) يد في مدينة افريقية الشمالية أم لا ، وهل كان لهم سهم في نشر العلوم والآداب والصناعات ، أم لا . ففي هذا المقام يلزم أن نفرق بين مصر والمغرب ، لأن الفرق بين مدينتي هذين القطرين الذي أولها أخذ عن اليونان ، والثاني عن الرومان ، لم يخل من التأثير في ثقافته الاسلامية .

فلنتنظر أولاً الى مصر وقبل كل شيء يجب أن نصحح خطأ شاع طول القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر . والحال أن العرب في ذلك العصر كانوا أشد اعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم ، من أن يقدموا على عمل كهذا . كما انه معلوم أن قسماً من تلك المكتبة ، كان احترق في أثناء ثورة الاسكندرانيين ، التي احترق فيها أسطول قيصر ، وأن قسماً آخر أحرقه المسيحيون في القرن السادس . واحتفظ العرب النسطاط وتركوا للقبط ممفيس ، ولم يعترضوا القبط في دينهم ولا عاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية في انتخاب البطريرك ، وبناء الكنائس . وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة ، هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين ، من رمي فتاة في النيل كل سنة التماساً لفيضانه .

وبعد أن انفصلت مصر عن بغداد ازدهرت المعارف والفنون في مصر ، وتأسست بمصر المدرسة الجامعة الباقية الى اليوم ، وهي الأزهر . وكان لها مكتبة فيها ٦٠٠٠ مجلد ، وكرتان تملان الأرض ، وبني مرصد فلكي ، اشتغل فيه علماء من الطبقة الأولى مثل ابن عيين صاحب الزيج الحاكمي . وصحح العرب بمعارفهم الفلكية وبتدقيقات سياحهم ، أكثر نظريات الجغرافيين اليونانيين ، ويكفيك ذكر المسعودي وابن حوقل وابن بطوطة وأبي الحسن لظهور شأو العرب في علم الجغرافية ، وان من الأسباب التي دعت الى احتفال العرب بهذا العلم ، ما فرضه القرآن من الحج ولو مرة واحدة الى مكة . أما في صنعة البناء فمع كون العرب احتدوا شيئاً على مثال البيزنطيين ، لا ينكر أنهم تركوا فيها آثاراً خالدة مثل قصر الخلافة في القاهرة ، وبشيل القبة ، وزيزه بقرب بلرمو (في صقلية) ، ولا ننس من المساجد جامع الحسن ، وجامع عمرو ، والأزهر . الى أن قال :

أما انتشار العلوم والآداب في المغرب ، فقد كان بطيئاً في البداية بسبب مقاومة البربر لها ، والفنن التي وقعت بين أمراء الاسلام . ولكن فيها بعد شيدت المدارس والمساجد

في القيروان ، وبجاية ، وتلمسان . وكان في بجاية في القرن الثاني عشر علماء نوابغ ، وفيها كان المتصوف الكبير أبو مدين ، وفيها تعلم ايونارد بوناكسي الحساب والجبر والهندسة . وكان في تلمسان أيضا مدرسة شهيرة أقرأ فيها ابن خلدون وغيره . وفي القرن الماضي تخرج فيها محمد السنوسي . وهناك جوامع شهيرة في الحسن مثل جامع سيدي عقبة ، المبني على مرقد الفاتح المذكور ، وجامع سيدي أبي مدين في ضواحي تلمسان ، ثم الجامع الكبير في القيروان . وكل هذه لا تداني في الرونق والبهاء جوامع مراکش . (وأطال في وصفها)

وخلاصة فصله هذا هو ما يأتي :

« ان حصة الاسلام في مدينة افريقية كانت أقل من حصة النصرانية فيما يتعلق بتنظيف الأهالي وتربيتهم ، وراكتها أهم في العلوم الصحيحة وصناعة البناء . »
ثم قال تحت عنوان « قيام النصرانية لأخذ النار » نقله ملخصاً لطول شرحه :
« في القسم الاول من القرون الوسطى ، أهملت أوروبا المسيحية افريقية ، الا ما كان من مساعي بعض الباباوات . ولكن تألفت فيها بعد الزهبانيات وجدت الحركة الصليبية ، وكانت سيرة مسلمي المغرب ومصر والشام الى ذلك الوقت تجاه النصارى ، سيرة تسامح وتساهل ، لا بل سيرة ولاء واحسان ، بخلاف الأمم المسيحية التي كانت سالكة تجاه الاسلام خطة البغض والعداوة ، بدون رحمة ولا هوادة . ثم لما وقعت الحرب الصليبية استمد مسلمو المشرق مسلمي المغرب لقتال الصليبيين . فتخلف المغاربة عن هذه النجدة لسببين ، أحدهما كون المغاربة بربراً أكثر مما هم عرب ، فلذلك كان اسلامهم قاتراً ، الثاني كون جيرانهم الفرنج ذوي علاقات تجارية معهم ، ولم يكونوا يظالمونهم بمالك وبلدان كما كانوا يظالمون مسلمي المشرق ويتقاضونهم أن يتخلوا لهم عن بيت المقدس . ثم بلغت العلاقات بين ملوك المغاربة والافرنج ، أن كان أمراء تونس ومراكش يستخدمون في جيوشهم جنوداً من الافرنج يأذنون لهم بإقامة شعائر دينهم علناً ، في السكن التي يزلون بها (١) ، وكانت قد انعقدت عدة معاهدات بين الأوربيين والمغاربة في القرن الثاني عشر والثالث

(١) يقال ان المؤمن أحد سلاطين الموحدين كان عنده عشرة آلاف جندي افريقي ، وكان قد شيد لهم كنيسة في عاصمة مراکش

عشر ، أشهرها معاهدة بين جمهورية ييزا ، وسلطان المغرب ، وأمراء نعلسان ، وجزر الباليار — عند ما كانت للعرب (٢٥ يونيو ١١٣٣) — . ومعاهدات بين جمهورية جنوى ، والسلطان عبد المؤمن (١١٣٥) . فكانت هذه المعاهدات تضمن للفرنج دماءهم وأموالهم ، وتبيح لهم أن يتحاكوا عند قناصلهم ، وان يقيموا شعائر دينهم جهرا وكان ملوك الاسلام هم الذين يعطونهم عرضات الارض اللازمة لبناء الكنائس والمقابر . ومن الوثائق المشهورة الشهادة بعظم التسامح الذي كان عليه ملوك الاسلام لذلك العهد ، المعاهدة التي عقدها أبو عبد الله المستنصر صاحب تونس مع فيليب الجرى ملك فرنسا ، وشارل دوق أنجو ، وتيبو ملك ناغار سنة ١٢٧٠ وذلك بعد وفاة القديس لويس ملك فرنسا ، والتي جاء بها في الشرط السادس « ان الرهبان والقسوس المسيحيين ، يمكنهم أن يقطنوا في ممالك أمير المؤمنين وتعطى لهم الارض اللازمة ، لبناء الكنائس والاديرة ، ودفن الموتى . ولرهبان المذكوريين أن يقيموا شعائر دينهم ، ويلقوا المواعظ علناً كما لو كانوا في بلادهم » . فكثير بذلك عدد النصراني في بجاية وسردونية بقرب القيروان ، وكذلك في المغرب الاقصى ، حتى كان لهم مطران يقيم بفاس . ثم تحول الى مراکش (١٢٣٣) وبقى هناك كرسي المطران الى القرن السادس عشر . ولما استولى جوان الاول ملك البرتغال على سبتة (١٤١٨) ، جعل هناك اسقفية ثانية . وكانت كنائس كاثوليكية عديدة في وهران ، ونعلسان ، وعنابة ، وبجاية والمهدية ، وتونس ، وطرابلس وكان يخدم فيها الرهبان الفرنسيون والدومينيكان ، ولكن بث الدعوة المسيحية بين المسلمين كان محظوراً .

وكما كان عند بعض سلاطين الموحدين جند من النصراني فكان أيضاً عند السلاطين المرينيين أخلافهم مثل هذا الجند ، حتى ظمعو ان يستأثروا بحراسه بعض الثغور البحرية مثل طنجة ، وسبتة ، وسلا . وكتب البابا ايتوشنسيوس الرابع (١٣٤٦) الى السيد ملك المغرب كتاباً طويلاً ، حاول فيه اقناعه باعطاء الجند الافرنجي الذي عنده قلعة من هذه القلاع البحرية تكون في عهدهم ، وذلك بأن للملك المشار اليه أعداء أقوياء يمكنهم أن يباغثوه ، ويهلبوا ملكه ، وان أصدق أنصاره هم الجنود النصراني الذين عنده وما داموا في خدمته ، فالدول النصرانية كلها تنصره ، ولكن قد تظراً حوادث غير منتظرة وتتغلب

الكثيرة على الشجاعة ، فكان من المصلحة أن يعطى هؤلاء الأجناد المسيحيين بعض المدن البحرية المسورة ، ليعتصموا بها عند الضرورة فالسلطان السيد لم يسمع كلام البابا وجاء مطران مرا كش الى رومة (١٣٥٠) وجدد السعي ، فكتب البابا الى السلطان المرتضى خلف السيد يلح عليه في إجابة ذلك الطلب والا فهو يمنع المسيحيين من الدخول في خدمته فلم يعبأ سلاطين المغرب بهذا الوعد ولا ذلك الوعيد ، ولا رضوا بأن يسلموا المرزقة الافرنج الذين في جيشهم قلعة على ساحل البحر ، وبق مع هذا عندهم أجناد كثيرة من الافرنج .

أما سيرة مسلمي الشمال الشرقي من افريقية ، فكانت تخالف في هذا الموضوع سيرة مسلمي الشمال الغربي ، اذ من المعلوم أن الزخفة الصليبية الخامسة التي كان أكثر رجالها من المجر والامان ، والزخفة السابعة التي قام بها القديس لويس ملك فرنسا كانت وجهتهما مصر ، فأثارت الحفيظة الدينية عند أهلها بعد أن كانوا أولا في غاية التساهل مع المسيحيين فلما استرد المصريون دمياط (١٢٢٨) ، هدموا كنيسة مار مرقس في اسكندرية وهم السلطان قلاون عند توابه عرش مصر جميع المدن البحرية ، من الاسكندرية الى طرابلس الغرب وطردهم الافرنج من هذه المدينة . بعد أن كان مضى عليها نحو ١٤٠ سنة وهي في حوزة امراء النورماندين أصحاب صقلية . وفي ذلك الوقت استقر فرسان مار يوحنا المطرودون من فلسطين ، ومن افريقية ، في جزيرة رودس . وبلغ البغض أقصاه بين المسيحيين والمسلمين واضطر نصارى النوبة والغالة Gallas أن يدخلوا في الاسلام في القرن الرابع عشر . ولكن الأحباش ازدادوا تمسكا بالنصرانية ، وأرسل النجاشي زيرا يعقوب وفدا من قبله الى مجمع فلورنسه (١٤٥٣) يلتمس توحيد الكنيسة الحبشية مع الكنيسة الرومانية ، ولما كان التعصب المذهبي شديدا بين الشرقيين والغربيين ، ترصد الأقباط هذا الوفد عند ما تبهم من ايطالية وقتلواهم .

وكان كثيرون من أسارى الافرنج أرقاء في بلاد الاسلام ، يشتغلون في مزارع كبار المسلمين وهم في أقصى درجة من الفاقة ، حتى كان بعضهم يصبأ عن دينه لطلب الخلاص من الرق . فأنشأ الفرنج جمعيات رهبانية لفضاء هؤلاء الأسارى ، أشهرهم العصبة المسماة بالفقراء AlfaKker من رهبان مار يعقوب الاسبانويين ، وطائفة الثالوثيين Trinitaires

ورهبان سيدة مرسي Notredame de la Mercy وهانان الطائفتان من القرنيس . وقد كان تأسيس نظام التالوثيين سنة ١١٩٨ ، على يد رجل اسمه يوحنا متي من البروفانس في جنوبي فرنسا ، وكان أتباعه يمشون على أقدامهم ولا يؤذن لهم بالركوب الا اذا مسهم الاعياء ، فيركبون الحير ، ولهذا لقبوا بالاخوان ذوى الحير . وانتشرت دعوتهم في كل أوروبا ، وكان لهم في فرنسا وحدها ١٥٠ ديراً . وقيل ان عدد من أنقذوا من أسرى المسيحيين من سنة ١١٩٨ الى القرن الثامن عشر يبلغ ٩٠٠ الف . وأما النظام الثانى المنسوب الى سيدة مرسي ، فكان غرضه منع الأسرى الفرنج من الدخول فى الاسلام وهم فى الأسر ، وكان من مبادئ أصحابه استعمال السيف اذا الجأ الأمر لأجل الدفاع عن النصرانية ، وقبول الأسر والبقاء رهناً عند العدو ، لأجل منع الأسرى من التحول عن دينهم . وكثير منهم ألقوا بأنفسهم فى التهلكة ، وعاشوا سنين فى الأقياد والأصفاد عند اصراء الاسلام ، لأجل المحافظة على ديانة أسرى قومهم وبلغ عدد أسفارهم الى مدينة الجزائر وحدها من جراء فداء الأسرى ٣٣٣ رحلة ، وعدد من أنقذوه ١٢ الفاً وخمسة أسير ولكن بعض الرهبان تجاوزوا حدود الحية الى التهور وقام فى أذهانهم دعوة المسلمين الى النصرانية فلم يقدروا على تنصير مسلم واحد ، ووقعوا من أجل ذلك فى البلاء . ومنهم من ذهب قتيلاً خفة عقله ، وهؤلاء مثل انطون ريفولى ، ودانيال بلفيدير ، وريموند لول ، وهو أشهرهم . وكان يعقوب الأول ملك أراغون قد استرد جزيرة ميورقة من أيدي العرب سنة ١٢٩٩ ، فوجد لول هذا هذه الجزيرة مركزاً صالحاً لبث الدعوة المسيحية فى المغرب ، وبني ديراً للفرنسيكانيين فى الجزيرة وجعل الغرض منه تدريس العربية لامكان بث الدعوة ، وكان هو متضلعا فى العربية وقصد تنشئة مبشرين فى هذا الدير ، يقذفهم فى بلاد الاسلام للغاية المذكورة . وذهب هو بنفسه الى تونس ، وأخذ يناظر علماء الاسلام ، ويقذف بالرسول أمامهم فالقبوه فى السجن ولولا رافة أمير تونس به ، لأوردوه حتفه . وبعد ذلك خلوا سبيله وجاء الى الجزائر بمشراء ثم الى بجاية حيث ضاق ذرعهم به فقتلوه (٢١ يونيو ١٣١٥) . وبالجملة ، فإن النصرانية أسكنها بواسطة المعاهدات التجارية وحسن المعاملة ، أن تطأ أرض المغرب ، ولا نجد النفرة التى وجدتتها فى مصر وطرابلس الغرب على أثر الحروب الصليبية

كما يدل على كون اللطف والمحاسنة ، أوفى بالمقصود من العنف والمخاشنة .
 وفي تلك الأيام حصلت حركة دينية عند البربر ، وظهرت عندهم الطرق الدينية
 المشابهة للرهبانيات عند النصارى ، وترجع هذه الحركة الى سببين ، أحدهما ، عقيدة
 التصوف التي ترمي الى الفناء في الاله ، والثاني دعوة أهل البدع والاهواء ، وغير المسلمين ،
 الى الاسلام . وأتباع هذه الطرق يشبهون الرهبان في الانقطاع للعبادة ، وكثرة الصلاة ،
 ومنهم من هم نظير الرهبان العسكريين ، يعتقدون أنهم مكلفون باستعمال السيف لنشر
 الدعوة ، ولكنهم يفترون عن رهبان النصارى بعدم البتولة ، وعدم فطم النفس عن
 النساء^(١) ويقال لمحل اجتماعهم رباط ، ورئيس الطريقة مرابط . ولذلك لما قام عبد الله بن
 ياسين ، بالدعوة الدينية لهداية البربر من لتوتة وغيرها ، اجتمعت حوله عصابة سموها
 بالمرابطين ، وكانت لهم دولة وصوله بلغت أوجها في زمان يوسف بن تاشفين (١٠٥٠) . وقام
 مقام المرابطين الموحدون ، وكانت لهم دولة عظيمة ، وكان الشرفاء أعقاب ادريس ، من
 أتباع العقيدة الصوفية ، وكانت هذه العقيدة تقرأ في فاس وتونس ، وهما أعظم مراكز
 العلم بأفريقية ، وقد أخذ بها خلق كثير . وكان عبد القادر الجيلاني المولود في جيلان من
 فارس ، متصوفا عظيما زكى النشأة كثير التعظيم لسيدنا عيسى ، متساهلا مع النصارى الذين
 كان يقول أنهم أهل كتاب وان الله سينير عقولهم يوماً ، فأخذ بالوعظ والارشاد ومات في
 بغداد سنة ١١٦٦ ميلادية ، وله أتباع لا يحصى عددهم ، ووصلت طريقته الى اسبانية ،
 فلما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز الطريقة القادرية الى فاس . وبواسطة أنوار
 هذه الطريقة زالت البدع من بين البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة . وكان هذه الطريقة هي
 التي في القرن الخامس عشر ، اهتدى على يدها زنوج غربي الطريقة ، أما الطريقة الثانية
 فهي الشاذلية نسبة الى أبي الحسن الشاذلي ، أخذ عن عبد السلام بن مشيش ، الذي أخذ
 عن أبي مدين ، وكانت ولادة أبي مدين في اشبيلية سنة ١١٢٧ ميلادية وقرأ في فاس ، وحج
 البيت الحرام ، ثم استقر يعلم التصوف في بجاية . وتبعه خلق كثير انقسموا بعده الى ثلاث
 فرق ، الأولى الشاذلية المنتشرة في الجزائر والثانية الدراقاوية الذين مراكزهم في مراکش

والثالثة المدينة الذين هم كثيرون في طرابلس الغرب. قال : (و بعد أن أفاض في بحث الطرق والزوايا وتشكيلاتها وأوضح المشابهة السني بينها وبين الرهبانيات في القرون الوسطى)

ان العرب لم ينتظروا تشكيل الطرق حتى يشوا الدعوة القرآنية في السودان ، بل منذ أواخر القرن السابع كانوا اخترقوا فزان ودخلوا السودان، وكانت في غاثة لأوائل القرن الثامن ليلاد اثنتا عشرة مدرسة للقرآن ، ولكن الاخوان (اتباع الطرق) هم الذين تم على يدهم اسلام القسم الأعظم من مسعى أواسط افريقية ، وهم الذين أوقدوا الحمية الدينية بعد أن كادت تفر ، وأدخلوا معظم السودان في الاسلام بالارشاد والتعليم ، وبالأخذ والعطاء ، وبالمصاهرات مع ملوك الزنج . وقد تقدم ذكر أبي بكر بن عمر المتوفى الذي امتاز بنشر الاسلام في السودان ، حتى دانت له جميع الأقطار السنغالية والنيجيرية الى الكونغو . كذلك بنو حسن من عرب بني هلال ، توجهوا جهة ودان جنوبي طرابلس ونقدموا منها في الصحراء الى والاته ، فتلاقى هناك العرب مع البربر وامتزج بعضهم ببعض ، وجاءت من هذا الاختلاط القبائل المسماة بالمشدوف (هذه القبائل ليست هي المشدوف فقط بل المشدوف والدويش وغيرها وقد ألف على هذه القبائل الميوس جورج بوله Georges Poulet كتابا اسمه « مغارة افريقية الغربية الفرنسية » بحث فيه عن تاريخها الماضي والحاضر ، وعن أحوالها الاجتماعية من كل نوع ، ونظراً لكون المؤلف من مأموري المستعمرات فقد أتبح له أن يطلع على وثائق لا يطلع عليها غيره ، جاء كتابه بغاية التدقيق . والمغاربة المذكورون منهم من أعقاب بني حسن الهلاليين ، ومنهم من صنهاجة وغيرها من البربر ، وينهم اشرف ينتمون الى آل البيت ، وبجالاتهم من الساقية الجراء جنوبي السوس الأقصى ، الى نهر السنغال ، وهم حسن طبقات الأولى ، أهل الحرب وهم بنو حسن . والحراثون وهم أشبه بالرعية ، لكنهم أحرار . والمرابطون أى طلبة العلم . وصنهاجة الذين يدفعون الضرائب . ثم العبيد . وأشهر القبائل المذكورة الطرارزة وهم نحو ٨٠ ألف نسمة ، كان أميرهم لعهد تأليف كتاب الميوس بوله سنة ١٩٠٤ ، هو أحمد بن سلوم . ثم البراكنة وهم أولاد عبد الله وعددهم ٤٠ ألفاً ، وأميرهم أحمد وولد سيدى على .

ثم الأبكك وعددهم ١٦ ألفا ، وأميرهم بكار ولد سويدي أحد . ثم الشراطيطة وهم ٣٠ ألفا ، وأميرهم المختار ولد أحد . والقبائل الساحلية منها آل سيدي محمود وهم ٤٠ ألفا ، وأميرهم سيدي المختار ولد محمد محمود . ثم أولاد مبارك وهم ١٨ ألفا ، وهم مع أولاد ناصر من سلائل بني حسن الهلاليين ، وعدد أولاد ناصر ١٣ ألفا . ثم الكوتته وهم خمسة آلاف . ومن قبائل الساحل المشدوف وهم أكثرها عددا ، وينقسمون الى عدة فرق لكل منها زعيم ، وزعيم الزعماء محمود مختار وهناك قبائل ساقية الحراء مثل أولاد دليم ، والرغيبات ، والعروسي ، والفيلاي ، والصمايل ، ورئيس هذه القبائل الشيخ ماء العينين المشهور . وقد جن المسيو بوله عددهم جميعا بثلاثمائة ألف ، وكانت بين امراءهم وبين فرنسا معاهدات لذلك العهد ، اظن انها صارت الآن في خبر كان لاسيما ما كان مع امراء القبائل (التي في السنيغال) .

ثم قال المسيو موري تحت عنوان « اكتشافات البرتغاليين على سواحل افريقية . باستثناء البعثات الكاثوليكية » :

لا يخفى ان العرب ومن معهم من البربر كانوا افتتحوا اسبانية ، واجتازوا جبال البيرانه ، واوغلوا في بلاد الغال (فرنسا) ولولا انتصار شارل مارتل عليهم في بوانيه ، لكانت فرنسا اسلامية ، ولاصاب الكنيسة الغاية ما اصاب كنيسة افريقية وكنيسة اسبانية على أنه في نفس اسبانية ، كان البرتغاليون ، وأهل نافر ، واستورية ، لايزالون يقاومون العرب . ولاسيما البرتغال ، فقد كانوا أول من ضرد العرب من بلادهم . ولم يكتفوا بذلك بل شنوا الغارات على العرب في أرضهم ، فافتتحوا سبتة ، وطنجة ، وتطوان . ثم امتدوا على ساحل افريقية الغربية حتى عرفوه كله . وأشهر من قام منهم بهذه الاسفار والفتوحات ، هو الأمير هنري ابن الملك جوفان الأول الذي كانت أمه أميرة انكليزية ، فانه ترك اشبوتة دار الملك وانتبذ نفسه مكانا في ساغر بقرب رأس سان فديسان ، يحيط به بعض اليهود وبعض علماء المغاربة من فاس ومراكش ، الذين كانوا علماء العالم لذلك الوقت وأخذوا ينقبون في جغرافيات العرب وغيرها حتى عرفوا امكان الدوران حول افريقية . ورسم الأمير هنري هذا الرجل العظيم الذي كان له الفضل على جميع أوربة ، خطة سير السفن عليها ، فاجتازت ، رأس بوجادور (١٤٤٢) ، والرأس الأخضر (١٤٤٤) على أنوار غابات (م ٢٤ - ثاني)

مادار Madères ، التي استمر بها الحريق سبع سنين الى أن بلغت سياره ليون Sierra Leone . وسنة ١٤٧١ بعد موت هنرى أيضا ، وانطب البرتغاليون على الايغال في الايغالوس حتى قطعوا خلد الاستواء وجازوا زاير (الكونغو) ، ثم رأس الزوابع الى ميناء آلتوا (١٤٨٦) . وفي ٨ يوليو عام ١٤٩٧ وصل فاسكو دوغاما الى موزامبيق ، ومنها الى ماليندى وثناني سنة نزل في كاليكوت من الهند الشرقية .

ولما تمت هذه الفتوحات ، شرع البرتغال بنشر الدين المسيحي وتأسيس الاسقفيات واختاروا لهذا الأمر الجزر البحرية ، لما فيها من الوفية . فعملوا كرسياً أسقفياً في احدى جزر الخالدات ، وآخر في جزيرة مادير ، وآخر في جزيرة امام الرأس الأخضر . وآخر في جزيرة بازا زاير ، ومنها صعد الدومينيكيون الى بلاد الكونغو وبشوا دعوة الانجيل ، ونجحوا نجاحاً حلاً البابا على وضع أسقف في سان سلفادور (١٥٩٥) . وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة أرسل ملك الكونغو الفارس الثالث ، بعثة الى البابا يلتمس بها مبشرين فارسلوا اليه الكبوشيين فكان نجاحهم باهراً . وخلفهم الجزويت ، فأسسوا مدارس في سان باولو ، وسان سلفادور (١٦١٩) وصاروا يتقدمون الى داخل البلاد حتى بلغوا كازانفي على ٦٠٠ ميل من الساحل ولكن هذه البعثات كلها سقطت في أواسط القرن الثامن عشر لاسيما عند الغاء رهبانية الجزويت ، وحاولت جمعية البعثات الخارجية في باريز (١٧٦٠) أن تقوم مقام الجزويت في الكونغو ، فلم تفلح . مع هذا بقيت لذلك التعليم آثار ، وكان أولوف من الزنوج يقرأون ويكتبون .

وبعد قرن كامل من انقطاع التبشير هناك جاء « آباء الروح القدس » وحيوا ما كان درس من آثار الجزويت والدومينيكيين (١٨٦٧) ، وساعدوا على الغاء تجارة الرقيق وعلى الاكتشافات الجغرافية ، وأدخلوا في هاتيك الاصقاع زراعات وصناعات كثيرة وكان البرتغاليون قد بشروا بالانجيل في افريقية الشرقية ، واتخذوا مركزاً للدومينيكيين في موزامبيق (١٦٦٤) . وأقام القديس فرانسيس كسافرس مدة في موزامبيق ، وفي ماليندى ، وفي جزيرة سقطرة . وأسس فاسكو دوغاما ديراً للتبشير في جزيرة ززيبار ، وامتنعت منه البعثات الى مومباسه ، والساحل . وتمت هناك رعويات مسيحية عديدة في القرن السادس عشر والسابع عشر ، ولكن سنة ١٦٩٨ جاءت غارة عربية من سقط

اخنت على تلك الكنائس ، ورفعت علم الاسلام وحده . سنة ١٧٢٨ ، حاول المبشرون استئناف العمل ففشلوا ، ولزم انتظار القرن التاسع عشر لاجل الرجوع الى بث الدعوة المسيحية في هاتيكا الاقطار .

وكان جوان الثاني ملك البرتغال سنة ١٤٨٧ انفذ اثنين من رجاله الفونسو بايفا ، وبيرو وكوفيلهام ، من طريق مصر الى الهند للبحث عن رجل هندي مسيحي يزعمون أن اسمه القسيس يوحنا ، فأت أحدهما المسي بايفا بمصر وذهب كوفيلهام الى الهند ، ثم عاد الى افريقية ووصل الى الحبشة ، فأكرم النجاشي موصله ، ولكنه لم يسمح له بالخروج . فأخذ هذا الرجل يرسل بلاده ويخبرهم بما رأى ، فأرسلت حكومة البرتغال وفداً من الأشراف والسكينة ، ومعهم عدد من الحدادين ، والنجارين ، والبنائين ، والاطباء الى بلاد الحبشة ، واستمرت هذه العلاقة بين المملكتين دهرا طويلا ، حتى ان راهبا يسوعياً برتقالياً اسمه بايز حول النجاشي سوسينيوس الى الكتلكة (١٦٢٤) . وقيل ان أكثر الاحباش كانوا مستعدين للانضمام الى الكنيسة الرومانية لولا عناد بطرك اللاتين ما نذر Mentez الذي لم يأخذهم بالتؤدة ، بل حاول حلهم على جميع العقائد والشعائر اللاتينية دفعة واحدة وأراد تأسيس ديوان تفتيش ، لمراقبة الذين يأبون الانقياد . تجرت من ذلك ثورة ذهب فيها حياة المبشرين البرتغاليين ومن تابعهم من الحبش (١٦٤٠) ، وحلول الفرنسيين التبشير في الحبشة تحت حاية قنصل فرنسا ، فلم يفلحوا ، وقتل المبشرون الذين أرسلوهم الى سواكن ، ومصوع . ولكن الفرنسيين الطليان أسسوا مراكزهم في بلاد الغالة (١٨٣٩) ، ثم توجه اخوان فرنسيان انطون ، وأرنولد آبادي ، ومعهما راهب غازاري اسمه ساينون من قبل مدرسة البروباغنده في رومة ، التي أردفتهم بثلاثة آخرين فأقام أحدهم جا كويس في عدوه بقرب النجاشي ، وذهب سايتو الى غندار للتبشير في بلاد الآماره . وكان أحدهم مونتوري قاصداً للسودان المصري ، فبعد خمس سنوات من وصولهم ، أسسوا عدة كنائس . وفي سنة ١٨٥٣ كان عدد الحبش الكاثوليك خمسة آلاف ، بالرغم من مقاومة أبونا سلامة رئيس الكنيسة القبطية الحبشية . وبقيت هذه البعثة ناجحة حتى تولى النجاشي نيودوروس ، فأراد استئصالها وحمل جا كويس على الأدم ، فمات في الحبس سنة ١٨٦٠ . وبعد وفاته قام مقامه المطران بيانشي ومعه

المطران ماساية ، ووجها عزمهما الى التبشير في بلاد الغالة ، وبواسطة الحكومة الفرنسية مع الباب العالي أخذوا فرمائاً بتأسيس مركز في جزيرة مصوع (١٨٦١) ، واستؤنف العمل الديني في الحبشة . ولكن لم يطل الامر حتى وقعت المنافسة بين فرنسا واطالية في هاتيك الجهات، وأسست ايطالية مستعمرة الاربره ، وجعلت مركزها مصوع وأفردتها بأسقفية ، وطردت منها المبشرين الفرنسيين ، ولم يبق طؤلاء سوى رعويات في نيفرى ، وبلاد الآماره . وكانوا شادوا مدارس ، ومستشفيات ، ودوراً للصناعات ، وملاجئ ، للابتام والمجاهدتم . ونشر الطليان الدعوة المسيحية في بلاد الغالة ، وهم جيل أذكياة أشداء يكون بين الحبشة وبحيرة فيكتوريا نيازاً . وصارت هناك رعويات مسيحية زاهرة وامتدت الى بلاد كافا . ثم دخلت الى هرر ، بالرغم من معارضة أمراء الاسلام هناك . ولتنظر الى الدعوة المسيحية في جهات أخرى فنقول ، ان مارفنسان دويول الفرنسي كان وجه همته نحو جزيرة ماداغسكرك ، التي بسطت يدها عليها فرنسا في أيام الوزير ريشليو ، فانتشر في سواحلها تجار الفرنسيين وأرسل الرهبان العازريون اثنين منهم سنة ١٦٤٨ ، فأخذوا بالتبشير وصبروا على المسكاره ، ومناخ تلك الجزيرة لم يؤاتهما ، فانا بعد أن نصرا ٦٠٠ نسمة من الوطنيين . ثم ذهب بدلا عنهم أربعة آخرون فأوا بالحي . فأتى ذلك عزم الرهبان ولا سيما عزيمه مارفنسان دويول ، الذي بقى يحرضهم على السفر للتبشير ، فذهب آخرون وزرعوا هناك الانجيل ، ونحملوا من الانتقام والعذاب ما تحملوه ، ولكنهم تغلبوا على الوثنية مع تمادى الايام ، فالآن الجزويت ، والبروتستانت ، الفرنسيون ، والكويكرس ، والنورويجيون يستغلون مازرعه العازريون من مائتي سنة في تلك الجزيرة العظيمة .

ثم تألفت رهبانية آباء الروح القدس ، وسنة ١٧٧٨ أبحر الابوان بروتو وغليكور الى السنغال ، فأخذوا ينصرون الزنوج في سان لويس وجزيرة غوري Gorée وفي سنة ١٨٤٨ أندجحت هذه البعثة في بعثة قلب مريم الاقدس تحت ادارة يهودى متنصر اسمه ليبرمان ، أحسن التدبير ، وربط الدعوة الكاثوليكية بالحكومة المدنية ، فانتعت مؤسسات هذه البعثة في افريقية تدريجاً ، فتجد لها مرا كز في الكونغو البرتغالي ، وفي غامبية ، وفي مستعمرة سيرا ليونه الانكليزية ، وزنجبار ، ولها في المستعمرات الفرنسية اسقفية ، كرسياها داكار Dakar التي فيها ١٥ ألف متنصر . ومركز في كيتا Kita في السودان

السنغالي ، وآخر في كونا كرى من غينية الفرنسية . وأسقفية في غابون Gabon من الكونغو الفرنسية . وأخرى في أوبانغى Oubangui من الكونغو الأعلى . ولم يقتصر هؤلاء الرهبان على التبشير بالانجيل بل نشروا العلم ، وأحيوا الزراعة ، وآتوا بنسبانات جديدة ، وأدخلوا حيث وجدوا صناعات مفيدة ، وهذبوا الأخلاق وأبطلوا كثيراً من قبيح العادات .

ثم أتى بعد رهبانتي العازرين والروحيين ، بعثة ليون الإفريقية وبعثة الآباء البيض . ففي سنة ١٨٥٦ أسس المطران دوماريون برازيلك أصله من الدعاة في الهند الشرقية ، مدرسة لتخريج المبشرين المراد إرسالهم لتنصير الزوج . ثم عين هو أسقفاً في سيارا ليون ، فذهب ومعه عدد من الرهبان فهلكوا بالحمى الصفراء ، فطوع غيرهم للقيام مقامهم ، وما زالوا صابرين ثابتين حتى أفلح عملهم ، فترى لهم اليوم كراسي في ساحل العاج ، والنيجر الأدنى ، وساحل الذهب ، والداهومي ، وبنين . وقد وفقوا توفيقاً كبيراً في ساحل العاج وفتحوا تسع مدارس منها مدرسة دينية في دابو وقد أجدوا طباع أهل تلك البلاد من السكينة وحب العمل ، بخلاف أهالي داهومي ، الغلاظ الشداد ، المتعصبين للفتيشية ، ثم أسسوا مدرسة زراعية في توكبو ، وأسقفية في بين Benin

وآخر رهبانية تأسست لنشر الدين المسيحي في إفريقيا هي الآباء البيض ، أسس هذه الجمعية الكردينال لا فيجري مطران الجزائر سنة ١٨٦٩ ، وعاكسه في هذا المشروع المارشال ماكاهون ، الذي كان رأيه أشبه برأى الشركة الانكليزية في الهند من تجنب الدخول في قضية التنصير ، لئلا يحصل مشكلات للإدارة الفرنسية ، فالكردينال كان يرى غير هذا الرأي ، ويقول انه يجب الامتزاج بالأهالي واستجلابهم اليها ، لئلا يلبثوا على عقيدة القرآن ، التي تجعل بيننا وبينهم فاصلة كبرى . فما زال الكردينال مصراً على فكره حتى أنشأ هذه الرهبانية وراعى فيها عادات القوم ، وأردفها برهبانية أخرى للنساء اسمها « الراهبات المبشرات لسيدتنا العذراء » (١)

(١) الحفيظة ان كلامن رهبانتي الآباء البيض والراهبات المذكورات ، نالت عند الحكومة الفرنسية في كل شيء ، وارتقت منها شكوى الجزائريين ، وغيرهم من سكان المستعمرات الفرنسية بدون فائدة ، وليس هنا مقام تفصيل ذلك

وميادين عمل الرهبان البيض هي أولا الجزائر وتونس . ثانيا الصحراء والسودان .
ثالثا بلاد خط الاستواء من افريقية . رابعا بلاد نياسا غربي الموزامبيق التي فيها كرسى
أسقفية (١) .

وبلاد خط الاستواء الافريقية وبلاد نياسا كلتاهما ، من المستعمرات البريطانية
والبرتغالية ، فلا تهماثا الا في الدرجة الثانية . ولكنهما مع ذلك لا تخلوان من العمل ،
فما يتعلق بمقاومة الاسلامية ومنع الرق (٢) . فان قرار مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ بمنع الرق ،
قد قاومه تجار العرب بالسلاح واضطرت الدول الى قمع ذلك بالقوة (٣)

أما في الجزائر وتونس ، فلما كان الحكم لفرنسا لم يكن من حاجة الى استعمال القوة
فرهبانية الآباء البيض تلجأ الى الوسائل السلمية لا غير . فهي تؤسس بقرب كل محطة
مستوصفا طبيا ، وصيدلية . الأول منهما ، يصف العلاجات والثاني يعطيها بحانا ، ثم مدرسة
ودار أيتام . وليس الا بعد وقت طويل وبإذن أهل الأولاد ، يلحق الآباء هؤلاء الأولاد

(١) لسائل أن يسأل : لماذا يعملون في تونس والجزائر ولا يعملون في المغرب الأقصى ؟ والجواب
دور الآباء البيض وراهبات التبشير ، يأتي في المغرب الأقصى بعد أن يتم اخضاع الثارين في جبال
الاطلس ونزع السلاح من أيدي القبائل ، أما الآن والثورة لا تزال نائرة ، فالحكومة الفرنسية
تعمل في هذا الامر وان كانت لا تهمل .

(٢) ان الرق ليس من الاسلاميه بل ان الرق عادة قديمة عرفتها النصرانية والاسلاميه وغيرها ،
وما حيب الاسلام شيئا الى الناس أكثر من تحرير الرقيق الذي هو من أفضل القربات شرعا . ثم لامنت
أوروبا تجارة الرقيق ثلاث في وجهها شعوب مسيحية كثيرة مثل البوير في جنوبي افريقية ، وكل أحد
يعلم أن أمريكا اتسمت قسمين في أمر العبيد ، وثارت الحرب بين الفريقين أربع سنوات ، فاجتهد بعض
مؤلفي أوربة بالمناق الرق بالاسلام خاصة ، هو من جهة التعامل على الاسلام ، كما اني وان كنت أحد
صنع الدول التي ساعدت على إلغاء الرق ، لا أنكر أن حملة السيد السود في بلاد الاسلام ، هي أفضل
كبكبر من معاملات الأمم المستعمرة لرعاياها البيض ، نعم ان هذه الأمم لا تبيع أهالي الجزائر ، وتونس .
وتونسكين ، وغيرهم ارقاء في الأسواق ، ولكنها لا تعرف لهم أدنى حق بازاء الأوربيين ، وهي تضع
يدها على ماشاءت من أراضيهم ومعادن بلادهم ، وتستثمر أرضهم ودمهم وعرق جبينهم فسرأ بدون أن
يكون لهم بذلك أدنى خيار فهل الرق سوى هذا ؟ .

(٣) يذكر المؤلف هنا مقاومة العرب وينسى مقاومة الجنس الأوربي في الترغفال .

التعليم الديني^(١) أما اليتامى فيعلمون التعليم الديني فرضاً . وقد تقدم الآباء البيض الى الداخل حضارت لهم مؤسسات في لاقوات (١٨٦٨) وفي أوارغله (١٨٧٣) ، وفي توغورت (١٨٧٨) الخ ولما دخلت العساكر الفرنسية مدينة تمبكتو سنة ١٨٩٤ في ١٠ يناير تحت قيادة الكولونل بونيه والقومندان جوفر ، أسس الآباء البيض مركزاً في تمبكتو وستة أخرى في جوارها .

وخلاصة ما قامت به الرسائل الكاثوليكية من برتغال ، واطليان ، وفرنسيس ، في القارة السوداء ، هي انها هاجت هذه القارة من الجانب الغربي ، ومن الصحراء ، ومن الكونغو ، ومن جهات البحيرات الكبيرة ، نعم انها لم تقبل أن تمزق العصبه الاسلاميه ، لكنها هذبت قسماً عظيماً من الأمم القتيشيه ، وتوفقت الى ابطال كثير من عاداتهم البربريه .

ثم ذكر المؤلف ، اشترك الامم والمبشرين في تهذيب افريقية فقال : ان لفنستون في أحد تقريراته يقول : « ان نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري . وهذه حقيقة كلية . اذ من المحال أن نكتشف اراضى جديدة بدون أن ينبذ ذلك فينا شوق دعوة أهلها الى الانجيل ، هذه البشارة التي أعطينا السلام والعزاء والرجاء » . فلقد رأينا المبشرين الكاثوليك ، يتعقبون آثار البحارة البرتغاليين والفرنسيس والاطليان ، ويؤسسون أوطاناً مسيحية في سواحل افريقية الغربية والشرقية ، متخذين هذه المراكز في سواحل شرقي افريقية محاطة في طريقهم الى الهند ، ولكن كل هذا ما عدا الذي جرى في الحبشة ، لم يتجاوز مناطق معلومة من سيف البحر . ولكن جاء فيما بعد ذلك السائحون الجوابون في الربع الأخير من القرن الثامن عشر والأربع الثالثة من القرن التاسع عشر فدخلوا من مصاب الأنهر . وتوغلوا في البلاد ومنهم من ذهب قتيلاً جرأته فكانوا هم طلائع المبشرين ، وعلى آثارهم سار هؤلاء ، وبالاجال فداخل افريقية التي توج منها هؤلاء الجوابون الى باطن هذه القارة ، هي أربعة أو خمسة ، أولها النيل لامتداد طريقه من مصر الى أقصى منابعه . الثاني نهر الغامبية ثم نهر السنغال . الثالث ، رأس الرجاء المعروف

(١) غير معقول أن يسمح المسلمون أهل الاولاد بتقنينهم تلياً دنيماً غير الاسلام بمجرد رضاهم ، بل هنا أحد أمرين ، اما أن يكون أهل الاولاد لا يبسمرون على الاعتراض أو يكونون هم أنفسهم تركوا الاسلام

بالكتاب نظراً لأهمية هذا الموقع التجاري . الرابع ، الجزائر منذ استولت عليها فرنسا ثم طرابلس . الخامس ، جزيرة زنجبار بسبب علاقاتها مع السواحل التي تحاذيها .

وأول من توغل في افريقية من جهة النيل هو جيمس بروس James Bruce الاكوسى المتوفى سنة ١٧٩٤ ، وصل الى مصر سنة ١٧٦٨ ، وصعد الى الاقصر وشاهد آثارها ، ثم الى اسوان ومنها الى القصر ، ومنها أجاز الى جده وركب البحر من جده الى مصوع ، ومن هذه صار الى الحبشة مزوداً بتوصية من بطريرك القبط في مصر الى الرأس ميشل ، وأقام مدة بمدينة غندار قصد منابع النيل وظن أنه وصل الى رأس نبع النيل الأزرق ، والحقيقة أنه لم يصل الا الى العبادي ، وهو ملتقى أنهر من النيل لا أصل نبعه . ثم عاد الى مصر من طريق اسوان . وبعد ١٢ سنة من سياحة بروس هذا جاء الى مصر فولنای الكاتب الفرنساوي الشهير ، ولفت أنظار قومه الى وادي النيل قائلاً : «يجب للاستيلاء على وادي النيل ثلاث حروب : الأولى مع انكلترة . الثانية مع العثمانية . الثالثة وهي أشدهن مراسع الاسلام . لأنه هو السائد في هذا الوادي . وربما كانت هذه العقبة غير قابلة الجواز» (كذا) وكان نابليون بونابرت قد قرأ كلمات فولنای ، فكانت بما استفزته الى غزو مصر . ولم يكن تجسيم فولنای صعوبة هذه الحملة الا ليزيد فيها رغبة بونابرت ، في غرامه باقتحام الصحاب وعشقه للجد ، فكانت تلك الغزاة الشهيرة التي ظهر فيها من مزايا نابليون العسكرية ماظهر ، وانما لم يقدر الناس قدر مهارته السياسية ، استجلابه خواطر المسلمين وامتزاجهم في عقائدهم وعاداتهم ، وقد كانت غزاة مصر هذه من سنة ١٧٩٨ الى ١٨٠١ ، مبدأ لاسفار ورحلات صوب منابع النيل استمرت الى ١٨٤١ وقد خذا حنو نابليون بونابرت في سبيل الاكتشاف والبحث ، أمير مصر الكبير محمد علي ففي زمانه ، وصل فريدريك غاليلو Gailliaud الى طيبة وواحة سيوه ، ثم صعد مجرى النيل الى أن وجد خرب العاصمة القديمة مروه Meroë (١٨١٨ الى ١٨٢٠) الى ان بلغ الدرجة ١٠ من العرض الشمالي . وبعد هذا بيضع سنين وصل عالم الماني الى النوبة العليا ، وكان أول أوربي دخل كردوفان غربي النيل الأبيض ، ثم أنفذ محمد علي بعثة وصلت الى درجة ٤ من العرض الشمالي في غوندوكورو . وامتد عمل السياح الى الحبشة وبلاد شوا وبلاد الغالا ، فكان ممن اشتهروا بذلك روشه ديريكور

Rochet d'Hericoure وتيوفيل لوفافير Théophile Lefebvre (١٨٣٩ إلى ١٨٤٣) ، وأبناء آبادي D'Abbadie (١٨٣٣ إلى ١٨٣٨) وهؤلاء من الفرنسيين ثم الإنكليزي شارل بيك Beke والالمانيان كراف ويزغان ثم ان الالمانيين أرهاردت وريمان ، هما اللذان توغلا في اصقاع البحيرات الكبرى ، ووصلا الى قنن الثلج من بلاد كينيه Kenia والكيلمانجارو Kilmandjara (١١ مايو ١٨٤٨) ومن هناك انفتحت الطريق التي انطلق منها سموئيل باكر (١٨٦٤ إلى ١٨٧٣) والكولونيل غوردون ، وأمين باشا ، ولينانت بك وغيرهم . وكان هؤلاء السياح أثر بعيد الصيت في تهذيب الزنوج ، واجتهد سموئيل باكر وأصحابه بالغاء الرق ، مستظهراً على ذلك بأمر الخديوي ، وهلك غوردون في الخرطوم بيد المهدي ، بعد أن أقام بضعة عشرة سنة يرقى من أخلاق السودانيين .

ولم يكن شيء يشابه همة هؤلاء السياح الأبطال في شرقي افريقية ، سوى همة أعضاء تلك الجمعية الإنكليزية المسماة African Association التي تأسست سنة ١٧٨٨ في لندن وكانت الاطالس الجغرافية الى ذلك الحين لا تمثل أواسط افريقية الا برقعة بيضاء متسعة ، لأن الجغرافيين لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً . وكما كان السياح الذين ساروا من مصر غرضهم منابع النيل ، كان السياح الذين صدوا من نهري السنغال والسينغامبيه يقصدون تمبكتو ، تلك المدينة الشهيرة عند العرب . فالماجور دانيال هوغتون Houghton ركب نهر السنغامبيه ، ووصل الى مدينة Médina ، ومنها الى عاصمة بامبوك Bambock (١٧٩١) ، ولكنه لم يبلغ نهر النيجر ، وانقطع خبره . أمامونغاو بارك Mungorark الاكوسي ، فصعد من بلاد غامبيه ، فوصل الى النيجر عند سيغو Segou وعاد من حيث أتى ، ثم بعد تسع سنوات ، عاد فصعد النيجر ووصل الى تمبكتو ، ثم أوغل الى بوسانغ ، وهلك قبلاً سنة ١٨٠٦ . وكان رفيقه الفرنسي موليان Mallien قد اكتشف منبع نهر السنغال ، ومانع نهر الغامبية وريوغرانده سنة ١٨١٨ .

ثم ان رينيه كاليه Rene Caillié الفرنسي ، لم يزل يحجب تلك الأقطار حتى وصل الى تمبكتو بعد مشاق لا توصف ، وذلك في فبراير سنة ١٨٢٨ ، وبعده أن أقام بها مدة

لحق بقافلة مغربية عائدة الى فاس ، فوصل الى هذه العاصمة في ١٢ اغسطس ، ومنها ذهب الى الرباط وأبحر الى فرنسا ، وأكرمه الحكومة والجمعية الجغرافية ، لكونه أول أوروبي وصف تمبكتو وصفا عن عيان (١) .

وسافر الضابط لانغ Laing الاكوسى من طرابلس الغرب ، فاصداً تمبكتو في ١٦ يوليو ١٨٢٥ ، فبلغها في ١٨ أغسطس ١٨٢٦ ، ولكنه قتل أثناء اياها . وأما الاكوسى كلابرتون Claperton فاكشف بحيرة تشاد ، وملكة الفلاته ، وزار مدن كالوا ، وكازينال ، وسوكوتو ، ومات في سوكتو سنة ١٨٢٧ وكان معه رفيق اسمه ريشاد لاندز فاكشف مصب النيجر ثم أكمل اكتشاف مجرى النيجر الدكتور بايكي الاكوسى ومعه جماعة ، وذلك من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٦٤ .

فهؤلاء السياح وأمثالهم هم الذين بقصص أسفارهم هاجوا شوق مبشرى الكنيسة الانكليكانية والنيبودية الانكليزية ، وكان الانكليكانيون منذ سنة ١٨٠٤ أسسوا مراكز لهم في سيراليون Sierra Leone واقتدى بهم المنيوديون بعد ١٠ سنوات من ذلك التاريخ ، وفي سنة ١٨٦١ ، كانت لنصارى الزنج في تلك الأقطار كنيسة مستقلة بذاتها .

وأما طريق الكاب فهي الطريق الثالثة التي دخل منها المبشرون الى باطن افريقية ، والمبشرون هنالم يسبقهم السياح بل كانوا هم السابقين ، بدأ بذلك جورج شميد سنة ١٧٣٧ ، ويانسن سنة ١٨٠٠ ، فوصلا الى بلاد الهونتوت ، ثم ان الدكتور نيودور فان ديركب الهولاندى ، ذهب الى بلاد الكافر من ناحية بور اليزابت . ثم الدكتور فيليب الانكليزى وصل الى بلاد البوشمن Buschmen ، الذين هم أشد أولئك الأقوام توحشا ، وقد تكلم هؤلاء المبشرون عن قسوة طائفة البوير نحو السود ، ولا سيما الدكتور فيليب هذا ، الذى كانت له اليد الطولى في الغناء لرق بتلك الديار ، وكان هو السبب في اعطاء الهونتوت حقوق رعيا المستعمرات .

ومن ذهب للتبشير في بلاد الكاب يسو Bisseux الفرنساوى أحد دعاة البعثة الانجليزية الباريزية ، وصل الى وادى شارون Charron فوجد هناك أربعة آلاف مستعمر

(١) أما العرب فكانوا يعرفون تمبكتو منذ قرون ، وحيث هذه المدينة والمالك التي تجاورها أعصرا طويلا جزءا من سلطنة المغرب الأقصى ، ووصول السائح العربي الى تمبكتو ، لم يكن له من الشأن أكثر من وصوله الى إحدى مدن المغرب .

فرنسي من أعقاب الهوغتوط (برتستانات الفرنسيين) ، جاوا الى هناك عند طردهم من فرنسا ، ولكنهم كانوا نسوا اللغة الفرنسية تماما ، ولم يبق عندهم من آباؤهم الا بعض نسخ فرنسية من التوراة . ثم ان اثنين من برونتانتات باريز لير 1. emire ورولان Roland وصلا سنة ١٨٣٣ الى لسوتو Lessouto . وصار هذا القطر من ذلك الوقت مركزاً للدعاية البرونتاندية الفرنسية . وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة ، تقدم أوجين كويليار Eugene Coillard الفرنسي الى بلاد زمبازه العليا ، ونصر كثيراً من زنوج الماروتزي Marotse . ولكن الاكوسيين أحرزوا قصب السبق في تهذيب أهالي تلك الأقطار ، اشتهر منهم موفات Moffat الذي قضى زهاء نصف قرن ، يجتهد في تنصير أمة البيتشوانه Betschouana وترجم التوراة الى لغة السيئشوانه Sitschouana ، فأوجد في لغة أولئك المتوحشين أدباً لم يكن معروفاً ، وازوج موفات ابنته ، من ليفنستون الشهير المولود سنة ١٨١٥ ، وكان هذا رحلة ومبشراً معاً ، بدأ سياحته بين نهر الاورانج وزمبازه ، ثم دخل أواسط القارة الافريقية ، ومنها خرج في لواندة Loanda بساحل الكونغو ، ومنها ذهب الى كلبان Quelimane بساحل الموزامبيق ، وهو أول أوربي اطلع على مجرى نهر زمبازه ، وهذه رحلته الأولى من سنة ١٨٥٣ الى ١٨٥٦ ثم باشر رحلته الثانية (١٨٥٨ الى ١٨٦١) فعرف بها مجرى النهر الأدنى ، ودخل بلاد الشيري Chire ، واكتشف النياسا Nyassa من البحيرات الكبرى في أواسط افريقية . وأما في رحلته الثالثة ، فجاب الاقليم الواقع بين بحيرة نياسا وبحيرة تنغانيكا ، وعرف طرف التنغانيكا الجنوبي ، وسنة ١٨٦٨ اكتشف بحيرة بانغفلو Bangwelo ، وفي هذه السنة انقطعت أخبار ليفنستون المذكور ، فقلق بال الناس عليه نظراً لباهر اقدامه وجراته ، فأرسل مدير جريدة النيويورك هيرالد أحد الأخباريين المدعو هنري ستانلي لتعقب آثار ليفنستون ، فسافر ستانلي من باريز سنة ١٨٧١ ، فالتقى ليفنستون بعد ١٠ سنوات في محل يقال له أوجيجي على ضفة بحيرة التنغانيقا ، ومات ليفنستون بعد ذلك بستين أي عام ١٨٨٣ على ضفة بحيرة بانغفلو . وكانت للفنستون هذا مهمة عالية ، وعزمة راسخة ، استخدمهما في الغاء الرقي ومنع تجارة الرقيق ، وتعرض من أجل ذلك مراراً للاخطار .

أما الطريقان الباقيتان الى داخل افريقية فهما (الجزائر وطرابلس) اللتان كانت تذهب

منهما القوافل الى باطن القارة السوداء ، وكانت هذه القوافل تحدث عن بحيرة عظيمة في الداخل يقال لها وانغراه ، وكانت جمعية الشركة الافريقية في لندن أرسلت الماجور بيدى Peddie والضابط ليون بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٩ فهلك الاول، وعجز الثاني عن تجاوز فزان ولكن فنصل انكثرة في طرابلس كان يؤكد تلك الشركة أن الطريق من طرابلس الى برنو هي مفتوحة نظير الطريق من لندن الى ادمبرغ (١).

فأرسلت الشركة الافريقية بعثة عقدت عليها للماجور دنهام ، فسارت من طرابلس في آخر مارس عام سنة ١٨٢٢ غزت من فزان ووصلت الى كوكا عاصمة برنو في ١٧ فبراير عام ١٨٢٣ وتوغل كلا برتون أحد اعضاء هذه البعثة الى بحيرة تشاد وزار كانو ، وسكوتو . ثم أرسل الانكليز بعثة ثانية تحت قيادة جنس ريشاردسون ، وكان معه الالمانيان أوفرفغ Owerveg وبارت Barth فساروا من طرابلس في خريف سنة ١٨٥٠ ، واخترقوا فزان الى العابر ووصلوا الى بحيرة تشاد . وسنة ١٨٥٢ مات الالماني أوفرفغ ولكن زميله بارت لم يفتزعزمه بل أوغل في بلاد الاداموّه في الجنوب وعرف أن نهر بينوى Binoué هو من شعب نيجر . ثم ذهب الى سيكوتوفى الغرب ، ومنها صعد وادى النيجر الى الشمال الغربى حتى بلغ تمبكتو فاقام بهذه المدينة من سبتمبر سنة ١٨٥٣ الى مايو من السنة التالية وعاد من تمبكتو ، الى برنو ، ومنها عاد الى أوروبا سنة ١٨٥٥ .

وأما الفرنسيين فبعد فتح الجزائر ، بدموا بجو بون الصحراء ، فكان اسماعيل بودريه ترجان النظم العربى في «الاقوات» أول من أتى بالمعلومات الحقيقية عن الصحراء وعن التوارق الذين بين واحدة وارغله ، وغلت وذلك في نحو سنة ١٨٥٠ وعقبه في سنة ١٨٥٩ هازرى دوقافيه فجاء بمعلومات كثيرة عن التوارق . وبعد ذلك بسنتين أرسل الكردينال لافيحجرى رهبانه الالباء البيض الى أقاصى الصحراء ، حيث أسسوا مراكز للتبشير وفتحوا

(١) الحقيقة أن هذه الرحلات التي قام بها السياح الاوربيون في باطن افريقية ، وعددها أهل أوروبا مآثر عبقرية ، ووضع أصحابها في صلب أعظم الدهر ، كان العرب من سياح وتجار ودرأويش ، قاموا بأضماض أضماضها منذ قرون ، ولكن بدون بأو ولا نغر ولا ضوءاء عظيمة بل بكل بساطة لا يرى الواحد منهم في الذهاب الى بحيرة تشاد او الى السكنتو من القرابة ، أكثر مما يرى في الذهاب من تونس الى غدامس . ولما وصل الاوربيون الى تلك الأقطار التي ظنوا أنها مجهولة عند كل العالم ، لم يجدوا من جاهلها مكاناً الا فيه عرب ، أو آثار للعرب واللغة العربية .

مدارس للتعليم .

ومن الداخل المهمة التي كانت للاكتشاف والنشر جزيرة مباسا Mombasa وتوابعا ، وقد كانت مستعمرة برتغالية أو برتغالية ، فاستولى عليها امام مسقط ، ثم سلطان زنجبار . ولما كانت منفذاً للقوافل الواردة من الداخل رأيت فيها جمعية التبشير الانكليكانية محلا مناسباً لبث الدعوة . وسنة ١٨٤٤ جاء رجل الماني من ورتمبرغ اسمه كرايف . فسكن في راباي بقرب مباسا ، ثم انضم اليه جواب آخر الماني اسمه ريمان ، فأزما السير والنظر في داخل البلاد ، وكان أهم ما اكتشفاه ، جبلان مغطاة قنهما بالنلج الابدي جنوبي خط الاستواء ، وهما كينيا وكيليا نجاروا^(١) وتقدم هذان الرحلتان في بلاد جافا Djugga وكان أهلها من أشد الزوج توحشا يأكلون لحوم البشر فاخذ كرايف وريمان يرشدانهم ويهنيان من أخلاقهم ، وفي احدى المرات أراد أحد ملوك تلك الناحية أن يكافئ كرايف على هدايا قدمها له فوجهه عاجا ومواشى وعدداً من العبيد فقال له كرايف : أما العبيد فلا أقبلهم لان العبودية هي خلاف القانون الالهي ، وأما المواشى والعاج ، فما جئت الى بلاد اوزامبارا لاجل حطام الدنيا ، فاذا شاء الملك يعطيني بعض أولاد غير ارقاء آخذهم معي الى رباي وأر بهم . ولما علمت جمعية لندن الجغرافية باكتشافات هذين الجوابين أرسلت بعثة عقدت عليها لضابطين من الجيش الانكليزي الهندي وهما ريشارد بورتون ، وسبيك ، فافروا من زنجبار سنة ١٨٥٨ واكتشفوا بحيرة تانغانيك^(٢) ثم بحيرة نياسا التي لم يروا الاقسا منها واطلقوا عليها اسم بحيرة فكتوريا ثم توغل سبيك ورفيق آخر معه في شمالي خط الاستواء الى الغرب ، فصادقا نهراً ظنا أنه من أصول النيل ، ثم سارا في نحو الشمالي فوصلا الى غوندوكورو في بحر الجبيل ، وتلاقيا مع صموئيل باكر وأمرأته اللذين كانا يبحثان عن منابع النيل آتيين من الخرطوم .

وبعد عشر سنين من هذا التاريخ تلاقى هانري ستانلي مع ليفينغستون في أوجيجي على شاطئ التانغانيك . والضابط كامرون خرج من زنجبار سنة ١٨٧٣ فلتقي في الطريق قافلة الزنوج الامناء ، التي كانت آتية بحمة ليفينغستون وأوراقه الثمينه ، وسار

(١) ١١ مايو عام ١٨٤٨

(٢) ١٣ فبراير ١٨٥٨

من الشرق الى الغرب محترقا جميع قارة افريقية واكتشف مجرى لوكايا Loukaya ولوالا به Loualaba ونفذ الى ساحل بنقويله Benguela على سيف الاطلانتيك (١٨٧٨) . ثم ان هانري ستانلي تمكن من نقل مركب بخارى الى بحيرة فيكتوريا نيانزا ، فجاء في جميع أقسام هذا البحر الداخلى وأقام مدة ببلاد اوغاندا Ouganda ، ثم ضرب الى الغرب ، فوصل الى أعلى نهر الكونغو وعرف الشلالات التي سميت منذ ذلك الوقت باسمه . وأما الضابط البرتغالى سرپا بنيتو Serpa-Pinto فأخترق هذه القارة من الغرب الى الشرق ، اذ سار من بنقويله في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٧ ، وأوغل في مجاهل نانو ، وهيرامبو ، وييهي ، ووصل الى الزامبيز الاعلى ومنها الى بلاد الماتيليه Matelébe ، والترانسفال .

فأسفار هؤلاء السياح هاجت شوق جمعيات التبشير الى بث الدعوة الدينية ، لاسيما كتاب ستانلي الى مسيحي انكلترة الذي حرره من مقرميتسه Mtesa ملك الاوغانده (١٨٧٨) فقد أحدث هياجا عظيما ، ورأيت جمعيات كليات اكسفورد ، وكامبريدج ، ودبلين ، وجمعية الكنيسة الانكليكانية ، والاباء البيض ، والمبشرين الالمان ، يتسابقون الى رود هانيك الارياء والدعاية فيها .

وهذه الاسفار أيضا كان لها التأثير الأكبر في اهتمام الدول الأوربية بمنع تجارة الرقيق المنحولة (١) وكانت انكلترة هي السابقة في هذه الحلبة ، ولما كانت جزيرة زنجبار هي أعظم مركز لهذه التجارة فقد اجبر الانكليز سلطان زنجبار عام ١٨٧٣ على امضاء العهد بمنع تجارة العبيد ، وأخذت مراكب انكلترة تضبط جميع مراكب العرب التي تجر فيها عبيداً ، وكثر عدد هؤلاء المستنقذين ، فعمروا لهم مكانا يشتغلون فيه فصاد جزيرة مياسه سنة ١٨٧٦ انعقد مؤتمر جغرافي في بروكسل ، انتخب فيه ليوبولد ملك البلجيك رئيسا للشركة الشعبية لتحضير افريقية ، وهذه الشركة ، هي التي أوجدت حكومة الكونغو الحرة .

وسنة ١٨٨٥ ، انعقد في برلين مؤتمر لتقسيم افريقية بدعوة البرانس بيسبارك ، وخرج في نصيب المانية حصص صالحة مثل مستعمرات الكامرون ، وتوفو ، وزنجبار ، وتقرر بين الدول المتشددين في الغاء الرق ، والتعهد بحماية رسالات التبشير الساعية في تهذيب

(١) اوافق على أنها منجولة

السود بدون تفريق بين المذاهب والأجناس ، كما ان حرية الأهالي الدينية بقيت مضمونة وقد أبدت قرارات مؤتمر برلين هذا مؤتمرا انعقد في بروكسل عام ١٨٨٨ ، تداعت اليه جميع الدول النصرانية وأرسلت اليه بعض الدول الاسلامية مثل تركيا ، وإيران ، وزنجبار معتمديها ، وتقرر انشاء دائرة دولية في زنجبار لمراقبة ابطال الرق .

الرسالات البروتستانتية في افريقية

لم تصل البعثات التبشيرية الى افريقية الا بعد البعثات الكاثوليكية بقرنين ونصف قرن ، وهو أمر طبيعي لأن البروتستانتية قبل أن تفكر في نشر دعوتها في خارج أوروبا ، كان عليها أن توطد قدمها في داخل أوروبا . ولكن البروتستانتين بعد أن بدأوا في التبشير سبقوا أقرانهم الكاثوليك في الاجتهاد والنجاح . وكانت الدول المسيحية بادية ذي بدء أرادت حل الزواج على التنصر بنفوذ الحكومات ، وسارت زمانا على هذه الخطة ، ولكن دول انكلترا وهولانده ، والدانمارك ، رفضت في التالي هذه الطريقة خشية حدوث الثورات في مستعمراتها ، وتزكت اثناء مهمة التنصير للجمعيات غير الرسمية .

وان أكثر الأمم رسالات دينية في افريقية هي الأمة الانكليزية ، فانها تنفق بقدر ثلثي نفقات الرسالات البروتستانتية باجمعها . ولكن الذين بدأوا بالتبشير لم يكونوا الانكليز بل الألمان والدانمركيين . وقد كان أول من اقتحم هذه الأخطار من الألمان هو المورافيين حاولوا الدخول من أربعة أبواب معا : الجزائر ، والقاهرة ، وساحل غينية ، والكاب . ففضلوا في الثلاثة الأبواب الأولى بسبب تمسك أهل الاسلام بدينهم ، وبما فتكت بهم الحجة في غينية ، فقد كانوا يرسلون الفوج بعد الفوج ، فتحصدهم الحجة تباعا حتى عدلوا عن رسالة غينية ، ولم يستأنف العمل هناك الا بعد ستين سنة بواسطة جمعية (بال) من سويسرة الالمانية . أما في بلاد الكاب ، فقد كانت لهم اليد الطولى في تهذيب الهوتنتوت والكافر Kafres ، وتخفيف آلام المجنومين . ولما توطن البشر الألماني جورج شميد في بافانيس كلوف على ٥٠ ميلا شرق الكاب ، كان الفلاحون الهولانديون « البوير » يحتقرون الهوتنتوت الى حد أنه هو قرأ امام عدة كتائب الاعلان الآتي « ممنوع دخول المهنتوت والكلاب الى هنا » . وسنة ١٧٩٢ أسس المورافيون في تلك البلاد مركزاً أطلقوا عليه اسم وادي الرحة Gnabental ، وفي سنة ١٨٠٠ صار هذا المركز قرية ذات ١٢٠٠ نسمة

فيها صناعات وأشغال مفيدة ، واليوم هي من أزهر بلاد الكاب ، وفيها ثلاثة آلاف هونتوتو مسيحي . ثم أوغل المورافيون في بلاد الكافر الى مسافة ٦٠٠ ميل شرقي الكاب . وعافت أعمالهم حروب الانكليز مع أمة الكافر ، لكنهم ثبتوا في موقفهم وصبروا على الشدائد من سنة ١٨٢٨ الى سنة ١٨٨٥ ، اذ فاقوا الى تأسيس مركز في شمالي بحيرة نياسه Nyassa في الجنوب الغربي من المستعمرة الألمانية الشرقية . وكان للبعثة المورافية عام ١٩٠٢ نحو ١٢ مركزا ، ٢٢ مدرسة ، و ٢٠٠٠ تلميذ ، ونحو ١٠ آلاف متنصر وعلموا الأهالي البناء والحرف . ولكن أهم عمل قاموا به هو معالجة المجازيم ، فان الانكليز منذ سنة ١٨١٨ بنوا مستشفى لمجنوبي الهونتوتو وسلموا خدمته الى المورافيين ، وكان مستشفى واسعاً ذا جدران عالية وباب واحد ، فلبثوا يخدمون هذا المستشفى ٤٤ سنة ، وكان الدكتور لايتز مدير المستشفى متعزياً عند وفاته ، بأنه وجد من المجازيم ٩٥ رجلا قبلوا الدين المسيحي . ولا أرادت الحكومة الانكليزية استبدال قسوس انكليز بهم ، خرجوا من ذلك المعهد الصحي باكين ، ومن الغريب انه لم يصب ولا واحد من المورافيين بالجذام مع شدة عدوى هذا المرض .

ويأتي بعد المورافيين دعاة جمعية بال (أو بازل بالألمانية) فقد نطحوا افريقية سنة ١٨٢٨ بطلب ملك الدانمرك ، فذهبوا الى ساحل اذهب وكانوا سبعة ، ثلث منهم خسه بالحي ، والثلثا أحد الاثنين الباقين الى أحد الجبال حيث الهواة تقي ، فجعل هناك مركز رسالة ومصحة معاً ، وسنة ١٨٣٥ أسس في اكروينغ كنيسة لنصارى السودان ، وكانت مبادئ العمل في غاية المشقة اذ مضت ٣٤ سنة ولم ينتصر سوى ٨٠٠ شخص ، ولكن منذ سنة ١٨٥٧ أخذت الرسالة تنجح وعدد المنتصرين ينمو ، حتى كان مجموعهم سنة ١٩٠٢ نحو ١٨ ألفا . وهذه الرسالة اليوم ممتدة الى بلاد الاشانتي التي قاعدتها كوماسي ، والى حدود مستعمرة طوغو الألمانية . ولها أيضا تسعة مراكز في مستعمرة الكامرون الألمانية ، حيث يلف حولها نحو ثلاثة آلاف نصراني كامروني ، وعندها في الكامرون ١٣٣ من الكنائس ، يختلف اليها نحو ٣٢٠٠ ولد . وقد ترجم رجال هذه البعثة التوراة الى

اللغة المسماة دوالا Doualla

ثم جمعية برلين الافريقية وهي احدي جمعيات برلين الانجيلية ، أسسها ديستلكامب

Diestelkamp سنة ١٨٨٦ للتبشير في شرقي افريقية ، فأرسلت دعائها الى الجنوب الغربي من مملكة الاوراج ، والى غربي غربىكا ، والى بلاد الباسوت في الترانسفال ، والى شمالي بحيرة نياسه ، فيوجد لها في هذه الأيام ٢٧ مركز دعاية و ٢١ ألف متنصر ، وازهر مؤسساتها مدينة بوتشايلو ، التي عدد سكانها ٤ آلاف كلهم نصارى ، وفيها صناعات ومهن في غاية الفائدة .

ثم جمعية الكنائس الانجيلية في بلاد الزين أرسلت دعائها للتبشير في بلاد الهونتوت ، ثم نطحت بلاد الناما Namas ، والهريرو و Herreros الذين هم من أشد القبائل عنواً والاقامبو الذين بين نهر الاوراج والسكونيين ، ثم إن أحد البيوتات التجارية الالمانية من برآم أسس محلاً تجارياً في اونجيمبنغه Oujimbenge فاستد هناك الالمان وجعلوا لأنفسهم مستعمرة سموها مستعمرة الجنوب الغربي الافريقي ، فالرسالة الانجيلية الرينية عندها في هذه الأيام في مستعمرة الكاب ٢٥ مركز دعاية ونحو ١٦ ألف متنصر ، وفي مستعمرة الجنوب الغربي المذكورة ٢٤ مركزاً ونحو ١٢٥٠٠ متنصر .

ثم جمعية شمالي ألمانيا التي مركزها برآم ، وجمعية هرمانسبورغ التي مركزها هانوفر هما أيضاً تستغلان في الدعاية بأفريقية ، فالأولى تخدم هذا المقصد في ساحل العبيد وعندها نحو ٣ آلاف مرید ، والثانية تستغل في بلاد الباسوتو شمالي الترانسفال ، والباسوتو قوم كان البوير يعاملونهم معاملة أرقاء . ثم تقدم دعاة هذه الجمعية الى بلاد الزولو ، وشرعوا في التعليم والتبشير ، فمن نصف قرن الى اليوم صار عندهم نحو ٤٣ ألف متنصر .

ثم تأتي جمعيات السويد والنرويج ، فالسويد جمعية تبشر في مستعمرة ايطالية بالارينه ، وفي بلاد كونانه ، ومقاطعة جازه ، شمالي الحبشة الى الغرب ، وكان عندها سنة ١٩٠٢ عشرة مراكر و ٥٠٠٠ مرید و ١٤ مكتباً للصفار . أما النرويجيون ، فقد أسسوا في ماداغسكار رسالة في غاية العظم ، فانتخبوا مقاطعة بتسيليو للعمل بالاتفاق مع جمعية لندن التبشيرية ، ثم تقدموا الى بلاد ساكلاف في الساحل الغربي من ماداغسكار ، والى الساحل الجنوبي الشرقي . وبعد جهد استمر ٣٠ سنة ، كان عندهم سنة ١٩٠٠ خمسة مائة مكتب ، وواحد وخمسون ألف وثلثمائة مرید ، ولهم أيضاً مدرسة علمية عالية ، ومدرسة لاهوتية ، ومدرسة طبية تابعة لمستشفاهم بتاناناريف .

ثم الجمعيات الهولندية ، وأول من اعتنى منها بالتبشير ، جمعية تأسست سنة ١٧٩٧ في روتردام ، اسمها جمعية جنوبي افريقية لتوسيع مملكة المسيح . وكان بطلاها نيو دور فان دركاب وكيشرر ، فذهبا الى بلاد الكاب وباشرا العمل في بلاد الهوتنتوت وعند ذلك اشتمت عزيمة الكنيسة الهولندية في الكاب ، فقامت بما يجب عليها من التبشير بين زنوج بلاد الأوراجج والترانسفال . ولما دخلت بلاد الكاب تحت سلطة انكلترا سنة ١٨١٥ ، انطلقت أبدي الجمعيات التبشيرية الانكليزية في العمل لاسيما جمعية التبشير بالانجيل المعروفة بهذه الأحرف الثلاثة S.P.G. فقد بثت الدعاية بين الأهالي بهمة المطران غراي ، وسنة ١٨٦٤ دخلت هذه الجمعية ماداغسكار ، وأُسست كرسي اسقفية في تاناناريف ، وصار عندها ٩١ الف مرید .

ثم برزت الى الميدان جمعية رسالات الكنيسة الانكليزية المؤسسة عام ١٧٩٩ ، وكان معظم همها مصر وفرنسا نحو افريقية ، وكانت كلفتها « يذبحي رجال ذوو عقل ديني لا كمال عمل روي » وفي البداية كانت تكتب أكثر دعواتها في ألمانية ، فقد أخذت من مجمع مدينة بال وحده ثمانين داعياً كلهم من الطراز الأول . وكان ميدان عملها الكاب ووادي النيجر الأوسط ثم مومباسه ، ثم الأوغانده حيث وقع الخلاف بين المبشرين الكاثوليكين والمبشرين البروتستانتين وجر الى معارك دموية ، ومع هذا ، فإن هذه الجمعية جمعت حولها ١٦٤ الف منتصر في الأوغانده وحدها وكان يوجد هناك نحو ٢١٢ الف زنجي كاثوليكي ، و ٤٠ ألف مسلم . ولا يزال نحو ٣٨٠ الف زنجي على عبادة الأصنام^(١) فالرسالة الانكليزية بواسطة هذه الجمعية تمكنت من تأسيس خمس عشرة اسقفية وهي ماياقي : اسقفية الكاب (١٨٤٧) سياراليون (١٨٥٢) نانال (١٨٥٣) ، غرامستاون (١٨٦٣) ، بلومفونتين (١٨٦٣) ، الزولو (١٨٧٠) سان جان في بلاد الكافر (١٨٧٣) تاناناريف بعدغسكار (١٨٧٥) ، بريتوريه (١٨٧٨) ، زنزيبار وشرقي افريقية . خط الاستواء . بلاد النيجر . نياسه وماشونه في روديزيه Rhodésia . ويضاف الى هذه الاسقفيات مدارس للعلوم والمهن كالحداة ، والتجارة ، وجر الانتقال ، وغيرها ، وأشهر هذه المعاهد الذي في غراهامستون ، ثم الذي

(١) قرأت في بعض الكتب الفرنسية أن الانكليز عززوا قوة الدعاية الانكليزية بالسلاح في الأوغانده وضايغوا الكاثوليك والمسلمين

في بلاد الكافر ، ثم الذي في جوار الكاب ، ثم الذي في كيبوزي .

ولقد اعترف بجلائل أعمال هذه الجمعيات أبعد الناس عن الدعوة الدينية . فقال اليزه ركلوس الجغرافي الفرنسي الشهير : انه بتاثير دعاية الجمعيات الانكليزية دخل كثير من زنوج سيراليون في النصرانية وصار منهم أكثر نواعظ والمبشرين ، وأقبل الناس على التعلم وتحرر الأرقاء ، وتأسست مملكة سوداء حرة .

ثم جعية رسالات لندن المؤسسة سنة ١٧٩٥ ، أرسلت دعائها الى بلاد البوشمن في الأورانيج الأعلى ، والى ماين بلاد الكاب وبحيرة ناقي ، والى جزيرة ماداغسكار ، وأسست سنة ١٨٧٧ مراكز بقرب تنفانيكا ، واورامبو ، واونجيجي . وقد كان مريدو هذه الجمعية بلغ عددهم سنة ١٨٥٠ في بلاد الكاب ، ٣٥ الف نسمة ، وأما في سنة ١٩٠٢ فكان عددهم ٩٦ ألفاً عدا رعية كنيسة نانال . وتنصر على يد ليفنستون أحد أولاد ملوك بامانواتو المدعوكلما ، فنع استعمال الأثرية الكحولية بين الأهالي .

وقد اقتدت بالكنيسة الانكليكانية الكبرى الكنائس التالية ، فالكنيسة المعمدانية نشرت دعوتها في خليج غينية وجعلت لنفسها مركزاً في جزيرة فرناندوبو الاسبانية ، ثم بثت دعائها في الكامرون حيث بنت مدينة فكتوريا التي صارت قاعدة مستعمرة الكامرون الألمانية ، وتركت في تلك البلاد مآثر عظيمة من تزكية الأخلاق . والفناء الرق وابطال السحر واسقاط السحرة الى أن صاروا يتوارون في الغاب وصارت الفنيشية سخرة يهزأ الجميع منها . ولما استولى الألمان على الكامرون لم يرتاحوا الى وجود المبشرين الانكليز فيها ، فتحلوا هؤلاء عن مؤسساتهم لجمعية بال الألمانية (١٨٨٧) ، ولبت النصارى الوطنيون مستقلين بكنائسهم . وتحولت الجمعية المعمدانية من الكامرون الى الكونغو حيث كان البرتغاليون قد أدخلوا كثيرين في الكنيسة ، فاجتهد الانكليز المعمدانون في استمالة قسم من أهل الكونغو ، ولكن الى اليوم لايزيد عدد المنتصرين على أيديهم على أكثر من ٦٠٠ نسمة (١٩٠٦) .

ويرجع الى هؤلاء المعمدانيين الفضل في تبيين الأفكار ، الى ما كان يجريه عمال البلجيك في الكونغو من المظالم والفظائع ، التي نشمئز منها الطابع ، والتي شاع ذكرها فيما بعد ، فصدر أمر ملك البلجيك ليوبولد حينئذ بالتحقيق عن هذه الفظائع ، ونار من أجل

ذلك غضب أولئك المستخدمين الذين افتضحت أعمالهم لكن المبشرين قاموا بواجبهم تجاه النصرانية والانسانية جميعا .

ثم الكنيسة المسماة بالميثودية Wesleyenne ou Méthodiste ^(١) بدأت بالتبشير في سيراليون سنة ١٧٩٦ ، ونجحت نجاحاً عظيماً حتى يعد مریدوها اليوم بنحو ٧٥٠ ألف نسمة منهم ١٥٠ مبشراً زنجياً وعندها فروع ممتدة من غامبيه الى النيجر . والكنيسة الميثودية هذه رعية في بلاد الكاب ، والكافر ، والزولو وعصى مریدوها هناك بنحو ١٠٠ ألف نسمة . وفيما بين الزوج الميثوديين ظهرت الحركة المسماة بالاتيوبية Ethiopisme التي معناها نزوع المسيحيين السود من أمة البانتو Bantous في جنوبي افريقية الى ادارة الكنائس الأهلية بدلا عن الأوربيين ، عملاً بقاعدة « افريقية للافريقيين » ، وقد برزت هذه النزعة سنة ١٨٩٦ في الترانسفال ، وأخذت اسم الاتيوبية بحجة ان أصحابها يريدون الانتهاء الى الكنيسة الاتيوبية أي الحبشية ، لأنها كنيسة مسيحية أصلية في افريقية تأسست منذ أيام الحواريين . وهم يرمون المبشرين الأوربيين بكونهم غالباً يعملون التبشير مصيدة للدنيا ، وغرضاً من أغراض السياسة والتجارة ، ولا يفهمون حقيقة احتياج الروح السوداء ، فرماهم تأسيس كنيسة افريقية حرة لا تحت سيطرة المبشرين الأوربيين ، ولكن أصحاب هذا المشروع كان ينقصهم العلم اللازم والقوة الكافية لتحقيقه ، فراجعوا الكنائس السوداء بأمر كالأجل مساعدتهم ، فلم يفوزوا بطائل يذكر فانضموا سنة ١٩٠٠ الى كنيسة الكاب الانغليكانية ، واتخذوا لقب الجمعية الحبشية وعندهم نحو ١٠ آلاف ، ^(٢)

ثم الكنيسة البرسبترية L'Église Presbytérienne في بلاد الايكوس لها مراكز دعاية في بلاد نانا ، وعندها مدرسة في بليتسفورد . وكذلك الكنيسة الايكوسية الحرة لها مراكز في بلاد الكافر ، والزولو ، وعندها مدرسة صناعية في لوفيدال ، فيها نحو ٥٠٠

(١) كنيسة پروتستانتية أسسها في ١٧٢٩ سنة John Wesley وسلي

(٢) يعلم القارىء المسكر من هنا ان نزعة الاستقلال عمت جميع الأمم حتى السوداء ، وصارت الى المسائل الدينية أيضاً فإذ قد قسم من الزوج يتصرفون على أيدي الأوربيين حتى نهضوا يطلبون استقلالهم الكفسي ، ويحتنون الى الحبشة الصمالي ، ملتمسين الانضمام اليهم لأنهم افريقيون في الجنس .

طالب ، ويتبعها مزرعة نموذجية ، تبلغ غلتها كل سنة ألف قنطار من الحبوب وبالاجال فالرسالات الألمانية امتازت بالدقيق في اللغات الافريقية ، وبالشبث وحفظ النظام ، ولكن الرسائل الانكليزية والايكوسية امتازت بالجرأة وبعد الهمة ، وبالصدق في تحرير الزوج ، ومنع المظالم الواقعة عليهم من المستعمرين ، على ان كلا الفريقين ادخل في افريقية الشغل اليدوي ، والصناعة والزراعة ، مقرونة بالتعليم الديني والتهذيب ، فصرت ترى من هؤلاء السود زراعا وعشفاً^(١) وممرضين وميكانيكيين وقوامين على التلغراف .

أما البروتستانتيون الفرنسيون فقد أرادوا الاقتداء بغيرهم من أبناء سائر الكنائس الانجيلية ، وتأسست لهم جمعية تبشير في باريس سنة ١٨٢٨ ، وأرادت بث دعائها في العالم الوثني مبتدئة في ذلك بالمستعمرات الفرنسية مثل جزر الانتيل ، والبونديشيري ، ولكن الكاثوليكين أبوا ذلك ، فلم يسبح كارلوس العاشر ملك فرنسا للبروتستانت الفرنسيين بالتبشير في تلك الأصقاع ، فاعمل هؤلاء همتهم في بلاد الكاب لاسيا عند جبل يقال لهم الباسوتو Bassutos وقد مضى على دخولهم تلك البلاد سبعون سنة هذبوا فيها أخلاق هذا الجبل ، وأوجدوا بينهم العلوم والمهن ، وأسسوا مدارس وكتاتيب ومطابع ، وعندهم الآن ٣٠ ألف مسيحي من الأهالي و ١٢ ألف ولد في كتاتيب الباعة ، وقد جمع المبشرون لغة هؤلاء القوم في معجم ، وألفوا لها نحواً وصرفاً وآداباً ، وترجوا لها التوراة .

ولما تأسست في فرنسا الحكومة الحرة أذنت لهم بالتبشير في المستعمرات الفرنسية ، فذهبوا الى السنغال سنة ١٨٦٢ ، والى الكونغو الفرنسي ، والى زمبيزة العليا ، والى ماداغسكار . فأما الرسالة السنغالية فكان عليها أن تجادل خصمين عنيدين . المناخ الوثني ، والتعصب الاسلامي . وبالرغم من ذلك ، تمكنت من تأسيس مركزين أحدهما في سان لويس والآخر ، في بونديبور . أما في الكونغو الفرنسي فكان أولا المبشرون الامريكيون من الكنيسة البرسيبترية ، فلما قضت الحكومة الفرنسية بتعليم اللغة الفرنسية بصورة اجبارية دعا المبشرون الامريكيون جمعية التبشير البروتستانتية الفرنسية لأخذ مراكزهم (١٨٩٢)

(١) جمع عشيق أو عشوق وهو الذي يسرى رياحين الحدائق

وأسسوا أربعة مراكز جديدة ، وشرعوا في الوعظ بين قبيلتين أحدهما يقال له الغياوه Gaoas والثاني الباهوين Pahouins . وأما في زميرية العليا فانهم جعلوا ميدان عملهم بلاد الباروتزي Barotsis ، فنجحوا نجاحاً عظيماً ، ومن لم ينصر من هؤلاء القوم ، فقد تهذبت أخلاقه بالاحتكاك مع المبشرين ونشر التعليم المسيحي ، ومنهم لفانيكام ملك البلاد الذي أمر بجمع الأثرية الكحولية في مملكته ، فالبعثة الفرنسية الانجيلية عندها هناك ستة مراكز ، مع مدارس وكنائس عديدة . ولكن بدأت تراجعها منذ سنوات في ذلك القطر الجمعية الحبشية المر ذكرها ، والتي مبدؤها « افريقية للافريقيين » .

ولما استوت فرنسا على ماداغسكار بتامها سنة ١٨٩٥ ، كان التبشير في هذه الجزيرة الكبرى في يد الجمعية النورويجية ، ورسالتين انكليزيتين احدهما ، رسالة لندن ، والثانية رسالة الكويكرس . فلما زحفت العساكر الفرنسية ، اتهم بعض دعاة رسالة لندن بتحريض أمة الهوفا Hovas على المقاومة ، فطلبت الحكومة الفرنسية تحلي رسالة لندن عن قسم من مؤسساتها لرسالة فرنسا الانجيلية ، وكان لرسالة لندن حينئذ خمسمائة كنييسة ، وثلاثمائة وخمسة وسبعون كتاباً للاولاد . ولم يخل هذا الأمر من احدات شكوك وشبهات في افكار الماداغسكاريين المنتصرين حديثاً فاهتبل الجزويت هذه الفرقة لتحذير الحكومة من البروتستانية ، وزعموا ان بروستانتى هو مرادف انكليزى ، وان كاتوليكي مرادف لفرنسى أو محب لفرنسا ، فبمساعدة بعض ضباط القرنيس ألفوا في السجون عدداً كبيراً من القسوس الانجيليين من الوطنيين ، وانزعوا منهم نحو مائة كنييسة ومدرسة ، وسلموها الى الرسالة الكاتوليكية . وما زال هذا الاعتداء واقعاً حتى تولى الجزيرة الجنرال غاليانى ، فأبطله . والآن تحت يد البعثة الفرنسية الانجيلية في ماداغسكار في مقاطعة ايميريه Iméria ٣٤٢ كنييسة يختلف اليها ١٧٧٥٨ مؤمناً وفي مقاطعة بستيليو Bestileo ١٨٧ كنييسة يختلف اليها ٣٣٣٢٩ مؤمناً ، هذا عدا المدارس الابتدائية والعالية ، ودور المعلمين والمعلمات ، ومستشفى للجذام .

ولا ننسى مساعى الكنييسة الانجيلية المتيودة الفرنسية في بلاد البربر Kabylie من جزائر الغرب ، فقد ذهب الى هناك مبشر اسمه جالبرت عظيم الثبات والمهارة لجعل مركزاً في المين Mathou ، وآخر في القصور ، وآخر في بجاية ، ونصر عدداً من المسلمين

أكثرهم من البربر ، فظهر أن تنصير المسلمين لاسباب من أمة البربر ، ليس من الصعوبة بالدرجة التي كانوا يظنونها .

ثم ان الامريكيين قد تعاطوا أيضا التبشير في افريقية وذلك ، أن سود امريكا اهتموا باخوانهم سود افريقية من قبيل نضامن الجلدة ، وان البيض تذكروا انهم هم الذين كانوا قد أتوا بهؤلاء السود واستخدموهم واستعبدوهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا ، فرساتهم التبشيرية الى افريقيه ، هي تكفير جنابة الاعتداء على الانسانية مما ارتكبه آباؤهم بحق الافريقيين .

فلامريكيين في افريقية ثلاث رسالات : الرسالة المتيودية ، والرسالة المصدانية ، والرسالة البرسيسترية . فلما تأسست مستعمرة ليبيرية في ساحل غربي افريقية وجاءها الزئوج من اميركا (١٨٢٠) أرادت الكنيسة المتيودية أن تؤسس في ليبيره مركزاً فلم تتمكن من ذلك ولكن سنة ١٨٥٨ أسست أسقفية وجد فيها وعاظ مشهورون مثل بورنس وتايلر . (١)

(١) سنة ١٩٢٢ كان محرر هذه السطور من جملة الوفد السوري ، المطالب باستقلال سورية في جنيف لدى جمعية الأمم ، فحسب العادة كنا نطلب من جميع الوفود الدولية بدون استثناء ، الملازمة معهم لبسط القضية السورية لهم ، فكانوا في الغالب يجيبون سؤالا ولما كانت جمهورية ليريه هي من جملة أعضاء عصبة الأمم ورد لنا الجواب من مندوبيها أيضاً بيمين موعد للملاقة ، فذهبت أنا وزميلي احسان بك الجابري . وتذكرنا ساعة ذهابنا ، كيف ان حكومة أمة سوداء زنجيه تكون حرة مستقلة وعضواً في عصبة الأمم ، وان قتراً مثل سورية وفلسطين هما من أقدم وأشرف أقطار العالم ، وأمة كالامة العربية تكون محرمة استقلالها ، ولا يكون لها حق أن تساوى هذه الامة الزنجية الصغيرة ، في الجلوس على كرسى في عصبة الأمم . ولما وصلنا الى المحلل الذي فيه مندوبو ليريه التفتنا اثنان اور بيان ، تكلمنا منا بالفرنسية ، وعرفنا منهما انها مندوب تلك الجمهورية ، ففرحنا لهما قصتنا والنسنا منهما كالعادة ضم أصواتهما الى الأصوات الذين يطالبون باستقلال الامم ، فاعتفروا بأنهما يخافان الضرر من غرماننا الفرنسيين والانكليزيين . فمنا لورضا أصواتهما باسماطنا في مطالبنا ، اذ قالوا لنا ان جمهورية ليريه صعبة وبجارية لمستعمراتهم ، فيمكنهم الانتقام من الليبيين ، ونحن في الباطن عثرناهما ، ولكنهما قالوا لنا ، انه لم يتمنيان نجاح قضيتنا ونجاح كل البلاد الاسلامية فدألناهما وهل في جمهورية ليريه مسلمون ؟ فالتفت أحدهما وقال مؤكداً : « ان جمهورية ليريه سكانها مليون وخمسةائة ألف نسمة ، منهم ثلاثمائة ألف نصارى ، ومليون ومائتا ألف مسلمون . فسالناه وم عدد الاوربيين في ليريه ؟ فقال : الاوربيون الناجون من ليريه م ٥٠٠ نسمة لاغير . فلم نرد في السؤال على ذلك ، ونظن ان ازدياد عدد المسلمين هناك أمر حديث العهد . »

أما الرسالة المعمدانية الامبركية فلها مرااكر في موز وفيد ، وسيراليون ، وفي ايريه ، وفي بلاد يوروبه ، وقاعدتهم في هذه لاغوس على ساحل غنييه . وقد عضدهم في مساعيم كلها مبشرو الجمعية المعمدانية السوداء .

وأما الكنيسة البرسيترية الامريكية ، فقد وجهت نظرها من الأول الى مصر (١٨٥٤) ، وساعدها الخديوي سعيد باشا في مشروعاتها ، فشادت مدارس في القاهرة والاسكندرية وسنة ١٨٦٣ ، أسست الكنيسة القبطية الانجيلية وصارت لها شعب في أسيوط ، والافصر ، والمنصورة ، وسنة ١٨٩٥ ادخلت النصرانية في اسوان بعد أن كانت انقرضت من هناك منذ ١٢ قرناً ، فالقباط الانجيليون اليوم (١٩٠٦) يبلغ عددهم ٢٥ ألفاً وانهى المسيوبونه موري كلامه الملخص هنا بقوله ، ان نجاح هذه البعثات الانجيلية كلها في افريقية ، دليل على كون قوة الدعاية النصرانية لا تغلب فيما لو تجردت من الأغراض السياسية ، فانه لا يوجد آفة على التبشير أعظم من المآرب الاستعمارية ، اذ بذلك الأهالي يجعلون التبشير لجمع الآثام والمواقفات ، التي تصدر من عمال الحكومات المستعمرة .

نهضة الاسلام في افريقية وأسبابها

ووسائل دعوتها

(١٧٩٠ — ١٩٠٠)

قال : ذكرنا مجاهد الرسالات الكاثوليكية والبروتستانتية في افريقية ، سواء ، لأجل اعادة الاقباط والاحباش الى حظيرة الكنيسة الرومانية ، أو لأجل تنصير الزنوج ، وبقى علينا استئناف الكلام على امتداد الاسلام في افريقية .

فقد رأينا كيف ان الإسلام بين سنة ٩٣٨ و ١٠٥٠ مسيحية في دوره الأول فتح سريعاً شمال افريقية وأدخلها في دينه ، وامتد من ساحل البحر المتوسط الى السودان امتداداً كان بطيئاً ، ولكنه كان أميناً . وقد توقف سير الاسلام قليلا في القرن العاشر بسبب ثورات البربر ، وحروب الروم ، وقتل ملوك المغرب بعضهم مع بعض ، ولكنه استأنف هيبته وأدخل في حظيرته نصارى النوبة ، وأمم الفاله ، والسواحليين (سواحل زنجبار) ، وقبائل الصحراء ، ثم أسس في السودان ممالك عزيزة ، ومرااكر

عظيمة لبث الدعوة ، وهذا في دوره الثاني .

أما في الدور الثالث من سنة ١٧٥٠ الى ١٩٠١ فقد نهض نهضة ثالثة ، على أيدي مشايخ الطرق أو الاخوان ، وذلك انه في أواخر القرن الثامن عشر ، لما دخلت الدعوة البرونستانتية من كل نوع الى افريقية ، وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها بسائق المنافسة ، كان لابد من أن يتبته الاسلام لمقاومة النصرانية ، وان يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقابلتين ، مفرونا ذلك بالاهواء السياسية ، التي تزيد شدة وحدة .

وأكثر أسباب هذه النهضة الأخيرة ، راجعة الى التصوف ، والاعتقاد بالأولياء ، و بظهور المهدي .

ثم ذكر المؤلف كيفية دخول التصوف في الاسلام مما لم نأثره ، لأن مؤلفي الاسلام أدرى بهذا الموضوع ، وأشار الى عقيدة الأولياء قائلًا ، انها مخالفة أشد المخالفة لروح القرآن وان نبي الاسلام ﷺ كان نظره عاليًا جدا الى السماء ، ومجتهدا أن يعالو الى آفاق بعيدة بانظار المؤمنين و بصلواتهم ، ولكن المؤمنين لم يلبشوا أن شعروا بالاحتياج الى الوسيلة عند الله ، واتخاذ متوسطين لديه تعالى ، يكونون أقرب متناولًا . فلم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى ظهرت في الاسلام العقيدة بالأولياء ، وابتدعت زيارة قبورهم ، وصاروا يعتبرون لهم خصائص ، ويمزجون اليهم الكرامات والحواريق وأصبح نسل منهم أتباع ومريدون ، وأشبهت القضية العقيدة الكاثوليكية من هذا الوجه ، فالولي الفلاني يشفي من الرياح كما كان القديس فياكر يشفي مرض الباسور . والشيوخ محمد أبو طالب ، يقصده الناس لأجل لقبان الحوائج الضائعة ، كما كانوا في النصرانية يقصدون القديس انطوان بادو والامام الشافعي ، يستعيت به طلاب الأزهر ، للنجاح في دروسهم والولي الفلاني هو شفيع المحامين مثل القديس ايف Yves . والآخر مستغاث السياح ، يقبهم من اللصوص في الطريق .

وأفاض المؤلف في ذكر الأولياء والقبور ، والقبب المشيدة للزيارات وأداء النذور مما لا يحتاج القارئ الى معرفته ، ثم وصل الى عقيدة المهدي فقال :
 معلوم الدور الذي أخذته عقيدة المسيح المنتظر في اليهودية وظهر فيما بعد أنها مستعارة من الفرس . كذلك المسلمون يعتقدون بظهور رجل في آخر الزمان يقال له المهدي

علاء الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ويستدلون على ذلك بأحاديث للنبي ﷺ . ثم ذكر المهديين الذين ظهروا في الاسلام وأدعوا المهدوية فعدهم منهم ابن تومرت ، الذي ظهر بدولة الموحديين في القرن الثاني عشر للمسيح . ثم قال ان كثيرين من مسلمي الهند اعتقدوا في أكبر خان المغولي سلطان سلاطين الهند في القرن السادس عشر انه المهدي المنتظر ثم قال انه سنة ١٨٦٢ ظهر واحد من أمة البله Peulh من بلاد ماسينا في أواسط افريقية كان درويشا من أتباع الطريقة التبجانية ، فزعم انه المهدي وأسس في السودان مملكة مستقلة ، الا وهو الحاج عمر الذي سيأتي ذكره (١)

قال وأشهر المهديين في عصرنا محمد أحمد الذي ظهر في السودان سنة ١٨٨١ هُند حسين الف مقاتل من المؤمنين المتحمسين، وهزم العساكر المصرية المرسله لقتاله في عدة وقائع ، واستولى على الأبيض قاعدة كردفان وعلى بربر مفتاح بلاد النوبة ، ثم حصر الخرطوم عاصمة السودان المصري الواقعة في الزاوية المتشكلة من فرعى النيل الأبيض والازرق ، وكان فيها قائد أ كوسى اسمه غوردون فدافع عنها دفاع الأبطال ، ولكنه لم يقدر على المهدي ، فدخل هذا الخرطوم وقتل غوردون وأطاع له جميع السودان (١٨٨٥) لكنه لم تطل حياته بعد هذا الفتح فات في ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٥ تاركا سلطنة عظيمة ممتدة من اسوان الى النوبة الى دنقلة الى كردفان الى واحات دار فور . وخلفه عبد الله التعايشي فوسع الفتوح التي كان فتحها المهدي وما زال حتى تغلب عليه الجنرال كيتشر في ٣ اغسطس سنة ١٨٩٩ في واقعة أم درمان ، و بقيت للمهدي أشياع تقاتل في الأطراف ، الا أنهم انقضوا شيئاً فشيئاً .

ولم يعترف جميع مسلمي افريقية بمهدوية محمد أحمد وكان من جملة المعارضين له رئيس الفرقة السنوسية ، (٢) ثم قال المسيوبونه موري مصنف الكتاب الذي نقلنا عنه كل هذا نقل ما يأتي ملخصاً :

- (١) هو الحاج عمر القوي قال لي سيدي احمد الشريف انه كانت له صلة مع السنوسية وانه زار الجنوب
- (٢) هذا صحيح. كان المهدي السوداني محمد احمد دعا سيدي محمد المهدي السنوسي للاتحاد معه ووعدته بأن يجعله مقدم رجاله ، فرفض دعوته واحجج على دعواه ، وبينهما مراسلات في هذا الشأن أنبتها سيدي احمد الشريف في تاريخ تجده ومحمد الذي سينشره ، وقد اطلعت السيد المشار اليه عليه في هذه الأيام الأخيرة

انه في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح تأسست طرق الدراويش كأنها من نوع المقاتلة للرهبايات النصرانية في القرون الوسطى ، وللحروب الصليبية . وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين القادرية والشاذلية ووجدت طريقتان هما التيجانية والسوسية .

القادرية

القادرية مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد (١١٦٦) ، وكان له حرمة حقيقية للسيد المسيح وكان يقول : « يلزم أن ندعو لانفسنا فقط ، بل لكل من خلقه الله مثلنا » . فلذلك امتاز أتباعه بروح التسامح مع النصارى واليهود . والقادرية كثيرون جداً في المغرب وزاويتهم الكبرى في « عزارات » أسسها الشيخ مختار الكبير . وبعد وفاته انقسمت القادرية الى ثلاث فرق : الاولى القادرية البكاية الذين مركزهم الزاوية المذكورة ، وقد انتشروا الى « بكتو » . الثانية القادرية الذين في آدرار^(١) ، والثالثة القادرية الذين في والانة وقد انتشروا الى السودان الغربي فلهم مراكز في كانكان وتيمبو ، من بلاد فونجالون^(٢) وفي مورساردو من بلاد الماندينق ،^(٣) ومن هذه النقطة امتدوا الى الجهات المجاورة فعمروا ديار بلال الله ، وذكر الله ، ومدينه . وما زالوا حتى وصلوا الى مقاطعة سيراليون^(٤) وبالاجمال فالقادرية هم أحسن مبشرى الدين الاسلامي في غربي

(١) آدرار واحة من الصحراء الغربية شرق الرأس الأبيض على مسافة ٤٠٠ كيلو متر شمال السنغال أهلها بربر وعرب وأم قراها ، شفيط ، ووادان ، واتار ، عرفها الاوربيون منذ سنة ١٨٥٠ بواسطة ليوبولد بانه

(٢) أحد أمم السودان الفرنسي واقع بين غيبة الفرنسية والسودان المعروف بهذا الاسم والسنغال وغيبة البرهالها وهو بلاد جبلية لكن ارتفاع أعلى قممها عن سطح البحر لا يزيد على ١٣٠٠ متر . ومنها تنبع أسر النيجر والسنغال والغامبي والغامبية . ومناخها لا بأس به . ولها معادن ومن حاصلاتها الزيت والقطن والمطاط أي الكاوتشوك ، وأهلها سبعة الف نسمة من جنس الجالوتة والبلة والتريغولور ، وطهم مسلمون وأهراؤم يبال لهم الماء من جنس البلة . وعاصمة البلاد تيمبو وهي تحت حماية فرنسا ، يعرف عليها والغبية الفرنسية . عن معجم موريس فال Maurice Wahl مطبوع المعارف في المنتصمات الفرنسية

(٣) جبل من الزنج في غربي افريقية ينسب اليهم قبائل البامبارة والمالينكة والسوهنكة

(٤) محصرة انكليزية على ساحل غيبة يحداه غيبة الفرنسية شمالا والسودان الفرنسي من العمال الغربي والعمال زنجيرية ليريه من الجنوب ، والاقيانوس الاطلانتيكي من الغرب ، عدد سكانها ١٢٦ السادسة ، ويقاطعها من لكثرة مستعمراتها

افريقية من السنيغال الى بنين ، التي بقرب مصب النيجر . وهم ينشرون الاسلام بطريقة سلمية اى بالاستعمار والتجارة والتعليم ، وتجد التجار الذين من السونينكة والماندجوله المنقشرين على مدن النيجر وفي بلاد كارنا Kaarta وماسينه Macina ، كلهم من مريدي الطريقة القادرية ومن مريديهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم ويفتحون كتابتيم ليس في زوايا الطريقة فقط ، بل في كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الاسلامي أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا الى مدارس طرابلس والقبروان ، وجامع القرويين بفاس ، والجامع الأزهر بمصر فيخرجون من هناك طلبة مجازين اى أسانذة ، ويعودون الى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان .

الشاذلية

أما الطريقة الشاذلية فقد تأسست في النصف الأول من القرن الثالث عشر لليلاد ، وهي من أوليات الطرق التي أدخلت التصوف في المغرب ، ومركزها بوبريت في مراکش . وكان من أشباخها سيدي العربي الدرقاوي (المتوفى سنة ١٨٢٣) ، الذي أوجد عند مريديه حاسة دينية شديدة امتدت الى المغرب الأوسط ، وكان للدرقاوية دور فعال في مقاومة الفتح الفرنسي . وما امتاز به الدرقاوية هو شدة الطاعة لمشايخهم ، فان الدرقاوي المار الذكر كان يوصيهم ساعة موته قائلاً : « يجب على الاخوان أن يكونوا في يد المرشد كالجثة بين يدي الغاسل » . فاشبه هذه المبادئ حتى في صيغة التعبير نفسها بمبدأ رهبانية اغناطيوس دولوبولا .

التيجانية

وهناك الطريقة التيجانية ، مؤسسها أحمد بن محمد التيجاني المتوفى في فاس سنة ١٧٨٢ ، وكان يتظاهر بالتسامح مع غير المسلمين ، ومع هذا ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تقف التيجانية عن استعمال القوة في محاصمة أقرانهم ، ونشر العقيدة الاسلامية^(١) . وأهم مراكز التيجانية عين ماضي على ٧٠ كيلومتراً في الجنوب الشرقي

(١) اذا لحظ القارى ان تغير طور التسامح الذي كان عليه التيجانية لم يعم الا في النصف الثاني من القرن الماضي ، علم أنه لم يكن الا من أثر تكالب الآباء البيض جماعة لا فيجري وأمانم ، فما لامناحة فيه أن التسامح يولد التسامح والتكالب ينتج التكالب

من اللاغوات ، وفي نياسين . وهم كثيرون في مراکش ، ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أهالي ماسينه في السودان وأهالي فوتاتورو Fouta-Toro وفوتاجالون وامة البله وصاروا من أشد أنصار الاسلام وانضموا حول راية الحاج عمر ، فكانوا طيلة أربعين سنة هم سادة السودان من تمبكتو الى الاقيانوس الاطلانتيكي .

وكان الحاج عمر هذا ابن شيخ مرابط ولد سنة ١٧٩٧ في قرية الفار من بلاد ديمار^(١) فرباه أبوه وعلمه ، ثم حج البيت الحرام وزار المدينة ، وقرأ مدة في الأزهر وعاد الى بورنو سنة ١٨٣٣ ، ثم ذهب الى بلاد الهاوسه وأخذ يعظ الناس بالرجوع الى عقيدة السلف ويطعن في تساهل القادرية . وفي أثناء ذلك جاء أخوه أحمد ومضى به الى بلاد فوتا من السنغال ، فعرج على بلاد البامباره وحصلت معه هناك حوادث وعوارض كثيرة ، ولكنه تغلب عليها ، وانضم اليه في بلد كسكان^(٢) رجل يقال له محمد وسار على طريقته وادخل في الاسلام فرقة من البله يقال لهم الواسولونكة Guassoulonke .

ولما علت كلمة الحاج عمر ونظر اليه الناس نظرهم الى المهدي ، حشد جيشاً صغيراً وأثار جميع مسلمي بلاد غابون^(٣) وهزم البامباره الوثنيين شر هزيمة في تومبا ، واستولى بعدها على كونيا كاري^(٤) وسنة ١٨٥٤ جعل مقره العام في نيورو Niouro^(٥) ثم استولى على مملكة سيفو^(٦) وعلى بلاد ماسينه . وكانت وفاة الحاج عمر سنة ١٨٦٥ وهو في حرب مع زنوج ماسينه ، وقد خلف للطريقة التيجانية سلطنة اسلامية عظيمة في وسط بلاد الزنوج الفتيشيين .

(١) ناحية من قطر السنغال على الضفة اليسرى من النهر بين والو من الغرب وتورو من الشرق

(٢) مدينة من السودان الفرنسي جنوبي النيجر الأعلى أهلها خمسة آلاف نفس

(٣) ناحية من بلاد الكونفو الفرنسي أشهر مدنها ليرفيل وغلاس Libreville et Glass وبلاد أوللي Oulli وبلاد الريب Rip ، ووطد فيها دعائم الطريقة التيجانية . سنة ١٨٤٧ عاد الى نواحي فوتاجالون ، وبنى قلعة حصينة في ديقيراي Dinguiray ناحية من السودان الفرنسي شمالي النيجر أهلها من التوكولور والزنوج المالينكة

(٤) من بلاد غينية الفرنسية

(٥) من السودان الفرنسي شمالي السنغال الأعلى عاصمة احمدو الاولى أهلها من البله ، افتتحها الفرنسيين سنة ١٨٩٠

(٦) من السودان الفرنسي على الضفة اليمنى من متوسط النيجر قاعدة ملك احمد وافتتحها الفرنسيين سنة ١٨٩٠

ثم خلف الحاج عمر ابن أخيه ومريد آخر له اسمه اجندوشينخو بن عمر ، وحاولا توسيع فتوحات الحاج عمر ، وأنارا أهالي فونانورو والسونينسكه الذين في بلاد كاراته Kaarta والتوكولور الذين في السينغال على فرنسا (١) ، فصار وجود هذه السلطنة التيجانية في وسط السودان خطراً عظيماً على سيادتنا .

وكان تحرير الخلاف هو هذا : هل يتم تمدن السودان الغربي على يد فرنسا وضباطها والمبشرين المسيحيين ، أم على يد النيجانية ورسول الاسلام ؟

فالكولونل ارشينارد باخذه جنه Djenne (٢) وبتدجاوار (٣) أوقف غارة التيجانية في هذا القسم من افريقية ويسر فتح السودان بين يدي المدينة الاوربية . ثم عقب ذلك فتح الكولونل دورغنييس ديورد Dorguis-Desbordes لبلدبماكو Bamakou واستلحاق القومندان غالييني Galiéni لبلاد فوناجلون ، وافتتاح الكولونل ارشينارد لبلاد ماسينه ، وتوجت جميع هذه الفتوحات باحتلال تمبكتو (١٠ يناير ١٨٩٤) مما خلد أعظم الشرف للعساكر الفرنسية ، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارنل في يوانيه Poitiers ، سبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل افريقية ، فيما لولم يتم هذا الظفر (٤)

السوسية

ثم السوسية وهم أشد عداء للأوربيين من جميع طرق الدراويش ، وقاعدتهم لجهاد في الكفار وجمع كلمة المسلمين أجمعين على العدو العام ، وكان مع هذا ، مؤسس هذه الطريقة سيدي محمد بن علي السوسى مستقلاً في رأيه غير متقيد بالمذاهب . (٥)

(١) لايفنى أن كل قوم يحافظون على استقلالهم فهم ناثرون عصاة في نظر المستعمرين

(٢) بلدة من السودان الفرنسي الى الجنوب الغربي من تمبكتو عدد أهلها ستة آلاف نسمة احتلها

فرنيس سنة ١٨٩٣

(٣) من السودان الفرنسي في بلاد ماسينه لايبعد كثيراً عن ضفة النيجر اليميني

(٤) يشير الى أن افريقية كانت تكون كلها اسلامية لولا قضاء فرنسا على سلطنة التيجانية هذه ، كما ان اوربا كانت تكون اسلامية لولا انتصار شارل مارنل على العرب في يوانيه وهي الكلمة التي يتفق عليها مؤرخو الافرنج .

(٥) سأل محرر هذه السطور سيدي أحمد الصريف خليفة سيدي محمد بن علي السوسى ، وحفيده ، عن حقيقة هذه الرواية ، فأجابه ذلك ، وأما قال ان جده كان متبياً للسلف . وقد لحظت ان الأستاذ المشار اليه يقبض في الصلاة مثل الحنفية وغيرهم ولا يرسل يديه مثل المالكية فسأله عن سبب مخالفته في ذلك

ولد محمد بن علي السنوسي بقرب مستغانم (١) سنة ١٧٩١ ، وقرأ العلوم في فاس (٢) ثم حج السيد محمد السنوسي بيت مكة (١٨٢٩) وفي أثناء طريقه تلقى اجازات كثيرة ، ودخل في عدة طرق ، وعاد الى المغرب وقرأ في لاغوات . وسنة ١٨٣٩ عاد الى الشرق ، وأخذ يقرأ في الازهر ولكن أحد المشايخ راعه ما هو فيه من استقلال الفكر ، والنزوع الى الاجتهاد ، فافتى بمخالفته للشرع (٣)

وكذلك حصلت ريبة في أمره بمكة ، لميله الى بعض المبادئ الوهابية (٤) ، ولكنه وجد في اتفاق تام مع السيد أحمد بن ادريس الفاسي شيخ القادرية ، وعند وفاة هذا الاستاذ أسس طريقة جديدة وذهب الى افريقية ، وجال في برقة ، وبنى الزاوية البيضاء ، أول زاوية له (٥) . وكثر أتباعه في واحة الضرافرة ، وفي القطر الطرابلسي ،

لما الحكية مع أنه مالكي فأجاب ، أن جده كان يعترض على السادة المالكية في ذلك ، ويقول ان الذي ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو التبض ، وان الذين تقلوا اسباب اليبدين عن الامام مالك اخطأوا .
(١) بحجة يقال لها الواسطة

(٢) سيدي أحمد الصريف يقول ان ولادة جده كانت سنة ١٢٠٢ هجرية وفي الترجمة التي ألفها لجده ذكر ما تلقاه من العلوم وقرأ من الكتب ، وأسما من أخذ عنهم من الأشيخ ، وهو شيء هائل بالمره قل أن يوفق أحد لثله ، وما يندر بالذكر أنه أخذ عن السيد أحمد بن ادريس دفين صبيا في عمير ، والسيد أحمد بن ادريس المشهور بالولاية أخذ عن سيدي عبد الوهاب التازي العمر الذي عاش ١٣٠ سنة وأدرك الولي الكبير سيدي عبد العزيز الدباغ وأخذ عنه ؛ ويظهر أن أبناء البيت السنوسي كلهم متسبون الى العلم ، فان والد السيد محمد السنوسي وجده وأعمامه وأبناء أعمامه ، وكثيراً من نأثم مثل جدته لأبيه السيدة الزهراء وعنته السيدة فاطمة كانوا علماء ؛ وأكثرت رتبة السيد السنوسي كانت على يد السيدة فاطمة المشار اليها ، وكانت من فضليات أهل زمانها . متبحرة في العلوم ؛ مقطعة للتدريس والوعظ . يحضر دروسها ومواظبها الرجال . وقد اعتنت كثيراً هذه السيدة بترية ابن أخيها لما توسست فيه من باهر النجاية ، أما والده السيد علي فكان قد توفي شاباً في سن الخامسة والعشرين . وكان يجمع الى العلم والصلاح الفروسية والرماية الى الدرجة القصوى . لذلك تجدد السنوسية ينزع بهم عرق الى السيف كما ينزع بهم عرق الى القلم .

(٣) لعله يشير الى الشيخ عليش الذي بلفته أشياء لم يقف فيها على حقيقتها . فأصدر فتوى بحق الشيخ السنوسي ، وقيل انه لما فهم جلية الأمر رجح عنها .

(٤) هذا ما ينكره السنوسية

(٥) ان بعض ممري الجبل الأخضر يقولون، أنهم سمعوه يقول وهو بين البيضاء هذه ان الافرنج سيأتون يوماً الى هناك ، ويهدمون قبة الصحابي سيدي رافع رضي الله عنه ، ويربطون خيولهم في مسجد الزاوية البيضاء ، يأخذون حجراً من بستان البيضاء قديماً منحوتاً مكتوباً عليه ، عبارات لا تليق . وان هؤلاء

وفي التوات^(١) وفي السودان حيث له عشرون زاوية^(٢)، ثم سنة ١٨٥٥ أسس مركز طريفته في جغبوب وهي سوقا القديمة، على مسافة ثلاثة أيام من سيوه، وصارت أعظم مدرسة لمبشرى الاسلام في أواسط افريقية. وكان المؤدى الى بحيرة نشاد طريفان أحدهما، شرق من سوكنه الى مرزوق، والثاني غربي من غندامس والعاير، فالسنوسيه نشروا طريفتهم في وادي والباقيري وبوركو وتبعوا نهر بينوى الى أن بلغوا النيجر الادنى حيث نجدهم يهدون تلك القبائل الى الاسلام وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة نشاد هي مركز الاسلام العام في أواسط افريقية. ويقوم عدد مريدي الطريقة السنوسية باربعة ملايين، وطريقة هؤلاء الجماعة في التبشير، هي أن يشتروا الارقاء صغارا من السودان ويربوهم في جغبوب، وغندامس، وغيرها، ثم متى بلغوا أشدهم وأكثروا تحصل العلم أعتقوهم، وسرحوهم الى أطراف السودان، يهدون أبناء جلدتهم الباقين على الفتيشية، وهكذا يرحل كل سنة مئات من مبشرى السنوسية لبث دعاية الاسلام في جميع افريقية الداخلية من سواحل الصومالي شرقاً، الى سواحل السينغامبية غرباً، ولقد حدا سيدي محمد المهدي وأخوه سيدي محمد الشريف حذو والدهما في السعي الى الغرض الذي توخاه، الا وهو تخلص الاسلام من النفوذ الأجنبي، واعادة الامامة العامة كما كانت في عصر الخلفاء.

وبالاجال، فان مريدي هذه الطرق هم الذين سعوا في نشر الاسلام ووقفوا اليه في افريقية، قال كوپولاني Coppulani ان هؤلاء تارة بهيئة تجار وطورا بهيئة مبشرين، يهدون الى الاسلام الأقوام الفتيشيين، وتجدهم يبنون زوايا جديدة في هذه الاقطار الواسعة الشاسعة الممتدة من شمالي افريقية الى اقصى اقصى السودان، وأحيانا يؤسسون عمالك مثل سلطنة راج، واحمدو، وساموري. انتهى ملخصا

ثم انتقل المسيويونه موري الى ذكر تشكيلات الزوايا، والمدارس، والجموع، والجامعات، مثل الأزهر في مصر والقرويين في فاس، والزيتونة في تونس، وغيرها، وبرامج التعليم فيها. وقال «ان العلوم التي فيها تنقسم الى قسمين الاول، العلوم الاعنادية (مايسمونه بالآلات) كالنحو والصرف والبيان والمنطق والقراءة والعروض والحساب والخبر

المعربن الذين سعوا منه هذا السلام رأوا مصداقه كله في آخر حياتهم. لأن الطالبان جاءوا وهدموا قبعة سيدي رافع — وان كانوا جددوا بناءها بعد ذلك — وربطوا خيلهم في مسجد البيضاء، وأخذوا الحجر الذي عليه اللابتي من الجدار

(١) غربي الجزائر

(٢) مجموع زوايا السنوسية اليوم ثلاثمائة زاوية

والثاني ، العقائد وأدب الدين وأسباب التنزيل والحديث والفقه - (قال) : ويقرأون في بعض مدارس فاس ، الكيمياء والطب والهندسة والانشاء والتصوف والموسيقى (قال) : ولم أجد ذكر الفلك في العلوم التي يعلمونها هناك ولا في محل مع ان علم الفلك كانت به عناية عظيمة في المغرب . »

فلنا لعل هذا خطأ ممن أطلععه على برامج التعليم أو سهواً ، أو ان علم الفلك أهمل في هذه السنين الأخيرة ، فانه من العلوم التي كانت تعلم في فاس وغيرها من مدارس الاسلام بالاعتناء الزائد ، واليك مثالا على ذلك ماقرأته في سيرة سيدي محمد بن علي السنوسي نفسه ، وهي مخطوط الفقه حفيده سيدي أحمد الشريف ، يذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم في فاس فيقول : « ومنهم العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلاي الشريف العلوي قرأت عليه مختصر السعد ، وجع الجوامع ، والسلم ، وجلة صالحه من مختصر الشيخ خليل ، وهو يروي عن الحافظ ابن كيران ، والعلامة الزروالي ، وشيخهم العلامة ابن شقرون ، باسائدهم السابقة ، وغيرهم من أمثال علماء فاس . ومنهم العلامة المتقي الماهر المتقن أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زيان الادريسي ، حضرته في علوم كثيرة ، وقرأت عليه الفرائض والحساب ، والأربعين وصناعتها ، والأسطرلابين وصناعتها ، والعلوم الأربعة الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة والارتماطيقي ، وأصول قواعد الموسيقى ، والمساحة ، والتعديل ، والتقويم ، وعلم الأحكام والنسب (يكسر النون) والوقف والقواعد الجفرية ، والأصول الزايرجية ، والبسط والتكسير ، والجبر ، والمقابلة وغيرها الخ . »

فانت ترى أن الهيئة كانت تدرس في فاس في القرن الماضي وأخبرني السيد أحمد الشريف أن أستاذه سيدي أحمد الربيعي كان بارعها بهذه العلوم ، وبعلم الهيئة والاسطرلاب ، وكان تلقاها عن السيد العلامة ابن السنوسي ، وكانت عندهم الآلات المتعلقة بهذا العلم ، والكرات والازياج وغير ذلك .

ثم ذكر المسوي بونه موري برنامج الأزهر وأشار الى أن أول مصلح لتعليم الأزهر ، هو الشيخ المهدي العباسي وذكر ما أدخله فيه من الاصلاحات لعهد الخديوي اسماعيل ، وان المصلح الثاني ، هو الشيخ محمد عبده الذي ادخل في برنامج الأزهر الجغرافية ، والتاريخ ، والتاريخ الطبيعي ، والرياضيات ، والفلسفة ، وغير ذلك فنفض في الأزهر روحا جديدة . (قال) وقاومه بعض العلماء الجامدين وغيروا عليه قلب الخديوي ، فأثرت هذه الحوادث في صحته وتوفى في رمل الأسكندرية سنة ١٩٠٥ .

الزوايا السنوسية

لما كان قد تقدم ذكر الزوايا السنوسية في عدة مواضع وكان عندنا أسماء القسم

الأشهر منها آثارنا الحاق هنا الجدول بما تقدم من خبر هذه الطريقة وهي : —

- ١- زاوية التاج ، في واحة الكفرة ، مقر السادة السنوسية ، ذرية سيدي محمد بن السنوسي .
- ٢- » الجغبوب ، في واحة الجغبوب المقر الثاني للسادة المشار اليهم وفيها المدرسة الكبرى لتخريج تلاميذهم
- ٣- » طرابلس الغرب ، وشيخها سيدي عبد الوهاب العيساوي .
- ٤- » الرجبان ، في جبل يفرن من عمل طرابلس ، وشيخها سيدي محمد العيساوي .
- ٥- » مزده ، فوق قصبه غريان ، شيخها سيدي عبد الله السني .
- ٦- » طبقة ، بقرب زنتان ، اشياخها أولاد سيدي محمد الأزهرى .
- ٧- » الحراة ، بين نالوت وفساطو بالجبل الغربي .
- ٨- » سيناون فوق نالوت — زاوية درج فوق سيناون .
- ٩- » غدامس ، على حدود ايلة تونس ، شيخها سيدي أحمد الحبيب .
- ١٠- » مصراطه ، شيخها السنوسي بن عبد العال .
- زاوية ثانية ، في مصراطه ، شيخها عبد الله بن شنيشبع .
- ١١- » مسلاته — زاوية القطرون .
- ١٢- » مراده ، بين جغبوب وقران في الصحراء ، شيخها سيدي محمد الروبي .
- ١٣- » مرزوق ، قاعدة قران شيخها سيدي عبد اللطيف بن عبيد .
- ١٤- » هون ، في البلاد التي على أبواب السودان ، شيخها سيدي مصطفى الهوني .
- ١٥- » سوكنه ، في البلاد الواقعة بين طرابلس وقران ، شيخها سيدي الشريف حامد بن بركلت .
- ١٦- » واوفي جنوبي طرابلس نحو السودان ، شيخها سيدي محمد الأشهب .
- ١٧- » غات شيخها الحاج أحمد الغاتي — التوات جنوبي عمالة الجزائر .
- ١٨- » الهواري في واحة الكفرة على مسافة خمس ساعات شمالي مقر السادة ، وشيخ زاوية الهواري سيدي الفضيل السوسي .

- ٤٠٩ زاوية الجوف في نفس واحة الكفرة ، شيخها سيدي عبد الهادي الفضيل .
- ٤١٠ » تزربو عن زاوية التاج على مسيرة ستة أيام ، شيخها القطب الصالح السيد المدني من تلاميذ سيدي ابن السنوسي الكبير .
- ٤١١ » ريبانه على ثلاثة أيام من الكفرة ، شيخها سيدي حسين بزامة .
- ٤١٢ » الوجنفة الكبرى في أوائل السودان على خط دارفور على مسيرة ١٧ يوما الى الجنوب من الكفرة ، شيخها سيدي عبد ربه البرعصي .
- ٤١٣ » الوجنفة الصغرى ، شيخها سيدي عبد الرازق الفاخري .
- ٤١٤ » قرو عن الوجنفة الكبرى على مسيرة ثلاثة أيام الى الغرب ، شيخها الفاضل الأديب سيدي محمد بن عبد الله السني أحد دعاة الاسلام في أواسط افريقية . أصله من بلاد سنار في الحبشة عباسي النسب .
- ٤١٥ » البرقوات — زاوية زندر في السودان .
- ٤١٦ » برضى على أبواب السودان ، شيخها ابراهيم الغربي — زاوية كانو في بلاد النيجر .
- ٤١٧ » قانت بالقرب من غات ، شيخها السنوسي الفاتح الانصاري .
- ٤١٨ » عين كلك التي جرت الحرب عليها بين السنوسية والفرنسيس على مسيرة ستة أيام غربي قرو ، شيخها الفاضل سيدي عبد الله الفضيل الزوي . وعين كلك هذه فيها أنهار جارية ومن أخصب بقاع البسيطة .
- ٤١٩ » ون قبلي زاوية عين كلك على مسافة يوم ونصف يوم مائلة الى الشرق وهي على مسافة نحو ٢٠ يوما من مرزوق فزان ، وشيخ الزاوية هذه سيدي المهدي السني ولد سيدي محمد السني .
- ٤٢٠ » بني غازي شيخها الاستاذ العلامة سيدي أحمد العيسوي .
- ٤٢١ » أم شخب على مسيرة ٧ ساعات الى الجنوب من بني غازي كان شيخها الأديب سيدي محمد علي بن عبد المولى
- ٤٢٢ » الطيلمون على مسيرة ١٠ ساعات من بنغازي الى الغرب شيخها سيدي محمد علي المحجوب
- ٤٢٣ » مسوس قبلي الطيلمون وشيخ هذه الزاوية سيدي سنوسي الاشهب
- ٤٢٤ » اجداية غربي بنغازي شيخها سيدي عبد اللطيف الزوي .

- ٢٥- زاوية القطيفة على مسيرة ٤ أيام الى الغرب من بنغازى شيخها الزوالى بن عبد اللطيف .
- ٢٦- » النوفلية غربى القطيفة بمسافة ٦ أيام شيخها سيدى أحمد بن ادريس .
- ٢٧- » الزعفران غربى النوفلية على مسافة يوم ونصف يوم بجوار قصر سرت شيخها ابن شفيع
- ٢٨- » زليطن فى محل اسمه زوو شيخها سيدى محمد بن عثمان بن بركة .
- ٢٩- » زويله من فزان .
- ٤٠- » زله شرقى زاوية سوكنه شيخها سيدى الخريصى .
- ٤١- » أوجه شيخها سيدى عبد الله الفضيل .
- ٤٢- » جالو وتسمى زاوية العرق وشيخها سيدى عبد الله التوائى .
- ٤٣- » اللبة فى أوجه أيضا وشيخها الحاج محمد فر يطيس .
- ٤٤- » شحره فى بلاد جالو وأوجه شيخها سيدى محمد صالح .
- ٤٥- » سيوه وهى الزاوية الأولى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى يوسف بن عبد الله بن أحمد .
- ٤٦- » سيوه المنسوبة الى آل معرف شيخها سيدى محمد بن عبد الله الزوي رقيق سيدى أحمد الشريف الأستاذ الأكبر فى سياحته الى الاستانة والأناضول .
- ٤٧- » سيوه الثالثة تخص السادة رأسا والوكيل عليها أحمد الجبرى .
- ٤٨- » سيوه الرابعة شيخها الشيخ أحمد أبو غالى .
- ٤٩- » حطية الزيتون على مسافة ٦ ساعات الى الشرق من زاوية بنى معرف وهى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى الحسين الشريف .
- ٥٠- » القاره على مسافة ١٣ ساعة على الفارس الى الشرق من حطية الزيتون وهى تخص السادة رأسا والوكيل عليها صالح ولد سيدى يوسف .
- ٥١- » الفرافرة على مسافة ستة أيام الى الشرق شيخها سيدى السنوسى بن خالد .
- ٥٢- » القصر الى الشرق من الفرافرة فى الواحات شيخها ابن سيدى محمد الموهوب .
- ٥٣- » الواحات البحرية شيخها سيدى صالح السعدى .
- ٥٤- » الواحات البحرية الثانية شيخها سيدى المبروك القطعانى .
- ٥٥- » مندينة الى جهة همراء القيوم شيخها سيدى عبد المالك الموهوب .
- ٥٦- » القاصون فى الواحات أيضا . وكل هذه الزوايا فى سيوه والواحات فى عيون ونجبل وكروم

- ٥٧- زاوية الفيوم وشيخها سيدي عبد العال السنوسي .
- ٥٨ - » الزينية بالصعيد المصري فيها اولاد الولي الكبير سيدي أحمد بن ادريس .
- ٥٩ - » سيدي ابراهيم الرئيس الفاسي في الصعيد
- ٦٠ - » حوش ابن عيسى بجهة الاسكندرية شيخها سيدي محمد بن مالك
- ٦١ - » الريط عند العامرية في مديرية البحيرة شيخها سيدي مرتضى الغرياني
- ٦٢ - » بهيج وشيخها سيدي موسى العقاري
- ٦٣ - » سيدي يادم الايرش على مسافة ساعتين من بهيج
- ٦٤ - » سيدي عبد العاطي بن محيظة على مسيرة نصف يوم من زاوية سيدي يادم
- ٦٥ - » الضبعة ويقال لها زاوية شنية وشيخها سيدي عبد المنعم أبو شنية وهي على مسيرة يومين من زاوية سيدي عبد العاطي
- ٦٦ - » قريوة على مسافة يوم من شنية وشيخها سيدي عبد الرحيم الفاخري
- ٦٧ - » فوكه على مسافة ثلاث ساعات من قريوة شيخها سيدي عبد الرحيم التهامي
- ٦٨ - » محطة فوكه وشيخها سيدي موسى بن موسى .
- ٦٩ - » بقوش وشيخها سيدي هارون بن بدر القناشي وهي على ساعتين من فوكه
- ٧٠ - » سيدي علي بن مورد الوه الغرب من زاوية بقوش بساعتين
- ٧١ - » أم الرخم غربي مرسى مطروح وشيخها أبو القاسم الطيب
- ٧٢ - » نجيلة الى الغرب بيوم من أم الرخم وشيخها سيدي عبد القادر بن عمر
- ٧٣ - » شماس على ٣ ساعات من نجيلة الى الغرب وشيخها سيدي عمر الاوجلي
- ٧٤ - » عليم الجلول على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من زاوية شماس وشيخها سيدي محمد الشريف
- ٧٥ - » براني على مسافة يوم الى الغرب من هذه وشيخها سيدي الشريف بن ميلود
- ٧٦ - » سيدي عمران بن ابراهيم على مسافة يوم من زاوية براني ومن زاوية سيدي عمران ابن ابراهيم الى السلوم مسيرة يوم . وهذه الزوايا من الاسكندرية الى السلوم كلها في بلاد اولاد علي
- ٧٧ - » جبيل على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من السلوم شيخها سيدي محمد الشارف من اولاد عم السادة
- ٧٨ - » أم ركة في موقع دفنة على ٣ ساعات من زاوية جبيل وهي زاوية سيدي علي بن عبد الله

- ٨٥ - زاوية سيدي حنين الغرياني في دفنة أيضا على ثلاث ساعات من أم ركبته
- ٨٦ - » المرصص في غربي مرسى طبرق على مسافة يومين من التي قبلها وشيخها سيدي صالح الشريف
- ٨٤ - » أم الرزم أو أم ارزم (١) على مسيرة يومين من المرصص وشيخها سيدي مرتضى
فركاش وعندها عين نفاخة وبتان جليل
- ٨٥ - » سيدي محمد بن فارس على ساعتين من أم ارزم الى البحر
- ٨٦ - » مرطوبة على مسافة ساعتين الى الغرب من التي قبلها وشيخها سيدي عبد الله
فركاش وفيها عيون عذبة جارية من الجبل الذي فوقها وبتان
- ٨٧ - » درنة في نفس المدينة شيخها السنوسي الغرياني
- ٨٩ - » العزيات من درنة الى الجنوب على مسافة يوم شيخها سيدي السنوسي الجبالي
- ٩٠ - » الخجلة على مسافة يوم من العزيات شيخها محمد بن الحسين
- ٩١ - » بشاره على بضع ساعات الى الجنوب الغربي من درنة وشيخها سيدي عبد القادر
فركاش وعندها عين جارية وبتان
- ٩٢ - » ماره الى الشرق من بشاره وشيخها سيدي عبد الله أبو سيف وهي على رأس نبع
ماره من انزه وأعذب يتابع الدنيا وعليه البساتين والطواحين
- ٩٣ - » ترت الى الغرب من بشاره وشيخها كان سيدي محمد الفزالي . وكل هذه الزوايا في
بلاد قبيلة العبيدات الكبيرة
- ٩٤ - » نفا شرق ترت شيخها سيدي الحبيب بن جلول — زاوية العوينة بهانيك الجهات أيضا
- ٩٥ - » القائدية المنسوبة الى قبيلة فائد وشيخها سيدي صالح بن اسماعيل
- ٩٦ - » شحات أي مدينة سيرنا القديمة وهي بلدة عالية في رأس جبل مشرف على البحر
تنبع المياه من مغارة بأعلاه وتسقط في شلالات بديعة ولها منظر من أجمل مناظر
الدنيا وشيخ زاوية شحات سيدي محمد الدردفي . والزاوية هي زاوية قبيلة الحاسنة
- ٩٧ - » ماسه وهي الزاوية البيضاء التي كانت أول ما أسسه السنوسي الكبير تبعد عن شحات
نحو ساعتين الى الغرب وهي على بضع دقائق من مقام سيدي رويغ الاضاري
رضي الله عنه وشيخ الزاوية البيضاء الآن سيدي محمد الفهاري . والزاوية زاوية البراعنة
- ٩٨ - » الحمامة غربي الزاوية البيضاء على ساحل البحر وشيخها سيدي السنوسي الفهاري
- ٩٩ - » الحنية غربي الحمامة وشيخها سيدي أحمد بن العياوي
- ١٠٠ - » القصرين قبلي زاوية الحمامة وشيخها سيدي محمد العري

- ١٠١ زاوية العرقوب بترقي زاوية القصور وشيخها سيدي جاد الله الجبالي
- ١٠٢ القصور شرقي قصبة المرج وشيخها البطل المشهور القائد للمجاهدين في حرب الطليان
- ١٠٣ سيدي عمر المختار وهي زاوية قبيلتي العرفا والعبيد
- ١٠٤ اسقفه غربي دريانة وشيخها سيدي الأمين الغماري
- ١٠٥ دريانة غربي طلعيته وشيخها الشريف الغماري
- ١٠٦ المرج على أربع ساعات قبلي طلعيته وهي زاوية سيدي عمران الكوري
- ١٠٧ كرسا تبعد عن زاوية ماره السابقة الذكر بمسافة ساعتين صوب البحر وجانبتها
- ١٠٨ التراكي وشيخها سيدي يوسف العجال
- ١٠٩ الأترون على ٤٠ دقيقة من زاوية التراكي وشيخها سيدي الحبيب الجاول
- ١١٠ كفضطه على ساعتين ونصف ساعة الى الجنوب من زاوية الحتمية السابقة الذكر
- ١١١ وشيخها سيدي حميد بن عمور
- ١١٢ ميراد مسعود بحري زاوية القصرين وشيخها سيدي محمد بن حوا
- ١١٣ الحامدية غربي ميراد مسعود وشيخها سيدي عبد الله الكليلي
- ١١٤ عائلة دغار على مسافة نصف ساعة من الحامدية الى الغرب وشيخها سيدي محمد الغالي
- ١١٥ نيان شيخها سيدي العربي الغماري
- ١١٦ طلعيته على أربع ساعات بحري قصبة المرج وشيخها التواني الكليلي
- ١١٧ نوكره غربي طلعيته وشيخها سيدي عبد الله الجبالي
- ١١٨ برسس غربي نوكره وشيخها ابن سيدي عبد الله الجبالي . وأكثر هذه الزوايا في
- ١١٩ بلاد قبيلة المرسا
- ١٢٠ مستغانم في القطر الجزائري وشيخها سيدي أحمد بن تكوك
- ١٢١ سيدي محمد بن صادق في بلاد الجريد من مملكة تونس وفي تلك البلاد خمس زوايا
- ١٢٢ أخرى تحت نظارة الشيخ المذكور
- ١٢٣ جدة في الحجاز تحت نظارة شيخ زاوية أبي قيس بمكة
- ١٢٤ أبي قيس بمكة المشرقة شيخها سيدي حامد - زاوية الطائف وهي تحت نظر الشيخ المذكور
- ١٢٥ الجديدة في طريق المدينة - زاوية بدر الشهداء وشيخها سيدي محمد الغماري
- ١٢٦ المدينة المنورة وشيخها سيدي مصطفي الغماري - زاوية ينبع البحر
- ١٢٧ ينبع الوجه - زاوية الحمراء - زاوية الصفراء - زاوية رابع - زاوية صبح
- ١٢٨ العيص . وهذه كلها في الحجاز وجملة ما هو منقيد عندنا من هذه الزوايا ١٣٠ زاوية
- ١٢٩ ولا تزال زوايا كثيرة في المغرب والسودان والحبشة والصومال مجهولة عندنا .

جَاهِدُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ

تأليف لوثروب ستودارد الامريكى

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجمان نويهيض

وفيه فصولٌ وتعليقاتٌ وخواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الامير شكيب ابراهيم

المجلد الأول

الجزء الثاني

دار الفكر

الطبعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَبِّ يَسْرٍ وَأَعِينِ

حقوق الطبع محفوظة للترجم

الطبعة الرابعة

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٢ م

فَهْرِسْت

المجلد الثاني

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

- مسلمو الأندلس للامير شكيب من صفحة ١ — ٥٨
مصير الأنداسيين لسيدي محمد الطاهر عاشور من صفحة ٥٩ — ٦٣
طرابلس الغرب واطاليا للامير شكيب من صفحة ٦٤ — ١٢٨
أربعة كتب وارده للسيد احد السنوسى من ١٢٩ — ١٣٥
ما سبق في التاريخ من استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب من صفحة ١٣٦ — ١٣٧
عرب طرابلس بقلم عبد الستار الباسل بك من صفحة ١٣٨ — ١٣٩
السنوسية للامير شكيب من صفحة ١٤٠ — ١٦٥
الجزائر والأمير عبد القاد وفرنا للامير شكيب من صفحة ١٦٦ — ١٧٤
الجزائر وقبائل البربر للامير شكيب من صفحة ١٧٥ — ١٨٧
بلاد الطاغستان والشيخ شامل للامير شكيب من صفحة ١٨٨ — ١٩٣
المهدى المنتظر للامير شكيب من صفحة ١٩٤ — ١٩٦
أفغانستان للامير شكيب من ١٩٧ — ٢١٨
المسلمون في الصين للامير شكيب من صفحة ٢١٩ — ٢٨٥
رأى كورديه في حالة الاسلام في الصين والهند وجاوى والفلبين من صفحة ٢٥٨ — ٢٦٣
حديث لرئيس البعثة الصينية الأزهرية من صفحة ٢٦٤ — ٢٦٧
حديث عالم مسلم صينى من صفحة ٢٦٨ — ٢٧٠
الاسلام في الصين غابره وحاضره للاستاذ محمد مكيين الصينى من صفحة ٢٧١ — ٢٨١

- المسلمون في الصين حديث للوفد الصيني من صفحة ٢٨٢ — ٢٨٥
- مسلحو روسيا في عهد البلاشفة للامير شكيب من صفحة ٢٨٦ — ٢٨٨
- السيد جمال الدين الأفغاني للامير شكيب من صفحة ٢٨٩ — ٣٠٣
- الاسلام والجنود السوداء مقالة روجر لابون والتعليق عليها للامير شكيب
من صفحة ٣٠٤ — ٣٥٩
- لمحة على حالة الاسلام الحاضرة من صفحة ٣٠٥ — ٣١٤
- الاسلام الاسود من صفحة ٣١٤ — ٣٢١
- الاسلام عند السيفاليين من صفحة ٣٢١ — ٣٢٤
- اختلاصة من صفحة ٣٢٤ — ٣٢٦
- احاض الأباطيل والمقتربات للامير شكيب من صفحة ٣٢٦ — ٣٥٢
- الجنس الاسود والاسلامية للسيور بريفيه وتعليق الامير شكيب عليه
من صفحة ٣٥٢ — ٣٥٩
- الاسلام في افريقية للامير شكيب من صفحة ٣٦٠ — ٤٠١
- نهضة الاسلام في افريقيا واسبابها من صفحة ٣٩٢ — ٤٠١
- الطريقة القادرية صفحة ٣٩٥
- الطريقة الشاذلية والطريقة التيجانية ٣٩٦
- الطريقة السنوسية صفحة ٣٩٨
- الزوايا السنوسية من صفحة ٤٠٢ — ٤٠٧